حسين جمعان

هذا العدد

يحتفي هذا العدد الممتاز بأدب القصة القصيرة العربية، وذلك من خلال **199** قصة قصيرة لـ **99** كاتبة وكاتبا من 15 بلدا عربيا هي: مصر، العراق، سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن، اليمن، السعودية، الامارات، المغرب، تونس، الجزائر، السودان، سلطنة عمان، الكويت.

ساهم في جمع هذه القصص فريق من النقاد والكتاب الذين يتحلقون من حول مجلة "الجديد"، ولا يكتفون برفدها بنتاجاتهم الأدبية والنقدية، ولكن يمدونها، أيضا، بنصوص وكتابات لزميلات وزملاء لهم، فلهم الشكر، دائماً، على حماستهم الكبيرة لهذا المنبر العربي الجامع. إيمانهم بما يمكن أن تلعبه "الجديد" من دور محوري في حياة الثقافة العربية سيبقى، باستمرار، مصدر اعتزازنا بهم. وهو يحضنا على بذل جهود أكبر للإحاطة بما يستجد هنا وهناك من إبداعات وأفكار جديدة يجود بها حملة الاقلام العرب في مشرق عالمنا العربي ومغربه، وكذا في ديار الهجرة وأماكن اللجوء والمنافي التي لم تعد تحصى، ولا أهلها يحصون.

بهذا العدد الخاص تفتتح مجلة "الجديد" أولى أعدادها الممتازة التي من المنتظر أن تتوالى لتتضمن خلال سنتها الأولى عددا آخر سيخصص لأدب اليوميات والسيرة الذاتية ويتضمن يوميات، وافكاراً حول هذا الأدب. ونعتبر هذا الإعلان، هنا، دعوة للكاتبات والكتاب للمساهمة في هذا العدد، وإرسال كتاباتهم إلى "الجديد" خلال مدة أقصاها مطلع تموز/يوليو.

آثرنا في هذا العدد أن تقتصر صفحاته على نشر القصص، فلم نقدم لها نقدياً، ولا نحن سلطنا عليها ضوء النقد، تاركين هذه المهمة وهذا الجهد لعدد قادم يحتوي على ملف خاص يضم شهادات أدبية من كاتبات وكتاب، ودراسات وأبحاث حول هذا اللون الأدبي في اللغة العربية، فضلا عن نقود من جوانب متعددة للقصص المنشورة في هذا العدد ■

المحرر

الجديد
aljadeedmagazine.com

مـؤسسها وناشرها
Publisher
هيثم الزبيدي
Haitham El-Zobaidi

رئيس التحرير
Editor
نوري الجراح
Nouri Al-Jarrah

مستشار التحرير
Editorial Advisor
أزراج عمر
Azerradj Omar

شارك في التحرير
أحمد برقاوي، خلدون الشمعة
عبد الرحمن بسيسو، ابراهيم الجبين
أبوبكر العيادي، مفيد نجم

التصميم والتنفيذ
القسم الفني - مؤسسة "العرب" لندن

ساهم في جمع القصص
حنان عقيل، ابراهيم الجبين
زكي الصدير، عبد الله مكسور
عمار المأمون، مخلص الصغير
عواد علي، باسم فرات
خالد حماد، محمد ناصر المولهي

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن)
Kensington Centre
Hammersmith Road 66
London W14 8UD, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

فكر حر وإبداع جديد

ثقافية عربية جامعة

المحتويات

العدد 5 - يونيو/ حزيران 2015

غلاف العدد السابق مايو/آيار 2015

رسامو العدد

حسين جمعان (السودان)
صفوان داحول (سوريا)
نبيل عناني (فلسطين)
ابراهيم الصلحي (السودان)
كمال بلاطة (فلسطين)
عزة أبوربيعة (سوريا)
فادي يازجي (سوريا)
محمد عمر خليل (السودان)
فرج عبو (العراق)
مروان قصاب (سوريا)
تيسير بركات (فلسطين)
أمجد وردة (سوريا)
اسماعيل فتاح الترك (العراق)
فيصل لعيبي (العراق)
أنس سلامة (سوريا)
موفق قات (سوريا)
ياسر صافي (سوريا)
الطاهر بشرى (السودان)
فرح علي (سوريا)
صادق كويش (العراق)
سليمان منصور (فلسطين)
رندة مداح (سوريا)
كاظم حيدر (العراق)
فاتح المدرس (سوريا)
زينب السجيني (مصر)
خالد الرحال (العراق)
بشار العيسى (سوريا)
ليزا الترك (العراق)
صدر الدين أمين (كردستان العراق)
راشد دياب (السودان)
نهاد الترك (سوريا)
هبة حروب (سوريا)
سلافة حجازي (سوريا)
فائق حسن (العراق)
أنس سلامة (سوريا)
محمد عبد الرسول (السودان)
محمد عمر خليل (السودان)
أحمد عنان (البحرين)
فاطمة المحسن (السعودية)
لؤي كيالي (سوريا)
الفريد طرزي (لبنان)
سعدي الكعبي (العراق)
عبد الباسط الخاتم (السودان)
تغريد البقشي (السعودية)

العرب يكتبون القصص

10 البيت ذو المدخل الواطئ - ابراهيم صامويل
12 حمزة المحروق - ابتسام شاكوش
14 الرؤيا - ابراهيم الحجري
16 الدكتاتور - ابراهيم درغوثي
17 الحقيبة السوداء - أحمد اسماعيل اسماعيل
20 ضياع - أحمد اسماعيل زين
21 مرآة - أحمد الخميسي
22 اجتياز العتبة - أحمد خلف
24 البخار الآدمي - أحمد سعيد نجم
28 جثتي الجافة كقطعة خشب - إسلام أبوبكر
30 شفاعات - أسماء ابراهيم
32 ثلاث قصص - آمال الأحمد
33 جناح الأورام - أنيس الرافعي
36 زهور اللبلاب - إيمان سند
37 تأبين - تيسير النجار
38 الرأس المقطوعة المقطوعة - ثائر الزعزوع
40 قصتان - جمعة اللامي
42 مناوشات الربع الأخير - جمعة بوكليب

حسين جمعان ←

نبيل عناني

44 اللعبة - جمعة عمايرة

46 قصتان - حسن أبو دية

48 ما جرى في قرية أثاولاتس - حميد عبد القادر

50 ثلاث قصص - حنان بيروتي

51 تباين - خالد اليوسف

52 المتلازمة الأندلسية - خديجة النمر

54 العجز - راجي بطحيش

56 ثلاث قصص - رشا عباس

60 قصتان - رضوى فرغلي

62 موت بالأجل - رغد السهيل

64 أنا وحفيدي - رياض طبرة

66 الأمانة - زهير الشلبي

68 قصص قصيرة جداً - زياد خداش

72 قصتان - سارة النمس

76 السكين ذات المقبض الأسود - سامية العطعوط

77 فاطمة التي عاشت - سعاد خبية

80 الداخل - سعد القرش

83 قصتان - سعد هادي

88 ثلاث قصص - سماح التتيخ

90 6 قصص - سماح دبور

94 الولادة والعراء - سمارة حسنين

96 حب ووعد - سمية عزام

97 صواني فضية - سمر الفيل

98 العرافة - سهير شكري

100 8 قصص - شاكر نوري

108 الخالة اليابانية - شريف صالح

109 هدير الصمت - شريف عبد المجيد

110 المحترق - صابر رشدي

111 أعود إليّ - صالح باعامر

112 المنشورات توزع ليلاً - صبحي الدسوقي

113 انفصام - صبيحة شبر

114 ثلاث أقاصيص - صلاح زنكنة

116 لسان مرّ - طالب الرفاعي

117 احتفاء على تخوم الحشرجة - طاهر الزراعي

119 قصص من غرناطة - عاصم الباشا

123 يتسماغ - عبد الستار البيضاني

127 دوزنة في تشقوق الطين - عبد القادر حكيم

126 كأنها بوابة رواية - علي السوداني

130 الأثر - علي المجنوني

131 في الكهف - عمر علوي ناسنا

133 الرجل الحافي - عيسى جاد الكريم

134 وحياة قلبي وأتراحه - غادة العبسي

136 ثلاث قصص - غسان جباعي

140 الخروج من النفق - فاضل السباعي

142 خيبة أمل - فاطمة المزروعي

144 المصعد - فتحي الضمور

146 قصص - فهد الأسدي

154 لعنة الفراعنة - كوليت بهنا

حسين جمعان

156 أرق - لطيفة باقة

159 قصتان - لنا عبدالرحمن

162 خطوتان للفرج - لينا محمد

164 حب الحياة - ماهر منزلجي

167 جبل الحكمة - محسن يونس

169 المغزول - محمد ربيع الغامدي

170 ثلاثة أحلام من باصورا - محمد خضير

174 قصتان - محمد فطومي

178 مسمار القيلولة - محمود الرحبي

180 قوس من نعاس - محمود الريماوي

182 ثلاث حالات - محمود الوهب

183 ثلاث قصص قصيرة جداً - محمود شقير

184 في المنتصف - ممدوح عبد الستار

185 شقة مؤقتة - منتصر القفاش

187 ثلاث قصص - مزن مرشد

189 أحلام هرقل - مصطفى لغتيري

192 ثلاث قصص - مهند يونس

194 قصتان - موسى الثنيان

195 أرجوحة مكي - ميسلون هادي

197 رأس آخر - نائل العدوان

199 12 رسالة حب خليوية - نجم الدين سليمان

200 أربع قصص - نداء غانم

202 غبار المعركة - نهى الصراف

204 مدار الرؤيا - هشام البستاني

206 دم الأخوين - همدان دماج

207 صندل الصبي - هند جعفر

208 أربع قصص - هند جودات جودة

211 قصتان - هيثم حسين

214 ثورة - هيفاء بيطار

216 الراقصة البنغالية - وارد بدر السالم

219 قصتان - وافي بيرم

221 دومة - وجدي الأهدل

223 قصتان - وسام نبيل

225 5 قصص - يزيد عاشور

الأخيرة

240 القصة حكاية فيديو عقلي - هيثم الزبيدي

العرب يكتبون القصص

لطالما كان فن القصة بالنسبة إلى قراء العربية مدخلا مبكرا إلى الأدب الروائي. فجلّ قراء الرواية كانوا، في بدايات علاقتهم بالقراءة الأدبية، أشخاصا شغوفين بقراءة القصص القصيرة، كما هو الحال بالنسبة إليّ، فقد بدأت رحلتي مع هذا الجنس الأدبي الممتع من خلال القصص المترجمة والمنشورة في المجلات الأدبية أولا قبل أن أتحول، كغيري، إلى قراءة القصص المجاميع القصصية التي كانت تصدر في القاهرة وبيروت ودمشق.

كتابي القصصيون الأوائل كانوا غالبا هم أنفسهم كتاب جيلي والأجيال اللاحقة: انطون تشيخوف، غي دو موباسان، إدغار ألن بو، في الدرجة الأولى، وبعدهم سلسلة من الكتاب بينهم سومرست موم واميل زولا، وأناتول فرانس، وكافكا، ود. اتش لورنس، وكبلنغ، ولاحقا عدد أوسع من كتاب العالم غير الأوروبي، آخرهم وأحدثهم عزيز نيسين وساحر السرد الأميركي اللاتيني غابرييل غارسيا ماركيز.

لكن هذا لم يكن إلا المدخل المشوق إلى جنس أدبي سيكتبه العرب أيضا، وسرعان ما سيتبين لنا كم إن هذا الجنس الأدبي متحول ومحير في لغته وأخيلته وموضوعاته، وكذلك في قلق كتّابه، وصعوبة وصولهم إلى النجومية، خصوصا عندما نيمّم شطر العرب منهم.

***

كانت أولى القصص العربية التي قرأتها في أواخر الستينات هي "الأخوات الحزينات" لنجاتي صدقي الذي كان له الفضل، أيضا، في اطلاعي المبكر على قصص تشيخوف وغيره من كتاب القصة الروس، وكان قد ترجمهم في وقت أسبق أواسط الأربعينيات. وبعد قصص صدقي، قرأت لمحمود تيمور وكنت مولعا بما هو أبعد من القص والسرد. ولعي كان بالنثر بما هو فن، فأسرني جبران في "النبي" والرافعي في "أوراق الورد"، وأدهشني الأخير في وصف "المجنون".

بسرعة كبيرة، كان لابد للقارىء أن يصل إلى قصص الكتاب العرب من أمثال الرائد يوسف إدريس، ويحيى الطاهر عبد الله، وإدوار الخراط، وبدر الديب، وغسان كنفاني، وسعيد حورانية، وحسيب كيالي، فزكريا تامر. ثم ابراهيم أصلان، ومحمد خضير، وكوكبة لا تحصى من كتاب القصة القصيرة في مصر والعالم العربي.

وعلى رغم ما طال فن القصة القصيرة من تهميش غير متعمد، ولكن بسبب طفرة صعود الرواية في العالم العربي وهيمنتها في العالم، فإن فن القصة القصيرة في العالم العربي سرعان ما كرس أسماء أدبية، لمجرد أن أصحابها كتبوا القصص كغسان كنفاني. ثم سرعان ما راح النقد الأدبي يفرد اسمين ويبرزهما، واحد في مصر هو يوسف إدريس، والآخر في سوريا هو زكريا تامر.

بدهي القول إن لغة القصة القصيرة عند يوسف إدريس سوف لن تكون نفسها عند تامر، فالأول شقت لغته نفسها في أرض السرد القصصي القائم على التقاطات مدهشة للواقعية في كثافة تعبيرية تلبي مفهوم القصة القصيرة وتحافظ في الوقت نفسه على فكرة الحكاية بعيدا عن أي تطلب شعري. بينما حملت لغة الثاني مؤثرات أكبر جاءت عن طريق قراءته للقصص المترجمة ذات المنحى الشعري والكابوسي وأدب تيار الوعي.

***

ليس المقصود من هذه الكلمة الشروع في تقييم جمالي أو أدبي لقراءاتنا المبكرة أو المتأخرة في فن القصة القصيرة، ولا حتى للنصوص المنشورة في هذا العدد، فهذا لو حصل سيبدو ضربا من الهرطقة الأدبية، والتجاوز على القارىء وتوقعاته، وربما مصادرة على فكرة الاختيار نفسه.

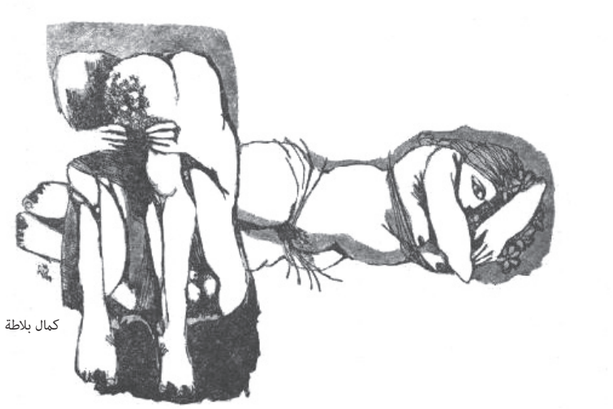

كمال بلاطة

ولابد من الإشارة هنا إلى أن تواصل "الجديد" مع كاتبات وكتاب هذه النصوص بهدف جمعها وتقديمها للقراء لم تحكمه ظروف مثالية، حتى لا نقول إنها غير طبيعية أبدا. وذلك لاعتبارات شتى تتعلق بقلق العيش في ظل الأحوال العاصفة، وفي قلب الانتفاضات والحروب واللجوء والتشرد عبر المنافي الذي عصف بالأفراد والجماعات. فلم تعد هذه الاحوال، كما اتضح في السنوات الخمس المنصرمة، محصورة بشعب، كما هو الحال بالنسبة إلى أهلنا الفلسطينيين، ولكنها عمت فشملت اللبنانيين والعراقيين والسوريين والليبيين واليمنيين وغيرهم، عصفت بمجتمعاتهم الثورات، وشهدوا القتل والمآسي الفردية والجماعية، وباتوا في خضم تجارب غير مسبوقة بالنسبة إليه.

ليست أحوال كهذه مثالية لكتابة الأدب، فالأدب لا يكتب في قلب العاصفة، ولكن بعيدا عنه وقد هدأت البراكين والعواصف، وصفت سماء الإنسان.

***

هل أكتب هذا لأعطي لهذا العدد، الذي قد يبدو للقراء مفاجئا، مبررات ما، كأن أطلب حكما نقدياً مخففاً على قصص هذا العدد، أم لأقول في نهاية الأمر أن إصدار عدد من القصص القصيرة في قلب العاصفة هو ضرب من المغامرة المفتوحة على شتى المخاطر، ولكن أيضا على مفاجآت سارة؟

لاجواب، عندي، هنا، فالقصص وقص القصص، هي الفكرة، والهدف أولا وأخيرا هو استكشاف ما إذا كان العرب مازالوا يكتبون القصص القصيرة بشغف يستدرج قراء مازالوا يحبون قراءة القصص.
إن ما يبهج حقاً في هذا العدد هو أن ما يقرب من ثلث عدد القصص المنشورة فيه كتبت باقلام كاتبات، وإن دل هذا على شيء فعلى عودة شهرزاد إلى تاليف القصص، ولكن بلغتها هذه المرة لا بلغة شهريار. ولعل بعض قصص الشهرزادات هنا تبز بلغتها الفنية أخواتها من القصص التي كتبها كتاب لهم باع طويل في إبداع القصص.

***

هنا في هذا المجموع القصصي، ولا أقول هذا "المختار" وفيه قصص لأسماء أدبية جديدة، جاورت قصصا لبعض أكابر كتاب هذا الجنس الأدبي في العالم العربي، نحن ربما لا "نقصّ عليك أحسن القصص". ولكننا نقصّ القصص كما أتيحت؛ قصصا تقليدية السرد، وأخرى تجريبية، قصصا تنهل من موضوعات الواقع، وأخرى من شطح الخيال، قصصا تظهر فيها شخصيات لها ملامح يعتني الكاتب بتظهير صور لها في حالات مألوفة، وقصصا يبنيها كاتبها من مجرد حالات أو تهيّؤات، أو خيالات غريبة، ولا يظهر فيها غير صوت غائم، أو صوت كاتبها. فالقصة القصيرة اجتازت مسافات بعيدا عن أصلها في الحكاية، لكنها عنيت مرات بما يجعلها تتأرجح بين سرد الحدث وقصّ الرؤيا، فهي لا تزال في أرض القصّ، وفي بعض حالاتها نجدها استدخلت في بنيتها الشعر، بلغته الكثيفة، ولازمنيته، وببرق ما يلمع فيه متجاوزا حدود الواقع إلى أفق مفتوح على كل ما لا يمكن توقعه، وحيث الكثافة القصوى عبر خيال جامح وخيط يصل لغة القصّ بالسحر واللغز، والغرابة؛ أي بالشعر■

نوري الجرّاح

لندن يونيو/حزيران 2015

البيت ذو المدخل الواطئ

ابراهيم صامويل

رغم وابل الشتائم واللعنات التي كان يدفعني الألم للتفنّن في تركيبها، وإطلاقها على نفسي، آملاً أن تتيقّظ من غفلتها في المرات التالية... إلا أنها لم ترتدع قطّ! كرّة أخرى كنت أسهو، أو يستغرقني شاغل، فلا أتنبّه إلاّ بعد أن يرتطم رأسي بالعارضة الحجرية الواطئة التي تعلو مدخل الدار القاطن فيها، ويكتوي بألم ناريٍ حارق!

صدمة خاطفة، كتيمة الصوت، في أعلى جبيني، ترجُّني، وتلفّني بالدوار، فأتّكئ من فوري على الجدار خوف السقوط، مدلّكاً رأسي، ومغالباً وجعي إلى أن تختفي النجوم التي شعَّتْ في عينيّ وتعود إليّ سكينتي.

وفي معظم المرات، كنت أتريَّث، بُعيد اللطمة، متراجعاً خطوات قليلة، لأتفحَّص المدخل وأتملّى فيه، باحثاً عن منجى، متفكّراً في حلٍّ ما، فتركبني الحيرة من أمره وأمري، إذ لا أنا بقادرٍ على تغيير بنائه، ولا بمتمكّن من التآلف مع انخفاضه، والتعوّد عليه، فلا أملك، من عجزي، إلاّ أن أشتم بانيه: «أي مسخٍ، خنزير، ذاك الذي بنى المدخل على هذا النحو الصالح لعبور الدواب!!» أو أسبّ نفسي، تشفّياً من غفلتي: «وأية دابة غبية أنت حتى لم تعتد إلى الآن على المدخل فتنحني وتخفض رأسك بما يكفي للعبور بسلامة؟!».

ولا يحدث ذلك على الدوام طبعاً.. بيد أنه، حين يقع، ينبش فيّ حالَ الدار التعيسة ومدخلها الغريب وضعفَ تنبّهي الذي لم أجد في سواه مخرجاً من ورطتي، فجعلتُ، بطرائق شتى وحيلٍ كثيرة، أوجِّه نفسي، أُدرّبها، وأسوسُها إلى أن طاعت واعتادت المحاذرةَ، فما بتُّ أرتطم إلا نادراً، نادراً جداً، حين يخطر لي، بُعيد خروجي بلحظة، غرض نسيته، فألتفتُ قافلاً.. أو يُقلقني التأخّر عن موعد، فأخرج متلهوجاً.

عدا ذلك، فقد سوّيتُ المشكلة تماماً، خصوصاً وانني أضفت، إلى تيقُّظي، حذرَ الكفيف، بأن شرعتُ قبيل المدخل، أرفع ذراعي، مقدّماً كفّي، حتى إذا ما لامستِ العارضة، طأطأتُ منحنياً، ودلفت بخفّة حملٍ، ورشاقة بهلوان.

ومع الأيام، امّحت تلك اللطخة البنّية المسودّة التي خلّفتها ارتطامات الماضي في مقدمة رأسي، وغمرتني غبطة لا حدّ لبهجتها من حال تكيّفي مع المدخل، وتحوّطي الفطين له، لكأنما ولدت وترعرت تحته، فطربت لخلاصي وانتشيت، وإنْ عكّرني خاطر داهم عمّا إذا كان حالي الجديد هو جراء شتائمي وتعنيفي لنفسي.. أم انه الخوف يفرّخ في المرء رعباً جسيماً، يحوط به نفسَه، فتراها تطوع وتتكيّف بأكثر من اللازم؟!

أياً كان.. فسكناي الطويل الذي عوّدني، لم يفعل ذلك مع زوّاري وأصدقائي بالطبع! إذ غالباً ما كانوا يرتطمون، ويبدؤون زياراتهم باحتجاجات صريحة على مسكني البائس، غير المعقول، مطالبين بأن أجد حلاً ما، فلا أجد غير الاعتذار منهم، ومراضاتهم، ورواية ظروفي على نحو جديد، مثير، علّهم ينشغلون بالتفاصيل، وينسون رضوض رؤوسهم!!

لم يفتني، حتماً، تغليف العارضة بقطعة اسفنج سميكة، ألصقتها على امتدادها، بيد أن شدّ الأيادي عليها أوهنها، ثم هزّأها وهلهلها، فما كنت أفطن لترميمها أو استبدالها، إلاّ بعد لومٍ عتوب أتدارى عن صاحبه بالمسارعة إلى تغييرها بأخرى جديدة!

حين قيّضت لي الظروف أن أنتقل من داري القديمة، إلى مسكن جديد، غدوت مضحكة أمام نفسي!

فرغم ارتفاع الباب ارتفاعاً طبيعياً، انتبهت إلى أنني ما زلت أنحني وأخفض رأسي، عند الدخول والخروج، في حركة محاذرة بدت لي، هنا، خرقاء تماماً! بل وكثيراً ما حدث -في الليل خاصة- أن رفعت ذراعي، مقدّماً كفي، لتلمُّسِ العارضة.. فكانت تهوي في الفراغ الشامت!

«العمى!!» قلت لنفسي «أما انتهينا؟!» وقد راحت تتلامح ظلال معاناتي الطويلة. ثم دأبت، من جديد، لا على التفطُّن إلى ضرورة المحاذرة، بل على كنسها وإزالة آثارها مني، فما تمكّنتُ إلا بعد أن فضحتني بين أصدقائي ومعارفي، أيام كنت أزورهم، وأتعثر بمداراتي، على نحوٍ ظاهر، فيغرقون بالضحك مني والتندّر عليّ، معاودين الحاحهم: «انسَ يا رجل! انسَ!» فتفترش تفاصيلُ الماضي ذاكرتي، وقد تخلّفت على وجهي ابتسامة صفراء، باهتة، من الأسى!

وبكثير من العزم، والتحوّط، إلى توالي الزمن، استطعتُ محو عادتي تلك. ذبلتْ، وضمرت، إلى أن تلاشت. نسيها الجميع، بل وكدت أنساها، أنا نفسي، لولا أن بوغتُّ بأن بلائي ما زال فيّ، لم يغادرني قطّ، وإنما غار، كالمياه، في أعماقي، وتغلغل في شعابها القصيَّة!

وما عثرتُ، بعد ذلك، على سبيل للتخلّص أو النجاء من لعنتي المقيمة. فلقد توارى حذري عن عيون الآخرين، وعن عينيّ أيضاً، فلم يعد أحدٌ يلمحه أو يُلمح إليه... بيد انني أشعر به دفيناً، متلظّياً، يتلفني تحفّزه، إذ ما وصلتُ منزلاً، أو اقتربت من مدخل، إلاّ وبغتني نداء قصيّ.. فأجفلني! وما هممت بالخروج مرة، إلاّ وانبثقتْ حركتي المحاذرةُ تلك، شاقّةً عتم ذاكرتي، كحوت، فأرعبتني! لبرهة يحدث ذلك، أو لنثرة من برهة... لكنني، وأنا أزجرها كي لا تظهر، أغصُّ بأنفاسي وأرتعد، إذ يتراءى لي ذلك البيت ذو المدخل الواطئ الذي قطنتُ فيه مرحلة من حياتي، فأحاق بي، وسكنني، متلبّساً إياي كمسٍّ، لا براء منه، ولا خلاص!

كاتب من سوريا مقيم في عمان

حسين جمعان

حمزة المحروق

ابتسام شاكوش

ما كانت يداه محروقتين، لا، ولا كان وجهه أسود، ولا كان جسده ملطخا بالكدمات الزرق، حين خرج حمزة من داره تاركا باسم ورباب يلعبان بين صفحات كتاب القراءة، الذي تركه في بيته وخرج مع أمّه نازحا مشردا لا يعرف، ولا تعرف، إلى أين، يدفعه الرعب للتمسك بذيل ثوبها في دروب وعرة، هاربين من براميل الموت المتساقطة على المدن والقرى، من طائرات الجيش الباسل، ولا دار في ذهنه أو أذهان المشرّدين أمثاله، أن هذا الجيش سمّي بالباسل، ليكون بضباطه وأفراده، بآلياته الثقيلة والخفيفة، ملكا لشاب يحمل هذا الاسم، بعدما ملك أبوه البشر والحجر والأرض والفضاء، قضى الشاب في حادث سيارة، وظل الجيش يحمل اسمه ولاء لأبيه وأخيه من بعده، وتراثا متوارثا لأفراد عائلته.

القصف الهمجي وصل إلى الحيّ الذي يقطنه حمزة، منازل تهدّمت، أسر بكاملها دفنت تحت الركام، رجال ونساء وأطفال شوهتهم الشظايا، ونجوا من الموت ليكملوا حياتهم مشوهين معاقين، أخذته جدته ونزلت به إلى القبو، أيام طويلة أمضياها هناك بين الظلمة والرعب والبرد، إلى أن قرر من تبقّى في الحيّ النزوح.

أمضى الليل بطوله باكيا، تأخذه الغفوة فيصمت، إلا من شهقات تطلقها رئتاه المتعبتان بين نفس وآخر، يفاجئه صوت الانفجارات في المنام فيصحو مذعورا هلعا، يلوذ بأمه، يبحث عن الأمان في قسمات وجهها الجميل، في عينيها المكحولتين، في جدائل شعرها التي تلامس صدره، حين تنحني فوقه تقبله وتمنحه الطمأنينة، الآن يفتح عينيه، يحدّق في الوجه الباهت أمامه، يحدق في الرأس الأصلع، ثم يغمض عينيه هاربا من الوجه الكالح ويستمر في ندائه: أريد أمي..

الصوت المتعب المبحوح صوت أمّه، اللمسة الحنون لمستها، لكنها ليست هي، لا بد أن أمّه قد عادت من السفر لتبحث عنه، لا بد أنها حزينة لفراقه كحزنه لفراقها، تحتار المرأة في سبيل إسكاته فتجلس قرب رأسه تشاركه البكاء.

قالوا له منذ أشهر أن أمّه مريضة، وأنها ستعود من السفر أكثر صحة وعافية، لكنهم يكذبون، ما كان يراها إلا راضية باسمة، سافرت، وتركته وحيدا مع جدته، لماذا سافرت؟ لماذا لم تصحبه معها؟ كانت جدته تحاول تسليته بالحكايات، تقدم له الفواكه المجففة والحلوى، حمزة لا يريد شيئا سوى أمه، تأخذه جدته إلى بيوت الجيران ليلعب مع أولادهم، فيجلس في ركن قصي يراقبهم عن بعد، حزينا مقهورا.

أيقظته الجدة في الصباح الباكر تبشّره بعودة أمّه، ضحك وفرح وراح يقفز على السرير ذي النوابض، وحين سمع طرق الباب ركض بكل قوته ليرتمي في حضنها، بادر أبوه وخاله، فمدا ذراعيهما سورا يمنعه من الاقتراب، محذرين من لمسه لجرحها، فتراجع.. أهي مجروحة؟ من جرحها؟ ما بالها تمشي بصعوبة مستندة إلى ذراعي أبيه وخاله؟ أما قالوا له أنها ستعود أكثر عافية منها حين ذهبت؟ كلهم كذبوا عليه، أمه لا تكذب أبدا، تمددت على سريرها بادية الإرهاق، فدنا منها أمسك يدها وتوقف يراقب أنفاسها المتعبة بصمت، كان الجميع يتحدث عن تفاصيل الرحلة والعمل الجراحي، وعن وصايا الأطباء، متناسين وجود طفل قضى أيّامه الماضيات، تتمزق روحه غربة وضياعا، يعاف الطعام والشراب، والرفاق، ولا يكاد يسكت حتى يعاود البكاء من جديد.

مرت عدة أيام، الأمّ لا تغادر سريرها، والطفل واقف قربها ممسك بيدها، تحاول التخفيف عنه، تحاول تسليته، يناولها كأس الماء، يناولها الدواء، تبتسم له فيشعر بعودة الحياة، يفرح ويضحك، ثم تأتي هجمات الألم إلى جسد الأم، فيقف على هامش المشهد، صامتا متخشبا وقد أسقط في يده.

مرة أخرى لا بد من السفر لاستكمال العلاج، أوصته أمه بطاعة جدته، وعدم إزعاجها ببكائه، وبمتابعة دروسه، وعدته بهدايا كثيرة وألعاب، وبأنها ستعود صحيحة قوية كما كانت، وغادرت المنزل مثلما جاءت، بين ذراعي زوجها وأخيها، مودعة بدموع صامتة من طفلها، وعادت بعد أيام أكثر إنهاكا، وقد زاد على بؤسها سقوط شعرها بكامله، وتغير ملامح وجهها اذ غادرته الرموش والحواجب، بكى حمزة كثيرا حين رآها، صارخا أريد أمي، هذه الصلعاء ليست أمي، هذه المشغولة بالأنين، المبعدة إياه عن حضنها خشية اصطدامه بجرحها ليست أمّه، يريد أمّه الجميلة الحنون، المهتمة دائما بكل شؤونه.

الجدة أصابتها شظية بينما كانت في باحة الدار تحاول إحضار ماء للشرب، الشظية طارت بجزء من رأسها وشوهت معالم وجهها، حملها الرجال حين هدأ القصف إلى المقبرة القريبة، تاركين في مكانها بقعة كبيرة من الدماء، وسيقت الأم مع طفلها في موكب النزوح لتستقر في مخيم اللاجئين.

كان حمزة يسألها طوال الليل عن دوائها، فتجيب بأنها نسيته هناك في بيتها، وأنها لا تملك نقودا تشتري بها الدواء، ولا أحد هنا يمكنه مساعدتها بشيء، سوى وجبات من الطعام المطبوخ، تأتي في مواعيد ثابتة، تورّع على كل الخيام، ولا تناسب في نوعيتها ومكوناتها امرأة مريضة، جرحها لم يندمل بعد.

فكر حمزة، هو الآن رجلها الوحيد، لا بدّ له من عمل شيء ليحصل منه على دواء يسكّن آلامها، وأنينها الذي لم ينطفئ طوال الليل، تركها في غفوة الصباح وخرج يتمشّى بين الخيام، باحثا في عقله عن وسيلة، الفجر يغمر المخيم بأنوار زرقاء باهتة، السكان نيام، إلا من صلى في المسجد وعاد إلى خيمته مسرعا اتقاء البرد، المكان خال مقفر يثير الرعب، تعثّرت قدمه بسلك مرمي على الدرب فسقط مكبّا على وجهه، على الأرض المحصبة، تلفت حوله، ثم نهض لينفض التراب عن ثيابه وراحتيه، جاءته فكرة، بعض أولاد الحارة كانوا يجمعون أسلاك الكهرباء المهملة، يخلصونها من أغلفتها ويبيعون نحاسها

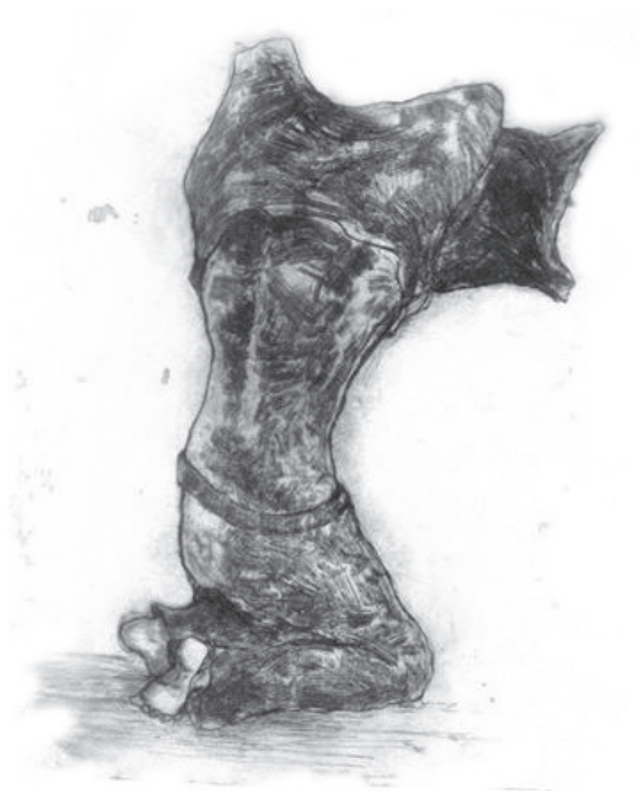

عزة أبو ربعية

بقروش يشترون بها قطع الحلوى وبعض الألعاب، لا لزوم للحلوى هنا ولا للألعاب، ابتسم للفكرة، ها هو ذا قد وجد مصدرا للمال، ربما يستطيع به تسكين آلام أمّه، عاد إلى السلك، طواه في يده وراح يبحث عن سواه، فرحا مسرورا.

مشى ثم مشى، برد الصباح يرجف أوصاله، والحصى المدببة تثقب حذاءه وتجرح قدميه، لا بأس، فالهدف كبير، والأمل يدفعه للمزيد من السعي، سلك ثخين بدا له من البعيد، يعادل حجم ذراعه، يبتسم له بأسنان نحاسية لامعة، ركض إليه، وانكبّ فوقه فرحا بالغنيمة.

ما كان ذلك الكبل غنيمة كما تمنى، بل كان الموت ينتظره في التيار الكهربائي الكامن، لمسه، فقذف بجسده في الهواء، ثم سقط على الأرض محروق الأطراف مفارقا الحياة.

عند الضحى تجمع الرجال حول الجثة، وجاءت سيارة الإسعاف، بل جاءت سيارتان في وقت واحد، توجهت إحداهما إلى حيث ترقد جثة الطفل، والأخرى إلى حيث ترقد جثة أمه، التي سلمت الروح إلى بارئها إثر نوبة من الألم، لم تفجع بابنها، ولم يفجع بها، بل التقت روحاهما في فضاء المخيم، لتكملا الرحلة إلى حيث تستقر أرواح الآلاف من أمثالهما عند رب غفور رحيم.

من بين الخيام خرجت جنازتان، وجاءت إدارة المخيم، استلمت الخيمة بمحتوياتها، لتسلّمها لأسرة جديدة نازحة، وما زالت القذائف وبراميل الموت ترفد المقابر والمخيمات، بأرقام تتجدد في كل ساعة.

كاتبة من سوريا مقيمة في مصر

دعوة مفتوحة

الجديد

تدعو

حملة الأقلام العرب

إلى المشاركة

في نشر نتاجاتهم الإبداعية

والفكرية

والمساهمة

في نقد المنشور على صفحاتها

لاستئناف

الحوار والجدل والسجال

في الحياة الثقافية العربية

فكر حر وإبداع جديد

الرُّؤْيَـا

إلى روح أخي مصطفى الذي شاركني هذا الحلم قبل الرحيل

إبراهيم الحجري

كنا، معا، نسير بخطى وئيدة، أنا ومصطفى، في مسلك ترابي ضيق يشق الحقول الخضراء مثل ثعبان قديم، وكان الجو صحوا والنهار نضارا.

لست أذكر ما الذي دَعَانَا إلى التجول بهضبة "كدية البندير" في هذا الربيع المبكر. غير أنني أتذكر طعم رائحة الزهور وهي توزع الهدايا على المارة بالمجان. وأتذكر نسمة طبخ خبز الشعير التي كانت تتسلل إلى أنفينا. وأذكر تناغم أصوات الطيور مع صراخ الصغار الفرحين بعرس الطبيعة؛ وكذا صفير الرعاة وأصوات الحيوانات وهي تشق الآفاق. كنا، في هذا المهرجان الطبيعي، نعبر تاريخا من الأحاسيس المتداخلة، منذ الطفولة الأولى، حيث ترتع العين، من حين إلى حين آخر، بزاوية من ذكرى قديمة تَهُبّ على المخيلة مثل ريح الصّبا فتحْيي شريطا شيقا من التجارب؛ حلقة متسلسلة من الصور والمشاهد المبعثرة عبر تفاصيل المفكرة: هنا كنا نلعب "هيرى"... هنا كنا نرعى الغنم... هنا كنا نشوي الكبال... هنا كنا نتسلق شجر التين ونسرق الفاكهة؛ بعد أن نشغل الكلب العساس: هنا كنا نكمن لبنات "السكويلة"؛ وهن يعدن في المساء لنشْتَمّ رائحة العطر.. هنا كنا ندخن مع الطويهر والهوس، أولى لفافات الكيف! وهنا، أيضا، ذقنا طعم الخطيئة المبجلة: أولى كؤوس الشود سولاي... من هنا تبدأ الحكاية... إلى هذه الحدود؛ كان الأمر عاديا. وكان هدوء النهار الربيعي الرائع المجلل بتفاصيل الذكرى تحرك في الحواس شعورا غريبا... غير أن الذي جرى، بعد ذلك، كان كابوسا حقيقيا، عاصفة هوجاء، كان جحيما من الهلع والانمحاء.

قال مصطفى وهو يشير إلى جهة الجنوب الشرقي:

- انظر، هناك تتشكل غيوم سوداء بشكل سريع، هل تتوقع أن تكون ممطرة؟

- لا أعتقد؛ استمعنا البارحة للنشرة الجوية، تكهنت بأن الطقس سيكون معتدلاً، وستكون السماء صافية تدعو عُشّاق الطبيعة إلى التنزه والتنعم بجمال فصل الربيع؛ أنسيت؟ قلتُ.

- لمْ أنْسَ. ولكنك تعرفُ أنه ليس من الغريب أن تمطر سماء الربيع، أظن أننا في منزلة "بطن الحوت، الماء أو الموت"، ألا تذكر؟

- بلى، أذكر، لكن أعماقي تترنح وتخبرني بأحاسيس غامضة. لأول مرة؛ أحس رعبا حقيقيا: أنظر إلى تفجر الغيم الفاحم من الجنوب وصعوده السريع نحو الآفاق العليا، أنظر كيف يدور حول نفسه قبل أن يشتبك من جديد مع نفسه. وانظر الأهواء غير العادية التي بدأت تطوق أنفاسنا:

- اسمح لي لم أعهد مطرا بهذا الشكل مُنْذُ مجيئي إلى هذا العالم!

- أجدك جادّا في خوفك! لم أعهدْكَ ضعيفا إلى هذا الحَدّ! أَنْتَ تَرْتَعِشُ، هل أَلَمَّتْ بك نوبة حمّى! تعال، لنسترح قليلا ونتحدث.

شَدَّنِي مصطفى، من يدي؛ ظانا أنني، فعلا، مَحْمُومٌ. وحاول أن يساعدني كي أقتعد حجرا مسطحا ريثما أتماسك وتزول الحُمّى، غير أنه ما إن تحسّس نبضي وعالجه بجسه الحدسي اليقظ حتى تملكه، هو الآخر، إحساس رهيب. وأصابته، مثلي، عدوى الرُّعاش. وقد تأكدتُ لَهُ هذه الأحاسيس؛ حينما قلبَ ناظريه في صفحات الكون، يتهجى سر هذا القلق الذي ساوره ثم قال لي في يقين:

- انظر إلى السماء! ما الذي دَهَاهَا، لقدِ انْقَسَمتْ إلى قِسمين، نِصفٌ أسودُ حَالِكٌ، ونصف آخر مضيء، تنيره شمس كاملة، ما رأينا، قط في حياتنا، لحظة يتعايش فيها الليل والنهار؛ ويتوازيان!

- ألمْ أقُلْ لكَ إن هناك أمراً عظيماً وسيِّئا يَحْدُثُ في هذا الكون؟

كان وجه السماء شاحبا حزينا مثل من وصلته للتو أخبار سيئة. وكان النصف الآخر من الكون مظلما لا يشق عتمته سوى نور ضئيل يصدر عن أنجم حيرى. هدوء قاتل ورهيب يسود الأمكنة ويشد بناصية العالم. تنهيدات وزفرات تصدر عن حناجر جافة بفعل الرعب. تابعنا المسير بعينين مطفأتين تحت سماء تتصرف، الآن، بشكل غير معتاد. حاولنا أن نسرع كي نصل، فتَنَبَّهَنَا أنْ لا فائدة، من ذلك، ما دامت وتيرة الرُّعبِ سَتَظَلُّ تتصاعد. ومع أن بيتنا لم يكن بعيدا، فقد كنا نحس أن شيئا ما يشدنا إلى الخلف؛ فتتسع المسافة وتصير أكبر مما عهدنا... فكرنا أن نسير مهما يكن من أمر. قال مصطفى:

- لن نهرب من القدر، وعلى كل حال فأن نكون في العراء أضمن للسلامة من أن نكون تحت السقوف.

قلت، وقد استبد بنا الفزع أكثر، وخيل إلينا أننا نرى البهائم تركض في كل اتجاه مثيرة النقع، وأن الناس يصرخون نساء ورجالاً، يوَلْوِلُون ويندبون، تنقل صرخاتهم ونواحهم ريح خفية صوب اللامنتهى، لا رجع للصدى ولا مجيب. هناك ما هو أهم، يُصنع في الغيب، ربما، لا تأجيل لإبّانه. تَعْوي الكلاب وتترنح في مرابطها، وتهب، من كل الأقاصي، جلبة مفعمة بمشاعر الضيم والضعف... توقفت عقارب الساعة... "هو ذا الفناء بعينه" وقال مصطفى بصوت شبه باك:

- أنظر، الناس سكارى وما هم بسُكارى، حيارى يشربون أقداح المرارة والندم، يتمنى كل واحد منهم لو يتخلص من كل ما علق به من أدران الرذائل.

- أنت أحمق وهل، إذا حلّت الساعة وأزفت الآزفة، سوف ينفعهم الندم؟ لا أنا ولا أنت، ولا أحد واثق من أن سيرته توصله إلى برِّ النجاة. الكل مرتاب. ولا آمن إلا من أمنت نفسه واطمأنت إلى سرائرها العميقة، أنت تفقد عقلك رُبّما!

فجأة؛ اهْتزَّت الأرض وارْتجّت من تحتنا، وقعْقعَتْ رعدة صاعقة

تفصيل من تخطيط لفادي يازجي

تَفَتَّتَتْ معها دواخلنا وانشطر الكون فحسبنا أنه صار رمادا أحمرَ، إذ تفتحت وردة السماء وجفلت الأنفاس حتى كادت تنفلت. وخيّل إلينا أننا تحولنا إلى العالم الآخر. استحال النهار ليلا، وانطفأت الشمس فإذا هي لوح دائري أبيض مثل الرخام في ليل تهاوت كواكبه، وحينما تطلعنا إلى السماء؛ اصطدمنا بمنظر شلّ ما تبقى من قوانا؛ فانبطحنا أرضا؛ نحاول تحاشي مشهد انتحار النجوم بشكل جماعي. تتوهج النجمة. تشتعل. تكبر. تنطلق مسرعة في الفضاء. تنهار. تتضاءل. تصير رمادا. تتفتت تاركة فراغا مهولا ونقطة سوداء. تمزقت أنفاسنا. وكنا نسمع أصواتا تئن: الله أكبر، لا إله إلا الله، احنا في عارك آرسول الله، اللهم صلِّ عليك يا رسول الله... تتلاشى هذه الأصوات في كون شاسع تتصدَّع، تتفتت مثلما يحدث، تماما، للنجوم، لكننا، كنا ما نزال أحياءً. نتنفس ونرى ونحس أيضا. ومازلنا قادرين على الحركة. جربنا أن ننهض؛ لكن الهلع تمكن منا فَشَلَّ قوانا. تحرَّكنا نمشي على أربع كما يفعل الأطفال. نحبو متجهين نحو المنزل غير البعيد. كنا نلمح الأم العجوز؛ وهي تتمزق من الخوف. كانت تذرع مراح الدار الواطئة؛ جيئة وذهابا؛ وتصرخ مولولة بكلام لم نتبين كنهَهُ. الدواب تركض في كل اتجاه؛ وكأن الأرض لا تسعها، وأسراب من الطيور الغريبة تتراقص ببياضها، في المدى البعيد، وتقوم بشطحات دائرية بطيئة، وحدها تجلل العتمة.

الواقع أننا كنا نتخيل الذي يحدث فقط ولم نكن قادرين إلا على رؤية أنفاسنا وهي تتمزق... ومع ذلك؛ كنا نحبو صوب الدار المتواضعة نحمل ما تبقى منا. سبقتنا "أسماء" الأخت الكبرى تشكونا رعبها:

- أخي، أنظر إلى الهاتف؛ كل الهواتف معطلة، ما الذي ينتظرنا، هل تفهم شيئا؟

تبكي. تخبط جنبيها. تدخل. تخرج. تنظر إلى السماء، إلى الأرض، إلى نفسها. العين بصيرة واليد قصيرة. نتكئ معا على الجدار، الجدار يتحرك، هو الآخر يحس بالذي يجري ويضطرب مثلنا. في شاشة هاتفي النقال رسالة قصيرة: "service indisponible" وقيل إن شاشات أجهزة التلفاز معطلة ومسعورة. النجوم تتلاشى تحلّق بعيدا، تسبقنا إلى العالم لتختفي بحتفها في هدوء؛ بعيدا عن هذا العالم السفليّ. كل واحد؛ رحل، في ذاته، يحاسب سيرتها ويعذبها بالندم، كل كائن، الآن، نادم بالفطرة، كل كائن يعيش على إيقاع تناغم أحاسيس الخوف والرجاء والترقب، لحظة تمتزج فيها كل المشاعر وتتصارع. لحظة تختزل الحيوات السالفة برمتها.

تصاعدت وتيرة الرعب. ووصلت الأنفاس إلى الحناجر واحتبست الأصوات واحتقنت الوجوه... لكن ما كان لها أن تبدّل في الأمر شيئا. كان عليها أن تنتظر حلول أمر يُسْكِتها إلى الأبد. وخيّل إلينا، في لحظة، أن الناس يتبادلون التعازي. ومرة مرة، يرفعون رؤوسهم إلى السماء ليراقبوا اجتلاب الكواكب والأنجم.

كنت ملتصقا بالتراب والجدار؛ محدقا في الذي يجري بعقل مكسوف ومشاعر باردة، لم يعد، هناك، شيء ذا أهمية. ساعتها سرى هدوء حذر في الكون؛ فبدأت الطمأنينة تعود إلى القلوب، وكأنني بدأت أسمع همسا خافتا:

- مجرد عاصفة كسوف؛ إنها عاصفة عابرة؛

وخرجت الأم الملهوفة، وقد فتر خوفها قليلا؛ وإن كانت ما تزال ترتعد، لتتأكد من عدم وقوع الفناء. قالت:

- ماغاديش نفناو آوليدي؟

اكتشفتُ كم أنَّ الإنسان ضعيف في هذا الكون، وتافه إلى أبعد حدٍّ. ارتدت الأنفاس إلى الأجساد المنهارة، وبدأت تلملم انكساراتها، وتضمّد الجراح وتحلم بغد جميل ومشرق، غير أنه ما إن كادت الصدور تطمئن والقلوب تهدأ؛ حتى باغتتها العاصفة من جديد. فبينما كان الناس ينتظرون بفائق العطش بزوغ نور الشمس من مكانها المعتاد، إذا بها تشق طريقا مغاير، وتطلع من حيث غربت. ظُنَّ، في البداية، أن الأشعة الصادرة، من هناك، هي مجرد شفق الغروب، خاصة وأنّ الشمس انطفأت وهي في منتصف الطريق. لكن الدم كان يبرد في شراييننا، ونحن نراقب قرصها يخرج من مرقده في الغرب ويتسلق السماء؛ بحثا عن سبيل جديد لعبوره. كانت الدهشة صاعقة وصادمة.

وجدتُني أنتحب، لمّا أيقظني صوت المؤذن؛ وهو ينادي للصلاة الأولى. جسدي بارد بعرق قديم؛ أنفاسي متهدجة؛ ورأسي منتفخ ثقيل مثل كيس ذرة... أسمع وقع خطى مكدودة بالنعاس تعبر الشارع المجاور لنافذتي؛ قاصدة المسجد القريب.

كاتب من المغرب

الدكتاتور
وقصص أخرى قصيرة جدا

إبراهيم درغوثي

شهرنار

كانت تضع الجمرات على لسانها الملكي، فتطشّ طشيش النار في المقلى.

وكان يراقب المأدبة من على سريره الملكي بعينين من زجاج.

مصادرة

وشوش له مسرور السياف في أذنه:

-أراك مهموما سيدي الخليفة، السيف والنطع في خدمتك !

فرد عليه وهو يزفر:

- خزائن الدولة خاوية على عروشها يا مسرور.

فلمع السيف في ظلمة الليل البهيم قبل أن يخرج فحيح العبد:

- نصادر أملاك البرامكة يا سيدي وندّعي أنهم يعدون لانقلاب على شرع الله!

الحارس الجديد

أوصاه رئيس فريق العمال في حديقة الحيوانات الوطنية وهو يعطيه مفاتيح أقفاص الأسود والنمور والفيلة والقردة والتماسيح والثعالب والذئاب وبنات آوى:

- انتبه لنفسك هي حيوانات شرسة قد تؤذيك، ضع على وجهك قناعا كلما فتحت قفصا من أقفاصها.

فذهب الرجل يفتح الأقفاص، لكنه كان يرتبك ويتراجع إلى الوراء خطوات كلما نظر داخل القفص.

كان للحيوانات وجوه آدمية تنتهي بأذيال غريبة لم ير لها مثيلا على مخلوقات رب السماوات والأرض.

الجنتلمان

رأته واقفا، مرفوع الهامة، على ناصية الشارع يمد يده للناس ويطلب صدقة.

سألت صاحبي: من يكون هذا المتسول؟

فرد مستغربا: ألم تعرفه؟

ثم أضاف: هو يحيى البرمكي يا صاحبي

تخطيط لـ حسين جمعان

كبش العيد

اقترب الكبش الأقرن من سكين الجزار ثابت الجنان ولسان حاله يقول: لقد شاهدت مكاني في مراعي الجنة.

فردت عليه السكين هازئة:

أما أنا فقد رأيت مكانك على نار جهنم أيها المسكين.

الثورة

سأل الطفل أباه اللاهث وراء أخبار التلفاز:

- ما هي الثورة يا أبي؟

فرد عليه منفعلا دون أن يلتفت لصوته الصغير:

- هي أخت الثور يا ولدي!

سنمّار

انتهى من تركيب الباب السري للخزانة السرية في القصر الرئاسي الجديد وذهب لينام.

في الصباح، كان دم قد تخثر فوق شاربيه الكثيّن وعلى وجهه ابتسامة تسخر من سنمّار القديم.

طبيب الصحة العمومية

سأل المريض هاشا باشا عما به بحبر القلم، ودس في يده بطاقة عيادته الخاصة.

جيفة

حطّت على أرنبة أنفه فنشّها بيده متأفّفا. طارت ثم عادت تحطّ على الجسد المبتلّ بالعرق، فعاد إلى النّش وعادت الذّبابة إلى الجسد وهي تتحسّر:

- لم أر في حياتي جثة تتحرّك بهذا الشّكل المربك.

مدينة النّحاس

طلب السلطان من مسرور السّياف أن يخنق ديك الصباح، فأطبق الصمت على مدينة النّحاس.

الدكتاتور

عاد الدكتاتور من المنفى، فصفّق له جمهور دولته الديمقراطية جدا.

كاتب من تونس

الحقيبة السوداء

أحمد اسماعيل اسماعيل

تفصيل من تخطيط لنادي يازجي

كان ، ومنذ زمن بعيد، قد حشرها هناك، في ذلك المكان القصيّ من القبو، البعيد عن العين، واليد، وتحت مجموعة من مجلات وكتب قديمة: حقيبة يد سوداء اللون، متوسطة الحجم.

كان كلّ يوم، تقريباً، يهرع إلى القبو، ويهبط إليه، وهناك، وفي زاوية معتمة منه، يسرع إلى دسّ يده تحت المجلات ليتحسس ملمسها ويقيس حجمها، وأحياناً، وحين يخلو البيت من ساكنيه: زوجه وأمه وابنته، كان يتفقد محتوياتها كمفتش جمركي، وما إن يطمئن إلى وجود كل شيء في مكانه، حتى يسارع إلى مغادرة القبو.

كم من مرة شاهدته زوجه وهو يهبط إلى القبو، ويفتح بابه العتيق بحرص شديد، يغيب لحظات في عتمة ذلك المكان، وسط فوضى الأشياء والأغراض المرمية فيه، ثم سرعان ما يخرج منه وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب.

ذات مرة قادها فضول غير بريء لأن تلحق به، فسارت على رؤوس أصابعها بخفة ورشاقة قطة، وقد أخذت هواجس كثيرة تموء في داخلها، وبدأ خيالها يبدع صوراً ومشاهد شتى، منسوجة من خيوط هواجس امرأة، وما إن وجدته داخل القبو الذي اقتحمته، قابعاً في مكانه، وسط تلك العتمة، منكباً على شيء ما، حتى اجتاحها شعور ثقيل، لا يخلو من رهبة، استولى عليها فجأة وهي تشاهد شحوباً غريباً، لم يسبق لها أن رأته يوماً، يظلل وجه زوجها، انعقد لسانها للحظات وهي تتأمل هذا الوجه الشاحب وتلك العينين الممتلئتين دهشة وحرجاً، حتى جاءها صوتاً غريباً خرج من جوفه، قال:

- ياراا! ماذا تريدين؟

هرولت في داخلها قطعان من الأسئلة والهواجس، وتدحرجت كقنفذ استشعر الخطر في كل أوردتها، لم تجب، بل، وبالكاد، كتمت صرخة في فمها الذي أصابه الجفاف وهي تتخيل زوجها عفريتاً أو جنياً، واكتفت بأن تتابعه وهو ينهض من مكانه بعد أن دفع أشياء كانت مبعثرة أمامه إلى مكان ما، ويقبض بيد باردة على يدها، ويقودها خارج القبو حيث فناء الدار، والفسحة السماوية، فتنفست الصعداء، واسترقت نظرة إلى وجهه الذي كان شديد الشحوب وقد بدأ يستعيد رونقه، قالت له بصوت مشوب بالريبة:

- لقد أخفتني.

ضحك وهو يرد:

- جبانة.

وكي لا تسترسل في طرح الأسئلة، وتوقعه في حيرة، قال يصطنع الممازحة:

- لا تدخلوا بيوتاً قبل أن تستأذنوا.

ثم أردف:

- سأجلب لك كأس ماء.

وتوجه إلى المطبخ، وسرعان ما عاد بكأس ماء وابتسامة عريضة تتدلى من شفتيه، تحولت إلى سرور حقيقي حين قالت له بعد أن شربت الماء:

- لن أهبط إلى هذا القبو في حياتي قط.

فأطلق صيحة رعب مصطنعة في وجهها ثم قهقه بصوت عال.

كانت الشمس أيضاً، في عليائها، تضحك وهي تبعثر غيوم شباط المتكاثفة وترسل أولى خيوطها الواهنة لتسقط في فناء الدار الصغيرة، وترسم دوائر وزوايا على جدرانه وباحته، وتزين ثوب زوجه الجالسة بالقرب منه، تحت الدالية الصغيرة الناهضة وسط الدار، بأشعتها النحاسية. كان يسترق النظرات إليها وهو بالكاد يخفي ما أصابه من توتر، ثم راح يتخيل ما سيحدث له لو أن أمر حقيبته السوداء انكشف، حينها ماذا سيفعل، وبماذا سيجيب عن سيول

الأسئلة التي ستتدفق من فم زوجه وربما من أفواه أهلها، لا شك أنها ستكون أكثر خبثاً وإلحاحاً من تلك التي كان يوجهها له المحقق في السجن.

«السجن..

ذلك المكان الذي غاب في داخله سنة كاملة، منذ بداية الثورة، وذلك حين اعتقلوه وهو عائد من مظاهرة ضخمة، كان يهتف فيها بأعلى صوته منددا بالفساد والقمع، وكانت هي تسير على الرصيف، مع المتظاهرين المتدافعين وسط الشارع موجة كبيرة، تنظر إليه بعيون ملؤها الإعجاب والفخر، مضى عام كامل في زنزانته الانفرادية، وحيداً، منعزلاً، إلاّ من طيفها الجميل، الذي كان خير أنيس له، ومعين، فلم يحس بالوحشة واليأس إلا حين خرج من السجن وعلم بأمر مغادرتها البلد.. بل وبزواجها من رجل في المهجر، كما تناهى إليه من مصدر مقرب.

كانت الوحشة قد بدأت تتحول إلى أنشوطه تضيق حول عنقه وروحه، وإلى كابوس، وذلك رغم زواجه السريع بناء على إلحاح أمه، وبدافع روح الانتقام من تلك الحبيبة، كنوع من رد الفعل على ما أقدمت عليه حين غادرت البلد ولم تنتظر خروجه من السجن. كل شيء كان قد تبدل خلال فترة تواجده في السجن، إذ لم تعد أمه العجوز ودوداً كسابق عهدها منذ أن فقدت رفيق دربها في حادثة دهس دورية أمن له عند ملاحقتها فتية خرجوا من المظاهرة، فعده بعضهم شهيداً، أكبر شهيد مات على يد أمن النظام، ورفعوا صوره في أكثر من مظاهرة، ورفاقه، رفاق المظاهرات ورفاق الدراسة، غادر كثير منهم البلد مذ بدأ لون الثورة الوردي يميل نحو الحمرة، وأما هذه المرأة التي تجلس قبالته الآن، زوجه أمام الله والناس فقط، لم تستطع طوال زواجهما أن تلمس الجزء العميق منه، وظلت، ومنذ اليوم الأول من دخولها بيته، ملتزمة بالخطوط الحديدية الممدودة بين المطبخ وغرفة النوم، لا تحيد عنها قط...».

مرور العاصفة

مرّ ذلك اليوم ثقيلاً كخطو عجوز، لينتهي كل شيء بسلام كمن استيقظ من كابوس، ومنذئذ أصبح دخوله إلى هناك لا يحتاج إلى ما كان يلتزم به عادة من حيطة وحذر، وبات أكثر اطمئناناً على الحقيبة ومحتوياتها، وخاصة من جانب زوجه، التي كانت وقتئذ تنظر إليه وهي تصارع رغبة قوية في البوح عما عرفته مؤخراً عن تلك الفتاة التي كان على علاقة غرامية بها منذ سنوات، قبل أن يقترن بها، ولكنها لم تشأ فعل ذلك بعد أن علمت بأمر مغادرة الفتاة وأهلها المدينة، مثل كثير من الأُسر، إثر انقلاب العصيّ في يد العسكر إلى بنادق، وتحول هتافات الشباب الهائج في شوارع المدينة إلى صياح ووعيد، ليشق كل ذلك قميص السماء وعنانها.

لم يعد يكرّر التسلل إلى القبو كما كان يفعل في الأيام الماضية، وخاصة بعد أن لاحظ فضول زوجه الذي راح يزداد، فأخذ يتحين فرصة مغادرتها الدار، لأمر ما، زيارة أو تسوق، بل كثيراً ما أصبح، وعلى غير عادته، يشجعها على فعل ذلك، بحجة الترفيه عن طفلتهما الصغيرة، أو الترويح عن أمه العجوز، لينطلق بخفة إلى القبو، يحكم إغلاق بابه، خشية دخول والدته أو زوجه بشكل مفاجئ وهو يطالع محتويات الحقيبة.

ذات مرة، وكانت الدار خالية تماماً من ساكنيها: زوجه وطفلته الصغيرة، وكذلك أمه العجوز، التي قلما تغادر البيت بعد أن غادرها زوجها، هرع بخفة قط إلى القبو، وقد حمل معه منفضة وعلبة دخان، وبسرعة ولهفة استل الحقيبة من مكانها، وأفرغ محتوياتها أمامه كمن يفرغ سلاسل وقلائد نفيسة.

كان الوقت منتصف نهار يوم ربيعي دافئ، وشمس آذار الذهبية تسدل أشعتها على الأرض كصبية تسرح شعرها الأشقر الطويل، كانت حزمة ضوء صغيرة قد تسللت عبر نافذة القبو المطلة على الشارع، تكفي لرؤية كلمات ما في الحقيبة من رسائل، وفي تلوين وتشكيل دخان سجائره الذي راح يتكاثف في جو القبو، لم يرَ أيّ شيء من ذلك كلّه، حتى محتويات القبو من أغراض ومتاع قديم، لم يشاهدها أو يلتفت نحوها، رغم تكاثرها في الآونة الأخيرة، كانت عيناه لا تريان سوى محتويات الحقيبة، من ساعة يد، ومسبحة، وإطار صورة صغيرة، وقلم.. ورسائل، والتي أخذت تلتهم كل كلمة فيها، وكأنه يقرأها للمرة الأولى، وليس لمرات ومرات لا يمكن إحصاؤها.

كانت الرسائل مكتوبة على أوراق مختلفة الأشكال والأحجام، ورق أبيض، وورق دفاتر مدرسية، وقصاصات صغيرة..

فض واحدة منها وهو يعبُّ نفساً عميقاً من سيجارته وشرع يقرأ:

«حبيبي، هل تعلم ماذا فعلت بي ليلة أمس، حين تحادثنا عبر الهاتف، كدت سأصرخ وأنا تحت اللحاف، بجانب فراش أمي النائمة، يا إلهي كيف يمكن لأسلاك معدنية أن تنقل كل هذه المشاعر، وهذه الحرارة؛ ظننت أنني أصبت بصاعقة كهربائية، أو إن شئت الدقة: عاطفية...».

داخله إحساس سار لا يخلو من غرور، أغمض عينيه للحظة وهو يكمل ما جاء في الرسالة.. ولكن، وكما لو أصابته صاعقة مفاجأة، هبّ واقفاً وهرع نحو الباب يصيخ السمع إلى الخارج، كان الصمت مطبقاً في الدار، خلا زقزقة العصافير التي حطت على أغصان الدالية، ومواء متقطع وواهن لقطّة تقف تحت تلك الأغصان، وصخب أطفال الجيران وهم يلعبون بالكرة، كعادتهم في هذا الوقت من اليوم، وصوت جارتهم أم بيان وهي تنادي ابنها بصوت ممطوط وكسول.. كعادتها هي الأخرى في عصر كل يوم، وقبل أن يقفل عائداً إلى الداخل، التقت نظراته بنظرات القطة التي أطلقت مواء كسولا ثم ابتعدت عن الدالية وقفزت على السلم وصعدت إلى سطح الدار.

عاد إلى حيث كان يجلس، وبحث عن الرسالة التي كانت بيده بانفعال راح يزداد حتى وجدها في جيب بنطاله، كان قد دسَّها فيه لحظة نهوضه، لم يلق على الرسالة سوى نظرة سريعة، أغمض عينيه وهو يبتسم بوجه مشرق، وقفزت إلى مخيلته تفاصيل تلك المحادثة، جاءه صوتها هامسا ومحذرا:

-اسمع، أنا تحت اللحاف، بالقرب من فراش أمي النائمة، خرجت للتو من الحمام، لن أحدثك، خشية استيقاظ أمي، تكلم أنت وسأسمعك.

احتار فيما سيقوله، صمت للحظات فجاءه صوتها يحثه على الكلام، فسألها عن حالها، وأنتظر للحظات كي تجيب، كرّر السؤال فردت بحنق: «قلت لك، تكلم، تكلم أنت» ومرة أخرى تبلدت أحاسيسه وحار في أمر ما سيقوله، فراح يحدثها بصوت هامس عن شوقه إليها، وعن وجهها الذي يظهر له أنّى ذهب، ومرة أخرى همست بضيق: «ما قصتك يا رجل، لماذا تتحدث بهمس، هل أنت خائف أيها المناضل؟ أم أن الأمر اختلط عليك فظننت أنك أنت تحت اللحاف، لا أنا؟!».

أحس بالخجل وضحك من حماقته، ولكن، وكي يداري ذلك، رد:

محمد عمر خليل

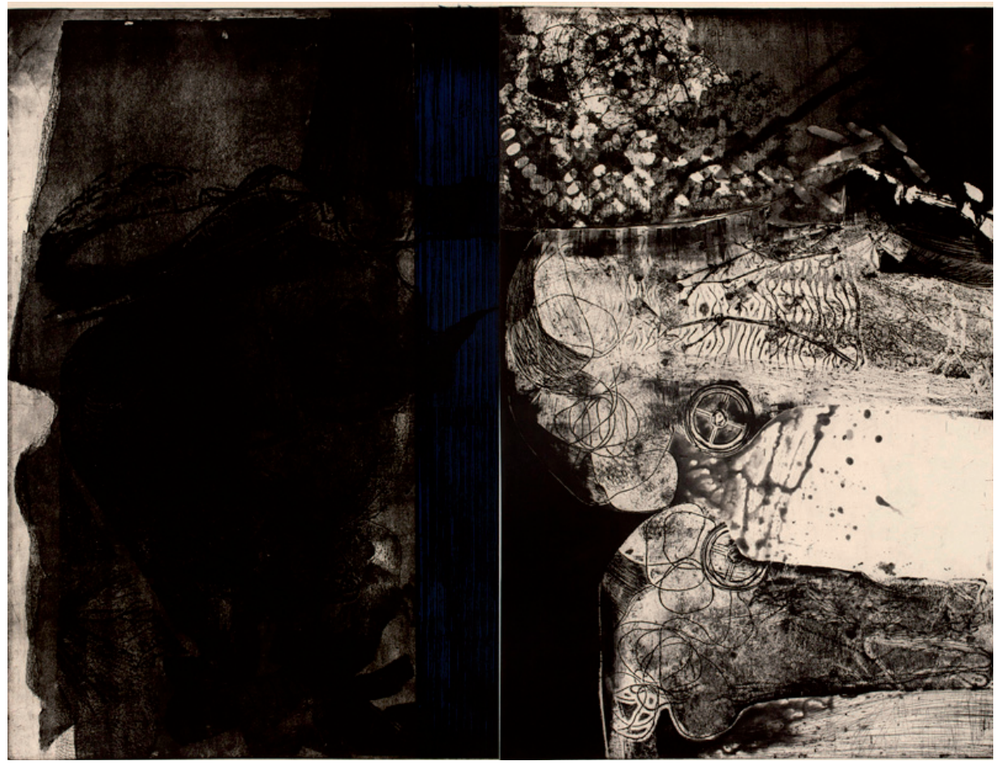

- يا ليت، كم أتمنى أن أكون الآن معك تحت اللحاف.

ثم صمت، وصمتت هي وقتاً طال بالنسبة إليه، وفجأة صفعه رنين إقفال الطرف الآخر للهاتف.

لم ينم تلك الليلة خشية أن يكون قد أساء إليها، مضى يومان وهو على تلك الحال من القلق حتى وجدها ذات صباح أمام دكان أبي سعيد السمان، ابتسمت له بخجل، ونظرة شوق تشع من عينيها، انطلقت صوبه بعد أن ابتاعت سطل لبن، وحين حاذته همست: «كيف حالك؟» ثم غادرت المكان وتركته في مكانه طائرا تائها في سماء ماطرة.

أشعل سيجارة أخرى، عبّ منها أنفاساً متلاحقة، ثم أطلق ما في جوفه من دخان راح يتماوج في جو القبو، ويختلط مع حزمة أشعة الشمس وحبيبات الغبار الدائرة في فلكها، فضَّ رسالة أخرى، أزهر وجهه بابتسامة حلوة، قرأ بهمس راح يعلو:

«حبيبي، لم أرك منذ قرن، أين كنت أيها الشقي، لا تسخر مني، أسبوع واحد لا أراك فيه هو زمن أطول من قرن، كانت عيناي تلتهمان كل مكان اعتادت أن تراك فيه: أمام باب داركم، الشارع، دكان أبي سعيد.. أين كنت؟ هيا اعترف، هل كنت تتسكع في السوق وتسترق النظرات إلى سيقان الفتيات هناك، حذار يا عمر. سأقتل الفتاة التي تلامس نظراتك وجهها، وقد أقتلك إن ضبطتك في موقف كهذا».

ضحك من غيرتها، ودغدغه شعور بالرضا ملأه بالنشوة والغرور، وزاغت نظراته في ذكرى بعيدة، كانا في خلوة قصيرة قرب مدرسة الحي، كان الوقت نهاية النهار، وكان الطلاب قد انصرفوا للتو من المدرسة، حينها قال لها: بمناسبة وجودنا قرب المدرسة سأسألك:

- ما هو الشيء الذي يتكرر منذ فجر التاريخ ولما يملّ منه البشر؟

فأجابت وعيناه تشع بنظرة حلوة:

- الحب.

التفت حوله بسرعة وخطف منها قبلة وهمس بصوت لاهث:

- أحسنت.

تلوّن وجهها بحمرة قانية، وأحسّت برعدة تجتاحها، وسرعان ما جمعت قواها وهرولت بعيداً عنه كغزال تحرر من شرك صياد، بقي في مكانه زمناً لا يعرف مقداره، ثم قفل هو الآخر عائداً إلى البيت كجندي منتصر.

فضَّ أكثر من رسالة وراح يقرأ كل واحدة منها على حدة وقد أصبح وجهه في تلك اللحظات سماءً لكل الفصول، يصفو ويتلبد، يعصف ويهدأ. كانت حزمة أشعة الشمس قد بدأت منذ وقت تحاول التنصل من القبو، والخروج منه والعودة إلى قرص الشمس، فانتقلت من الجدار المقابل للنافذة إلى زاوية منه ثم إلى أرض القبو بوهن راح يزداد حتى خرجت منه، وتركت المكان لظلمة بدأت تصبغ أشياء القبو وجسده بلونها الأسود.

كانت الشمس قد جنحت نحو المغيب وهي تهبط وراء الأفق مثل كرة نحاسية حين دخلت زوجه مع ابنتها تتبعهما أمه العجوز إلى الدار، انقبض قلبها وهي تتخيل ردَّ فعله على تأخرها عن القدوم إلى البيت، فكثيراً ما كانت تدفعه لمحاسبتها حين تتأخر في زيارة لها خارج البيت، بل كانت تتباهى أمام جاراتها بخوفها من غضبه، إلى درجة إثارة خجله وحتى حنقه، فتوجهت نحو العجوز ترجوها التوسط لها، فليس سوى أمّه يمكن أن يشفع لها عنده، غير أن الصوت المنبعث من القبو، القوي والحزين، عقد لسانها، وجعلها للحظات جامدة في مكانها تصيخ السمع بذهول، كانت هواجس قديمة جديدة قد بدأت تهرول

في داخلها مثل أحصنة برية، وكمسرنم تبعت حماتها التي توجهت نحو القبو وهي تردد:
- إنه عمر.

ممثل يبحث عن نفسه

في تلك الظلمة الكثيفة، ووسط أغراض القبو المختلفة الأحجام، كان ينتصب واقفاً وفي يده حقيبة سوداء وهو ينظر في داخلها، لم يلتفت نحوهما حين دخلتا، وجلستا على العتبة، أخرج قلماً جميل المنظر من الحقيبة وراح يتأمله بعيون زائغة مليئة بالسرور، قال كمن انتقل لتوه إلى موضوع آخر:
« يا له من قلم جميل، جميل جداً، قلت لها ذلك، فردت، اكتب به كي يتحسن خطك، فكتبت به، كتبت ولم يتحسن خطي، قلت لها لا يُصلح القلم الجميل ما تفسده اليد غير الماهرة.. فضحكت، ضحكت فزغردت عصافير المدينة، أطلق ضحكة عالية، ثم صمت فجأة وقطّب حاجبيه، تقلصت أسارير وجهه وراح يتحدث بحنق وعصبية كمن أصابه مسٌّ، أو كممثل على خشبة مسرح يؤدي دوراً في مسرحية مونودرامية تتحدث عن اليأس، والإحباط، وفقدان الأمل.. أمام جمهور جالس على عتبة القبو، وقد حبس، جمهوره، زوجه وأمه، دموعه في عيون مفتوحة على وسعها، وارتسم على وجه ابنته تعبير دهشة بريئة، فيما كان هو، كممثل تقمص دوره تماماً، غافل عن وجود هذا الجمهور، فراح يخرج أشياء تلك الحقيبة، الواحدة تلو الأخرى، وهو يستذكر مواقف وأحداثاً مرتبطة بها: ساعة يد قدمتها له وهي تضبط عقاربها مع عقارب ساعتها، ليستذكر قولها له: إنها مضبوطة على إيقاع قلبها، ثم دفتر صغير قالت له إنه من أجل كتابة مذكراته، ولحظات تذكره إياها.. وأشياء أخرى. وفجأة، صمت للحظات ثم صاح بانفعال وهو يلقي تلك الأشياء من يده: «كذابة، أنت كاذبة، سنوات وسنوات وأنت تكذبين عليّ، كلكن كاذبات، كلكن، حتى رفاقي كذبوا عليّ، أولئك الثوار. الحب. الثورة.. وأنتم، كلكم، كلكم كذابون » وراح يتحدث ويضحك بهستيرية.
فجأة، علا صوت تفجير قوي قادم من مكان غير بعيد هذه المرة، كان قد اعتادت مدينتهم النائية منذ فترة قريبة على هذه الأصوات قادمة من بعيد، حيث الريف وأطراف المدينة، فصمت للحظات، كانت كافية لكسر الإيهام الذي تلبسه، ورؤية جمهوره الصغير وهو في حالة ذهول وصدمة، تناهبته مشاعر شتى، وأحس أنه موزع بين عالمين، وكأن ما يحدث له مجرد أضغاث أحلام. ولم ينتبه من غفلته تلك إلا عندما سمع صوت ابنته وهي تردد كلمات ثم تطلق بكاء راح يبتعد ثم يختفي مع خروج أمها من المكان، بصيص نور خافت فقط كان ينبعث من وجه كثير التجاعيد وسط تلك الظلمة التي صبغت القبو كله بالسواد، وجه وحيد أشبه بتلك النافذة الصغيرة في أعلى زنزانته المعتمة، والتي كانت تلفازه وصندوق أحلامه العجيب، تأمله زمناً برجاء وحيرة قبل أن يتوارى خلف جفنين مجعدين، لينكبّ بعدها على تلك الأشياء التي بعثرها، وأخذ يلتقطها عن الأرض ويعيدها بحرص إلى الحقيبة، ثم يعيد الحقيبة إلى مكانها، البعيد عن العين واليد، في زاوية من القبو، تحت تلك المجلات والكتب القديمة.

كاتب من سوريا مقيم في استانبول

ضياع

أحمد اسماعيل زين

فرج عبو

لقد اختلفوا على كل شيء إلا شيئاً واحداً اتفقوا عليه معنا . فقد كنا ثلاثة فقط بقينا للعمل في مزرعة لرجل طيب تقع خارج النطاق العمراني للبلدة، ويشرف علينا فيها رجل رقيق القلب، يأكل معنا، يحل مشاكلنا بالتوسط عند مالك المزرعة الأصلي، ونبوح له حتى بأسرارنا الخاصة ليساعدنا في حلها. أشعرنا المشرف الطيب أنه واحدٌ منا، فعاملنا بحب وإخاء لدرجة النوم براحة بال حتى بعد زيادة عدد العمال للمزرعة.
لم يخطر في بالنا: أن هناك مزرعة كبرى مجاورة لا يعجبها التقدم المزدهر لمزرعتنا النامية، بوضعها العراقيل في طريق مالك مزرعتنا، وقامت تثقل عليه بالمضايقات حتى أرغمته على التخلي عنها، وعنا.
ولكننا عرفنا فيما بعد، بقليل من التفكير: أن المالك الجديد تملّك مزرعتنا الصغيرة النامية بتوجيه ومساعدة من أصحاب المزرعة الكبرى المجاورة، فكل أعماله كانت بمباركتهم وإشرافهم المباشر، وزدنا يقينا من هذا الشك بالمالك الجديد للمزرعة حين رأيناه، يضايق المشرف رقيق القلب معنا بالتدخل في عمله حتى رحل، وصرنا أكثر ثقة مما توصلنا إليه حين جعل العمال البسطاء فرقا تناحر بعضها بعضا في العمل الذي تؤديه لدرجة تعجل بالموت السريع للمزرعة بعد رحيل مشرفها الطيب منها.
نحن الثلاثة لم يعجبنا الحال الجديد الذي وصلت مزرعتنا إليه، فاجتمعنا، واتفق اثنان منّا على جعلي وسيطاً لتوصيل أصواتهم لمالك المزرعة الجديد. أقنعاني برغبتهما تلك، فقمت بعدة محاولات أرجعتني بعدها من عنده لتبليغهما بقوله: إذا لم يعجبكم الحال؟ فمن الأفضل لكم أن ترحلوا منها بمحض إرادتكم.

كاتب من السعودية

مرآة

أحمد الخميسي

إبراهيم الملحي

في الثانية عشرة ليلاً هدأت أصواتهم. إما لأن الوقت متأخر أو لأنهم تعبوا. احتشدوا في الصالة واقفين قبالتي وأنا جالس على الكرسي. كنت كأنما أراهم في مرآة غائمة تبرق فيها أحيانًا نقاط مصقولة. تعجبت من مناظرهم. طوال وقصار، بملابس وأزياء مختلفة، من أعمار متعددة، على وجوههم تعبيرات متنوعة. شملهم شيء واحد مشترك أنهم جميعًا كانوا ينظرون إليّ معًا برصانة وصمت. لا أذكر من فيهم الذي تقدم نحوى أولاً فصافحني مودعًا من دون كلام وأولاني ظهره. لعله الوعي، أو الأمل، أو الحلم، أو الإقدام. ثم تقدمت نحوي ذكرياتي في معطف قديم. أمسكت كفي وهزتهما في الهواء بحرارة كأنما تعتذر لأنها لن توافيني فيما بعد إذا استدعيتها. أومأت برأسها تسلم على الآخرين وغادرت وهي تكتم سعالها في قبضتها. تشجع الباقون فاقتربوا مني واحدًا بعد الآخر يشدون على يدي وينصرفون بهدوء. شعرت بانقباض من الرحيل الذي قطع الأمسية بلا تفسير. أحسست بالمكان خاويًا موحشًا. الآن تسبح وتتطاير الأوراق والكتب بنعومة في الجوّ وتزول في نقطة لا أراها. تواثبت الملعقة ذات اليد الطويلة التي اعتدت أن أقلب بها السكر في قدح الشاي وتلاشت. السراويل الشتوية الدافئة التي كانت تحميني من البرد. هرولت منصرفة من دون أن تتطلع نحوي الأقداح التي عشقت خصرها المضموم، ولحقت بها المصابيح الجانبية الصغيرة. وحدي على الكرسي في الصالة الممتدة، ولا شيء ولا أحد سواي. كأني في خلاء فسيح. ستحيا ذكرياتي من بعدي بصورة أو بأخرى، ليس بالحيوية ذاتها، ليس بحضور مكتمل، لكن نتفًا منها وأطراف قصاصات ستظل حيّة في عقل أو روح أخرى. ستجد أحلامي قلبًا آخر، كما تجد النغمة لنفسها منشدًا جديدًا. ستواصل ذكرياتي وأحلامي حياتها، شيء مني وشيء مما ستجمعه في الطريق. استغربت أن يستمر وجودي في الحياة خارجي. حدقت بالفراغ والسكون حتى كل بصري. ثمة صور شخصية تلمع في الجو لحظة وتنطفئ. زاد الصمت حضورًا، وبقيت في عقلي مرآة تومض في العتمة. لم يبق سواها. على سطحها توهجت مهتزة نقاط صغيرة مثل مشاعل في الريح. دراجة على سطح بيت. حقل ممتد. صوت والدي. عفاف التي أحبها منذ الصغر. عين جدتي الطيبة الحولاء. باب المدرسة الضخم. أمي ممسكة بكفي نقطع شارعًا طويلاً خاليًا من المارة خافت الأضواء.
سطع في عيني وهج أبيض، وانقطع شيء ما للحظة لم أشعر فيها بنفسي. وحين رجعت لم أر الصور، فتملكني فزع غريب. إذا غادرتني الصور هي الأخرى فلن أرى نفسي ثانية. لن أتذكر حتى هذا الحفل الصغير، ولا ملامح الضيوف الذين كانوا هنا. حاولت في جزع أن أستجمع كل ما في بدني من جهد لأنهض وأغلق باب الشقة بالمفتاح. خيل إليّ أن كل شيء متوقف على ذلك. لكني لم أستطع أن أتحرك. تساءلت "ما الذي يحدث؟"، وعلى الفور تساءلت ثانية "ما الذي كنت أسأل عنه الآن؟"، فلم أتذكر. شاهدت في المرآة، المرآة ذاتها، تتهشم لكن مثل سائل يتمدد ويتهتك. وكما يشعر الأعمى بالضوء على جلده شعرت بالظلام لكني لم أره.

كاتب من مصر

اجتياز العتبة

أحمد خلف

بدت العيادة المسائية متنحية عن جادة المارة، لم تكن في شارع خلفي بل عند واجهة محلات متراصفة، وقد فتحت أبوابها قبل ساعة من الآن، والغريب لم نكن نعرف أين تقع عيادة كهذه لولا انتباهة عابرة من أحدنا بعد إطراقة قصيرة أشار بيده على طريق يفضي إلى ساحة تجمعت فيها عشرات السيارات الصغيرة وأعمدة الهاتف منتشرة في أركان الشارع، لم تكن المصابيح قد أنيرت الآن لكننا بكّرنا بالمجيء عاقدين العزم على نقله إلى عيادة الشفاء، بعد أن درنا على عدد آخر من العيادات التي زرعت اليأس في نفوسنا، كنا أربعة رجال، وكان أكبرنا أكثرنا صبرا وأقلّنا ثرثرة حول المريض وما يعانيه من الآم وويلات وهو يصغي إلى عباراتنا المتقطعة،المتناثرة نقولها جزافا، أو تخمينا أو ترضية رخيصة لخواطرنا المنكسرة بعد أن هدّنا تعب طويل، كأننا صمّمنا على الجري السريع المتواصل بلا توانٍ أو تقاعس على استرداد الأمل المضاع في الطرقات الكثيرة، لمّا درنا به، وقد رفعته الأيدي وأسندته الأكتاف. أكبرنا لا يملك إلا التحديق المستمر بوجه المريض الذي استعصت علته على من تقدم للكشف عليه من أطباء مهرة جراحين أو مشخصي علل لا يرقى الشك إلى علمهم ومعرفتهم.. أكبرنا يشبه أصغرنا ويجاريه في النظرة المستكينة إلى العليل كلما ارتفع الأنين من بين شفتيه الناشفتين، كأنه وطّن النفس على الهذو بكلمات غامضة يعوزها الوضوح وبلوغ المعنى: ـ محال محال ألا تفعلوا لي شيئا يقيني البلية؟ تلفتنا بيننا وفيما حولنا، كان الصمت راسخا يضج بالأسى والخراب كأنه يقطّره علينا من قوارير أو تمطره سماء مربدة، انتهبنا كلنا للصوت، كانت النبرة المتخاذلة بل اليائسة تأتينا من قرار بعيد وكل منا التفت إلى صاحبه دونما حرف أو كلمة تقال، بل الصمت حادينا للذهول الذي طوقنا كالأساور. مرة أخرى عصفت الريح في الأزقة وداهمنا الغبار من كل ركن وزاوية قريبة منا ولفّتنا عجاجة صفراء قطعت سبل الرجاء فينا، أين ينبغي لنا الوقوف لئلا نضيع وسط متاهة أو خطوة لا تحمد عقباها، أكان ذلك صوته؟ (صوت العليل) أم تخيلناه صادرا من فمه الذي ألجمه المرض منذ عام، وبعضنا يصر على أن مريضنا سقط في علته منذ بضع سنين وربما كان القدر قد جافاه عمدا، لكننا أهملناه كأننا لا نعرفه ولا نريد معرفة ما يجري معه وهو أخونا وخامسنا ولا يجوز لنا التفريط بأخوّته البتة، وقد تركناه ردحا من الزمن منفيا في محنته وعذابه المستديم، كنا نجد لديه الطيب والمن والسلوى وما كان يبخل علينا وقت الضيق، أو حين يلم بنا الإعصار، كان نادرا في سخائه بيننا كواحد منا غير، إنه عادة وفي كل مرة نتكلكل عليه بأرواحنا الحائرة وثيابنا الرثة، التي مزقتها ريح صرصر عاتية، يفترش القلب لنا قبل الأرض لكي يلملم أطراف العذاب ويسقينا من رحيق سعادته ما يكفينا، والحق لم يكن هو أكبرنا إنما أكبرنا يشبه أصغرنا، ويكاد بعضنا يغدو نسخة مكررة للذي قيل بحقنا من أننا عصبة تآلفت فيما بينها على السراء والضراء، إذن محال أن نتركه نهبا للضواري والحيوانات الكاسرة والجارحة، بل ضمدناه بعد أن حلقنا له ورتبنا هندامه واعتنينا بهندامه وعطرناه وعلى أذرعنا حملناه من طبيب متمرس إلى آخر أكثر تمرسا، وما كان بيننا من كان يجرؤ على إبداء الرأي بشأنه، ذاك أمر تركناه لكلمة الفصل التي سنسمعها من طبيبه الذي انتظرناه هذه الساعة في عيادة الشفاء، لعله يأتي الآن أو بعد حين، كان أول من تلقفه منا رجل ربعة وذراعاه مشمرتان حد الساعد والعضل المفتول، جعل صاحبنا أشبه بقصبة ناشفة بين يدي الرجل قوي العضلات، أخذه منا دون التفرس به، أجلسه دكة إسمنتية وجعله يتنفس الصعداء على مهل، لم نكن نعرف ما إذا كان تحلّقنا حوله يغيضه أم يفرحه، رفع إلينا جفنين ثقيلين وعاد ليطبقهما نصف إطباقة وأطلق حسرة وآه، كأنه يطرد الذباب من حوله.. جاءت ممرضة شابة في العشرين من عمرها، أمسكت يد المريض وتأملت وجهه الشاحب الذي أكلته العلة كأنه أصيب باليرقان من سنين خلت، ثم ما لبثت أن ضغطت على أحد جفنيه وتأملته مجددا، سمعناها تتمتم مع نفسها:

ـ لقد عانى من أهله وذويه أكثر مما تلقاه من خصومه.. استمرت الممرضة الشابة تحدّق بالوجه الأسيان، وضعت يدها البيضاء على أحد كتفيه، وذراعها نصف العاري الجميل كان ناصعا في انحناءة ساحرة جعلت مريضنا يتنفس الصعداء. عادت ثانية إلى القول :

ـ كيف الحل إذن معه أو مع من هم على شاكلته؟

ـ هل هناك من هم يعانون أيضا؟

ـ نعم كثيرون قد يتجاوزون المئات بل الآلاف يا سيدي!

ـ وهل لهذه العيادة أن تكفيهم؟ ألا تراهم كيف بدأوا يتقاطرون علينا؟

ـ وماذا سنفعل مع أخينا؟

ـ سيأتي الطبيب وينظر في حالته..

كانت عيادة الشفاء تفتح أبوابها مشرعة أمام الريح لتستقبل مرضاها على استحياء غالبا، وتبيّن لنا أنهم وزعوا عددا من المقاعد الخشبية وتركوها عند منعطفات الزوايا والأركان وهي كثيرة ومنتشرة عند أبواب الغرف ونوافذها كذلك، وفي الحال توصد أبواب الغرف حالما يدخل مريض أو عليل أو لحظة يغادر الغرفة، ولكن لا أحد يدري إلى أين يمضون به!

تلك الأثناء أشرت على إخوتي أن احملوا مريضنا نحو الرواق الطويل حيث غرفة الطبيب، لعله حين يراه ملقىً أو متهالكا على مقعده سيدخله غرفة الكشف، أجلسناه أول الأمر على كنبة خشبية وأسندناه إلى الجدار تمايل قليلا والوجه غدا بلون التراب أو الرمال الساخنة، نزلت قطرات عرق على سالفيه وخديه ورأيناه يلعقها بطارف لسانه ويستذوقها على مهل، عدنا ثانية وأسندناه لنعيد له رباطة جأشه وقدرته النادرة على التحمل أيام كان فيها عونا لنا أو متراسا لألعابنا وفوضانا.. الأمهات عبر فتحات الأبواب وشقوقها يستجمعن شجاعتهن للصراخ بنا أو لنهرنا من مغبة التمادي في أفعالنا غير البريئة، أكبرنا أكثرنا حرصا على لمّ شمل وحدتنا، وهو في تفانيه يشبه أصغرنا، ما كنت كبيرهم ولا صغيرهم لكني كنت بينهم موضع السبابة بين أصابع اليد الواحدة وإذا حمي وطيس طيشنا أسمعه يصرخ بأعلى صوته:

ـ يا خيل الله اركبي وتحزّمي لخوض الوغى..

بعضنا ينفجر بضحكة مجلجلة حالما يسمع الموت ينداح في الفضاء المترامي، يا خيل الله اركبي، حقا كنا نركب خيولنا الحديدية وندفع كالشهب في معركة ضارية لا نلوي فيها على شيء، ومثوانا، مثوانا يترصدنا ويغدو حفرة بانتظار أن يسقط أحدنا متعثرا في خطاه، أو متهالكا بحجم الحمية المتصاعدة، إذ يتجلى لنا كل شيء وينجلي الحال عن وجود فتاة في الظل ترقب أفعالنا الماكرة: بضفيرتين اثنتين وفم بلون الشفق، وعينين ساحرتين تتلصصان على أفعالنا، أعني أجسادنا الفتية الماهرة في خوض غمار العبث، والعناد، وكنا وسط تعالي الصراخ والعويل نسمع اصطكاك الأجساد كسنابك الخيل، أعني أجسادنا بعضها ببعض كأنها عربات قطار تفرقت لحظة ثم استجمعت قواها في نقطة واحدة تردم فيها ذلك النأي الملعون عن وجودنا الراسخ القوي، كيف احتملنا هذا كله؟ وفي غمار الاندفاع الأهوج لخوض الوغى يحدث أن يتوارى أحدنا لائذا بالفرار من سخونة المعركة، أو يطلق ساقيه للريح متخفيا وراء جدار أو شجرة، أو في حفرة لم نتوقعها. يكون جمعنا قد تناقص والهدير العاتي يأخذنا بانجرافة لا تترك لنا مهلة التروي أو البحث عن الآخر، وفجأة يعوي أحدنا منذهلا للذي يراه:

ـ لقد خسرنا كل شيء كل شيء..

وأرى ذراع أكبرنا تمتد في الفراغ الدائر من حولنا تشير على الآخر المتواني أو المتواري أو ذاك صاحب الإعلان عن خسارة كل شيء: هيا اندفعوا لم يبق إلا القليل، علامَ تجزعون بلمح البصر؟ غير أني أسأل نفسي صارخا في العجاجة الهادرة والغبار يطوّح بالأشياء، حتّام نظل نرقب نهارا جديدا؟ حتّام؟ فلا أسمع لصوتي ترجيعة أو صدى وسط جرينيكا الموت تلك، وما يشير علينا الذراع الطويل القاسي ملوحا لنا في الهواء، إن واصلوا كفاحكم، دون عثرات، نهبّ مندفعين بجنون لا مثيل له، وعليلنا ساعتها يسابق الريح، يتقدمنا بحمية لا تقهر ونحن نراه كالنيزك، لا يلوي على شيء. كان القدر قد خصه بالفوز المحقق في لعبة لا نرى لها من نهاية تلوح في أفق قريب، لا شك كان قراره السري، هو، الفوز بالكأس المعلى، لكنه الآن ذاهل ووجهه الذابل يشي بالأسى والقنوط وقد خسر أشواطه كلها، ولم يعد لديه من ميدان يمارس فيه ألعابه الماكرة..

سمعت من يقول:

ـ وصل الطبيب الآن.

تحركنا كلنا مأخوذين برغبة التعرف على شخص الطبيب الذي سيبوح لنا بالسر وقد ظل غامضا وعسيرا علينا ردحا طويلا من الزمن:

ـ هل كشف على حالته غيري؟ كانت يد الطبيب قد قلّبته وجس النبض عبر اليد المتوانية، الرتيبة المتدلية نحو الأرض رفعها نحو الأعلى وظل محتفظا بجلال صمته ووقاره وعيناه تبحثان في الوجوه المسمرة على حركة اليد، كأنه قبطان يدير سفينة تائهة وسط الموج والريح، لوحت يد الطبيب لنا كلنا دون النظر لأحدنا تحديدا وتقدمنا إثر ذلك خطوتين أو ثلاثا مطبقين الأفواه مخافة أن يتهدم شيء لا نريد التعرف عليه الآن، رغم أن ثمة خيبة طغت على وجه الطبيب جعلته يعاود النظر إلى وجه مريضنا وبيده أشار على الممرضة الشابة الجميلة: خذيه نحو الغرفة الأخرى للكشف عن علته. علت وجهها ابتسامة شاحبة:

ـ أرى أنه لا يستطيع السير على قدميه، أراهما متورمتين.

وكان لصوتها الرقيق الذي خاطب الطبيب وقع الندى والشذى على أسماعنا، انبهرنا لنبرة الصوت الذي ظل حائرا بين لهجة اليقين وبين صيغة السؤال عن حقيقة العلة. تقدم رجلان من العاملين في عيادة الشفاء وحملاه على أذرعهما واختفيا به، كنا ندور حول بعضنا والطبيب لم يترك لنا فرصة السؤال عن جدوى انتظارنا في الرواق الطويل. اختفى الطبيب كما اختفت الممرضة ممشوقة القوام أسيلة الخدين جميلة القد غرّاء فرعاء مصقول عوارضها، اختفت بين الغرف العديدة وضاع منا الأثر، درنا في متاهة الأروقة والأبواب الموصدة، وروائح الأدوية والأبخرة والأردية البيضاء تبعنا كبيرنا في سيره وخطواته البطيئة المتوانية محاذاة الجدار، بعضنا استرق السمع إلى الأبواب القريبة، ومنا من تلصص عبر شقوق النوافذ وفتحات التهوية دون جدوى، كانت الأجساد تئن في تلك الغرف لا من ألم بل من طول رقاد على أسرّة بيضاء تسمّرنا لبعض الوقت أمام الكوة الزجاجية، ننظر في الوجوه الراقدة على الأسرّة والضوء يغمر فضاء الغرف، والعيون ترسل نظرات حائرة نحونا تجرأ أحدنا وفتح باب إحدى الغرف، فوجئنا بالوجوه الراقدة وقد شملها طيف واحد من الرؤى والحنين إلى خارج المكان وقد أشار علينا أحدهم أن ناولوني سيجارة، تجاوزناه ثم عدنا إليه مندهشين كأننا نرى أخانا راقدا وطيف ابتسامة جذلى تعلو محياه، وقال أحدنا بنبرة عجب:

ـ يا عباد الله انظروا جيدا!

ـ نحن نرى ما تراه.

من يملك تفسيرا لهذا كله ألا ترون؟

وصاح آخر بسخرية صريحة:

ـ الجميع يشبهون الواحد

وكأن الواحد منا يشبه الجميع.

وسمعت صوتا آخر يقول:

ـ يا للجميع الذي لا يشبه حتى نفسه.

انتبهت إلى يد الممرضة الجميلة تحط على كتف أكبرنا وتجره خارج الغرفة، وصوتها حلو النبرات يهمس لنا:

ـ هيا اتبعوني ..

ولما تبعناها الواحد إثر الآخر كان الطبيب في انتظارنا: ـ إن أمرا كهذا لا يمكن البت به..

ـ ما المطلوب منا سيدي؟

كان ذلك صوتي الذي بدا خائبا ومترددا:

ـ اتركوه لنا نحن اعرف بعلاجه!

ترددنا في سيرنا متعثري الخطى نحو النور خارج العيادة وعيوننا الحائرة لا ندري أين سترسو.

كان أكبرنا يصرّ على اجتيازنا العتبة لنغدو جميعا دون أخينا خارج المكان.

كاتب من العراق

البخار الآدمي

أحمد سعيد نجم

كذا هي الدنيا. تختلِفُ الألبسةُ والأسلحةُ واللغاتُ، ويبقى الناسُ. وأيُّ قُدرةٍ رائعةٍ لهم على الاحتمال، وعمارة الأرض، إنْ ظلَّ شيءٌ ما مِنْ غَلَّةِ الموسم لبهجةِ المواليدِ الجُددِ، للئذورِ، لأعراس الصبايا والشباب، للشتاء المديدِ، لتُجّار المدن، والباعةِ الجوّالين.. معنا مشاط، معنا هدايا: مرايا، حرير، أُبَر...

ولِكُلِّ حينٍ نُذُرُهُ، علاماتُ موته، شاراتُ فألِهِ، آلاتُ حربه، عُلماؤه ودجّالوه. لكل حينٍ منتصروه ومهزوموه. رجالٌ يضعون قوانينه، وآخرون يفرّون منها. له بَشَرُهُ الذين يولدون، وبشرُهُ الذين يموتون. أزمانٌ يومُها كأمسِها كغدها: عذابٌ مُؤَبّدٌ، قِسِيٌّ وكرابيج، وبيادرُ منتهبةٌ. فتلك حِصّةُ الحاكِمِ، ولتلك لِثُوابِهِ. هذه لِسِلمِهِ، وتلك لِحَربِهِ، وما يتبقى في البيتِ لغاراتِ جُندِهِ، وقد عَضّهم الجوعُ، وأعمتهم الشهوةُ، فأنستهُم مواثيقهم الغليظة.

ومِن ذلك كُلِّهِ تبقى البقيّةُ الباقيةُ، فيكون لنا منها الأجدادُ والجدّاتُ والآباءُ والأمهاتُ، واحكِ لنا يا سِتّي، فتحكي، يكونُ ما كان مِن قديم الزمان، إلى آخِرِ العصرِ والأوان. قهرٌ يشيخُ، وقهرٌ يولدُ، وبين قهرين نأتي إلى الدنيا. يأتي حسن، ومِتْعِب، وخالد، وانتصار. نمرحُ، ونتشاجَرُ، ونحلُمُ، نحلُم.. ونصنعُ مِنْ أيامنا ماضياً، لا أحلى مِنْ هيك!!

***

استعرضُ في ذهني ما كتَبتُهُ بالأمس، بعد سهرةٍ عرمرميّةٍ قضيتُها في لَعِبِ الشدّة. سأقرأُهُ الليلة، عندما أعودُ إلى الشام على "حسن" و"خالد". في الأسابيع الماضية صَنّفاني برجوازيّاً صغيراً، فماذا سيقولان اليوم؟ مسكينٌ حسن! سيموت من الجلدة الثالثة أو الرابعة، ومثلُهُ خالدُ، وسيبقى مِتعِب يَمُدُّ لسانه ساخراً، ومواصلاً حياتَه العربيدة. أحقّاً هو زيرُ نساء، أم هو كحماقاتنا مُجرّد فشخرات، ليس أكثر.

تحينُ التفاتةٌ منّي إلى السرير. يقولُ ليَ الترتيبُ: هيّا يا مَنْ تريدُ تغيير الدنيا رَتِّبْ فوضاك! أهِمُّ بفعل ما أمرني به الترتيبُ فتقفزُ في وجهي جملةٌ: ما الفائدة؛ هذه الجملة التي لطالما حالت بيني وبين ما أنوي فعلَهُ، تقفزُ إلى رأسي لتحسم الأمر. إنها تطاردني دوماً، كما لو كانت روحاً آسرةً، معذّبةً، وبعضاً ممّا دَرَجتُ عليه.

الجوُّ خارج البيت شديدُ البرودة. وبين أن أظلَّ أو أن أخرُجَ خيطُ مقامرةٍ لا أحبُّ أنْ أخوضَ رهانها الآن. سأنتظرُ متعب هنا، في غرفتي، خلف جُدراني التي تحجز عنّي البرد اللعين. زمّورٌ من سيّارته البغيضة، إن جازَ لنا أصلاً تسميتها سيّارة، يُخرِجُني من سجني الأسبوعي هذا!

أقِفُ خَلْفَ النافذة. العالمُ الآمن ها هنا يمنحُ النافذةَ ثلاثةَ أرباع الجدار. أيُّ بردٍ لعين يأتيني من ذلك الأمانِ الكاذب. أزيح الستارة. هو ذا الصندوقُ، وفي الخارج دنياه ودنياي. وقبل أن تلتقطَ عينايَ أشياءَ الطبيعة، في البستان الممتدِّ من باب غرفتي حتّى الشارع الرئيسيّ، ومِنْ بعدهِ السهول المترامية إلى الأفق المزنّرِ بالتلال، يكاثِفُ البخارُ أنفاسي الآدميّة، فأمسحُهُ، ثم أروحُ أنظرُ، وأنتظرُ حلمي بالخلاص، ولو ليومٍ واحد.

منذ ساعةٍ أو أكثر وأنا أتأهّبُ للعودة إلى مدينتي. أنا الآخرُ لي بيتٌ وأهلٌ وألعابٌ أتسلّى بها. التلاميذُ يُحبون يوم الخميس، وأنا أحبُّه أيضاً. من أجل هذا صرفتُهم باكراً وعدت إلى غرفتي لألملم ثيابي على عجل. بجانبي شنطتي، ملأى بالثياب وأواني الطبخ التي حشرتها على اتساخها، تماماً كما أوصتني والدتي:

- ها لا تنسى. جيب معك كل شي وسخ. ولا تنسى أي شي!

كانت تقول ذلك كما لو أنها تتشفى من عدوّ يتربص بين عواطفها وبيني، فلا يجدُ الوالد إلاّ أن يؤكّد ما قالته: طيّب، جيب معك كل شي وسخ، ولا تنسى شي. هه؟ ثم كانت تهمسُ وأنا على وشك الخروج: ولا ترد على حدا!

أنظرُ إلى الشنطة الجاهزة بجواري، يجتاحني إحساسٌ عارمٌ بالخجل. نوبة قشعريرة ضربت ثم هربت على عجل. حقّاً ما الشعور الذي ينتابُ الأم وهي تفردُ ثياب ابنها المتسخة قطعةً قطعة؟! أسألُ نفسي، وأبتهجُ في أعماقي لطيبتها. أسألُ، وأبتهجُ، وأتأمل الكون من حولي . أين أنا ؟ أأنا داخل الزمان أم خارجه ؟ فوق أرض البشر أم في عليائها ؟ وما هذه الأمداءُ المترامية من حولي؟ لمن اخترتُ هذا المكان؟ لبهجتي أم لتأملاتي؟ سأعترفُ أنني فتّشتُ الأماكن كلها، وآثرتُ الجُزُرَ الضبابية المراوغة . هنا،وتحت هذا الضباب الذي ما يفتأُ يتشكلُ صبح مساء، خالطاً دروبي، تنتشرُ حقولُ القرية : الكسّارات، والمخيض، والسرعات، والسبايح، والناشطات، وأبو الدهب، ووادي السعاف، وأبو سنان، والجرود، والسماين، والحفور.

أسماءٌ برّاقةٌ، وخُلبيّة، تقتاتُ من اللاشيء، لتعود إليه. خواءٌ تُسوّره الحجارة ونزاعات السنين. الموتُ والحياةُ في هذه البقعة؛ منفايَ اللذيذ. أحاولُ أن أكسر قشرته الصلبة لأنفذَ إلى النواة. أريدُ أن أعرفَ ما الاستثنائيُّ في إقبالنا على الحياة، مع كونها بذلك البؤس، والاستحالة، فكنتُ أنفذُ إلى النواة، فتفرّ من بين أصابعي. سطوحُ الأشياء وحدها الحقيقة، وما عداها ليس أكثر من سراب، وأملٍ يلوحُ، فلا تمسكه الأيادي، لا تمسكه سوى الأفكارُ، وماذا تفعلُ الأفكار، سوى أنها قد تقود إلى جنونٍ مُبَكّرٍ. لا بُدَّ إذن أن أحتاط من السهر الطويل. لماذا لا أفعلُ ما تريده الوالدة، ولو في أمر واحدٍ، غير اصطحابي لثيابي القذرة؟

إنه السحر، يمارسه الضبابُ والثلوج. فمنذ أسابيع كُشِطَ وجهُ الأرض، وأخفيت تحته البذارُ. يتمُّ ذلك، مثل واجبٍ أزلي ثقيل الوطأة، فيستوي بعدها الزمن، وتمضي الأيامُ فلا يتذكّرُ أحدٌ لها اسماً. ما اليوم؟ إنه الإغفاءةُ بين زمنين، وتنامُ الأرضُ فصولاً بتمامها. الفلاحون في بيوتهم، وحقولهم في العراء، تحت رحمة السماء والأولياء، فينتشرُ الخدرُ مسكرا أوصال الجميع، بانتظار أن يحضُرَ مِتْعِب، ومعه شدّته، وأحضرَ أنا ومعي المذياع، رفيقي الإجباريُّ إلى القلوب العطشى لفرحٍ مفقود.

ها هنا، تصطادُني الحياةُ معلّماً ومستكشفاً لعوالم كنت أحسب قبل مجيئي إلى هنا أنها انقرضت منذ قرون، وصديقي "حسن" يريدُ منّي أن أجعلَ من القرية بؤرةً لثورتنا المنشودة. يقول لي، كما لو كان لا يعرفُ غيره:

-عليك بمتعب، إنه الحالةُ الأنضجُ!

***

أنتبهُ من حالة الشرود، وأُركِّزُ ثانيةً على الشارع العام. أين تراه يكون؟ ها قد مضى نصفُ ساعةٍ على الموعد الذي يجيء به في العادة، ولم يأتِ بعد! أقول بيني وبين نفسي:

"أنت حقيرٌ يا مِتْعِب!"

يحلو لي في ساعات المزاج، أو في نوبات الغضب أن أشطبه من الحياة.

- "مَنْ أنتَ يا متعب؟".

هكذا سألتُه في مرّةٍ من المرار. نظرني مستهجناً وقال:

"أحتّى الآن لا تعرفني؟ لا تعرفُ مَنْ أنا؟".

أقولُ له:

"أقعد. وسأقولُ لك مَن أنت!".

يجلسُ وهو يقول كالمستهجن:

"غرفتك هذه مثل القبر. أما كان من الأفضل لو بقيت عند أم محمود! أعطها ريقاً حلواً وخُذ!".

تيسير بركات

كان ذلك قبل أيام، ونحن عائدان من سهرةٍ لعبنا فيها الشدّة حتى ضجرنا فصرنا نلعب على المكشوف، قتلاً لوقتٍ لا يُقتل. وفتحتُ دفتر الذكريات، وعلى ضوء قنديل الكاز قرأت:

"مِتْعِبْ هَشٌّ ومُغْلَقٌ، طيّعٌ ومستحيل، مخلوقٌ صاغهُ الدهاءُ من مادّته الناريّة، فجعلَ منه اختصار القرية بما هي تاريخُ دماءٍ ولعنات. إنه مخلوقٌ وفكرةٌ وشارعٌ ترابيٌّ حَفَرَتْهُ على امتداد القرون أقدام الدواب والبشر، والكتائب الذاهبة إلى الحرب أو الهاربة منها..".

أحِسُّ بمتعة شديدةٍ، وأنا أستذكر ما كتبته في الليالي الباردة. ليس سهلاً اختصار البشر. كلانا يريدُ صوغَ الآخَرِ على هواه. أنا بالكلمات وهو بالأفعال. سباقٌ لا أعرفُ لمن سيكون الفوزُ فيه.

أمسحُ أنفاسي المتكاثفة على زجاج النافذة. السماءُ مثقلة، متلوّية. تصفو هنيهاتٍ، لتعود فتتكدّر. هكذا إذاً، حتى الآن، وربّما لعامٍ آخر، أو عامين، سأمضي هلاماً من أيام وبشر. كلُّ ليلةً سهرةٌ جديدة. وهات أيها الفتّ، قرب المواقد، وعلى بساط الموائد والحظوظ المتقلّبة لورق الشدّة.

ما مِنْ همومٍ أخرى. فمِتعب؛ رفيقي الدائم، يقودُ الأبالسة أنفسَهم إلى الضلال. قبل أيام كشف عن شيطانيّته قائلاً:

"إن أردتَ امرأةً، فما عليك إلاّ أن تقول لي!"

ولأنني ما زلت أعتبره من العابرين في حياتي فقد كدتُ أصيحُ به قائلاً:

"وَلَكَ مِتعِب، إبقَ بعيداً عن تلافيفِ دماغي!".

وأنا المرتجف في أعماقي نظرتُهُ، لحظتها، ولم أملك إلاّ أن أسأله باحتقارٍ، كنتُ مضطرّاً لاصطنعِه أشَدَّ الاصطناع:

"أقوّادٌ أنت يا مِتْعِب؟".

ومِتعب الذي لا تنالُ منه هذه الترّهاتُ وأمثالُها لم يكن، أثناء ذاك بشراً بقدر ما كان شيطاناً، أضافَ قائلاً:

"أليس ذاك أفضلَ من العادة السريّة؟".

استدرتُ لأصفعه، فزاغَ مِنْ بين يديّ. صار في الزاوية من غرفتي. أيُّ قدرٍ ظالم ساقني إلى مكانٍ يشكّلُ مِتعِب صفوتَه؟ مِنْ حياة الطلبة وأحلامهم المسكينة، إلى عالمٍ ثعلبيٍّ، يأخذ ولا يُعطي؛ رغم ذلك، فطريقُ الليالي الضائعات في الشدّة، والثرثرة، ووسط الطين الزلق، والكلاب المخيفة لا يمضي دونه. سِفْرُ المرأةِ الموحِلُ ذاك، فتحه مِتعِب بالأمس، ونحن عائدان من بيت "أبو صالح"، وقد ربحنا دَقَّ شَدّةٍ هائلا.

في العادة، يوصلني مِتْعِب إلى زاوية البستان الممتد من غرفتي حتّى الشارع العام. غرفةٌ استأجرتُها في بيت "أبو محمود". الثالثة في أقَلَّ من شهرين. من زاوية غرفتي الجديدة هذه تتعرّفني الكلاب. بعد يومين أو ثلاثة على سكناي خنقت نباحها. لا تنبح أو تهوش إلاّ إن التقينا بعيداً عن البيت.

أدخلُ، أتمدّدُ على الفراش، وعلى الضوء الخافت لقنديل الكاز، وأغاني الترانزستر، أراجيحي الإجباريّة للنوم. أروحُ أفكّرُ بألغازٍ فتحها وجودي هنا على المجهول. إن لم يكن مِتعِب فَخّاً، وفضيحةً تتربصُ بي فهو نعمةٌ من السماء!

كان الهواءُ المتسربُّ من شقوق النافذة، ومن الباب يجعلُ من غرفتي قبراً. "ما يراه الآخرون شرّاً فهو شرٌّ حتى لو كان لنا رأيٌ آخرٌ" هكذا قلت بيني وبين نفسي وأنا أثبُ من فراشي مذعوراً:

"ماذا فعلتَ بي يا متعب؟ لما تُصِرُّ على إيقاظ الشرِّ الذي تحاوِلُ ابتساماتي اللطيفة طَمْرَهُ؟".

أحاولُ أن أنامَ فلا أستطيع. يا الله! كيف لم أفطن إلى الآن أن ثَمَّ صبيّةً في بيتي هذا، الجديد! أجل. صبيّة. وقد صادفتُها مراراً. أغنامٌ، ماعزٌ، عُجولٌ، أبقارٌ، بشرٌ، هكذا نحنُ، نرتَدُّ، في بعض اللحظات، إلى بهيميّتنا، ثم نتطهّرُ بأن نُسْبِغَ لَبوساً مثالياً على أفكارنا تلك! فأيُّ رغبةٍ بكماء تنطلقُ من عقالها لحظةَ يغيبُ الرقباءُ، فتنقلبُ الغرائزُ وحوشاً ضاريةً، تلتهمُ فرائسها، ثم تنسحبُ سريعاً إلى آجامها، حيثُ الحياءُ والنظراتُ الجادّةُ والمشهدُ الوقور.

أمسحُ من جديد أنفاسيَ المتراكمةَ على زجاج النافذة، وأُركّزُ ناظِريَّ جهةَ القرية، عَلّني أرى سيّارةَ مِتْعِب. قبلَ ساعةٍ أو أكثرَ، عندما عدتُ من المدرسة لأستعِدَّ للسفر تنحنحتُ، ناديتُ، أحدثتُ صَخَباً، عَلّني أحظى برؤية "انتصار". انتصار، ذاك هو اسمُها. إن حظيتُ بها فستكونُ انتصاري وسط الهلام الذي أعيشُه. لا أحد الآن في البيت سواها، وسواي طبعاً. "أبو محمود" وزوجتُهُ وأبناؤه، كلّهم في مكانٍ ما من هذه القرية، ينعمون بالبخار الآدمي.

***

مِنْ نافذتي، تبدو ساحة القريةِ، والجامعُ، والحارةُ الشرقيّةُ، ومزارُ الشيخ عبدالهادي، والمطحنةُ، والتلالُ التي تنتهي عندها حدودُ القرية. كلُّ ما هنالك كان أبيضَ. بُقَعٌ صغيرةٌ جدّاً. فوهاتُ المداخن والاصطبلات، وأكوامُ الحطب، وحدها أفلحت في أن تُطِلَّ برأسها مِنْ تحتِ الثلوج. القريةُ عِشُّ نِمال، وتحت قشرته البيضاء يعيشُ الناس: يتوالدون، ويقتتلون، ويتشكّلُ البخارُ الآدمِيُّ مِنَ الضحكات، والصراخ، والطعام الذي يغلي فوق المواقد، ومن أوامر الآباء، وتقطيبة الأبناء، وصبر الأمهات، ولوعة الصبايا.

بألَمٍ، أنظُرُ إلى ساعة يدي. الشنطةُ بجواري تتأهبُ هي الأخرى للرحيل. وفجأةً، وكما لو أنها الأنثى المرتقبة تَثِبُ دمشقُ إلى الذاكرة، بكامل ألَقِها: أسواقِها، شوارعها، أناسِها، فتياتها. ساعةٌ واحدةٌ من الزمن وسأقطعُ مئات السنين!

أَمْسَحُ الزجاجَ وأهمسُ برعب:

" أيفعلُها متعب؟ أيفعلُها فيتركني هنا أسبوعاً آخر؟".

كان يمكن أن أحتمل ذلك في أي وقتٍ سوى هذا الوقت. كُلُّ الأسابيعِ إلاّ هذا الأسبوع! فأنا قلقٌ على حسن. حسن النحيل، بنظّارته التي تجعله قريب الشبه من تروتسكي. كم أحبُّهُ وكم أتمنى لو تغزوني أوهامُهُ. لقد أغضبتُهُ في الأسبوع الماضي، وعَليَّ أن أصالحه اليوم.

تُعْتِمُ السماء. غلالةٌ سوداء ترتمي فوق ظهر الأرض. يصبحُ زجاجُ نافذتي كالمرآة. أنظُرُ، ألمحُ في الزجاج شخصاً يُشبهني. هُلامٌ مُقَطِّبٌ: هكذا شاء متعب بتأخره السخيف.

ترتفعُ الغلالةُ فيعودُ للسماء ضياؤها. شارعُ القرية: قطيعُ ماعزٍ يجاهدُ صعوداً حتى ساحة البلدة. في العادة، تقفُ سيارة متعب بانتظار الركاب. عندما يجيء سأشتمه. أشتُمُه؟ وماذا ستفيد الشتيمة عندما تُوَجَّهُ إلى المكر بعينه. سيتلقى الشتيمة بضحكته المعهودة ويقول:

" اطلع إلى السيّارة، وسأريك عندما تعود من الشام!

سَيُريني؟ أسأل وأبتسم! وماذا يستطيع رجلٌ مثل متعب أن يريني؟ الشَدَّةُ. ذلك الكائن الورق الخرافي وقد أتقنتُهُ، واكتشفتُ دوره التاريخي في قتل الأوقات الفضفاضة.

"متعب.. أيها الوغد.. لماذا تأخرت؟".

أصرخها من الأعماق. أصرخها الآن. وصَرَخْتُها ليلة الخميس في سهرة الأصحاب في الشام.. أيُّ نقاشٍ لذيذ، والخمرة تلعبُ بالرؤوس، وعبق السجائر يقتل الأنفاس والضحكات ويشحنُ الأفكار. كُتُبٌ تُفتَحُ، وأخرى تُطوى. وكانت السهرة في بيت خالد، وعلى شُربٍ شديدٍ حَقَدَ خالدٌ عَلَيَّ لأنني قلت عن متعب بأنه وغدٌ من الأوغاد. ولم يكن متعب شيّقاً ووغداً وعصيّاً على أيِّ توصيفٍ طبقي كما كان ليلتها. ليلة العشاء الأخير.

كان متعب موضوع حوارنا، وعلى سُكرٍ شديدٍ مني سألتُ خالداً:

_ وماذا تعتبره إذن؟

وخالدٌ، مصنعُ الإجابات الجاهزة، كما يحلو لحسن أن يصفهُ متندّراً، قال بعد أن اقتبس فكرة من هنا وفكرة من هناك:

_ إنه بكل تأكيد ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة.. إن كان كما قلت: لا يملك أرضاً، أو إن كان يملك السيارة التي يشتغلُ عليها.

ارتشفتُ بقايا كأس عرقٍ كانت أمامي وهممتُ أن أقول شيئاً عن متعب، غير أنّ وقوفاً منزعجاً مِنْ حسن أوقَفَ الحديثَ. وعند هذا الحد، وبعد كاساتٍ أربعٍ نهض حسن مكشراً. ملامح وجهه، ونظاراته التي تدلّت على أنفه حتى كادت تقع، دَلاّ على أننا ارتكبنا خربطةً فكريّةً لا تُغتفرُ بحقِّ متعب. وبكلّ الذي يحمله نبيٌّ منبوذٌ اتجَهَ بحزمٍ صوبَ حذائه. خالدٌ لم يتحرّك اعتقاداً منه بأن الفرصةَ ذهبيةٌ لينفرد بي. نهضتُ، أجلستُ حسن رغماً عنه. لم يجلس بل ارتمى.. أصلحَ قعدته وقال:

_ لا أفهم لماذا تريدون أن تحيلوا كل شيء في هذا البلد إلى طبقة عاملة؟ أروني أين هي الطبقة العاملة التي حكى عنها كارل ماركس؟ حتى عمال شركة الخماسية! حتى هؤلاء أنصاف فلاحين، وأنصاف عمال.

خالدٌ هو الذي وقف هذه المرة. وقف كي يقول:

_ لو سمحتم.. هذا الكلام غير دقيق!

غير أن حسن تابع كلامه:

_ دقيق، أو غير دقيق.. في بلادنا طبقة ثورية واحدة: طبقة الفلاحين، وإذا واصل أحمد شُغْلَهُ على مِتْعِب.

***

مِنْ وراء نافذتي الصقيعية أتذكّرهما. مِنَ القرية التي نمذجتها أفكارُ رَفيقَيْ الدراسة: حسن وخالد. أتأملُ عِشَّ النمل المترنح تحت الثلج والصقيع والرغبات المكبوتة. أتذكرهما، وأتذكّر المختار، وفرحان الأمين وأبو أسعد وأبو قاسم وأبو محمود. كحقولهم، هم الآخرون أسماءٌ تُسَوِّرُها الحجارة. أنا، أيضاً تُسَوّرُني الحجارة. أنتظرُ أن يأتي متعب بسيارته. أنظرُ إلى ساعة يدي وأضحك. أضحكُ الآن كما ضحكتُ ليلة الخميس الماضي ونحن خارجان من بيت خالد، أنا وحسن. متاهاتٌ وأزِقّةٌ فارغةٌ. صمتٌ. أبنيةٌ مجهدَةٌ. مارّةٌ عجولون. أنوارٌ خرساء. فراغٌ من قططٍ وجامعي قمامةٍ وسيارات مذعورة وأخرى متبجّحة!

ننتشي فنكون أجرأ. تتقلص المسافات بين الانفعالات. ينتفي الخوفُ تقتُلُهُ روحٌ تضخّمت فاتخذت لنفسها لبوس الأنبياء والفلاسفة والثوريين. حسنٌ مقطّبٌ. يجاهدُ كي يحفظ توازنه. أقولُ بعد أن قطعنا مسافةً ونحن صامتان:

_ ما رأيك أن تذهب معي غداً إلى القرية؟

في الضوء البرتقالي الشاحب لأنوار الشارع يتأملني باستدارة من وجهه. أتابعُ قائلاً:

_ هناك.. ستعيشُ عن كثب مع طبقتك الثورية!

يبتعد عنّي بضع خطوات، كما لو أن أفعىً لذعته!

_ وإذا شئتَ - تابعتُ قائلاً - فسأحضر لك متعب هذه الساعة. تراه الآن يتعقّب مومسات ملهى الكروان أو الطاحونة الحمراء.

عند هذا الحد الذي فيه إشاراتي القاسية تتجاوزُهُ لتطال متعب؛ نموذجُهُ الثوريُّ توقّف عن المشي. نظرني مليّاً، كما ينظُرُ مؤمنٌ لكافرٍ، قبل أن ينطقَ ما بدا أنه لعنةٌ أبدية حلّت بي:

_ أعتقد أن علاقتنا قد انتهت. لقد احتملت برجوازيتك الصغيرة بما فيه الكفاية!

لا أصدّقُ أذُنَيَّ. أضحكُ. أتأمل حسن؛ الحالم، المفجوع، المبتعد. أضحكُ وأضحكُ. سأقولُ ذلك لمتعب. سأقول له:

_ لقد أفسدتَ صداقتي مع حسن. لقد أفسدتها أيها الوغد!

وفي تلك الليلة الموجعة تمليّتُ حسن المبتعد بعد أن تركني أسيرَ لعنته، التي بدت كما لو أنها لعنة أبدية. واصلتُ السيرَ وحيداً. أواصلُ السير. فكلام الليل سيمحوه النهار. أكلةُ فول مُغرّقة بالزيت ستُنهي الزعَلَ بيننا. سيعود حسن، بعد أن يغفر لي ضيق أفقي الأيديولوجي، ورواسبي البرجوازية الصغيرة ليسألني عن متعب، وعن القرية، وما إذا كان عَددُ الأشجار فيها كافياً للاختفاء عن أنظار السلطة إن لزم الأمر.

أنظُرُ ثانيةً إلى الساعة في يدي. إنها الثانيةُ عشرة ظهراً. ها قد مضى نصفُ النهار الشتوي، ولم يتبق على حلول متعب سوى ساعات قليلة. أتكفي كلمة "وغد" في وصف متعب، أم أترك لعناتي تنبش عظامه، وعظام قريته، كُلِّها! أنظرُ ثانيةً إلى الساعة. أنظر، وأسألُ الشارعَ، والساحة الجرداء. أبتسمُ. أصفُنُ. أقطّبُ. زجاج النافذة يحجبُ عني صقيعَ الدنيا. أمسحُه يصفو. أنفُخُ يتكدّرُ. أمسحُ. أنظرُ من النافذة وحتى الشارع العام. أشجارٌ.. أشجارٌ تتراقصُ وتنفضُ الثلوجَ عن أبدانها، وتتعرى، وتتعرى، وكُنَّ هناك، ورُحْنَ يتقافزن كسربٍ من الظباء، يَدُرنَ من شجرةٍ إلى شجرة. أتسَمّرُ وراء نافذة غرفتي خوفاً وبهجةً. أجِنّياتٌ هُنَّ أم بنات؟

وفجأةً، تقتحمُ "انتصار" ابنة الجيران غرفتي. أرتعدُ. أأملك الجرأة على الاقتراب منها. أي فضيحةٍ ستتسبب لي بها هذه الجنيّة. أسألُها بخوف:

_ ماذا جئت تفعلين؟

تقولُ وهي تغلق الباب خلفها.

_ جئتُ مع رفيقاتي نلعب، وسأختبئ في غرفتك!

الغرفة القاتمة، الباردة، غرفتي، تصبح جهنم. أتصببُ عرقاً، وخوفاً، وفضيحةً.

_ أخرجي.. أقول لك!

تضغطُ بثقلها على الباب فيما الفتيات في الخارج يحاولن فتحه. أمضي نحوها، ناوياً طردها. أقتربُ منها. أخيراً. أخيراً اقتربتُ منها. أخيراً وجد الجسدُ نصفه الآخر. نصفه الذي لم ينتبه أن جداراً واحداً فقط يفصله عنه. الروحُ شاردةٌ في الليالي الضائعات، تثرثرُ، وتلعبُ الشدّة، ولم تنتبه إلى ما قد يكون انتصارها الحقيقي، إلى أن قالها متعب، شيطان الروح والجسد.

نغلقُ باب الغرفة بجسدينا الملتحمين، والفتيات اللاهيات في الخارج يصحنَ، يخمشنَ بأظافرهن جسدينا الغريبين. وهكذا ظللنا حتى ارتوت الرغبة، وبعد الاتحاد تأتي الغربة. تعودُ "انتصار" غريبة. فتاة ريفيةً، وأعودُ معلم القرية. يطلق كل منا جسد الآخر بهلعٍ وقسوة، وتخرجُ مذعورةً. أعود إلى النافذة، فأراهن، هناك، يتعاركن، ويتقافزن من شجرة إلى شجرة. لكأنما هن لسن فتيات. ربما كن أغصاناً تراقصها الريح، أجسادٌ تقتربُ، ظلالٌ تبتعدُ، فتيات، أم جنيات؟ جنيات أم فتيات؟

وكنتُ ما أزالُ أنظرُ إلى السقف عندما تتالت الطرقات على باب غرفتي. ودخل متعب، وهو يقول متلعثماً:

_ لا تؤاخذني يا استاذ.. لقد تأخرتُ عليك.

ألقيتُ نظرةً على طوله الفارع النحيل، ثم قلت وأنا أثبّت عينيَّ في سقف الغرفة:

_ لقد تأخرتَ كثيراً يا متعب، لن أذهب اليوم إلى الشام. سأقضي عطلة الأسبوع هنا، في القرية.

قال : طّيّب ! بِدَّك شي من الشام؟

قلت مستعجلاً خروجه من غرفتي:

_ أريدك أن تنقلع من وجهي!

نظرني غير مصدّق عينيه، وقال قبل أن يغلق الباب عَلَيَّ:

_ أمرك غريب!

وضحكتُ.. ضحكتُ.. وقمتُ إلى باب الغرفة الذي أغلقه متعب وفَتَحْتُهُ!

كاتب من فلسطين مقيم في دبي

جثّتي الجافّة كقطعة حطب

إسلام ابو شكير

مجزرة عائلية صغيرة

ما إن تأكّدنا (أنا وإخوتي التسعة عشر) من أنّ والدنا سيموت بعد عدّة ساعات على الأكثر . عرفنا ذلك من شعاع الضوء الأزرق الذي أخذ ينطلق من عينيه . حتّى دبّ الخلاف بيننا حول قضيّة دفنه. تبادلنا الاتّهامات. وفي مرحلةٍ من مراحل النقاش شتمْنا بعضنا. وفي مرحلةٍ أخرى اشتبكنا بالأيدي، وكُسرت ذراع أحدنا، فيما فقد الآخر ثلاثةً من أسنانه الأماميّة.

لم يكن الخلاف حول مكان الدفن، بل حول ضرورته. كنّا أمام قضية شائكة بالفعل: أليس نكراناً للجميل أن نحمل هذا الأب الذي جئنا من صلبه وأفنى حياته من أجلنا، لنلقي به في حفرة، لمجرّد أنّه مات؟..

كنا متّفقين على شناعة هذا الفعل، ولا أخلاقيّته. لم تكن هذه هي المشكلة. ما أثار الخلاف بيننا نقطةٌ تفصيليّةٌ تتعلّق بكيفيّة الاحتفاظ بالجثّة. بعضهم قال:

. يحتاج الأمر إلى من يتفرّغ للجثة. هذه جثّة. وبحاجة إلى من يداريها، ويعتني بها، ويهشّ الذباب عنها طيلة الوقت. تحتاج إلى تهوية. وإلى غسيل. وإلى مراهم خاصّة كي لا تجفّ. تحتاج إلى من يخرجها إلى الشمس بين الحين والآخر. تحتاج أيضاً إلى من يقرأ عند رأسها سورتي البقرة وياسين كلّ يوم. ونحن كما ترون. مشغولون على الدوام. ليس بيننا من يمتلك الوقت لهذا كلّه..

كان الشعاع الأزرق المنبعث من عيني والدنا يخفت شيئاً فشيئاً خلال نقاشنا هذا. لم ننتبه إلى ذلك. لم ننتبه أيضاً إلى أنّ والدنا لم يعد يحتمل ضجيجنا. لا شكّ أنّه صرخ فينا مرّةً أو مرّتين. لكننا لم نسمع شيئاً. أحد جيراننا أخبرنا فيما بعد أنّه تلقّى اتّصالاً من والدنا يستدعيه ليتدخّل في فضّ الاشتباك، لكنّ جارنا لم يكن قريباً من المكان ساعتها. كان مسافراً في ذلك اليوم..

اقترح أحدنا أن نستأجر شخصاً لرعاية الجثّة، لكنّ الاقتراح بدا مستهجناً جدّاً. نحن أولاد الجثّة، ولا يصحّ أن نسمح لغريبٍ أن يقوم بمثل هذا المهمّة..

كان الوقت يمرّ سريعاً. والخلاف على حاله. لم نشعر بالجوع. ولا العطش. طالت ذقوننا. وأظافرنا أصبحت كالمخالب. كنّا نلهث. وأصواتنا أصبحت أشبه بالعواء. رائحة العرق الحامضة الدبقة المنبعثة من أجسادنا أصبحت لا تطاق. زوجاتنا يقرعْن الباب علينا. نسمعهنّ يردّدن أسماءنا في كثيرٍ من القلق. لكنّ أيّاً منّا لم يتمكّن من النهوض لفتح الباب.

آخر ما عرفناه أنّ جثّة والدنا لم تحتمل الموقف. فنهضت من سريرها متحاملةً على موتها. وبخطوات متعثّرة تقدّمت إلى الخزانة. ثمّ أخرجت بندقيّة الصيد القديمة.

لم يخبرنا أحد فيما بعد ماذا فعلت الجثّة بالبندقيّة. هل أطلقت النار على نفسها. أم علينا. أم أنّ الرصاصات كانت في الهواء لمجرّد التحذير..؟!

رحلة:

حملْنا الميت على أكتافنا. مرزْنا به أوّلاً على أمّه. ثمّ على زوجته. توقّفنا قليلاً عند بائع السجائر. عبرنا ثلاثة جسور. دخلنا نفقين. انشقّ حذاء أحدنا بفعل شظيّة زجاج ألقاها سكّير في وسط الشارع. رأينا الأسماك تطلّ برؤوسها ونحن نمرّ بمحاذة النهر. سمعناها تتكلّم بلغة لا نعرفها. لكنّنا لمسنا حزناً ما فيها. تبرّع لنا خيّاط مررنا به بعلمٍ ذي عشرين لوناً. أحد الموسيقيين تبرّع بلحنٍ حزين. والغيوم تبرّعت بالمطر، مع قوس قزح صغير. بضع شجيرات كانت تنتفض فتتساقط الأعشاش تحت أقدامنا. وكان يتناهى إلينا صوت البيض وهو ينسحق تحتها. لم نشعر بالتعب إطلاقاً. كنّا قلقين فقط. كنّا نلاحظ أنّ الميت على أكتافنا أخذ يفقد وزنه شيئاً فشيئاً. كما لو أنّه يتبخّر. لم يُسمح لنا بالتوقّف لإلقاء نظرة عليه، ومعرفة ما يجري. قيل لنا إنّها بقايا الروح تغادره. هززنا رؤوسنا، وتسلّقنا الجبل. ثمّ هبطناه إلى الجهة الأخرى. لم يسألنا أحد عمّن نكون. ولم يُطلب إلينا أن نبرز جوازات سفرنا. والفنادق كنا ننزل فيها مجاناً. كانوا يحجزون لنا أجنحة فاخرة. مع وجبتي طعام. أحببنا كثيراً الجبن المشويّ مع شرائح الموز الأخضر. ولم يخب ظنّنا، فقد حمّلونا كميّات منه عند المغادرة. بوسعنا القول إنّ الرحلة كانت ممتعة. أمر واحد فقط جعل هذه المتعة ناقصة.. الميت.. الذي فاجأنا في نهاية المطاف. كان جافّاً كقطعة حطب. وكان ثقة حراشف بنّيّة اللون تغطّي جسده. وحين حاولنا إنزاله في القبر تفتّت بين أيدينا. وتطاير في الهواء.

الحافلة

كانت الحافلة تغصّ بالركّاب. ليس بوسعي أن أحصي عددهم. يتطلّب منّي ذلك أن أتحرّك من مكاني، وأتجوّل بينهم مردّداً:

- واحد، اثنان، ثلاثة.

وهذا ما لن يكون ممكناً. الأجساد ملتصقة ببعضها تماماً. معظمنا كان يقف على قدمٍ واحدة. ثقة رجالٌ طوال القامة يحيطون بي، ويحولون بيني وبين رؤية مقدّمة الحافلة ومؤخّرتها.

لم أتمكّن من معرفة الوقت. فرفعْ يدي إلى مرمى نظري لتأمّل الساعة كان أمراً مستحيلاً. مستحيلاً بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. كنّا مضغوطين إلى درجةٍ لا تسمح لأيّ منّا بأدنى حركة. وبالطبع فقد تسبّب لنا هذا الوضع بحالاتٍ من التوتّر والانهيار العصبيّ، لكنّ الفرصة لم تكن متاحةً أمامنا للإفصاح عن أيّ إحساس. كنّا متوتّرين من الداخل فقط. أمّا من الخارج فلا شيء على الإطلاق. مجرّد أجساد متيبّسة. أقرب ما نكون إلى التماثيل. لا نختلف عنها إلا في كوننا منحوتين من لحم وعظم مع قليل من الدم. تماثيل عضويّة قابلة للتحلّل يوماً ما. وبالفعل.

بدأ الأمر على شكل دفعات من الروائح تنبعث بين الحين والآخر. روائح غير معهودة. تجاهلناها في البداية. لكنّ أحدنا لم يتمكّن من ضبط نفسه، فصرخ:

. الرجل يموت.

دوّت صرخته في أرجاء الحافلة. وصلت آذاننا واضحةً وصافيةً تماماً.

ثمّ أخذنا نشعر بسائلٍ لزج يجري تحت أقدامنا. لم يكن دماً. أؤكّد أنه لم يكن دماً، مع أنّني لا أملك الدليل على هذا. الأغلب أنّه صديد.

صوتٌ نسائيّ ارتفع من مكانٍ ما:

- ابنتي تذوب!..

قالتها في كثيرٍ من الفزع.

سمعنا من يردّ عليها:

- اطمئنّي، هذه ليست ابنتك، إنّها ابنتي أنا.

-بل ابنتي، معها جواز سفر يثبت ذلك.

كدنا نضحك لولا أنّ الصديد تحت أقدامنا ارتفع منسوبه حتى لامس ركبنا. كان واضحاً أنّ الكثير منّا آخذون بالذوبان أيضاً. كان ذلك سيسعدنا، لأنّه يعني أنّ هؤلاء الذائبين سيخلون أماكنهم لنا، ممّا يتيح لنا أن نتحرّك قليلاً. أن نحرّك أيدينا على الأقلّ لنهشّ الذباب الذي حطّ على أنوفنا، أو عند زوايا عيوننا. لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث للأسف. بقينا على حالنا من التصلّب والانضغاط.

وكنّا نسمع بين الحين والآخر قرقعة عظام. الهياكل العظمية للذائبين كانت تتحطّم. ورأينا كسراً منها (سلاميّات أصابع، أو فقرات عنق، أو فكوكاً، أو أضلاعاً) تطفو فوق بركة الصديد التي غمرتنا إلى أعناقنا.

لم يكن ذلك ليقلقنا. عقولنا جميعاً كانت مشغولة في الحقيقة بأمر آخر. كنّا نفكّر بمصير سائق الحافلة. كنّا نخشى أن يذوب هو الآخر. بدت الصورة مرعبةً بالفعل. كلّ هذا العدد الهائل من البشر تجري بهم حافلة بلا سائق! من يدري في أيّ هاوية ستسقط، أو عند أيّ جبل ستتحطّم!

وأخذت ألسنتنا تلهج بالدعاء. دعَوْنا بكل اللغات التي نعرفها. لكنّ أصواتنا أخذت هي الأخرى تخفت شيئاً فشيئاً، إلى أن حلّ الصمت. كنّا نغرق بهذا السائل اللزج الذي تحلّلنا إليه.

وحدها الحافلة بقيت تسير متماسكةً. محافظةً على نفسها. حافلة حقيقيّة بعجلات وهيكل ومقاعد. تسير في طريق معبّد، عريض، تحفّ به الأشجار من الجانبين، وفي الوسط أعمدة إنارة، تماماً ككلّ الطرق الحديثة التي نعرفها.

كاتب من سوريا مقيم في الإمارات

أمجد وردة

شفاعات

أسماء إبراهيم

لم يُسفِر أي ترحال عن جِلٍ، مسير.. مسير بلا هدأة، كلهم رحلوا ووحدي ظعنت في سَفَرٍ مقيم.. أسابق عقارب ساعة أخاف تلدغني فأهرب منها حتى لا أَخلُف موعدًا.

"بشم فيكي ريحة النجيلة الخضرا" لم يكن أبدًا بالقرب الذي يكفل له اشتمامي.. فكيف اشتمَّ رائحة الروح؟!".. على نزقه البادي الذي لا ينسجم مع خجول محافظة كان ذا سطوة.. خفية لا صارخة تنسحب على خفر وتجتاحني بتسلل!".. الرياضي الأشهر في ملاعب الجُمَع والآحاد يقتنص الكرة من غريمه، يمررها لزميل له في الفريق.. "صانع ألعاب" هكذا يحلو له أن يعرّف نفسه مداريا شعورًا برائحة خزي بعيدة لعجزه عن تسديد هدف في شبك الملاعب التي ارتادها.

اللعبة بيننا استمرت حوالي ثلاثة أشواط.. كنت شبكته العنيدة الحرون أحرس مرماي بحذر الأم على رضيع لم يذق غير حليبها بعد.. وهو لم يُرِد غير رشفة مختلسة عن أعين الآخرين.. لم يكن هذا ما أريده أنا التي اعتادت الاغتراف ولا ينجح لها "ريجيم".. الغريب أنني لم أكترث لعيون المتلصصين أو المتابعين لهدف محتمل من صانع ألعاب أنهكته محاولات التسلل.

أتسلل لروحي ذات مساء نتنادم على صحة المرتحلين في براح القلب، تراه أين يسكن فيه الآن أم أين يختبئ به؟ هو الآخر اعتاد الاختباء.. زئبقي الحضور ما أن تراه حتى تسأل محيطينك: "هو راح فين؟!" صاحب نظرية العرض والطلب التي كان يحلو له تطبيقها حتى يظل مشتهًى.. ووحدي منحني امتياز أن أجده. من محبسه الاختياري كانت رسائله تطرق بابي وتطرقني.. الإسكندرية أو شارم.. ربما "دهب" ذات شتاء.. كان على سفر دائم.. أم على هروب؟ ووحدي يمنحني عنوانه الذي يعرف أنني لن أستطع إليه وصلا، تطور الأمر لدول تسمع عنها في الأساطير وأصقاع أبعد مما تتخيل. هل قلت إنه السبب في أن أتمنى حيازة طاقية الإخفاء لأتتبعه.. لأتقصَّى خطواته، ليس انعدام ثقة فيه أو شك يراودني بكذبه.. فقط رغبة دفينة في التمثُّل بصاحب التطمينات عديمة الموثوقية.. الساكن في "الهُنا واللا هُنا". في إحدى ومضات تجليه تجاسر ذات مرة وأقام أمامي لحين انتهاء جملته: "أنا بحس بالأمان لما بشوفك"، مانعت نفسي عن مطاوعتها بالرد: "وأنا أستشعر الفقد بوجودك"، أقاوم في المقابل قلقا خشية فقد وشيك.. طوابعه التي كانت على خطاباته استحالت لصور (جي بي جي) تصلني اليوم على بريدي الإلكتروني.. أفتقده اليوم افتقاد أناملي لملمس التراب النديّ في جوف صندوق بريدي الخشبي في بهو البيت القديم في زمن أقل اصطخابا وأصدق قيلا.

الأقوال.. مجددًا.. لم يكن لديه إلّاها.. شاعر جنوبي تلقفته عيناي أول عهده بالقاهرة القاهرة، لذا ظل على يقينه بإحرازه نجاحا في مدينة المتن بعد سنوات تكوين في الهامش.. هكذا كان يردد لي ويؤكد أن بشاشتي في وجهه كانت بُشراه. تحققت نبوءته، وطالعناه في برنامج تليفزيوني شعري عربي تربو جائزته على المليون.. ظل ينشد قصيدته التي أسمعنيها على شاطئ النيل ذات مرة.. يومها عيَّرته باكتشافي لانتحاله الأشعار المهجورة، كانت موهبته في قدرته على الهضم وإعادة الاجترار كطبعة جديدة مزيدة ومنقحة، لم تكن سقطته ألا يكتب فيّ شعراً.. كانت خطيئته أن يكذب في شعرًا.. لفترة طويلة كنت أؤمن أن "يكلفنا الحب ما لا نحب" من عندياته حتى اكتشاف زيفه بالمصادفة. ما باعد بيني وبين الحقيقة ليس عدم ميلي للشعر قدر صدق إحساس صديقي المنتحل لأشعار درويش، وكأن تلك الشطرة كانت بنت وجدانه حين قالها.. على شاطئ النهر أتأمل موجاته وهو يقرضني شعره، أستفيق لأجد طرف حجابي بين يديه يتشممه ويُنشدني، لا أكترث وأنظر له معاتبة متشككة، يومها حلف لي أنها هذه المرة من بنات ونساء أفكاره وأنها قريحته التي جادت بتلك القصيدة.. أصدقه هذه المرة وهو على شاشة التلفاز.

أطرق إلى الكأس الذي كنت ابتلع ماءه مع إحباطات أهداها إليّ نديمي، كأس جديد يجاور كؤوس منتصبة على طاولة المطعم.. لا كؤوس روت ولا منادمة أسكرت.. أفيق من شرودي وأختار ما أُحب من قائمة الطعام وأحرص على طلبه حين أجده "فيتشوتشيني تشيكن".. ينبهر خلّي هذه المرة بطلاقة نطقي لتلك اللفظة الأعجمية، كان شاعرًا هو الآخر - بل كان أشعر ولكنه من صعيد أعمق- يحاكيني في طبقي ولكنه لم يقو على محاكاتي في أُكله، اكتفى بمشاهدتي آكُلُه بنهم وبطلاقة تماثل نطقي له: "قوليها كده تاني!!".. يتندر من البندرية التي تلف شرائط الباستا في صوصها الأبيض وتلقفها في فمها بنهم وثقة بالغين.. أتوقف عن الأكل احتراما لإلقائه قصيدة النثر أمامي، أستحرَم الإطعام في حضرة الشعر.. كانت قصيدته عن بطل يصبو لما يجهل وسعيه حثيثا لهدفه الغائم بشغف أكبر من مقدرته، أجد قصيدته مترددة أكثر منها طموح، حاول إكمال طبقه لكنه لم ينجح سوى في اقتناص حمل شوكتين فقط.. اكتفى بالتلمُّظ على الطبق المستعصي على الأُكُل شاخصا إليه متسائلا: "ودي بتتاكل منين؟!!"

- "هي إيه؟؟!!"

- "الباستا!!".

أهرب من قصائده.. أهرول كظاعنة متأخرة عن ركبها تخشى القيل والاتهام.. أمد خطاي وأجري، بل أقفز على شرطات الدقائق في الساعة وأحترز من عقاربها التي تقصل رقاب مخلفي المواعيد والوعود.. لا زلت ممن يستمسكن بساعات دائرية حول معاصمهن.. أسترق إليها النظر وأنا أمرق الميدان.. بجوار جراجه الحضاري الذي يعلم الله ما يمور بعمقه بعيدا عن سطحه بألوانه الفاتحة التي تلقي بظلال الوداعة على روحي، هل كان اللون أم احتياجي للسُكْنى؟ في طريقي للمقهى الشهير حيث ينبغي أن أصل في تمام الرابعة كما يليق بامرأة جادة.. تغيم الدنيا وتستحيل لمساء متخمة سماؤه بالألعاب النارية، أتذكر أنها المرة الأولى التي أنزل فيها الميدان في مليونية مسائية بعد مليونيات عدة في شموس الشتاءات اللطيفة.. كان هو من عرّفني على الميدان أنا رهينة الغرف المغلقة والأبواب المُسكَّرة.. كنت أحتمي بشرنقتي من هول العبث.. يعبث الهواء بوجهي.. يجتاحه كتموجات الريح على صفحة حقل قمح، تتغير ملامحي وأُشرق أكثر بشمس هذا النهار، يمعن فيّ النظر.. عيناي تسألاه عن سبب شروده، يجيب: "نمش وجهك أم زنابق وحان وقت قطافها؟؟!!".. ألمح الجالس المنتظر وأرى نقاطا وسككا تتقاطع في فنجانه الذي أحاول قراءته لأعوض عنه تأخير نصف الساعة، وسمت مرح ونزق أستعيرهما لأعوض بهما جهامة امرأة جادة.. "قدامك سكة سفر". أقول له وأكمل قراءة الفنجان، وأراني في جوفه المغبش أصعَد جبل البن. أقع في وهاده فيمد لي صاحبي يداه لأقوم مجددًا.. أواصل السفر والصعود وأتشبث بأي نتوء.. أغافل نتوءات الروح وأتجاهل لماذا وعلامَ؟ ولمَ لم أُكمل طريقًا إلى آخرها؟ يقول صاحب الفنجان الجالس في المقهى: "وجدتك جميلة، مكتملة الأنوثة، وتمتلكين عقل رجل شريف". هي أغلى وأطرب ما سمعت من المرتحلين أنا الظاعنة بالوقت.. هي شفاعتك لديّ حتى لو لم نكمل سكة السفر.

كاتبة من مصر

اسماعيل فتاح الترك

يصدر قريبا

كراس "الجديد" الشهري

الحداثة الملفَّقة

سجال في مشكلات الحداثة العربية

مجموعة كتاب

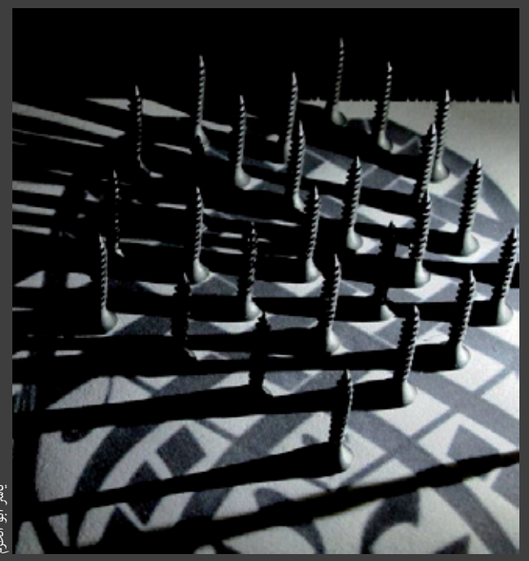

ياسر أبو الحرم

فكر حر وإبداع جديد

ثلاث قصص

آمال الأحمد

الأرواح لا تنجب الأطفال

تسير خائرة القوى نحو حتفها.. تترنح قبل السقوط الذي توقعت حدوثه بعد موت حبيبها.
لكنها تفاجئني، وتقرر ألاّ تسقط.
تقول لي: السقوط عجز.. والعاجزة تبعد عن العشق ألف سنة حب.. وأنا أحب.. تكمل مسيرها حافية القدمين.. تنظر إليّ من بعيد.. تصرخ: سأحب الآن روحه.. كما كنت أفعل من قبل. أخذتني الظروف لبلد آخر.. تزوجتُ وأنجبتُ وأسست حياتي كما أريد.. لم أكن أعلم أني سأقابلها صدفة في حديقة الأطفال.. في نفس البلد الذي سافرت إليه.. كانت تؤرجح طفلتها..
اقتربت منها وسألتها بعد السلام:
- ابنتك؟
- قالت: نعم.
- قلت: من حبيبك؟
- قالت بحزن: قلت لك سأظل أحب روحه.. الأرواح تنجب السعادة والفرح والحنين..
رفعت رأسها للسماء..تدحرجت دمعة يتيمة على خدها.. أكملتْ ولكنها للأسف لا تنجب الأطفال.

قهوة الذاكرة

أقرر الكتابة عنه.. أعد فنجان قهوتي الصباحي.. أجلس على الشرفة.. أفتح دفتري القديم.. أحاول استحضار الذاكرة من سحابة لهفتي إليه لتتحول إلى قلم رشيق الحرف.. وما أن أبدأ الكتابة حتى تثور السطور الزرقاء في وجهي.. فلا أعرف لها استقامة ولا طريقا أهتدي به لكتابة وجعي.. تتجاهلني وتدير ظهرها عني.. تتراقص بغرابة لا أفهمها.. حاولت جاهدة أن أغض بصري عن رقصاتها المثيرة.. ولكن الفضول زرع نظراتي ثانية تحت خطواتها الراقصة بحرفنة حروف راحت تتشكل في صدر الصفحة صفعة لا أكثر.. أو هكذا قرأتها.. تجدل السطور نفسها بعد انتهاء رقصتها.. تصنع جديلة تشبه جديلة امرأة كانت تجلس بجواره ذات يوم خائن.. كانت تشرب القهوة بلذة خادشة للبراءة.. فيما يدخن هو سيجارته برجولة حمقاء.
أغلق الدفتر بعصبية.. علني أسكب قهوتها على وجهه.. وأحرق جديلتها بعقب سيجارته.. أضع الدفتر على حافة الشرفة.. غير آبهة بتلك الريح القوية التي أجبرتني على دخول حجرتي.. أكمل شرب قهوتي وأنا أسير نحو حائط كان في ما مضى سكناً لصورة كانت تضمنا معاً.

دونه أنا لا شيء

عرّاه سجّانه من كل شيء.. حريته.. ثيابه.. أحلامه.. من أشياء كثيرة كان ولا يزال يحبها.. حتى خياله لم يسلم من قبضته السوداء.. قيده بالسلاسل.. رمقه بنظرة ازدراء جافة.. أعطاه ظهره وهمّ بالرحيل.. لكن السجين صرخ من خلفه قائلاً: اترك لي شيئا واحداً. قال السجان ونشوة المنتصر تقطُر من عينيه نظرات تقدح ضحكاً: حسناً.. لك ذلك.. لكن إياك وطلب الحرية.. أو حتى رؤية الملك.. قال السجين ساخراً من نظرة سجانه: أما الحرية فلا تُطلب.. والسلاسل قد تعودنا عليها وعلى نغماتها التي وحدها تحدثنا حين يجتاحنا الحنين.. أما الملك فهو إن لم يعلم بحالي وأنا من الشعب.. فلا حاجة لي لرؤيته.. قال له: ماذا تريد إذن؟ زحف إلى الحائط.. ضربه بكف يده التي أثقلتها السلاسل.. قال: أريد نافذة. قهقه السجّان بصوت عال وقال: من الصعب أن أحقق لك مطلبك الآن.. فجدران السجن كما ترى قوية.. تحتاج إلى جهد كبير منا لصنع نافذة بحجم رأسك.. كما أن النافذة في السجن ليست كبقية النوافذ.. تحتاج قضبانا حديدية.. وهذا ما لا نملكه.. قال السجين بنبرة كساها الحزن: الأمر أسهل مما تتخيل.. ولا يحتاج أن تبذل فيه الجهد الكبير. قال: وكيف ذلك؟ أجاب: أعد لي خيالي.. به أخلُق ما أشاء.. أخلق نافذة هنا.. يشير إلى الجدار أمامه..هي ستمنع الخوف من أن يتسلق جسدي حين تغلق الباب خلفك.. معها ستأتيني الحرية على هيئة عصفور مغرد أو ربما فراشة.. لماذا تخافون منه؟! اقترب السجّان منه.. كان عليه أن يهبط بجسده أرضاً ليكون على مقربة من وجه السجين.. وحين تحقق له ذلك.. جذبه من لحيته نحوه وقال: اليوم تتخيل نافذة.. وغداً ستتخيل أمراً آخر نخاف من أن يكبر فيك.. لأنك حين يأتيك المخاض سترفس هذا الجدار بقدميك.. وتقذف زوايا هذا السجن بصرخاتك التي قد تصطدم بجدرانه وتشعله ثورة.. وقف السجان.. واتجه إلى باب السجن.. التفت إليه قائلاً: لقد تحدثت معك رجلاً لرجل.. فابتعد عن الخيال والأحلام كي تسلم بجسدك.. قال السجين: كن صادقاً ولو لمرة واحدة.. لا تقل رجلاً لرجل!؟ أنا دون الخيال لا شيء.

كاتبة من فلسطين مقيمة في الإمارات

جناح الأورام

أنيس الرافعي

الآن ، وقد حلّ الأسوأ الذي لم يكن في الحسبان، ليس لي سوى الاعتقاد جازما بأن الشّرارة الأولى لكل ما وقع، انقدحت حينما خرجت إلى شرفة شقّتي بالطابق الثاني للعمارة، ببيجامة النوم، لأدخّن سيجارة .
صدّقوني، كل المصائب التي سوف أخبركم بأدق تفاصيلها، سقطت على رأسي دفعة واحدة بسبب رغبة بسيطة وتلقائية في تدخين سيجارة، مجرد سيجارة لا أكثر .
في الخارج، كانت السماء معتمة ومطيرة كنزيف داخلي، والوقت تجاوز منتصف الليل بقليل. وعلى الأرجح، بسبب تحالف الضجر والسهّاد وتحوّلهما إلى كآبة طاغية، مكثت ساهما على الشرفة لدقائق إضافية مثل قمر أعزل .

وكما قد تتوقّعون، دخّنت أكثر من سيجارة .
المهم، في غضون هذا الطقس شبه اليومي، الذي تدمنه النفوس القلقة كلما قلّبها السهر على مشواة العدم، حدث أن اختطفت نظرة إلى الأسفل على سبيل تهوية العزلة لا غير، ليقع بصري على رجل بمعطف شتوي مماثل لذلك الذي بحوزتي، يهرع من باب العمارة مجتازا الفناء الخارجي في اتجاه البوابة الرئيسيّة، وفي يده مظلّة مطويّة وحقيبة سفر .
هذا الرجل، الذي عنّ لي، أو ربما توهّمت لحظتها أنه من الممكن أن يكون أحدا آخر هو نفسي، يمرّ من أمامي وأنا ناظره كما لو كان شخصا آخر غيري ولست أنا، أو كما لو كنت أنا غيره ولست هو، كان على الأغلب شبيهي المطابق أو بديلي الغريزي، الذي يزعم أنه نصفي الضائع، ويظهر بين الفينة والأخرى كي يلج حياتي عوضا عني و يزيل أيّ أثر لذاتي .
الرجل إيّاه، كان يدسّ بالمقلوب ساقا في الجيب الجانبي لمعطفه الشتويّ، الذي تعوّدت أنا أيضا على ارتدائه .
تيقّنوا بأنني لا أهذي أو أختلق ما أحكيه لكم، كما أنه من سابع المستحيلات أن تنطلي عليّ خدعة الرؤية إلى هذه الدرجة المحرجة من التضليل، حتّى وإن كنت في حقيقة الأمر عاجزا عن تأكيد مزاعمي من حيث أتواجد.
ثقوا بي، لقد كانت ساقا فعلا، عارية، متوسطة الحجم، وبالتأكيد غير آدمية ولا حيّة، بسبب أن جذرها كان موصولا بنابض، حيث لا مناص لي غير أن أرجح بكونها ساق دمية.
فيا له من مشهد! الزمن ما بعد منتصف الليل، مظلّة مطويّة، حقيبة سفر، ساق مقلوبة لدمية داخل معطف شتوي، ورجل غامض مثل توأم يمرق عابرا في أحراش روحك المقفرة، بالله عليكم هل فيكم من سيتظاهر أمام كل هذا بالحفاظ على رباطة جأشه أو كبح جماح دهشته؟
إذن، في محاولة مني لإعادة الأمور إلى نصابها، ولرأب الصدع الذي غالبا ما ينشأ نتيجة صراع غير ودّي بين الواقع وحياتي الداخلية، التي تهرب إليها هواجسي عندما لا تعود الحياة في العالم الحقيقي ممكنة بالنسبة إليّ، قفلت عائدا من الشرفة إلى غرفة نومي .
ولما تفحّصت الدولاب، لم أعثر على أيّ أثر يذكر لمعطفي الشتوي، أو حقيبة سفري، ومظلّتي، بل الأنكى من ذلك، وجدت ملابس غريبة عني، وأحذية لا صلة لها بمقاسي .
أما المشوّش حتما والذي أثار هلعي عقب ذلك، فهو ما رأيته عندما كنت بصدد العودة مرة ثانية إلى الشرفة لحرق لفافة أخرى. إذ كانت الجدران الجانبيّة تغصّ بصور فوتوغرافية من مختلف الأحجام والوضعيات، أغلبها ألتقط خلال سنوات الشباب المبكرة، لوجه رجل باسم طلق المحيّا لم أتعرف عليه، لدرجة خلت معها أنني غريب في هذا المكان أو دخيل يقطن شقّة شخص غائب دون علمه، ترك لي فحسب على سبيل الذكرى أو السخرية السوداء سلسلة من البسمات الصفراوات التي تلوح على نحو مخادع وملغز خالية من أيّ دلالة .
ترى، هل عليّ أن أفهم أنّ بعض تلك البسمات تضمر لي أمواسا مدسوسة في القطن؟ بقية شرّ سابق أو ربما قادم؟ ومن أدراني بأنها في واقع الأمر بسمات محشوة بالفخاخ؟ جسر منبسط ومعلق في فراغ عال مفرط في خوائه تتهادى عليه رخّي البال، كي ينهار فجأة من تحت قدميك، فتهوي عميقا إلى الأسفل. ألا يحتمل أن صاحب البسمات يكيد لي في الخفاء ويعد لي عدة الانتقام؟
إذ أنه في الغالب على علم تام بأنني لحظة وصولي إلى هذا المكان، كنت مسلّحا بالكثير من طرائق التمويه، وقد تخلّصت من أوراق هويتي السابقة بإحراقها، إلى جانب معرفته بإصراري على الاستتار عن الأنظار تحت اسم مستعار (كيف عرف بأنني سارق أسماء شتّى، أخبئها في حقيبتي كي لا تتسرّب مني، وأمضي على طرقات غريبة؟)، تحاشيا مني الخوض في تفاصيل سيرتي الماضية وذكرياتي القديمة، آملا في التحول بعد مدة وجيزة إلى محض نكرة ليس بمقدور أيّ شخص آخر أن يهتدي إلى أيّ أثر أو علامة تدل على وجودها، عدا صاحب تلك البسمات الصفراوات.
وفي حمأة ما يدور حولي من أمور عصّية على الفهم، وبين جحيم غدوي ورواحي في متاهة الرواق، مبحلقا بعينين فارغتين في الصور الفوتوغرافية الحاملة لوجه الرجل المجهول، وبذهن مبلبل يغلي مثل سخّان ماء انتابته القعقعة، داست قدمي شيئا ما ذا طبيعة صلبة، فندّت عنه (للتوّ صرخة ألم مجلجلة لسعت جسدي رعبا لسع حديد

حسين جمعان

الختم.

من المؤكد لحظتئذ، وعلى إثر هذه الحركة الرعناء غير المقصودة، أنني تجمّدت من الجزع، وأن عرقا باردا سرى عبر أوصالي جرّاء رجع صدى الصرخة الذي كمّم حواسي بغمامة سوداء.

وحالما أفقت مما ألمّ بي، اكتشفت ما سيؤكد أفظع الاحتمالات التي كانت تستبدّ بي: قميص وردي منكوش، تنورة ممزّقة، حشوة صوف بشعة تشرئب بعنقها كالجريمة من استدارة ورك، وساق محطّمة .

أما الأهم عندي والذي يستحيل نسيانه على الإطلاق، فهو تلك النظرة التي كانت تحدجني بها الدمية. نظرة معذّبة أشبه بجناح أنتزع من فراشة. نظرة وجه ملائكي متغضّن يشكو من تقلّصات عصبية. نظرة لا تطاق ضاعفت من قسوتها تكشيرة الفم، وجعلتها تجوس إلى أعماقي وتخرقني حدّ العظم .

عبثا حاولت أن أحيد بحدقتيّ عنها وأفلت من إسارها. حيث أدركت أن نظرة الدمية ستظل حاضرة حتّى لو أشحت عنها، مستقرّة بقاع سويدائي، متحرّكة في ما بعد داخل روحي، في تنفسي، في حركاتي، في نظرتي، وفي مجرى دمي .

الخوف. هل كانت لي سابق معرفة به قبل الليلة؟ ثم في أيّ عضو من الجسد يعشّش طارحا بيوضه؟ وبأيّ منطق يتناسل وينمو؟ وهل هو ضروري أو مصيري حتى ندرك بعد فوات الأوان جمال الحياة من دونه؟ تخافون من الظلام، من النور الساطع، من القبح، من الحسن الفائق. تخشون من الحفر والأنفاق والسراديب، من الارتفاع الشاهق، من الانتظار لو زاد عن حدّه، من النّفس الأمّارة بالخسارات، من الوشايات الكاذبة، من الشيخوخة لو أبكرت، من الموت في غير موعده، من السرطان في ذروة البهجة، من الحياة إذا ما كانت عاهرة، من الصّمت المحتشد بالصغائر والنأمات، من الأماكن الضيقة المقفلة، من الانتحار، من الباطن، من المخفي، من الظاهر أكثر من اللازم، من البروستات، من الله. تتهيبون من الشيطان، من الذاكرة، من النسيان، من النجوم الطوالع، من القروض الفواحش، من العنّة، من الخيانة، من البرد، من الأبواب السريّة، من المرايا حتّى وهي صادقة، من السحر المختوم، من قنينة الغاز المفتوحة سهوا، من الكلاب، من الجرذان، من الأقنعة، من الصراصير، من الجار مرير اللّسان، من الجنادب التي لا تملك كمانا، من الجنّ الأزرق، لكن لا أحسب أنكم عشتم يوما ما تجربة الارتعاب من نظرة دمية؟

سعيت طيلة تلك الليلة المشؤومة أن أعيد الساق إلى موضعها الأول، لكنني أخفقت على نحو ذريع. بلا ريب، ليس بسبب تلف الصامول المعدني الذي يربط فخذ الدّمية بحوضها، وإنّما بسبب تلك النظرة الناقمة التي حدثتكم عنها .

إنّ بئر الروح هو الجسد، والعينان دلواه. وإذ يتوجّع الجسد، لن يكون للروح من وسيلة للصرخة عداهما .

نعم، عينا الدمية كانتا تصرخان بلا توقف، فحالتا بيني وبين ترميم ما اقترفته قدمي من خطأ فادح .

فألقيت بالساق جانبا، ثم جرّبت أن أغفو، غير أن النوم صاح بي هيهات، فبقيت ممدّدا على سريري. عينايّ مفتوحتان في الظلام، وأنا أتحرّق لإطلالة صباح اليوم التالي كي أطرد هذه الواقعة برّمتها عن كاهل ذاكرتي. غير أن الصراخ الذي كنت أظنّ أنّي أتصوّره وهماً فحسب، طفق يصل تدريجيا إلى مسامعي مثل عشب خشن يواصل نموه في الدواخل، ثم غزا زاحفا على كافة أرجاء الشقّة.

وكي أكون أمينا في ما أنقله لكم من غرائب أحوالي، أؤكد أن ذاك الصراخ كان على شكل أسراب صغيرة، سريعة، وضارية، تكرهني على الإنصات إلى دبيبها الجهنمي. دبيب غير منقطع لنمل شفاف، مقبل على التحوّل إلى وحش هائل ينهش كل ما يلقاه في طريقه .

ينهش الخشب والأسمنت والمعدن والتراب والزجاج وروحي .

روحي التي كانت على الدوام خليطا من خشب وأسمنت ومعدن و تراب وزجاج مطحون، يا ما مضغته الأيام، ثمّ بصقته .

ستقولون عني، لا.. أرجوكم لا تنظروا إليّ هكذا، ولا تنبسوا بما أنتم على وشك أن تنبسوا به، لقد طار له الفرخ وإنّه مختلّ آخر فقد سلامته العقليّة، لكن ما رأيكم بأنني لمّا ذهبت لأبحث عن الدمية في الرواق لم أجدها؟ لو كانت نيتي مغرضة ورأسي به مسّ، لقلت بأنّ واحدا منكم من أقدم على تغيير موضعها، ويتعمّد منذ بداية هذه الحكاية أن يوقعني في أحبولة البيدق التائه بلا هوادة على مربعات رقعة شطرنج .

كللت محاولاتي للبحث عنها بالفشل الكامل وبلغ مني التعب أشدّه، فأبت إلى سريري بعينيّ المبحلقتين مجددا في الظلام .

الدمية كانت هناك. انظروا جيدا، إنها هناك في باطن الدولاب. صحيح أنها غير بارزة للعيان، لكنها بالتأكيد هناك. تتحرّك، تنبض، تتنفس، ترى، تسمع، تغمغم، وتصرخ. ستصّرون على أنها غير موجودة، غير أنني سأدعي العكس لأن عينيها كانتا تبرقان ببرودة مميتة كالقطة. ليست قطة حقيقية في دولاب، بل دمية تبرق عينيها ببرودة مميتة مثل قطة في دولاب .

الدمية كانت هناك، ويحكم! ماذا دهاكم؟! انظروا جيدا، إنها هناك تتموّج بالعشرات، بالمئات، بالآلاف، تتحرّك، تنبض، تتنفس، ترى، تسمع، تغمغم، وتصرخ حتّى وإن كانت مطبوعة فقط على ورق التغلّيف الذي يكسو الحيطان .

مطبوعة على ورق التغلّيف! لكن من أين ينبعث كل ذلك الشهيق والزفير الحارّ الذي يلفح وجهي؟ ولم لا تتوقف تلك الصرخات المجسّمة عبر جدار غرفة النوم على التدّفق مثل زحف جحافل من النمل في ممرات جمجمتي؟

خمدت كالقتيل إلى حدود ما بعد الظهيرة. كانت أمنيتي أخذ دوش حالما أستيقظ. داخل حوض الاستحمام، وأنا في جوفه، تدلّت يدي مرتخية على حافته والدم يسيل من معصمها شاقا طريقه في اتجاه قرارة الحمام منسابا، وغزيرا، ومرقّطا بنقط سوداء تشوب حمرته القانية .

في الحقيقة، لم تكن تلك اليد يدي، ولا المعصم معصمي، ولم أكن أنا ذاك الشخص تماما، فعلا الجسد جسدي، بيد أن إحساسي بالماء انعدم، ونزف الدم بدا كما لو أنه ينزّ من صنبور مكسور في جهة بعيدة عني. كل ما أشعر به، منشفة صابون ناعمة تتنقّل على أطرافي مثل أصابع رشيقة على خشبة الحائك، أدركها تجيء وتذهب كما لو كانت آتية من عمق حالة إغماء، وحينما فتحت عينيّ كانت الدمية تعصر آخر قطرات المنشفة، وترشقني بصفرة ابتسامتها.

يوافيني الصحو مثل مقبس نور أعيد وصله. فأستيقظ معتقدا أني ميت، ميت يحلم فحسب بأنه حيّ ،أتراني مشيت عن طريق الخطأ داخل حلم الرجل الغريب شبيهي؟ وهل هو حلم كاذب سيقوم بمحو نفسه بنفسه؟ أم تراه سيكون حلما من طبيعة تسلسلية، وسوف يبدأ في كل مرة من المقطع الذي انتهى عنده في الليلة السابقة؟!. وإذ ذاك، وددت أن أفرج عن جسدي من السرير. أن أنهض وأخرج للتّرويح عن هذا الجسد الذي أسأت استعماله على امتداد ليلة ونصف نهار بأنّهما. وجدتني معتقلا، عالقا في حدوده المنيعة ولا قبل لي بتحريكه. ثقل قاهر كان يشدّني تحت البطانية كما لو أن ساقي اليمنى ربطت إلى عجلة شاحنة ضخمة.

لم يسعفني تكرار المحاولة، والعجلة لا تدور أو تتزحزح قيد أنملة عن موضعها، فسحبت البطانيّة بنرفزة واضحة، لأصعق بانتفاخ شنيع كان يطبق على دواليّ الوريدية ويمتدّ منتشرا من الركبة إلى الربلة .كم هو مقيت هذا النبت الشيطاني الذي أزهر في جسمي !

جفّ حلقي من فرط ما خانه الريق، وانسكبت من مآقيّ دموع مريرة لهول اليقطينة التي استوطنت قدمي. تيبّست جوارحي ولم أعد قادرا على الاختلاج بأدنى حركة. كنت أصرخ ملء حنجرتي، بيد أن ذاك الصراخ ولسبب غير مدرك كان يرتدّ إلى دواخلي كأحجار تتساقط في عمق بئر، أحجار تلو أخرى غير أنها لا تصل بتاتا إلى القاع. بل كنت أتمادى في الصراخ بكل ما أوتيت من يأس وأمل، لكن ما من أحد في الجوار يمكن أن يغيثني أو على الأقل يساعدني على إغلاق أفواه آلامي. أحسست بأنني اغتصبت، وأن حرمتي انتهكت، بناء على قناعة متمكنة مني مفادها أن الأقدام هي أصدق وأشرف ما لدى الإنسان، الأقدام التي لا يدّخر جهدا من أجل صيانتها بكل ما تيسر له من عناية الجوارب ولطفها.

دعوكم يا سادة يا كرام من الجوارب راجيا أن تصدّقوني للمرة الأخيرة، وركزّوا معي لو سمحتم على اليقطينة المتمادية في توّرمها المريع، على الازرقاق الغامق الذي كساها، على القيح، على الصديد، على رائحة الجيفة التي أضحت تفوح مني ومنها .

ركزّوا معي على المرهم الذي تطليه على جلد ساقي أصابع قدّت من سيليكون مؤجّجة وجعي على نحو رهيب لا يحتمل .

ركزّوا معي على الرعب الذي يفغر فاه كلما دنت الدمية الخبيثة من سريري، وكلما اتجهت بأسنانها السوداء المتقطّرة باللعاب ناحية اليقطينة المتعفنة، وقد تفتّحت شهوتها لقضم شريحة كاملة من بدني.. وفي إثرها تسير عشرات الدمى ذوات البسمات الصفراوات اللواتي تنتظرن بفارغ الصبر حصتهن من اللّحم الطازج!

قاص من المغرب

زهور اللبلاب

إيمان سند

فيصل لعيبي

تفر الأيام وهى تبحث عنه، بداخلها طفلة تبحث بمقاييسها.. تنهر نفسها دائمًا: لا تصلح معايير الأطفال لخوض الحياة.. تبتعد عمّن يبدو عليه الكبر؛ تريده شابًا فهي لم تعش حياتها بعد.. تستبعد كل من هو متزوج؛ هي لا تريد أن تقضى بقية حياتها في مشاكل، وقد داعبت ضميرها كثيرا فأبى أن يصفح عن تلك النقطة.. لا يهم أن يكون وسيمًا، المهم أن يرضي عينيها، ولا أنيقًا؛ ستجعله هي أنيقًا حين يدخل عالمها.. ضحكت وهي تستبعد من هم يختلفون عنها في المستوى الاجتماعي والثقافي تذكرت الكثير والكثير منهم يتقربون إليها.. ستستبعد أيضًا من لهم انتماءات سياسية أو دينية؛ هي لا تريد أن يأتي الرجال يومًا وينتزعوه منها انتزاعًا، ولكنها خافت أنها بذلك تطلب رجلاً بلا ملامح ولا شخصية، لن يرضيها ذلك بالتأكيد، ربما لا تنجذب لرجل على تلك الكيفية، هي لا تعرف عن نفسها الكثير..؟! تراودها الأحلام أنها من الممكن أن تلتقي بشخص استثنائي، ولكن تظل الفكرة في حيز التمنيات..

تدخل إلى زهورها، تكمل رعايتها، والاعتناء بها، ترى اللبلاب يغزو مملكتها ويفسد على زروعها طاعتها.. دائما ما تتدخل عوامل تفسد فكرة الكمال التي تسعى إليها، دائمًا ما تهاجم عالمها هذه الكائنات المتطفلة، تستكثر عليها أن تنعم بالجمال والدفء.. في خطوة مفاجئة حتى لها هي شخصيًا تحضر المقص بلا تردد، وتقص هذا اللبلاب المتطفل على حياتها، ربما يبدو شكله جميلاً، ولكن هي الوحيدة التي تحس بقسوته على أعصابها، يغزوها يمينًا، ويسارًا.. يشتتها، يجعلها أحيانًا تدور حول محورها، ولا تدور حول الشمس كما هي رغبتها دائمًا.. يجعلها تضل الطريق، وتغرق في كتاب التفاصيل.. الآن.. وبعد أن تخلصت منه يمكنها أن تذهب لتنام، وهي مطمئنة بأنه ما من أحد سيعمل على إفشال خططها، أو سيتدخل بينها وبين زروعها، أو.. أو سيفاجئها من جديد.

كاتبة من مصر

تأبين

تيسير النجار

كان صباحا عاديا مثل كل الأيام لا ضباب أو أمطار كما يحدث في السينما عند حدوث شيء فارق لا بد أن تتضامن الطبيعة مع البشر، بينما نحن كانت الطبيعة بمنأى عنا، حين احتفلت الطبيعة بعيد ربيعها كنا نعذب من أجل خطأ اقترفه القدر وهو جمعنا في ذات المنزل ونفس الدم الذي يجري في عروقنا مع ذلك الكائن، لا تجعلوني أبحر في ذكرياتي فلا شيء أهم من ذلك اليوم، استيقظت على أثر كابوس كالعادة، وشعرت بصخرة جاثمة على صدري الذي تشق أنفاسي فيه طريقها ببطء، استعذت بالله طالما أخبرتني أمّي أن الكابوس بسبب نومي دون وضوء فهي تجهل الأمراض النفسية ورغم ذلك صرت أتوضأ وأصلي قبل النوم والكوابيس لم تبارحني، مسحت دموعي وشددت بعض الهواء وملأت رئتي بصعوبة وزرفت على مهل هكذا علمني الطبيب استعدادا ليوم لا يختلف عن الأمس لكن أختلف اختلافا جذريا، بعض التوتر طغى على ملامح أمي، ودموع تدحرجت على وجه شقيقتي، لم يفزعني صوته مثل كل يوم فلا شجار أو صراخ فقط سعال متقطع يضرب أذني من وقت لآخر، لحق به بعض المرض كعادته من حين إلى آخر، أعدت لي أمي "ساندوتش" محشوا بالجبن وطلبت مني تناول خيارة بعد غسلها، كانت تراني طفلا رغم أني اقترب نحو العاشرة، فعلت ما أمرتني به لكني شعرت بالريبة، الأقارب في ازدياد وأعمامي وأخواتي، لم أرهق نفسي بالنظر إليه، سيقوم حتما ويعاود اختلاس فرحتي مني، سألت ابن أخي عما يحدث لأبي؟ فهمس: "أبي قال لأمي ربما يموت اليوم". يموت !! مازلت أجهل الموت ندعو على أنفسنا به وعلى من نكره أيضا، هل هو خير أم شر؟ لا مجال للبحث والتأكد يكفي أنك لا ترى من تكره سواء مت أنت أو هو، جاء الطبيب وشق طريقه بين التوتر المصطنع من عائلتي بخطى متزنة، كانوا مثيرين للشفقة فعلا، جميعا نكرهه وجميعا نعلم أننا نكرهه، على من التمثيل إذن؟ لا أدري، دخل الطبيب عند أبي، أخي لحق به وأغلق باب الغرفة، بعد دقائق حولتها التنهيدات والزفرات والهمهمات المتصلة بـ"يـارب" إلى سنوات، خرج الطبيب وختم المسرحية الهزلية بكلمته الشهيرة "البقاء لله" المفترض أن يسدل الستار، لكن الحماسة أخذت أختي فسقطت فاقدة وعيها في استعراض ميلودرامي حزين، صعد الجمهور لمواساة العائلة المنكوبة التي فقدت عائلها وارتفعت الصيحات كمن يصيبه الإمساك فيصرخ ليخلصه الله من أذى عالق به، كان المنظر يدعو للضحك لكن ذهني كان منصرف بأمر آخر ذهبت لإنهائه متجاهلا دعوة أخي لرؤية الميت للمرة الأخيرة قبل تلحيده، ما عاد يهمني فليذهب إلى الجحيم أو إلى القبر، دخلت غرفته كان كل شيء كما هو أشعر وكأنه خلفي، أو سينادي بسبابه لنفسه يا ابن الكلب، لكن لم يحدث شيء من ذلك، وجدتها كانت مذعورة من الصراخ والزحمة التي لم تعتادهما من قبل، ضحكت لأخبرها بأني سأرحمها من الخوف للأبد، تناولت عصا والدي الغليظة هي أشبه بالنابوت وأخرجت قطعة اللحم ووضعتها بجواري ونادیتها بعطف "بوسي، بوسي" اقتربت فهي لا تخشاني كثيرا ما أطعمتها وتحسست شعرها الغزير، انقضت على اللحم وراحت تموء، رفعت ذراعي وهويت على رأسها بالعصا لم تصرخ أو تهجم عليّ فقط سال دمها وارتخى جسدها ولم تنه قطعة اللحم بعد، أمي كانت تبكي هناك ومن خلف دموعها اكتشفت اختفائي، بحثت عني وجدتني بجوار جثة بوسي، ضمتني أمي وولولت ولم تعلق على جريمتي، قد حذرتني كثيرا من إن أمسسها بسوء، لزكتني على ظهري وفهمت مرادها نهنهت بحنجرتي فلا رغبة لي في البكاء، وخرجنا معا للجالسين بالخارج. لكم تمر الأيام سريعا فاليوم هو الذكرى العشرين لوفاته ها أنا أجلس بجوار جثة قطة جلبتها من الشارع بها شعيرات صفراء تشوب صفاء بياضها، كثيرة الشبه ببوسي التي تجرعت الكثير من اللبن تحت سرير أبي، ولم تصنع أمي الكيك الذي طلبته لأن اللبن خلص، وقاسمتنا قطع اللحم، أبي كان يستند على عكازه ويعرج لحمايتها من القطط المتشردة والكلاب الضآلة، بوسي كانت أهم مني لديه لم يجهد نفسه لردع الخطر عني، وطالما نعمت بالدفء في حضنه، لكم كان حنونا يستحق حفل تأبين يليق به أهديه كل عام بوسي جديدة لتؤنس وحدته في القبر عساها تصير بديلا عن ابن صالح يدعو له .

كاتب من مصر

تخطيط لـ حسين جمعان

الرأس المقطوع
قصص قصيرة جداً

ثائر الزعزوع

الرأس المقطوع

بعد أن قطعوا رأسه، قدموه له على طبق من الذهب، وقالوا له: خذ، لم تعد الأفكار الموجودة في هذا الرأس تفيدك.
سار يحمل رأسه وكانت الدماء تقطر على الأرض حيثما سار، كانت زهور حمراء تنبت ما إن تخترق قطرة الدم صدر الأرض، حملوا سيوفهم وركضوا في كل الاتجاهات، بدأوا يقطعون الزهور الحمراء، كانت تنبت وتنبت، وتنتشر في كل مكان، لم يعودوا قادرين على اقتلاعها، لم يعودوا قادرين على فعل شيء، ركضوا خلفه، أعادوا رأسه إلى مكانه، وقالوا له: قل لنا كيف نقضي على هذه الزهور البغيضة؟ لكنه لم يتكلم. كان يضحك، وكانوا يرتجفون، وكانت الزهور قد ملأت العالم.

.....

مرآة

لم أكن قد تبادلت السلام مع وجهي منذ زمن طويل، كنت أراه بشكل عابر وأنا أغادر المنزل أو حين أعود مساء، أكون منهكاً ولا أستطيع تبادل الحديث معه، أتركه هناك ينظر إليّ على المرآة المعلقة على الباب، البارحة قررت أن ألقي عليه السلام، وقفت للحظات تأملته طويلاً، لكني لم أنبس ببنت شفة، كان يبدو مختلفاً تماماً، حتى أني لم أعرفه.

عينا جمجمة

قالت لزوجها وهي تحضر له طعام الغداء: لا تمت قبل أن تودعني.
قالت لأمها: لا تموتي قبل أن تودعيني.
كان وجهها شاحباً، وعيناها غائرتان، كان صوتها خافتاً، ويداها صفراوان، ارتمى ولدها الصغير في حضنها فأبعدته، زفرت فتطاير رماد من فمها، كان لعابها جافاً، وهي تنظر عبر النافذة إلى البعيد، سمعت صوتاً يناديها، حملت جسدها النحيل وطارت، لم تكن يمامة ولا فراشة، لم تجد من يودّعها على رصيف المحطة، كان الجميع مسافرين، وهناك في العربة كان زوجها وأمها جالسين بانتظارها، وكانت صورة الصاروخ ما زالت منطبعة في مخيلتهم جميعاً.

المرأة تقف أيضا على النافذة

لم يكن الشاب ذو القميص الكحلي قد قدم وردة لامرأة من قبل، تعثرت خطواته وهو يتقدم باتجاه باب بيتها، ظل يخطط لما سيقوله أياماً، كان يحصي الحجارة طيلة الطريق وهو يردد الكلمات في سره مثل نص مقدس لا يريد أن ينساه، خاف أن يتلعثم، خاف أن يفسد المفاجأة، كان يخطط أن يخفي الوردة وراء ظهره، ثم يقدمها لها ما إن تفتح الباب، لكنه ما إن وقف أمام الباب حتى سمع صوتها، كانت فرحة وهي تقول: لقد أحضرت لي وردة، كم أنت لطيف.

الصامت

قال الأول للآخرين: أنا أستطيع تحطيم تلك الحجارة بضربة واحدة من يدي.
قال الثاني: وأما أنا فأستطيع تحطيم ذلك الجدار بيدي.
كان الثالث يستمع إليهما، ويبتسم، نهض من على كرسيه وحطم الحجارة بضربة واحدة، ثم هز الجدار بيديه فانهار وأصبح ركاماً، ثم عاد ليجلس على كرسيه دون أن ينبس ببنت شفة.

اكتب لها رسالة

كلما أردت أن أقول لها إني أحبها، تنهي الحديث وتنصرف، ماذا أفعل؟
اكتب لها رسالة.
هكذا نصحت الأم ابنها، فجلس طيلة المساء يحاول أن يكتب رسالة وكان يمزق الأوراق، ويعيد الكتابة مرات ومرات، وكان يفشل، في الصباح دخلت أمه فوجدته على حاله، وهو يلعن ويتأفف، دخلت غرفتها وأخرجت صندوقاً صغيراً، فتحته وأخرجت منه ورقة مطوية، وقالت وهي تعطيه الورقة: اكتب لها هذه الرسالة، فلولاها لما ولدت أنت.

كاتب من سوريا مقيم في باريس

تخطيط لـ أنس سلامة

موفق قات

قصتان

جمعة اللامي

يحدث في الإسطبل الملكي

إلى روح علي حسين الرشيد التكريتي

كان صوت المؤذن في ذلك الفجر الذي وقع في أحد أيام شهر آذار، يصل إليّ من مسجد غير بعيد عن إسطبلات الحرس الملكي، بينما كان حارس شاب يرتدي بدلة عسكرية خضراء، يواصل فحص ماسورة بندقية «البور سعيد»، أمام ثلاثة جنود حفاة ومن دون أغطية رأس. كان الجنود شبابا أيضا، يتحركون كما لو أنهم هائمون في بيداء، بينما كان الحارس الثاني يشرب سيكارته الأخيرة في هذه الساعة من فجر يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار سنة 1963. كان الشابان يبدوان بهيئة طالبين جامعيين، يضع كل واحد منهما على عضده اليمنى تلك الشارة الخضراء التي تميزهما عن الجنود النظاميين.

وكان هناك جندي آخر اسمه جمعة اللامي يتابع حركة طابور الجنود الثلاثة الذي أخذ يقترب من محبسه الانفرادي في الغرفة رقم 13 في الإسطبل الملكي، عبر كوّة صغيرة في باب محبسه. أنا لا أعترض على قيام والدة ذلك الجندي بتسمية ابنها الوحيد «وهو وحيد فعلا» باسم يشبه اسمي «أنا الولد الوحيد لأمي أيضا»، فأنا أحمل هذا الاسم أيضا، منذ منتصف العقد الرابع من القرن العشرين. لكنني في يوم أعتبره مشهودا في حياتي، وحتى في مسيرتي الأدبية لاحقا، تسمّيت باسم جديد يشبه اسمي. تسلّمت الورقة الشريفة الزرقاء الرقيقة برقة وفرح، ثم دسستها في قفا ياقة سترتي العسكرية بعد أن طويتها، عبر جرح رقيق وصغير، لا يفطن إليه سوى الذي تعوّد أن يكون قلبه صندوقا للأسرار.

حسنا، سأسرد الآن . باختصار شديد . لِمَ قبلت باسمي الجديد «وهو يناظر اسمي المسجل بدائرة الأحوال المدنية بمدينة العمارة تماما، كما أخبرتكم قبل لحظات»، عندما كنت في حضرة المقاتل السابق في الجيش العراقي: أبو علي حسن الماجدي، في ذلك اليوم الذي صادف النصف من شعبان. دخلت في بستان النخيل الذي يحرس بيتنا الكبير بمحلة الماجدية، وجريت خببا إلى القلعة الطينية المهجورة «كان الناس يسمونها قلعة السيد عاشور» التي كانت مخبئي المفضل في سنوات طفولتي حين كنت أخلو إلى نفسي بعدما يعود والدي إلى منزلنا من المطحنة الوحيدة في الجانب الآخر من المدينة؛ وهناك وجدت الماجدي ينتظرني.. "هذا يوم تعميدك".. ثم قبلني بين عينيّ. كنت شابا دون السن القانونية لحمل لقب "رفيق". كان الاسم الجديد الذي يناظر اسمي الحقيقي من اختراعي أنا، وهو لا يزال ينام آمنا في أرباض ذاكرتي.

ـ "اعترف.. اسمك الحزبي؟".

رفع المقدم داود الجنابي، عصاه في وجهي كأنه لا يريد أن يصدقني: "كل الجنود اعترفوا بأسمائهم الحزبية". رفعت رأسي، "هذا هو اسمي الحزبي". قلت للمقدم الذي كان ماهرا جدا في الرفس وتوجيه حربته العمياء نحوي. وكنت أرى جسدي مطعونا بعشرات السناكي، يجري فوق أرض معشوشبة زرقاء، عبر النافذة المستطيلة في مكتب ضابط استخبارات الفرقة المدرعة الرابعة بمعسكر الحبانية،

وفي الأرباض غير البعيدة، عند منابت السور الكونكريتي للإسطبل الملكي، خلف الجنود الشبان الثلاثة والحارسين الشابين، كانت تبدو أشباح أضواء زرق أخذت تتكسر على العشب الأسود، عندما استدار الحارس الأول متوجها صوب غرفتي، وتوقف أمام باب الغرفة رقم 14.

عدت إلى زاويتي التي أتابع منها حركة فأرين أبيضين صغيرين في أرجاء الحجرة، وسط ضوء أحمر خافت يرسل به مصباح كهربائي يتدلى من سقف الغرفة الواطئ والكالح، بينما استقر الجنود الثلاثة داخل الغرفة المجاورة. عرفت ذلك من الصمت الذي أعقب توقف صوت ارتطام أحذية الحارسين الشابين بأرضية الحجرة التي كانت تستخدم ورشة لترميم أحذية جنود لواء الحرس الملكي.

وعندما توقف صوت المؤذن، سمعت ضوضاء سحب أقسام بندقيتين نصف أوتوماتيكيتين، وكان صوت أحد الجنود الثلاثة يتوسل "أنا الأول".

"ابن القـ..."؛ أخذ أحد الحارسين «وكان اسمه قتيبة» يضحك منتشيا بعد إطلاق شتيمته، بينما كان رفيقه الثاني «وكان اسمه عمرو» يسخر منه "لَكْ قتيبه، مُوْ قَـ وِحْدَة وبَسْ. بابا هاي تعادلْ كلّجيَّهْ بحالها".. سباب.. ولم يكن ثمة أي سباب في تنور النار الطويل الذي كان يستخدمه جنود الجنرال تشان كاي تشيك في قتل الشيوعيين الصينيين. عادت إلى خاطري حكاية التنور الطويل التي سجلها أندريه مالرو في رواية «جيل القدر»، حين كان الرفيقان الصينيان، في ظلام لا نهاية له سبق عملية شَيّهما؛ كانا شابين يتسابقان فيما بينهما ليفتدي أحدهما رفيقه الآخر.

"الله يرحم والديك، أنا الأول"، تناهى إلى سمعي صوت جندي من خلف الجدار. أطلق الحارس عمرو مرة أخرى صلية شتائم بصوت عال، بينما كان الجندي الثالث يستعطف الحارسين الشابين "بحق النبي عليكم، أنا الأول، لا "محمد" ولا "محمود".. أنا المسؤول.. اسمي جمعة اللامي".

عندما اقتادوني من زنزانة عسكرية في معسكر الحبانية، ووضعوني في هذه الغرفة التي كانت معدة لتستخدم صالونا لتزيين ضباط الحرس الملكي، كان هذا المشهد يتكرر مع صوت المؤذن الذي يدعو لصلاة الصبح. ولم يكن ثمة صلاة. في "قصر النهاية"، كان الطلبة الجامعيون الذين انتظموا في تشكيلات الحرس القومي، يفضلون الاستماع إلى أغاني أم كلثوم، في أثناء حفلات التعذيب، أو عند عمليات القتل. إني أتذكر ذلك الآن.. أتذكر.. كان نحو ألف من الطلبة والجنود والحرفيين والشعراء والمدرسين والصحفيين والأطباء، يحشرون في غرف وقاعات هذا المعسكر الذي كان أغلبه مخصصا كزرائب لخيول "لواء الحرس الملكي . سابقا"، وجرى تحويله على عجل إلى معسكر اعتقال، بعد أربعة أيام على نجاح حركة 8 شباط، ليكون مكتب تحقيق خاص بالشيوعيين.

عاد صوت المؤذن ينادي "حي على الصلاة"، بينما انطلقت ثلاث رصاصات في الغرفة المجاورة.. هرب الفأران الأبيضان الصغيران من خلال الفتحة الضيقة في الزاوية اليمنى للجدار الملتصق بجدار يشبهه في الغرفة المجاورة.

وهذا ما حدث كذلك مع حلول فجر أمس. كانت البداية ثلاث إطلاقات، ثم ثلاثا أخرى، ثم ثلاثا للمرة الثالثة. والآن في هذا الظلام الأزرق انطلقت الصلية الثانية، وتبعتها الرشقة الثالثة، وكان صوت محمد ومحمود وجمعة اللامي يتردد متوسلا في الحجرة رقم 14: "أنا الأول، أنا الأول، أنا الأول".

ولا يزال صوت مؤذن آخر ينطلق من مسجد جديد غير بعيد عن "ملعب الكشافة" يتردد داعيا لصلاة الصبح، مختلطا بصوت النزيل الجديد في الغرفة رقم 13، بمعسكر آخر في بغداد.

ويا لها من مصادفة، فاسمه الأول يشبه اسمي الأول ولقبه يشبه لقبي.

بغداد ـ 1969

الحرب

كانت بدور ذات السنوات الثلاث مستمرة في البكاء، حين قبضت المرأة بكفيها الاثنتين اللتين تزين أصابعهما محابس من فضة وورشن، على قطعة اللحم الحار بين فخذيها. أحسّت أميرة أن عددا مهولا من السكاكين العمياء تُشَرِّح حوضها، فصرخت "علي، أدركني يا علي".

ضمَّ علي ابنته الثانية الباكية أيضا إلى حضنه، وأدنى فمها من صدر والدتها. تشمّمت سعاد صدر أمها بعينيها المغمضتين، واجتذبتها رائحة حليب رائب من ثدي أمها الأيسر. "قَرِّبها مِنّي أكثر". قالت أميرة متوسلة، بينما كانت تغطس في بحيرة من عرق ووجع وأمل.

كان علي بن تراب أوقف عربته الخشبية التي يجرها حماره الوحيد، بجوار ساتر ترابي على يمين الشارع الأغبر، حين كان يقود عربته العجوز فوق آثار عجلات ناقلات الجند الروسية المتجهة نحو ديزفول والشوش. "علي".. بعرضك يا علي". كانت أميرة، تنادي للمرة الثانية، فعاد زوجها يضم ابنته الثانية إلى حضنه: "ما ثخافي.. أنا وَيّاك".

حدث هذا عند منتصف ليلة النصف من شعبان، وكان علي الصبّي قد أنهى الكلمات الأخيرة من صلاته، واستغرق في سِنَةٍ من نوم شاهد من خلالها الراية الحمراء التي كان يراها في أحلامه، تخترق فضاء البشن في ليل فضي لم يشهد له شبيها من قبل. وكان كوخه الوحيد في الطرف الشمالي للسلف، يواجه النجم القطبي، على حافة "كود الصَّبَّة"، كما تعوّد أن يسكن أجداده المندائيون منذ دهور سحيقة. والناحية الآن بعيدة، والدنيا ليل بهيم، والحرب تسير على عجلات في كل الدروب. لكنْ لا خيار آخر أمامه الآن، فإما أن يغادر كوخه ومعه عائلته إلى هناك حيث القابلة المأذونة، أو تموت أميرة بما تحمل. ارتدى ما صادفه من ملابسه المعتادة، وحمل سعاد ذات السنة الواحدة في سلتها، وقاد بدور ذات السنوات الثلاث نحو عربته الشائخة.

وأخذت العربة العجوز تهتز على درب وعر ومترب ومظلم، وصوت أميرة ينادي: "علي، علي". كان علي الصَّبّي يشجع حماره الشائخ على المشي بأقصى ما يستطيع في هذا الليل البهيم، فأخذ الحيوان العجوز يطلق زفيرا مسموعا، شبيها بنخير بعير يتم ذبحه الآن من رقبته بسيف أعمى. "إن شاء الله، نُوْصَلْ". طمأن علي أميرة.

"علي، مرَوّتك يا علي". وعلا صوت الأُم للمرة الرابعة أو العاشرة. كانت تردد: "علي، علي، يا علي"، تحت هذه القبة الظلماء، اللهم إلا من أصداء أصوات مدفعية ثقيلة مصدرها الجانب الآخر من الجبهة. وحده في الظلمة، إلا من طفلتيه وزوجته وعربته، توجه علي بن تراب نحو النجم القطبي وتمتم بكلمات لم يسمعها سوى النجم الأحمر، فشاهد كوكبا يسقط من بُعْدٍ سحيق كأنه يتوجه نحو عربته.

ـ "بَعْدنا ما وَصلْنا، يا علي ؟".

ـ "وَصَلنا.. والله وصَلْنا".

أخذ الكوكب ينشطر الآن إلى عدد لا يحصى من النجوم والأقمار والشهب، فتحول ليل برية اليشن، إلى نور فضي باهر، وحينها صرخت أميرة: "علي، أدركني، يا علي". ثم كفَّت عن الحركة.

كاتب من العراق مقيم في الإمارات

مناوشاتُ الربعِ الأخير

جمعة بوكليب

موفق قات

بررررد

ضوء الصباح، رغم طراوته، خال من رائحة الدفء.

السيارة التي تقودك إلى "كوفن جاردن" تشق، بحياد بارد، هدوء نهر طريق، بارد.

شارع "ديوك أوف ولنجتون بليس" محاط بشجر منتصب، على الجانبين، عارٍ، في انتظار حلول دفء فصل ربيع آخر.

طريق "البال مول"، الذي يقود إلى قصر باكنغهام الملكي، بارد، وساكن.

التماثيل البرونزية، الموزعة في أنحائه، تبدو، من شدة البرد، في حالة كمون.

قصر باكنغهام مازال، على عهده، رغم صلافة البرد، غارقاً في دفئه الملكي، والنافورة التي ترابط في مقدمته، رغم جدة بياضها، على غير عهدها، مهجورة، ومدثرة بسكون بارد.

مبنى القيادة البحرية، سابقاً، على شكل قلعة عالية، ونوافذ مكاتبه، وحجراته مغلقة، غارقة في ظلام بارد، وفي حاجة ملحة إلى دفء يزيل عن كاهلها ثقل العتمة الباردة.

بوابتها الحديدة العالية، مطلية بلون أسود بارد، تقف، كشاهد بارد، على عظمة دفء عصر مضى.

الأسودُ المنتصبة، في حراسة ميدان الطرف الأغر، مقعية، لا مبالية، على برد منصاتها الرخامية العتيقة، بعيون برونزية، باردة، تحدق في فراغ بارد، متجاهلة حركة مرور السيارات التي تذرع، من حولها، طرقات باردة، في حين اشتاقت ساحة النافورة المشهورة، في ساعات مبكرة من صباح بارد، إلى دفء تطفل السائحين.

نهار آخر، بارد، يفتح فاه استعداداً لابتلاع ما تترك الساعات التالية من حسرات، وضحكات، وأمنيات، وأحزان، تتطاير، كمناديل ورقية مستهلكة، في الهواء البارد، بعد أن غادرت دفءَ صدورٍ وقلوب وأفئدة أصحابها.

لندن 2014/2/7

صباح

لم يكن صحواً، كما توقعته، ولا رمادياً، كما خشيته.

لم يكن ممطراً، كما تخيّلته، أو على الأقل، دافئاً، كما أملته.

دُكنةُ غُيومه لم تكن، في الحقيقة، حجاباً يحول دون تسرب خيوط باهتة من ضوء بعيد، كقطة مدللة، تتسلل، بكسل، من خلال زجاج نافذة حجرتي، وتنتشر على ما حولي من أشياء، ومقتنيات، بملامح غير دافئة الوقع على القلب، ثم، أخيراً، يعنّ لها أن تستلقي، بجواري، على السرير، طلباً للدفء، وللأنس، كما تعودت أن تفعل طيلة الأيام الماضية!

لندن الثلاثاء 2014/12/23 م

مضض

أستفيقُ، صباحاً، من نومي على مضض، وأغادرُ دفءَ فراشي، شبه نائم، على مضض.

مستشعراً لسعة برد صباح شتائي، أضغط على زر التدفئة بتثاقل، وأضع على كاهل بدني "روبي" الشتائي، وببطء، أنزل درجات السلم الخشبي إلى الطابق الأرضي.

على مضض، أتجه نحو المطبخ، أدير زر الكهرباء لأطرد ما تبقى من عتمة ليل آخر. أبدأ، على مضض، في إعداد كوب شاي. أحمل الكوب الساخن بيد باردة، وأتجه نحو حجرة الجلوس.

أضع، بمضض، الكوب على المنضدة الخشبية، واضغط على زر الكهرباء فتضيء من حولي الأشياء. بمضض، أرشف رشفة صغيرة من سخونة الشاي، وأبحث عن علبة سجائري، ألتقط واحدة أضعها بين شفتيّ بمضض، وأحمل بيدي الولاعة ثمّ، بمضض، أتجه نحو باب الحديقة، أفتحه، بمضض، فتلسعني ريح برد قارس، وأحسّ بمسامات بدني تنكمش مقرورة، لكني أقفل باب الحديقة، خلفي، بسرعة، وأحاول تفادي الريح كي أتمكن من إشعال سيجارتي الأولى. أمجّها بعمق ومتعة، وأرصد تفتح خلاياي لسريان جرعة النيكوتين الأولى.

بمضض، أقف أمام المرآة في حجرة الحمّام، وبألم يومي، تعودته وتعودني، أرصد آخر ما ينحته الزمن، من أخاديد وتجاعيد على صفحة وجهي.

بمضض، أغمر منابت شعر وجهي بالصابون، وأبدأ حلاقته.

وبمضض، أدعك ما تبقّى من أسنان في فمي بفرشاة أسنان.

بمضض أقف تحت سخونة ماء "الدش" في محاولة لبعث شيء من الحيوية في بدن فقد حيويته منذ وقت، وتآلف، مثلي، على مر الزمن، مع المضض.

بمضض، أقف أمام مرآة خزانة ملابسي، في حجرة النوم، وبمضض، أرتدي، على مهل، ملابسي.

أفتح باب البيت، فيقابلني صباح متجهم الملامح، أبادله التجهم، وأترك لقدميّ مهمة جرّ تعب جسدي، بمضض، إلى محطة القطار.

أقف، وحيداً، أدخن بمضض، خارج بوابة المحطة، منتظراً وصول قطار، ينقلني، بمضض، إلى جهتي المقصودة.

بمضض، أرصد، بعينين كهلتين، متعبتين، وضجرتين، غيوماً كالحة، عالقة بين السماء والأرض.

في القطار المزدحم، أحشر نفسي بين أجساد غيري من المسافرين، في زاوية قريبة من الباب، وأنشغل، بمضض، بقراءة عناوين أخبار، باعثة على المضض، في صحيفة لندنية محلية توزع بالمجان.

بوصول قطاري إلى جهتي المقصودة. أغادره، مع غيري، دون مضض، وعلى عجل.

أهرع مغادراً، بلا أسف، زحام محطة القطارات، وأسير في طريق حفظته قدماي، ككل صباح، وحيداً، متأهبا، لخوض غمار معمعة نهار لندني آخر، وحريصاً، ما أمكن، على تفادي، ما قد يضعه، أمامي -بخبث ولؤم- من فخاخ المضض.

الجمعة 2015/1/30 - لندن

خوف

كطريدة، تُلاحقها كلابُ الوقتِ، أختبئ، مقروراً، في حنيةٍ، قصيّةٍ، من سنيّ عمري، مرهقاً من تعب، راصداً بعينيّ قلبي، عبر شرخٍ في جدار خوفي، والوقت، ما قد ينصبه عتمُ الليلِ، والغيبُ، من مكائدَ، وفخاخ في وحشة ما تبقّى من دربي.

لندن الخميس 2015/2/26

قناعة متأخرة.. قليلاً

الآن،

صرتَ أكثرَ واقعية، من حِكمة أمّك، وبدأتْ تتفهمُ، بقليل من الخبث، وبشيء من الأمل، مكرَ الطبيعةِ، وتعلمت، بدأبِ نملٍ، وصبرِ ذئبٍ جائعٍ، كيف تتعايش، جنباً لجنب، مع ما يحدث من كوابيس، وأضحيتَ تدركُ، بمرارةٍ، أن الوطنَ، كما أثبتت الأيامُ، والأحداثُ، والتجاربُ، ممكنُ التحققِ شعرياً ومستحيل واقعياً.

لندن الخميس 2015/4/2

لا تلعب بالنار

منذ نعومةِ أظافرك، حذّركَ والداكَ، وأهلُكَ الأقربون، والجيرانُ، من خطر اللعب بالنار، في كل الأوقات، حتى تلبّسك الخوفُ من النار، طوال سنيّ طفولتك وصباك، وصرتَ، كلما رأيتَ ناراً، تذكرت ذلك التحذير، ونأيت بنفسك، غريزياً، عنها.

حين طالتْ قامتُك قليلاً، واشتدّ نُحولُ عُودك، واسودّ لونُ الزغب فوق شفتيك، وبدأ العالمُ يفتح أبواب أسراره، واحداً تلو الآخر، أمامك، أنساكَ حماسُ الفضولِ للمعرفة، وشهوةُ السباحةِ في بحر الحياة تلك النصيحة، القديمة!

بدأتَ تتعلمُ، تدريجياً، أن حروقَ لهبِ النار الموقدة، في أحيانٍ كثيرة، أقلُّ ألماً وضرراً من حروق نيران أخرى، لم يحذّرك منها والداكَ بألسنةِ لهبٍ لا تُرى. أحياناً، تأتيك من مصادر "صديقة"، وتطال أضرارُها الحارقةُ الروحَ، والوجدان.

عقب تراكم الأيام، والشهور، والأعوام، على كاهلك، حتى انحنى، تعباً، ظهرُكَ، وتعمّقت مياهُ نهر ألمك، وتكدّر صفوُ ما بقي من صحو في سماء أيامك، لم تنس نصيحة والديك، القديمة، الثمينة، فقط، بل يا لغرابة أطوارك! صرتَ، كلما أغوتك الكتابة، تدمنُ إضرام الحرائق!

لندن الأربعاء 4 مارس 2015

"خالي قضية"

يروقُ أغصانَ طفولتك، في غفلةٍ من ازدحامك بمشاغلك اليومية التي لا تنتهي، أن تستفزّك، من حين إلى آخر، بنزقها: تحل ضفائر شعرها، لأول ريح يراودها، وتنطلق في مسارب قلبك راكضة، ضاحكة، غير مبالية بما قد تثيره في روحك من غصص، وغير آبهة بما تحركه في سريرتك من آلام، ومرارات، وحسرات أيضاً.

يحدث ذلك وأنتَ منهمك، كعادتك، في نهش المسافات بين شوارع، وأرصفة مدن، غريبة، وحيداً إلا من قلقك، وخوفك، وما تبقى من رواسب في خوابئ ذاكرتك من زيت الذكريات، فتهاجمك، على غير رغبة منك، صورُ صبي نحيل، تتناهبهُ أمواجُ الحيرة، وتتقاسمه المخاوفُ، والفقرُ، والبؤسُ، وتحرقه نيرانُ الأسئلة.

إلا أن تلاحقَ وتعاقبَ الأيام والليالي، وتراكمَ مخزونك من التجارب، والانكسارات، والإحباطات المؤلمة خشّن من طراوة جلدك، وسيّج منافذ روحك، فصرتَ قادراً، بمرور الزمن، على تجاهل أمواج تلك التداعيات في قلبك، ومواصلة سيرك الحثيث، وحيداً، في طريقك، الذي لا تعرفُ، حتى أنتَ، أين يقودُ، ومتى ينتهي، وكأنك "خالي قضية".

لندن 1 أبريل 2015

قاص من ليبيا مقيم في لندن

اللعبة

جميلة عمايرة

بدأت حكايتي معها ذات مساء رمضاني حار، وغير متوقع، بلغت درجة الحرارة نهارا نحو الخمسين درجة، في سابقة لا مثيل لها. حينما توقفت سيارتها بعجلاتها الضخمة أمام بيتنا ونزلت منها أختي المتزوجة، أميما، 47 سنه، متوسطة الطول، شعر أشقر وبشرة حليبية صافية، بأثداء صغيره تكاد لا تبين في بعض الملابس.

صفقت باب السيارة بقوة وهي تهم بالخروج، دون أن تفتح الباب للطفلين بالمقعد الخلفي! سارعت لإخراجهما وأنا أضحك - مشاكل جديدة؟ سألت.

- أجل. الكلب. لم أعد أحتمل. أين أمي؟

- ليست بالداخل. ذهبت قبل قليل إلى البلد.

- هل ستغيب طويلاً.

ساعة. ثلاث ساعات لا أدري؟ بكل الأحوال أستطيع أن أضمن لك بأنها ستعود قبل موعد الإفطار.

- وأخي؟

- ربما هو نائم. لا أدري. لم أغادر البيت.

سأتصل بأمي كي تعود سريعا..

لا. اعترضت. دعيها وشأنها. ماذا ستفعل سوى أنها ستتعاطف معي كما في السابق، هذه المرة لن تفعل شيئاً لأنني قررت وفعلت ما توجّب عليّ فعله منذ سنوات طويلة.

دخلنا البيت. سارعت وجلست على الصوفة "مكاني المفضل" وبدأت بخلع الملابس وإلقائها في الصالة ككرات صغيرة ملونة.

اهدئي. قلت محاوله تجنب إثارة غضبها أكثر، إنها شقيقتي وصديقتي التي تكبرني بسنوات قليلة.

رمت ربطة شعرها الأشقر الطويل، انسحب ليغطي منتصف ظهرها، انتبهت لتقصف أطرافه، أطلبت من الشغالة أن تأخذ الطفلين للداخل. بعد قليل انتبهت بأنها تنشج بصمت ثم تطور لنشيج أعلى ثم صار بكاء.

والآن. هل ستخبرينني بما حدث؟

صرت امرأة مطلقة. قالت وهي تضحك من بين دموعها

لم أعلق بشيء. كدت أن أعانقها، شيء ما أوقفني في اللحظة الأخيرة. شقيقتي صديقتي من بين إخوتي عادت لتعيش بيننا من جديد! يالهي..!

ضبطت نفسي: كنت فرحة بطريقة غامضة، وبالوقت نفسه كنت منزعجة.

وكيف جرى الأمر؟

بعد مشاجرة عنيفة طلبت منه أن نفترق، رافضة أن أكون معه يوم إضافيا آخر؟

حينما عاد في المساء قال إنه طلقني بالثلاث وأضاف: الآن تستطيعين أن تخرجي، سينفعك شقيقك أيتها الكلبة!

كان لأخي رأي مغاير لرأينا جميعا: طلب منها ألاّ تخرج من بيتها عند حدوث شجار بينهما قائلا: ليخرج هو "إما أن تشتغلي على الخط جاية رايحة مرة زعلانة ومرة رضيانة فهذا مرفوض من أساسه، وأضاف: نحنا مش على مزاجك، هي كلمة واحدة لا أكثر: بدك الطلاق غدا صباحا نلتقي ثلاثتنا بالمحكمة وبنخلص منو". هذا ما طلبه أخي منها في آخر معركة معه.

تذكرت: حينما كنا صغارا، تعودت وشقيقتي أن ننام في سرير واحد. كنت أجدّل لها شعرها الطويل وأطلب منها مكافأة أن تقص من جدائلها لي كي يصبح شعري القصير في الصباح التالي جدائل طويلة..

رويت لها القصة، تذكرتها وأخذت تضحك.. من حسن الحظ أن في غرفتي سريرا إضافياً، بدأت تشاركني غرفتي الواسعة بنافذتين عريضتين، كنت فرحة بوجودها معنا.

هنا بدأت الحكاية، حكايتي، حكايتها، حكايتنا، حكايتهما معاً، بفصولها الدرامية غير المتوقعة.

ذات ليله حارة، وكنا جميعاً نسهر في "الترس" نهضت أختي فجأة قالت وهي تنظر ناحيتي: تصبحون على خير.

بالنسبة إليّ كان النوم آخر شيء أطلبه.

لكنني ولدهشتي وجدتني بعد خمس دقائق أفعل مثلها وأتبعها.

دخلت الغرفة وقلت بتأفف: عجيب! ستنامين الآن؟

أحسست لوهلة وكأنني في غرفة أخرى، وليست غرفتي، كانت قد أنزلت الستائر للمنتصف في حين أخذت الأباجورات ذات اللون الأصفر شكلاً جميلاً، تركت لضوء القمر أن ينسحب على سريرها الذي وضعته مكان سريري. قلت في مكان ما هنا إنها وبعد وصولها بقليل استولت على الصوفة خاصتي "عينك عينك".

لا. قالت. شعرت بأنني أريد أن أكون في سريري "هادي كل القصة. خلصنا عاد".

انتبهت بأنها متوترة، أو هي منزعجة، لست متيقنة، جملتها باترة، حادة، وقاطعه لا تدع لك مجالاً للمناقشة أو الاعتراض.

كانت ممدّدة على السرير شبه عارية.

ألقيت بملابسي على طريقتها، مستمتعة بكل قطعة أرمي بها في أرض الغرفة.

أشعلت لمبة ذات إضاءة خاقتة حمراء كانت قد أحضرتها هي، وتركت لموسيقى صاخبة أن تنساب بعنف محبب.

رن هاتفي.

وصلتك رسالة. قالت.

كانت رسالة منه. من رجلي. يتساءل إن كنت سهرانة، كتبت له،

وبدأت سهرتي معه، يكتب هو وأرد أنا، تقيم وأحياناً أكتب أنا ويرد هو.

كتبت له في واحدة من رسائلي: "اشتقتلك".

هل سنلتقي غدا؟

- وأنا اشتقتلك، ربما في نهاية الأسبوع، وإذا تعذر سنلتقي الأسبوع المقبل.

يؤجلني، يؤجلني كعادته، ويؤجل قبلتي وأحيانا ينساها على الطاولة ويخرج.

كتبت له متسائلة إن كنت أنا المرأة التي يزعم عشقها قد صرت من ضمن آخر الأشياء التي يوليها عناية أو رعاية في يومه الطويل والشاق؟

أريدك أن.....كيف سأكتبها؟ أخذت أتساءل بصوت مرتفع، هنا تدخلت أختي وهي تسحب الهاتف من يدي: ماذا ستكتبين؟ آه أيتها الكاتبة المؤدبة تدعين الخجل كذبا! اكتبي بجرأة، لا شيء أجمل على قلب الكاتب المبدع من تسمية الأشياء بأسمائها، كما هي. أريدك أن تضاجعني هكذا، وأرسلتها على الفور.اكتبي.

فوجئت بمهارتها بالكتابة وسرعة عثورها على الأحرف، في الوقت الذي أتهجأ فيه الأحرف حرفا حرفا.

وأنا أيضا أريد أن أضاجعك. جاء رده، وهاتفي بين يديها.

- كيف؟ كتبت هي تسأل.

- كما تشتهين.

.....!!!! - أريد أن تبدأ في... "وأن"....".

أخذت دقات قلبي تتسارع وأحسست لزوجة رطبة ساخنة تتخلل أسفلي بعرية الدافئ.

الآن تولت المهمة أختي، تكتب هي حينا وتردّ حينا آخر، وتسأل بصوت مرتفع، وأنا ألهث عارية فوق سريري، إلى أن بدأ صوت أختي ينخفض ببطء حتى تلاشى من سمعي تماما، ولم أعرف كيف ومتى غرقت بالنوم.

استمر الحال ليالي طويلة، بعد منتصف الليل بقليل تبدأ اللعبة بيننا، تبدأ بي، وتنتهي بهما: هو وأختي..

مضى زمن أجهل تتبعه، إلى أن وجدتني خارج اللعبة تماما! توقفت رسائلي له فجأة، وبالمقابل توقفت رسائله وانتهى الأمر بيننا بصورة غير متوقعة.

أنا الآن امرأة ترعى طفلين لأختها المطلقة، دون أن أملك القدرة على سؤالها ذلك السؤال الذي اعتادت هي أن تسألني إياه مرارا في كل مرة نلتقي بها- بالرغم من أنها ما زالت

دعوة مفتوحة

الجديد

تدعو الكتاب والمفكرين العرب
إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

كتابة الاعتراف
اليوميات والسيرة الذاتية

حال الكتاب العربي
كيف تنشر الكتب
في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

النقد والوعي النقدي
لماذا تراجع النقد وماذا حل بالوعي النقدي
في الثقافة العربية

الاستبداد الشرقي
دور الحاكم المستبد
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب
هل وصل التجريب الشعري العربي
إلى حائط مسدود

الرواية النسائية العربية
هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل
أم أن اللغة بلا جنس

الكتابة والجسد
الجسد والجنس في الإبداع العربي المعاصر

الصحافة الثقافية العربية
أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء

فكر حر وإبداع جديد

قصتان

حسن أبو دية

الغناء المر

لا يزالُ البحرُ مخيفاً حدَّ الجنونِ، ولمْ تزلْ أجسادُ أجدادِنا تُغلفُ وجودَها فيهِ عَبْرَ أمْلاحِهِ، قالتِ الجدةُ، وأردفَتْ: أمّا أنا، فأنا مَنْ علّمَهُ النسيانَ، وعلّمْتُ رمْلَهُ كيفَ يمسحُ عن وجهِهِ غبارَ خطواتِ العابثينَ، كنتُ كلَّ ليلةٍ أرقصُ على الرملِ، أرقصُ وأرقصُ، أطوّحُ جسدي كالموجِ، ثم أخرُّ ساجدةً، أتطهّرُ بماءِ البحرِ وأصلي. وأقفلُ عائدة.. فيما تبدأُ الشمسُ ترسلُ خطواتِها إلى الشاطئِ ثانيةً..

المدُّ هو محاولةُ البحرِ لضمّ الشاطئِ إلى صدرِهِ مُطَمْئِناً، هو رقصٌ يشابه رقصي الليليّ.

تهامسَ الأحفادُ: خَرُفت الجدةُ..

أنا وجنيةُ البحرِ لطالما كنّا صديقتين، تابعَتْ حديثَها كأنّها لمْ تسمعْ شيئاً، وكنا نَعُدُّ مواكبَ الذاهبينَ إلى السرابِ المتناثرِ فوقَ صفحةِ الماءِ، كان كثيرٌ منهم يزعمُ أنّه وصله، لكنَّ حَلْقَهُ الجافَ يُفشي سرَّ كذبِهِ، ويُنبِئُ عنْ زمنٍ لا يَرْجِعُ فيه الرجالُ.

ووصلَتْ إلينا أخشابُ قاربٍ مطليةٌ بالقارِ، تحملُ آثارَ أحبتِها، فضمّنا الأخشابَ نُواسيها ونمسخُ دمعَها، ونشعلُ ناراً هائلةً، نرقصُ حولَها ونرفعُ أصواتَنا بالغناءِ المرِّ لتهديَ أرواحَ التائهينَ ليابسةٍ ما، فترقدَ فيها بسلام، كانتْ صورتُها هائمةٌ فوقَ الموجِ يُخيفُنا، ولهذا تكثرُ الجزرُ أمامَ بيوتِنا، هي بيوتٌ تنازلَتْ عنها أرضُنا لتلك الأرواح..

. والجنيةُ؟

الجنيةُ كانَتْ تنوحُ كلّما وصلَتْ خشبةٌ مِنْ أخشابِ المَحْمَلِ؛ إذ ستزاحمُ أهلَها الأرواحُ. كان عويلُها يعلو على أصواتِنا.. ورقصُها يثيرُ زوبعةً حولَنا تزيدُ ألقَ الجمراتِ، وتنزعُ غِطاءَ رؤوسِنا، لتتناثرَ شعورُنا كأنّها أفاعٍ تتلوى في فضاءاتِ اللّيلِ تسعى للذعِ النجومِ.

. أما كان يَصل شيءٌ غير الأخشابِ؟!

. كان صدى صوتِ النّهامِ يقرعُ الأبوابَ الخشبيةَ.. يطوفُ علينا معلناً لعنةً على مَنْ يأكل الأسماكَ لشهرٍ أو اثنين؛ حتى تخلقَ أمعاؤها مما انتزعته من الأجسادِ الراحلةِ نحوَ ظلماتِ الأعماقِ. ونبدأُ بصوته نلعنُ البحرَ.. ونمتنعُ عن مضاجعتِه حداداً..

. مضاجعتَه!

. أسموها ما تشاؤون، أنْ يلقيَ المرءُ بجسده في أحضانِ جسدٍ آخر، فتتلامسُ كلُّ ذراتِ الجسدينِ وتتوحّدُ، لا أراه إلّا ما أسميتُه؛ هناك، لا نفكر في شيء.. هناك ننسى أن هناكَ عوالمَ أخرى.. هناك تنمو أمنياتٌ حقيقيةٌ في أعماقِك للذهابِ في رحلةٍ إلى الأعماق، ربما دونَ وعيٍ منّا لملاقاةِ ما تبقى مِمّن رحلوا..

أو لمعرفةِ ما كانت تغارُ منه النساءُ، ويحلمُ به الرجالُ، وأعني حوريةُ البحرِ. أتتخيلونَ الغَيْرَةَ مِنْ خيالٍ لم ترَه عينٌ، ربما هو غيرةٌ من ذاك الشبقِ الذي يتفجّرُ في عيونِ الرجالِ فجأةً إذ تأتي حكاياها..

. وبعد؟

. كنا نعودُ عن تمنُّعِنا، بعد أن يسافرَ الجرحُ إلى الأعماقِ، ويرقدَ مطمئناً قربَ من سبَقَهُ.. فنلقي بأجساد مرّغها الحزن والرمل إلى حضنه، كنّا نشعرُ بقبلاتِه تعمُّ الجسدَ وتملؤه نشوةً، وفي المساءِ نشعلُ ناراً ونرقصُ حولَها رقصةَ الحزنِ الأخيرِ.. لكنّ الأخيرَ لم يكنْ في يوم أخيراً..

صمتٌ مطبقٌ ينشقُّ عن تمتمةٍ.. منذُ متى كانَ ذاك؟..

الزمنُ غريبٌ.. لا نعرفُه إلّا كما نعرفُ الغرباءَ الذين يمرّونَ أحياناً؛ لا نتذكر منه ومنهم إلّا لحظاتٍ تنقُشُها الغرابةُ في الذاكرةِ لتُصبحَ جزءاً من تجاعيدِ وجوهِنا.. فنقرأُ النقوشَ مرةً بعدَ مرةٍ في ليالي الانتظار، لكنّها تَبْهَتُ لكثرةِ ما تمرّ على الألسنةِ فتضيعُ ملامحُها تاركةً مساحاتٍ لنقوشٍ جديدةٍ.. فهاهنا نذكرُ يومَ أعادَ البحرُ إلينا بحّاراً بعد أسبوعٍ من رقصِنا المأتميّ عليه.. وهناكَ يومٌ ألقى البحرُ إلينا خِرافاً ذبيحةً.. وثالثٌ عندما أشعلَ الجنُّ ناراً عظيمةً وسطَ البحرِ فأضاءت بيوتنا.. ورابعٌ عندما وصلَ مجنونٌ جادتْ بسفينتِهِ الأمواجُ يحاولُ إقناعَنا أنَّ للبحرِ نهاية..... و... و.....

. إذن تكرهين البحرَ..

. يبدو أنّني كنتُ أحدّثُ نفسي؛ البحرُ . وتنظر للبعيد ... هو نارُنا التي نهرعُ إليها كالفراشِ.. حتى إذا ما تعانقنا العناقَ الأخيرَ علتْ على الشاطئِ ألسنةُ لهبٍ.. وأصواتٌ بغناء مرّ.

لم أكن هناك..

في البدءِ.. وفي النهايةِ.. رأيتُ نفسي مكوّماً كحزمة حطبٍ يابسة، وبينهما لم أكن هناك، ربما كنت بانتظار امرأة تأتي قبيل الفجر تلقي بي في الطابون، ثم تشهق، إذ ترى ألسنة النار تتراقصُ مُشكّلةً جسداً بشرياً يرقدُ بين الجمر، فتخرج فَزِعةً، وتقسم في الصباحات أنّ جنيّاً ذاب في هواها ثم انتحر..

لم أكن هناك..

وكان سريرٌ وملائكة وشياطين، وامرأة تتأجج فيها الشهوة فتتلوى كأفعى. ترى لِمَ تُشبّه المرأة الشَّبِقة بالأفعى، أهي رمزٌ مقدّسٌ قابعٌ في أعماقنا للأنوثة ربما عبدناها في عمرٍ ما، ثم توارت القداسة وبقيت الرهبة والخوف؟ أم هي رمز لجمال خارق يحمل في أعماقه موتاً ابتدعته النسوة خوفاً على ذكورهن من سطوة الفتنة؟

كانت تتلوى، فتحرّك شهوةَ السريرِ لملامسةِ ذراتِ جسدها. وفي اللامرئي كانت الملائكة والشياطين تتدافع، وتدفع بها كلٌّ إلى سبيل.. ولم أكن هناك، كنتُ كحزمة حطبٍ أنتظر في الفجر ريفيّةً تُخْطِئُ فتلقي بي بين جمرات الطابون..

لم أكن هناك..

وكان الدرج المؤدي إلى غرفتها معتماً، وكان طويلاً، مزدحماً بذرات سوادٍ تصدني قائلة: لا تخرج من قبرك للحياة، ربما الكفن أكثر دفئاً من حضن غانيةٍ اعتادت التعري أمام عيون الزناة، فأفقدها الاعتياد دفء الجسد ورونَقَه.

لكنّ قدميّ كانتا تتواليان على الدرجات الصاعدات نحو القاع، لست أدري إن كانت قد وصلَتْ، أم لم تصل؛ كانت الظلمة حالكة، ولم أستطع رؤية السرير لأعرف إن كنتُ هناك أو لم أكن.

لكني أجزم أني لم أكن، إذن لصرختُ دهشةً عندما رأيتُني، وتكوّمتُ على ذاتي كحزمة من حطب.

والريح لم تكن موجودة، كانت في مكان ما تمرّ في جسدٍ قصبةٍ لتبثَّ فيه الروحَ، وكان القصب يتمايل في رقصة حزنٍ ندبيّة تثير في الريح الجنونَ أكثر.. والشهوة إلى إبداع الخلق أكثر، حتى أنستها شهوتُها أنّ عليها أنْ تمرّ عليّ ذات وقت؛ لأقول لها ما أسرّ لي به الجنيّ القابع في طابون الريفية وهو يقبّلُ مع كل حطبةٍ تُلْقى أرغفةَ الخبزِ لأن يد المحبوبة ستلمسها، وكانت الريفيّة قد نسيتْ مسح الكحل من عينيها، فيتسلق الدخان أهدابها ليكتب على صفحة الخدّ حكاية ليلٍ مرّ بطيئاً.. مرّ على المكان وأهله، ولم أكن هناك..

ربما لم أكن هناك..

لكنّ امرأة أقسمت أنها رأتني أنثر قبلاتي على سياج البيت المقابل لنافذتها، وأنها شعرت بالغيرة، وتساءلت كيف لعشقٍ أن يصل حدّ الجنون؟ وأردفت.. أني ظللتُ أطوف بالبيت كأني أُحرس الأحلامَ حتى بزغ الفجر، واستفاقت الأزقة فاختبأتُ في الطابون، وأن سِنَةً أغشتْ عينيها فلم تدرِ ما حدث بعد ذلك.. لكنها في سِنَتِها حَلُمَتْ بطابون أكثر توهجاً، خرجت منه صبية مرتبكة الخطوات تنظر مراراً خلفها، وأنها أوقفتها سائلةً إياها عن كل ما رأتْ، فعلا زهرُ الرمان خديها، وضاعت الكلمات، فقط التقطت منها.. حزمة حطب.. جني.. طابون.. وعلى الخد كانت آثار كحلٍ خطّ شيئاً ما..

لم أكن هناك..

لكنَّ أصوات أجراس قطيع الشياه أيقظ في العشب شهوة الاغتسال بقطرات الندى، وأيقظني من صحوتي.

على الأكفّ آثارُ حروق، وفي الحلق كلماتٌ يابسةٌ اعتدّتْ غناءها..

لم يكن الجسد جسدي، ولا الصوت صوتي، لكنّي - رغم أنّي لم أكن أنا - أعترف.. أني اقترفت كل ما حدث.

حارسة النعناع

أم العبد، امرأة ضئيلة الحجم، صلبة البنية، تلوح على ثوبها الأسود بقايا تطريز الحرير، لطالما شوهدت تجلس على حجر أمام بيتها في المخيم ساهمة، تطلق نظراتها في الأفق كأنها تستمطر ما وراء الرؤيا، أو لعلها كانت تقرأ أوراق الأيام القادمة، وكلمّا مرّ بها أحدهم سارع بالسلام عليها وتقبيل يديها، كيف لا؟ والجميع يعرف أنها تسكن وحيدةً بعد أن التحق أبناؤها بالعمل الفدائي، وعندما كانت إحدى الجارات تهمس بكلمات شفقة على وحدتها كانت تردّ بعزم لا يقبل التردد: لمَ أنجبناهم إن كنّا نريدهم أن يختبئوا كالنساء في أيام الشدة.. وشباب المخيم كلّهم أولادي، وتشير بكفها المليئة بالتجاعيد إلى حيث لا يدرك محدثوها،هناك الأمهات أيضاً كلٌ منهن أمّ لأولادي، بعد أن أُخرِجْنا من البلاد ·صرنا عيلة واحدة·.. افهموا يا ناس.. ·البلاد ما بترجع بالساهل·، ·أنا ولادي فدائية بتعرفوا شو يعني الفدائي· تتنهد.. وتخفي قطرات القلق في عينين أضحت عصيتين على الدمع.

كلَّ فجرٍ توقظ الشمس من نومها بحركتها الصباحية وبابتهالاتها وأدعيتها، وإذ تتم صلواتها تبدأ برش الماء على أحواض النعناع، وتروح تمسد بيدها الأوراق كأنها تغسل في الفجر وجوه أحبتها، يتحلّق حولها بعض الفتية فتبدأ تحدثهم عن الوطن وعن الأتراك والإنجليز والثوار عبدالقادر الحسيني والمجاهدين وتحكي بفخر أنها أسمت أحد أبنائها باسمه لكن لم تُكتب له الحياة، وتحكي عن الذين قتلهم الثوار لأنهم كانوا خونة ·أذناباً للإنجليز· وتتابع ·بيستاهلوا.. هو في حدا بيبيع أهله· ويسافر حديثها في كل اتجاه.. إلى أيام زمان: الزرع والحصاد وتروي كيف ولدتْ إحدى بناتها في موسم الحصاد تحت زيتونة، ونهضت لتكمل عملها لئلا يسبقها الآخرون، وتتنهد ·مات بدري، الله يرحمه، ترك كوم لحم برقبتي· تتلاقى أعين الفتية عند يدها وهي تمتد لتلتقط المسبحة وتبدأ حباتها الواحدة تتبع الأخرى وكأنها تقلّب صفحات ذكريات تأبى أن تذوي، تغيب نظراتها في اللامكان، وصوتها يخفت شيئاً فشيئاً، يروي قصص البلاد بأدقّ تفاصيلها، وكانت تردد باستمرار·الأولاد لازم يعرفوا كل إشي، مش لازم ينسوا، بكره بيرجعوا..·

لكن الغدَ لم يأتِ، وغابت أم العبد، كانت جنازتها مهيبة، رفعها الأحفاد على الأكتاف، فيما كانت الزغاريد تدوي في المكان بدل الدمع.

عندما عاد الجميع من المقبرة المجاورة، كانت أيديهم معطّرة برائحة النعناع، واكتشفوا فجأة أنها لم ترحل ففي ذاكراتهم تفاصيل دقيقة عن حياة لم يعيشوها.. وفي كل جزء منها كان وجه أم العبد يطل باسماً.. وشفتاها ترددان: ·مش لازم تنسوا· فالنسيان هو الموت الحقيقي.

تنويهات هامة

تنويه أول:

نسيت أن أخبركم أن نسوة الحارة لا يزلن يسقين أحواض النعناع، ولا يزلن يتهامسن سراً أن أم العبد عندما غادر آخر أبنائها المخيم ملتحقاً بقوات الثورة، كان قد ترك عندها بندقية، وأنها قامت بدفنها تحت حوض النعناع لئلا يجدها الجيش ويصادرها.

تنويه ثانٍ:

عندما سمع أحفادها بالهمس، عرفوا سرّ رائحة النعناع التي وجدوها على أيديهم عندما عادوا من المقبرة..

تنويه ثالث:

لو بحث كلٌّ منكم في أعماقه فسيجد حارسة نعناع تخصّه.

كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات

ما جرى في قرية آثأولاتش

حميد عبدالقادر

·في عام الجوع تسمن الكلاب·

مثل شعبي

اليوم مثل الأمس، اكتظت المقبرة بمن تبقى من أهل قرية آثأولاش. وقفوا متعبين على تلة جرداء، تحت سماء رصاصية، وطفقوا ينتظرون أن يوارى جميع الموتى التراب، لتختفي رائحة الموت.. انتظروا طويلا، ولم تنته مراسيم الدفن. كانت تتم ببطء. لم تعد سواعد الرجال تقوى على ردم مزيد من الموتى في قبور واسعة. اقترح بعضهم حفر قبور ضيقة، حتى تتسع المقبرة للموتى اللاحقين.. اعترض آخرون على الفكرة.. ورددوا قائلين ·سنعذب موتانا·.. لكنهم سرعان ما أذعنوا وحفروا القبور الضيقة.

منذ بضعة أسابيع، وهم يأتون إلى هنا لحفر القبور في أرض جرداء، لم تروها الأمطار منذ سنوات عديدة. ومن كثرة ما حفروا تعبوا، فوهنت قواهم، وشحبت وجوههم، وتجعدت تقاسيمهم بشكل يوحي فعلا بأن القرية انتشر فيها مرض قاتل.

II

لما انتهى الحفارون من حفر آخر قبر، قال شيخ عجوز هزيل الجسم، يروّح عن وجهه الأسمر بمنديل أبيض أسود من كثرة الأوساخ التي علقت به:

_ يبدو أننا سنعود إلى الحي. إنه آخر ميت.

رد عليه رجل أقل منه سنا، كان يجلس على صخرة تحت شجرة فقدت أوراقها:

_ لكننا سنعود غدا لدفن موتى آخرين.

قال هذا، فساد الصمت مجددا، ولم يعد يسمع سوى لطقطقة الطبيعة وهي تحترق بأشعة الشمس وتكتوي بنارها.

مرت ساعتان على عملية الدفن. وقرأ مقرئ ما تيسر من كتاب الإله، بصوت متعب، وكان العرق يتصبب من جبينه. ترحّم الجميع على الموتى، وتوسلوا من الله أن تتساقط الأمطار حتى ترتوي الأرض، وتنبت رزقا، لتنتهي المجاعة. قالوا آمين بقلب خاشع، فانصرفوا عائدين إلى بيوتهم راجلين تحت سماء توسطتها أشعة الشمس.

III

عندما وصلوا إلى مدخل الحي عائدين من المقبرة، هرعت إليهم النسوة وأخبرنهم بما جرى.

_ مصيبة أخرى، قالت امرأة ما تزال تحتفظ ببعض جمالها.

انقبض قلب الرجال. صمتوا. وظلوا واجمين في أماكنهم.

_ ماذا؟ تجرأ أحدهم على السؤال.

قالت المرأة ذاتها، وقد خارت قواها:

_ ماتت نصف المواشي.

لم يستطع الرجال تحمّل هول ما جرى. مصيبة أخرى حلت بهم. موت المواشي يعني نهايتهم جميعا. تجلدوا، وأظهروا بعضا من الشجاعة أمام النساء، فهم يعرفون أن النسوة يدركن من تجلدهم أن الأمل باق. وحينما يظهرون الخوف، يرتعبن، وينتابهن الشك.

IV

عند منتصف النهار، توجه الناس إلى جامع طرف القرية. صلوا صلاة الاستسقاء. ثم وقف إمام هزيل الجسم، قصير القامة، نبتت بثور على وجهه الأسمر، وراح يخطب صائحا:

_ كثر النفاق، وانتشرت المعاصي. الرذيلة غلبتكم، والشر أضحى دربكم. عودوا إلى الله، وإلا انتهيتم على بكرة أبيكم.

اقشعرت أبدان المصلين، وطأطأوا رؤوسهم. فأردف الإمام:

_ لا تتركوا عقاب الله يستمر.

استرسل الإمام في خطبة طويلة، وقد بح صوته، وتحدث عن الأقوام الضالة، وكيف انقرضت، واضمحلت. وبين الفينة والأخرى كان يرتشف الماء من طست نحاسي وضعه جانبا، فتخيم لحظة صمت على الجامع، سرعان ما يكسره بصوته المبحوح، فيقول:

_ العودة إلى الله أم الفناء.. عليكم أن تختاروا.

V

بعد صلاة الجمعة، سار أهل القرية وسط جثث القطط الملقاة على قارعة الطريق، واستنشقوا هواء غلبت عليه رائحة الجثث المتعفنة، وعقدوا اجتماعا في مقهى الثورة.

قال الطيب الطاهر:

_ نراسل الباب العالي ثانية، ونطلب منه أن يرسل المساعدات.

تذمر عمران البولانجي من كلامه، وقال ساخطا:

_ لا فائدة ترجى من السلطان، لقد تركنا لأمرنا.

مسح العرق المتصبب من جبينه، وأردف قائلا:

_ لم يعد سيد البحر كما كان. والغنائم لم تعد تصل.

VI

وفي الليل اجتمع قطاع الطرق النازحون من أعالي الجبال عند حمودة الأعور في بيته الواقع على مصب النهر الجاف، وناقشوا مصيرهم. وقال بوحا آث يلوز:

_ لم نعد نجد شيئا نسرقه. سنموت جوعا لو استمر الحال هكذا.

نهض شيخة بن والو من مجلسه على حصير من الديس، وقال:

حسين جمعان

_ علينا بالهجرة إلى المحروسة، فهناك الموت لم ينتشر بعدُ.

انقسم اللصوص إلى مناصر لاقتراح شيحة بن والو، ورافض له. فتعالت الأصوات، وعم الضجيج، فصاح حمودة الأعور قائلا، وقد انبعث الشرر من عينه الوحيدة:

_ لن نذهب إلى المحروسة، الانكشاريون هناك ما زالوا أسيادا، سيعدموننا عن بكرة أبينا. سنبقى هنا، ولن نموت. سيموت الجميع إلا نحن.

صمت برهة، ثم أردف:

_ سنصبح أسياد البلدة، أعدكم بذلك.

وقف شيحة بن والو، وقال:

_ ومما سوف نقتات.

حدق فيه حمودة الأعور مليا، وصاح قائلا:

سنأكل أي شيء، ولن نموت جوعا.

VI

وفي يوم الجمعة الموالي، خطب الإمام ذو الصوت المبحوح في الناس قائلا:

_ سنحارب من أجل الحق، وسيسقط المطر.

وفي الغد حزم أمتعته وصعد إلى الجبل، رفقة أتباعه.

8

اجتمع اللصوص وقطاع الطرق في بيت زعيمهم كالعادة، وقال شيحة بن والو:

_ لقد قامت الحرب، فمن سنناصر؟

ورد حمودة الأعور:

_ كلاهما معا.. الباب العالي، والمحاربون في الجبال.

فقال بوحا آث يلوز:

_ نجعل الحرب تستمر أكثر، ونحقق رغبتنا في السيادة.

_ كيف ذلك، سأله حمودة الأعور بإعجاب:

_ نترك لحانا تنمو طويلة، ونبيع الأسلحة لأتباع الإمام، ونبعث تقارير مفصلة للباب العالي عن تحركاتهم.

راقت الفكرة لحمودة الأعور، ابتسم، وقال:

_ هكذا نتصرف.

وكان قراره مسموعا مطاعا، فهو زعيم الجماعة.

9

وفي الغد صعد مزيد من أهل القرية إلى الجبل، وأعلنوا الجهاد ضد الباب العالي. وسمّوا بالخوارج.

وبعد أسبوع أهدى أهل البوادي الإمام حمارا أشهب فلزم ركوبه حتى اشتهر به. وسميت ثورته بثورة صاحب الحمار. وقيل إن أتباعه يشربون الدم بدل الماء، ويأكلون لحم الجنود الانكشاريين نيئا، فراحت تنبعث منهم رائحة نتنة. فذاع صيتهم، وبلغ بلاد الشمال، لكن الطقس ظل على حاله، فلم تمطر السماء، ولم يغير الله الأحوال.

10

بعد شهر من قيام الحرب، فر أعيان القرية إلى بلاد الثلج، ولحق بهم المتعلمون، والأطباء والمهندسون، والصحافيون، وعازفو الآلات الموسيقية، والممثلون المسرحيون، والكتاب، والطباخون الماهرون، وكل أصحاب الحرف القديمة التي توارثوها أبا عن جد، منذ أن غادرت عائلاتهم الأندلس فرارا من محاكم التفتيش المسيحية واستقروا في البلدة سنة 1492.. كل هؤلاء رحلوا، ولم يبق في القرية سوى الفقراء، وقد تحصنوا في بيوتهم بحثا عن الأمان.

أما الحاكم ممثل السلطان الأكبر، فقد اختفى بقصره بالمحروسة، وأحاطه بجنده، فانشغل بالحرب ضد صاحب الحمار. أما اللصوص وقطاع الطرق فبقوا يجتمعون كل ليلة، ويقررون مصيرهم. واستمرت المجاعة في حصد الأرواح. وفي كل يوم يذهب الناس للمقبرة لدفن موتاهم.

11

حل فصل الشتاء، وساءت الأوضاع كثيرا، ولم تمطر. بقيت الشمس لافحة، تلقي مزيدا من الخراب، واشتدت المجاعة. والحرب لم تتوقف، ووصلت بر المحروسة عند باب الحاكم الأكبر، فذعر السلطان في الباب العالي، وأرسل جنده. وقضى عشرون ألفا من الناس. بعضهم ماتوا جوعا، وآخرون قتلهم صاحب الحمار.

وذات يوم أصيب حمودة الأعور بمرض ألزمه الفراش. نحف جسمه، وفقد بأسه، وأضحى يبدو كالجثة الهامدة، وقال شيحة بن والو:

_ سيموت لو بقي على جوعه.

وفي اليوم الموالي مات حمودة الأعور، ودفن في مكان بعيد.

12

بعد أسبوع اجتمع اللصوص وقطاع الطرق، وعينوا شيحة بن والو زعيما لهم. اعترض بوحا بن يلوز عليه، وأخرج سكينه، فهدد الزعيم الجديد. اندفع شيحة بن والو من مكانه، ونشبت معركة بينهما، وانتهت بموت بوحا بن يلوز. غرس شيحة بن والو سكينه في قلبه، وألقى بجثته إلى النهر الجاف، فعاد إلى مجلسه، مكان حمودة الأعور، على صخرة عالية قرب شجرة فقدت أغصانها، وقال بصوته الأجش:

_ سنأكل الجيفة ولن نموت.

كاتب من الجزائر

ثلاث قصص

حنان بيروتي

انكسار

الطفلةُ الباكية مثل طيرٍ مذبوحٍ، شدّتها المرشدةُ من كتفِها بقسوةٍ وأدخلتها غرفةَ الإرشاد في المدرسة.. ·أنتِ يا قليلة التربية تضربين أمك في الشارع؟ و..·.

اصطنعتْ إحدى المعلمات بصقة وجهّتها لها، شرعتْ المرشدةُ بإلقاء خطبة حماسية عن برّ الوالدين وفضل الأم، شاركتها المعلمات الكلام بأصوات تتعالى كأنها صراخُ ديولٍ محمومٍ، ظلتْ الكلمات المتداخلة تتطاير حول الطفلة وهي تدافع عن نفسها بصوتٍ ضعيفٍ مهزوزٍ، لم تستمع أيٌّ منهن لما تقول..

كلّفتها أمها بإرسال أخيها الأصغر للحلاق لأنّ دوامها في الفترةِ المسائيةِ، وجدتُه مقفلاً، ذهبتْ -كي لا توبخها أمها- لآخر، تأخّر الوقت، كان ثمة منتظرون على الدّور ففضّلتْ الرجوع، وجدتْ أمّها تقف مثل لبؤةٍ جريحةٍ أمامَ باب الدّار، استقبلتْها بالشتائم، جذبتها من ذراعها كما يُحمل الأثاث المهترئ ·أين كنتِ يا هاملة.. لماذا تأخرتِ؟ وأخوك لم يحلقْ شعره؟ أخوك مغفل صغير لا يفهم شيئا من ألاعيب البنات، بنات اليوم، الله يقصف عمرك!

ظلّتْ تشتم وتطعن، والطفلة تسمع، لكن حين أصرّت على مرافقتها حتى المدرسة وضربتها أمام الباب، أحست بعيون البنات يلعقنَ جرحَها، حتى سائق الباص المنشغل دائما وجدَ الوقت ليرقب الموقف، موقف انكسارها المعلن.

لم تزل الكلمات المتداخلة عن الأدب والتربية تتداخل حولها مثل شبكة، لكنها صرخت من نافذة صمت متاحة: أبعدتُها عني!.. أردت فقط إبعادها عني!

زئير

الشبلُ الذي نسيته عائلته في الغابة يوم الحريق الكبير، نجا من الموت بأعجوبة، ظلّ جسمه ضعيفاً يقتات على الأرانب الصغيرة، ويختبئ معظم الوقت خوفا من ذاك الشيء الأحمر الملتهب الذي التهم طفولته ويتّمه مبكرا.

تلصص على مجلس النمور وهم يحضرون فيلماً عن الأسد ملك الغابة، سمع الزئير الرهيب وعرف أنه ابن الملك ملك الغابة، انتفخت أوداجه وارتفع زئيرُه، حرصَ أن يجعله مخيفاً.

في البداية هربوا مرتعدين لكن أحد النمور عرفه من أثر الحرق على فخذه الأيمن، وهتف بهم معلنا: إنّه هو.. هو ما غيره! فرجعوا إلى أماكنهم مقهقهين، أحد النمور الأشقياء صوّر خيبته، وقرر إنزالها كلقطة كوميدية على اليوتيوب!

غموض

لم يحدث أن سارت في الشارع إلا وتتأمل بعيون عطشى البيوت حديثة البناء تحديدا واجهات الحجر والقرميد الذي يظلّل البرندات الأمامية، ويعطي فخامة محببة، والأشجار والورد الذي يزين المدخل.

كم تتمنى بيتا مستقلا حديث البناء بلا درج تتحدر على درجاته عند المغادرة وتتسلّقه بأسى ومشقة عند العودة، بيت بمدخل مستقل لا تستشعر العيون تتلصص كل صعود ونزول ونوافذ مطلة على خضار، نوافذ لا تقدّ من جدار لتطل على آخر! تتمنى شجرة ليمون ونعنعا وياسمينة تتكئ بأذرعها الدقيقة على الجدار الأمامي وتتضوّع رائحة الأبيض المنعش مع كل هبّة هواء ناعمة، خواطر تطعنها أشبه بسكين إذ تتذكر الأوضاع المادية التي تعيشها أسرتها، فزوجها بالكاد يؤمّن لهم المعيشة الكريمة وإيجار الشقة التي يسكنونها وطيبته تلطف ألمها الصامت لكنّ الحسرة تتناهشها كلما دخلتْ باب العمارة ووقفت لحظة أمام الشاحط الأول من الدرج استعداداً لرحلة الصعود، وتذكرت أنّ ثمة بابا مقابل المد خل وعائلة تقطن فوق سقفها وأخرى تعيش تحت أرضية بيتها، وأنّ أيّ حركة سريعة لها مسموعة، تحريك الأثاث محسوب، خطواتها بالكعب العالي مسجلة في أدمغة الجيران، خصوصياتها منتهكة إن علا صوتها بضحكة أو بصرخة شاركها جيرانها الحدث بفضول أو

حسين جمعان

بملل وربما بانزعاج، تحس نفسها مخنوقة مسجونة حتى الجدران مشتركة مع الآخرين، تتمنى جدارا صامتا لا يوصل لها الحركات والأصوات والأغاني التي يسمعونها حتى باتت تميز أذواقهم وشجاراتهم.. اللعنة.. حتّامَ ستبقى معلقة بين السماء والأرض؟ تتمنى أن تلمسَ التراب أن ترفع رأسها لترى لون السماء لا نوافذ تشبه عيونا مترصدة لامرأة تسترق النظر للأعلى! تتمنى أن يتاح لها أن تزرع شتلة، أن تجلس تحت عريشة دوالي.. عذّبتها هذه الأفكار كثيراً، نغّصت عيشها لكنها لم تستطع أن تتخلى عنها، حاولت التغلب عليها بالحلم، تجلس في غرفتها وتحلم بأنّ النافذة المغلقة هناك خلف الستارة إنما تطل على مدى مفتوح من الخضار، حين تزور إحدى صديقاتها ممن يسكنّ بيتا مستقلا تجلس في الحديقة وتسمح لنفسها للحظة أن تتخيل أن هذا بيتها، هي لا تحسد الآخرين لكنها تغبطهم، لحظات قليلة تمنحها بهجة كبيرة سرعان ما ينغّصها الواقع فتستشعر انكسارا لاحقا..

ذاك اليوم قُبيل مغادرة مركز عملها اكتشفتْ بأنها نسيت مفتاح البيت، اصطدمت أصابعها بالفراغ حين أرسلتها في حقيبة يدها، نفضتها.. قلّبتها ولم تجده، تذكرتْ بأنها غادرت قبل زوجها ولم تحتج لأن تغلق خلفها الباب، نظرتْ للساعة بقلق واكتشفت أنّ ثمة ساعة تقريبا قبل موعد عودة زوجها.

وقت الظهيرة لا يزور فيها أحد الآخرين، صوت خطوات على الدرج، موقف محرج! أحسّت بالدم يصعد إلى رأسها، تظهر·أم محمد· تطالع وقفتها بفضول: كيفك.. زمان ما شفناك!

تتظاهر بأنّها وصلت للتو وأنّها توشك على تناول المفتاح من الحقيبة والدخول: هاي ترويحتك؟.. اتفضلي!

تقول الكلمة الأخيرة بآلية باردة تمنعها من الاستجابة رغم أنها تودّ الدخول لتمضية الساعة المتبقية لعودة زوجها، لكنّ برودة الدعوة يصدها تجيب بترفّع: لا معلش مرة ثانية!

تتمنّى لو تسارع بالدخول وتتركها وشأنها، لكن الأخيرة ترمقها بنظرة فضولية متأنية فتحاول انتشال نفسها من حرج الموقف: آآ.. تذكرت! عليّ شراء بعض الحاجيات للغداء!

تبدأ بنزول الدرج وتتنفس الصعداء، حين تسمع صوت إغلاق الباب تقف في منتصف الدرج.. ماذا تفعل؟ ماذا؟ تنزل للشارع تخطو ببطء وحيرة، تتأمل العمارة من الخارج لم يخطر ببالها قط أن تنظر إليها، يبدو أنّ من يمتلك شيئاً لا يتذكر النظر إليه وتأمله، النوافذ الستائر.. له جدران ونوافذ وفيه مطبخ.. جميل ودافئ، بعيد عن ضوضاء الشارع وعيون المارة الفضولية التي بدأت تتناهشها باستطلاع.. غرقتْ بخيالاتها، أخذت تذكّر نفسها بمواقف مبهجة مرّت بها، لمحت زوجها آتٍ ناصية الشارع، فرحة تجتاح أعماقها وهي تتأمله، يقترب ببطء: ماذا تفعلين هنا؟ نبرة لهفة في صوته تردها بنبرة قرف جامدة: لا شيء! كنت فقط أتأمل البيوت الجديدة! كمن تلقى طعنة مباغتة رد بعصبية مفاجئة: يكفي! لا أريد سماع تلك الأسطوانة!

تبتسم وهي تتبعه صاعدة الدرج مستشعرة لحظة رضى غامضة لا تريد أن تبوح بها لأحد.

كاتبة من الأردن

تباين

خالد اليوسف

تخطيط لـ حسين جمعان

كنا تمتد يده إلى دفائنها الدافئة، يده الأخرى ·تداعب شعرها العاطر، تستيقظ فتنتها، يهيج شذاها، يتقاطر عرقها، تتحسس بلسانها كل جاف لتلعقه، إلتوت منتفضة بالتفاتها إليه، كان يئن وأنفاسه تحاول اللحاق بخفقه المضطرب، تقترب منه أكثر، يصد عنها متذكراً أباها بعد رفقة طويلة دامت خمسين عاما!

أمّارة..!

تجوس شهوته الثائرة بعينيها المتلهفة ما برز من مفاتنها الظاهرة عفوياً، ويغض الطرف خجلا عند ردها على ندائه:

هاه بابا أنا يعرف يصلح كل شيء..!

متذكراً أنها خادمة صغيريه التوأم وزوجته المقعدة.

انتظار

صمت يطرز المكان بخيوطه، وشاشة بلازما تسيطر بحجمها الكبير على الجدار المقابل، واضطراب حركة الحضور مع أنفسهم تجذبه عن متابعة الشاشة، فيعيد ترتيب نظراته للعرض مع وجوههم، كي يستبين تصنيف الأسماء والتفاصيل التي يقرأها، فتعيد الشاشة له العرض من جديد، وتشرح له.. الانفصام، الوسواس، القلق، الاكتئاب، العدوانية، التوحد، الزهايمر؛ ولعينيه قراءة أخرى!

طعم التراب

ضاقت الأرض بما رحبت، فبثت السلطات خطة جديدة، سُتنهي المأساة وتقضي على الساقط والمتسلل والمختفي، في الصباح الباكر انتشرت أجهزة الأمن للبحث عنهم، مضى النهار يطويها طيا، وعند المساء أعلن قائد الحملة عن خلو المدينة منهم، حيث تم تفتيشها بدقة ولم يُعثر على أثر لهم، وكانت المدينة خالية إلا من رجال الأمن!

كاتب من السعودية

المتلازمة الأندلسية

خديجة النمر

دخل عيادة الدكتور بحقيبته من نوع حقائب المدرسة ذات الكتفين التي يستخدمها في السعودية أطفال المراحل الأولى من الابتدائية.. ورغم أن وقت الدوام انتهى وكان الدكتور في طريقه للخروج لكن المريض صار الآن داخل الغرفة وبدا مرتبكا بعض الشيء، يمسك سيري الحقيبة الممتدين على جانبي صدره بقبضتيه وكأنه يخشى أن تنزلق، الدكتور الذي كان يجمع أوراقا وملفات من على مكتبه يحدق في ملامحه الآسيوية ويفكر بأيّ اللغتين يمكن أن يخاطبه بها العربية أم الإنجليزية ولم تكن حيرته قد حسمت حينما نطق الآسيوي: السلام عليكم

- أهلا ..
- ...

قام الدكتور من خلف مكتبه

- في الحقيقة كنت على وشك الخروج.. ما رأيك بأخذ موعد من ال...

وفتح الدكتور الباب، كانت السكرتيرة قد خرجت بالفعل ومكانها فارغ.. والمريض واقف لم يلتفت مع أن الدكتور صار خلفه ممسكا بالباب.

حسنٌ لا بأس.. تفضل.

تراجع الدكتور حيث كان وأشار إلى المقعد الجانبي أمام المكتب، جلس المريض على طرف الكرسي دون أن ينزل الحقيبة عن كتفيه لكنه أفلت قبضتيه وحاول تفريغ ارتباكه في أكمامه يرفعهما قليلا، ثم ينزلهما ثم يرفعهما.

لم يدرِ الدكتور هل صاحب الوجه الآسيوي مرتبك، أم أنه لم يفهم منه إلا الإشارة إلى الكرسي.. فحسم أمره وبدأ الكلام معه بالإنجليزية، قال وهو يعدل جلسته:

- إذن.. أخبرني ما هي المشكلة عزيزي؟
- ليست لديّ مشكلة..
- آها ...
- لديّ خطة.
- خطة.. جميل.. أخبرني عن خطتك.
- هل سمعت عن جنكيز خان؟
- الشخصية التاريخية الشهيرة.. نعم.
- كان يقول : لقد فتحت لكم امبراطورية عظيمة، لكن حياتي كانت قصيرة للغاية لتحقيق غزو العالم، هذه المهمة تركت لكم.
- آها ..

أمسك الدكتور قلما وورقة من أوراق الملاحظة وسأل وهو يكتب:

- طيب.. هل حضر معك أحد؟
- أبي. ينتظر في الخارج.
- جميل.. هل تعاني من أيّ مشكلات جسدية أو تتناول عقاقير معينة؟
- لا.
- هل تعرف لماذا أنت هنا؟
- أبي اقترح عليّ الأمر.. قال أنك قد تستطيع مساعدتي.
- سأبذل جهدي.
- حقا ؟!!!
- لو أخبرتني ما الخطة.

استند على ظهر الكرسي واسترسل بشيء من الارتياح:

- هل تعلم أنه استخدم الحرب الجرثومية، فقد كان يقذف المدن المحاصرة والعصية على الاستسلام بجثث جنوده المتوفين بالجدري والطاعون لنشر العدوى بين أهلها.
- يا الله! .. ولكنك لم تخبرني بعد بالمشكلة؟
- أيّ مشكلة؟
- الخطة.
- هذه خطتي.
- عفوا هل لك أن تفصل أكثر.
- خطتي أن أكمل مشروع جنكيز خان بغزو العالم.

وهنا وضع الحقيبة عن كتفيه وفتحها بحماس شديد وأخرج دفترا مدرسيا على غلافه رسومات "أنيميشن" وابتدأ يقلب صفحاته فلمح الدكتور امتلاءه بالكتابات والرسومات.

- ولكن قبل ذلك قررت أن أعتزل الناس بضع سنوات كما فعل جنكيز خان حينما اختفى عشر سنوات من العشرين إلى مشارف الثلاثين، في تلك الفترة تلقى الوحي...
- عفوا.. أكره أن أتحاذق لأصوب معلوماتك عزيزي ولكن جنكيز خان لم يكن نبيا.. بل قائدا عسكريا ثم حاكما بعد ذلك.
- هذا ما تقوله أنت.
- ليس أنا.. بل كتب التاريخ. هل قرأت سيرته؟
- نعم.
- وهل ترى أنه رجل عظيم؟
- بالطبع.. لماذا رفعت حاجبيك؟ تظن أن لي ميولا عنفية؟ لا.. أعرف أنه لا يجب أن يكون المرء عنيفا إلا اذا اضطر إلى ذلك. كما اضطر جنكيز خان، ولكن أتعلم أن التهويل في وصف عنفه خطة منه؟ "التوحش كرسالة تهديد".

قال وهو يرسم قوسين بإصبعيه في الهواء. ثم بدا عليه الحماس في الشرح وتقدم بجسده إلى الأمام وحرك يديه بعفوية مدركا أهمية ما يقول وتابع:

- لقد كان بارعا فعلا في الحرب النفسية، يمكنني التأكيد على أنه كان خبيرا نفسيا.. مثلك، هههه لا.. أنا أمزح معك.. أنت تعلم بالتأكيد أنني أمزح فلا مجال للمقارنة.. أعني لا شك أن حياته وتجاربه جعلت منه شخصا أبرع منك بكثير في هذا المجال.
- أوه.. بالتأكيد بالتأكيد.
- الناس بحاجة لشخص كجنكيز خان. هل تعلم أنه عاش حتى السبعين في زمن تشح فيه أعمار الرجال.. لا شك أن الناس كانوا يكنون له الولاء والاحترام.
- كيف هي علاقتك بالمرأة؟
- أيهن؟
- المرأة بشكل عام.
- سأنجب العديد من الأولاد.. ربما أربعين أو خمسين..
- هذا عدد كبير فعلا.. هل تظن أنك قادر على تحمل مسؤول...
- يمكنني استخدام طريقتكم.. أعني التعدد.. سأتزوج أربعا ثم أطلقهن ثم أربعا أخريات.. بحسبة رياضية بسيطة أظنني أحتاج ثماني إلى عشر نساء لأنجب خمسين ولدا. هل تعلم أن لجنكيز خان العديد من الأولاد.. يقال أن سلالته اليوم بالملايين.

كتب الدكتور في ورقة ملاحظاته: تقديس السلالة والحلم بالخلود، ميل واضح إلى العنف، التطلع إلى المجد والحكم والسيطرة. وكان يفكر بحيرة أن هذه الحالة هي الأولى من نوعها التي يرصدها لغير عربي ولا يهودي. ثم نظر إلى الساعة نظرة خاطفة، لقد وعد أبويه أن يحضر مع زوجته وأطفاله للعشاء عندهم الليلة، المريض قال:

- لو كنتُ متعجلا مثلك لما أوليت أهمية للأمر ولما تفرغت لرسم الخطة..

تذكر الدكتور عجوزا يهوديا في برلين حضر عنده بضع جلسات حينما كان يحضر بحث الدكتوراه في ميونخ، تذكر كيف تأجلت رحلته مرتين بسبب سوء الأحوال الجوية، فاضطر لقطع المسافة بالسيارة إلى برلين لمقابلة اليهودي.. الذي قال له إذ حانت منه التفاتة عبيطة إلى ساعته حينما انتبه لخلل ما في توقيتها:

تعلم أنه ليس من الأدب ولا الذوق النظر إلى ساعتك فيما يتحدث المريض..

وشعر حينها بالانزعاج من ذلك المريض الذي يعلمه أخلاقيات مهنته.. وكما اعتذر للمريض اليهودي وقتها، اعتذر للمريض صاحب الوجه الآسيوي وأضاف:

- أنت لم تخبرني عن تلك الخطة؟
- أنت من سيخبرني بالخطة.. هل أنت مصاب بالزهايمر يا دكتور؟ لقد وعدتني بالمساعدة قبل قليل!
- أظنك لم تفهمني بشكل جيد.
- لا بأس يمكنك التحدث معي بالعربية.
- أوه! أنت تتحدث العربية.. أنا آسف.. أعتذر بشدة.

شعر الدكتور بالحرج الشديد فهو يمقت أشد المقت أن يُعتبر عنصريا وحاول أن يوصل ذلك بأصدق الاعتذارات لمريضه الذي لم يتفاعل مع توتر الدكتور وسأل باستغراب:

- لماذا تعتذر؟!
- لأنني.. ظننتك.. لا تتحدث العربية.
- وهل هذه إهانة؟ أن لا أتحدث العربية؟
- لا.
- إذن؟

وهنا اكتشف الدكتور أن دافعه للاعتذار يعبر فعلا عن عنصرية من نوع ما.. أن يندم أشد الندم لأنه ساوى بين ناطق بالعربية مع غير الناطقين بها، الأمر الذي بدا له غبيا فعلا.. فانزعج من ذلك وأراد نسيان الأمر والمضي في العمل فنطق بأول جملة طرأت على ذهنه:

- كيف تعلمت العربية؟
- أنا مولود هنا.

وهنا ضحك الدكتور وود لو يصرخ كأرخميدس، لكنه حاول السيطرة على شعور الانتصار وكبته فخرج على شكل قطرات من الدمع بللت عينيه وابتسامة عريضة لم يستطع كبتها فقد أدرك أن هذا المريض اكتسب اضطرابه النفسي بسبب البيئة العربية المحيطة الصادحة بأمجادها الغابرة ليلا ونهارا، وتمتم كآخر محاولة لكبح جماح شعوره الاحتفالي غير اللائق أمام مريض: متلازمة ضياع الأندلس.. وكتب على ورقة ملاحظاته: "تم التشخيص SLA" وختم بخط أفقي تحتها للتأكيد.

كان الطبيب قد أجرى محادثات عيادية مع من يحتمل تشخيصهم بهذه المتلازمة خلال السنتين الماضيتين، اضطر للسفر أحيانا لمقابلتهم، كاليهودي الذي اضطر للسفر إلى برلين للقياه بعدما اعتذر المريض عن إمكانية السفر "لأن مشاغله مع الأمة اليهودية لا تتيح له ذلك" حسب ما أفاد في رسالته.

كانت حصيلة البحث سبعين شخصا في مناطق جغرافية متباعدة.. يشتركون في أصولهم العربية أو اليهودية باستثناء هذا الآسيوي.

قدم الدكتور بحث الدكتوراه عن تشخيصه لمرض أطلق عليه اسم المتلازمة الأندلسية أو Syndrome Loss of Andalusia ويختصر بـ SLA وهو اضطراب نفسي لا ينتشر فقط في الشرق الأوسط لكنه يكثر فيه، في المناطق والسلالات العربية وإسرائيل، ولذلك اختار له الدكتور هذا الاسم.. تتقاطع بعض أعراضه مع أعراض البارانويا وجنون العظمة، يشعر المريض أن مهمة عظيمة منوطة به ويصاحبها فقدان ثقة في المحيطين وقد تصحبها هلاوس أو وسوسة أو هلع وخوف من الخزي.. في الكثير من الحالات المشخصة كانت المهمات العظيمة تتعلق بإنقاذ أعراق وشعوب معينة من أخطار تهددهم كالاندثار والانقراض والتشتت والإبادة.

ضم بحث الدكتور أسماء لامعة كصدام حسين، أسامة بن لادن، أفيخاي أدرعي وآخرين.. مؤخرا تمت الاستعانة بخبرات الدكتور في المملكة العربية السعودية ضمن برنامج المناصحة للسجناء العائدين من مناطق القتال وبؤر الصراع بدعوى الجهاد.

كاتبة من السعودية

العجز

راجي بطحيش

العجز الذي يقهقه بالزاوية ثم يتمرّغ بأغبرة الأرضية التي يفترض أن تكون معقمة.. تلك افتتاحية الموسم الجديد فيه تمد الحياة أصبعها الأوسط بعنفوان لافت.. حرية متخيلة تنتزع حتى إشعار آخر.. إبرة تنزع عنها الممرضة ما استتر..
تقترب الإبرة الحادة من سقف الوريد.. بعض شظايا ثانية يتلامس الشيئان.. يلتقي العالمان لتنفق في أثنائها ملايين الأرواح من الحسرة.. رائحة كحول الإيثانول تملأ هذا الحلم.. وهل للمنامات روائح؟ بقع الدم تستتر تحت هذا البياض وهذا الأخضر الفاتح في أطراف لا تنتهي.. إبرة تبحث عن وريد ملائم تمتص سائله الأحمر.. الحرية المتخيلة مسلوبة.. ويسلبها ذاك المنظر الطبيعي الذي يلخص بين ثناياه كل شيء في اليوم واليوم الذي يأتي بعده وقبله ثم بعده..
الممرضة تعلن سيادتها على الحيّز وتوزع عينة الدم بين القارورات الصغيرة.. ها قد ابتدأ عهد يتلذذ بالغياب..

II

43 عمر مثالي كي يبدأ الرجل عهدا جديداً من.. من.. من ماذا؟ الحب.. الأناقة.. الانطلاق الدلال.. الفحولة.. من ماذا "الحرية مسؤولية وبتلبّك" كما تقول فيروز في "لولو"..
الحرية أو باب موصود بين غرفة وأخرى بالأحرى رعب متشرش وموروث ممّن يجلس عبر الباب.. كل تفاعل مع ما يقبع وراء الخشب يعني التسليم بما يجري الآن..
باب موصد بين الرجل وابنه.. كي لا يطرح الولد أسئلة ليس وقتها الآن..
باب يفصل بين الرجل وأخته العانس.. لا يستطيع النظر في عينها فالشعور المفرط بالذنب يتوارث أيضا..
باب خشبي سميك بينه وبين والدته.. أمي لا تعاتبينني اليوم أيضا.. على أنني تجرأت وفرحت قليلاً قبل خمسة وعشرين عاماً..
باب موصد لا أريد أن يناديني أحد ولا تلك السمكة الذهبية التي تتغذى على آهات من ماتوا..
باب من أحرف مبتورة بين من هو هنا ومن هو ليس هناك..
تلك المخلوقة التي لم أعد أعرف حتى كيف يلفظ اسمها.. كيف هو ملمس يدها.. هل لديها جلد مثلا.. وهل تعرف كم يبلغ عمري.. تلك المخلوقة أو شريكتي في مسبح العجز.. أوصد الباب بيننا وأصمت حتى الفناء.. حتى يصبح للموت معنى..
طفلي الذي يبكي داخل ما يشبه المذود.. تفصلني عنه غبائر الخسارة..

III

المستشفى.. أشخاص يمرّون سريعا بالأبيض والأخضر.. يتمتمون مصائر أو مجرد نكات.. يتمتمون وينظرون حولهم بشفافية متجاهلين العذابات الملقاة على الأسرّة.. يوم عادي ينتهي بفنجان من الشاي مع الزوج أو الزوجة أو شجار عائلي رتيب أو جنس غرائبي في مكان عام.. أو صفعة جديدة ضمرتها الأيام.. أو مجرد فيلم وتلفاز وطبق مكسرات بائت.. كل هؤلاء يغادرون في لحظة ما إلى شيء..
وفي السرائر المتناثرة بين الطرقات والغرف العنكبوتية تستلقي عيون جاحظة كما لم تكن من قبل.. يمثل أصحابها دور من استلبت حريتهم منهم للحظة.. أو للأبد..
تقترب الإبرة الحادة مرة أخرى لتثقب البدن في هذا اليوم الخريفي البديع الضائع..
- مرةً أخرى؟
- لا هذه حقنة لكي تنام
حفل للجنس الجماعي المتكلف في وسط برلين..
أيادي لا أعرفها تمتد وتخترق حدود حكايتي من دون إذن تتمازج السوائل عند أطراف قناعي..

IV

كان كامل قد بلغ قبلها بأسبوعين سن الثالثة والأربعين دون أن ينام.. بمعنى أنه كان مصابا بأرق وحشي لا يرحم.. أرق حتى لو قرر المرء تجاهله فإنه يحتل كل مسامات البدن ويجعل الأطراف تنتفض في كل لحظة معطاة ويزرع الحمى أو ما يشبه الحرارة الساكنة في محيط الوجه والوجنتين والصباح.. أرق يزرع البلادة السمجة في الأعين.. أرق لا نهائي.. أبدي لا تجدي معه كل توسلات الفجر وحبوب الخدر على أنواعها.. وأصنافها..
نهض كامل من اللانوم وتأمّل وجهه الأبيض في المرآة.. كان طفلاه قد غادرا برفقة والدتهما إلى الحضانة والمدرسة الإعدادية على التوالي.. مما منحه أو كان يمنحه فرصة ليتأمل وجهه الرمادي أكثر وأكثر فربما قد يجد ذاك الجنّ الذي سكنه ويختبئ في مكان ما.. في المرآة.. أما لماذا الآن؟
"لماذا يلتهم الأرق كل ما تبقى من جفوني.. الآن".
توجه كامل إلى مكان عمله في وزارة البيئة التي كان يكرهها -أي الوزارة وليس البيئة- كما كان غائبا تماما عن حياته.. زوجته.. أولاده.. تلك الحياة اليومية الدقيقة التي تشكل الأمور كانت وكأنها تمر من أمامه أو يمر من أمامها وكأنه يؤدي دورا في وظيفة أو مسلسل تلفزيوني بحلقات ممطوطة لا تنتهي.. ولا يحدث فيها الكثير سوى المآسي التي تستجلبها دواعي تبديل الممثلين.. أو إلغائهم تماما.. حتى دوره.. لم يكن أحد ليلغيه.

ياسر صافي

تأمل به الحارس بتوجس..
لن تستطيع الدخول، اليوم عطلة.. عيد إخواننا اليهود..
استدار كامل وتثاقل في الباحة نحو البوابة الرئيسية للوزارة.. ثم نظر إلى الحارس البعيد وتساقط أرضا بعذوبة متناهية قطعة تلو الأخرى..

V

الساعة الثامنة إلا ربع صباحا.. لا يوجد عمل اليوم ولكنني لم أكن أعرف.. لقد قضم الأرق ما تبقّى من خلايا معدّة لذاكرتي.. أو لمواعيدي..
الثامنة إلا ربع صباحا.. وما أنا بفاعل هل أعود إلى البيت أو إلى مقهى.. منذ دهور لم أكن في مقهى.. هل أذهب إلى فيلم إباحي؟ قد تكون هذه علامة؟
أن يأتي المرء في الصباح إلى العمل ويجد أنه لا يوجد عمل أصلا فبالتأكيد هذا مؤشر.. لشيء شيء ما.. وفي حالتي هذه إنه مؤشر على وجوب فعل شيء فيما يتعلق بهذا الأرق الذي ينهش ذاتي.. تغيير ما.. وحقيقي..
قد أهاجر إلى البرازيل لوحدي.. وماذا أفعل هناك.
قد أغير جنسي وأسكن في وسط تل أبيب.. وماذا أفعل بعدها..
قد.. أعيش حياة بوهيمية في باريس.. وماذا أفعل عند وصولي..
قد أسكن في جزيرة معزولة.. نائية في المحيط الهندي..
عرق بارد.. دوار.. عرق بارد.
يا عيونا سوداء كللت أيامي بطعم مغاير لكل ما ارتشفت من عطر سرمدي
يا أيادي سآخذها معي أينما حللت في حدائق النغمات المتماجنة
يا خصلات سوداء ألتحفها.. في غد آخر..
أبي.. أمي.. يا صبيا يرسم قرص شمس ملتهب عند الشاطئ

VI

سرير في قاووش يتقادم بسرعة.. رجل يتمدد على السرير وبجانبه خمسة رجال يتفاوت ظلهم..
رجل 1 - سوف أقتل شخصا مقابل سيجارة.. الآن
رجل 2- سوف تفوتني مباراة الكأس الإسباني
رجل 3 - لماذا تحضرين "محاشي" يا امرأة إلى المستشفى أتريدين فضحي..
رجل 4 - انتصاب مؤلم أمام سيقان الممرضة السوقية
رجل 5 - سأمنح الأنذال فرصة أخرى وبعدها إلى المذبح.. مباشرة
يتمدد كامل على السرير الأخضر والأبيض وتجلس حوله امرأة باسمة.. وطفلان كانا قد سرقا كل جمال هذا العالم..

كاتب من فلسطين مقيم في الناصرة

ثلاث قصص

رشا عباس

في المنزل وجدت كثيرا من الناس

ما الذي دفعني إلى موافقتكَ في كل ما حدث؟ في البداية كنا في قلب السيارة تحت المطر الكثيف الذي تشقه إنارة الطريق الخافتة. قلتَ لي إنّ أخي نائمٌ وهو يقود السيارة، لم أكن قد انتبهت وحين نظرت إليه وجدته نائماً فعلاً خلف المقود. أوقفتَ السيارة وأنزلتهُ منها وأنا أراقبك، وضعتَهُ على الطريق ومددته هناك. لم يستيقظ وبقي غافياً على الصورة التي وضعته بها ليبتل قميصه الأبيض بثوانٍ تحت المطر ملتصقاً بعظام صدره البارزة. بدا لي وأنت تضعه على الرصيف، بتلك الثقة والتلقائية أنّ هذا هو التصرف البديهي في مثل هذه المواقف: أن يتم إخراج النائم خارج السيارة ويُمدد في الطريق ليتمكن الباقون من إكمال سيرهم. حتى أنّني لم أذكر الموضوع أصلاً ونحن صامتان نقطع الطريق الموحشة في السيارة التي استلمتَ أنت قيادتها. فقط خفق قلبي قليلاً إذ لمع ضوء الشارع على ورقة كبيرة خضراء لشجرة بدت غامقة ولامعة بفعل المطر. في هذه الصورة وألوانها يدرك المرء جوهر الليل بشكل أوضح: العتمة والإحباط والمصائر المجهولة لأشخاص مثل أخي الأصغر الممدد وحده الآن نائماً في مكانٍ ما خلفنا.

في الصباح، كان ينبغي أن أذهب لأتفقده وأعرف ما جرى له. كان من الواضح أين يجب أن أتوجه: سأهبط التلة المشمسة المرصوفة بحجر لأصل إلى مكان عمله. بدا مكان العمل مختلفاً قليلاً، كان في قلبه فسحة تحوطها ستائر بيضاء بلاستيكية يجلس فيها الناس متلاصقين. إنّي أراه بينهم هناك، شققت طريقي لأصل إلى المكان. وصلت إليه. كان جالساً بين الآخرين ولكن بلا ملابس سوى سروال داخلي قطني أبيض فقط يبدو عريضاً عليه كأنّه لشخص آخر. تمكنت من الدخول بسهولة لم أتوقعها إلى الحجرة التي علمت فيما بعد أنّها سجن مؤقت أقيم هناك. جلست بقربه وعندما فكرت بالموقف وحقيقته فعلاً ظننت أنّ قلبي سيتوقف حالاً من القهر، لا أعلم بعد إن كان يعرف أنني السبب في وجوده هنا على هذا النحو، كنت أريد أن أعرف ماذا يتذكر تماماً عما جرى ليلة البارحة. قال لي إنّه استيقظ ليجد نفسه في الشارع واقتادته الشرطة إلى هنا "طبعاً سرقولي محفظتي" قال بتسليم، ولم يأت على ذكر أيّ أوراق ثبوتية كانت معه في المحفظة. أغمضت عيني ونجحت في تذكر محفظته تماماً كأنّي أراها الآن: كان يحمل فيها ثلاثة أوراق من ورقة العشرة آلاف ليرة لبنانية الصفراء وربما خمسة آلاف أيضاً، أمسكت يده البيضاء النحيلة كأيدي البنات وقلت له إنّني سأعطيه نقوداً أكثر مما سرق منه. لقد كنت صادقة فعلاً فيما قلته إذ كان من الواضح بالنسبة إليّ أنني أستطيع أن أسرق وأقتل لأعطيه نقوداً بدل التي أضاعها. كان ذلك جلياً للغاية. خرجتُ لأعرف من أحدٍ ما كيف يمكنني أن أخرجه، سألت رجلا يجلس في مكتب أمام الحجرة كما لو أنّه يجلس في صدر قهوة يديرها. دلّني على غرفة أخرى دخلت إليها وسألت رجل شرطة عما يمكنني فعله من أجل أخي، فقال لي إنّ علينا الانتظار أكثر ربما للغد. خرجتُ من الغرفة لأتحدث مرة أخرى إليه لكنّ ازدحاماً من البشر كان قد احتل المسافة أمام غرفة السجن، مددت رأسي بين المتدافعين ولم أتمكن من رؤيته.

في المنزل وجدت الكثير من الناس، لم أكن أريد أن ألاطفهم بعد أن عدت مطرودة من السجن ولم أر أخي مرةً ثانية. كانوا يمرحون في كل حجرة مع أطباقهم وأكوابهم، نظرت إلى باب الشرفة فوجدت أنّ الغسالة القديمة تسد بابها وقررت أن أزيحها لأخرج وآكل لوحدي هناك. أزحتها وخرجت بفنجان قهوة لأشربه قبل الغداء وأرتاح قليلاً، خرج ورائي اثنان أو ثلاثة منهم. كان ذلك مدعاة للضيق فعلاً، فقد أزحت الغسالة وخرجت كي آكل وأشرب وحدي فقط. لم أستطع أن أتحمل ذلك فأنا يجب أن يكون لي الحق بأن أكون وحدي على الشرفة الآن، وجدت نفسي أصرخ وأشتم ورميت الفنجان على الأرض لينكسر وتركت الشرفة عائدة إلى الداخل وأنا أوبّخ نفسي قليلاً لأني تصرفت هكذا أمام الناس غير المذنبين فيما حدث لي ولأخي.

ثلاث أغنيات لجاورجيوس

"بسم الله.. ما شاءَ الله ..." الذي ينتشلُ رمحه من قلبِ التنين ويرميه من فوق كتفي. ميتاتك الثلاث قيلَ هي الآن ثلاث نثراتٍ من لحاء الجوز مرمية في أركان الدنيا، تقلّبها الريح تسعمئة عام حتى تجمعها في اللدّ. يومَ تنتشل رمحك من قلب التنين وترمي به القمر. تشقّه ليهبطَ على الأرض ثلاث ميتات أخيرة قضيتها عنّا قبلَ ذلك: السكاكين والحريق والمعصرة.

•••

سيّدنا الذي ينام على القبة الخضراء مغمضاً عيناً واحدة. له اثنان وثلاثون اسماً يغسلها شيخ بكّاء. سيّدنا الذي يبُقى عيناً مفتوحة على خاطرِ الشيخ البكّاء خدام القبة. نمرُّ وننفخ في أذنيه الأمنيات. تختلط في نومه ليوزّع على كلّ منا أمنية الآخر في الصباح. يوم تعثرت صدفةً باسم لك تحت القبة سألتكَ الحبّ. بعدها بشهر وجدت طفلاً فيّ. عرفتُ أن المرأة العاقر التي قصدتك في نفس يومي قد هربت من عند زوجها. أعطيتني طفلها وأعطيتها حباً كان لي. في القرية طفلٌ بلا حب ألقي في النهر. والمرأة العاقر لم تنجب طفلاً لحبيبها. نجلبُ لك مغطسَ شمسٍ لتفتح عينيك الاثنتين علينا يا سيّدنا.

•••

"ما شاء الله.. الخير كلّه بيد الله". الذي ينتشلُ رمحهُ من ساقية الحبر ويرميه من فوق كتفي. يومَ شقّ القمر ثلاثاً وسال الثلثُ الأول سكاكينَ فضّة عبرت صدر الجبل. هربنا من القرية. كنتُ معهم وقالوا سيجلبونه مع القادمين بعدنا. جاءَ كل القادمين ولم يأت. الذي ينتشلُ رمحهُ ويشقُّ الليلَ نصفين كتفاحة. سيحملهُ إليّ من بين السكاكين. سيحملهُ قبل أن يسيل الثلث الثاني من القمر حريقاً يميت الأرض ثاني ميتةٍ قبل الزوال.

•••

سيّدنا الذي ينامُ على القبّة الخضراء، يفتح عينيه الاثنتين إذا بكى خدّام القبة. أربعون راية يحملها فرسان الموكب ألصقها بجدار القبّة. أحدهم شتم الشيخ فبكى. وعندما أرادوا الرحيل لم يقدر رجل منهم على انتشال رابته المسنودة إلى الجدار حتى طيّبوا خاطر الشيخ. حملوها وذهبوا. بنتٌ صغيرة ستقطع طريق السكاكين المغمدة في الأرض لتنفخ أمنيتي في أذنه: احملهُ إليّ، نجّه من حريقِ الغد.

•••

"ما شاء الله.. لا يصرفُ السوءَ إلا الله..". الّذي ينتشلُ رمحهُ مِن طينِ الأرض ويرميه من فوق كتفي. يومَ شقّ القمر ثلاثاً وسال الثلثُ الثاني حريقاً عبر البحيرة قبل أن يصل الأرض التي منها هربت. يومَ تركتهُ فيها وقالوا لي إن القادمين سيجلبونه معهم. لم يجلبكَ القادمون ولا حملكَ الذي شقّ القمر من فوق فرسه. وسيّدنا النائم بعين مغمضة أعطى أمنيتي لامرأةٍ أخرى تلك التي خرج إليها رجلها من بين السكاكين وأبخرة الأرض.

• النصّ الغامق هو جزء من الدعاء الذي ينسب للإمام الخضر.

بوّابة على الساعة السابعة

لو عرفت الطريق إليها مجدداً، لكان كل شيء أفضل الآن. ذهبت إليها يوماً ما ولكنّني أضعت طريقها طيلة ما تبقى من حياتي.

أذكر أنّ الطريق لم يكن سهلاً، كان عليّ أن أستقل القطار حتى محطة أخيرة ومن بعدها تابعت جر حقائبي مشياً على الأقدام لنصف ساعة حتى عثرت على نقطةٍ تتواجد بها مجموعة سيارات أجرة. كان أحد سائقي سيارات الأجرة المصطفة بشكل نصف دائري في فسحةٍ صخرية غافياً في مقعده ولم يكن هناك أثر لبقية السائقين في السيارات الأخرى. في المقعد الخلفي كان هناك شاب يقرأ كتاباً، قال لي الشاب: لا توقظه، لن ينطلق قبل أن تمتلئ السيارة.

انطلقت السيارة بعد دقائق، إذ تبيّن أنّ سعر الحجز بخس فحجزت مقعدين آخرين ليسرع السائق بالمغادرة.

باعتبار أنّ المواقع الإلكترونية لفنادق هذه البلدة، كانت كلّها معطّلة وغير محدّثة منذ عهود. كل ما كان يمكنك العثور عليه هو بضع جمل ترحيبية، وجملة واحدة مقتضبة لوصف الخدمات التي يمكنك توقّعها "خدمة ممتازة"، لم يكن من الممكن حتى إجراء حجزٍ على هذه المواقع.

لم أكن بمزاجٍ جيّد لبدء محادثة مع السائق وسؤاله عن أفضل فندق للمبيت في هذه البلدة، لذلك طلبت أن أنزل في الساحة العامّة. قبل أن أصل وعندما كان السائق يوصل الشاب إلى وجهته وجدت ما يشبه فندقاً في ذلك المكان. اليافطة كانت أحرفاً مضاءة على البوابة "نزل ريكاردو"، فقررت استطلاع المكان.

لحسن الحظ، وكون الموسم الآن غير سياحي فقد تمكنت من حجز غرفةٍ بسرعة، سلمتني موظفة حمراء الشعر تضع كحلاً أسود ثقيلاً على عينيها بتكاسل مفتاحاً وقالت لي بلكنة إنجليزية غريبة إنّني لو قدمت بعد قليل فلم أكن لأجدها أو أجد أحداً. لم تكن الغرفة سيئة، كانت فسيحة وقديمة الطراز وكانت هذه هي المرة الأولى منذ عهود التي أحظى فيها بسرير ذي ستائر. لم يكن هناك أيّ أثرٍ لتلفاز، حاولت أن ألتقط على جهاز الهاتف المحمول أيّ شبكة ولم أفلح في ذلك. في الواقع كانت الإشارة مفقودة بالكامل من الجهاز. اتصلت برقم الاستقبال لأستفسر عن إمكانية الاتصال بشبكة الإنترنت ولم يردّ أحد.

عندما نزلت لم أجد أحداً في مكتب الاستقبال، عثرت فقط على سيّدة تدخّن على البار الخشبي الصغير. حاولت أن آتي بموضوعٍ ما للحديث فقد كان المكان كلّه موحشاً الآن. هزّت رأسها، قالت لي إنّ عليّ أن أصنع مشروباتي هنا بنفسي في البار أيضاً فلا وجود لأيّ موظفين في الفندق. لم يبد هذا الأمر مطمئناً، نظرت إلى الخارج عبر زجاج الواجهة حيث كان الظلام قد بدأ يحلّ. ماذا إن حدثت مشكلةٌ ما؟ السيّدة تبدو طريفة ولكن ربما لم يعجبها مظهري ويظهر أنّها غير راغبة بالتحدّث إليّ. تفحّصت شاشة الهاتف لأعرف كم الساعة الآن. وجدت أنّ الساعة غير ظاهرة ولم أفلح في ضبطها من إعدادات الجهاز. سألتها عن الساعة، فاستدارت إليّ للمرة الأولى منذ بداية الحديث وتفحّصتني ملياً كأنّما لتعرف بأيّ صيغة طرحت هذا السؤال. تساءلت عمّا إذا كنت أعرف من قبل ما هو الأمر المميز في هذه البلدة. لم أعرف شيئاً كهذا في الحقيقة، قالت إنّها لم تر هنا طبيعةً مدهشة أو أماكن أثرية ممتعة ولكنّها مع ذلك تفضّل أن تأتي إلى هنا كلّما استطاعت. "إنّها راحة كبيرة ألا يشعر المرء بعبء الوقت" قالت، فتذكّرت أنّني سمعت شيئاً مشابهاً عن المكان من قبل، ولكنّني ظننته وصفاً مجازياً مثل قول: "شاطئ يحملك إلى الفردوس من دون تذكرة" أو "استراحة جبلية تبعدك عن هموم الحياة اليومية". أخبرتني السيّدة بجدّية بالغة أنّ الأمر ليس مجازياً حقاً لذلك عليّ أن أكفّ عن التساؤل عن الساعة.

في الخارج لم يكن الأمر يختلف عن أيّ بلدة صغيرة أخرى، هناك حركة بسيطة في الطريق تشعر أنّها على وشك أن تختفي عندما يتأخر الوقت أكثر، كما علمت فيما بعد فهذا الأمر ليس متعلّقاً بالنوم مبكراً أو الخوف من اعتداءات محتملة في الشوارع ولكنّ الأهالي هنا يفضّلون قضاء الفترة الليلية في المنازل وإعداد وجبات مطهوة وحسب. هل هم معتادون على أيّ نوعٍ من المخدّرات؟ ذلك هو ما

أجابني عليه الشاب نفسه الذي صادفته في سيارة الأجرة التي أقلّتني إلى هنا ·لا بدّ أنّك تعتبر نفسك أمام بلدةٍ جامحة غريبة الأطوار، ولكن في الحقيقة لا أحد هنا يكترث بتخدير نفسه حقاً إلا بعض من التجأوا إلى هنا منذ وقتٍ حديث·. أشار بيده نحو امرأة شقراء في الخمسينات من عمرها ترتدي زياً أبيض ضيّقاً مصنوعاً من الجلد وهي مستندة إلى سورٍ من الأسلاك يطل على حديقة المبنى الذي خلفها. كانت علامات الانتشاء ظاهرة عليها وهي تتحدث إلى مجموعة من الشبّان والشابات ذوي الشعور الملوّنة والمعاطف الجلدية ثم توقّفت عن الحديث وقررت الاضطجاع قليلاً على مرتبة حجرية في مدخل البناء.

·بعد قليلٍ من الوقت، ستكون حتى غير راغبةٍ بمزيد من الكوك· علّق الشاب وهو يسير بجانبي في الزقاق ·رأيتُ ذلك كثيراً من قبل، يأتون هنا هرباً من إنهاك مصارعة الوقت.. يتمسّكون بعاداتٍ قديمة كهذه لبعض الوقت ثم ينسونها أيضاً·.

فهمتُ أنّ هذه المرأة كانت قبل عقود ممثلة سينمائية شهيرة، كانت رمزاً من رموز الحُسن في بلدها وحلماً لأيّ شاب، كانت صورها معلقة في كل مكان. بعد أن بدأ جمالها يذوي أصيبت بالإحباط أمام كل تلك السيناريوهات الجديدة التي ترسل إليها لأول مرة لتقوم بدور الأمّ أو المدرّسة. صبّت جام غضبها على المخرجين الجدد المفتقدين لأيّ حسٍ جمالي وأصبحت هذه المقابلات الغاضبة معها في الواقع تسليةً مفضّلة لدى الناس، كان من الممكن أن تجنّ لولا أن اهتدت إلى هذا المكان.

·ليست وحدها من وجد مكانه هُنا، الأشخاص الذين كانوا في ضيقٍ دائم بسبب عجلتهم هم أكثر مما تظنّ· قادني إلى تقاطع طرقٍ يفضي إلى زقاقٍ طويل آخر. في الواقع، كان من الجيّد أنّني التقيتُ به مرّة أخرى بعد جولة السيّارة، لا أعرف كيف تجرّأتُ ولوّحت له بيدي شبه مستنجد عندما لمحته مرة أخرى هذا المساء عبر الواجهة الزجاجية لمكتبةٍ مضاءة كنت أنظر إليها معجباً بتصميمها الأليف. هرع إليّ وسألني إذا كنت أحتاج إلى أيّ مساعدة هنا وأخبرته أنّ البلدة تبدو محبطة بعض الشيء وأوّد أن أحصل على نصائح لزيارة أماكن جيدة هنا. كان لبقاً بما فيه الكفاية ليسير معي ويتبرّع لمرافقتي، وافقتُ على الفور وخصوصاً أنّه لم يبد منشغلاً بشيء.

السير في الزقاق الطويل الذي نعبره الآن كان يشبه السير في طريق مظلل بأشجار طويلة تنحني لتتقارب قممها من الجهتين، فسحة السماء من فوقنا كانت تبدو أصغر لتقارب الأبنية المتقابلة من الجهتين، كانت النوافذ تحمل أنواراً وردية اللون في أسفلها، أطلت امرأة بشعر أشقر طويل من نافذة وراقبتنا للحظات وهي تقضم من شيء ما بيدها دون اكتراث ثمّ عادت للداخل. في نافذة قريبة من الشارع استطعت أنّ أرى مائدة مضاءة بالشموع فقط، بينما أطفئت أنوار المنزل كله ورجلاً مسناً يستمتع بتناول عشائه مرتدياً فانيلا داخلية بيضاء. ·لقد أصيب بعدّة جلطات قلبية من قبل· قال الشاب ·لذلك يتشاجر على الدوام مع من يقطنون البناء المقابل طالباً منهم إطفاء أنوار غرفهم خلال الليل لأنّها تزعجه·. كان من الغريب أن يختار هذا الرجل بوضعه الصحي أن يقطن في حي البغاء في البلدة، أجابني الشاب تواً عماً كنت أفكر فيه ·يبدو لنا أنّه يجد شيئاً من البهجة هنا، ليس البهجة التي يبحث عنها رجل وحيد مثله لدى العاملات في الحي، لكن مزاج الزقاق يشعره ببعض الأنس كما يبدو·.

لم يكن الرجل من سكان البلدة الأصليين، بل من ضمن من لجأوا إليها أيضاً ليهرب من إرهاق العراك مع الزمن. ·البعض يظنّ أنّه مخبول وقيل إنّه كان يوماً ما طبيباً ناجحاً ولكنّه منع من ممارسة مهنته بسبب التجارب التي يقوم بها، ولكنّه يعمل بجدٍّ حقاً على مشروعه الذي بدأ منذ وقتٍ طويل، صناعة مثانة معدنية مزودة بجهاز تنقية يظن أنّها قادرة على أن تحل محل الطبيعية كحلٍّ نهائي لكل المشاكل البولية المزعجة والتي عانى هو نفسه طويلاً منها، المشكلة أنّه يتقدّم ببطء شديد في هذا المشروع، لذلك كان لا بدّ له من العمل عليه وهو متحرر من حساب الساعات التي تفصله عن النهاية. لم يكن يريد أن يموت قبل أن يقدّم هذه المعجزة للبشرية·.

أمّا السبب الذي يجعل كلّ ذلك ممكناً وفق ما يرويه عجائز البلدة فقد كان أمامنا الآن مباشرة كما أخبرني مرافقي. لم أر سوى مبنى عادي المظهر ومرتفع بعض الشيء عن بقية الأبنية. تزعمُ الأسطورة أنّ البلدة كلّها واقعة في قلب ثغرةٍ واحدة في الحقل المغناطيسي للأرض، ومركز هذه الثغرة يقع أسفل هذا البناء بالتحديد. ذلك سبّب خللاً في البعد الزمني. على السطح هناك حجرة يتمثل فيها هذا الخلل بشكلٍ ظاهر، إذ أنّ دخول بوابتها سيودي بالمرء إلى بوابةٍ أخرى تنقله إلى السطح نفسه مجدداً، ولكن الوقت سيكون مختلفاً إذ سيكون المرء في هذه الحالة في المكان نفسه ولكن في الساعة السابعة مساء من اليوم السابق. ·لا داعي لأن يقلق أيّ أحد إذن من احتمال تأخره على أيّ موعد، أو تفكيره في مشروع يجب أن يتم تسليمه إذ بإمكانك دائماً أن تصل إلى هذا المبنى وتصعد حتى الطابق الأخير لتكسب يوماً إضافياً وتعود إلى البارحة· قال، ولكنّني في الحقيقة وجدت الأمر مروّعاً بعض الشيء ·ولكن، في هذه الحالة وإذا استسلمت لنفسي فإنّني سأكرر الصعود واستخدام هذه البوّابة وهو ما سيجعلني عالقاً إلى الأبد في اليوم السابق·. أكّد لي الشاب أنّ هذا لم يحصل منذ فترة طويلة. استخدام الناس بإفراط لهذه الفجوة الزمنية أدّى إلى عدم اكتراث أحد بعبء الوقت بعد ذلك فلم يعد هناك من يحدد مواعيد ثابتة لفعل أيّ شيء أو يشعر بالضغط لإنجاز عمله في وقتٍ محدد ومن ثمّة لم يعد أحد حتى يكترث باقتناء أيّ ساعة.

سواء كان هذا المكان كما تقول الحكاية هو ثغرة في الزمن، أو كانت أسطورةً تمثل حلم النجاة من عبء العجلة فإنّني لا أستطيع حقاً أن أقاوم الرغبة في الصعود إلى الأعلى. شكرتُ الشاب على مساعدته لي في تلك الجولة كلها وودعته متذرّعاً بالتعب وبضرورة العودة إلى الفندق، ولكنّني لم أعد إلا إلى مكانٍ واحد، أصعد درجات السلّم بسرعة وأنا أشعر بالإعياء كلما ارتفعت أكثر، كنت أشعر بثقلٍ واضح في الحركة وكانت معدتي تنقبض قليلاً. الدوار ازداد حدّة مع قرب وصولي إلى سطح البناء وكنت على ثقة كاملة بأنّني أنفصل عن مركز استقطاب غير مرئي. عبرت الحجرة ركضاً وأنا أرى البوابة الحديدية البيضاء التي في طرفها الآخر، المفتوحة على السطح نفسه من يوم البارحة.. وعدت نفسي أن أعود في عيد الميلاد إلى منزلي بعد أن أنجز عملي كلّه هنا، أن أكون عندها بصحبة عائلتي مجدداً. عندما خرجت إلى الطرف الآخر كان كل الإعياء قد ذهب ولكنّ الشمس كانت قريبة جداً الآن من حيث أقف، متوّهجةً بلونٍ أحمر داكن.

كاتبة من سوريا

قصتان

رضوى فرغلي

الرغبة من الباب الخلفي

نظرتُ في صمت.
أتأمل بشرتها. بيضاء رائقة يزداد جمالها داخل بلوزتها المصبوغة بلون أحلام وردية مفقودة، شفتان غليظتان تلوّنهما رغبة جامحة، عينان تخبئان بحذر تاريخاً سرياً. تجلس أمامي مكتوفة الذراعين كأنها تحاصر جسداً أنهكته الشهوة. بادلتني نظرة متنمرة، وبصوت آت من سفر بعيد قطعت الصمت:
- معاكِ سيجارة؟!
أمام نظرتي الحيادية، حاولت التعالي على ارتباك قليل وأكملت: بلاش سيجارة ممكن أيّ حاجة تظبط الدماغ وتوقف الصداع.. ثم أطلقت ضحكة فارغة تكسرت أمام صمتي الطويل. منذ البداية أدرك أنني أمام حالة فريدة استجمعتْ لها قوة نفسية خاصة وأرجأت كل الأدوات التقليدية التي استخدمتها مع حالات سابقة. تعلمتُ أن الصمت قد يستفز في الآخر رغبة في الانهيار والوقوع في شرك الاستدعاء العميق أكثر من أيّ محاولة للاستجواب السطحي.
ارتبكتْ أكثر. تحركتْ عيناها يمينا ويسارا كأنهما تبحثان عن مأوى تختبئان فيه أسرارها الصغيرة. تفرك يديها في عصبية واضحة. شفتاها تتحركان تلقائيا كأنها تبتسم ابتسامة صماء. صدرها يعلو ويهبط، وصوت أنفاسها يهمس في المكان. فجأة وقفت وأشارت إليّ بسبابتها اليمنى وقالت باستعلاء مصطنع:
- أنا عملت كل حاجة لكن حافظت على شرفي.
قلتُ لها باقتضاب وابتسامة خافتة:
- اقعدي.
تفحصت وجهي قليلاً واستطردت بصوت يقاوم الانهزام:
- تعرفي يا أبلة، أنا بنت ناس.. وأخويا مهندس وعايش بره. وأنا كنت في مدرسة وكان نفسي أكون مهندسة زيه بس معرفتش. القاضي الظالم حكم عليّ خمس سنين إيداع، بس أنا هخرج وهتجوز لأني حلوة وبنت بنوت وألف راجل يتمناني، بذمتك مش الجواز أحسن من العيشة هنا والضرب والشتيمة الوسخة عمال على بطال؟!
تركتها تتدفق في الكلام بحماس، تتخفف من عبء الصمت، وتتحرر من لعنة التجاهل. تحكي عن أسرتها فتمر سريعاً على أحداث تبدو لي مهمة ولكني أرجأت الأسئلة إلى وقت آخر. تقطب حاجبيها، وتنتابها حركة عصبية لإرادية في خدها الأيسر. في عينيها لمحة حزن عابرة وهي تقفز بحديثها على علاقتها بأبيها كأنها تتخطى حاجزا كبيرا. تُبدّل الحديث بسرعة وبطريقة فصامية إلى زوجة أبيها "مرة مراة أبويا قالت لي لما شفتها بتسرق من جيبه: اللي ميوعاش لنفسه الزمن يفرمه". كأنها تضغط على مواضع الألم أكثر من كونها تسرد قصتها.
ارتحتُ قليلا لهذا القُرب، وتلك الرغبة في الحكي، فقررت أن أنهي الجلسة في ذروتها على أن أعاود الحديث معها بعد تناول الغداء. بالأمس تذكرت رغبتها في أن تأكل "كبدة إسكندراني"، نظام المؤسسة لا يخضع للرغبات. طعام متواضع حسب جدول أسبوعي صارم، ومشرفات يجهزن الطعام بروح مستنفرة من تلك الفئة، يعتبرنها "حثالة" المجتمع. مومسات فرطن في أنفسهن ولم يحفظن شرف العائلة المقدس والمجتمع الطاهر النقي!
كان عليّ أن أسهر لأجهز وجبة تكفي لخمسة أشخاص هي وزميلاتها في الغرفة وأنا، ثم أشتري بعض العصائر الطبيعية والفاكهة.
صرخ كالأطفال حين رأت الطعام، أنهكت خدي الأيمن بالقبلات.. نادت على زميلاتها في الغرفة في سرية تامة، حتى لا تهجم علينا بقية فتيات المؤسسة. تشاركنا الأكل والعصير والضحكات الطفولية والنكات الإباحية. تبرعت إحداهن بالرقص على أغنية "يا بنت السلطان" لأحمد عدوية. كانت لحظات ساحرة رغم خشونة الواقع. فتيات تتفجر منهن الوقاحة والبراءة في آن.
اختفت دقائق ثم عادت تسبقها رائحة سيجارة حصلت عليها من إحدى المشرفات. لديها أشياؤها الصغيرة التي تشتريها لها صديقة قديمة في زياراتها المتقطعة، تستخدمها طُعما للمشرفات حتى تحصل على السجائر، أو فيلم "كيميا" وهو "سيم" خاص تطلقه وزميلاتها على الأفلام الإباحية. وبهذه الحيلة تستقبل وترسل خطابات غرامية. حيلٌ أخيرة للبقاء، وشعرة وَهْمٍ تربطهن بالعالم الخارجي.
قلت لها لنستكمل حديثنا حتى أستطيع العودة إلى منزلي قبل العاشرة مساء. بدت أكثر تلقائية ورغبة في الحديث، وإن لم تخف حركاتها اللاإرادية قلقا كامنا. تعبث بأثر جرح أو حرق عميق تحاول في كل مرة مداراته بشعرها المصبوغ باللون الأصفر. قاطعتها بشكل مفاجئ:
• إيه الجرح اللي في وشك ده؟
بتوتر وغضب مكتوم تشير إلى أسفل الأذن اليسرى وتقول: واحد ابن كلب طفى سيجارته في وشي.. بعد ما خلص معايا حرقني.. لكن أنا شايلة شوية فلوس مع واحدة صاحبتي لما أخرج هعمل عملية تجميل فيها، ولو لقيتها طمعت في الفلوس أو اتقبض عليها هبيع الخاتم ده وخلاص.
أشارت إلى خاتم فخم تلبسه في إصبع الإبهام الأيمن وقالت: الخاتم ده سوليتير أصلي، أشتراه لي واحد خليجي غني قوي عشان ليلة واحدة، هو الحاجة الوحيدة اللي قدرت أخبيها من البوليس لأنه بياخد مننا كل حاجة يلاقيها معانا، إحنا (.....) من الرجالة وهم ياخدوا عالجاهز.
تعجبني نظرتها المتمردة، وصوتها الثوري المهزوم، وحركة حاجبها الأيمن، وشفتاها المتذمرتان، وشجاعة اكتسبتها من سطوة جسدها، خصوصاً مؤخرتها المستديرة التي تعتبرها "رأس مالها" وتفاخر بها زميلاتها دائماً.
ذات مرة سمعتها تقول لإحداهن حين ضايقتها: أنا الوحيدة فيكم اللي لسة بختم ربنا، لكن إنتي خلاص راحت عليكِ.
اليوم ذكرتُها بهذا الموقف كطريقة لاستدراجها في الكلام، فضحكت وشرحت لي كيف تتعرف على زبائنها وتفهم بغريزتها طبيعتهم حين تطرح عليهم سؤالا اكتسبته بعد خبرة عام ونصف "عادي ولا صحراوي؟"، فتفرز منهم من يفضل "الصحراوي" لأنهم يدفعون أكثر، ويحافظون على معادلتها السحرية في الحياة.
تملؤني الدهشة من هذه الفتاة صعبة المراس. ليلى ابنة السادسة عشرة تعلمت الدرس مبكراً، عرفت كيف تحتفظ لنفسها بجواز مرور سحري إلى عالم مشوّه. احترفت الحياة الرمادية من طريق خلفي. فطنت أنها حين تدير ظهرها لبعض الرجال وتمنحهم صمتها، يغدقون عليها من المال والذهب ما يكفيها لبدء حياة جديدة تحتفظ لها بوجه عذري وجسد لن تُكتشف صفقاته السرية.
. سرحتِ في إيه يا أبله.. اللي واخد عقلك!
أفقتُ على ضحكتها الماكرة. عيناها ذابلتان يسكنهما بريق أنثوي، وابتسامة شبقة تعلو شفتيها وهي تروي لي باستمتاع كبير عن أول قصة حب وقعت فيها كأنها تستعيد ذاتها التي توارت خلف جدار الرغبة.
. تعرفي يا أبله مش هتصدقي لو قلت لك عمري ما خليت زبون يبوسني في شفايفي، عارفة ليه؟ لأن "مُسعد" بس اللي كنت بحب إنه يبوسني، مع إنه معملش معايا جنس، بس أنا وعدته إن محدش أبدا يبوسني غيره.. كان كل يوم يعطيني نص جنيه أصرف منه على نفسي وكنا ناويين.....
صمتت وارتسمت على وجهها ابتسامة رائقة وذهبت بعينيها بعيدا كأنها تسبح بخيالها في ذكرى عميقة.

العاشق الفرنسي

في حديقة الفندق الساكن في حضن النيل، احتل الطاولة المقابلة لي، شعره المنسدل على كتفيه زاده رجولة وثقة على عكس معظم شباب هذه الأيام. لفت نظري طريقة تدخينه للسيجارة، والألفة الكبيرة التي يتعامل بها مع المكان. اقترب "الجرسون" فأشرت له أطلب شيئا أشربه، يختصر عليّ قلق الانتظار أكثر من نصف ساعة.
حالة مربكة أن يجلس أمامك أحد حيث لا مفر من التقاء العيون. نظرت فقابلتني ابتسامته بود شديد وانحناءة رأسه الحميمة. تمتم بكلمات لم أسمعها. بادلته ابتسامة حيادية وبدا عليّ الخجل. ارتبكت أكثر حين رأيته يقترب.. ربما لأننا لم نعتد هذا التعامل البسيط فكل شيء لدينا يدور في فلك الجنس.
كانت المرة الأولى التي أتعرف فيها على رجل فرنسي.
Bonsoir
قبّل يدي. لاحظ أن فرنسيتي ضعيفة فأكمل حديثه باللغة الإنجليزية، واستأذن أن يكمل قهوته معي، وافقت بسرعة. ميزة هذه الأماكن أنها تتيح لك أن تعيش جزءا من نفسك دون خوف.
انتبهت إلى صوت فيروز "سلملي عليه بوّسلي عينيه" يأتي هامساً من هاتفي، ويقطع حديثنا المريح جدا. استأذنته في الرد.
كان "فاضل" يعتذر عن تأخره ويطمئنني أنه في الطريق لكنه مزدحم جدا. أيّ مواعيد هذه التي تفقدنا بهجة اللقاء؟ موعدي معه في تمام السادسة والآن الساعة 7:45 هذه المرة كنت شريرة بدرجة تجعلني لا أتسامح مع تأخيره المعتاد وعدم اكتراثه بكرهي للانتظار! لست مضطرة لتحمل أعذاره كل مرة. خلال أربع سنوات هي عمر زواجنا، نادرا ما أتى في موعده، مرة بسبب اجتماع مهم، وثانية لموعد طارئ مع عميل، وأخرى لأنه نسي الموعد أصلا من كثرة انشغاله، وغيرها من الأسباب التي تزيد غضبي أكثر من التأخير نفسه. نبهته كثيرا أن كيمياء جسدي تضطرب إذا زاد انتظاري عن عشر دقائق!
"ولا يهمك".
أخبرته ألا يأتي لأنني غادرت المكان!
لاحظ "شارل" أنني منزعجة قليلاً، ابتسم ابتسامة طويلة وهو يتفحص وجهي، ابتسمتُ واستكملنا الكلام في أشياء كثيرة مشتركة. هو مثلي يحب الموسيقى والشعر والفن التشكيلي. فتح اللاب توب وأراني صورا وفيديوهات. شاهدت كل البلدان التي سافر إليها والأماكن التاريخية والمعارض التي زارها. تعرفت على أصحابه، ووالده الذي مات وهو في سن الخامسة عشرة وأمه التي تحب الرقص واليوجا وتؤمن بـ"الفينج شوي".
الساعة الآن تجاوزت الثانية عشرة. في هذا الوقت من الليل، يبدأ مزاجي في التحسن وتزداد استجابتي للمغامرة. كانت المرة الأولى التي قبلت فيها أن أجرب "الشيشة"، أغواني بها أكثر، حركة شفتيه المدهشة؛ كل الرجال تقريبا يدخنون، لكن قليلين جدا من يشبهون السحرة داخل غيمة الدخان!
ظهرت عليّ الرغبة في الانصراف. قال لي إن أجازته بالقاهرة على وشك الانتهاء، وإنه سيضطر للسفر إلى "لاروشل" بعد ثلاثة أيام، مرورا بـ"ميونخ" ليزور أخته المقيمة هناك منذ أربع سنوات.
رن هاتفي مرة ثانية، ظهر رقم زوجي، بالتأكيد سيسألني أين أنا؟ ولماذا تأخرت؟! أغلقت الهاتف وقررت البقاء ساعة إضافية.
أنقذني من توتر طفيف، سؤال "شارل":
Would you like to drink wine?
"نبيذ أحمر". ضحك بخجل وقال إنه يلائم شخصيتي!
شربنا كأسين. وبرقة وعفوية عاشق فرنسي، داعب خصلات شعري، وقبّل أطرافه.
قبل أن أقوم بأيّ رد فعل، همس لي:
When I touch your nightly hair, I become angel

كاتبة من مصر

موت بالآجل

رغد السهيل

الروح حين يعاركها القلق تطالب بالحركة، لا تستطيع البقاء في مكانها لأنها حين تبقى ساكنة بلا حراك يصبح الألم مخيفا" ميلان كونديرا.

(كان فقيرا مُعدماً، يتحرك في المكان كبندول ساعة عتيقة لا صوت لها، ظل شبحاً في إطار خشبي). خرجتُ في تلك الليلة المقمرة من المنزل غاضباً بعد شجار مع زوجتي، بسبب طلباتها التي لا تنتهي، أيّ بلاء هن هؤلاء النسوة، لشدة انفعالي كنت أفكر بإرسالها لأهلها، لكنني ما إن تذكرت قصة الحب التي عشناها سوية حتى تراجعت وبكيت.. صدقوني لم أكن سكراناً أبدا، بدليل أنني سأحدثكم عن قصة حدثت لي في ذلك اليوم، وما زلت أحفظ كل تفاصيلها.

لم أشرب ليلتها سوى كأس واحدة من الخمر (لا يتذكر كيف تطور الحوار معها إلى العراك، واشتد الكلام القاسي، نعتَها بالمرأة المجنونة، ووصفته هي بالرجل السكير البخيل، للمرة الأولى يتجرأ ويرفع يده ليضربها لكنه لم يفعل، بل خرج مسرعا، أغلق باب بيته بعصبية، وتحركت سيارته) وجدتُ نفسي فجأة بزقاق لا أعرف كيف دخلت فيه؟ كان زقاقا شعبيا فقيرا، في أحد شوارع مدينة بغداد القديمة، لعلي انفعلت مع صوت الفنان المبدع ياس خضر وهو ينساب من المذياع، فلم أنتبه إلى أين تسير بي سيارتي:..

ولو تزعل

ولو أدري العتاب يعذب الخاطر..

لكن لا ما أخلي الخصام يدوم للآخر.. نتعاتب على المكشوف...

(كان فقيرا معدما، بالي الثياب، يسير بطريقة غير متوازنة، وقع أرضا، وقف وعاود المشي، ذهب وعاد، ذهب وعاد من حيث بدأ). لمحته من البعيد وسط الزقاق، كان شابا طويلا رثّ الثياب، حافي القدمين يسير مترنحاً، لفت نظري وهو يتحرك ذهابا وإيابا في الزقاق، يرفع عينيه يبحلق عاليا بأحد تلك البيوت العتيقة ثم يخفض نظراته ويعود الى منتصف الزقاق منكسر النظرات، تصورته مجنونا في البداية، أو مخمورا فقد توازنه، لكني شعرت بالفضول والإشفاق عليه حين لاحظت أنه يقوم بمسح قطرات ندية عن خدّه... لا شك أنه كان يبكي. حين اقترب من سيارتي فتحتُ نافذة السائق وقال لي:

- ممكن أجلس قربك وأستمع لتلك الأغنية؟

- بالتأكيد...

جلس بجواري، اضطررت لفتح كافة النوافذ، ووضعت قطعة منديل قرب أنفي، أنفاسه تختلط فيها رائحة الخمر برائحة براز الدواب، كنت مستعدا للتحمل فقط كي أفهم قصة هذا الرجل (كان فقيرا معدما، ثيابه ممزقة، أنفه كبير يكاد يغطى نصف وجهه، يذهب ويعود في الزقاق بطريقة غريبة مثيرة للتساؤل، والآخر متخاصم مع زوجته، اجتمعا تحت عباءة الليل في هذا الزقاق) الفضول هو بلوى كل روائي وقاص، يظن أن القصص تتواجد حتى في جزيئات الهواء، وما علينا إلا أن نحسن التقاطها واصطيادها، مع شيء من الهندسة الفنية في لحظة تجلّ وتفرغ كاملين، صدقوني هناك قصة خلف كل قصة تُكتب، قصة عن الكيفية التي تمت بها عملية الصيد..

هل كنت صيادا، لا لم أكن صيادا، ولا بهلوانا..

عندما كنتُ بهلوانا بثياب ملونة قمتُ بالتقاط بعض البالونات من الهواء، فإذا طارت بالونة ما، أخذت غيرها وربطتها بخيط، لففته على ذراعي اليمنى كي لا تطير ثانية، أوه لا تسألوني عن عدد القصص التي طارت.. عفوا أقصد البالونات، أو السمكات التي أكلت الطعم من سنارتي وفرّت قبل أن أرفعها.. ما زلت أحلم حتى اليوم بتلك السمكة الكبيرة التي سرقت الطُعم وأغرتني بما فيها، لكنها هربت مني، حاولت رسمها لكني لم أعد رساما، عندما كنت رساما رسمت تلك السمكة الملونة بألوان الفسيفساء العراقي، الغريب أنها بدأت تتصارع مع ألوانها الذاتية فانقلبت السمكة إلى عقرب مخيف في الصحراء، وإذا ببهلوان يرفعها للهواء لتصبح طائرا، لكني لستُ بهلوانا ولا صيادا، فما أنا إلا نجار يصنع من الخشب نماذجه الخاصة، ويُجمّل بها الزوايا الفارغة في قصصه.

منذ اللحظة التي صعد بها السيارة (كان معدما فقيراً، يحمل سره في جوفه، ثيابه رثة ممزقة، عيناه تبحلقان بأحد البيوت، وتعود نظراته منكسرة نحو الأرض، تُرى هل يُعد الديدان الأرضية أم ماذا؟ وهل يجيد رجل مثله الحساب؟).. لم تكف دموعه عن التساقط، نسيت رائحته النتنة، وأنزلت يدي من أنفي، أخذت أربّت على كتفه، لعلي اعتدت تلك الرائحة فلم أعد أشعر بها:

- هوّن عليك خبّرني لِمَ تبكي؟

مسح دموعه بظاهر كف يده، وأجاب بصوت متهدج:

- أحب ياس خضر كثيرا.

ثم التفت إليّ:

أرجوك عدني أن تبقى هنا سأعود إليك بعد دقائق فقط.

- حسنا سأنتظر....

بقيت وحدي مع ياس خضر، هل أنا مجنون لأقف في هذا الوقت المتأخر من الليل، وأنتظر رجلا لا أعرفه ولا يعرفني؟ ربما يكون أحد أفراد عصابة ويقومون بقتلي لسرقة سيارتي، وإن لم يكن فرداً في عصابة لعله سمسار وقد يقوم ببيعي إلى إحدى العصابات، التي ستقايض عائلتي على ثمن فديتي، ليس سوى زوجتي المسكينة ستبتلى بي، سيكون اختبارا جيداً لمدى وفائها، ليتني لم أتشاجر معها اليوم، أخشى ألا تتفاوض معه أصلا، فهي حاقدة عليّ، وإن فعلت ولم تدفع المبلغ المطلوب ربما يتم نحري باتجاه القبلة، لأحرّك سيارتي وأعود أدراجي قبل أن يأتي.. لا عليّ التحمل قليلا، (كان فقيراً معدما ممزق الثياب، رائحته كريهة ويتحرك في الزقاق بطريقة غريبة، لعله جائع، لعله موجوع، لعله يبكي! والآخر ينوء بمسؤولياته، يخاف من أطفال رشدي وهم يخرجون في منتصف الليل) ربما يكون بريئاً إذ لا تظهر عليه ملامح الإجرام، المجرمون دائما يرتدون أحذية وهذا الرجل كان حافيا، لعل عقلي طاش من حرارة الكأس التي شربت.

ها هو أقبل أخيرا، الحمد لله لقد أقبل وحده، إنه يركض باتجاهي، وما إن وصل حتى فتح باب السيارة..

- أرجو ألا أكون قد تأخرت عليك.

- لا بأس لقد انتظرتك مثلما وعدتك، هلا أخبرتني قصتك.. أين كنت؟

يخفض رأسه يبحلق بقدميه:

لقد ذهبت لأعيد شيئا سرقته..

- وماذا سرقت، ولِمَ أعدت ما سرقت؟

- لقد سرقت جهاز هاتف نقال، ومحفظة مال من الرجل الذي دعاني إلى شراب الخمر معه، وعندما سمعت أغنية ياس خضر شعرت بالندم، فذهبت لأرجع ما سرقت، واعتذرت منه..

ابتسمت وأعجبتني الحكاية، فربما هنا بداية القصة..

- حسنا لو سمع بهذا ياس خضر نفسه سيكون سعيدا جدا، صدقني..

أخفض رأسه وقال: نعم تخيلت صاحبي يعاتبني على سرقته، ونحن كنا نتسلى معا، كلمته عن حبيبتي، ثم سرقته دون أن يشعر، فيدي خفيفة لكني لن أحتمل عتابه، هو طيب القلب ويستحق صديقا أفضل مني.. أنا الحمار.. ثم التفت إليّ قائلاً: لكني أعدت ما سرقت..

- وهل تقبّلها منك؟ ألم يقل لك شيئا؟

- قال لي إنه يعرف أنني سرقته وسامحني، فشعرت بالذنب أكثر، ليته عاتبني أو ضربني، هل تصدق أنه لم يفعل لي شيئا؟ على عكس الحاج غضنفر، حينما سرقت منه سيجارة واحدة فقط انهال عليّ ضرباً بخشبة كبيرة حتى أدماني، ولم يتركني إلا عندما أذّن المؤذن وذهب ليصلي..

ثم أخذ يبكي كامرأة ثكلى (كان فقيراً معدما، يتعرض للسخرية والضرب دائما من الفتية الصغار في الشارع، بالأمس ضربه أحدهم بحجر فأدماه، ورفض أن يرد له الضربة لأن الضارب صغير في السن)..

تابع بصوته المتهدج:

- صدقني لا أحب السرقة، لكن يدي أدمنت على هذا، أنا على أمل أن أستلم بعض المال، وإذا ما استلمته سأفتح مشروعاً، وأترك السرقة ربما. سأعمل علي بيع الحلوى عند إشارات المرور أو أبيع السجائر....

- قصتك غريبة أيها الرجل تفتح مشروعاً وتنتظر مالا.. لكن خبّرني: لماذا كنت تذهب وتأتي أمام ذلك البيت في أول الزقاق؟

- نعم إنه بيت حبيبتي..

- حبيبتك..؟

- نعم تسكن فيه، وكلما اشتقت إليها ذهبت إلى بيتها..

- ومنذ متى لم ترها؟

- منذ 3 سنوات..

- نعم.! مدة طويلة أليس كذلك؟..

- كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأيتها فيها، حين تعرفت عليّ منحتني بعض الطعام والثياب الجميلة، ودعتني هي ووالدها للذهاب معهم إلى مدينة أربيل في كردستان العراق..

- ذهبت معهم إلى أربيل وباصطحاب والدها؟!

- نعم أمضينا حوالي شهر كامل، أحاطتني فيه بكل العناية والرعاية، كنا نقضي الليل كله معا، نستمتع بكل شيء، بالطعام والجنس والخمر، بل كانت تلعب معي لعبة القط والفار، وتقول لي إنها لعبة من باب التسلية، كي لا أشعر بالملل، لأنني كنت ممنوعاً أيامها من الخروج من باب الشقة..

- ممنوع من الخروج؟!

- نعم كان عليّ اتباع التعليمات، ولأن جمالها طاغ ومؤثر على روحي كنت أطيع بلا جدل أو نقاش.

- عجيب.. وأين كان والدها؟

- كان يخرج ويتركنا نلعب معا كنا سعداء.. يا لضحكتها البريئة، كانت أكثر من جميلة ورائعة، إنها امرأة مميزة لم أحب فتاة كما أحببتها..

يصعب على أساليب السرد الحديثة سرد قصته، التشظي هنا في القلب والقالب، (كان معدماً، فقيراً، ذا أنف كبير، يتحرك في الزقاق بطريقة غريبة، الآخر يستمع إلى حديثه بعد شجار عائلي في بيته، لم يضرب زوجته بعد أن ضربها بكف يده، الأزمة الاقتصادية خانقة في البلاد، معمل حليب الأطفال مازال مدمراً، عماله يستجدون في الطرقات، لم ينادِ أحد: يا عمال المعمل اتحدوا) شعرت بحلقة مفقودة، ربما كانت تلك الحلقة واسطة العقد التي تجمع كل تلك التناقضات..

- قلتَ لي إن هذا حدث قبل 3 سنوات.. ألم ترَ حبيبتك تلك بعدها؟

كاد يبكي، ورفع كف يديه قائلاً..

- أخبرتك.. كانت أول وآخر مرة، أنا مخلص ووفيّ لها، أحببتها من كل قلبي، وسأبقى أنتظر، فقد وعدتني وأعرف أنها لن تخون عهدها، هل تعرف لأجلها تحملت الكثير من الألم، صبرت والحمد لله، شفي جرحي بسرعة.

قال ذلك وهو يؤشر على خاصرته في الجهة اليمنى.

- أيّ جرح تتكلم عنه؟

- لقد منحتهم كِليتي اليمنى، وأخبرتني هي ووالدها أنهم سيدفعون لي المال عندما نصل بغداد، وعندما عدنا لم أر أحدا منهم.. أنا واثق أن هناك ظرفاً ما حال دون ذلك، عندما يدفعون لي المال المطلوب سأفتح مشروعي وأتزوجها وننجب بنين وبنات، سوف أدعوك لحفل زفافنا، فقط أترك لي رقم هاتفك، سأتصل بك من محمول صديقي الذي سرقته وأعدته.

لم أحتمل، قام هو بتفجير قنبلة أمامي بكل برود، ما جعلني أستفيق من سكرتي، وأصرخ بأعلى صوتي بوجهه:

- ماذا.. هل بعت كليتك والدفع بالآجل؟! هل أنت مجنون؟

- لست مجنونا فقد أحببتها وهي تحبني..

حِرتُ بأيّ شيء أرد عليه، للصمت دويٌّ أكبر من أيّ ردّة فعل عندي، تساءلت بغباء "هل يحدث هذا لو أن معمل حليب الأطفال في العراق يعمل؟!" نظرت إلى وجهه وقلت له:

- سأطلب منك طلباً وثق بكلامي أرجوك، عليك ألا تبيع كليتك الثانية، وإلا فانك ستموت لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش دون كلية..

- وهل تعتقد أنتَ أنني ممكن أن أحب سواها؟

فتح باب السيارة بغضب وغادرني...

(كان فقيراً معدماً، تفوح منه رائحة الخمر، باع كليته بالآجل، وهناك قاص يفكر بحبكة فنية تليق بحكايته، كلا بحكاية تدمير معمل حليب الأطفال، لا شيء من هذا حدث، فالمعمل ما زال في بغداد، إنها جزء من حكاية أسلحة الدمار الشامل العراقية).. عليّ الذهاب لمصالحة زوجتي أفضل ذلك أنفع من عمل النجارين هذا أقصد القصاصين، لن أحب زوجتي بعد اليوم، كي لا تسرق كِليتي، فقط سأغير مهنتي إلى صياد سمك، ولتغني هي: يا صياد السمك صيد لي بْنيّة.

كاتبة من العراق

أنا وحفيدي

رياض طبرة

قلت لحفيدي الافتراضي وكانت قد استبدت عنده رغبة عارمة لرؤيتي: سأحضر عيد ميلادك، وأقصّ عليك حكاية مرت، على أن تعتبرها يا قيس هدية قدومك السعيد، إلى هذا العالم، تتويجا لبوح قلبين أحبا أن يكونا معا على الدوام.

وعلى الرغم من وعورة الطريق، وكان محفوفا بالمخاطر وما يرافق مثل هذا السفر لمدينة تبعد مئة كم فقد عقدت العزم أن أعوّض له ما فاته المرة الماضية حيث زرت المدينة ولم ترتض نفسي لقياه وأمه هناك في مقر عملها.

ولم أتوان عن تجهيز مستلزمات السفر، على الرغم من تحذيرات جدته ومن حولي، وما طالعني به برجي فقد سمعت البراجة تقول، إن كنت على سفر فأجله لأن طالعك اليوم لا يبعث على الارتياح، ستكون الخيبة من نصيبك، قلت: ومتى كانت هذه الشمطاء تعرف غير صف المفردات والعبث بقلوب وعقول السذج من الناس، لا أنكر أني أصغي جيدا لكل من يلعب هذه اللعبة، حتى إنني لا أترك زاوية الأبراج في الصحف إلا وأتناولها بالمقارنة.

الخوف من الطريق مشروع فالخوف صديق يلازمنا من الفجر، لكن الخيبة المتوقعة ليست ذات بال، حياتي سلسلة متلاحقة من الخيبات حتى باتت الخيبة الجديدة تبحث عن مكان لها في نفسي فلا تجد فتعود خائبة، تتلاشى كفقاعة، أو كموجة عاثرة تتكسر على صخور الشاطئ.

ربما هي ساعات ثلاث لا أدري لكنها مرت لأنني انشغلت بالحكاية التي سأقصها على حفيدي، وكما توقعت وانتظرت فقد كان سؤاله الأول:

جدي ليش خالفت موعدك معنا؟ أمي أخذتني معها على دوامها حتى شوفك، هيك يا حيف عالرجال؟ قالها وغمز أمه التي تملّكها الارتباك وصارت في حيرة مرة. فويل لها إن نهرته وويل لها إن دعته يتمادى،مع أنها تعرف كم يسعدني ويثلج صدري مثل هذا التمادي.

قلت لحفيدي: حبيبي أنا لا أخالف موعدا وأمقت سلوك من يخالف موعدا، إنه عندي رجل متخلف، ببساطة هو لا يعرف كيف يحترم الوقت، عنده العصر والمغرب والليل مواعيد، أما أن يلتفت إلى ساعته فلا يكلّف نفسه ذلك، لكني يا جدي وقعت في حيص بيص وقبل أن يفتح عينيه مستفسرا أو محتجا قلت له: وهذه ستعرفها إن أحببت الاطلاع على العربية وما فيها من مفردات تموت كما نموت، وسأروي لك ما جرى ولك أن تكون مكاني.

عندما هممت بالذهاب إلى مقر عمل ابنتي سألتها عن المكان أجابتني ولم تدر ما حلّ بي من قلق وحيرة، قالت هو قصر الوزير.. قلت يا للطامة الكبرى.

قال حفيدي: وإذا يعني شو في عداوة بينك وبينه؟

قلت: لا تتعجل وإلا.. ورافق الابتسام لائي. صمت ورحت أقص عليه الحكاية:

كان يا ما كان في قديم الزمان، قاطعني حفيدي: قديمة جدي بطلّ هالأسلوب.. ما فيكم تحكو عن الحاضر بلا هالاستعانة بكان وأخواتها، أحسست بصفعة قوية وأطرقت: هل يعقل أن هذا الجيل يمتلك وعيا أكبر من وعينا، وذكاء لا يسمح لنا أن نمرر عليه جزعنا؟ لكنني فرحت للصفعة ربما كنت كغيري بحاجة لها وتابعت متجاهلا عن عمد ما قاله:

وكان الملك واسع الاطلاع محبا للعلم، يبحث عن وزير يدير شؤون الناس ويتدبرها ببريق خبرته وذكائه وحسن تصرفه. ولأنه لم يجد ضالته قرر أن ينزل إلى الأسواق ويرى أحوال الناس ويطلع كيف يتعاملون، ولم ينس أن يتخفى بلباس لا يلفت نظر السوق ومن فيه من تجار وزبائن وعسس.

وفي زيارة عند ظهيرة يوم مشمس بعد غيث أدخل السرور لقلوب الناس لفت رجل طويل عريض المنكبين انتباه الملك، لا تخلو مشيته من حيرة، ولا هامته من انكسار، وكلما خرج من حانوت أو متجر كبير ازداد شحوبه. أحسّ الملك أنه طالب حاجة، تقدم منه وسأله:

-هل لي أن أساعدك؟ وأنا خبير متمرس في هذا السوق من أوله إلى آخره.

- لا بد لي من أن أشكرك أولا ثم إني أبحث عن عمل، هل تعينني في تأمين مرادي؟

- لك ما أقدر عليه فأنا مثلك أبحث عن رجل يحرس مالي ويصون عرضي ويكون وفيا لي.سأقوم بما عليّ وأنتظر منك أن تقوم بما عليك.

- أخذ الملك الشاب الذي توسم به الخير جانبا ونقده من الليرات الذهبية ما يكفي للفرار بها، إن طاوعته نفسه الأمّارة بالربح غير الحلال، أو استسهال الحصول عليه بأقصر السبل، وقال له: هذا الحانوت لك ضع فيه ما شئت مما يحتاجه الناس، وأحسب نصيبي منه وسأمرّ كلما هلّ الهلال فأراك وأنال حقي.

سرّ الشاب كثيرا ولم يصدق ما فتحه الله عليه من خير عميم وراح يخلص الإخلاص كله لعمله وللقسمة، حتى ذاع صيته وانتشر بين الباعة الكبار فصاروا يغدقون عليه ببضائعهم حتى كاد يكون بيضة القبان في السوق، والحكم الفصل بين المتنازعين فيه.

دعاه الملك إلى ديوانه فبدا منه حسن تصرف وكياسة زادت من إعجاب الملك به، ثم بادره: سأعهد لك بالوزارة تدير شؤونها فحضّر نفسك لها، وتدبر شؤونك وأطلب ما شئت من عون.

رد الشاب الذي صار وزيرا بطرفة عين بانحناءة تنمّ عن أدب جم وبدت علائم السرور واضحة عليه، لكنه تسمّر في مكانه وبدت الحيرة عليه، قال له الملك ما بك يا وزيرنا الطيب أراك وكأن الفرح عقد لسانك؟

قال الوزير: يا سيدي لي حاجة لو تكرمت بالنظر فيها.

قل، قال الملك:

-إن عهدا بين وليّ نعمتي وبيني ألاّ أدع رزقه دون إذن منه، وأتمنى

ياسر صافي

أن أنال موافقته على عملي.

قاطعه الملك بتجهم وهل تريدني أستأذن واحدا من رعيتي في شأن من شؤوني..

انحنى الشاب حتى كادت هامته تصل إلى القاع، سيدي إنه سيعدني ناكث عهد ومخلف وعد ولن ترضى بي وزيرا، فلا يليق بملككم أن يضم واحدا لا يؤتمن على أرزاق الناس.

قال الملك:اطلب من يحضره الآن إلى القصر وأبلغه ما تشاء..

-لكنني لا أعرف بيته، ولا مكان سكناه، أمهلني يا سيدي حتى يهلّ الهلال، ويحضر صاحب الحانوت فأستأذنه إن سمحت لي..

قال الملك: لك ذلك،على أن تأتيني فأعلنك وزيرا.

انحنى الشاب مودعا، وراح ينتظر قدوم الهلال حتى إذا أطل بهيا لم ير من إطلالته غير همّ ونكد، وحيرة ما بعدها حيرة، فصاحبه لم يحضر وما عليه إلا أن يمتثل لإرادة الملك. وهذه هي المرة الأولى التي يتخلف فيها صاحبه ووليّ نعمته، حزن حزنا شديدا وراح يحسب ألف حساب، ويعجب من هذا التأخر لكنه يعود ويمنيّ نفسه بأن عارضا ربما اعترض طريقه، والغائب له عذره.

ظل الشاب ثلاثة أيام لا يدري ماذا يفعل، في صبيحة اليوم الرابع دخل رجل يبلغه أنه في حلّ من وعده، وأن صاحبه ترك له الخيار في أن يتصرف كما يشاء.

عمّ الفرح أرجاء قلب الشاب، صار بمقدوره أن يطيّر عصافير فرحه إلى أعلى فضاء، من الآن سيكون وزيرا في مملكة دخلها عاريا وفقيرا.

تسلّم الوزارة وراح يخدم بكل أمانة وإخلاص وتفان في خدمة سيده الجديد، بعدما استأمن رجلا يقوم مقامه في تجارته، يقتطع حصة صاحب الحانوت ويحرص على أن تكون تحت الطلب.

قال حفيدي: أي جدي مضت ساعة ولم تصل إلى السبب الذي دعاك لأن تخلف موعدك ماذا بعد هل هناك ساعة ثانية؟

قلت يا جدي: لم يدم الأمر على حاله، فالملك أعطى وزيره قصرا ليس قريبا منه، القصر كان علامة فارقة في أطراف المدينة وكأنّه على الأعراف الأرضية، هو الخط الفاصل بين حزام الفقر، وحارات الميسورين من التجار، والنبلاء، وأصحاب النفوذ، ومحدثي النعمة، اختاره الملك ليكون الوزير على مقربة من الجهتين، لعله يخفف من سطوة هؤلاء وغضب أولئك البائسين، الذين اكتووا بنار الغلاء بعد سنوات عجاف وقحط شديد، وضرائب فوق الضرائب.

وكانت مدن أخرى قد أنّت من الجوع، والجوع كافر كما يقال، ولم تجد غير تفجير بركان غضبها، غضبت من ماضيها من حاضرها من مستقبلها، من هويتها حتى إنها لم تعد تعرف غير الغضب.

حاول الوزير أن لا يصل الحريق للمدينة لكنه أخفق، فيد واحدة لا تصفق ولا تطفئ نيرانا، أخذت النيران تقدح شرارة من هنا ومن هناك شرارتين، والطامعون بالوزارة كثر.

وجاء يوم عسير، حدث شغب كبير، وكان الملك في صحة لا تسمح له بالحضور إلى قصره، وجاء من يقول له إن الأمر بيدك، وهذه فرصتك فحوّل هذا الشغب لصالحك، دعهم يعيثوا فسادا حتى يستنكر الناس أفعالهم، أرسل عيونك، ولا تنس أن تشيع بين الناس أن مرضا فتاكا سيحل بالمدينة إن لم يكن قد بدأ فعلا نظرا لخروج هؤلاء الرعاع عن طاعة الله والملك، الغضب الذي كاد يحطم الأسواق سهلّ اقتناع الناس بما أشيع مع أنهم يا جدي ليسوا بحاجة لذريعة، هم يصدقون ولا يصدقون. رفع قيس حاجبيه محتجا مع ابتسامة جعلتني أرى حسنه اليوسفي بأبهى صوره الرائعة والمحببة لقلبي: شو بنا جدي صرت تغمق نسيت؟ كيف هذه يصدقون ولا يصدقون، ما فهمتها؟

ستفهمها يا جدي عندما تبحث عن شيء ولا تجده، فيما تتلفت من حولك فتجده بين يدي من بيده المال،أو كان جد له قد غنم شيئا في الحرب أو تاجر بقوت الناس وصار ثريا.

لم يدعني قيس أكمل وقال بنبرة حازمة: جدي تعملهاش سيرة عنتر طقت مرارتي وبعدك بأولها.

هنا كان عليّ أن أتعجل في البيان:

قلت يا جدي انقسم التجار بين خائف وطماع، ولما أحضرهم الملك إلى ديوانه لم يجدوا غير الوزير يلقون عليه تبعات ما جرى، ولما التفت الملك إلى وزيره كانت صدمة قوية في نفسيهما فقد بدا الوزير غير آبه للاتهام ولا لتبعاته لأنه يعرف أن لا ذنب له في ذلك.

وكان الملك غير مصدق لكنه أراد أن يرضي التجار ليعملوا على تهدئة الخواطر فهم العصب في المدينة وهم المرآة.

أحس الوزير أن أيامه باتت معدودات ليس في القصر بل في المدينة فتعجل الرحيل، وكان أن رحل إلى مدينة يطلب الرزق.

تعجل الملك في مصادرة القصر وحوّله إلى دائرة لجباية الضرائب هل أدخله يا جدي؟

كاتب من سوريا

الأمانة

زهير الشلبي

كانت القذائف تنهمر كالمطر، بينما يحوم الطيران في كل زوايا السماء. لم تكن ثلة من الشباب تحمل أكثر من أسلحة فردية، وكان الواضح أنهم المستهدفون في هذا التحرك النشط على الأرض وفي السماء.

هجر كل أهل البلدة بيوتهم.

مازالت أمّه العجوز بجانبه، وقد تأخرت عن الركب بسبب رغبتها بالموت في بيتها الذي أضحى في معظمه ركاماً فوق زوجها، وعدم قدرتها على الجري من طرف آخر.

- يا إمّي، روحي إنتي، ما رح يؤذوكي، شو بدن فيكي إنتي!. نحنا خلص.

- مابطلع إلا وإجري عإجرك. أبوك مات تحت الردم. تحت هالحيطان لسعتو مدفون، يعني هوي هون. كيف روح لوحدي؟!

- يا إمي، يا إمي! لازم تروحي، شوفي مريم وين صفّت.

- مريم لما صار القصف وأهلها جايبينها لعندك بعد التلبيسة، اضطروا يهربوا وأخدوها معهن. ما إلكن نصيب بالدخلة، الله لايوفقهن، حتى العرس مات منو كم واحد.

- إمي نصيبي ما أدخل، ونصيبي موت وتترمل مريم وهي عروس. انتبهي القصف جنبنا. أنا بعرف إنو ريوسنا مطلوبة. الموت أحسن من الاعتقال يا إمي.

- يمكن مريم وأهلها صاروا ورا التبة هنيك، بُعد شي ساعة، ساعتين مابعرف.

- إمي! بدك تروحي، وتاخدي أمانة لمريم معك.

- إمي، شو الأمانة؟ خلينا نروح مع بعض. والله إذا بكيت وترجيتهم، أنا مرة كبيرة، يمكن يتركوك.

- ضحكتيني إمي! الموت أهون من التعذيب، هي حرب إمي. تسلميلي، استني عشر دقايق.

•••

مازال القصف مستمراً، والعجوز ترتعد في زاوية البيت وتدعو وتصلي وتتمتم وتقرأ المعوذتين، ثم تنظر إلى حيث ذهب ابنها. إنه قد ذهب باتجاه غرفة النوم التي كانت معدة لزواجه ومريم، وقد تهدم بعضها.

صفير الصواريخ وهدير الطائرات يملأ المكان.

- يا الله لقد تأخر!

ماذا يمكن لها أن تفعل سوى أن تموت في مكانها؟!

عاد مسرعاً وفي يده لفافة بيضاء صغيرة.

- إمي! هي أمانة فورية، لازم تصل خلال ساعة أو ساعتين حد أقصى لمريم. لازم إمي، هي أمانة إمي. لازم توصل خلال ساعة، لذلك إمشي وحطيها بصدرك، خبيها، لازم تبقى دافية إمي، بترجاكي إمي لازم توصل. لا تفتحيها بس سلميها لمريم إمي، بس لمريم. هي الطريقة الوحيدة لعيش إمي.

- شو فيها؟ قللي شو فيها؟!

- رسالة إمي لح تعرفيها بعدين، بس هلأ إمشي. حبيبتي إمي، روحي لعند مريم، خليكي معها، ماصفي غيرها. إنسانة رائعة لإنك إنتي نقيتيها إلي. ولأنها قلبها وحبها ووجهها أجمل شي بها الدنيا. يالله إمي، مافي وقت.

- شفت كيف تنقايتي؟

- الله معك إمي، ساعة بس، روحي لمريم وعطيها الأمانة بينك وبينها. توصلي بالسلامة وإذا سألوكي عني وعن أبي قوليلهم متنا بالقصف. بسرعة، يالله. اشتد الضرب.

تحضنه الأم باكية وتمشي بساق عرجاء ودعواتها تصل إلى السماء.

- الله يحميكم يارب!

بينما كانت تغادر الأم مبتعدة كانت الاشتباكات مستمرة وأزيز الرصاص يؤرجح المكان.

•••

كان حزن مريم على فقد زوجها مضاعفاً، فأيام الخطوبة كانت رائعة، وكانت آمال كبيرة ترسم لهما الحياة كزهر اللوز والمشمش، مغلفة بالأسرار اللذيذة كحبات الجوز.

لم تهنأ حتى بليلة الدخلة. كانت تقول له دائماً لا تتدخل بالسياسة، فهم يقنصون ويعتقلون ويتهمون. وهناك مخربون مندسون. إنها تريد أن يتم زواجهما على خير، فكان يجيبها دوماً إنه شاب مسالم، والحديث في السياسة وحرية الرأي حق لأيّ إنسان في هذه الدنيا، حتى وجدت نفسها في النتيجة تشاركه في بعض حواراته ونشاطاته.

•••

لم يتبق من أسرتها سوى أخت أخرى لها، وأمّه العجوز، في بلدة تعتبر هادئة نسبياً، حيث هناك آلاف الأسر التي تعيش على الإعانات، لا عمل، لا أمل، سوى انتظار الموت الذي تمنينه وهن يسجدن في الصلاة، بنفس الطريقة التي مات فيها الأحبة والزوج والأهل.

قالت لها أختها:

- ما رأيك لوقتلنا أنفسنا وانتهينا؟

- قتل النفس جريمة، نتركها لله. أنا بلهاء لا أدري كيف أفكر وكيف أتصرف، شهادة المعهد لا تفيدني بشيء، لا يوجد عمل، لا يوجد سوى انتظار المجهول، وهذه العجوز المسكينة التي فقدت زوجها وابنها الوحيد لا تتوقف من وقتها عن الصلاة.

- مريم، هل لي أن أسألك سؤالاً، ماذا ننتظر؟

- نعم، هذا هو السؤال، ماذا ننتظر ماذا ينتظر الوطن كله؟! دائماً هناك نبتات تخرج من بين الركام. هناك نحل يعيش حتى ما بعد الصقيع، هناك فروع تنشط من الجذوع المقطوعة. لقد قرأت عن نظرية جديدة غاية في الغرابة والإثارة.

- ماذا قرأت يا مريم؟!

- نظرية تقوم على مبدأ تناقل الشيفرات الجينية. كما تنتقل هذه الشيفرات من الأب والأم للأبناء تنتقل من خلال عملية التحول التي تحصل في كل شيء. أنا لم أفهم من النظرية كثيراً، لأن المظاهرات اندلعت ونسيت الموضوع وما عدت أتابعه على النت.

- تعالي يا مريم نصلي مع المرأة العجوز أم زوجك الفقيد، فالله هو ملجؤنا الوحيد الباق

- آاااه.

- ما بك مريم؟

- لا شيء!

- ولكن بطنك منتفخ مريم، لابد من معالجة الغازات وزيادة الوزن التي أستغربها ونحن نأكل القليل.

- لا شيء!

- كيف لا شيء مريم؟

فرح علي

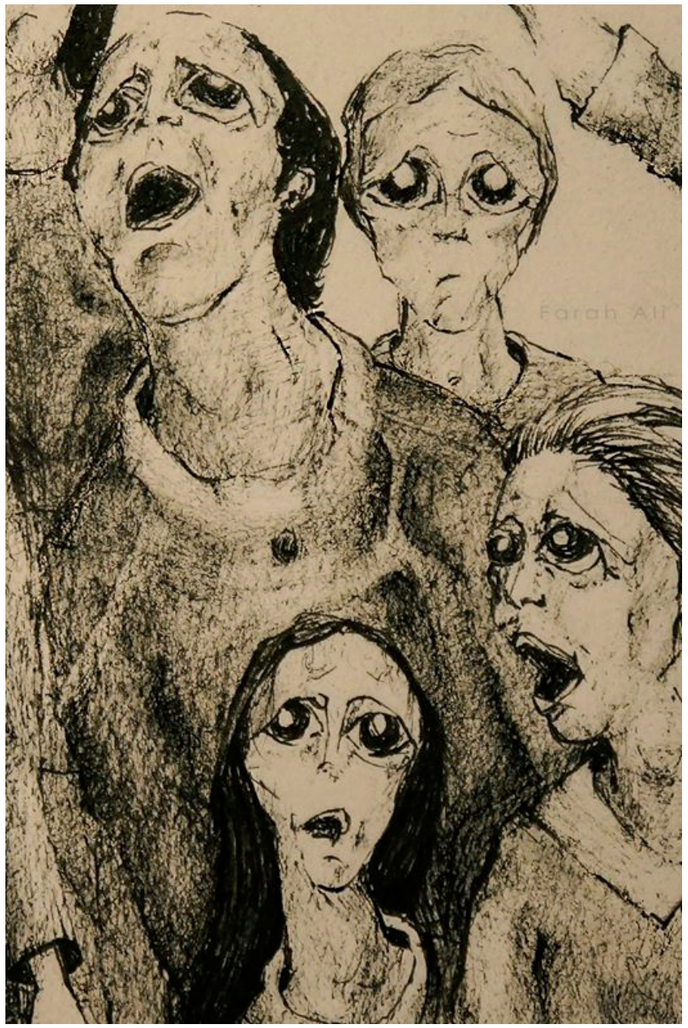

فكرت الأخت بذهول ناظرة في بطن مريم.

- هل هكذا تحضرين المال لنا؟! بطنك مريم، يقول إنك... أعوذ بالله! من هو أبوه؟! أعرف كل الناس ظروفها سيئة، لكن لم يلجأ الكل لمثل هذه الطرق. شو مساوية مريم؟! إحكيلي أنا أختك. بتروحي ننزلو، لازم تجهضي مريم. حدا فرض عليكي؟! إحكي مريم، جننتيني، شو بكي ساكتة، إحكي مريم، إحكي

بقيت مريم صامتة.

•••

- مريم الولد لازم ينزل! شوبدها تقول الاختيارة اللي مات ابنها، وإنتي حملتي من غيرو وما منعرف مين أبوه.

تظل مريم صامتة.

•••

- بعرف هلأ إنو إذا بدك تطرحي الولد يمكن تموتي. سميه الولد اليتيم المجهول. شو بدي أعمل إلك؟! بس هي الإختيارة اللي عم تموت شو بدنا نقلها؟ مريم ردي.

- ماتقوليلها شي، أنا بقلها بالوقت المناسب.

•••

كان الوقت عصراً عندما أحست مريم بتشنجاتها الرحمية. إنه موسم المخاض، موسم الولادة.

هيا، ساعدي نفسك، ساعدي ابنك. عضي على الخرقة واصرخي.

عندما خرج المولود وانطلق في صرخته الأولى كانت أصوات القذائف مازالت تتردد في سمع العجوز وهي تصرخ في ابنها. دعنا نغادر يابني معاً دعني أهرب من أجلك.

عندما ارتاحت مريم قليلاً من ألم الولادة، أعطت ورقة بيضاء ملفوفة للمرأة العجوز لتقرأها.

لم تكن الجدة تعرف القراءة، فقلبت الورقة بيدها ثم شمتها.

- إنني لأشم رائحة ابني فيها.

- نعم أيتها الأم، هذه كانت رسالته التي أرسلها معك يوم أتيت لي بها، أتذكرينها؟

- اقرئيها لي يابنتي.

أخذت الأخت الورقة وقرأتها بصمت وهي تكاد تغيب عن الوعي.

- يا الله! هل هذا معقول يا مريم؟!

- نعم أنت أمه! هذا المولود هو حفيدك. لقد كان يعلم أنه ذاهب، فأرسل لي نطافه، التي لم أتوان عن زرعها في رحمي.

فالحياة رغم كل دمار يجب أن تستمر.

إنه وطن لن يموت أبداً.

كاتب من سوريا

قصص قصيرة جدا

زياد خداش

متسول

أريد أن أقف أمام امرأة ما جميلة في الشارع وأقول لها: أنا أحبكِ، لا أريدها أن تسمعني، لا أريدها أن تراني، أريد للضباب أن يبتلع ملامحي، ويأخذها إلى محرقته البيضاء، وأريد للريح أن تخطف صوتي وتأخذه إلى مدفنها السري، أريد أن أقول لامرأة ما في الشارع: أنا أحبكِ، أريد ألا يسمعني أحد، سوى متسول شاب يجلس على الرصيف، قذر الملابس، ثمل، نصف نائم، يسيل من فمه زبد، وفي يده خرقة ملابس، يمسح بها زجاج السيارات. أريده أن يصدقَ أنة يحلمُ الآن بصوتهِ وملامحه منتصباً في الشارع أمام امرأة ما جميلة، ويقول لها: أنا أحبك. أريدها أن تسمعه وتراه.

زيت

أمامي، بالضبط أمامي، كان الشاب الفلسطيني الأعرج ذو النطق المتعثر والملابس الفقيرة يقف أمام مجندة إسرائيلية (في معبر قلنديا)، تجلس خلف زجاج سميك، المجندة المتوترة تشير إلى وعاءَي زيت أصفرين، كانا يجلسان خلف الشاب بصمت بانتظار التحقق من هويتهما.

- شو هاي؟

-هذا زيت.

- شو يعني زيت؟

- يعني زيتون.

- شو زيتون؟.

- يعني زيت.

- شو زيتون وزيت؟ "إنت هبلة" صاحت المجندة من خلف الزجاج، لم ينطق الشاب، وأظنه كبت غضبه لأنها وصفته بهبلة لا أهبل.

خلفي انفجرت حنجرة عجوز فلسطيني: قُللها إنه زيت يعني فلسطين يا ابني. لم يقلها الشاب طبعاً، بل قالها صدى الصرخة التي هزت أركان المعبر.

ابتسم وعاء الزيت. سكت صوت المجندة، ولم أذهب أنا إلى القدس.

ألوان

الحب: هو أن أتمادى في فشلي باختيار ألوان ملابسي، فيتجاور مثلاً البنطال الزيتي مع القميص البرتقالي، فتغضبين أنتِ (يدك تفضحني؟)، وتجرّينني من يد ذهولي إلى محل ملابس، بكامل جهلي الرائع أقف كتلميذ في صف جمالك المثقف، وبكامل حرصك الملائكي تتحركين هنا وهناك تتأكدين من حجم البنطال وتجننين بكارة القمصان الخجولة وأنتِ تتحسسين قماشتها، بينما أكتب أنا تفاصيل الدرس في دفتر القلب.

غضب

كنت أريد أن أكتب: سأذهب الآن لأشرب كأس نبيذ، وحتى لا يغضب مني طلابي سأكتب: سأذهب لأشتري قلامة أظفار، غداً سألتقي في "زرياب" امرأةً من خرافة، وحتى لا تغضب مني زوجتي سأكتب: غداً سوف ألتقي في "زرياب" صحافيةً ذكية.

بعد أسبوع ودفعة واحدة سأتخلص من جبني وأمزّق قناعي، سأغضب من فلسطين وربما أشتمها علناً لأنها شغلتني عن عد شامات جسد صديقتي الرهيب.

شمس

قادماً من سورية- مجدل شمس، وفي الحافلة القادمة مبكراً جداً من الخالصة إلى القدس (يسمونها كريات شمونة)، جلست أربع ساعات بجانب جندي إسرائيلي، في حضنه كانت تستيقظ من سباتها بندقية، في حضني كانت تنهض من نومها بلادي.

مصطفى

وسط رام الله وجهاً لوجه قابلت مصطفى وصديقه، كان مصطفى تلميذاً عندي في الصف السابع قبل أن تقرر الوزارة أنه لا يصلح ذهنياً ليكون طالباً في المدرسة، فيما بعد عرفت أنه يدرس في مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة في قرية (أبو قش). لم تكن مشكلة مصطفى ذهنية تماماً، كان شخصاً يقول للمعلمين أشياء (غير مؤدبة) مثل "أستاذ ليش منخارك كبير؟"، "أستاذ إنت ليش ما بتغير بنطلونك؟"، "أستاذ ليش بتدخن والدخان بمرضك؟"، "أستاذ شو اسم جوزتك (زوجتك)؟"، "أستاذ شو طبخت جوزتك اليوم؟"، "أستاذ ليش أسنانك وسخين؟"، "أستاذ ليش ضربت أيمن مش حرام عليك؟"، "أستاذ ليش أسنانك زي الأرنب؟"، "أستاذ ليش لونك بني؟" لم تكن أسئلة مصطفى غير مؤدبة، كانت حقيقية ونظيفة وطبيعية وصادقة جداً ولا تحمل أحاسيس مسبقة أو حمولات خبث، كان مصطفى طفلاً كبيراً يحتاج إلى مدرسين مختلفين ليعرفوا لغة قديس صغير سقط بالخطأ من كوكب القديسين على مكان كاذب ومخادع وجبان.

صباح الخير لمصطفى وصديقه، قديسَي صباحي.

صادق كويش

مصافحة

لم أُحبه يوماً ما، لم أُعلق صورته على جداري بجانب صورة عبدالناصر، لم أسعَ يوماً إلى مصافحته، ويوم زار صباحاً ما مؤسسة كنت بالصدفة فيها قفزت من النافذة هارباً، وحين مر موكبه مرة من أمامي في الشارع كدت أرشقه بحجر، كنت أضحك على ألفاظه المضطربة وأخطائه النحوية المضحكة ولحيته الشعثاء. وحين فجأة مات جميلاً وشهيداً، علقتُ صورته على جداري، وصافحتُ يده فيها ألف مرة، وذهبتُ إلى المؤسسة التي هربت من نافذتها، قدمت طلباً لوظيفة فيها وجلست مراراً على المكتب نفسه الذي جلس هو عليه، وصرت أشرح لطلابي عن جماليات وضرورة الخروج عن النحو أحياناً، وأطلقت لحيتي وجعلتها شعثاء.

أرجوحة

"كان هون في بيت فيه أرجوحة" قالت ونحن نمشي أمام عمارة عالية جداً. "كان هون في بيت في حاكورته دجاج بلدي وبط". قلت ونحن نقف أمام بنك. كان هون "في عجوز لطيف ودايماً مبتسم وقاعد في شرفة بيت" قالت ونحن نمسك يدي بعضنا قرب مؤسسة أمنية، بحثنا طويلاً، ولم نجد الشرفة والأرجوحة والبط والدجاج البلدي والحاكورة والعجوز اللطيف. وكان هناك الكثير من البنوك والمؤسسات الأمنية والعمارات العالية.

سادسة

إلى أين تذهب جميلات رام الله في السادسة صباحا؟ يا لعذوبة أسرار المدن التي تمشي فيها الجميلات في السادسة صباحاً! ويا لوحدتي التي تمشي في الطابق السادس من مقهى صغير يمشي باستمرار في مدن الدخان والضجر والأغاني والبرد! يا جميلات رام الله: صباح الحب والسر والسادسة.

فيضان

على منحدر مستوطنة (بسغوت) أراقب الآن هذا المشهد من نافذة الصف الثامن: مستوطن يحاول قطف كوز صبر، من نبتة صبر موغلة ألواحها في الرسوخ والشوك والخضرة، كلما حاول قطف الكوز لسعته أشواكه، فترتد يده إلى الوراء متذمرة وغاضبة، صعد المستوطن المنحدر إلى مستوطنته خاوي اليدين وعدت أنا إلى طلابي ممتلئاً بحلاوة الأكواز التي وزعتها عليهم كوزاً كوزاً، وسط ذهولهم من مصدر هذا الفيضان من الحلاوة المفاجئة.

أنا

أنا صديق حميم لشجرتيْ رمانٍ وتين، نسكن ثلاثتنا في المكان نفسه، أنا داخل البيت وهما داخلي، كل صباحٍ أخرج مني وألمسهما، أؤمن بأن شجرة الرمان هي «ديونسيوس» حياتي، أما شجرة التين فهي «أبولو» عمقي الهادئ المتشح برزانة القرار وحكمة الشعور. تأخذني رمّانتي إلى ماء ضلالي بينما تعيدني تينتي إلى بيتي «فيما لو تأخرت عنه»، مقيد القلب، مخفور الحس، تطعمني الشجرتان ثمارهما كل عامٍ بسخاء، وأطعمهما أنا حكاياتي وحزني وغنائي ورائحتي كل ليلة، أحب هذه الحياة الموزعة بين طيش الرمان ورزانة التين، أحب حياتي مع كائنين مخلصين يرتاحان داخلي مثل سرّين مخمليين، مرفهين وأرتاح داخلهما مثل قطٍ هرم.

الخبر المزعج أن الثلجة الأخيرة خلعت السرّين من الأرض وألقتهما حطاماً أمام بيتي، صرت الآن بلا أبولو أو ديونسيوس، بلا اتجاه، بلا تناقض، بلا مدنٍ قلقةٍ وأخرى مطمئنة، لمن سأطعم حكاياتي بعد اليوم؟ وأيّ كائنٍ يستحق أن أهديه كل هذا الحرير «حتى لو كان مكسوراً» الذي يفيض من نوافذي؟

ابن الأشجار المكسورة أنا.

باب

طرق خفيف على بابي؟ من سيجيئني عند حافة عاصفة وكتاب وليل؟ طرق خفيف على بابي، لم أفتح الباب والكتاب، لم تعصف العاصفة بعد، قعدت في قلب صمت، فتحت باب روحي، أصغيت، برهافة أصغيت، لم يكن أحد خلف الباب، إنها ذاكرة الباب، كانت فقط مستوحشة تتذكر.

امرأة

لمن هاتان العينان المخيفتان يا الله، مثل شخص هارب من مشفى في منتصف زيارة ومرض، كانت المرأة الغريبة تنهب شوارع رام الله في تمام الجنون والسادسة صباحاً، كانت تمشي بخطوات سريعة ومتعثرة، ولا كلام يصدر عنها. كنت هناك وبائع الكعك وسائق سيارة أجرة وشرطي ضجر، وصراف متجول، وحدنا نمارس أقدارنا وحاجاتنا، جمعتنا امرأة غريبة وزمن.

عمّ تبحثين يا امرأة، هل نستطيع مساعدتك؟ سألها الصرّاف المتجول في السادسة صباحاً. أجابت خطواتها مزيداً من السرعة والتعثر، أما عيناها فأجابتا كثيراً جداً من البحث المتوتر عن شيء لم نعرفه، مشينا معها، وجدنا أنفسنا نبحث معها عن الشيء الذي لا نعرفه، لم نجد شيئاً. لم تجد هي شيئاً. لا أحد وجد أيّ شيء.

تفرقنا في لحظة تعب يائسين، لم تتفرق هي، ولم تيأس، راقبتها من بعيد، تحرث شارع «الحسبة» بعينيها الجائعتين لرؤية شخص أو شيء ما هارب منها أو هي هاربة منه.

يا للتعب في عيون امرأة تبحث بصدق فاجع عن شخص أو شيء هارب منها!

في بيتي قبل لحظات بالضبط تلفتّ حولي بإحساس غامض لم أفهمه تماماً، كنت أعي فقط شبح رغبة داخلي بالبحث عن شيء أو شخص، هارب مني أو أنا هارب منه.

- ما الذي تبحث عنه أيها الخمسيني؟

لم أسمع سوى لهاثي.

سقف

ما حيرني هو السقف الثاني الصغير المنحني قليلاً على سرير غرفتي في الفندق الطويل. كأنه سيسقط بعد قليل على وجهي، ما حيّرني أكثر هو الباب الخشبي الذي يتوسط السقف الثاني «أتتزوج السقوف في هذه البلاد وتنجب أبواباً»، من يدخل من هذا الباب؟ وماذا لو طرقته الآن يدٌ ما، كيف أفتحه له؟ وماذا لو فتحته، كيف سيدخل طارقه؟ إلى أين سيدخل- يسقط؟ أعلى وجهي؟ وماذا يريد مني؟

ما خلع النوم من عيني هو صوت أمي الذي هطل فوق وجهي فجأة وأنا أندس مع أشقائي في فراشنا، تحت سقف الزينكو في غرفتنا الصغيرة بالمخيم، أوائل السبعينات، ما زلت أذكر صوتها وهي تتمتم بصلاة أو دموع، وهي تلهينا بالرقص والذرة المقلية والدغدغة المفاجئة، بينما غضب الرب والعالم يدق سقفنا الحديدي المتحرك. في دبي اكتشفت أن لديّ عقدة سقف.

كاتب من فلسطين مقيم في رام الله

سليمان منصور ←

قصتان

سارة النمس

انتحار شاب طموح

لأنني وُلدت جزائريًا وجدتُ أنّه عليّ أن أتحمّل أبناء شعبي رغم فداحة الأخطاء التي لا تغتفر، أجدني مجبرًا على التحمّل والغفران فهم بالنهاية أشقائي. حتى أنني فكرتُ بتأسيس حزبٍ للشباب، أطرح عليهم أفكاري السياسية وأحلامي المستقبلية للوطن لكنّ والدي قال الشعب تعوّد أن يمنح ثقته لمن تلوّن شعره بالأبيض وأنت لازال شعرك أسود، السنة القادمة قد أغيّر لون شعري ومشيتي، أقتني بدلات رسمية وسأتحدثُ كثيرًا وسيصفقون لي بوسعي أن أجزم أنني سأكون سياسيًا ناجحًا وقد أترشحُ للرئاسة لأكون بعد بضع سنوات الرجل الأول في البلاد وها أنا أعدكَ منذ الآن إن أصبحتُ رئيسًا لن أتخلّى عنكَ شعبي العزيز، سأكون وفيًا لكم وللكرسي وإن قلتم لي ارحل لن أرحل سأتقبل شكاويكم برحابة صدر وسأتفهم تقلبات مزاجكم!

أمّا السنةُ التي انقضت لم أكن أصّب اهتمامي إلاّ على دراستي فقد كنتُ مقبلاً على شهادة البكالوريا. أبي أرادني طبيبًا، أمّي نصحتني بالخدمة في الجيش فكلّما زادت رتبتي زاد المال والمكانة العسكرية في بلد يحكمه العسكر وأختي نصحتني بالفنون التشكيلية أو الأدبية حتى لا تقضي الأفكار السياسية التي برأسي على ما تبقى لي من إنسانية. أمّا عن أمنياتي الشخصية فأنا رجل طموحٌ لي أحلام بعدد شعر رأسي لكن حياة واحدة لا تكفي لتحقيق كل أحلامنا فكيف لي أن أكون طبيبًا ورئيس دولة وطيارًا وربان سفينة وممثلاً وفنانًا تشكيليًا وأديبًا يجيد نسج الروايات! أعتقد لهذا السبب خلقت الأحلام.

التحقت بصفنا صبية ذكية ومرهفة تدعى عبير، هكذا نمتُ وصحوتُ فوجدتني غارقًا في حبِها لا أعرف كيفَ أو لماذا ولحسن حظي أنها بادلتني النظرات والمشاعر نفسها. عندما انتهينا من امتحاناتِ البكالوريا شعرتُ أنني سأكون أينشتاين المقبل! أما عبير دخلت حالة اكتئاب معلنة الفشل قبل صدور النتائج وبعد عشرين يوما عُلِقت النتائج في الثانويات. كنتُ سعيدًا لنجاحي حزينًا من أجل عبير. سجّلتُ نفسي في جامعة وهران لأدرسَ الطب البشري، وحزمتُ حقيبتي وبدأتُ رحلتي الجامعية القاسية بمبلغٍ متواضع يقدمه لي أبي لا يسد احتياجاتي لذا تطلّب مني العمل كنادل في أحد المطاعم الفاخرة كل مساء. في الإقامة الجامعية قررتُ السكنَ بمفردي، غرفتي في آخر الرواق من الطابق الأخير للعمارة، لا أحد يسكن بالغرفة المقابلة لي لكن يجاورني شابان من ولاية معسكر. اليوم تبدأ محاضرتي في الساعة العاشرة غير أني أفقتُ في السابعة، جهزتُ قهوتي ثمّ غسلتُ ثيابي وخرجت وعندما عدت استغربتُ غياب الثياب عن حبل الغسيل، نظرتُ من النافذة فرأيت ثيابي مكومّة على الأرض، أصابني الدوار لأني أعاني رهاب الأماكن المرتفعة، نزلت السلالم متذمرًا أتساءل كيف للملابسِ أن تقعَ على الأرض في جوٍ مشمسٍ كهذا، صعدتها متذمرًا مرة أخرى و بينما كنتُ أفتحُ الباب سمعتُ صوت أحدهم يتكلمُ بانفعال، لم أتمكن من تبيّن إن كان الصوتُ الذي أسمعه من غرفتي أم من غرفة جاري؟ وضعتُ أذني على بابي في حالة تركيز وفي تلك اللحظة فاجأني جاري عندما فتح بابه بعنف واستغرب تجسسي على غرفتي خصوصًا أنه يعلم أنني الساكن الوحيد فيها، دخلت مسرعًا كي أتجنب نظراته المحرجة وعندما التفتُ إلى السرير لمحتُ عليه انحناءة كأنّ أحدهم كان جالسًا عليه، لكن من أين خرج وأنا أقف وراء الباب؟

نمتُ على ذكريات عبير وعلى ضوء ابتسامتها ولفرط ما فكرتُ بها زارتني في حلمي، رأيتني في حديقةٍ عامّةٍ ممددًا على العشب ويداي خلف رأسي وإذ بها تحضر في أبهى حلة لها، جلست على ركبتيها ثم انحنت وشعرها الأسود يهوي على وجهي لتهديني قبلة على شفتيّ تجبّ ما قبلها وما بعدها من القبلِ، قاطّعت حلمي ضجة في الغرفة، نومي الخفيف يحدث أن يفسده طنين ذبابة؛ سمعتُ وقع خف من البلاستيك على بلاط الغرفة، رجل كسول يجرّ خطواتَه فتح الباب ثم صفقه، تسارعَ نبضي وتشوّشت أفكاري أتساءلُ ما الذي حدث للتو؟ بعد بضع دقائق أخرى سمعتُ الباب يفتحُ من جديد محدثاً صريرًا، مشى الرجل متكاسلاً، تثاءب بصوت مسموع ثمّ عمّ الهدوء. يا إلهي! فكّرت: لم لا يكون هذا الصوت قد أتى من الغرفة التي تجاورني؟ كثيرًا ما أسمع موسيقاهم ومناوشاتهم وبالليل تصبح كل الأصوات مسموعة.

في الصباح نهضتُ من فراشي بمزاجٍ سيء، مشيتُ إلى دورةِ المياه بخطوات بطيئة وعينين نصف مفتوحتين وعندما فتحتُ الحنفية خُيّل إليّ للحظة أنّ الماء صار أحمر على أصابعي كالدّم، حتى أستعيدَ تركيزي صرتُ أغمض عينيّ ثم أفتحهما مجددا، بهذه الحركة عاد للماء لونه أو بالأحرى عدم لونه، فليس للماء لون؛ خلال المحاضرة، كنت شاردًا طوال الوقت أفكر بعبير الجميلة، أصدقائي الذين تركتهم في تيارت ومستقبلي ومستقبل وطني، ترى كيف ستكون الجزائر بعد خمسين سنة أي بعد قرن كامل من الاستقلال؟ لا أدري، قد يصبح أفضل وقد تؤول أحواله إلى الأسوأ، من الأفضل أن أكون رجلاً ناجحًا هنا على أرضي، أحيا بسلوك مستقيم وأنفع غيري بما أقدر عليه، عدا ذلك كيف لي أن أغير أسلوب تفكير شعب بأكمله، إنها مهمة شاقّة فشل فيها حتى الأنبياء!

أمضيتُ جلّ نهاري في الخارج وعندما عدتُ إلى غرفتي مساءً وجدتها موحشة وكئيبة، أحسستُ بالضيقِ وأنفع مُسَكِن في حالتي هو صوت عبير، خرجت إلى حديقة الإقامة واتصلتُ بها بعد منتصف الليل، ربّ الهاتف طويلاً في أذني قبل أن ترد وما إن بدأتِ الحديثَ بذلك الصوتِ العميق حتى وجدتني أتوه في دهاليزها. صعدتُ

فيصل لعيبي

السلالم ولازال صوتها يترددُ داخلي، وجدتُ الرواق مظلماً، أغلبُ الطلاب نيام، أثناء سيري سمعت وقع خطوات أحدهم ورائي، كأنّ أحدهم يتبعني كظلي، توقفتُ عن السير فتوقف الذي يلحقني، بإمكاني أن أشعر به، جمعت شجاعتي وقررت الالتفات بسرعة لكنني لم أجد أحدًا، أنا الآن لستُ نائمًا بل كنتُ أتمشى في الهواء الطلق، أنا في هذه اللحظة بكامل تركيزي ولا يمكن أن يكون هذا وليد التخيلات، تابعتُ سيري مهرولاً هذه المرة والغريب أنّ الخطوات صارت تهرول أكثر وفقا لهرولتي، توقفتُ عن المشي، ساد الصمت و شعرتُ بأصابع ربتت على كتفي مرتين لم يعد الموضوع مجرد صوت يخترق الأذن، فالأصابع التي ربتت على كتفي شعرتُ بها حقًا.

الحل الوحيد هو العودة إلى الغرفة حالاً، عدتُ متوترًا وأوصدت البابَ على نفسي. صراع آخر عشته من أجل أن أنام، أمضيت ساعات أتوسل فيها سيدي النوم كي يحضر وأثناء المحاولة سمعت فرقعات متواصلة نتيجة "إطلاق ريح" لو كنت مع أحدهم ما كنت لأمنع نفسي عن الضحك وبصوت مرتفع لكن هذا الموقف مختلف جدًا ولم يكن يدعو للضحك، تضاعف خوفي، لا توجد أيّ احتمالات أخرى، كأن أقول لنفسي إنني أسمع هذا من الغرفة المجاورة ففكرة كهذه لا يقبلها المنطق !

النومُ الذي أبغضه أصبحتُ أشتهيه أكثر من أيّ وقت، تشبثتُ بسريري وغطائي ما لبثت أن نمتُ ساعةً حتى استيقظتُ على صوت أوراقٍ تُقَلّب؛ كأنّ أحدهم يذاكر بعد منتصف الليل يتمتم وهو يتصفح الكتب ويقلّب الأوراق، مازالت عيناي مغمضتين، لا العين اليمنى فتحت ولا اليسرى رغبت بتقصي هذا الصوت، لا بد أنّ زميلي في الغرفة يمضي ليله في المذاكرة ليتنني أقتدي به. بعد دقائق بائسة قررتُ القيامَ بردة فعل، لا يمكنني متابعة ليلي هكذا، رميتُ الغطاء وأضأتُ المصباح وبمجرد أن أنيرت الغرفة، لاحظتُ أنّ كل شيء طبيعي فيها، لم يكن هذا حلمًا، لقد استيقظت على صوت الأوراق وبعد استيقاظي استمر الصوت ولم يتوقف، تنتهي الأحلام والكوابيس حال استيقاظنا، بصعوبةٍ عدت إلى النوم ويا ليتني لم أعد:

راودني كابوس يشبه الواقع بألمه، رأيتني في الحلم أبكي بالدموع والشهقة كالطفل الصغير، أتقدمُ من النافذة لأرمي بنفسي من أعلى طابق بالعمارة. في ظرف دقيقة واحدة سقطتُ سقوطا عنيفًا، شريط حياتي كلّه عرض عليّ بسرعة كصور في فلاش، اصطدم رأسي بالأرض فتحطمت جمجمتي ونزف رأسي دمًا يتصاعد الدخان منه لفرط حرارته، على صورة ذلك الدم استيقظت هلِعاً، يا له من كابوس مفجع! غادرت سريري وصباح جميل يستقبلني، اقتربت من النافذة فطارت العصافير، نظرت من النافذة فرأيت الأرض وموقع حادثة انتحاري بالكابوس، ابتعدت عنها وأغلقتها. أصبحتُ أمضي جل يومي خارج السكن الجامعي ولا أعود إلا ليلاً كي أنام.

خارج غرفتي كلّ العالم يبدو طبيعيًا، الناس في الجامعة، في الشوارع، في المطعم، كلّ الغرائب التي أعيشها لا تحدث سوى في غرفتي، لولا اكتظاظ الطلاب هذه السنة ولولا خشيتي أن يقابل طلب تغيير غرفتي بالرفض ما كنت لأتردد بالتحدث إلى الإدارة لكن أيّ الإزعاج ألطف؟ إلطاف من هم مثلي من البشر أم إزعاج شبح؟ لأكونَ صادقًا، زميلي بالغرفة الذي لا أراه لم يؤذني أبدًا هو يعيش يومه، يذاكر، ينام، يدخل و يخرج، يطلق ريحًا! كلّها أمور طبيعية، ربما بوسعي أن أصادقه، من يدري؟

كلّ هذه الأيام المجنونة التي أعيشها لم تمنعني عن التفكير بها. كيف لي أن أستأصلَ ذكرى عبير من ذاكرتي؟ أنا الطالب المفلس الذي يعجز حتى أن يشتري هدّية تستحقها؟ هكذا أصبحتُ أقضي وقتي، مرة هروباً من اليقظة المرة إلى النوم ومرة من الكوابيس المرة إلى اليقظة. بمنتصف نومي، سمعتُ أنينًا لرجل مريض يتخبط ألمًا، حاولت تجاهل أنينه ومتابعة نومي لكن ذلك الصوت لا يحتمل، كلّمته متوسلاً منه الصمت وكلّما قلتُ أصمت صرخ أكثر، الكلمة مني كانت تجلده كما يفعل السوط، أمضيتُ الليلة أصغي إلى أنينه وانتحابه وبعد دقائق وجدتني في حالة توحد معه أئنُ مثله تمامًا وأضرب بقبضتي الحائط، شيء داخلي كان يعذبني دون رأفة.

وجودهُ معي في الغرفة صار يحبطني وحالتي النفسية بدأت تسوء، كل ليلة أستيقظ بمنتصفها لسبب ما مرّة أستيقظ على صوت كأس زجاجية سقطت على الأرض فانكسرت وعندما أنير الغرفة لا أجد حطام الكأس، استيقظتُ مرة على صوت قهقهة رجل لا يمكنه التوقف عن الضحك ومرّة على صوت تمتمة لشخص يردد الكلام ليتمكن من حفظه. عدا كابوس الانتحار الذي يتكرر كل ليلة.

قررتُ أخيرًا زيارةَ طبيبٍ نفسي بسبب كوابيسي، قال فكرة الانتحار تكمن في باطن عقلي "اللاوعي" أجبت: هذا مستحيل، أنا أكره الموت، أنا أكثر الناس تفاؤلاً ما يحدث معي كالتالي أظنّ أنّ جنيًا يحاول

سرقةَ جسدي ولأنني أقاومه يعذبني بهذه الطريقة، حاول الطبيب تهدئتي بأعذار لم تقنعني، أعلم أنّه لم يصدق، وصف لي مهدئات وودعني مبتسمًا تلك الابتسامة التي تحملُ في طيتها شفقةً ممتزجة بالسخرية والتكذيب، ابتعت المهدئات علّها تساعدني على النوم وبعد تجربتها أدركت أنّ وجودها في دمي أو عدمه سيان.

لمعت في رأسي فكرة مجنونة، ماذا لو وجدتُ طريقةً للتعرفِ على زميلي في الغرفةِ شخصيًا؟ أريد أن نجلس معًا على الطاولة ذاتها ونتناقش لأفهمَ منهُ سببَ اكتئابي وكوابيسي، وضعتُ ورقةً ورحتُ أكتبُ له رسالةً: ·أعلم أنكَ موجودٌ لأنِي أحسُ بوجودكَ معي في هذهِ الغرفة، أحيانًا تختفي ربما لانشغالاتٍ أجهلها لكنّك تعود دائمًا لتذاكرَ أو تنام ربما أنت واقفٌ الآن أمامي تقرأ كل كلمة فور ولادتها أو ربما أنتَ في مكانٍ بعيدٍ من يدري؟ لكن حالما تعود إلى الغرفة ستقرأ حتمًا رسالتي، ما أريدُ قوله أنّ بداية تعارفنا كانت سيئةً وأرى أنّ علاقتنا يشوبها الكثير من التوتر، هذهِ الطاقة السلبية التي تنتشرُ في الغرفة تزعجني وتوترني، حبذا لو نطوي هذه الصفحة ونبدأ من جديد، مستعدٌ أن أسمعكَ وأجلس إليك وأكون صديقك إن أحببت، أتساءلُ إن كنتَ بحاجةٍ حقًا إلى صديق تتبادلُ معه أطرافَ الحديث؟ ألا تعتقد مثلي أنّه من المناسب أن نتقابل كأيّ راشِدين؟ أنتظر منك ردا قريبا.. هشام·.

وضعتُ كأسًا فارغةً على الورقة حتى لا تطيّرها الريحُ إن هبّت من النافذة، ما فعلته بعد ذلك هو أني حملتُ هاتفي وعلبة سجائري وغادرتُ غرفتي باتجاه المسؤول عن الجناح ورغم ما يبدو عليهِ من تكتّم وهدوءٍ دائم إلاّ أنني قررتُ تولّي مهمة استنطاقه حول الغرفة 399.

- جئتُ لأسألك عن الغرفة رقم 399، هل كنت مسؤولاً عن الجناح العام الماضي؟
- أنا مسؤول عن هذا الجناح منذ سنوات .. لماذا تسأل؟
- هل يمكنني أن أعرف من سكنها قبلي؟
- هذه الغرفة لم تسكن منذ أربع سنوات، آخر من سكنها شابٌ كان طالبا بشعبة الطب ولكنّه انتحر.
- هل رمى بنفسه من النافذة؟
- يبدو أنّك سمعت عنه.
- سامحك الله يا عمي إبراهيم، لماذا أعطيتني هذه الغرفة ما دام لم يرغب أحدٌ بسكنها؟
- أنت طلبتَ ألاّ يكون لك رفيق وكانت الغرفة الوحيدة الشاغرة، لا أظنك تتشاءم بحادثة انتحار الشاب!
- لستُ متشائمًا ولكن.. لا عليك، ما اسم الشاب الذي انتحر إن كنت تتذكر اسمه؟
- اسمه عابد.

أصبحت الصورة تتضحُ شيئًا فشيئًا، إنه يحاول أن يجعلني أعيشَ قصته من خلالِ تلك الكوابيس، فتحتُ الباب فرأيتُ شابًا جالسًا على الكرسي ويضعُ يده على الطاولة، شابٌ أسمر البشرة، طويل القامة ونحيف الجسم، شاحب الوجه مثل ذلك المريض بالأنيميا الذي ينقصه الكثير من الدم كي يتورد خدّاه، لا يمكنني أن أنكر ذلك الخوف الذي حاولت أن أخفيه لكنني أغلقت الباب وتقدمت منه قليلاً:

- أخيرا التقينا.. لا تدري كم كنتُ أتوق للتعرف إليك.
- ظننتكَ لا ترحبُ بوجودي!
- ربما في البداية لكنّ أفكار الإنسان تتغيرُ مع مرور الوقت.
- لمَاذا طلبتَ رؤيتي؟
- نحن نقيم بالغرفة ذاتها، أشعر بوجودك مثلما تشعر بوجودي من الطبيعي أن أرغب برؤيتك.
- ليس مُهمًا أن تراني، يكفي أن تشعر بي.
- أريد أن أسألك عن تلك الكوابيس، لِماذا أراني بطلا للحادثة ولا أراك أنت، ما علاقتي بما عشته أنت؟
- لماذا لا تقول عنه أنّه حلم لم تجد له التفسير الصحيح بعد؟
- لا تقل لي أنّكَ لستَ نادمًا لأنك انتحرت وأنهيتَ حياتك يا عابد، فأنا لن أصدقك.
- بل صدّق، لستُ نادمًا على الإطلاق.
- غريب، سمعت أنّ الموتى يحسدوننا على الحياة.
- ليس كلّهم، ليس إن كان الموت أجمل من الحياة التي عاشوها.
- لا أعتقد، هل يمكنني أن أعرف سبب اختياركَ الموت؟
- ليسَ مهمًا أن تعرف..

قال الجملة الأخيرة واختفى، أصبحَ الكرسي الذي كان يجلسُ عليهِ فارغًا، ترى أهي الصدفة أم أنّه اختارني عمدًا؟ كان عليّ أن أسأله هذا السؤال لكنّ تزاحم الأسئلة في رأسي جعلني أعيش حالة من التشويش فلم أدر بأيّ سؤال أبدأ، أتى ورحل دون أن أطرح عليه تلك الأسئلة الحقيقية التي تمنيت إيجاد أجوبةٍ لها. هذا اللقاء الذي جمعني بعابدٍ أعدّه من أغرب اللقاءات بحياتي، انتابني شعور من الرهبة كنت أقاومه متحديًا نفسي، لم أشأ الاقتراب منه أكثر أو مصافحته فقد كنت حذرًا وأردت أن أحفظ المسافات بيني وبينه ولا هو شاء الاقتراب.

عندما يحضر الليل تستعيدُ الغرفةُ كآبتها، هذا المساء لم يأتِ عابد ولم يزعجني بتصرفاته المعتادة ورغم غيابِهِ لم أتمكن من النوم إلى أن أغمضت عيني في الساعة الثالثة فجرًا، راودني الكابوسُ نفسه للمرة الألف، هبوطٌ سريع وتحطم جمجمة ونزيف دم ساخن يتدفق من رأسي على الأرض، استيقظتُ رافضا الكابوس ككل يوم وفي الساعة السادسة عندما فتحت عيني وجدته أمامي، يقف أمام النافذة:

- أعلم ما تريده مني يا عابد.. أنت تريدني أن أنتحر؟
- بل أنتَ الذي تريد!
- مخطئ.. أنت لا تعرفني، أقول لكَ أكره الموت.. فكيف أفكرُ بالانتحار؟
- ربما لم تتعرّف على نفسكَ بعد، أليس هذا ما قاله لك الطبيب؟
- أعرف نفسي أكثر ممّا تعرفني و ممّا يعرفني الطبيب.
- ألن تدعني أحدثك أوّلاً عن الموت؟ هل تخالني ميتًا؟ أنظر إليّ، أنا حيّ أرزق، جسدي الذي مات، الروح لا تموت يا هشام، لماذا تصر على التشبث بهذا الجسد الفاني الذي ستغادره عاجلاً أم آجلاً؟ لماذا تريد الانتظار إلى أن يشيب شعرك وينحني ظهرك وتفقد ذاكرتك؟ تعيش حياتك كلها تحت تهديد خطر الموت، فلتختر مصيرك مثلما اخترتُه.
- لي أحلام كثيرة أودُ لو أحققها.
- عليك أنت تختار إذن بين الاستمرار بممارسة الأحلام أو الخلود؟ أن تختار بين أن تعيش كل عمرك حالمًا أم تنتقل إلى عالم آخر وتحرر روحك من عبودية الجسد.

.....

- اقترِب منّي يا هشام وحرّر هذا القلب من هذا القفص، حرّر هذه الروح المسجونة، دعها تسبح في السماء وتركض في البراري وتسافر إلى من تحب، تحرسهم وتحقق أمنياتهم، أقتل الأحزان والفقر والأحلام والخيبة ولنحي معًا حياة الخلود، صافحني يا هشام وكن صديقي.

اقتربتُ منه بخطواتٍ تقودني إليه كالمنوّم مغناطيسيًا ومددتُ يدي إليه، أمام النافذةِ رفعتُ ذراعيّ كطير ينوي التحليق لأول مرة، شعرت بيديه خلفي حطّتا على ظهري ودفعتني من الوراء بقوة خارقة، خلال السقوط أدركتُ أنّها النهاية لكل شيء واستوعبت أنّه في ثانية واحدة يمكن أن تتحول الحياة إلى حالة من الموت. لحظةَ الارتطام، رأيت ملكَ الموت يقترب مني بخطوات ثابتة، قلت له متوسلاً:

- لقد حدث سوء فهم ·سيدي أنا لا أريد الموت، لازالت لديّ مخططات كثيرة.

لم يجب، مرّ الواضح أنّه لا يحب الثرثرة مع جثث الناس أو ربما هو معتاد على توسلاتهم!

- سيّدي.. دعني أوضحُ لك أمرًا واحدًا فقط قبل أن تستلمَ روحي، أنا لم أنتحر إنها مؤامرة من عابد، أنت تعرفه جيّدًا لقد سحبت منه الروح منذ أربع سنوات في هذا المكان بالتحديد، هو الذي حاول قتلي بدفعي من فوق. يا للمهزلة سيظن الجميع أنني انتحرت، الجميعُ يعلم أنني شاب طموح ! لكن لماذا ترفضُ حتى التأكّد من لائحة الموتى بحوزتك ربما حدث خطأ ما، أرجوك سيدي لن تخسرَ شيئاً.

توقفَ قليلاً وعدّل من وقفته ابتسم بوجهي وكادَ يضحك لكنّه لم يفعل، نفض يديه ثم استدار ورحل، تركني غارقا في دمائي وأحلامي

تفصيل من تخطيط لـ فيصل لعيبي

وعندما فتحت عيني وجدتني ممددًا على سرير المرض، عاجزًا عن الحراك. أنا لا أزال على قيد الحياة ! وجدتُ في غرفتي كلّ أفراد أسرتي ولاحقًا اتصلوا بعبير لتأتي لرؤيتي، قالوا أنني في المشفى منذ شهر دخلت غيبوبة خشي الأطباء ألاّ أخرج منها سألني أبي:

- لماذا حاولتَ الانتحار يا ولدي؟
- .....
- أجب والدك يا بني، أخبرنا لماذا حاولت الانتحار؟ قالت أمي
- .....
- تحدّث هشام، قالت عبير.
- أنا لم أحاول الانتحار يا أبي لقد كانت حادثة ·قلتُ بلسانٍ ثقيل·.
- حادثة؟ !
- نعم.. أنا أموتُ ككل الناس ولا أنتحر يا أبي.
- نحن نحمد الله على عودتك وبالمناسبة هذه الصبية التي طالما حدثتنا عنها خطبناها لك أثناء غيبوبتك.
- هذه هي امرأتي !

تجربة الغرفة 399 تركت أثرها على شخصيتي، تعلّمت أمورا كثيرة المشي من جديد والكلام وحتى التفكير بطريقة مختلفة، قبل سنة كنت أخالني قادرًا على تغيير العالم لكن بعد هذه التجربة أدركت أنني لا أعلمُ شيئًا، أصبحتُ أكبح ذلك الفضول داخلي وأجيد توظيفه، التهور قد يودي بالإنسان إلى الهاوية، أردت حشر أنفي في عالم غريب عني ولا يعنيني، ما كان عليّ أن أتطفل عليه أن أكتب رسائل إلى رجل ميت أو أصافحه محاولا مخاطبته. حتى اليوم لستُ أعرف من كان عابد حقًا؟ هل كان شبحًا؟ رجلاً معلقًا بين الحياة والموت أم أنّه رجل أنجبه وهمي أثناء ساعاتِ وحدتي ولا ذلك الحوار الذي دار بيني و بين ملَك الموت؟ ترى هل دار حقا أم أنّه حلم عابر لحظة احتضار؟

بعد سنة، عدتُ إلى الجامعة من أجل استئناف دراستي، في جناحٍ آخر برفقة شاب من مدينتي، في أحد الأيام جلستُ في المطعم الجامعي أتغدى ككل يومٍ يقابلني شابٌ من الصحراء، بدا شاردًا وحزينًا سألته:

- هل أنت طالب سنة أولى؟
- نعم وأنت؟
- أنا أيضًا لكنني أعيدُ سنتي فقد تعرضتُ لحادثٍ ولم أستطع إتمام العام الدراسي، يبدو أنّك لم تعتد بعد على الجو الجامعي؟
- المشكلة لا تتعلق بالجامعة، أنا لا أنام كل الليل، تحدث معي أمورٌ غريبة، ربما لن تصدقني لكنني أسمع أصواتًا وأرى أطيافًا، يراودني كابوس كل ليلة، أراني أنتحر من النافذة فأسقط على الأرض غارقًا في دمائي.
- يا الله أنتَ تقيمُ في الغرفة 399 ؟
- نعم.. كيف عرفت؟
- هل قابلت عابد؟
- كلاّ لم أقابله، من يكون عابد؟
- لا تحاول أن تعرف، هناك أمور من الأفضل ألاّ تعرفها، أترك تلك الغرفة حالاً وحاول أن تجد غرفة غيرها وإن لم تغيّر لك الإدارة الغرفة اتصل بي وسأستقبلك في غرفتي ربما علينا أن نقوم بمظاهرة طلابية من أجل أن تشمّع تلك الغرفة بالأحمر.

في غياهب التنهوة

كُتب على هند أن تولد في إحدى القرى الصحراوية شمال اليمن وقبل أن تدّرسَ أيّ شيء عن الله والحياة والأدب والحب تم تلقينها كلّ العادات والتقاليد والخطوط الحمراء التي يجب ألاّ تتجاوزها. تعدّ هند من جميلات تلك القرية والواحدة من النساءِ هناك تتفوقُ على غيرها ببياضِ وصفاءِ بشرتِها بقدرِ سوادِ شعرها وعينيها، لهند أهدابٌ غزيرة ومنحنية وحاجبان أسودان يمتدان على طول العينين الواسعتين. كلّما خرجت برفقة والدتها أو شقيقتها وجدت نفسها قِبلة لكل العيون، تسيرُ بجسدٍ شهي لا يمكن لعباءةٍ سوداء أن تخفي ما يحملُه من مفاتن. حاولَ والدها إقناعَها بضرورةِ الزواج في أكثر من مناسبة بتلميحاتهِ التي لا تنتهي غير أنّها رضيت بلقبِ العانس على أن تمنح نفسها لرجلٍ يعافه عقلها أو قلبُها، لم تكن تطلب الرجل الكامل ولكن فقط الرجل المناسب.

دخلت هند إلى غرفة الاستحمام كي تُحَضّر حمّامًا ساخنًا وعندما امتلأ الحوض تعرّت من ثيابها ووقفت أمام المرآة، لأوّلِ مرةٍ تواجهُ جسدها بهذهِ الطريقة، لقد تعرّت من التقاليد والخوفِ وعقدةِ العيب، الانعكاسُ منحها شعورًا مختلفًا كالتي تصافحُ جسدها بنظرةٍ محبةٍ ومدهوشةٍ.. مثل امرأةٍ عمياء قدّرَ لها أن ترى في جسدها كل ما كانت تتحسسه وتعجزُ عن رؤيتهِ، استوعبت جودةَ مفاتنها وفهمت لم ابنة خالتها تواقة للزواج وتتحرقُ لأن تجتمعَ بأيّ رجلٍ متوّفر، الآن فقط فهمت معاناة العوانس، عصبيتهن، غيرتهن، مزاجهن العكِر، المسألة تتجاوزُ الغيرةَ من الأخريات لأنهنَ قادرات على تأسيسِ عائلة، للأنثى حاجات جسدية مثل الأكل والشرب تمامًا عليها أن تلبيها، نعم.. فالجسد أيضًا يعطش ويجوع.

داخل الحوض بالغت هند بالاهتمام بجسدِها وشعرت أنّها قصرت في حقه قبل اليومِ كثيرًا، اعتذرت منهُ بلمساتٍ دافئة مررتها على عنقها وصدرها وساقيها وما بينهما، اعتذرت بالصابونِ والرغوةِ و شفرةِ الحلاقة، هذا الجسد الجميل أصبحَ يحتاجُ رجلاً ليترك عليه بصمته الخالدة. أنهت استحمامها الذي استغرق ساعةً من الزمن وارتدت ثوب الاستحمام الأزرق، لفّت شعرها بمنشفةٍ زرقاء ثم اتجهت إلى المطبخِ بوجنتين متوردتين لتعدّ لنفسها عشاءً مميزًا كان طبق المعكرونة بالصلصة الحارة شهيًا وعصير البرتقال البارد أنعشَ هند بعد حمامٍ ساخنٍ. فتحت الكمبيوتر الشرفةُ الوحيدةُ التي تطلُ من خلالها على العالم، وجدت الجوّ الافتراضي مملاً وروتينيًا وبفناء الماسنجر لم يكن أحد من الأصدقاءِ متواجدًا، وضعت يدها على خدّها شاردة وأثناء ذلك سمعت تنبيه وصولِ إيميل جديد، فتحت علبة البريد فوجدت رسالةً من شخصٍ يسمّي نفسه bigX، فتحت الرسالة الإلكترونية فتفاجأت بمقاطع فيديو إباحية، رجلٌ يجلس على كرسيّ عريضٍ تركبُه صبية شبقة، احتمالُ حذف الرسالة الإلكترونية أو حظر هذا الشخص لم يكن واردًا، هذا الإيميل كأنّه جاء في وقته، لا ضرر إن شاهدت عملية جنسية بدلاً من التصور هكذا خاطبت نفسها، فتحت مقاطع الفيديو بأصابع مرتعشة وقلب تسارعت نبضاته، ما إن تشاهد مقطعًا حتى تغلقه لتفتح آخر في فضول ونهم، في تلك الغضون شاهدت ما يقارب ثلاثة وثلاثين مشهدًا جنسيًا، بركان من الكبتِ انفجر في لحظة واحدة بمحض سهرة أخذت عائلتها إلى عرس قريبهم.

عمرُها ثلاثون سنة لكنّها لم تشاهد يوما ما يسمونه "جنس" حتى أنّها تخشى لو تلفظ الكلمة بينها وبين نفسها، لم تر في حياتها كيف هو عضو الرجل الذكري، هذا الذي يصفونه مرة بالجزرة ومرة بحبة الخيار! أرادت أن تعرف كيف هو شكله حقًا لكن ما رأته مختلفٌ عن كل ما سمعته، ما كان عليهَا أن تثق بوصف أهل عشيرتها، لم تتوقع أن تكون ممارسةُ الحب مشوقة هكذا ولا عضو الرجلِ بديعًا لذلك الحدّ، شيءٌ لم يخلَق إلاّ ليتصلَ بعضوِ المرأة مثلَ لعبةٍ تتألفُ من قطعتين ولا تعملُ بشكلٍ جيّد إلاّ إن ركّبت ببعضها، ثلاثون سنة من الحرمان واليتم الجسدي، ثلاثون سنة من الجهل الجنسي، لقد تأخر كثيرًا فارس الأحلام هذا والجسد على وشك الذبول، ها هي تقف لأول مرة محاصرة بين الشرف والشهوة وعليها أن تختار سبيلاً تمضي منه.

شعرت هند أنّ جنية صغيرةً تستيقظ داخلها بعد سباتٍ طويل بينما تشاهدُ شابًا أسود بجسدٍ ضخم يضاجع امرأة شقراء بأسلوب فريد كأنّه فن وموهبة! اندماجُ الألوان بين الأبيض والأسود كان كلوحةٍ فنيةٍ اختلطَ فيها كائنان ذابَا في بعضهما البعض حتى أصبحَ فصلهما عن بعضهما يبدو مستحيلاً، تساءَلت؟ ما الذي يعرفه شبابُ قريتِنا عن هذا الفن؟ داهمَها انفعالٌ داخليّ بعد تركيز وانغماس بالمشاهدة. رمت ثوب الاستحمامِ أرضًا وقرّرت مدّ يدِ المساعدة لجسدها في محاولة بائسة وانفصام غريبٍ حيث تُمثل عليه بأنّ من يداعبه هو شخص آخر منفصل عنها وليس هي، استمرّت بذلك إلى أن شعرت بنفسها تغيبُ عن الوعي وتقترب من المراد. بعد ذلك أحسّت أنها تحرّرت من ذلكَ الغليان وصار بإمكانها النّوم أخيرًا. بعد تلك الليلة الخريفية لم تستطع منع نفسِها من المشاهدة كل ليلة بعد أن ينام الجميع. لقد أحبّت إدمانها واعتبرته حقا شرعياً في غياب الرجلِ الذي يستحقها.

تفصيل من تخطيط لـ فيصل لعيبي

اليوم السابع من شهر يناير، يومٌ لا يشبهُ أيّ يوم آخر في حياةِ هند، مساءٌ ذهبَ فيه أفرادُ أسرتها إلى المستشفى من أجل زيارةِ خالها عبّاس، راودها الضجرُ فذهبت إلى غرفتها ونزعت كل ثيابها وحليّها وفردت شعرها الفاحم على كتفيها وفتحت الكمبيوتر وشاهدت فيديو جديدًا بين عاشقين، تمددت على السرير والتهب جسدها مجددًا، من يراها يرى صبية حسناء تتلوى شبقا مثل أفعى جائعة تنتظر فريستها وبعد دقائق سكنت لنفسها وهدأت وفي تلك اللحظة شعرت بيدٍ ساخنة تحطّ على ساقها!

ما تملكّها هو الخوف، حاولت أن تمدّ رقبتها لتتبين لكنّها لم تستطع فقد وجدت نفسها عاجزةً عن الحِراك تمامًا، أصبحت تشعرُ بكلتا اليدين الساخنتين تتنقلانِ على جسدها. بقوةٍ خارقةٍ أحسّت أنّ اليدين تفتحان ساقيها وعبثًا حاولت أن تضمّهما فتلك القوة الخارقة تفوّقت عليها، رأت ساقها اليمنى ترتفع منتصبةً بفعلِ فاعل والثانية مثنية على الهواء وكأنّها مثنية على كتفِ أحدهم ولكن لا أحدَ كان موجودًا. شعرت بقضيبٍ يفتح ما هو مغلقٌ، يخترقُها ويغوص فيها أكثر فأكثر، شيءٌ ملتهبٌ ومؤلمٌ كأنّه من جمرٍ، ودّت لو تصرخ وجعًا لكنّها لم تتمكن حتى من الصراخ لأنّ الصوت رفض الانطلاق من الحنجرة "تغيّر لونُ وجهها وأصبح يتصببُ عرقًا مثل امرأةٍ على فراش الولادة، بعد دقائقٍ أخرى، سحبَ المخلوق اللامرئي قضيبه وترك ساقيها تسقطان على السرير ثمّ رحل.

عند عودةِ عائلتِها إلى البيت لم تسمع الضجّة التي أثاروها أثناء دخولهم فتلك التجربة القاسية عزلتها عنِ الجميع. اتجهت والدتها إلى غرفتها فأصيبت بالهلع لما رأته! هند عارية تمامًا على السرير ترتجف بينما تتصببُ عرقًا، مستلقية بوضعية الجنين في رحم أمّه، رمت عليها أقربَ غطاء على جسدها واقتربت تسألها عمّا حدث لكنّ هند لم تكن لا تسمع ولا تجيب، استمرّت بالأنين والبكاء بنشيج متواصل، أدركت السيدة فاطمة أنّ أحدهم تسللَ إلى البيت وقام باغتصابها، ركضت إلى ابنتها الكبرى سميّة: "مصيبة إن فقدت عذريتها!".

قدِمت القابلة صباح الخميس التالي، سلّمت عليهم وشربت القهوة ثمّ تقدمت نحو غرفتها وهي تحاول ارتداء القفازين المطاطيين لكن ما إن حاولت فتح ساقيّ هند حتى صرخت صرخةً سمعها كل من في البيت، خرجت وطلبت من السيدةِ فاطمة وابنتها المساعدة، دخلن معًا، اتجهت سمية إلى ذراعيها ومسكتهما بقوة أمّا والدتها فحاولت فتح ساقيها بعنف غير آبهة لصراخ ابنتها! تمكّنت السيدة ليلى من رؤية الغشاء من بين الشفرتين بصعوبة بسبب صراخ هند وبكائها وممانعتها "الغشاء سليم، لم تتعرض للاغتصاب، هذه الفتاة لم تفعلها أبدًا، ليس هناك أي خدوش على الغشاء ربما مشكلتها نفسية."

- "لك الحمد يا رب.. تنهدت أم هند وحمدت".

أحضرت سمية بعض الحليب الساخن وقطعًا من الكعك لهند التي لم ترَ الصينيةَ أمامها، تسمّر بصرها صوب زاوية الغرفة، تنظر إلى الفراغ كالمجنونة! قرّرت الجلوس على حافة السرير ومساعدة هند على الأكل، حملت الكأس وعندما لامست شفتيها لم تفتحا لتذوق الحليب، حاولت إجبارها على الشرب ولكن عبثاً فعلت ذلك لأنّها سكبت كل الحليبِ على ثوبها الأبيض. ظلّت على تلك الحالة أسبوعًا كاملاً، قرّرت السيدة فاطمة أن تخبر زوجها وأولادها الخمسة دون ذكر أنها وجدتها عارية على السرير ليلة الحادثة، ما حدث بعدها أنّ كل من في البيت أصبح قلقاً عليها وتم إحضار طبيب القرية إلى البيت ووجد كذلك أنّ حالتها الجسدية جيّدة، كتبَ لهم تحاليل شاملة يجرونها لهند في مخبر المدينة يقرأها لاحقًا لينهي تقريره الطبي.

ألبسوها عباءة و منديلاً، مشت معهم كالدمية الشاحبة التي لا روح لها، أجروا لها التحاليل وهي ليست معنية بما يدور حولها. وفي المساء حضرَ الطبيب مجدداً وفتح برقية التحاليل أمام والدها وشقيقها الأكبر "هي تعاني من فقر دم... بالإضافة إلى.." زمّ شفتيه قليلاً ثم أعلن" إنها حامل".

انهارَ والده و جلس كالذي أصابه الشلل في ساقيه، كيف حدث هذا وابنته لا تخرج من البيت إلا برفقته أو رفقة والدتها؟ وقف الأخ الأكبر معلنًا أنّ الواجب الآن هو قتلها! حاولت السيدة فاطمة أن تشرح له بأنّ أحدهم تسلل إلى البيت واغتصبها يوم زاروا الخال عبّاس في المستشفى لكنّه نزل السلالم ركضًا وعندما فتح باب غرفتها وجدها جالسة تنظر إلى اللاشيء، نَزَع الحزام الجلديّ من خصره وانهال عليها بسوطه أخفت وجهها واتخذت وضعية الجنين مستسلمةً، تدخلت والدتها وهددت ابنها بأنها ستقتل نفسها إن هو قتلها، مسحَ العرق من على جبينه وخرج من الغرفة صافقًا الباب وعاد إلى والده الذي لازال غارقاً في الدهشة يستشيره بما ينبغي فعله، ردّ عليه أنّه ليس بمقدروهم أن يفعلوا شيئًا سيتبرأ منها، يسجنها إلى أن تلد ثم يتخلص من الطفل في دار أيتام و ينتهي الأمر.

لم تعارض هند السجن الذي فُرض عليها فهي ما عادت تشعر بوجودها منذ ذلك اليوم المشؤوم، لم تفارقها الكوابيس كلّما نامت تعيش الاغتصاب، تئن ليلاً لا يسمعها أحد، وفي النهار تأكل بشراهة ما يأكله عشرة أشخاص، يومًا بعد يوم صارت بطنها يكبر أكثر فأكثر وبالشهر الرابع أصبح بطنها كالحامل بشهرها التاسع! كان يمكن للرائي أن يعلم أنّها ستنجب جنينًا ضخمًا ممّا أثار ذعر والدتها التي تتفحصُ بطنها بيدها وتقول "يا الله إلى أي مدى سيكبر بطنها أكثر؟" مرّ شهر آخر لتتم خمسة، جاءها المخاض مبكرًا في الثانية صباحًا، شعرت بكرة بحجم حبّة البطيخ تخرج منها، حاولت أن تصرخ ولكن خانها صوتها مجددًا، ملامحها تغيرت وانقبضت مع انقباضاتِ رحمها، تمنّت الموت ألف مرة أثناء الولادة ولم تشعر أنها تنجب جنينا عاديًا بل جنينًا بحجم رجل ضخم كلّما خرج منها جزء منه كلما اتسع أكثر فأكثر، في الصباح فتحت والدتها الغرفة تحمل صينية الفطور وبمجرد أن رأت ما رأته أوقعت الصينية على الأرض دهشة، رأت هندًا مستلقية بوضعية الجنين على طرف السرير وكل الشرائف والملاءات ملطخة بالدمّ الأحمر القاتم، أدركت أن ابنتها أنجبت ليلة أمس: أين هو يا هند أين الجنين؟

أشارت بيدها إلى تحت السرير، جلست على الأرض ثم انحنت لكي ترى فرأت مخلوقًا لا يشبه الإنسان ولا الحيوان، كتلةٌ ضخمة من اللحم الأحمر تبدو لزجة ليس لها أطراف ولا أذنان! لكن لها عينان حادتان تلمعان بلونٍ رمادي يكاد يبدو أبيض وأنفٍ صغير مُدّبب يشبه أنف القط أمّا الشفاه تشبه شفتا إنسان طبيعي وخاصة شفتا والدته الممتلئتين! في بطنه حبل سريّ طويل ملتف على نفسه كالثعبان، فكرة سحب هذا المخلوق وحمله كانت فكرة سيئة جدّا من يجرؤ على الاقتراب منه؟

خرجت الأم تصرخ كالمجنونة وتنادي كل من في البيت وعندما دخلوا غرفة هند وجدوها نائمةً، رأوا ما تركه النزيف من دمٍ على الفراش الأبيض نظروا إلى تحت السرير فلم يجدوا شيئًا طلبوا من الطبيب الحضور الذي حينَ أتى وفحصها وجدها عذراء وليس على جسدها أيّ آثار للحمل أو الولادة، استعادت هند وعيها بنفسها وتحدثت إليهم أخيرًا:

- كيف حال خالي عبّاس؟ متى سيخرج من المستشفى؟ ولماذا تأخرتم هكذا؟!

كاتبة من الجزائر

السكّين ذات المقبض الأسود

سامية العطعوط

فوجئتُ بها، تلك العجوز الشمطاء، التي توارتْ عن الأنظار يوم أمس، لم تكن تحمل معها سوى سكّينٍ بمقبضٍ أسود، تسيرُ بسرعةٍ طائشةٍ وثوبها الأسود الخفيفُ القذر، كالح اللون يهفهف حول جسدها..

لم ينتبه إليها أحد، وهي تسير في الأزقة والشوارع الضيقة قرب الجامع الكبير.. من سوق السكّر إلى سوق الحرامية الذي يجتمع فيه اللصوص والنشّالون والقوّادون والمحشّشون والزبائن من كل جنس وصنف..

تبعتُها دون أن تشعر.. كانت تهرول وتتمتم بصوت مرتفع، وهي ترفع السكين:

سوف أقتله الآن.. مجنون، خرّب البسطة .. مجنون رح أقتله .

هرولتُ خلفها.. وصلتُ إلى سوق الخضار، الأرض قذرة وزلقة من أوراق الخسّ وعروق الملوخية وبقايا الخضار التالفة. كدتُ أقع، وهي تركض، حتى وصلتُ إلى أحد المحلات. رفعتُ السكين وطعنت الرجل الواقف هناك، في ظهره. شهقتُ.. التفتتْ إليّ ونظرات الشرّ تتطاير من عينيها. صرخ الرجل، ووقع على الأرض. رأيتُها تمسح آثار الدم عن السكين بثوبها، وتتقدم مني بسرعة، فوقعتُ على الأرض مغشياً عليّ.

حلم

حلمتُ بها ليلة أمس.

كنتُ في السوق أشتري بعض التوابل، عندما مررنا من أمام بسطتها. كانت تفرش عليها علب دخان ملونة، قداحات، كبريت، علكة، ملبس، 3 ساعات فضية اللون، بضعة خواتم عليها خرز ملون، أساور ذهبية وملونة للأطفال، ربطات شعر وشيفرات حلاقة، أمشاط سوداء اللون وبضعة جزادين. كانت تجلسُ أمام بسطتها الخشبية على بقايا ثوبٍ مهترئ تضعه تحت مقعدتها، وجهها أحمر مهتاج من حرارة الشمس، وسيجارة هيشي لم يتبق منها إلا القمع تستقر في فمها.

شعرتُ بحركة وجلبة في المكان. بدأ الجميع بالتراكض هنا وهناك، أصحاب البسطات يرفعون بسطاتهم الخشبية ويغادرون مسرعين، إلا تلك المرأة، لم تنتبه.

يبدو أن بها صَمما، أيمكن أن تكون أمي؟

رأيتُ رجلين عن بعد، يقتربان من بسطتها، قلباها رأساً على عقب، دون سابق إنذار.

داسا على محتوياتها التي تناثرت هنا وهناك، وطلبا من العجوز مغادرة المكان.

صرختْ عليهما ثم شتمتهما بتمتمات خرجتْ من فمها.

بدأتْ تلملم محتويات البسطة المتناثرة على الأرض، وتضعها في كيسٍ قماشيّ كالح اللون كبير وتهذي.

أخرجتْ سكيناً ذا مقبض أسود من ثوبها، والتفَتْ إليهما.. كانا قد ابتعدا عنها متّجهيْن إلى بسطة أخرى.

رأيتها تضع السكّين جانباً، تلطم وجهها بكفّيها، وتجهشُ في البكاء.

حلمٌ ثانٍ

حلمتُ بها يوم أمس.

كنتُ في السوق أشتري بعض التوابل، عندما مررتُ من أمام بسطتها. كانت تفرش عليها بعض علب الدخان الملونة، قداحات، كبريت، علكة، ملبس، 3 ساعات رجالية فضية اللون، بضعة خواتم عليها خرز ملون، أساور ذهبية وملونة للأطفال، ربطات شعر وشيفرات حلاقة، أمشاط سوداء اللون وبضعة جزادين. وكانت تلك المرأة تجلس أمام بسطتها الخشبية على بقايا ثوبٍ مهترئ تضعه تحت مقعدتها، وجهها أحمر مهتاج من الشمس، وسيجارة هيشي لم يبق منها إلا القمع يستقر في فمها..

شعرتُ بحركة وجلبة في المكان. بدأ الجميع بالتراكض هنا وهناك، أصحاب البسطات يرفعون بسطاتهم الخشبية ويغادرون مسرعين، إلا تلك المرأة، لم تنتبه.

يبدو أن بها صَمما.

رأيتُ عن بعد، رجلين يقتربان من بسطتها، قلباها رأساً على عقب، دون سابق إنذار.

داسا على محتوياتها التي تناثرت هنا وهناك، وطلبا من العجوز مغادرة المكان.

صرختْ عليهما ثم شتمتهما بتمتمات خرجتْ من فمها.

بدأتْ تلملم محتويات البسطة المتناثرة على الأرض، وتضعها في كيسٍ قماشيّ كالح اللون كبير وتهذي.

أخرجتْ سكيناً ذا مقبض أسود من ثوبها، والتفَتْ إليهما.. كانا قد ابتعدا عنها متجهيْن إلى بسطة أخرى.

رأيتُها تضع السكين جانباً، تلطم وجهها بكفّيها، وتجهشُ في البكاء.

لم أحتمل المنظر، تناولتُ السكين عن الأرض وتبعتُهما حتى توقفا عند إحدى البسطات. تقدمتُ بسرعة وأغرزتُ السكين المعدني ذي القبضة السوداء في جنب أحدهما من الخلف، وركضتُ أقسى ما أستطيع مبتعداً بين الأزقة والبيوت المتلاصقة في ‹جبل الجوفة›.

استيقظتُ فزعاً أتصبب عرقاً..!

آثار دم

عندما صحوتُ صباح اليوم، كنتُ نشيطاً، أدندن بأغنيةٍ قديمة لسيّد درويش

‹الحلوة دي قامت تعجن في البدرية..›

غسلت وجهي وتناولتُ قميصي بسرعة كي أرتديه.

فوجئت به ملطخاً ببعض الدماء التي لم تجف بعد.

كاتبة من فلسطين مقيمة في عمان

فاطمة التي عاشت

سعاد خبية

عقيقتان كعيني طائر صغير، تتابعان حركة الضوء والضجيج فتفتحان وتغلقان كنجمتي صبح أعيتهما مهمة التنوير، وجسد ضئيل يلفه قطن البداية، يسوّر أحد ذراعيها رباط ورقي يحمل اسم عائلتها، ملامح وعلامات كانت تمثل بطاقة شخصية لمولودة بقيت وحيدة في حاضنتها عندما كان الرحيل يلبس أقدام الجميع خوفا من مصير مرعب قد ينالهم، ومدينتهم كانت على موعد مع معركة حسم دامية، عيون الطفلة تتلفت حائرة وهي تسمع همهمات المغادرين وتطرح عبر نظراتها استفسارات لا متناهية من قبيل ‹ماذا يحدث؟ وماذا عني؟ ›فتسمع صرختها قوية رغم كل ما يترجمه جسدها الضئيل من ضعف وإنهاك، يوم واحد فقط هو كل ما سجلته رحلة حياتها لتصبح مضطرة على خوض غمار رحلتها في الدفاع عن وجودها وقد وجدت نفسها وحيدة تعيش في ظرف الحرب والتهجير وأجواء الاقتحامات وقد غاب الجميع.

الحاضنة

في الشهر العاشر من عام 2012 وعلى أرض تسكنها الثورة والرغبة بالانعتاق كان ثمة مخاضان يجريان في آن معا في بقعة واحدة.. فهنا كانت هديل ‹أم المولودة› تصرخ من آلام مخاضها الذي استبق موعده بثلاثة أشهر ونصف جراء العوامل النفسية والعصبية التي كانت تعيشها في أجواء الحرب، وها هي تضطر للسير في شوارع المدينة يدافعها مولود يريد أن يخرج ليعرف ماذا يجري؟ الطريق إلى المشفى كان طويلا، تحاصر مركبتهم المفجوعة من الخوف في الشوارع المقفرة من البشر أمطار سوداء من القذائف والصواريخ، الوجهة مشفى ‹حمدان› حيث يعبق المكان بقصص الموت والحياة والثورة بكل ما حملته من ألم وأمل وتفاصيل وبطولات مرتاديه من الثائرين ومن العاملين فيه، وخلف أبوابها أطياف لشبان ورجال يزرعون شوارع المدينة وبأيديهم أسلحتهم البسيطة، كانوا يؤمنون بأنهم قادرون على خلع أنياب الوحش وطرده بعيدا، لتنتهي المدينة من شروره و›تتحرر› وبذا يُختصر أمامهم طريق الموت نحو الحياة، وبين هنا ‹الولّادة › وهناك ‹المعركة› كانت تفنى هامات وتولد نجمة.. في لحظة فارقة وصعبة ولدت الطفلة دون أن تتم شهرها السابع في بطن أمها، المشفى دون كهرباء! لامشكلة.. فقد تم تشغيل ‹الحاضنة› ببطاريات الشحن لتمنح الصغيرة فرصة الحياة داخلها، عشر ساعات في ‹نعيم› إمكانية البقاء في الحاضنة انتهت مع انتهاء مهلة التهديد الذي أرسلته قوات الأمن والجيش بنسف المشفى بمن فيه إذا لم يسلم المسلحون المدافعون عن المدينة أنفسهم وسلاحهم ويخروا صاغرين تحت مقصلة الموت، صاروخ أيقظ ارتعاش الركب وحفزها للحركة دافعا بالجميع نحو المغادرة، الكادر الطبي، المرضى والجرحى النازفون والمصابون الراقدون في قسم العناية المركزة، الكل حمل جرحه وهمّ بالتمسك بحبل الحياة الذي يستله ذراع الموت.

المشفى تُفرّغ والقصف يشتد أكثر فأكثر ليستهدف الطابق الأخير منها والأبنية المحيطة بها، الجدران والنوافذ تصطك وتتهاوى، لم يبق هناك من أحد، وحدها تلك الطفلة تُنسى في قسم ‹الحواضن› ومع آخر طبيب يغادر المشفى كانت الطائرة تزرع حمولتها في سماء المنطقة بشكل أكثف وأكثر رعبا فيشتعل محيطها بالانفجاريات، تلمع ومضة في رأس الطبيب الهارب ماذا عن قسم الحواضن؟ وماذا عن مولودة الأمس؟

قدما الطبيب تدفعانه للإسراع في الجري عله ينجو، وصرخة من داخله تطالبه بالتحري لعل روحا صغيرة بقيت هناك ينازعها الموت وحيدة عاجزة.. هل يعود؟

يوقظه نداء من بعيد ‹أسرع السيارة ستنطلق لم يعد ثمة من وقت فمعنا جرحى ينزفون›، يُطرق برهة.. ودون تردد يستدير عائدا نحو بوابة المشفى، ألسنة اللهب تأكل الطابق العلوي، يأخذ طريقه مباشرة نحو قسم الحواضن حيث لا زالت البطارية التي تغذي حاضنتين تُشغل أحدهما الطفلة تعمل، يدلف بتهور شديد داخل الغرفة، الطفلة لا تزال تتحرك في سريرها الصغير وعيناها مفتوحان حتى بدت له تضحك مستبشرة شاكرة فيخطفها ويجري.

لم يبق في المدينة في تلك الفترة سوى عدد قليل جدا من السكان معظمهم يتأهب للرحيل ليلحق بنصف مليون وأكثر سبقوهم إلى حيث الموت أقل، شوارع فارغة لا تكاد تلمح فيها طيفا لبشر، فقد كانت تجربة الأهالي في اقتحام المدينة السابق مريرة، وذكريات القتل والذبح التي مارسها ‹جيش الوطن› دون رحمة ماثلة في ذاكرتهم القريبة، نزوح جماعي لم يستثن الأطباء والكوادر الطبية التي توزعت على نقاط ميدانية بدائية مبعثرة أو هامت نازحة كغيرها من السكان، لا صوت في الشوارع سوى همهمات بعض المسلحين هنا وهناك يتفقدون من بقي من الأهالي لحثهم على الرحيل خوفا على حياتهم .

كتلة حية تتحرك بين يدي الطبيب تنتزعه من سطوة الموت التي تحيط بتلك المدينة في كل اتجاه، لا مقومات لديه ليبقيها حية ماذا يفعل؟ هاهي أسرة تغادر على عجل يحملون بعض الأدوات والأغطية ويركضون باتجاه مركبة مفتوحة من الخلف تنتظرهم، ينزل الطبيب من سيارة المشفى المغادرة ويركض نحو امرأة تقود أولادها على عجل، ‹هل تأخذين هذه الطفلة معك فلا أهل يستلموها فالكل غادر ولربما استشهدوا، اسم عائلتها مدون على سوار بمعصمها›، يسير خطوة نحو الخلف ‹عمرها يوم واحد فقط تحتاج إلى الرضاعة والدفء› يستدرك ‹لا لا بل تحتاج فورا إلى حاضنة› ويمضي.. كانت تلك كل الكلمات التي اختصر فيها الطبيب قصتها، القذائف تتهاوى

وصوت الرصاص يستصرخ «حيًا على الموت» تحملها المرأة دون نقاش وتمضي السيارة في طريقها.

عينان مفتوحان ترقبان ما يجري دون فهم، وجسد نحيل لا يصل وزنه حد الكيلوغرام الواحد يلتصق جلده الرقيق ببعضه محدثا تسلخات حادة، أطراف بالكاد تتحرك، وشفاه جافة، تتجاوز السيارة السماء النازفة موتا فوق تلك المدينة لتصل قرية خارجها، ترقب المرأة عيني الطفلة وهما تغربان كشمس آخر النهار لتعاودا الإشراق الخافت، تطلق الصوت هذه الصغيرة تحتاج فورا إلى طبيب، ماذا نفعل بها؟ لا جواب، صيدلية البلدة الصغيرة المجاورة أمامهم، تنزل المرأة وهي تحمل بين ذراعيها الطفلة تشرح القصة لصاحب المكان، يصدمها بالجواب فليس لديها المزيد من الأعصاب لتحمل أيّ ضغوط أخرى «ليس هناك طبيب أطفال هنا، المستوصف مغلق منذ أيام ولا يوجد حواضن فيه بالأصل»، ويكرر «عليك إيصالها إلى دمشق هناك فقط يمكن لها أن تعيش»، تزفر المرأة بينما عقلها معلق بابنها البكر الذي رفض المغادرة وأصر على البقاء للقتال دون بيته.

الحواجز تقطع كل الطرق المؤدية إلى دمشق حتى العصافير لا يمكنها أن تصل هناك فكيف بهذه العائلة ومعها شابان يافعان سيكونان فريسة سهلة للاعتقال الفوري أو الإعدام الميداني أمام أمهما فهما من أبناء هذه المدينة المغضوب على بشرها وحجرها، تصمت المرأة تحمل علبة الحليب ككنز وتغادر نحو تجمع للنازحين ضمن مدرسة شبه مدمرة.

سبعون أو ثمانون ما بين طفل وامرأة ورجل من نازحي مدينة دوما جلهم أقرباء يضمهم فناء مدرسة مغلق، من الصعب تذكر تلك الفتاة وحاجتها للحاضنة في جحيم تلك اللحظات وكل عائلة تحاول لملمة أفرادها والاطمئنان عن كونها لم تنس أحدا منهم وتحاول التواصل لتجمع الباقين وتتأكد من أنهم لازالوا على قيد النزوح، وحدهما عينا تلك الطفلة كانتا تطرحان الأسئلة بصمت وماذا عني؟ هل عليّ أن أغادر؟ هل لي أهل أو مكان؟.. ست ساعات منذ أن غادرت الحاضنة حتى اللحظة، بضع قطرات من الماء المحلى بالسكر سقطت في فمها فقط، الهواء ضاغط والأنفاس خانقة من العدد الكبير والإغلاق، برد تشرين الممزوج بالحرب والموت السهل يفتك بالجميع، المرأة تحضنها بخوف يغلفه قلق شديد واضطراب يرسمه غياب بكرها، تنظر في عيني الطفلة التي يتجمهر حولها عدد من الأطفال النازحين مندهشين من حجمها الضئيل، تنازع طفلة صغيرة المرأة في حمل تلك «المولودة» ظنا منها أنها لعبة صغيرة، فيما يبدو بأن الموت بدأ يتسلل ليدب أنيابه في روحها ويستلها، أغمضت عينيها وبدأ زبد رغوي يخرج من فمها بعد أن أعطتها بضع نقاط من الحليب .

تحاول المرأة جهدها أن تدفئ الجسد الضئيل ولكن دون جدوى، قطرات الحليب التي تحاول ضخها عبر أنبوب صغير داخل فمها تصطدمان بحاجز ما لتعيد الصغيرة تقيأها خارج فمها، تتلوى، شفتاها تزرقّان والصفرة تجتاح وجهها كلما كررت المرأة محاولة مدها ببعض السوائل، تصرخ شابة وتبكي إلى جوارها.. ماتت، يتجمهر الجميع بوجوم وترقب حول كرة اللحم الصغيرة الملفوفة المغمورة بالقماش وعيون الأطفال تجمد، ينتبه الجميع لتصبح هي المركز، تحاول المرأة انتزاع الطفلة من بين كومة القماش لعلها تتنفس، لا زال جسدها ملفوفا بالقطن، تضع يدها على قلبها؟ تصرخ.. لا زالت حية هناك نبض، يبحلق الصغار بعيون اعتادت أن ترتعد ففي هذه اللحظات سيواجهون من يخافون ومن يهربون من براثنه وهو يفتك بتلك الصغيرة أمامهم ويتعرفون إليه وهو ينازعها حياتها.. إنه الموت في معركته مع الحياة .

تتدخل امرأة أخرى وتمسح محيط أنفها بقطنة بللتها بالكحول، تفتح «الخديجة» عينيها كشعاع يتدفق بالثناء، تمسح - هدى - اليافعة ابنة العائلة التي جاءت بالصغيرة دموعها وتصرخ لازالت حية.. تغالب دموعها من جديد وتتمتم «يا رب ما تموت.. يا رب تعيش وتلاقي أهلها»، تنقسم الآراء والمواقف وتزداد حرارة المكان والمواقف وتغدو الطفلة هي القضية العامة، وركنها حيث مددت كبتلة ذابلة بات أشبه بالمزار، وأصوات حولها تتمتم «دعوها تموت فترتاح نحن بالأصل ليش لسا عايشين بهالوضع التعس؟ لن تعيش حتى الصباح تحتاج حاضنة.. أهلها استشهدوا وبقيت وحيدة.. هل من مرضعة هنا؟ حليب الأم يحييها.. دفنوا جسدها.. غبرة الموت على وجهها دعوها تمت بسلام.. تحتاج طبيب.. جو المكان سيقتلها.. لا حل سوى نقلها إلى مشفى في دمشق» كانت تلك الكلمات تشعل المكان القريب منها .

انتابت المرأة التي جاءت بها موجة غضب وكأن أفعى لسعتها من عينها.. هو التوتر الذي يسيطر عليها وشعور بخطر شديد يتهدد ابنها، رمت بالطفلة وقالت خذوها هي مشروع ميت لماذا لم يحضر حتى الآن؟ تتساءل دون تحديد المعني غير أنه من المؤكد ابنها .

ماتت الطفلة وعادت أكثر من عشر مرات خلال الليل، فيما قامت إحدى النساء النازحات في ذات المكان بنقلها إلى غرفة جانبية فارغة علها تستطيع العناية بها، «جميلة هربت من براثن الوحش، هل نتركها للموت» تسأل المرأة نفسها وهي تحملها؟ تلامس وجنتيها الرقيقتين برؤوس أصابعها وتخاطبها وهي تبكي.. لا تموتي لو بقيت صامدة حتى الصباح أعدك بأني سأوصلك بنفسي إلى المشفى وستعيشين لأنك قوية».. ومع أول خيوط الصباح كانت الصغيرة لا تزال تجاهد بين يديها من أجل الحياة وكلاهما على الطريق المؤدي إلى دمشق بعد أن ساعدها الحظ على الاتصال بإحدى صديقاتها في دمشق والتي تعهدت بتأمين حاضنة طبية للصغيرة، الكل ينظر للمرأة التي شاركتها ليلتها ووعدتها بنقلها إلى دمشق في هذا الجو من الرعب والحواجز على أنها مجنونة ولربما شجاعة ولكن كان تعليق الجميع يذهب للخيار الأول؛ بدأ الكل يلاحقها بالسؤال:

- كيف ستغادرين واسمك معمم على الحواجز؟ ستعتقلين هذا انتحار.

كانت تلك المرأة إحدى المتهمات بطلب الحرية في «مملكة بشار الأسد»، أغلقت باب السيارة وبدأت العجلات تطوي المسافات حتى بلغت الحاجز العسكري الأول.

رجل يقود السيارة وشاب مرافق وسيدة تحمل وليدها الحديث بين يديها، مشهد طبيعي يدقق العناصر في بطاقة السائق والمرافق ليسا مطلوبين، فيما النفساء «المفترضة» تحمل وليدتها غير عابئة بشيء آخر وتتلوى من تبعات الولادة، يفتش العناصر السيارة يرمقها الضابط بنظرة متفحصة وبتهكم يقول لها « لسا بدكم أولاد؟ ما كفاكم إنجاب إرهابيين جدد؟ ومع اللامبالاة وعدم الاكتراث والإيحاء بالألم الذي تبديه يكتفي بالسخرية منها دون طلب البطاقة الشخصية ويتركهم يغادرون، الطفلة تزرقّ شفاهها من جديد، أكثر من ستة عشرة ساعة مضت وهذه الصغيرة دون تغذية وهي تغط في موت مؤقت ومن ثمّة تعود، عدة حواجز مروا عليها كانت العناية الإلهية ترافقهم حتى وصلوا المكان المعتمد.

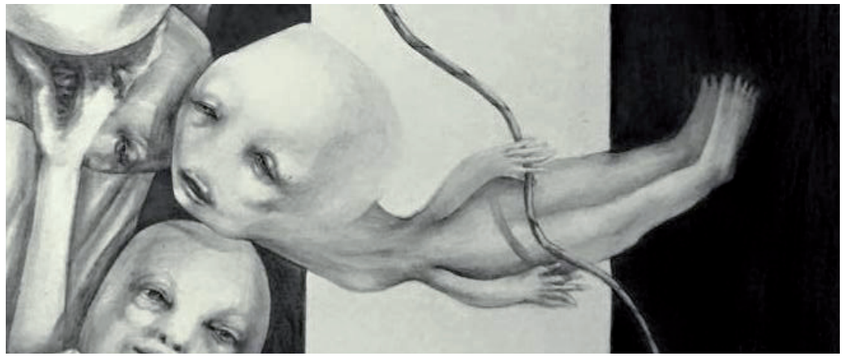

حنان وأمها - اللتان تم الاتصال بهما لغرض المساعدة -تنتظران على الطرف الآخر هناك في دمشق دون معرفة تامة بالتفاصيل، فجميع الاتصالات كانت مقطوعة عن المنطقة المحيطة بدمشق وقد استطاعت السيدة التي نقلتها تأمين الاتصال بهما عبر هاتف أرضي لإحدى الدوائر الحكومية التي دخلتها خلسة الليلة الماضية بمساعدة أحد أصدقائها، بضع كلمات هي كل ما قالته السيدة لصديقاتها عندما سلمتها لهما «تحتاج حاضنة لتعيش، إنها بطلة، أهلها ضائعون ولربما أنهم استشهدوا، هي قوية وتريد الحياة تنازع الموت منذ البارحة ولا تستلم له،عليكم بإنقاذها فهي أمل يجب أن يحيا وقضية ينتظر النازحون هناك أن يكسبوها».

رحلة صعبة كانت تنتظر الصغيرة في مشافي دمشق التي ترفض استقبال أيّ من أهالي المدن «الثائرة » المغضوب عليهم حتى تتمكن من الحصول على «بيت لاستنبات حياة لها»، تحمل السيدتان الصغيرة وتتوجهان نحو إحدى المشافي، الصغيرة تحتضر هكذا لاح لهما فلم تعد تفتح عينيها، صدمة أولى نالتهما حين رفضت المشفى الأولى استقبالها دون أوراق رسمية، تحكي أم حنان - السيدة الخمسينية- القصة للطبيبة التي تتأثر بشدة بها وبكون الطفلة قاومت ليومين الموت حتى وصلت إليهم وبأن والديها لربما استشهدا وتركاها وحيدة.. تؤكد الطبيبة بأنها تتمنى المساعدة غير أن تبعات ذلك قد تكون مدمرة على مشفاها وتساعدهم بإرسال الطفلة إلى مشفى أخرى، ومن مشفى إلى أخرى ومن طبيب إلى طبيب تجدان أخيرا من يجرؤ على إحياء الصغير في حاضنة مشفاه، يقول لهم الطبيب بأن قلب الصغيرة ورئتيها غير مكتملين وبأن جسدها بدأ يجف بشكل كبير وبأنها تحتاج إلى علاج فوري ومكلف وإلى حاضنة.

تتسربل الحياة في عروقها وقد جمعت الصغيرة حولها الكثير من فاعلي الخير ومحبي الحياة لم تكن مجرد مولودة، كانت ابنة المدينة الثائرة وابنة الحلم الذي لن يُقبل أن يموت وابنة شهيدين مفترضين، وابنة الحياة التي تمسكت بها حتى قبضت على شرايينها.

المعارك لا تزال مستمرة في مدينتها ومواكب الراحلين لازالت تُسَيِّر قوافلها فوق أديم أرض ثائرة تتوق للخلاص وحلم تعب أنهكه الانتظار والوعد والوعيد، وصرخة سمعتها حنان عبر الهاتف من الجهة الأخرى «ليست يتيمة، وجدنا والدي الصغيرة..»، عبارة اختصرت رحلة البحث عن ذويها فقد كان الجميع يظن بأن أم الطفلة وأباها استشهدا إثر قصف سيارتهما أثناء مغادرة المشفى في الليلة السابقة لإفراغ المشفى، ما يقرب من العشرين يوما وأم الطفلة وأباها هائمان على وجهيهما في مناطق النزوح لا يعرفان شيئا عن مصير تلك الصغيرة.. حتى وصل إليهما الخبر الذي قرأه شخص ما على إحدى الصفحات الإنترنت، يحكي قصة الطفلة ويسرد مراحل رحلتها ومن أين بدأت ويسأل عن أهلها، كان ذلك كل ما تحتاج إليه لتصل أخيرا إليها، وتحملها بين ذراعيها وتعطيها اسما.. فاطمة..

عيون فاطمة مرايا واقع بائس والأنابيب الطبية التي زرعت في أنفها ورئتيها كانت شرايين الحياة ودفاعاتها في مواجهة أنياب الموت، نقطة نقطة كانت تأكل وتشرب وتكبر المهم لا تزال حية، مئات آلاف من سكان منطقتها يهيمون على وجوههم من النازحين، بعضهم يفترش المعامل وآخرون المدارس والمشافي المدمرة وبيوت دون أسقف ومحال تجارية بلا حمامات أو مطابخ فقط جدران وأبواب كلها تحولت إلى مأوى للنازحين وحلم بالعودة إلى مدينة بلا موت يراود الجميع، لم يكن حال عائلة فاطمة مختلفا ومع ذلك عادت وأمها لتشاركا الجميع ذلك الضنك .

تفككت الحواجز العسكرية التابعة لجيش الأسد في داخل الغوطة الشرقية وهرب عناصرها نحو الخارج وأعلنت دوما والغوطة الشرقية منطقة محررة.. تحررت الأرض وبقيت السماء مصيدة للحياة تزخر برعود الطائرات والصواريخ، وبينما عاد النازحون إلى بيوتهم وقد نزل عن كواهلهم عبء رؤية جنود النظام بينهم وقعت الغوطة بأسرها في مصيدة الحصار والفوضى الكل سجين بعد أن أطبق الهم بمخالبه على الأهالي وبدأ يغرز أنياب الجوع والمرض والحسرة في أجسادهم، جُنت فوهات البنادق التي حررت المدينة، واستنفرت دون اتزان، ومع غياب مؤسسات الدولة التي دمرها القصف وهروب كوادرها تقوّض القضاء وارتهنت المحاكم، وتربع الخوف من جديد سيدا وابتلعت الكلمات.

لم تكد فاطمة تتعرف رائحة أباها وتتعلم المناغاة بلفظ اسمه حتى أكله غياب الأمن، اختطف والد الصغيرة وغاب له كل أثر لربما قتل أو اعتقل أو لعله خطف لا جواب.. البعض قال اعتقله جيش بشار على أحد الحواجز حين كان يحاول الخروج من سجن الحصار عبر أحد حواجز النظام لتأمين خبز بيته وحليب طفلته. وآخرون ينكرون ويقولون ابتلعته أشباح المدينة كما ابتلعت غيره عندما غاب الرقيب، فقدت فاطمة «ابنة الحياة» والدها منذ عام ونصف دون أن يمنحها صفة اليتيمة بشكل مؤكد كما منح عشرات الآلاف من أطفال سوريا غيرها .

داخل أسوار الحصار تعيش الطفلة فاطمة اليوم وهي تتزين بوردة عمرها الثالثة دون أن تتمها بعد، وحيدة مع أمٍّ يسكنها الانتظار والترقب، تجوعان وتعريان وتحلمان، ومع إشراقة كل شمس تفتح المدينة السجينة نافذتها لتطل منها على وجه فاطمة وتعيد شحن إيمانها بأن الحياة إرادة مهما ضاقت فرصة العيش، وبأن المخاض لا بد أن ينتهي بولادة، عاشت فاطمة بينما لا زالت المدينة تبحث بين مفردات الموت عن أسباب الحياة.

كاتبة من سوريا مقيمة في مصر

الداخل

إلى فجنون

سعد القرش

من الخارج، يبدو المكان كأنه غيط مهمل.

تتداخل فروع الشجر، بما يوحي بعدم العناية. وحول بوابة واطئة، لا يعرف الداخل أنها مفتوحة أو مغلقة، تتجمع أوراق الخريف. وإلى يمين الداخل، خُصّ معتم، تثقبه شرائح الضوء. أما البواب الكهل فغير منتبه، ربما ثقة منه بأن الداخل يعرف طريقه.

ينزلق الشاب إلى المكان. يحاول التخلص من أوراق أشجار غمرت قدميه، ويخفي ارتباكه بالنظر إلى الشيخ المتكئ على أريكته، بالقرب من البوابة. يقول الرجل وهو يمد وجهه إلى شريحة من النور، في موضع محدد تماما، وكأنه يعرف الشاب:

ـ أهلا يا حسن!

يبتسم الرجل بخبث لا يخفى على الشاب، ويبدو فمه خاليا من الأسنان، ثم يخفي في العتمة تجاعيد وجهه.

يتفادى حسن منحنيات، وعيدان ذرة متناثرة، على جانبي طريق، أشبه بمدق للسيارات. ثم ينقذه الدليل الذي استدعاه أمس. في المسافة الممتدة من البوابة إلى العالم الغريب، لا يسمع شيئا من كلام كثير يقوله الدليل. يسيطر عليه ذهول التجربة الأولى، في مكان لا يشعر فيه أحد بأحد، إلا من يريده: لا شيء منسقا، فوضى تسحر العين، يتحرك كل من بالداخل كما يحلو له. صبيان وبنات، فتيان وفتيات، سيدات رشيقات، شبان حليقو الرؤوس، وآخرون مرسلو الشعر، رجال سمان تمتد كروشهم بما لا تصل إليه أيديهم. عراة أو يرتدون حللهم كاملة. على الأرض مباشرة، أو فوق أسِرة أو أرائك، ثابتة أو تهتز في الهواء، بلا عُمُدٍ يراها، تحت أشجار مختلفة الأنواع، لا تثمر كلها في فصل واحد من العام، ولكنها الآن مثمرة، رغم هذا الخريف الذي لا يتجاوز البوابة.

يبحث بنظرات زائغة عن اتجاه البوابة، ولا يعثر عليها. يسأل نفسه: هل ألغوا الطريق؟

ينهاه الدليل عن أيّ محاولة للهروب:

ـ اسمع يا حسن، شرحت لك «أنهم» يطلبون منك أن تحضر زوجين، على استعداد لتنفيذ أيّ تكليف، يفضل أن يكونا مستعدين للعب الدورين، مع أيّ أحد هنا.

يفيق حسن، ويدرك للمرة الأولى خطورة الأمر، ويحاول التحكم في انفعاله.

يواصل الدليل ببرود:

ـ في المسافة من البوابة إلى هنا قلت لك هذا، ولم تعترض.

ـ لم أسمع شيئا، وأريد إعفائي. لا أنا أعرفك، ولا أنت رأيتني.

يبدي الرجل تعاطفا حقيقيا، ويبدو عاجزا عن المساعدة:

ـ مع هؤلاء الناس، لا داعي للمغامرة، أو التذاكي. حدث خطأ بسيط في الإبلاغ، مجرد تشابه في الاسم، مع شاب عاطل مثلك، اسمه حسن أيضا، دلنا عليه قواد سابق. ساعِدْني على إتمام اللعبة للنهاية، ليلة واحدة تمر بسلام، حتى لا يسمع بنا أحد.

يفرك حسن عينيه غير مصدق، يريد أن يتأكد أنه ليس ضحية كابوس:

ـ لا تحاول أن تدفعني للجنون. أنا لم أر أحدا ولا شيئا، ولا أعرف هؤلاء.

يختفي الرجل بلا مناسبة، ويمتد الخلاء باتساع القدرة على الرؤية. يسأل نفسه: هل كانت بالمكان أسوار لحظة الدخول؟

يتذكر أنه رأى مصابيح متناثرة بلا ترتيب، بلا أعمدة، كأنها معلقة بسقف سماء أشبه بخيمة كبيرة. الآن لا يزيد عددها كثيرا. فهل تنتهي حدود هذه الساحة حيث تلتقي بها السماء؟ ومن أيّ طريق يبدأ الهروب؟

يفاجئه الدليل:

ـ يجب أن تنتهي المهمة بسلام.. سلامك أنت. لا تفكر في الهروب مرة أخرى.

ـ ما الخطورة في خروجي؟

ـ الخطورة أو الخطأ في الدخول. يجب إتمام المهمة.

ـ طمْئِنْهم تماما، كأني لم أدخل.

يبتسم الرجل من طيبة قلب الشاب:

ـ هؤلاء لا يخافون شيئا ولا أحدا. لا سيادة هنا لأحد عليهم. شعار المكان «افعل ما تريد، وما يريد منك الآخرون: لا ترفض لأحد طلبا ولا أحد يرفض لك طلبا». كل شيء مباح.

ـ هل يشملني الشعار؟

ـ نصفه فقط.

ـ والله ما أنا فاهم، أخرجني من هذا الكابوس، بدلا من الفضيحة.

يضحك الدليل، سخرية وإشفاقا:

ـ في قاموس المكان وقانونه، لا وجود لهذا المصطلح، هذه كلمة لا تعني شيئا. خارج البوابة تسترد الفضيحة هيبتها.

يهمس الشاب لنفسه أن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج من قواد. فيلومه الرجل على إساءة الظن:

ـ لا أحاول إيذاءك بكلمة، فلماذا توجه إليّ هذه الإساءة؟

تسيطر عليه الدهشة، من قدرة الرجل على قراءة أفكاره. يشعر حسن بالحرج للمرة الأولى:

ـ ماذا تكون؟

ـ هذا لا يعنيك، اسأل نفسك أولا، من تكون الآن؟

يتوسل إليه بصدق طالبا إخراجه:

ـ لم أخطئ في حقكم، ولا استدعيت نفسي.

يهز رأسه:

ـ ولكنك رأيت، ومن يعرف يصير جزءا من قانون المكان.

ـ قانون المكان أن كل شيء مباح، وأنا لا أعترف به. ولم أمدّ يدي

فرج عبو ←

إلى ثمرة في الحديقة.

. ولكنك مددت عينيك. هل تنكر أنك رأيت. رأيت كثيرا. أكثر مما ينبغي، لمن ينشد الخروج.

يحس بالحرج، ويقدر أن هذا الواقف أمامه ليس مجرد قواد، بل يعرف عنه كل شيء: ما فعل، وما رأى، وفي أي شيء يفكر، وما ينوي عمله. يهم بالسؤال، فيعاجله الدليل:

. قلت لك إن نصف شعار المكان يشملك «افعل ما يريد منك الآخرون، ولا ترفض لأحد طلبا».

قبل أن يفكر حسن في الرد، يختفي الدليل، وتهبط فوق كتفه يد دقيقة التكوين، لا ظل لأصابعها المنحوتة التي يحبها، في غير هذا الموقف. تسأله:

. جربت أن تحمل امرأة في غابة؟

يجيب كالمسحور:

. حملت نساء، بعيدا عن الغابة.

ينتبه لخطوها الرهيف، كأنها تسري ولا تسير، لا صوت لوقع قدميها. ويستدرك:

. لكنّي لم أجرب أن أحمل ملاكا.

يتحدث بتلقائية تخلو من المجاملة، وهي تبتسم:

. احملني وتكلم، أريد أن أسمعك.

تستقر في منتصف المسافة، بين الصحو والنعاس، وتواصل الهمس:

. حين أشير إليك توقف، لنستمتع بلذة الصمت.

يرنو إليها، وهو مسحور، ويسأل نفسه: هل تحركت شفتاها حقا؟

يحملها فتلتصق في وداعة بصدره. يمرق من بين أجساد لبشر لا يشعرون بهما، ولا ينصتون لكلامه إليها: عن أهله، وحكاية استدعائه، وتهديد الدليل له. وهي كأنها غائبة عنه، لا تسمع. إلا أنها تتوقف موضحة:

. لم يهددك، بل أبلغك!

يستريح لكلامها الودود، ويسألها عن كيفية الخروج، فتتسرب من بين ذراعيه. يستدير عائدا، فينسدّ أمامه الخلاء. ويجد الدليل عنده، بالضبط أمامه.

يأمره «أحدهم»، فيستجيب. يتذكر نصف الشعار «افعل ما يريد منك الآخرون، ولا ترفض لأحد طلبا». يخشى أن يصير مَطِية لصاحب هذا الجسد. يعز عليه جسده، فلم يفكر يوما في أن يقربه أحد.

يتلكأ قليلا. يتأخر خطوات عن السائر أمامه بثقة. يسمع منه تحذيرا، من غير أن يستدير.

دون أن يدري، يطلق حسن صيحة «لا». ويمضي الرجل، وتتكون دائرة من الأجساد حول حسن. ويعنفه الدليل:

. تصر على اختراق القانون؟

. أيّ اختراق؟ وأيّ قانون؟

. لم تُسمع هنا كلمة «لا»، والغريب هو الصيحة.

. فاتني أن أستغيث بشياكة!

يشير إلى لا أحد، حيث لا ظل لذراعه:

. خذوه.

يمضي حسن مسبوقا برجل، ومتبوعا بآخر، في طريق كأنه أعد الآن. وقبل نهايته، يفاجأ بأن جدرانا نبتت للطريق، فيصبح ممرا مكسوا، بإضاءة خافتة، وتمتد جدرانه إلى حيث يصل بصره.. ارتفاعا وطولا. وكلما أوشك الممر على الانتهاء، وجد بوابة واطئة، لها اتجاه واحد، إلى الداخل. ثم ينشق الجدار عمن يقفون بانتظاره. يشيرون إليه، فيدخل وينسحبون.

ينفتح الباب قبل أن يدفعه حسن. لا يسأله الجالس عن شيء، بل ينظر إليه، ويسجل أشياء، تملأ ملفا من الصفحات. يكاد حسن يسأله من أين يستمد هذه السرعة في الكتابة. ويهز رأسه في غير أسى:

. لو لم تقل «لا» لهان الأمر، ولكنك قلتها في صيحة، غير محسوبة ولا مسبوقة.

قبل أن يفتح حسن شفتيه، للإيضاح، ينفتح باب. يحمل الرسول الملف، ويتبعه حسن في صمت. ثم يسلمه إلى باب آخر، ينفتح تلقائيا. يتصفح الملف في لحظة يشعر حسن أنها كافية لمثله، لالتهام التفاصيل المكتوبة. يستعد للكلام، للرد، للاعتذار حتى، ولكن الجالس، كأنه نسخة من السابق، ينظر إليه بعينين تخترقان ثياب حسن وجلده إلى دمه، وأيامه الماضية. ويكتب تقريرا آخر في بضع صفحات، ثم يغلق الملف:

. لو لم تقل «لا» لهان الأمر.

يفتح حسن فمه، فيمد الجالس يده بالملف، إلى من هبط إلى المكان لتوه. ويذهب به إلى الذي يقرأ الصفحات القليلة، ببضع هزات من رأسه، بنظرات هابطة إلى أسفل. ويكتب تقريرا في صفحة واحدة:

. لو لم تقل «لا».

يوشك حسن على الانهيار، يريد أن يصرخ، إلا أن صوته ينسحب تماما. يريد استدعاء الصرخة، وهي تستعصي عليه. يمضي في صمت وراء حامل الملف، يناديه فلا يرد. يشعر بالإهانة، ويسرع قليلا، ويمد يده إلى كتفه، فيحس فراغا دافئا.

في لمحة ينتهي من قراءة الصفحة الواحدة. يقول حسن:

. أنا..

لا يقاطعه، وإنما يسجل سطرا واحدا، ويعجز حسن عن الكلام، ويظل فمه مفتوحا بعد أن يُطْلِق أناه.

يقول من دون أن ينظر إلى حسن، ويد أخرى تمتد إليه، كأنها تهبط من فراغ، حيث لا سقف للغرفة:

. لو.

يدخل حامل الملف بسطر واحد، في ورقة بيضاء، وحسن ينتظر الدخول، ويراقب حركة باب وحيد، ينسد به الممر، ولا يسمح له بالدخول عَبْره مباشرة.

يقرأ ملامح وجه الخارج بعد أن ترك الملف، ويحدث نفسه: هذه فرصتك الأخيرة، بعد أن أطلقت صيحة جلبت عليك اللعنة، وما دام تقرير دخل، فإن بالغرفة شخصا ما، لعله كبيرهم، وإليه ينتهي الأمر كله، ولا وقت لديه لقراءة أكثر من سطر واحد. ماذا لو اقتحمت عليه وحدته، وأبلغته شكايتك؟ لن تخسر كثيرا، ربما لا تخسر شيئا. قل له: ليس كثيرا عليك، يا سيدي، أن يقول فرد واحد «لا» واحدة، بعد ليلة من الطاعة لم تختبرها، ولم تتعمد المجيء.

في لمحة، يتحسس طريقه، في غفلة من الخارج المطْمَئِن، فيجد الملف موضوعا بعناية، فوق ديوان فخم، في غرفة ليس بها أحد.

ينغلق الباب فجأة، وتنفتح نافذة، حيث لا جدار، على حريق بلا حدود.

الهرم- يوليو 2003

كاتب من مصر

قصتان

سعد هادي

حياة مستعملة

وصل الصبي بمشقة إلى الباب الخلفي للحافلة وانتظر دوره للنزول ولكن أحد الركاب نبّهه قائلاً:

• هذا الباب عاطل، اذهب إلى الباب الأمامي.

رفع كيسه الأسود الضخم، كيس الأزبال وانحشر ثانية بين الأجساد المتلاحمة محاولاً اختراقها تاركاً للكيس أن يتأخر عنه أو يتقدمه بمقدار ما تتيحه المسافات المتروكة بين أرجل الركاب الواقفين وأفخاذهم وأعجازهم التي تفضحها الثياب أو تخفي عيوبها وأخطاءها وخطاياها، يدفعه مثل عربة أو يسحبه مثل صخرة آلام ويصغي بأذنٍ مثقوبة في تقدمه البطيء لتعليقات الجالسين والواقفين والمتشبثين بأطراف المقاعد، وفي اللحظة التي كاد فيها يصل الى الباب، اللحظة نفسها التي أوشكت فيها الحافلة على التوقف انفجر الكيس وتناثرت محتوياته، وتبعثرت على أرضية الحافلة كتب قديمة مهترئة، وسقط أيضاً بساط قديم ومروحة يدوية وإناء معدني لحفظ الطعام، وفي اللحظة التالية، لحظة إدراك المأساة رأى الصبي كتبه وهي تتحول إلى مخلوقات غريبة تتحرك إلى كل الاتجاهات: قنافذ تسعى تحت الأقدام، قردة كل منها بحجم إصبع تتسلق المقاعد، رؤوس تتدحرج في الفراغات، فراشات هلامية تطفو في الغبار اللامرئي الذي تفرزه الأفواه والأنوف والأعين والذي يختلط بدخان المحرك حيث يجلس نوح المعاصر، سائق الحافلة ومدبّرها والساعي بها في لجج النهار المتلاطمة وشعاب الأرض، رأى الصبي أيضاً أن بعض الصفحات المتناثرة من كتبه قد تحوّلت إلى سكاكين وأكواب وملاعق وصحون ومفكّات ولوالب ومسامير وأجراس أو إلى دمى من الحديد تتشبث بأيدٍ كأيدي الجبابرة برقاب الواقفين والجالسين ورؤوسهم وتمد أصابعها إلى سراويلهم وملابسهم الداخلية وأعضائهم، وفي ظلمة افترضها هو حلّقت خفافيش بيض من هشيم الأوراق المتساقطة وتحوّلت بعد اصطدامها العنيف والسريع بسقف الحافلة وزجاج نوافذها إلى أثمار جافة ونباتات دغلية وأعشاب وزهور ثم تبعثرت أسفل المقاعد لتصطدم بها القنافذ أو تدوسها حوافر خيول صغيرة تسللت من الباب الخلفي أو لتركلها بغال سود ذات أجنحة اقتحمت المشهد من فتحة التهوية في سقف الحافلة ثم رفعته فجأة من ياقة قميصه واحدة من الأيدي الشبيهة بأيدي الجبابرة وألقته من الباب المفتوح وخلال انتقاله من ظلمات العالم السفلي إلى أرض الواقع رأى الصبي سلسلة متعاقبة من الوجوه تصرخ به وتقهقه وتهمهم وتزفر وتتنهد وتتثاءب أو تمد ألسنتها لتلعق ما يمر أمامها من أجزاء جسده.

وقف على الرصيف وحيداً وبدأ الركاب يقذفون بالكتب إليه وكان أحدهم يصرخ بعنوان كل كتاب يسقط على الرصيف إلى جانبه وسط ضجة الأصوات التي تطالب نوح المعاصر بمواصلة الرحلة إلى غايتها: التربية العاطفية، الإمتاع والمؤانسة، الأبله، تهافت التهافت، ديوان البحتري، ملحمة كلكامش، الإلياذة، البخلاء، مسخ الكائنات، أنّا كارنينا، دون كيخوته، المأدبة، المسرات والأوجاع، رسالة الغفران، أنشودة المطر، بينما ذهبت العناوين الأخرى أدراج الرياح ثم ألقيت إليه بقايا الكيس وقذف أحدهم أيضاً بالبساط ووعاء الطعام الفارغ وودّعه الرجل ذو الصوت الأجش قائلاً:

• تحية لك أيها الزبّال الصغير ومرحى لأزبالك.

صنع الصبي على الرصيف تلاً صغيراً من الكتب الممزقة التي تتطاير أوراقها وأغلفتها ورسومها وخطوطها وكلماتها وجلس إلى جانبه واستعاد بقلب حزين صورته وهو يقبع كالمتسول تحت شمس الظهيرة على رصيف في "باب المعظم" إلى جانب باعة الخضروات واللحم والخبز والسكائر وأقفاص العصافير والثياب والأحذية القديمة وقارئي الكف وصباغي الأحذية، يطرد الذباب بمروحته عن الكتب وعن وعاء الطعام الذي وضعه الى جانبه ملفوفاً في جريدة، تذكّر أنه لم يبع سوى كتاب واحد بعد مساومة طويلة مع كهل أعرج عاد لمرتين ثم انتزع الكتاب مقابل دينار واحد، ها هو الآن يجلس إلى جانب حطام كتبه، قبعته هي وعاء الطعام وكوزه علبة صفيح وفراشه بساط ممزق، نظر إلى الأفق البعيد حيث يلعب صبيان في مثل عمره بكتب أبيه التي ظلّ يقول له عنها: هذه الكتب تشبه حياتي، إنها مستعملة أيضاً، سبق لأشخاص آخرين أن عاشوها من قبل إلى أن تهرّأت وامتلأت صفحاتها بالشخابيط وبصمات الأصابع، يصنع الصبيان من تلك الأوراق طيّارات تحملها الريح أو أقماعاً يلقون بها وهي مملوءة بالتراب في وجوه المارة أو يصنعون منها سلاحف تدبّ بين أرجلهم أو تتسلق سراويلهم أو يجعّدونها مثل زوارق تتهادى في بركة ماء آسن قريبة ثم ينظر إليهم وهم يرجمون بها شيخاً عابراً يتوكأ على عصا ويمضي وحيداً في ظلال آخر النهار، ينظر إليهم وهم يضحكون ويتشاتمون ويقرؤون أشعار الأولين التي تساقطت أوراقها بين أرجلهم بأفواهٍ مليئة بالرغاب، ساخرين منها ثم يمزقون الأوراق ويبولون عليها أو يدوسونها بأرجلٍ ذات حوافر فيردد مع نفسه مطلع قصيدة البحتري الأثيرة لدى أبيه: صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي، ثم يكرره لمراتٍ عدة كما لو كان يصلّي، ناظراً من خلال الدموع إلى صورة البواب ومخلوقاته بينما يتصاعد غبار الكلمات ورمادها وسلاحفها وأسماكها وديدانها وسكاكينها ومناشيرها وأكوابها وقنافذها وقردتها وخيولها وبغالها، حاملاً نشيد الفقر ونشيجه في خليط مدوّ لا يسمعه أحد سواه، إلى السماء، إلى الملكوت القصي.

ماتريوشكا

فتحث الكيس الذي لا يزيد حجمه عن قبضة يد وأفرغث المسحوق في وعاء زجاجي صغير ثم سكبث قدحاً من الماء فوقه وحرّكث المزيج ببطء حتى بدأ بالتماسك، لم تكن بحاجة لقراءة التعليمات

المكتوبة على الكيس ثانية، إنها عملية سهلة جداً، أشبه بإعداد كوب شاي أو فنجان قهوة أو قدح عصير، بعد أن يبدأ المزيج بالتخثّر ستضيف له بين لحظة وأخرى قطرة من السائل الموجود في القنينة الصغيرة المرفقة بالكيس وتستمر في تحريك المزيج لربع ساعة ثم تضع الوعاء في الثلاجة لعشر ساعات لتجد فيه بعد ذلك رجلاً صغيراً، عليها أن ترفعه بعناية وتغسله تحت حنفية المطبخ وتجففه وتذهب به إلى غرفة النوم وتضعه بهدوء على طرف وسادتها، عليها أن تطفئ أضواء الغرفة تماماً، لا ينبغي أن يكون هناك أيّ بصيص ضوء ثم تخرج وتغلق الباب. بعد بضع ساعات ستجد على السرير رجلاً كاملاً بالمواصفات التي أرادتها أو حددتها من قبل. ها هي تفعل الأمر نفسه هذا اليوم، كررت الخطوات التي حفظتها عن ظهر قلب ثم جلست على المقعد الوحيد في المطبخ، الساعة الآن هي العاشرة صباحاً، سيكون الرجل في شكله الأول جاهزاً عند الثامنة مساءً حين ستخرجه من الثلاجة وتذهب به إلى غرفة النوم وعند الفجر أو بعد ذلك بقليل ستحظى منه باللمسة الأولى أو بالقبلة الأولى أو ربما بأكثر من ذلك إذا كان المزيج من النوع الممتاز. ولكنها تذكّرت بقلق أنها اشترت بسبب نقودها القليلة مسحوقاً متوسط الجودة، وضعت النقود في الآلة الموجودة في البار الذي تذهب إليه بين حين وآخر في عطلة نهاية الأسبوع فظهرت لها خيارات محدودة، أقل بكثير مما كانت تتوقع، لم تجد بينها ما يخص لون البشرة ولا طول القامة ولا محيط الصدر ولا الوزن ولا حجم العضو الجنسي ولا مدة انتصابه، اختارت من بين ما رأته: لون أسود للعينين، أظافر قصيرة، قامة متوسطة، شعر أكرت، رائحة عرق اعتيادية، بشرة نحاسية، شعر كثيف فوق الصدر وفوق العانة ثم ضغطت زر الموافقة، بعد بضع لحظات هبط من خزان في الأعلى مسحوق حليبي فيه حبيبات زرقاء وخضراء وبنفسجية واستقر في كيس بلاستيكي رفعته عتلة معدنية ووضعته في علبة كارتونية كما امتدت العتلة نفسها إلى فجوة في الخلف وسحبت قنينة صغيرة وأدخلتها في العلبة ثم أغلقتها ودفعتها لتخرج من فتحة أسفل الواجهة الزجاجية التي شاهدت المرأة كل ما جرى من خلفها.

أعدت لنفسها كوب شاي ودخّنت سيكارة ثم فتحت المذياع، سمعت خبراً عن سقوط طائرة في مكان ما ثم خبراً عن بقرة ولدت عجلاً بثلاثة رؤوس وخبراً آخر عن سرقة تمثال من متحف في البرازيل، حرّكت مؤشر المذياع فانبعث صوت موسيقى صاخبة، أغلقت الراديو وذهبت إلى الحمام، جلست على مقعد المرحاض للحظات ثم خلعت ثيابها واستحمت وخرجت عارية إلى غرفة النوم، تمددت على السرير قليلاً ثم نهضت وارتدت أفضل ما لديها من ثياب وتعطّرت وحملت مظلتها وخرجت، لم تكن تعرف إلى أين تذهب، دخلت أولا إلى متجر كبير وتجولت في ممراته وبين طوابقه، اتصلت بصديقة لها من تلفون عمومي ولكنها لم تجدها، ظلّ التلفون يرن في الجانب الآخر دون رد. جلست على مقعد في موقف للباص ثم في حديقة صغيرة، رأت أوراق الأشجار تتساقط من حولها وكانت ريح الخريف تنقلها من مكان إلى آخر، مضى الوقت بطيئاً، ذهبت إلى بارها المفضل، جلست وحدها في إحدى الزوايا، كانت هناك مرآة أمامها، نظرت وهي ترتشف ببطء قدح البيرة بالليمون إلى وجهها الشاحب فيها، شعرها الرمادي، عينيها الذابلتين خلف النظارة الطبية الغامقة، رقبتها النحيلة الضائعة في ياقة قميصها الوردي، التفتت فرأت الآلة التي أخذت منها مسحوق الرجل قبل أيام، قالت لنفسها: أيّ نساء سعيدات أولئك اللواتي يذهبن إلى الآلة بين يوم وآخر ليضعن النقود ويخترن رجلاً بالمواصفات التي يرغبن بها ثم يفعلن معه كل ما يردن أو يشتهين وحين يتهالك ويوشك جسده على الذبول، يحملن ذلك الجسد ويحشرنه في كيس قمامة ويتخلّصن منه أو يتركنه في الثلاجة عسى أن ينهض ثانية أو يحنطّنه داخل علبة ماتريوشكا إلى الأبد. طلبت قدحاً آخر من البيرة، جاء به النادل العجوز وقال لها وهو يضع القدح على المائدة المدورة عبارة ما لم تنتبه لها أو لم تسمعها، حين ابتعد قالت لنفسها: ربما أراد أن يغازلني أو يتودد إليّ، لا بأس هو يفعل ذلك مع كل النساء. فتح هو مسجل الصوت واختار أغنية قديمة تعشقها، نظرت إليه بامتنان وابتسمت ولكنها لم تقل شيئاً، دخل رجل وامرأة وجلسا في الجانب الآخر من البار وأعقبهما رجل وامرأتان جلسوا إلى مائدة قرب الواجهة الزجاجية، فكّرت أنها بحاجة الى أحدٍ ما لتتحدث معه، لا يهم ماذا ستقول، تريد أن تفتح شفتيها وتحرّك لسانها وتقول أيّ كلام، هل سيكون بمقدورها أن تأتي بمخلوقها غداً إلى هنا؟ تجلس معه في إحدى الزوايا، تتركه ليتحدث وتصغي له أو تتحدث هي وتجعله يصغي لها، هل سيصمد جسده بمواصفاته المتواضعة إلى الغد أم سيتداعى ويتلاشى؟ ستحاول أن لا ترهقه كثيراً، ماذا عن الرجل الذي يجلس في الجانب الآخر من البار؟ هل باستطاعته تلبية رغبات المرأة التي تجلس أمامه مهما كانت جامحة أو غريبة؟ هل هو حقيقي أم مجرد كائن مؤقت صنعته بيديها؟ لديه على أيّ حال كل ما يعجبها: وسيم وأنيق وله نظرة عميقة ساحرة، ترى كيف هي نبرات صوته؟ هل هي عميقة أيضاً؟ لم يكن بإمكانها أن تسمع تلك النبرات، كان يتحدث بصوت منخفض وهو ينحني على المائدة طوال الوقت، حاولت أن تجذب انتباهه ولكنه لم ينظر إليها ولا مرة، لا شيء يلفت الانتباه في هيئتها، هي بقايا امرأة أو ظلال لتلك البقايا، شربت ما تبقى في القدح ثم خرجت، ظلّت تتخيل وهي تنظر إلى وجوه الرجال الذين يمرون بها شكل الكائن الذي ستمتلكه هذه الليلة، الرجل الذي صنعته بيديها، الذي دفعت من أجله ما ظلت توفره منذ شهور، لم تكن ثملة، سارت ببطء نحو البيت، سلكت شوارع فرعية لتقتل ما تبقى من الوقت، حين وصلت نظرت إلى الساعة، نصف ساعة أو ربما أقل تفصلها عن الموعد، استبدلت ثيابها وذهبت إلى المطبخ، نظرت من خلال النافذة إلى الخارج، الشارع مظلم وثمة ظلال متعجّلة لأشخاص يمرون على الرصيف المقابل، فتحت قنينة نبيذ وصبّت لنفسها كأساً صغيرة، ظلّت تأخذ رشفات صغيرة منها وهي تنظر بقلق إلى الساعة. عند الثامنة تماماً فتحت الثلاجة وأخرجت الوعاء المستطيل ووضعته على المائدة، رأت كائناً صغيراً في حجم فأر يستلقي في أسفله محاطاً بسائل جلاتيني غامق، انتابها وهي تنظر إلى ذلك الجسد الغريب شعور بالمهانة، هل يرتبط ما تفعله بالخطيئة؟ كيف ستحتمل وجود هذا الكائن بعد سنوات طويلة من الوحدة، كيف ستتعامل معه خارج السرير؟ كيف سيتعامل هو معها؟ كيف ستفسر له وجوده، انبثاقه من اللاشيء؟ هل ستخترع له تاريخاً، ما الذي يعنيه التاريخ لكائن مؤقت؟ كائن بلا ملامح يضطجع داخل الوعاء فاتحاً ساقيه وبينهما نتوء يشبه الدبوس، بطنه منفوخة ورأسه المجعد يتدلى على صدره المبقّع

ابراهيم الصلحي

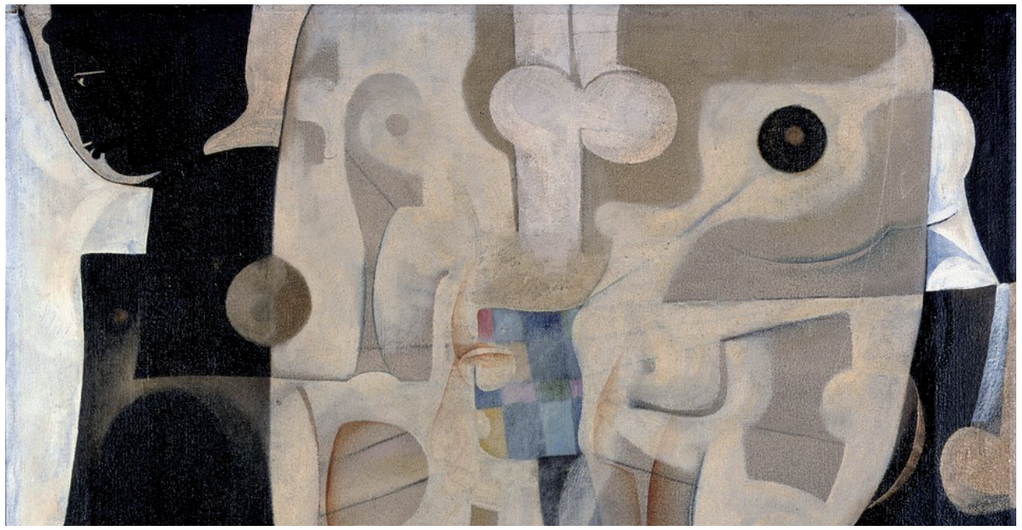

بالسائل الجلاتيني، أخذت الوعاء إلى الغرفة، وضعته على الوسادة وأطفأت الضوء ثم عادت لترتشف ببطء كأس النبيذ وتواصل أحلامها الجسدية: ستفعل كذا وكذا معه، ستتخذ وضعيات ظلت تتخيلها منذ سنين، ستهمس في أذنه بكلمات لم تقلها لأحد، سترتشف قطرات العرق فوق رقبته، ستمرر لسانها فوق ذراعيه وتمرغ أنفها فوق شعر صدره، ستدعه يفعل ما يريد، ربما ستتولد لديه رغبات جامحة هو الآخر، تبدأ تلك الرغبات من الصفر ثم تصل إلى الذروة خلال دقائق كما تقول التعليمات على غلاف علبة المسحوق، ينبغي فقط أن تعرف المرأة كيف تحرّك غرائز مخلوقها. أخذتها تلك الأحلام بعيداً، تجوّلت في غابات مظلمة، هبطت إلى أعماق قصية وحلّقت مع ملائكة صغار لكل منهم أكثر من وجه، فرغ كأس النبيذ، لا معنى لكأس آخر، لا تريد أن تثمل تماماً، هي الآن عند حافة اللذة، لا تريد أن تنزلق إلى ما هو أبعد منها، وقفت لدقائق قرب باب الشرفة، استنشقت هواءً نقياً ثم ذهبت وهي تترنح إلى غرفة النوم، وقفت أمام المرآة، وضعت قطرات من العطر تحت أذنيها ومررت قلم الحمرة على شفتيها ثم خلعت ملابسها وارتدت قميص نوم قصير واستلقت على السرير، ظلت تنظر لدقائق إلى الكتلة الغامضة التي تتمدد بموازاتها، هل هي حقيقية أم متخيلة؟ هل كان تسلسل الخطوات صحيحاً؟ ربما أخطأت، ماذا سيحدث إذا كانت قد ارتكبت خطأ ما؟ هل سيتحول الرجل إلى رماد أم إلى وحش؟ من يدري؟ لا جدوى من الأسئلة الآن، ستكتشف كل شيء حين تستيقظ.

فتح الرجل عينيه، لم يعرف أين هو، حاول أن يتذكر متى جاء أو من أين جاء ولكنه لم يستطع، كل شيء غائم في ذاكرته، أدرك فقط أنه في غرفة مظلمة، يضطجع فوق سرير ضيق وإلى جانبه جسد ينبعث عنه صوت تنفس يشبه الصرير، أزاح الملاءة عن قدميه وجلس عند حافة السرير، مدَّ يده في الفراغ فوجد علبة ثقاب، أشعل عوداً واستدار، رأى وجه امرأة في البصيص الضئيل، كان مجعداً، ملطخاً بالأصباغ، تغطي جبهته خصل بيضاء، بدا مثل كتلة من الشمع تذوب فوق غطاء الوسادة، نهض وفتح باب الغرفة وذهب إلى المطبخ، شعر كأنه يخرج من كابوس طويل، مرَّ جسده خلاله بأنابيب لا نهاية لها، ظلَّ يتحلل إلى كريات زجاجية تتغير ألوانها، تتكسر ثم تتماسك وتتلاحق في الظلام حاملة كائنات مجهرية تشبهه، وجد قنينة وكأساً على المائدة التي تتوسط المطبخ، صبَّ لنفسه كأساً وشربها بسرعة، شعر بالاسترخاء بعد وقت قليل، كان المطبخ نظيفاً ومرتباً ولكن ثمة رائحة غريبة تنبعث من مكان ما أشبه برائحة طعام فاسد، اكتشف بعد قليل أنها تنبعث من علبة كارتونية موضوعة على المائدة، رأى على غلاف العلبة صورة رجل عار يشبهه ورأى كتابة بلغة لم يفهمها، أراد أن يأكل شيئاً، فتح دولاباً إلى جانبه فوجد علباً زجاجية لكل منها شكل رأس أنثوي، فتح العلبة الأولى فوجد في داخلها علبة أصغر، فتحها فوجد علبة أصغر ثم علبة أصغر وهكذا وصولاً إلى لا شيء، وتكرر الأمر نفسه مع العلب الأخرى، في دولاب آخر وجد علباً ذات رؤوس رجالية لها عيون حمراء جاحظة، استمر بفتحها علبة بعد أخرى فلم يجد شيئاً، فتح الثلاجة فوجد دوارق ملونة فارغة وصحوناً مستطيلة ترقد فوقها كائنات صغيرة في سوائل تشبه الدم المتخثر.

ذهب إلى الشرفة، توقف لدقائق هناك، نظر إلى الشارع في الأسفل فلم ير أحداً، رأى أشجاراً تشبه رؤوساً سوداء عملاقة، أدرك أنه وحيد، لم يكن يعرف ماذا سيفعل لاحقاً، عاد إلى غرفة النوم، أشعل الضوء، رأى فوق السرير جسداً صغيراً بحجم دمية، يشبه جسد المرأة التي كانت تنام هناك حين استيقظ، رفع الجسد بأناة، كان مغطى بسائل لزج له رائحة تشبه الرائحة التي كانت تنبعث من العلبة الكارتونية، سار إلى المطبخ، وضع الجسد في إناء أبيض مستطيل رآه على المائدة، جلس أمامه، قال لنفسه بعد لحظات من الصمت: هل يمكن أكل جسد كهذا؟ تكرر حفيف الأشجار في الخارج، بدا أشبه بنواح حزين.

كاتب من العراق مقيم في النروج

ثلاث قصص

سماح الشيخ

بذاكرة مزيفة أكتب قصة

من ممالك أوروبا القديمة، مملكة صغيرة عشت فيها سنين طويلة، لست أعرف الآن موقعي في هذه المملكة لكنّ ملكها كان عادلاً رحيماً وكانت له زوجة جميلة، سكّان هذه المملكة كان عددهم قليلا فمعظمهم يعمل لدى حاكم البلاد والقلة القليلة الباقية تعمل معه، ولقلة عددنا قررنا -جميعاً- الترحال، لم يكن يزور مملكتنا زوار ولا يعبرها مسافرون، كانت نائية عن أيّ طريق، ولم تكن لها مع أيّ دول أدنى علاقات.

بدأنا نرتحل كالبدو من مكان إلى آخر بحثاً عن أناس نتحد معهم ويكثر عددنا، سافرنا كثيراً ولم نجد أحدا في طريقنا إلا حيواناتٍ رافقتنا برضاها وانضمت إلى حيوانات مملكتنا التي ارتحلت معنا، أذكر شيئاً غريباً جمع بين كل الحيوانات حتى لم يفترس بعضها بعضاً، بل كانت عندما تجوع تأتي على واحد منا.

تابعنا -لن أقل طريقنا فلم يكن لنا طريق- سيرنا حتى وصلنا إلى مصر التي لم نسمع عنها من قبل، قابَلَنا سكانُها بالترحاب وأبدوا إعجابهم بما أقدمنا عليه حتى أن ملكهم -وكان يُدعى أحمد- عرض رسالة مليكنا له على البروجكتور أمام الجميع، وأثنى على خطابه الذي لم يتجاوز سطرين وأشاد بأسلوبه ولغته، ثم عُرض بعدها -ودون أدنى ترتيب من أحد- فيلم ما على نفس البروجكتور وفي نفس المكان وقد حضرناه مع سكان مصر في رعب عميق، أؤكد أن الفيلم عُرض لوحده وذُهِل به الجميع، فيلم لم يعدّه أو يخرجه أحد، فيلم حقيقي يحكي واقع ما كان سيحصل لو أننا أتينا غزاة على أرض، أيّ أرض.

شاهدنا الفيلم ونحن نرتجف من هول ما نرى، دماء وقتلى وتشريد وجوع وحرب تأتي على الجميع -الغزاة وسكان الأرض- عدا الحيوانات التي أخذت موقفاً محايداً، فلم تشترك ولم تخسر.

بدأ يحتضن بعضنا بعضاً ويطمئن كل منّا الآخر، نحن نشرح أننا لم نفكّر أبداً في احتلال غيرنا وهم يؤكدون معرفتهم بحسن نوايانا حتى أخذ هذا الشكل التضامني شكل دفاع عن النفس، وراح كل طرف يرافُع ويدافع عن موقفه وكأن الآخر يتهمه، نسينا ما كنّا عليه، واحتدم الجدال إلى درجة ظن كل فرد منا ومنهم أن الجميع أعداؤه وأن الجميع يريد النيل منه، تداركنا ما نحن فيه وقررنا أن نتبادل خلايا أدمغتنا التي صوّرت لنا الفيلم، واكتشفنا بعدها أنه لم يكن ثمة بروجكتور، وألفينا أنفسنا نبيع ونقايض شرائح إلكترونية صغيرة تحمل ذاكرة كل فرد من أفراد المملكتين حتى صار الكل يفكر في أن يغيّر ذاكرة حياته ويبدل في ماضيه ليشتري حاضراً مختلفاً.

فُتِح السوق، ولم يرضَ بعدها أيّ حيوان أن يلتهم واحدا فينا يحمل ذاكرة مزيفة، فماتت من الجوع، وأذكر الآن أني كنت أعمل على راحة حيوان ما في مملكتي وأني حزنت جداً على موته وقررت أن أضرب عن الطعام حتى الموت، لكني لم أستطع.

كانت أرض مصر صحراء، وعندما ماتت الحيوانات لم نجد من يُطعِمنا فبدأ يأكل بعضنا بعضاً من غير حرب.

زاد عددنا فضاقت بنا الأرض وضاقت علينا، فقرر سكان مصر الرحيل عنا وعنها.

عقابٌ تشتوي

بيديه الطينية اللون كان يحمل «برّاد شاي» أكبر من رأسه الصغير وعدة أكواب بلاستيكية في اليد الأخرى، رغم قسوة الطقس خرج، ومع أنني كنت أرتدي كل الملابس التي استطعتها لأحتمي من البرد إلا أنه كان يبدو أكثر دفئاً مني وهو يخطو بقفزة خفيفة بين أذرع وأطراف الجندي المجهول، لم يرتدِ إلا تلك البلوزة الخضراء المصنوعة من صوف رديء.

تساءلت عن سادية الظروف التي دفعت بطفل لم يتجاوز التاسعة للخروج في وقت متأخر من الليل كي يبيع الشاي، فأجابني زوجي -الذي كنت قد تعلقت بذراعه من شدة البرد - أن ذلك الطفل لم يخرج من بيته في وقت متأخر، لأنه يقضي نهاره كله ومعظم الليل هنا ليبيع الشاي. إذن لم يعد للبيت ليعاود الخروج. قررنا أن نضحّي بالشيكل تلك الليلة من أواخر الشهر، ونشرب كأسين من الشاي علّنا نصبر على ذلك التيار الجليدي. نادى زوجي على الصبي الذي ركض نحونا وراح يصبّ الشاي كمحترف فناولناه أجرته الزهيدة التي لم نحددها نحن بالطبع، وإذ بطفل آخر -أقسم أنه لا يكاد يكمل ست أعوام- يتجه بخطوة يائسة صوبنا، الغريب أن عينيه كانتا تبرقان بالأمل -ربما هو الحزن المكثف ولكني لم أتيقن حينها- فقد كانت أقدامه شبه العارية إلا من صندل مهترئ أسود اللون لكنه صار أفتح بكثير لشدة الغبار عليه، كانت أقدامه تشغلني، فأصابعه ازرقت مع انخفاض درجة الحرارة، عدتُ لعينيه الحائرتين تنظر للسماء وتنتظر، لم يتفوّه بحرف، فقط كان يعلّق آمالاً على أن نشتري مما يبيعه في صندوقه الصغير -لم أرَ ما كان فيه- لم تمضِ ثوانٍ على استقراره قربنا حتى داهمنا صغير آخر أطول بقليل من صاحب الأعوام الست -على أعلى

فاطمة المحسن

تقدير- يحمل قراطيس صغيرة ملفوفة بفول سوادني أو بذر بطيخ لن تفرق شيئاً، قراطيس بألوان باهتة كحياته، لكنه قد يكون أكثر حظاً فهو يلبس جاكيت -وإن تكن قديمة واستعملها ما لا يقل عن ستة أو سبعة إخوة- إلا أنها جاكيت على أيّ حال. كان الأخير الأكثر جرأة فقد أخذ يلتصق بنا ويلحّ في مطلبه كي نشتري، بشعره الخشن وأظافره التي استطالت في غير نظافة وبشرته الخشنة المرهقة بدا لي عاملاً في الطوبار، لكن اليدين غضتان يا ربي والأقدام صغيرة، إنه طفل يا إله العالمين.

مهلاً، لا يزال الأصغر حجماً وسناً يقف ولكن يحافظ على مسافة خجلة بيننا وبينه، كأنه يخشى الاقتراب أكثر، ولازالت العينان الواسعتان تلمعان بنظرة قاتلة معاتبة متجهة للسماء، إنه مثل دمية لشدة الجمال، لكنها دمية محطمة على ما أظن، دمية عبث بها طفل مشاكس عنيف أدماها من لعبه، تبادلنا تساؤلات صامتة أنا وزوجي صاحب الطفولة المرهقة أيضاً لكنها لا تقارن بطفولتهم، وجدت نفسي بعدها وكأني الجاني الوحيد، فسارعت بالدفاع عن نفسي وأخرجت محفظتي الممتلئة بالأوراق الصغيرة والبطاقات والعناوين وفي لهفة أخرجت شيكل لكل منهما ولم أشترِ شيئاً فقد رجوتهم الذهاب، ما هي إلا لحظات والتف حولنا ثلاثة آخرون بأطوال مختلفة. قمنا بالتضحية بثلاثة شواكل أخرى. لم أتساءل هذه المرة عن هذا العدد المفاجئ من الأطفال العاملين فقد كان الجواب واضح، فما يجعل إنفاق بضع شواكل هو محض تضحية لموظفيْن مثلي وزوجي يجعل آباء هؤلاء الأطفال يخرجونهم -إن كان لهم آباء- انسحبنا من المكان وظلت أسئلة أخرى تراودني، عن مدى الاستغلال الذي قد يتعرض له الأطفال في العمل؟ وعن الأطفال الذين يعملون دون حتى عقد عمل يحمي حقوقهم؟ وعن الآثار النفسية المدمرة لترك المدرسة والالتحاق بصفوف العاملين؟ وعن طبيعة الأعمال التي قد تهدد سلامة وصحة الطفل؟ أسئلة تتسارع مع خطواتنا الهاربة، الهواء يلفح وجوه الأطفال بمن فيهم وجه زوجي، ويضرب وجهي أنا بخيزران صقيعه، أنا التي حظيت بطفولة قد تكون مرفّهة إلى حد كبير.

تعثّرت بقدرها فسقطت في النور

لم تكن متيقنة، كانت تعرف أن خلف الباب الخشبي القديم سلالم صخرية ولكنها ليست أكيدة من ذلك، ولهذا تهاوت بمجرد فتح الباب. السلالم شديدة الاستدارة شديدة الانحدار والنور يشتد في الأسفل.. أوقفها، منعها النور من استمرار التهاوي، فلشدة سطوعه خاف جسدها وتشبث ببعض الدرجات المتهالكة. لا تدري لماذا تحسست بكل تلك الشفقة أظافرها المتكسرة وتذكرت كم كانت تغسلهم بزيت اللوز كلما حلا لها ذلك. نظرت بيأس إلى عتمة الأعالي فهي على علم مسبق بأن الباب سيتحول إلى حائط عظيم بمجرد فتحه مرة واحدة. تساءلت كيف تفعل ذلك وهي العارفة بقوة النور وسلطته على المكان، رفعت يدها عن أُكرة الباب وتراجعت للوراء وعقدت العزم ألا تفعل، ففي الظلام نعيم لا يُدرك وأن لا ترى خير من أن ترى ولا تستطيع التغيير، "لن أقدر على حذف الأشعة وإلغاء رذاذ الضوء" قالت لنفسها، واختارت أن يكون الزمن لعبتها.

ها هي خيوط الشعاع الأول تنسلّ ببطء على أنامل القدمين فتكويهما ببرودتها، ترفع رجليها النحيلتين بسرعة وتبدأ في الصعود زحفاً فتتعرقل بشعرها الطويل الأشعث.

تهرب. تركض تاركةً الباب موصودا، تجري في الفراغ الحالك فتتعثر بقدرها. تتخبط على السلالم، تجرّ جسدها الذي تجّرح في الصعود، ينزف الحليب من ثدييها المتخبطَيْن في الصخر فيحيله بلوراً أبيض لامعا. تصرخ في الفراغ الفسيح "لن أفتح الباب ولن أرى النور"، هي لا تعرف الرؤيا، حتى تلك الإضاءة التي بدأت تكشف عن ساقيها لم ترها ولم ترّ ساقيها. "لن يصل النور للعورة طالما لازلت أركض بعيداً عن الباب" ابتعدت آلاف السنين حتى لم تعرف كيف العودة لذلك الباب ومن أيّ اتجاه. إنها ابتعدت، انحدرت، انزلقت في النور المطلق.

كاتبة من فلسطين مقيمة في غزة

6 قصص

سماح دبور

الرحم

رأسي فارغٌ تماماً كبالونٍ يطير. الأصوات حولي كلها محض صدىً مبهم يأتي من كهفٍ ما، شيء ما يتحرك في فمي، ويدٌ أشعر بها تحيط بكتفي، تربّت على ظهري والماء يندلق من فمي مزّاً، ذات اليد تمسح فمي وتعيد رأسي للوسادة من جديد، لا أعرف إن كنت مغمضة العينين أو لا، لكن الضباب اللعين لا يغادرني، الأصوات تقتحم أذنيّ بذات الصدى ولا أحاول حتى التركيز لتمييزها، أستسلم لكل الخدر الساري في دمي، وأغوص في غيمٍ بلا عينين.

كأن نملاً يعض شارعاً مفتوحاً في بطني، يعيدني للوعي هذا السرب من عضاتٍ صغيرة في أسفل البطن، وأفيقُ بعينين مغلقتين تماماً، لا أتحرك، ولا رغبة لي بالحراك، أفكّر في النمل على بطني، لماذا يلدغني؟ يبدو نهماً تتسع عضّاته لتغدو مؤلمة أكثر، حارقة كأنما تصبّ عليّ لعاباً من نار، الأصوات تبدو أكثر وضوحاً الآن، وأسمع صوت أمّي تهمس لامرأة ما هنا، تدعو بابتهالٍ عميق أن يشفي (ها).. لم أفهم جيداً عمّن تتكلم، إنما الاحتراق في أسفل بطني أبعدني عن التركيز كثيراً في من تتحدث عنها أمي، أحاول أن أفهم لماذا أتألّم.. تبدو ذاكرتي مكاناً بعيداً الآن، ذهني مضطرب تماماً، وجفناي يرتجفان في محاولة بائسة لرفعهما، أنيني ينفلت رغم انطباق الشفتين، وأكاد أرى انتفاضة أمّي تترك الكرسيّ لتصل يدها إلى جبيني المتعرق بشدة، أسمعها تنادي على ممرضة، إذن أنا في مشفى، الألم يأكلني، بابه مفتوحٌ على مصراعيه كجهنّم انبثقت في أحشائي، تتسرب إلى باقي الجسد بنهم وجوع لافتراس ما تبقى من حيويته، ها هو الخدر اللذيذ يعود من جديد، وأطفالي يدخلون باب ذاكرتي، تبتسم تيماء ونظارتها تفصح عن جمال عينيها اللوزيتين، يقبّل يوسف خدي ويلف عنقي بذراعيه مُعلناً بتملك عن حبه لي، عمر يقف هناك في الزاوية ينظر من بعيد، يرسل قبلاته من وراء ظهر إخوته ويظل منتظراً أن تنتهي حفلة العناق ليأخذ نصيبه من حكاياتي وعبث أصابعي في شعره الناعم المتوهج، أحكي وأحكي وهم يتابعون بكل انتباه وأنا أفقد انتباهاتي تدريجياً لأسقط في النوم من جديد.

تختفي آثار البنج رويداً رويداً وتبدأ ذاكرتي بترتيب ذاتها، وجوه متعددة تطالع بصري المضبب، وجوهٌ تشي ملامحهم عن شفقة عارمة، وبعض حزن مصطنع، وربما لدى البعض شماتة تتستر وراء جمل منمقة، تمنيات بالشفاء، لازال طابور النمل يعض جرحي الملتهب الملموم بشريط لاصق بانتظار أن يلتحم اللحم دون مساعدة إبرة طبيب جراح، وأفضل إغلاق عيني طوال الوقت أبتعد كثيراً عن ضجيج الزائرين لمريضات أخريات في ذات العنبر، بعد انتهاء وقت الزيارة التي لم أحبها أبداً جاء الطبيب ليطمئن على جرحي، داعبني كثيراً كي يقنعني بالقيام بجولة صغيرة في العنبر، أمّي تمسك بذراعي وأحاول الاستناد بالآخر على الحائط، أتحامل على النمل الشرس الذي يعض جرحي، وأحاول كل جهدي تجاهل النار التي تسري في جسدي، خمس دقائق مرت كأنّ عمري كله أمضيته في محاولة إنهاء هذه المسافة الصغيرة وأعود لسريري الأبيض البارد جداً، ذهب الطبيب ليواصل جولته ولم أسمعه يكيل مديحاً ودلالاً لأيّ مريضة سواي على مدى الثلاثة أيام التي أمضيتها في المشفى، جاءني بعدها يحمل وعاءً زجاجياً محكم الإغلاق يضيق على ما استخرجوه من بطني، يسبح فيه رحمي مختنقاً بسائل أصفر قيل لي إنه لحفظه من التعفن، وبهتُّ وأنا أحملق فيه، لم أستمع لحرف واحد مما قاله الطبيب لي، وإذ انتبه لذلك وقف صامتاً ينتظر أن أنهي تأملاتي للكائن الحبيس في الإناء، ورأيته ينبض، وتتشكّل هناك ابتسامة ما لامبالية وجذلة، لا شيء أخرجني من ذهولي سوى إقدام أمّي على إخفاء الإناء في الخزانة الصغيرة المتواجدة بجوار السرير، واستمعت لنصائح الطبيب دون أن أحتفظ بذاكرتي بأيّ واحدة منها، وقامت أمّي بالمهمة نيابة عني..

لم أكن أشعر بالفراغ الذي توقّعته، كنت قبل العملية أشعر بمناشير الألم تأكل أحشائي وها هي تواصل عملها بعد العملية أيضاً بمجرد أن ينتهي مفعول المسكنات المخدّرة، لم أشعر أن شيئاً تم اقتلاعه فعلياً من جسدي فلا زالت أحشائي تنقبض كلما تذكرت الرجل الذي أحببته عمراً بلا جدوى دون محاولة واحدة لنسيانه، ما كان يزعجني أكثر هو اضطراري لتناول كل هذه الحبوب لما تبقى من حياتي، واضطراري للتعايش مع موجات الحرارة التي تصعد من قدميّ حتى رأسي، وأن أتقبل وجهي حين يهطل منه العرق ويصبح كحبة بطاطا حلوة خرجت من الفرن للتو.

بعد عودتي للمنزل كنت أضع الإناء الزجاجي على الكومودينو بجوار رأسي تماماً، أتأمّل رحمي السجين هناك، أتخيله أحياناً ينبض، وأراقب كائناتٍ صغيرة تتكون فيه، وتكبر لتكون أطفالاً يبتسمون لي، وينامون في حضني كل ليلة، ولم ترغب أمّي بأن يراه الزائرون ولم أرغب أنا كذلك بأن يراه أحد مطلقاً، ولم أقبل أبداً أن تمتد أيّ يد على رحمي مهما كان السبب، كنت أعتقد أنهم يرون عورتي إذا ما نظروا إليه، فغطته أمي بقماشٍ مطرز ووضعت فوقه علبة حلوى توزع منها للزائرين عن سلامتي، وحين يرحلون كنت أرفع القماش كما لو كنت أكشف نقاباً عن وجه عروس وأظل أتأمله بصمت، وأنتظر أن تسيل وجوه الأطفال منه وضحكاتهم، أحتفظ بابتساماتهم الحلوة في قلبي، وأحكي لهم حكاياتٍ جميلة فيضحكون أكثر أو يُكشّرون حين أتوقف ناعسة ويتحاضنون مع قلبي حتى الصباح، حين طلب مني أبي أن أكف عن تأملاتي فوجئ بي أطلب منه قبراً، «أريد أن أشتري قبراً وأدفن فيه رحمي، وحين أموت أدفنوني هناك». وحين تعافيت ذهبت وأبي إلى المقبرة، أنظر لقبري المفتوح وأبكي سراً أطفالي ، كل أطفالي الذين حلمت بهم عمراً، وسمّيتهم واحداً تلو الآخر، لم أكن أدفن فقط جزءاً لحمياً تم اقتصاصه مني، كنت أرقب أبي يودع الإناء الزجاجي وأراه يدفن أطفالي الكثيرين الذين لم يروا هذه الدنيا بعد، أردت أن أهبط في القبر وأحتضن رحمي حضناً أخيراً، أهمس له بأني سأزوره دوماً ولن أتركه لكل هذا البرد وحيداً والظلام، رفض أبي بحزم، وعدت إلى البيت، ولليالٍ كثيرة تالية كنت أراني أفتح قبري وأندس بجوار رحمي أتأمله بصمت فينبض مبتسماً لي ومنه تنساب وجوه الملائكة.

لعبة الغياب

كانت ترتّب الأطباق على طاولة مغشاةٍ بمفرشٍ من حرير، وعشرة أزواج من العيون تتلصص من ثقوب السور القصير يتنبأون بما ستفعله ويتضاحكون كلما صدقت توقعاتهم، تدمدم بأغنيةٍ ما، وإذ تنتبه على الأطفال تَهُشُّهُم بعصاً غليظة ترتكز عليها لتدرأ عن عودها السقوط، كنتُ أراهم وأمضي إلى رفاقي أطفالاً مهذبين جداً لا يسترقون النظر لبيوت الآخرين، ذات يوم ضربني أبي، لشيء لم أفعله أبداً لكنه يؤمن أني قمتُ به، وحرمني من الطعام، وحين ضبطني متلبساً بمحاولة سرقة تفاحة من الثلاجة قام بصفعي من جديد ثم ركلني حتى سقطتُ على عتبة البيت، وبجنونٍ غريب لمعت عيناه ثم هدر بي طرداً خارج البيت، الشمس حمراء والشوارع تستعد للعتمة، وأنا تائهٌ جائعٌ ومنفيّ، وجدتُ طفلين يراقبان بيت العجوز، وبتلقائية انضممت لهما متناسياً كل قواعد الممنوعات والأخلاق التي يستدعي كسرها «علقة محترمة» قال لي أطولهما إنها امرأة مجنونة، وجادله الآخر بأنها تكلم أصدقاءها من الجن، مبهوتاً بما قالوا أخذت أتأمل الطاولة المعدّة لأربعة أشخاص وحرير المفرش يهفهف مع مداعبات

الريح، ورأيتها تتقدم من السور تتحامل على عكازها الغليظ، مبهوراً بالخطوط الجاحدة على وجهها أخذت أتأملها دون أن أهرب، وصلت ورفعت عصاها عاليا تهددني وأنا واقفٌ أمامها بلا خوف أرصد الأعمق من ثنيات وجهها وأفكر كم توحي ملامحها بجمالٍ رحل مخلفاً نقاوةً في بياض بشرتها، وبدأتُ أحدد في رأسي كيف سأرسم وجهها، انتبهت على ضربة عكازها على طرف الحائط وبدأت أعي أنها تسألني سؤالاً كررته من جديد: ماذا تريد؟ لماذا لم تهرب مع أصدقائك؟

ثماني سنواتٍ كان عمري وقتها، وثماني سنواتٍ مضت منذ أن طردني أبي لأجل تفاحة، استضافتني لديها، وضعت لي طبقاً خامساً وسعدتُ يومها لأني عرفت أنها لم تكن مجنونة، ولم تكن تجالس جنياً، كانت تُجالس خيالات أولادها الذين رحلوا، ابتلعتهم الغربة بشراسة، وبقيت هي تنتظر أن يأتوا، تعدّ لكل واحدٍ منهم طعامه المفضل، وتعد طعامها الصحيّ الذي يوصي به طبيبها، تأكل من طبقها وتسكب في طبق كل واحد منهم ما يحب، تنتقل على الكراسي الأربعة وتأكل من أطباقهم، تتذكر حكاياهم، ونكاتهم، ترفع قطع اللحم من طبق ابنها البكر وتضعه في طبق الصغير فيهم، فالأول لا يأكل اللحم والأخير يعشقه، تزيد كمية الطعام في طبق الأوسط بأمل أن يزيد ذلك في وزنه الخفيف شيئاً، تحكي نكاتاً كانوا يطلقونها تضحك عليها، وتُكشر كلما قام أحدهم بإزعاج أخيه بلقب يكرهه، ذات يومٍ سقطت مغشياً عليها وفي المشفى علمتُ أنه لا ينبغي لها أن تأكل البطاطا المقلية أبداً، تلك التي تتناولها حين تجلس مكان ابنها الأصغر، وعقدتُ معها اتفاقاً بأن نغيّر اللعبة، كنتُ أتخذ مكان كل واحدٍ منهم وتحكي لي عنهم، ومرة بعد مرة أخذت بتقليدهم، وبدأنا نخترع ألعاباً أخرى كأن تعصب عيني قبل أن تسكب الطعام ثم أجلس بجوارها تطعمني لقمة من طبق أحدهم «وأحزر» صاحب الطعام من أبنائها ثم أبدأ الحديث كأنما أنا هو، وتضحك هي كثيراً وتبدو أكثر صحة وجمالاً.

لم تعد بحاجة لتناول الأدوية، وأصبحت تهتم برسوماتي أكثر مما تذكر ذكريات أولادها الغائبين، تشتري لي الألوان وأدوات الرسم المختلفة كلما استلمت راتبها التقاعدي، وتأخذني لنزهاتٍ جميلة حيثما أريد، صرتُ ضيفها اليومي عصراً، هذا المساءُ جلستُ أرسمها، أغمضت عينيها بهدوء وتركتني أنقل ملامحها بدقة، لم تتحرك لثلاث ساعاتٍ كاملة، حين نهضتُ وهززتها كي أغادر كان جسدها قد أصبح بارداً تماماً.

تغريد البقشي

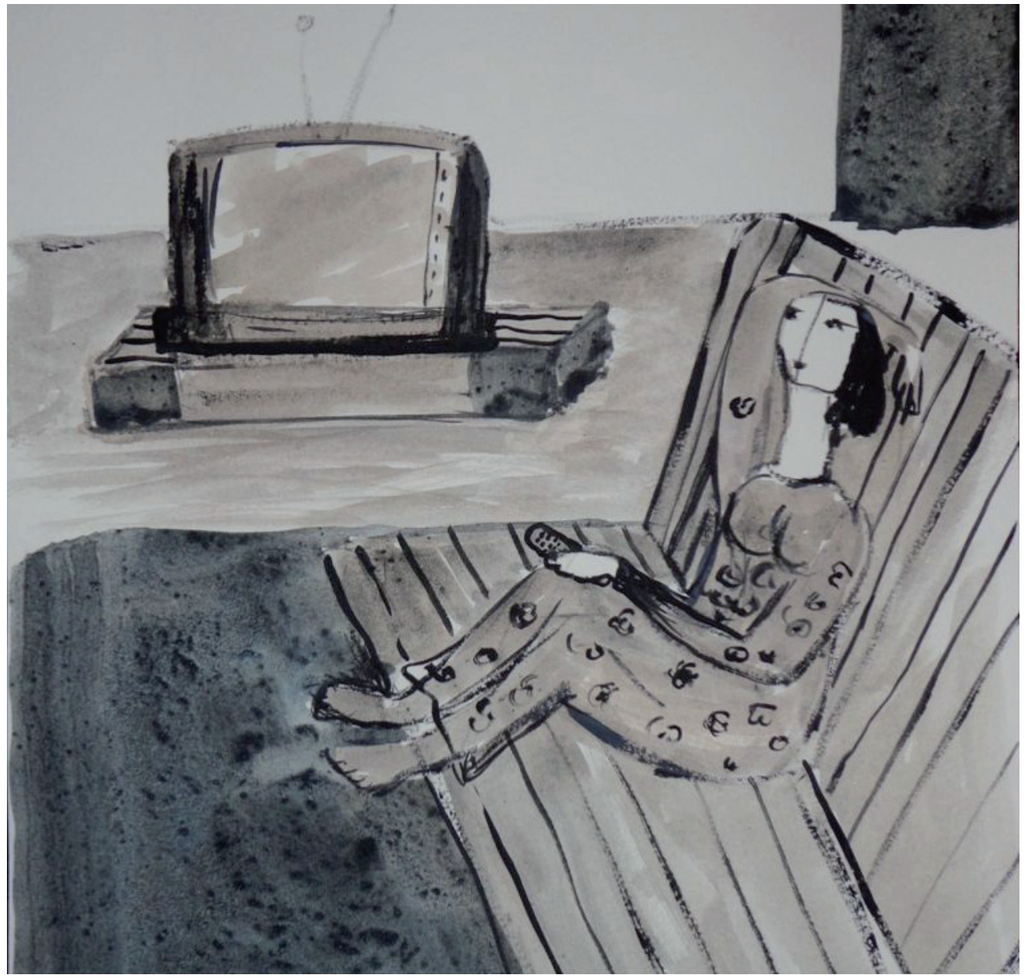

عودة

أكاد أختنق، والناس يهمهمون بيأس وينوحون بصمت علّ الضباط يرأفون بنا قليلاً ويفتحون بوابة المعبر. الساعات تمضي بطيئة، تطلق لسخريتها والشماتة العنان نحو شعبٍ بائسٍ يحتمل الصفعةَ تلو الأخرى بثورةٍ موؤودة. ثلاث سيارات أخرست الأفواه بقدومها وتخطّينا جميعاً -نحن الراحلون منذ الفجر. نكاد ننهي يوماً مغبراً حارقاً على أبواب رفح- لتمرّ بكل بساطة. ولا تنتظر إلا دقيقة واحدة ريثما يفتح الجنود البوابة. هكذا ارتسمت علامات الأمل. ونسي الناس أن هؤلاء مشوا على رقابنا وصدورنا ليمروا وهللوا مكبرين سعداء بمرور الباصات نحو غزة؛ وكعادتي. واصلت اختناقي ومشيت صامتاً أحمل وجهاً لامبالياً وأفكر كيف سيكون اللقاء. سنة ونصف مضت وأنا مشرد في مطارات العالم. أطرد من بلدٍ لآخر. أعود الآن بعد الحرب بتصريحٍ خاص جداً -حفيت لأحصل عليه- ولم أخبر أحداً -كعادتي كلما قررتُ العودة لأجد نفسي أعود من حيث أتيت-. أتراها شجرة الليمون تخبئ لي بعضا من ثمارها؟ أم أن اللوزة بدأت تزهر لتبدأ حملها بلوز لاذع الطعم شديد اللذة؟ خارج العالم أفصل ذاتي عن ثرثرة الركاب في السيارة. أعانق ذكرياتي في بيتٍ عشقتُ الحياة فيه. أرقب ذاتي وأنا ألتقط زيتوننا الأسود، أختار الحبات السوداء فقط كي أخللها بملح وزيت ليكتمل سحر الطعم مع جبن أبيض وبعض الخبز المحمص. وأطفالي من حولي يتسابقون لإطعامي

لقمة بعد أخرى. هل كبروا في سنة ونصف؟ ماذا عن نوارة البيت أمي؟ منذ الحرب لم أسمع صوتها. قال أخي إنها في زيارة لأقربائي. دوماً في زيارة هموم الناس تحاول تخفيف ما تستطيع منها . وصوت زوجتي يراوغني دوما عند السؤال عنها، أنتبه لدى توقف السيارة في آخر محطاتها.. وفي وسط البلد أحمل حقيبتي وأوقف سيارة أجرة. أعطه عنواني وأدفع له حمولة كاملة ليمضي بي دون انتظار. دهشة السائق أثارتني فزدت له الأجرة فهز كتفيه وصمت. التوى الطريق. وبدأ قلبي يخفق بجناحين من توق أتابع آثاراً تهدمت. وبعضاً بقي مشوها بآثارِ رصاصٍ ثقيل. وأماكنَ فارغةً ظننت أنها كانت شيئاً قبل سفري. أفيق بدهشة على خيام تذكّرني بالأفلام الوثائقية عن الهجرة. ثم تفقد الطريق معالمها لأواجه وحدي مساحات من ركام كان ذات يوم شوارع وبيوتاً وحواري ركضنا فيها. أنزل من السيارة بوعي أكاد أفقده أبحث عن شارعنا ولا أدري إذا كان هنا أم هناك ألتفت يميناً ، يساراً، أرى ركاماً، تلالاً من الحجارة المهدمة، لا طرقات، ولا معالم، فقط لوحةً مشوهةً في مرآةٍ مكسورة. أين بيتنا؟ أين زيتوننتا واللوزة الحلوة؟ وتمر حنة يدلنا على النبع دون ضوء القمر؟ تائهٌ في بلدي على أرضٍ لطالما اختبأْتُ في أزقتها. أنظر، ولا أرى للذكرى ملامح. يستوقفني جارٌ كان لنا. ينتزعني من ذهولي فيلقي بي إلى موت بلا موت. يدلني على البيت وأقف على ركام بيتي العتيق. أقرأ الفاتحة لأمي المدفونة أشلاؤها تحتَه.

-

بائع الأحضان

«ليس عليك أن تدفع نقوداً لنا.. يكفيك أن تطلبنا على الهاتف. سنأتي إليك. سنحمل كل الدفء الذي تحتاجه. ابتسامةٌ كالشمس تفتح بابك على بهائها حين ندق جرس بيتك. وكتفٌ حنون تفرغُ فيه وجعك. سنسقي بدمعك لو أردت قميصاً مطيباً بالحنوّ. ونفتح ذراعين تنغلقان على حضن هائلٍ لأجلك. الوقت مفتوحٌ أمامك. لحضنٍ مجّانيٍّ تماماً»، أمام التلفاز أُحملّق في الشاشة بذهول. أتساءل عن طعم هذا الحضن الأحمق. أحتاج حضناً. وبكل بساطة يأتوني هم به. "يا سلام". ماذا عن نظرة حب تتسلل إلى دمي وتعيث فيه جنوناً؟ هل سيعطيني حضنهم ارتعاشة الفرح باللقاء؟ هل سيبعثرني ويعيد ترتيبي؟ ثم تباً ماذا عن باقة ورد؟ عن شعوري بأن هناك من يفهمني دون أن أتكلم؟ عن ثرثرة فارغة وأنف يسيل؟ عن منديل يستقبل وجعي وصوت يهمس لي بـ"نكتة فاقعة"؟ أضحك بجنون سيستقيل بائع الحضن حتماً لو أني سمحت له بدق نافذة حطامي. لأنه سيعرف كم هو بارد بارد ذاك الحضن الذي يعرضه. يا إلهي.. لماذا لم يقل بأنه سيأتيني بحلم؟

مغامرة

بالأمس استقبل حلمي ثلة مجانين، دخنوا سجائرهم وشكلوا من الدخان قصوراً خرجت منها جنيات مشاكسات، رقصن على أصابع المجانين واحداً تلو الآخر، مجنون منهم كان يحمل عوداً بأوتار مقطوعة إلا واحداً عزف به لحناً صاخباً أيقظ سكارى الحيّ المهمل في رأسي، نظر آخر في المرآة المعلقة في سقف الحلم وأصابته هستيريا ضحك وحذا حذوه الآخرون، ازداد الصخب حين أمطرت المرايا نسخاً من المجانين يضحكون منزلقين على منحنيات الدخان، يراقصون الجنيات اللاتي تدفقن من قصورهن، في الصباح كانت الغرفة تضج بكؤوس القهوة الفارغة ومرآة مرسوم عليها وجه فارغ يبتسم بسخرية أو بشماتة.

عَبَ

في رأسي طفلٌ هلاميّ، لا يتركني للنوم، مصرٌّ على احتلال الصحو فيّ لينثر في الكرة التي ترتكز على كتفي ضجيجاً لا يُحتمل، طوال الليل يُثرثر ولا يترك لي فرصة للتعقيب على حكاياته الهلامية، هذه الليلة أُصيب بالجنون، أفرغ خزانات رأسي كلها في قاعه وبدأ ينبش عن ألوان لم أسمع بها من قبل، أراد أن يرشق لوحاته على جدران رأسي، هكذا قال، وبدأ يُقشر كل ما اعتبره طلاءً قديماً عليها، أزال الذكريات ومسح أسماء أصدقائي القدامى، شطف أذنيّ من أصواتٍ التصقت بها ذات حلم، أخذ يعبث بجيوبي السرية وتخلص من رائحة عطرٍ أُحلّق إذا طرقت باب أنفي مصادفة، أزال من عينيّ ملامح الحب الأول ثم واصل العمل ذاته حتى وصل الحب الأخير، ولم يُبقِ على رقم هاتف أحتفظ به على رفوف الذاكرة إلا وكنسه، استخدم مزيل الصدأ بسخاء بدعوى أن بعض الصناديق أقفالها صدئة، ثم رمى بالصناديق كلها خارجي حين يئس من العبث بما فيها، صباحاً شعر بالتعب فألقى الأوان التي وجدها وكل أدوات الرسم خاصته أيضاً وتمدد في كل المساحات النظيفة في رأسي. تمطى وراقب اهتزاز جسده الراقص وأخذ يضحك، لم يعِ بعد أن رأسي بات صندوقاً مليئاً بالصداع والصدى.

تيه

الذي كان يحيا في رأسه فقط خرج اليوم لجولة في الشارع، بحث عن حبيبته ولم يهتدِ لبيتها لم يجد شجرة الليمون التي التقيا تحتها صدفة صارت فيما بعد عادة عاشقين يسرقانها من وراء ظهر المدينة، في الحقيقة هو أيضاً لم يستطع التعرف على الحارة التي كانت تسكنها، أراد أن يقابل صديقاً قديماً فذهب إلى مكان عمله وفي الحقيقة قال له السائق إن هذا المكان لم يعد موجوداً منذ زمن فلم يصدّق، أجبر السائق على الدوران كثيرا في المكان ولم يجد أبداً البناء الذي لطالما التقى صديقه فيه وشربا القهوة على شرفته القديمة، نزل من السيارة مذهولاً أراد زيارة أمه في المشفى أخبروه أن المشفى دُمّر ولم يعد هناك، سأل عن أمه وحتى قبرها لم يهتدِ إليه فقد قصفوا المقبرة أيضاً. الذي كان يحيا داخل رأسه فقط كاد يُجن كما علّق أحد المارة حين رأى بكاءه المرّ على قارعة الركام، أراد العودة لرأسه لكنه أيضاً فشل في العودة فقد أضاع الطريق.

كاتبة من فلسطين مقيمة في غزة

الولادة والعراء

قصتان

سمارة حسنين

صرخت هناء

لم يصل خيالها يوماً، ليصور لها أن لحظة ولادة أمومتها الأولى، ستكون خيالية مؤلمة مفرحة بذات الدرجة، بتلك الطريقة والمكان والزمان.

كان العتم يبتلع كل ما يحيط بذاك المكان النائي، البعيد بضع أمتار عن أماكن نزول القذائف، التي أحرقت أحلام الجميع وأمان الجميع.

أكثر من خمس عشرة أسرة من أقربائها كانوا يجتمعون هناك، نزحوا هرباً من موت أحاط بكل تفاصيل حياتهم، كعائلة مغضوب عليها أمنيا من قبل النظام، آثروا العيش بمكان لم يكن يوما مُعدًا للسكن، معمل صناعي بمنطقة صناعية نائية، حاولوا أن يوفروا فيه الحد الأدنى من الحياة، بأمل ألا يطول تشتتهم وعذابهم، بكل ما جمعوه من صبر وإيمان وقدرة على التكيف والتحمل.

هناك تحديدا. كانت تنسج حكاية الخلاص في نفس الفتية "هناء ".

في كل يوم كان يكبر جنينها بداخلها كانت تشعر بأن الفجر يقترب أكثر، بالرغم من انعدام أيّ بقعة أمل في صورة الظرف المحيط بعالمها.

كان يكفيها كلما شعرت أن الخوف والموت بدآ يحومان في المكان، أن تحتضن ذاتها وتخاطب طفلها القادم لتخفف عنه ما يمكن أن يسمعه، وتعده بأن غده سيكون أجمل، وأن ما يصله بشعورها أحيانا ما هو إلا سحابة فوضى ستتبعثر، وعدته أن تنير له العمر شموساً، أرادته أن يأتي ليكون هو عالمها، وعدته ووعدته واكتفت بفكرة وجوده وهكذا تحملت واستمرت.

إلى أن حان الموعد بفجائية لم تكن متوقعة يومها: كهرباء مقطوعة في كل المنطقة، لا صوت يعلو فوق صوت الموت والنار، اضطراب يسود الوجوه والقلوب، وصلوات وأدعية وآيات قران تتعالى لعلها تكسر جنون تلك الساعات.

فجأة، صرخت هناء، كسرت كل أصوات الموت بصوت تلك الحياة القادمة.

لا طبيب ولا مجال لأن تصل لأيّ نقطة طبية، وقناص متعطش للموت يسيطر على كل الطرقات.

إصرار كبير رسم على كل الوجوه، وكأن قدوم هذه الروح تحدّ لوقت الموت الراهن ولكل من أراد إخراس صوت الحياة.

الجميع بالانتظار.

الأم، الجدة، العمات، وكل نساء العائلة حاولوا ببساطة خبرتهم أن يساعدوا هناء كما حاولت أن تساعد نفسها وجنينها.

زوجها وأبوها، إخوتها وأعمامها، الأطفال، الكل بالانتظار.

ثلاث ساعات، نسي الجميع في أثنائها أصوات الدمار.

سُمعت صوت الصرخة الأولى، لتكون كصرخة خلاص النفس من شرور النفس وفوضى الأيام.

ضحكات وبكاء ودعاء كلها اختلطت بأصوات الجميع… ليناديها الجميع ويباركوا اسمها "أمل". بالرغم من كل المعوقات والمخاطر ولدت أمل.

أيّ حياة بعثتها في نفوس اضطربت بفوضى اليأس؟

وكأنها رسالة من السماء جاءت لتشق صمت النفوس ومرارة الإحباط، لتقول للجميع "لا تقنطوا".

رحلة استمارة

أشعل سيجارته وبدأ بحرقها، وابتلاع أذى دخانها، وكأنما يحرق بها وجع وطن سكنه وأهداه حروفاً وآلاما لن تندمل بتبديل وقت المكان والزمان.

بطابور طويل يعج بالسوريين يقف هو الآن، منتظرا دوره الآتي من مجهول، ليعربش لقب "لاجئ" ع سنين عمره .

شموخ وكبرياء يرسمان هالته، لكن ذبول عينيه واصفرار الربيع على شفتيه يوحيان أنه قد تجاوز زمن شبابه بدهر كامل، بالرغم من أن سنينه الخمسة والعشرين لم تكتمل بعد.

نودي اسمه على الباب ليقول له الحارس وعلى وجهه ابتسامة بلهاء: تفضل لقد سعينا لتعجيل موعدك بسبب حالتك .

لم تتغير معالم وجه الشاب بل ع العكس ازدادت قسوة وغضباً أذابت ابتسامة الحاجب الغريب عن وجعه بالرغم من لسانه العربي.

لم يستعجل الدخول بل تباطأت خطواته ليمج أنفاس سيجارته المتبقية، ويرمي بها على أرض بلد لم تكن يوما له، واستبدلها بعكاز خشبي، وأخذ يمشي مستنداً بها راسما بخطواته حكاية وطن.

وصل لطاولة "المقابلة" استمارة طلب لجوئه بين يدي الموظف، ليعاود التبسم بوجهه، وهو يفتح استمارته بذات درجة الغباء وبذات الضحكة التي رسمها حارس الباب .

وكأنهما كانا يعتقدان أنهما يهديانه وطناً جديدا، لم يكونا مدركين

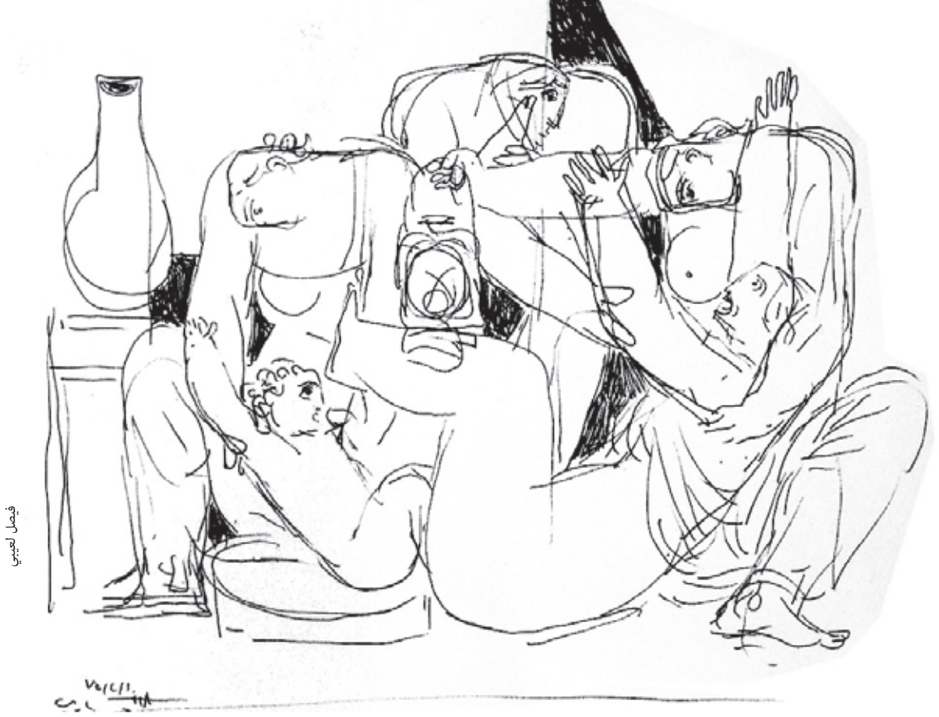

فيصل لعيبي

أنهما يزينان له الموت ذبحاً بقسم حدود عمره وأحلامه بمنفاه وغربته القادمة.

قال الموظف: هذه استمارتك.

أجاب: نعم.

طلب صورتين وجواز سفره الذي أصبح إثباته الوحيد بأنه موجود على هذه الأرض.

وبدأت رحلة الاستمارة. ومع كل سؤال كانت تفتح حكاية وجع:

اسمك، عمرك، مدينتك، عنوانك، دينك، طائفتك؟

أثقلته هذه الكلمة، لماذا للأمم المتحدة أن تميز طائفته؟ لماذا كل هذا التأجيج المباشر وغير المباشر .

وعبقت ذاكرته لحظتها بكلمات صديقه "علي" الذي قال له يوماً قبل استشهاده: "يريدون محو الهدف، وسيلعبون بورقة اختلافنا يا "أحمد".

دمعت عيناه.. وابتلع وجعه مرة أخرى وصمت.

واصل الموظف أسئلته: أعزب؟ أرمل؟ متزوج؟ مطلق؟

عاود الصمت.. لكن هذه المرة مترافقاً بدموع مزجحة ملأت عينيه وأجاب: "عشقتها كوطن لكنها الآن شهيدة" فماذا أكون بنظر الأمم المتحدة؟!

صمت الموظف، لم يفهم عمق كلماته وأعاد السؤال.

فأجاب: سجلني أعزب عمر وأرمل قلب .

تابع أسئلته.

-هل لديك أحد من أقاربك من الدرجة الأولى في سوريا؟

-نعم أمي وأختي.

-ما عناوينهم؟

-لا عنوان، أخي مجهول المكان والزمان لا نعرف عنه شيئا، وأمي وأختي وأخي من نزوح إلى نزوح ولا أعرف أين هم الآن فما من وسيلة اتصال معهم.

-هل لك أحد خارج سوريا؟

-لا.

-توقف الموظف ونظر إلى قدم الشاب المقطوعة وقال له: من يساعدك.

أجاب: وحده "الله" ساعدني أن أصمد حتى الآن.

كل سؤال كان يضاف كان يضيف بصمة ألم سوري .

-هل اعتقلت؟

-نعم.

-كيف كانت المعاملة؟

-ضحك الشاب ضحكة كبرياء وألم وقال له "خمس نجوم" انظر إلى جسدي كيف اعتنوا به.

-لماذا غادرت سوريا؟

بسبب..

لم يكمل الإجابة، قال له كل ما ذكرته يوضح لماذا تركت سوريا، ويا لندمي على ما فعلت!

ضحك الموظف بسخرية وقال: أتريد العودة الآن، أيعقل أن تناقش هكذا خيار؟

أجاب الشاب أموت واندفن بأرضي وتحت ركام بيتي، ولا أعطي فرصة لمن يسكت ع موت كل أهل بلدي بأن يقول لقد فضلت عليك وهو لا يفعل أكثر من تسجيلي بسجلاته .

سحب استمارته بنزق لم يفهمه الموظف ومزقها قطعة قطعة ومضى بغضب. خرج ولم يدر أيّ مصير جديد ينتظره، ليوقفه سوري آخر تجاوزه بعمر يساوي اثنين من عمره وقال له: لماذا فعلت هذا؟

نحن بمركب وسط البحر كل الخيارات مفتوحة الآن يا ولدي، حاول أن تسيطر على غضبك يا بني، لعلك الآن مزقت فرصة للحياة.

صمت قليلا، ثم مسك يدي الرجل وقال: عمي بما أن خيارتنا مفتوحة دع لي حق الاختيار، وأنت لك ذات الحق، وبالوقت وحده سينكشف لنا أيّ مجهول كان أكثر صواباً.. ومضى نحو مجهول مازال مبهما للجميع تاركاً كل خيار مفتوح ومغلق في أعينهم .

كاتبة من سوريا

حب ووعد

سمية عزّام

ما جمعني بها هو كتاب كنا نحمل كلانا نُسخةً منه، وما قذفنا إلى المكان ذاته وحدة الحال والمصادفة.. "ربّ صِدفة خير من ألف ميعاد". كم بغِضت هذا المثل الذي كنت أظنّ أنّه يمجّد تغييب الإرادة الإنسانية، ويقصي المرء عن فعل الاختيار. لطالما كنت أردّد أن لا مكان للمصادفات؛ الإنسان هو من يصنع الظروف. غير أنّي بتُّ أهوى هذه المقولة، وأمجّد تلك المصادفة التي وُلدت في ظروف مرعبة، لتولّد أجمل مسافة تلتقي فيها نظراتنا الخفيّة والخفِرة.

الظروف صنعت قصة حبي المضمّر، وبدأت بتحويلي. أخشى أن أعترف بأنها بدأت بصنعي، أو بعثي في ولادة مغايرة.. في تلك المسافة شيّدنا ملعب نظراتنا. كانت ترفع رأسها عن كتابها، تريح عنقها من الانحناء، تجول عيناها بين الرؤوس لتستقرّ برهةً على جسدي المتكوّم بين الأجساد الممدّدة قربي. أظنها كانت تريد أن تتبيّن عنوان الكتاب المخبوء في حضني، وضوء المصباح الكهربائي الصغير فوقه ينير درب الكلمات فيه. أما أنا، فمنذ الليلة الأولى عرفت أنها تحمل الكتاب نفسه في نسخة مماثلة.

كانت كلّما استقرّت نظراتها على عنقي، أشعر بحرارتها. كيف؟ لست أدري. فأتململ، وأرفع رأسي عن الكتاب، من غير الالتفات نحوها؛ فتبادر إلى إبعادها من جديد لتعود إلى كتابها تضيئه شمعة مرتفعة على حجر بجانبها يشبه الطاولة. راقتني تلك اللعبة، وأدخلت إلى قلبي أنسًا لطالما افتقدته، وأنا المغترب وسط كل هذه الجموع المستوحشة المضطربة. أجد في هذا التماهي الحركي سلوى تقصي الحركة الجزعة لسكان البناية والبنايات المجاورة.

بدأت المسافة تتقلّص بيننا، وفضاء نظراتنا يضيق ليلةً إثر ليلة. كلّما زعقت صفّارة الإنذار معلنةً بدء القصف، نترك شققنا ونعبر الباب الضيّق لهذا المستودع، ونتكدّس داخله. كنت أتعمّد الاقتراب منها في كل ليلة فشخة، أو لأقُل نقلة وتبديل مكان لجسد ورأسه يكون عن يميني بدلاً من يساري؛ إذ كان مكانها ثابتًا في ركنٍ في آخر المستودع، لا تبدّله. لم يكن الحب من مشاريعي، فلماذا أقترب؟ لست أدري. أهو تعلّقي بشخص وجدته يشبهني مصادفةً، أم هي حاجتي إلى خيط يربطني بهذه الحياة، وهذه الأرض؟

وفي الليلة العشرين التقت نظرتانا وتسمّرتا. لم تحاول أن تشيح بنظرها عني، ولا أن تعيد عنقها إلى وضعية الانحناء السابقة له؛ كما لم أشأ أن أبعد ناظري عن أجمل عينين رأيتهما، يتراقص لهب الشمعة بانعكاس ضوئها فيهما. الكتاب في حضنها مغلق؛ لقد أكملت قراءته كله هذه الليلة. وكتابي يتوسّده دفتر مذكراتي.

"لا أعرف كم استمرّ بوح الأعين في تلك الليلة..."

"الليلة العشرون من مذكرات "حب في الملجأ".

"منذ تلك الليلة لم أرها.. وما عدت أعرف من أمرها شيئًا..."

"الصفحة الأخيرة من مذكرات "حب في الملجأ".

أقرأ قصّتي في ذلك الدفتر، وأرى طيفك بين الكلمات. أشمّ عطر حبّ مرّ بين الأسطر ولم يرحل، بل تغلغل في الحبر واستقرّ. شاءت الصدفة أن تعشقك.. لكنّ عشقك للشهادة كان أعظم. اختارتني الحياة أن أكون حبيبتك، واختارك التاريخ كلمة في دفتره. لا تعرف عني شيئًا.. أنا من ينقّب في الذاكرة ويبحث عن أوراق مبعثرة لأدوّن تفاصيل أُهملت في رواية الشقاء والصمود؛ إنما أعرف تمامًا أنك ترعى المجد على حدود الشمس.

قاصّة وناقدة من لبنان

صادق كويش

صواني فضية

سمير الفيل

على عكس ما تصورت مات نصحي ابن تاجر البن، ووقفت على الرصيف أشاهد الصبيان يحملون صواني فضية فوقها زهور حمراء وبنفسجية وصفراء وقليل من الأغصان المخضرة. كان يسبقني بسنة واحدة وكنت أقاسمه إفطاره فآخذ منه سندويتش الجبن الرومي، وأترك له سندويتشات الفول والطعمية فيتركني أفعل ذلك وهو يبتسم: أنت لا تعرف أصول الطعام. يدس في يدي بيضة ما زالت تحمل سخونة السلق حيث يحلو لي أن أضعها في جيبي، لأصعد بمفردي فصلي كي أستمع للأستاذ بشرى بندلي مدرس الرياضيات، وهو يشرح للمرة المئة أن علينا أن نركز بسن الفرجار لنصنع دائرة نصف قطرها 2 سم.

كنت أخفي شيئا مهما هو أنني لا أمتلك ثمن الفرجار ولا المنقلة ولا المثلث قائم الزاوية الذي كان يشبه مسدسا بلا طلقات.

مات نصحي المر، ووقفت على الرصيف أبكي. خرجت وهيبة بائعة الطعمية تنوح وتشلشل بقطعة قماش سوداء لأن ابنها مات منذ سنوات، ومع كل جنازة تسبقها "مزيكة" الملجأ تنكش شعرها، وتروح في نوبة بكاء لا تنتهي إلا بعد أن تواسيها ستوتة بائعة الفاكهة والخرساء التي تجلس أمام مقام الشيخ عبدالرازق.

لم يكن سهلا عليّ أن أحبس دموعي فقد تذكرت بدوري أبي الذي راح إلى هناك منذ سنوات، وغيّبته حفرة لها غطاء نصف دائري من الرخام. جاءت سلوى وقالت إن أباها استغيبني، ويريد أن أذهب معها لشراء الخضار.

قلت وأنا أواجهها بقلب حزين: نصحي مات؟

هزت رأسها ببرود غريب: كلنا سنموت.

رددت عليها: لكنه كان صاحبي.

هزت رأسها في غير اقتناع: ولو؟

شدتني من يدي، وطوحت رأسها فزغردت شموس العالم، والنمش الفاتح يملأ وجهها: تعال معي.

كان المعلم واقفا أمام المحل. قابلني بصوت خشن: كل جنازة تذهب لمشاهدتها؟ حانوتي حضرتك؟

قلت على الفور: إنه زميلي.

وانقطمت كلماتي قبل أن أخبره أنني سأعيش أياما صعبة بلا إفطار.

فكرت أن هذه مسألة يمكن تدبيرها لكنّني حزين أنه لن يدعني أركب دراجته. فكرت أن أذهب لمحل البن حيث الحائط القديم مرسوم عليه فنجان ضخم تتصاعد القهوة من فوهته. أغافلهم وآخذ لفة. صحيح أنه لن ينظر في ساعته ويشخط فيّ: تأخرت.

جذبتني بعد أن أخرج المعلم النقود ودسها في يدي. سرت كالمنوم معها للسوق. كانت تمسك بيدي وهي كالعصفورة التي تودّ أن تطير لأعلى مكان. سألتني: هذا الدمع الذي أراه. لماذا؟

كذبت عليها وقلت إن حصوة من بيت العدوي المهدود تسربت لمقلتي.

لكي تجعلني سعيدا ذهبت لدكان المهدي، واشترت قطعة شيكولاتة "أيكا" البنية ذات المكعبات. لم أجد وسيلة كي أخبرها أن قلبي منفطر. فقط حين ابتعدنا عن ورشة أبيها طلبت مني أن أجلس على عتبة عالية، ففعلت ورفعت طرف فستانها الكلوش الأحمر، ونفخت في عيني المحمرّتين. سهيتها وفتحت عيني فرأيت ساقيها بيضاوين كالشمع ونحيلين جدا فضحكت في سري.

سألتني بعد أن انتهت: هاه. هل صحت عيناك؟

قلت وأنا أتأملها: نعم.

فأخذت يدي ثانية، وسارت بي نحو السوق. استسمحتها أن تتركني أذهب للجبانة لأشاهد دفن نصحي. حذرتني أن هذا يدخل العفاريت إلى حجرتي ليلا فلا أستطيع النوم. أقنعتها أن الأرواح الطيبة لا تفعل هذا أبدا ثم أن أمي قد سدت الشباك الوحيد المطل على المسقط بسلك مربع رفيع جدا كي لا تدخل العرسة ولا يتسلل الناموس ولا يفلت العفاريت الذين يملأون حارتنا.

سألتني وهي تراني أنهنه: تحب من في الدنيا؟

قلبت السؤال في عقلي: البحر؟

هتفت بغيظ: من الكائنات؟

. السمان!

. هذا طائر. أقصد من البشر؟

أحسست بها تترقب طلوع الكلام من شفتي، وكنت أشعر شعورا غامضا أنها طيبة وحنونة وتحبني حبا بريئا بلون الورد، إذ كلما لامست يدي كفها الصغير أحسست بالرعدة تسري في كياني. قلت حتى لا أفضح نفسي: أمي.

تركت يدي غاضبة، وجدتني أقتفي أثرها وأردد بلهفة: وحياة ربنا.. أنت؟

عادت الشموس لتزغرد وقالت بحماس: بنا نذهب للجبانة.

سرت معها، وجدت الدفن قد انتهى، والرجال يقفون صفا لتلقي التعازي. بقيت أشاهد الوجوه الحزينة، وجدتني أنهنه من جديد. شدتني سلوى من يدي: هيا بنا للسوق. مررنا بدكان البن. لمحت الدراجة مركونة على جدار المحل. لم تكن بي رغبة لأركبها. كانت تبدو صدئة، ملموسة، لا أنس فيها. كان قلبي يبكي رغم أن سلوى مدت منديلها ومسحت الدموع التي طفرت دون إرادة مني.

كاتب من مصر

تفصيل من تخطيط لفادي يازجي

العرافــة

سهير شكري

قالت لي العرّافة عندما يكتمل القمر سيعود في سفينة عملاقة مرتديا بدلته السوداء اللامعة وقميصه الأبيض الحريري، في يده ورد أحمر في اليد الأخرى حقيبة ليس بها إلا فستان زفافي الرائع وطرحة تل وتاج من اللؤلؤ. لنقيم حفل زواجنا الأسطوري الذي تأجل كثيرا.

***

عندما اكتمل القمر جريت ملهوفة إلى الشاطئ أنتظر رجوعة.. لكن على غير العادة حل الليل مسرعا محملا بالغيوم السوداء حاجبا وجه القمر.

غادر الجميع الشاطئ مسرعين وخيم الصمت إلا من صفير الرياح العاتية وزائير الموج في غضب المد وسفن لا تنتمى لا للذهاب ولا للإياب. ومع ذلك قلبي العاشق منعني من الانصراف وقفت وحدي متحدية كل الأنواء.. الظلام دامس إلا من ضوء واهن مرتعش.

فقدت الأمل، لا يوجد أيّ ملمح لسفينة قادمة، عدت إلى بيتي أجر أذيال الخيبة بعد أن كدت أموت على الشاطئ متجمدة الأطراف..

(كذبت العرّافة الملعونة)، لم يعد.

عدت تغمرني دموعي قبل المطر يكسرني الإحباط. ألقيت بجسدي المتعب على أول أريكة في مدخل البيت أرتعش من فرط الصقيع في جسدي وقلبي أبكي حتى غلبني النوم.

***

أفقت على طرقاته القوية المتلاحقة فوق بابي كاد قلبي يقف من هول المفاجأة.

(صدقت العرّافة) لقد عاد.

فتحت بابي، إرتمى في أحضاني بكينا سويا شعرت بالدفء يجرى في أوصالي. انهالت قبلاته على وجهي، عنقي، صدري.. وانفرطت عناقيد الرغبات حتى انصهرنا وأصبحنا جسدا واحدا. ثم استسلمنا لنوم عميق هادئ الأنفاس بعد أن خلصني من جنون شهوتي.

لم أفق إلا بعد أن صوبت الشمس شعاعها إلى عيوني. ولسعت حرارتها وجهى.

قمت فزعة. ألملم ثيابي من فوق الأرض وأنادي عليه فلا يجيب وأفتش عنه في كل مكان ولا أجده انتابني جزع وقلق.. إلى أين ذهب؟

ولماذا تركني دون وداع؟

تجرعت الحسرة خمرا لعب برأسي رحت أرقص عارية كالمذبوحة على طبول أنيني حتى كدت أسقط مغشيا عليّ.. حاولت أن أتكئ على جدران عشقي لكنى تهاويت واصطدم رأسي بحجارة الفراق.

***

سرعان ما جاءني صوته الفضي عبر الهاتف حزينا ملتاعا يقول:

- أحسست بوخز ضميري، واعتراني شعور بالخيانة لرفاقي، كيف أتمتع بكل هذا الحب والعشق ورفاقي مذبوحون وجثثهم ملقاة في ظلمة البحر تلتهمها الأسماك؟

كانت ليلة رهيبة تشبه نهاية العالم انفجرت الأرض في نحيب يقطع أنياط القلوب.

لقد عدت إليهم فوجودي معهم أخف وطأة من عذاب ضميري إنه كابوس شيطاني مفزع.. لو كان حلما لافتدتهم كباش الأرض وبكى مغلقا هاتفه

تركني في بحر حيرتي وجنون ظنوني، ارتديت ملابسي وهرعت إلى الشاطئ وجدته مكتظا بالبشر صغارا يلهون ويلعبون يبنون بيوتا من رمال فتيانا وفتيات يتمددون سابحين في أحلامهم تحت الشماسي يتهامسون وجوههم وردية من دفء قلوبهم. وعجائز يجلسون على المقاعد في صمت ينظرون للبحر بعد أن فر منهم العمر الذي يتكئون عليه ولم يبقى لهم متكأ إلا العصيّ، وأنا قلقة أقطع الشاطئ ذهابا وإيابا أدقق النظر في هذا البحر المليء بالأسرار وأتساءل ماذا في جوفك أيها العميق المترامي؟

رأيته وحشا كاسرا تتدفق الدماء من بين شدقيه ثم ثار صارخا متدفقا محطما صخور الشاطئ والجميع يهرول هاربا مذعورا فارا من أمامه واندفعت أجري معهم والدماء تتدفق خلفنا وأنا أستغيث وما من مغيث، أينما توجهت تتعقبني الدماء داهمني صياد فقفزت من سلته سمكة كبيرة ارتمت في أحضاني كمن يستغيث بي، نظرت في عينها صرخت إنها عينه.. هي عينه أعرفها بنظرته المتسائلة الحزينة.. آه، إذا هو ذبح معهم لن يعود آه لن يعود (كذبت العرافة الملعونة)

كل من حولي من بشر وشجر وحجر يتصارع ويتشابك ودخل في عراك عنيف أمواج الدماء ترتفع وتلاطم أوجه العمارات. الكل في حالة استنفار يستقوي كل منها على الآخر وكأن الكون كله فقد اتساقه وعبثت به آلهة الغضب.

دقات قلبي تعلو. تعلو وتتلاحق كأن قلبي زرع داخل أذني، أطرافي ترتعد حتى كادت تتركني وتتطاير متناثرة في الفضاء.

ألهث فزعة في لجج الدماء انكفأت على وجهي غمرتني الدماء ودخلت إلى جوفي فأصابني الغثيان هل نشرب دماء بعضنا البعض؟ كلما وجهت بصري أرى اسمه هو ورفاقه مكتوبا على جدران الكون، أيقنت أن أشلاءه داخل أحشاء السمكة.

هل نعود ونأكل الأسماك فنأكل بعضنا بعضا؟ صرخت فزعة شعرت بألم شديد كاد يفتك بأمعائي.. نظرت حولي لم أجد أيّ ملمح لبشر كلهم أسماك تنظر لي بوحشية فاغرين أفواههم يريدون التهامي وأنا وأنا أفر مذعورة حتى وصلت إلى بيتي.

عندما فتحت بابي وضعت كفي على عيني خشيت أن أنظر في المرآه فأرى نفسي سمكة مثلهم.

كاتبة من مصر

اسماعيل فتاح الترك ←

8 قصص

شاكر نوري

طائر بلون الغبار

لم تهدأ نسرين من كابوسها الليلي إلا عندما أزاحت الستائر نفسها في ضوء الفجر، خرجت إلى صحن المنزل غسلت وجهها بماء الحنفية الكائنة في الزاوية وأخذت ترقب الأفق البعيد لكن أنفاسها انقطعت هذا الصباح عندما رأت طائرا يحلق في رقعة السماء. رفعت رأسها طائر البوم يحلق في فضاء الصحن، ملأ أذنيها بنعيب بارد كما لو كان يخاطبها أو يعلن لها عن نبأ؛

قالت في نفسها:

أي فأل شر في هذا الصباح؟

لوحت له بشالها الأبيض الذي اعتادت أن ترميه على رأسها في محاولة لطرده لكنه ظل يرفرف بجناحيه دخلت غرفتها وانهمكت في تسريح شعرها بمشط خشبي غير عابئة بنعيبه، المرآة المستطيلة الملتصقة بخزان الثياب عكست تفاصيل جسدها لكنها حالما رفعت رأسها إلى الأعلى وقع نظرها على صورة زوجها ببزته العسكرية. انحسرت تجاعيد وجهها وانكمشت سرعان ما انفجرت أساريرها حتى نظرت إلى التقويم الشهري أزاحت من الزمن ورقة جعدتها وطوت يوما فلم يبق من إجازة زوجها غير ثلاثة أيام.

بعد لحظات تناهى إلى سمعها طرقات حادة على البوابة، سلمها ساعي البريد برقية توقفت الدموع في عينيها وامتدت يدها إلى صدرها تمزق ثيابها وهي تقرأ البرقية التي تخبرها بأن زوجها أصبح ضمن قائمة المفقودين في جبهة الحرب.

وما إن رفعت رأسها إلى السماء حتى رأت طائر البوم يحوم في صحن المنزل من جديد ويطلق نحيبه الذي يبعث ألحانا متقطعة كانت تقرأ فأل الشر بين حركات جناحيه قذفته بحجارة ظل يحلق عاليا يرفرف بجناحيه وينثر غبارا يتساقط على رأسها.

اعتصمت في المنزل وارتدت ثوبا أسود تمضي النهار بأكمله في التحديق بصورة زوجها أوقدت الشموع، وما إن جلست في الصحن حتى جاء طائر البوم يحوم، يصفق بجناحيه ويذر الغبار مرة أخرى. اختلط نعيبه بضربات الباب وما إن أزاحت الرتاج الخشبي حتى رأت خيولا بيضاء تسحب عربة تحمل نعشا على هيئة صندوق خشبي على الطريق الترابي. تصاعدت غيمة من الغبار إثر امتزاج حركة عجلات العربة، وخبب أرجل الخيول تغطي المشهد وتحيله إلى كتلة رمادية لاح لها يوم زفافها على تلك العربة في الأفق ومنذ أن رفعت رأسها ورأت طائر البوم يحلق فوق صحن المنزل حتى أدركت بأنها لم تعد تحلم!

ازدادت الطرقات على البوابة دخل أربعة يحملون نعشا ملفوفا ببيرق ملون يتقدمهم ضابط أطلقت صرخة قوية قبل أن تهوي على الأرض. رد عليها بصرخة مدوية.. واختلطت طلقات البنادق وزغاريد النسوة؛ غادر الجنود الأربعة والضابط أفاقت من غيبوبتها وجدت نفسها وحيدة تبكي على النعش، يرقبها طائر البوم الذي حط على سطح المنزل.

ظلت نسرين تبكي وتقطع خصلات شعرها، وتذرف الدموع حتى أخذت تسيل على الأرض بدأت تنبت طحالب خضراء تزحف في صحن المنزل بسرعة عجيبة. غطت النعش ثم راحت تتسلق أسوار المنزل لتغطي القطعة الزرقاء التي حفر عليها رقم المنزل المثبت في أعلى البوابة حيث لم يعد أحد من المارة قادرا على قراءته إذ تحوّل المنزل إلى غابة عجيبة من الطحالب الخضراء!

باريس 1986

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

إله البيادق

وقف الجنرال المتقاعد، ذو الرأس الأشيب، يحدق بصندوق زجاجي تتألق في جوفه مصابيح ملونة تضيء بزة عسكرية عتيقة معلقة، تظهر على أكتافها أشكال لنجوم وتيجان وسيوف ذهبية تشير إلى رتبة عالية، وعلى صدرها اكتظت شارات متنوعة إلى جانبها عصا مطعمة بزخارف وكلمات مبهمة. في خلفية الصندوق، تبرز مسامير ونتوءات خشبية مثل مشاجب ثياب تتدلى منها أسلحة متنوعة. كما انتشرت في غرفته تماثيل نصفية مصنوعة من الرخام لشخصيات عسكرية مرموقة.. وكذلك صناديق مليئة ببيادق شطرنج مكدسة الواحدة فوق الأخرى حيث ظهرت مثل تلة ترابية في وسط الغرفة. بحركة متزنة، تناول بزته المصفوفة باعتناء من الصندوق الزجاجي، ارتداها، وانتعل الحذاء الأحمر الثقيل، ووضع عصاه الرفيعة تحت إبطه. انتصب بقامته، ورفع رأسه كالطاووس عارضاً هندامه أمام المرآة التي تغطي أحد الجدران.

أطلق صرخة وقال في نفسه:

- الثوب لا يصنع القديس.. والبزة لا تصنع الجنرال؛ ثم قهقه بصوت عالٍ وأضاف:
- من الذي صنعني.. البزة صنعتني أم أنا الذي صنعت البزة؟؛

نظر في المرآة:

- كيف أعيش بعد ذلك.. أيتها البزة.. أيتها الفاجرة؟

وضرب المرآة بعصاه ضربة شرخت المرآة إلى نصفين، فانقسمت صورته المنعكسة إلى نصفين أحدهما يكلم الآخر. رأسان يتحركان وعصاتان تلوحان في فناء الغرفة؛

بدأ الجنرالان يتحدثان:

- أنت.. من أنت؟

صمت قليلاً كما لو أن خدراً صعد إلى رأسه، وأرهف السمع إلى صدى بعيد ينبثق من الجدران.

- كيف تسأل وأنت تعرفني؟
- أنا لا أعرف سوى نفسي.
- وأنا أيضاً.
- صه أيها.
- صه أيها.

ثم بصق على المرآة.

ثمة كرامافون ملقى على طاولة. وضع يده على الإبرة فانطلق مارش عسكري من إسطوانة مكسوة بالغبار اختلطت الأنغام بالغبار وما كادت تنسجم مع حركاته.

لوح بعصاه في فناء الحديقة. وصعدت النشوة إلى رأسه من وقع خطوات حذائه الثقيل. وبعد أن شارفت الإسطوانة على إنهاء دورتها اللولبية، عاد عبر دهليز طويل إلى غرفته. صفف بزته. وألقى نظرة على المرآة المشروخة. ثم ذهب إلى الصالون المترامي حيث تجلس زوجته وابنته الصغيرة بانتظار تناول فطور الصباح.

الليل يقتحم الذاكرة دائما. واعتصامه في غرفته السرية يجعله يخمد رمادها. سرير الزوجية لم يعد يغرية. كانت غرفته تفضي إلى سرداب يطل على النهر. لم يعد يفارق غرفته الصاخبة. كان يفرش كل ليلة، الطاولة المدورة الكائنة وسط غرفته، بالخرائط، ويكوم فوقها بيادق الشطرنج، يتأملها ويخطط بها لمعاركة. فلم يكن يقطع عزلته الصامتة سوى صافرات الحرس الليلي. أزعجته الصافرات. ارتدى بزته وخرج يهددهم. فقد ملأته الدهشة حين لم يؤدوا له التحية. ضحكوا من بزته المترهلة. فلم تعد عيناه الذابلتان تدخلان الخوف في نفوسهم.

عاد إلى غرفته. حدق في المرآة المشروخة إلى نصفين حين نزع بزته رأى النصف الآخر ما يزال يرتدي البزة؛ صرخ في المرآة. لكنه شعر بأن صوته اختفى نهائياً ضرب المرآة مرة أخرى بعصاه فتناثرت قطع في وجهه ثم هرع إلى صناديق بيادق الشطرنج أفرغها على الطاولة حتى تساقطت وتكومت في وسط الغرفة. بعد ذلك ضرب الصندوق الزجاجي بعصاه فتهاوت ألواحة الزجاجية على الأرض.

أفاقت زوجته إثر سماعها انكسار المرايا وألواح الزجاج. كانت تعتقد بأنها تحلم؛ هرعت إلى غرفته. فقد ترك المدخل السري مفتوحاً. انبهرت لهذا الحشد الهائل من بيادق الشطرنج المكدسة.

كان زوجها مخضباً بدمائه، انغرست في وجهة قطع زجاجية وهو في كامل هندامه العسكري. الدهاليز تمتد إلى النهر. تصاعدت أعمدة دخان كثيفة من اليخت الجاثم على ضفة النهر فيما تصاعد صخب محركات الطائرة؛ احتضنت ابنتها الصغيرة. كان الوقت ضيقاً لحمل جثته. فقد اصطفت طوابير بشرية لتلقي آخر نظرة على إله البيادق

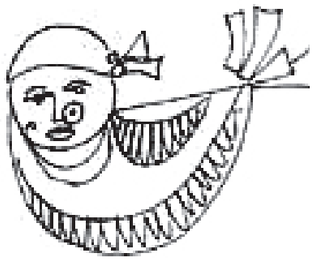

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

عارياً من نياشينه وأوسمته المطلية بماء الذهب.

الشرفة

في شارع "مدينة الزهور" الهادئ، ومن بين النوافذ المعتمة المائلة إلى الشحوب، كانت نافذة إحدى الفيلات تفيض بشعاع زاخر يبدو أنه كان ينبعث من مصابيح ضخمة. ومن شدة انحصاره في الداخل راح يزحف من تحت بوابة إحدى الغرف لينير أوراق أشجار ساقطة على العتبة.. كما يكشف عن وجود رسائل مكدسة تراكم عليها الغبار حيث لا تستطيع العين تمييز حروف عناوينها أو أختام البلدان التي أبحرت منها..

وفي داخل الفيلاّ، سلم خشبي حلزوني قصير، مفروش بالسجاد الأحمر الثمين. هناك بصمات أقدام تشير إلى وجود شخص لا يتحرك كثيراً كما يبدو. على عتبة مدخل غرفته تنتشر أشياء مهملة، لم تمسها يد بشرية، يغطيها غبار كثيف، يبدو من خلال البصمات المرسومة عليها أنها استقرت دون أن يستطيع أحد إزاحتها: قدحان، غرامافون، إسطوانات مشروخة، قناني خمر فارغة، كتب قديمة، مقص، عصافير ورقية، أشرطة لاصقة، دبابيس، علب نصف مفتوحة وأشياء أخرى.

كانت مصابيح الشارع، تبعث أضواء خافته تختلط بأشعة الفجر البيضاء، فتولد نوعاً من الضوء لا يمكن تحديده. كما أن شكل الشارع الهضبي وتصاعد الغبار منه زاد في كثافة الضوء حيث حين يسير المرء في هذا الطرف لا يرى إلا رؤوس المارة في الطرف الآخر التي تزداد في الاكتمال كلما تقدمت.

من بعيد ، ظهرت أيد معروقة، نحيلة، تدفع عربة خضراء لجمع براميل القمامة الملقاة أمام سلسلة الفيلاّت منتشرة على طول الشارع. ظهرت العربة تدريجياً، ثم اختفت، ثم ظهرت، وهكذا أيضاً ظهر وجه منظف القمامة الزنجي الذي اختفى خلف العربة في بدلته الزرقاء القاتمة. وفي جيبه العلوي ظهرت علبة سجائر.

النهار قد بدأ مع الفجر بالنسبة إلى منظف القمامة الزنجي. قام بجمع الصحف القديمة وأوراق الأشجار الخريفية المتناثرة أمام الفيلاّت،

وعبأ بها عربته. كانت نافذة تلك الفيلاّ المضاءة هي وحدها التي يفيق أصحابها عند الظهيرة بعد أن يمضوا الليل في السهر.
بعد أن قام منظف القمامة الزنجي بتنظيف الحديقة دخن سيجارة وأرسل نظره إلى برميل القمامة الكائن من أسفل الفيلا تبادلا النظرات دون أن يتكلما حين انتهى من عمله أوقد سيجارة أخرى، ورمى عود الثقاب في برميل القمامة الفارغ. ومضى يدفع عربته ليكمل عمله في الفيلات المجاورة والمنتشرة على مد البصر.
بعد لحظات، تصاعد دخان خفيف من برميل القمامة لم ير الشاب المشلول ذلك الحين أزاح الستائر الوردية التي كانت تحجب رؤيته فيما اختفى منظف القمامة في الشارع. حدق بالفناء الممتد أمامه فلم ير سوى برميل القمامة. أدرك بأن عمود الدخان يجذبه إلى محرقة هيأها له منظف القمامة الزنجي اقترب بخطوات متعثرة، انزلقت العصا التي كان يتكئ عليها، فقد توازنه انفتحت النافذة إلى الأسفل وما إن تدارك المشهد المذهل أمامه حتى سقط في برميل القمامة الذي تصاعدت منه تغطي واجهة الفيلا الأمامية. صعد اللون الرمادي وتآلف مع لون السماء الذي انتشر على كافة أركان الفيلا المحترقة.

باريس 1985

يقظة بغل

بدأت أسراب الجنود تزحف ببطء على سفوح الجبال المكسوة بالأشجار الضخمة تنقل المؤونة والآليات الخفيفة إلى أعلى القمم تهيؤا للهجوم، كانت القمم الجليدية ناصعة البياض تبدو من بعيد كزبد البحر الفائض. ورغم البرد القارس، كان الجنود يتهيبون من إيقاد النار كي لا يصبحوا في دائرة قنص الأعداء.
كانت الأكواخ تبدو مثل علب الكبريت من خلال منظار الضابط الذي ابتسم. ثم ألقى المنظار جانباً وراح يفرك عينيه، بيده اليمنى المغطاة بقفاز الفرو. وقد أطرق رأسه مفكراً بالطرق التي يستخدمها الأعداء في استنفاد ذخيرة الجنود وذلك عن طريق إرسال حمير تعلّق في أعناقها فوانيس نفطية الأمر الذي يجعل الجنود يفتحون نيران البنادق عبثاً في الهواء!
ما تزال أجساد الجنود تترنح ثملة من الإنهاك، في حين يواصل الصف الأمامي التسلق إذ ينهال جنوده يضربون بالسياط البغال المحملة بالعتاد من أجل نصب آليات المدافع الخفيفة على قمم الجبال، يبدو أن البغال أصبحت في وضع لا تتحمل الأعتدة البرونزية مدببة الرؤوس وهي تخترق الأكياس الرمادية وتوخز أجسادها. بينما يسعى الجنود إلى دفع البغال المنهوكة للتسلق.
يمتد الفناء واسعاً، بينما تتكدس ألواح الثلج على الأكواخ. ولا يتناهى إلى الأسماع سوى حفيف أشجار ممتزجة بخرير شلالات. لم يكن يمزّق ذلك الإيقاع الصامت سوى دوي انفجارات متقطعة. مما يجعل الأرانب والغزلان البرية تفر من جحورها مرتعدة، راكضة صوب تجاويف جذوع الأشجار.
لم يصل الجنود بعد إلى قمة "كرد مند" وما يزال الصف الأمامي يفكر بجندي مات أثناء التسلق كما توجبت الأوامر العسكرية أن يقطع الحبل الذي يربطه بالسلسلة التي تربط الصف الأمامي، وأن يدفن في ألواح الثلج أو يقذف في الوادي!
كان على الفرقة العسكرية أن تتسلق قمم الجبال، تتقدمها مجموعة من البغال التي بدأت تدرك تعباً لاهثاً إذ لم تهدأ حينما أفرغ الجنود قطع العتاد والآليات الخفيفة من ظهورها. كانت السماء وقمم الجبال قريبتين من عيون الجنود.
في تلك اللحظات، راحت البغال تحرك قوائمها لتقذف الثلج المتكدس ما بين السروج الجلدية وظهورها حتى اقتربت متلهفة من كومة أعشاب مرئية برؤوسها من تحت مستنقع ثلجي يبدو كواجهة زجاجية. فقد حركت بعض البغال أبوازها، ضاربة الواجهة الثلجية، لتستأصل الأعشاب وتلتهمها. لكن ثمة ظل مسمراً في مكانه لم يقترب من البغال الأخرى التي راحت تعلف. هز ذيله معبراً عن غضبه، وأطلق حشرجة عميقة، وهو يحاول تحريك الكتل الثلجية التي استقرت ما بين السرج ورقبته. بعد حركات سريعة، انساب الثلج ذائباً من تحت السرج مبللا جسده، وراح يحدق بأطراف عينيه الواسعتين بالجنود المنهمكين باستخراج الصحون المتجمدة وتنظيف فوهات البنادق. ثم راح يتحرك حول الجنود أكثر من مرة.
آنذاك أغرقت الشمس قمة الجبل بفيض من الشعاع. وبدأت الثلوج المتجمعة في الشقوق التي أحدثتها السياط في رقبة البغل تذوب. عندها بدأ يتلوى ويكمش جسده بحركات عنيفة، محاولا التخلص من المياه الذائبة في جروح رقبته ثم ألقى بحركة مرنة، السرج الجلدي المثقل بسلسلة حديدية أرضاً، واستنشق هواء طلقاً أحس بخفقة جسده.
لم يكن البغل يشعر، كما يبدو، طيلة فترة التسلق بالسياط المنهالة على ظهره إلا بعد اختراق أشعة الشمس وذوبان الثلج المتكدس على جسده. تدفقت الدماء في عروقه من جديد باعثة التراخي، وهي تؤجج الألم الذي يخزه كالإبر.
لم يكن يراقب ذلك البغل سوى جندي واحد بينما انشغل الآخرون بالأكل. وما إن ارتسمت حالة الذهول على وجهه حتى اقترب البغل الغاضب من حافة الوادي مادا رقبته إلى الفراغ كمن يتفحص المكان. وبحافة بوزه دفع حجرة تدحرجت نحو أسفل الوادي. التفت الجندي الذي كان يراقبه بينما بدأ البغل يحدق بالوادي المشتعل بالأعشاب الخضراء. بعد لحظات رفع بوزه نحو السماء بدت في عينيه الواسعتين ضئيلة، منكمشة، تكاد تنطبق عليه فيما ازداد ألم السياط.. استدار نحو الجندي. بدأت مناخيره تنفتح وتنغلق باتساع. والوغف الأبيض فاض من بوزه. أغمض عينيه الواسعتين وازداد ألم السياط . استدر نحو الجندي . بدأت مناخره تنفتح وتنغلق باتساع. والوغف الأبيض فاض من بوزه. أغمض عينيه الواسعتين. وازداد سريان الدم في عروق وجهه الغليظة. أخذ يحرك قوائمه بخشونة وهو ينظر إلى الجندي المنذهل تارة وإلى الوادي تارة أخرى سرعان ما ارتج جسده بقوة مطلقا حشرجة قوية وهو يلقي بنفسه في بطن الوادي ارتبك الجنود نهضوا مذعورين يحدقون في الوادي حيث شاهدوا البغل يغوص بين ألواح الثلج والأعشاب الخضراء.
أطلق الضابط قهقهة وتبعه الجنود بقهقهات مدوية في الفراغ بينما انهمرت الدموع من عيني الجندي الذي كان يراقبه لأنه كان الوحيد الذي عرف بأن البغل قد انتحر!

باريس 1972

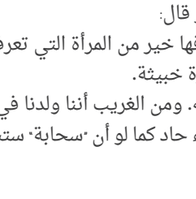

خاتم من حجر الألماس

لا أدري كيف يمكن لي أن أروي حكاية تتطابق مع الحقيقة أو في الأقل تلامس حدودها لأنها تخنق أنفاس المخيلة بيد متصلبة، لتحولها إلى واقعة جامدة كعروق خالية من الدماء، لكن الحدث ما يزال يخز ذهني كالإبر رغم أنه يعود لأعوام طويلة مضت، ويلح أن يخرج من إطاره الواقعي رغما عن أنفي!
في تلك الليلة، أقبل أبي إلى المنزل مصطحبا فتاة شابة، عرفت فيما بعد أن اسمها "سحابة" كان ذلك أول وآخر لقاء لي بها، فحتى لو قدر لي أن ألتقيها مرة أخرى، فإنه من الصعب عليّ إعادة رسم صورتها: وجهها المدور، عيناها المتألقتين، وخصلات شعرها المنسرح على جسدها النحيل.
لم تكن تلك الليلة كالليالي الأخرى. فقد ظلت مصابيح منزلنا مضاءة حتى الفجر، نأكل ونحتسي أقداح الشاي ونلتهم قطع الحلوى كأننا نحتفل بمولود جديد!
قال لي أبي بالحرف الواحد:

- يا بني. تزوج "سحابة" إنها فتاة يتيمة عثرت عليها أثناء سفرتي في القطار.
- رفعت أمي رأسها، تنظر إليه بعينين زائغتين دون أن تنبس بكلمة.
- ثم أردف قائلا، موزعا نظراته الحائرة بيني وبين أمي:
- إذا تزوجتها تصبح سعيدا طوال حياتك.
- وبعد توقف قصير قال:
- المرأة التي لا تعرفها خير من المرأة التي تعرفها.
- حدجته أمي بنظرة خبيثة.
- كنا في العمر نفسه. ومن الغريب أننا ولدنا في اليوم ذاته.

انفجرت أمي فجأة ببكاء حاد كما لو أن "سحابة" ستسرقني منها وإلى الأبد في تلك الليلة بكت أمي بكاء لا مثيل له. وحين أردت إسكاتها من البكاء، قالت لي:

- أبوك لا يريدك أن تتزوج منها!
- كيف؟
- إنه يريدها لنفسه!

لم أصدق ذلك. لكن غيرة أمي طفحت إلى السطح لدرجة أن نحيبها ظل يرن في أذني طوال تلك الليلة.
لا أدري لماذا أحتفظ بصورة "سحابة" إلى حد الآن؟ ربما أن ما يشدني إليها هو غموض ملامح وجهها. لم تنطق بكلمة.. لذا لا أتذكر أي صوت انبعث منها. فقد بقيت أسير صورة أشرقت كالبرق في السماء. هكذا أصبح صوتها المكتوم مصدرا لخيالي. صوت يشبه خرير نهر أو احتراق أعشاب غابة أو خبب أحصنة هاربة؛ ربما أن خجلها هو الذي رسخ ملامح وجهها في ذهني لا أدري!
أتذكر جيدا كيف دخلت عتبة الباب تسير خلف أبي كأنها أسيرة. كنت أنظر إليها من خلال النافذة. يداها تتشابكان إلى الأمام. أما رأسها فكان منحنيا نحو الأرض.. لم تنظر في وجوهنا. ولم تجلس إلا عندما أمرها أبي. وهذا ما أدخل الشك في أعماق أمي. كانت جائعة. أكلت قليلا ثم أجهشت بالبكاء.
أمضت "سحابة" الليلة في منزلنا. وبالأحرى فرشوا لها في طرق غرفتي الواسعة بعيدا عن فراشي. لكن نظراتي لم تكن تفارق خفقات صدرها البارز من تحت الغطاء الصوفي.
في تلك الليلة لمحتها تخرج صندوقا صغيرا بحجم أنملة الأصبع، ذي غطاء زجاجي أبيض. فتحته وأخرجت منه خاتما التمع بضوء يدها اليسرى، فتشكل على هيئة ثعبان ملتو حالما أحدث حزا أزرق في عروق أصبعها. تحركت من سريري، منجذبا بألق الخاتم. قربت شفاهي إلى فمها الصغير وقبلتها. وفتحت عينيها الواسعتين وابتسمت.
قلت لها بصوت خافت:

- من أين لك هذا الخاتم؟

ردت علي بصوت شبه الهمس:
إنه خاتم أمي التي..
سكتت قليلا وأردفت:
خاتم أمي التي ماتت.
عدت إلى سريري وما يزال في فمي طعم شفتيها المالحتين. في ظلام الغرفة لم أكن أسمع سوى أنينها المتدفق من تحت الغطاء الصوفي الذي كان يشبه صوتا مخنوقا. جذبني ذلك الصوت لأعود إليها ثانية وسط أنفاس أبي وأمي. أدركت بأن السيف قد اختفى من بين جسدينا، ولم نعد نمتلك أثوابا، فقد هبت ريح عاتية من النافذة وأقلعت الأغطية الصوفية المسدلة على جسدينا العاريين. ثم أدركت بأن الليل يسيل كحبيبات الرمل. وأن رعدا يضيء رقعة السماء الظاهرة من النافذة. في تلك اللحظة استجمعت كل قواي. اتقدت عيناها ولم تكن خائفة مني. مسكتني بقوة فشعرت كأني أهوي من بناية شاهقة. كان البرق المتقطع يحثني على أن أمضي بعيدا. ويبعث بي شجاعة لا مثيل لها. في تلك الأثناء لم أكن أر سوى عينيها المتقدتين وخاتمها المتألق في إصبعها.
أمسكت بكتفي كفريق يتشبث بقشة طافية. أطلقت صرخة وشعرت

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

بأن ثمة سهما ينطلق من ظهري باحثا عن شيء يعلق به. لم أكن أصدق حين رأيت الدم يتسرب على فخذيها النحيلتين.. ذلك الدفق الأحمر.. الدم الإلهي..

كان الرعد قد هدأ. وخيوط الفجر لاحت عبر النافذة. كانت تلك هي لحظة القرار.. بين أن أبقى في منزلنا أو أغادره. امتدت يدي إلى معطفي الصوفي، هربت وأنا أفكر بالقطار. ربما في القطار الذي عثر فيه أبي على سحابة. وبعد ذلك الحين لم أر أبي وأمي..اللذين ماتا وكذلك سحابة!

لكن شعاع خاتمها ظل يوقظني من نومي ويقض مضجعي، لأحدق في المرآة بوجهي الذي أخذت الشيخوخة تنخره يوما بعد آخر وكأن الزمن قرر أن يسرع خطواته ويرمي بي في مستنقع الخطيئة الأولى- غشاء البكارة وتفاحة مقضومة بأسنان شرسة!

باريس 1985

كوابيس الماء

استلقى على سريره المعتاد يفكر بالنوم مثل كل ليلة. أطفأ المصباح المعلق في السقف، فغمر غرفته ظلام لم يكن يتبين له أي قبس من الضوء سوى بريق عقارب الساعة التي تنبعث من الساعة المنضدية المتربصة. أما الدقات المخزونة في جوفها فقد ازدادت حدة وتحولت إلى ضربات مطرقة حديدية تنهال على رأسه وتستقر في دهاليز أذنه لدرجه لم تعط أيّ هدنة لجفنيه.

نهض غاضبا وبأيد مرتجفة أراد أن يقذف الساعة المنضدية من النافذة، لكنه كان يخشى أن تحدث دويا مزعجا إثر ارتطامها بالأرض. لذا لفها ببطانية خفيفة في محاولة لخنق أنفاسها وإسكات دقاتها الجهنمية!

استلقى على السرير ثانية. أرخى جفنيه لكن الدقات لم تختف نهائيا تذكر أنه لا يمكن للأصوات أن تختفي أبدا! ربما خزنتها الجدران وراحت تبعث صداها من جيد. آنذاك أدرك أن النوم غادره في تلك الليلة.

رغم ذلك، حاول أن ينام تراءى له في ظلال محجريه سرداب عميق، تنتشر بداخله غرف صغيرة شاهقة السقف. وجد نفسه يجلس على كرسي تطوقه أذرع حديدية وقطرات ماء تنهال على رأسه من السقف الشاهق لم يكن قادرا على رفع رأسه لرؤية مصدر الماء الساقط كانت القطرات المائية تلتمع قبل أن تسقط على رأسه الحليق كأنها قطرات من الزيت المغلي!

تناهت إلى سمعه طرقات حادة على الباب. اختطلت بقايا دقات الساعة المنضدية، وأصوات الماء الساقطة من السقف بطرقات الباب..

هكذا امتزجت وتحولت إلى كرات نارية.. وراحت تتوغل في متاهة رأسه الآن بدأ يتذكر أن طرقات الباب تلك كانت تأتي من بعيد تذكره بأعوام الدراسة الجامعية التي أمضاها في شبابه. في تلك اللحظة اختفى صخب العالم لينتقل إلى رأسه، يلامس جلده، ويدخل مساماته.

أرهف السمع بنباهة، فاتحا دهاليز أذنيه:

طرقة

طرقتان..

طرقتان...

ها هي يد حبيبته تطرق الباب هكذا: طرقة. طرقتان. ثلاث طرقات. يمتزج الخوف مع الطرقات وعيناها تفيضان كآبة موحشة. احتضنها عند عتبة الباب وأغلق باب غرفته، بأنفاس لاهثة متقطعة، مترقبا الزقاق. لم يرها أحد. آه اللعنة!

ما إن استسلم إلى نومه حتى أرهف السمع ثانية:

طرقتان.

طرقتان.

طرقتان..

هاهم رفاقه. وجوه صارمة. وقفوا أمام باب غرفته. وآثار القلق ترتسم على وجوههم. ها هم دخلوا غرفته وبدأوا يقرأون أوراقا سرية. لم يرهم أحد. آه اللعنة!

الآن لم يبق من نومه سوى القليل، وهو يصغي لطرقات أخرى على الباب:

طرقتان.

طرقة..

طرقتان...

خرج جميع النزلاء من غرفهم. لم تعد الطرقات سرية. عباءة سوداء تلف جسد امرأة نصف عارية. اعتادت أن تمر على غرف النزلاء. في ذلك اليوم غرق في حمّى جسدها لأنها اختارت أن تطرق بابه!

اختفت دقات الساعة المنضدية.. ثم تلاشت طرقات الباب.. لكن أصوات قطرات الماء النازلة من السقف عادت ترن في أذنه، وتلتمع كقطرات الزيت! إنه الآن غارق في ظلام عميق. وقد تسرب الخدر إلى رأسه تراءى له السرداب..

أطلق صرخة. وما إن أفاق من نومه حتى ملأ الضوء غرفته العلوية في الطابق السادس من المبنى الذي يعود معماره إلى القرن التاسع عشر. ألقى نظرة على المغسلة الكائنة في زاوية الغرفة، رأى قطرات الماء تنزل في المغسلة.أغلق الحنفية.. حدق في وجهه بالمرآة، وجده شاحبا تبدو عليه آثار جروح قديمة تحولت من اللون الأزرق إلى اللون الأسود كالوشم. ثم ألقى نظرة عبر النافذة فاتسعت عيناه لرؤية ألواح الثلج المكدسة على الزجاج. امتلأت عيناه بدموع دافئة عندما نظر إلى تلاميذ المدرسة الصغار وهم يتقاذفون بكرات الثلج. آنذاك تيقن بأنه بعيد عن كوابيس الماء. فقد غسلت الثلوج ذلك النهار وطهرت روحه، ارتدى ثيابه وهبط ستة طوابق ليتناول قهوة الصباح

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

في مقهى مطلة على نهر السين!

باريس 1977

جنائن دجلة

كانت الخمرة اللاهثة قد صعدت إلى رأسي مثل دبيب نمل بطيء الحركة إثر خروجي من الحانة في تلك الليلة. لم تكن لديّ أيّ رغبة في الذهاب إلى منزلي. والليل أصبح صديقا أليفا في تلك اللحظة. أثناء تجولي جذبني منظر رؤية نهر دجلة الذي لم يكن بعيدا عن مكان الحانة أو هكذا خيل إليّ.

حدقت من الكوة المحفورة في الجدار المعمل من الشارع، فظهر لي النهر كبحر هائج يحثني على السير نحوه. توغلت بخطى وجلة لكنني حالما شعرت بالاطمئنان عندما رأيت الأضوية الخافتة تنعكس على صفحة النهر وتحدث أشكالا هندسية ممتعة للنظر حيث بدأ سرب من النوارس يخفق بأجنحته ملامسا صفحة المياه الساكنة، محدثا كجسد واحد، أمواجا خافتة بطيئة.

في ظهر المباني المطلة على النهر، ثمة شرفات منخفضة تقطعها كونكريتية ضخمة من الأسفل، تكونت الشرفة على شكل غرفة مطلقة. من ذلك التجويف، خرج فجأة رجل كث اللحية، جاحظ العينين، منحني الظهر، واضعا ذراعيه خلف ظهره في محاولة لإسناد هامته المعوجة نوعا ما، وقف برهة يرسل نظره صوب النهر. تقدمت نحوه بحذر، حابسا أنفاسي لا تطلع إلى تجاعيد وجهه الغامضة. آنذاك رفع رأسه ورمقني بنظرات عدائية، فتبينت من ملامح وجهه بأنه شيخ طاعن في السن، له ملامح مزيج من الهندي والآسيوي. لم ينبس بكلمة، فتراجعت إلى الوراء قليلا، تخيلته أصما لذا لوحت له بيدي معبرا عن التحية لكنه سرعان ما استدار نحو غرفته معبرا عن قرفه.

فكرت بمغادرة الفناء لكني انتظرت محدقا بالنهر الساكن والمصابيح الخافتة المتألقة مندفعا بحالة حب الفضول السيئة. ولكي أصحو من تعاويذ الخمرة اللعينة، نزلت إلى النهر، وضربت وجهي برشقات من الماء البارد. كان الصمت يغطي الفناء فيما عدا صوت تبول بعض السكارى محدثا صوتا يشبه جريان المزاريب وقت هطول المطر.

غمرتني الفرحة فجأة حين رأيته يخرج من جحره مرة ثانية حاملا صحنا يريد أن يغسله في النهر كما يبدو. بعد أن قام بذلك انحنى يجمع بعض القناني الطافية. ألقيت نظرة على مخبأه غاصا بالقناني والأسمال والأدوات المهملة. كنت أعتقد بأني سببت له بعض الآلام من خلال مراقبتي له، تمنيت لو أكون قادرا على استئجار غرفة له.

تساءلت في نفسي:

- ماذا يحصل لو تقذف الأمواج المعتوهة غرفته وقت الفيضان؟

ازداد فضولي لمعرفته. قصدت مخبأه وقلت له دون تردد:

- يا حاج.. ألا تخاف أن يأتي الفيضان ويحتاج غرفتك؟

- رفع رأسه، ونظر إليّ باستغراب. بعدها أخفى رأسه وانهمك يغلي الشاي في إبريق صدئ.

وقال بنبرة ساخرة:

- الفيضان؟!

قلت له:

- أجل.. الفيضان. دجلة تفيض ثلاث مرات في العام.

لكني استدركت الأمر وقلت في نفسي:

- ربما يعرف الحاج مواعيد فيضان دجلة، ويهجر غرفته.

تمتم بكلمات مبهمة كمن يتحدث مع نفسه:

- دجلة لم يفض سوى مرة واحدة!

- مرة واحدة؟!

- أجل

- متى؟

هز رأسه ضاحكا.

ثم تمتم بكلمات مبهمة:

- تسألني متى؟

- .....

- حين سبح فيه المغول!

ثم نظر إليّ بتحد قائلا:

- جدي مات في ذلك الفيضان!

شعرت بشيء من ركاكة في لغته العربية تدل على أنه تعلمها في عمر متأخر.

قلت له:

- ومن هو جدك؟

قهقه..

- الحاج القوقازي.. ألا تعرفه؟!

ثم انطلق كمن يهذي خالطا التواريخ والأرقام ومتنقلا من عصر إلى آخر..

كان ذلك في العشرينات. لا أدري من هذا القرن أو من القرن الماضي. حاج من القوقاز. أزرق العينين، أشعث الشعر، جاء إلى بغداد وعاش مع عائلته الثرية.

كان نوعا من الحارس الذي يتنكب بندقيته ويهتم بتنظيم حديقة البلاط الملكي التي تطل على ضفاف دجلة.

صمت قليلا.. ثم أضاف:

ذات ظهيرة، وقت القيلولة. تراخت أجفانه على ضفاف دجلة يتخيل جنائنها. وما بين الحلم واليقظة، لمح شخصا يركب سلة من القش. نظر إلى السماء لحظة.

شعر بأن ثمة خطرا يحدق به. قد يأتي ذلك الشخص ليقتله. لم يكن له سوى عدو واحد يتربص به وهو حاج هندي. وأصدقاؤه هم أبناؤه.. يأتون لزيارته مرة في العام.. يفترشون الأرض أياما وليالي الزيارة في الأماكن المقدسة.

تناول سيجارة، وواصل الحديث وأنا أصغي إليه بشغف:

- أتعلم أنه كان محصّنا من كل الأخطار. فقد قطع بأصابعه قطعة من الحجر الأسود من الكعبة لتدفع عنه كل أذى لكن صاحب سلة القش.. أي الحاج الهندي كان يتقدم. وحين شعر بالخطر، صوب

بندقيته نحوه. عندما انطلقت الطلقة كانت فوهة بندقيته تلامس صفحة الماء. مد يده إلى صدره، شعر بدم يخرج منه بينما راح الماء الهادر يجذبه إلى القاع وهو يرسل نظراته إلى السماء الزرقاء.. والنوارس البيضاء.. هل أصابت الطلقة قلبه؟! لا أحد يدري!

- لمعت الدموع في عينيه.

- قلت في نفسي:

- أيأتون من القوقاز إلى بغداد ليصبحوا حجاجا..

ونبقى نحن سكان هذه المدينة جاحدون؟!

ثم صرخت حين صعدت الخمرة إلى رأسي:

- اللعنة عليك يا بغداد.. صانعة المغول!

وحين خرجت إلى الشارع مخلفا ورائي فيضانا كاملا من الكلمات، دخلت إحدى الحانات القريبة، فوجدت صديقا لي. لم أحتمل أن أكتم في صدري ما رواه لي الحاج القوقازي عن مقتل جده أو ربما انتحاره.. وحين انتهيت من سردي ضحك مني قائلا:

- أما زلت تؤمن بجنائن دجلة؟!

قلت له:

- أنا لا أؤمن بشيء.. إنه الحاج القوقازي.

سألني بدهشة:

أما يزال الحاج القوقازي يعيش تحت الشرفة لحد الآن؟

- أجل .. قابلته قبل قليل.

وفجأة مسكني من ذراعي، وقال لي بجدية باردة.

- أنصحك بأن تتخلى عن شرب الخمرة لأن الحاج القوقازي عاش في القرن الماضي عندما كانت لدجلة جنائن.. وبغداد قبلة الحجاج!

بغداد 1972

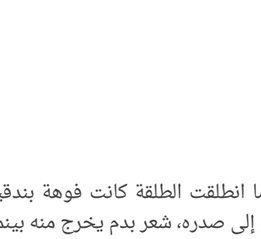

خريف امرأة

من نافذة شقتي المطلة على بولفار "بيسيير" الدائري الذي يحيط بمدينة باريس في منطقة "بورت دي كليشي"، أرى دليلة، وهي تقف تحت مظلة موقف الباص المواجهة لنافذتي. وكلما تراجعت إلى الوراء في عمق المظلة تنير وجهها أضواء اللوحة الإعلانية المعلقة في واجهة الموقف.

الشقة حبلى بالدفء والبولفار يمتقع لونه من البرد ها أنذا أرى حبيبات الضباب المتكدسة على زجاج نافذتي ولكي أتأكد من وجود دليلة في تلك البقعة المضاءة في موقف الباص ينبغي أن أوقد المدفأة القريبة من نافذة شقتي بعد لحظات تتبدد حبيبات الضباب المتناثرة كالسكر وتنزل على شكل قطرات مائية على صفحة الزجاج الخارجي ها أنذا أرى المساحة الممتدة أمامي بشكل أوضح أرسل نظري لا أحد يقف

فأعود لألقي نظرة على إبريق الشاي الساخن وأضع قدميّ العاريتين على حافة المدفأة فأشعر بخدر ناعم يتصاعد متسللاً عبر جسدي إلى رأسي.

في لحظات غيابها من تلك البقعة المضاءة ترتسم لي عيناها السوداوان الواسعتان وأتذكر حديثها الطري:

- يحدث لي أحياناً أن ألقي برجال غريبي الأطوار تخنق الرغبات أنفاسهم منهم من يطلب مني أن أسقيه من حليب ثديي كطفل وآخر يريدني أن أصفعه.

أنظر في عينيها:

- أولئك رجال لطفاء..

تصمت لبضعة لحظات:

- لكن بعضهم خبيث لذا تراني أحمل قنينة الغاز النافخة في حقيبتي إنها لو شئت سلاحي الوحيد في لحظات معينة لا أعرف ماذا ينوي الرجال وما تضمره نفوسهم! أتردد قبل أن أدخل في جوف سياراتهم الملتهبة بالرغبات أننا لا نعرف متى نشهر أسلحتنا في وجه الآخر.

تمد يدها وتلمس يدي:

- العشيق هو أخطر الأعداء.. أليس كذلك؟

- زجاج النافذة مضبب.. والسيارات تمضي بسرعة على البولفار كالأشباح المنطفئة ما زلت منشغلا بتناول قدح الشاي وبأصابعي أكتب اسم دليلة على زجاج نافذتي ومن بين الحروف التي أزاحت لي بعض الضباب يمكنني أن أراها وقد عادت إلى تلك البقعة المضاءة من جديد إنها تنتظر السيارات الجارية كعادتها استدارت الآن واختفت وراء واجهة المظلة الزجاجية ها هي تقف بإغراء شاحنة كبيرة حجبت المشهد لقد قالت لي دليلة ذات مرة إن إحدى زميلاتها قد تزوجت من سائق شاحنة تركي الأصل أخذها معه إلى إسطنبول وتزوجها هناك.

قلت في نفسي:

- ماذا أفعل لو ذهبت دليلة مع سائق شاحنة وتركتني؟!

- توقفت الشاحنة! اختفت دليلة من تلك البقعة المضاءة ركبت الشاحنة أعرف أن دليلة ستتأخر لأن الشاحنات لا تجد بسهولة أماكن الاختفاء مثل السيارات الصغيرة التي تتسلل إلى الأزقة الخلفية بسهولة.

في هذه الغيبة أتمكن من استعادة حديثها:

- يخيّل إليّ بأن أولئك الرجال لا يبحثون عن اللذة بقدر ما يبحثون عن الانتقام من زوجاتهم!

بدأ البرد يتسلل من الفراغات الكائنة بين حافات النافذة والضباب أخذ يكسو الزجاج بحيث لم أعد أبصر شيئاً يحصل هذا عندما تتوقف المدفأة عن العمل آنذاك أضطر لإيقادها من جديد حيث تتبدد حبيبات الضباب وتتلاشى من زجاج النافذة .

ها هي دليلة ظهرت فجأة في تلك البقعة المضاءة تبدو منهكة القوى حيث تنعكس أشعة اللوحة الإعلانية على وجهها فتبدو تجاعيد وجهها أكثر بروزاً تتوقف السيارات تزمّر دون أن تعبأ بهم لكنّي أعرف بأنها ستنهض بعد قليل وتقذف بنفسها في جوف السيارات من خلف الواجهة الزجاجية للمظلة تبدو دليلة وهي تعانق رجلا يظهران كأنهما شبحان يتموّجان على صفحة الزجاج غطى الضباب زجاج النافذة

حيث بدأت أرى الرجل المجهول أخذ يطعن دليلة بسكينة أخذت معطفي ونزلت مسرعاً أركض في الزقاق الضيق عابراً البولفار لمحته يرحل بينما تخرج دليلة من خلف مظلة موقف الباص ابتسمت لي دون أن تصاب بأذى عدت إلى شقتي مسرعا كأن الحمّى صعدت إلى رأسي بدأت أقلّب أوراقي البيضاء دون أن أستطيع أن أدون كلمة واحدة عنها.

دورات قليلة، تأتي بعدها، دليلة، غائضة العينين عند الفجر. تجلس بمواجهتي دون أن تتكلم تنام النهار بأكمله بانتظار ليل آخر. تسبح في أضواء مصابيح السيارات وتمتص رحيق الليل المسموم وما زلت أرسل نظري على جسدها الهامد على الأريكة المفتوحة كسرير فتحت عيناها وقالت لي:

أما زلت تذكر قول ابن خلدون: من لم يتزوج مغربية لا يعرف طعم النساء!

ابتسمت لها وقلت:

ها أنا أعرف طعم النساء حين تعرفت عليك.

تحركت شفاهها الواهنة:

- غريب أنت لا تريد مضاجعتي!

- قالت ذلك وغطت في نوم عميق بينما أراها كأنها تتضاءل كل ليلة، كما لو كان الليل يمتص رحيقها. فلم يبق من ثدييها سوى جلد نازل ومن عينيها سوى المحاجر الزرقاء. عدت إلى أوراقي البيضاء وكلما كتبت سطراً عنها سرعان ما يتبخر منه الحبر حين أبدأ بكتابة السطر الثاني. فالكلمات لم تعد تنفع كأنها لو كانت تنفخ بأنفاسها تلك الكلمات التي تتطاير كأوراق الخريف.

قلت في نفسي:

- إذن في الخريف يجف الحبر.

تركت الأوراق البيضاء العابثة بمصيرنا لا بد أن الحياة تختبئ في مكان ما لا نعرفه.

تساءلت:

هل يمكنني استبدال الأوراق والحبر بالضباب والمطر؟

عدت إلى زجاج نافذتي الناصع تارة والمضبب تارة أخرى محدقاً بالفنار المنير الذي لا يمكن أن تراه دليلة بل أراه لوحدي لأنه يمتد على مرمى البصر!

قلت في نفسي:

- ربما سأوقظها في الصباح وأعلن لها عن حبي أحضرت لها الفطور وحين أيقظتها كانت جثة هامدة لا تتحرك.

باريس 1984

كاتب من العراق مقيم في الإمارات

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

هذا الكتاب

منشورات مجلة "الجديد"

غيمة في غرفة الضيوف

صلاح فائق

شعر

الخالة اليابانية

شريف صالح

عاد العم الطائش بعد غياب سنوات وهو يجر في يده زوجته اليابانية، فتندرت نساء العائلة على قصر قامتها، وحسدنها على نشاطها، فهي كانت نشيطة كالنحلة تستيقظ قبلهن وتنتهي من الواجبات المنزلية بسرعة وخفة ثم تجلس وتتزين. كانت لا تتكلم وهي تعمل ولا تتكلم وهي تتزين.. كأنها خرساء؛ فقط تأكل الأرز الأبيض والشيكولاتة وتنجب الأطفال لعمي.. وبعدما تتخفف من بطنها المكورة تدور في البيت مثل فراشة بملابسها الملونة.. فتثير هنا وهناك موجة عطرة.

رجال العائلة أيضاً استغربوا لأنها لم تذهب في يوم من الأيام إلى الطبيب، وقالت الجدة إنها امرأة ساحرة مسكونة بالشيطان. تعمل مثل الساعة لا تبكي ولا تتذمر ولا تتكلم؛ كانت الجدة تراقبها من بعيد بعين حذرة وكنا نحن أطفال العائلة نحب حركاتها الخفيفة وألوانها الزاهية كأنها طفلة مثلنا.

وبعد أذان المغرب سمعت امرأة عمي الأكبر تقول لجدتي إنها عرفت اسم الساحر الذي تذهب إليه الخالة اليابانية.. هكذا كنا نناديها.. لوت جدتي شفتيها وقالت إنها منذ مجيئها وهي سبب الشقاء في عائلتنا.. لم أصدق جدتي ولا امرأة عمي التي انتبهت إلى أنني سمعت كلامهما فتوددت إليّ وطلبت مني أن أسرق ثوب "الكيمونو" الذي جاءت به الخالة اليابانية من بلدها. فقد كان لديها "كيمونو" أبيض رائع.. ومحفور به تطريزات زهرية ووردية غائرة.

هل "الكيمونو" الذي احتفظ بجماله رغم مرور السنين له علاقة بشقاء عائلتنا كما قالت جدتي؟

في صباح اليوم التالي نادت عليّ عمتي:

"نفذت المطلوب؟"

"تريدين أن أسرقه؟"

هزت رأسها.

"لماذا أسرق "كيمونو" الخالة اليابانية وهي لم تضايقني في أي يوم؟

لكزتني امرأة عمي وهددتني بأنها سوف تكوي بلبلي بملعقة حامية إذا لم أفعل.

دخلت متلصصاً غرفة نوم الخالة اليابانية.. لا أدري أين كان عمي.. فمنذ أن جلبها إلى البيت، ونحن تقريباً لا نراه؛ شعرت بأقدام زوجة عمي الكبير، وجدتي، وهما تتسللان من خلفي وتشجعاني.

وقفنا نحن الثلاثة حول فراش الخالة اليابانية ورأيت "الكيمونو" مفروداً بعناية بطول السرير. حملته الجدة وامرأة العم بلهفة ثم أسرعتا بمغادرة الغرفة، ولم تمر سوى دقائق حتى سمع كل من في البيت صرخة مدوية وصوت ارتطام في الشارع، فهرولت العائلة كلها في اتجاه الصوت.

كانت الجدة أول من هبط إلى الشارع، اقتربت بعكازها وقالت في نبرة شامتة:

"ألم أقل لكم؟! ملعونة ومسكونة بالشيطان.. لم تصدقوا! الملعونة انتحرت!".

تطلعتُ بصعوبة من بين سيقان وأرجل أفراد العائلة ورأيت الخالة اليابانية ممددة وسط الشارع وخيط دم رقيق يسيل على طرف فمها الصغير وقد زمت شفتيها القرمزيتين بقوة. ما لم أتوقعه أن جسدها المسجى كان ملفوفاً بكيمونو أبيض.

كاتب من مصر

فاتح المدرس

هدير الصمت

شريف عبد المجيد

الممر

خطواتها المتسارعة كأنها خطوات مارش عسكري منتظم تتلفت حولها في ترقب وهلع سيمفونية كامل مقاطعها من وشيش النخيل وهسيس أعواد القصب ونقيق الضفادع وصوت الصرصور الشهير الموجود في ليل كل قرية. هذه الأصداء تعلو تارة وتنخفض تارة أخرى تبعث في نفسها خوف لم يعرفه بشر وكأن العالم كله أدرك ما رأته لتوها، تنظر للمكان نظرة أخيرة تختلس لفتات سريعة علي جنبات الترعة الوحيدة المؤدية إلى مدخل قرية أدندان بتهجير النوبة. الممر تختار الطريق الوعر البعيد عن موقف العربات التي تنقل الناس من وإلى القرية الصغيرة عبر الكوبري الوحيد همزة الوصل بين القرية والعالم .

وصلت أخيراً لدارها تغير ملابسها وتلبس فستانها الأحمر الجميل وفوقه الجرجار الأسود المشغول تلقي نظرة أخيرة على الدار من الداخل ثم تغلق الباب بالمفتاح وها هي الآن في شارع سبعة وأربعين تمشي وحدها في ظل الإضاءة الخافتة الصادرة من بعض أعمدة الإنارة التي لازالت تعمل متحدية عوامل الزمن وانعدام الصيانة.

أشا فخري

أصوات الدفوف تعلو وتتصاعد وسط فرحة الجميع إلا أن الدنيا كلها لا تسع فرحة (أشا فخري) لم لا إنه فرح ابنها البكري سالم جاشو. أشا مات زوجها ورغم جمالها لم تتزوج ربت أولادها الأربعة وها هي الآن تحصد أول زرعها .

تدفقت الجموع وسط حلبة الرقص فالكل يريد أن يشارك في الأراجيد (3) وصلت الممر لمكان الفرح ولما سألوها عن سبب غيابها، أشارت بيدها بما يعني إنها نامت ولما أشاروا لها بأنهم طرقوا على الباب أشارت لهم بأنها لم تسمع شيئا فضحكوا، انهمكت الممر في حلبة الرقص وعلى صوت الدفوف غني الجميع (القمر بوبا) وكدودا) وغيرها من أغاني الأفراح، جاملت الممر أشا فخري كما لم يفعل أحد وكأنها تعلن عن وجودها وفرحتها الطاغية، اندمج الرجال في ذلك التقليد المعروف وهو العشاء أمام أبواب البيوت في شارع بيت العريس أما النساء فدخلن في البيوت ليقمن بتجهيز الأطباق وكذلك الفشار فوق الكردج(4) وهكذا صينية أمام كل دار فيها ما لذّ وطاب، الرجال والأطفال جالسون على الأرض في جلاليبهم البيضاء في دوائر لا تنتهي والنساء يزغردن (صلاة النبي عليك يا محمد عاشق النبي يصلي عليه) أما الشباب فيمرحون وضحكاتهم تملأ المكان يعطون نصائحهم الأخيرة لسالم الذي سيصبح رجلا كامل الرجولة وصاحب بيت.

بتول:

الجثة الطافية لطفلة عمرها 8 سنوات كانت حديث أدندان كلها وتأكد للجميع أنها جثة بتول بنت حامد علي التي اختفت ليلة الفرح .

انتشر رجال المباحث والمخبرون بين أهل القرية وأغلقت الحوانيت أبوابها بعد العشاء والمقاهي صارت خاوية وأهل البنت كان عزاؤهم ثلاثة أيام بلياليهم .

سالم يبكي بكاء الرجال العزيز الغالي وحده بعدما يغلق على نفسه الباب وطاهرة لا تعرف ماذا تفعل أو تقول .

تفكر كيف ستبوح بسرها جبال من الهموم فوق كتفك يا طاهرة وأنت بنت الناس وسالم زينة شباب أدندان وأكثرهم وسامة ولكن ما العلة. هل لم يكن يحبها؟ ماذا ستفعلين يا طاهرة؟

انتشر الخبر في كل مكان سالم ابن أشا لم يفض الظرف المصائب لا تأتي فرادى بالأمس غرقت بتول واليوم حكاية سالم، والممر في كل بيت تشير بيدها وتقرأ حركة الشفايف ودارت بالحكاية في كل بيت حتى قال سالم وسط جماعة من أصدقائه في سهراية يحاول فيها اكتساب الشجاعة الممر ثعبان لا تستطيع أن تتوقع لدغتها الحمد لله أنها لا تتكلم لكانت أشعلت فتنا لا قبل لأحد بها وضحكوا وساعدوه بالحكايات والأعشاب المجربة.

في المعبد العتيق بكوم أمبو تعرفت أشا على ما يجب عليها أن تفعله ليعود سالم سالماً كما كان أخفوا الخبر عن الممر والتي غابت لأسباب خارجة عن إرادتها وقد حققت معها الحكومة لأنها آخر من رأت البنت قبل غرقها وبعد أربعة أيام خرجت الممر للقرية بينما سالم أصبح أكثر جرأة بعدما ساعده في ذلك الشيخ حسان العارف بالله والذي نصحه بالرفق في الدخول وأعطاه الأعشاب المجربة لكنه ذهب سرًا للطبيب في كوم أمبو وظنت أمه أنها نجحت فيما فعلت وبكت الممر بعدما انكشف سرها عند تفتيش الحكومة لبيتها الذي وجدوا فيه مئات التمائم باسم كل عريس من أهل القرية. كانت سيارة الشرطة واقفة أمام بيت الممر بأضوائها المعتادة التي صارت تضوي ليل أدندان.. يتحلق حولها الأطفال والنساء العجائز يقلن كلمتهن الشهيرة

بيو - بيو (5) والعساكر يجمعون التمائم والأحجبة داخل السيارة كدليل إدانة للممر وكتب الضابط في محضره أن الممر لم تقم بقتل بتول حامد علي التي غرقت دون أن يخنقها أحد كما ظن الجميع بينما كانت الممر تسير وحدها في الطريق المؤدي للترعة ودموعها تنساب على وجنيتها دون أن يصدر عنها صوت مسموع بينما سالم أشا يبحث كالمجنون وسط تلال الأحجبة عن الحجاب الذي صنعته له الممر.

1- الممر : الخرساء.

2- أشا فخري : عائشة فخري.

3- الأراجيد : رقصة خاصة بالأفراح.

4- الكردج : أطباق خاصة يوضع فيها الفشار والحلويات مصنوعة من سعف النخيل.

5- بيو .. بيو : كلمة تقال عند المصائب تشبه كلمة يا لهوي باللغة العربية .

كاتب من مصر

المحترق

صابر رشدي

لمحته قادما، يمشى منفرجا، بتؤدة وتمهل، ممسكا بمقدمة جلبابه الفضاض، مباعدا به عن نصفه الأسفل، كنت أظنه شخصا آخر، رجل مسن ضارب في شيخوخته، فهو - عادة- يسير متقافزا، ويجعلنا نلهث وراءه، مثل طائر رشيق. مع اقترابه لاحظت عليه انحناءة بسيطة، وأنه يباعد بين ساقيه متألما مع كل خطوة، حتى توقف أمامي منهكا.

- سلامتك قلت مجاملا.

وقبل أن أقوم بالاستفسار عن حالته فوجئت بوصول أحد أصدقائنا، الذي بادره بعد هنيهة.

- كنت عائدا من مسكنكم، أمك تقول إنك مريض، ترفض العلاج، وتكتفي بمراهم، وكريمات مرطبة للبشرة، وإنك تصرخ أحيانا عندما تكون وحدك.

- نعم، لقد آذيت نفسي بغباء لا حدود له.

أجاب وهو يغتصب ابتسامة واهنة، مشحونة بالألم والتوجع، قبل أن يقص علينا أكثر المواقف طرافة في محيطنا الضيق. كان يعمل مساعدا لدى أحد مقاولي البياض، يقوم بتحضير المواد اللازمة، يغربل الرمل، يغربل الجير، داعكا بقاياه من الكرات الصغيرة فوق سلك الغربال، حتى يمر من الثقوب الضيقة، ثم يخلطهما بعد ذلك بمقدار كاف من الإسمنت. الطابق الذي يعمل به، في البناية الحديثة، يطل على مشهد بانورامي لبيوت قديمة ومنخفضة، تقع تحت سماء ملتهبة، الأسطح المتربة، كابية اللون، تتكدس فوقها أكوام من الأثاث القديم، والكراكيب المتهالكة.

تشده أبراج الحمام، المحلق على مرمى البصر.

كان يعمل بعض الوقت، ثم يخرج إلى الهواء، محاولا التخلص من رائحة الغبار، يستنشق قيلا من الأوكسجين وهو يتأمل هذا المشهد، يعود بعدها لمواصلة مهمته. مع انسحاب خيوط النهار، من الأفق المترامي، قادته قدماه إلى إحدى الغرف الخلفية، كان شيش النافذة مواربا، اقترب منه، ناظرا إلى أسفل، فلا شيء قبالته غير الشفق، وجد رجلا في أواسط العمر، يجلس في شرفته، مرتديا سروالا قصيرا وفانلة داخلية، واضعا ساقا فوق أخرى. عندما حدق فيه جيدا، لمح بين أصابعه لفافة تبغ متورمة، مخروطية الشكل، ينطلق دخانها كثيفا ومتشابكا، فعرف أنها محشوة بالحشيش، ابتعد عن النافذة، حاسدا الرجل على اختياره، متشوقا لسيجارة مماثلة، ثم انهمك في عمله، لكنّ إرهاقا مفاجئا، ألجأه إلى الراحة فوق الرمل المكوّم بالصالة، ودون أن يشعر استغرق في نوم عميق، أفاق بعده منزعجا، لا يدرى كم مر من وقت، فنهض مسرعا لإنهاء ما تبقى، حتى يستطيع الانصراف إلى بيته، بينما الفضول القاهر قاده مرة أخرى إلى الغرفة المعتمة، اقترب من النافذة، نظر من الفرجة الصغيرة، اصطدمت عيناه بمؤخرة تتهادى بإيقاع رتيب فوق جثة هامدة، صعق في الحال، ولم يحتمل، فانسحب إلى الوراء، متوترا ومرتبكا، حاول النظر ثانية، وجد جثة تتلوى تحت الرجل، تبين ملامحها وهما يشتبكان في لعبة فاتنة، يصيران كتلة واحدة، راح يلهث وراء المشهد الواقعي، حتى دخل في نوبة جنون كاد على إثرها يفتح النافذة، ويقفز منها كحصان خرافي مجنح يعبر المسافات للتحقق من اللامعقول في دروب المتعة، بدأ جسده يهتزّ بارتجافات مدوخة، إنها المرة الأولى التي يرى فيها هذا الفعل مجسدا، كاملا، لجأ إلى الهدوء قليلا، قام بفك سرواله، عاود النظر، بدا له الرجل العاري خبيرا متمرسا، الحشيش يفتح له أبواب الخيالات الباذخة، لم يحتمل هذا السيرك المنصوب على مقربة منه، بصق في كفه وبدأ المداعبة، كانت الرؤية تنطوي على أقصى ما يمكن تصوره من معنى جمالي وفقا لأفكاره البسيطة، حواسه تسيطر عليه، وترغمه على التحديق في المشهد المثير لاكتشاف التناغم المستقر فيه، صار الكون أكثر اكتمالا مع اختلاجة كل عضلة في جسده. كان يضغط مسحورا ومنذهلا، بفوران حسي متأجج، وجد العالم جميلا وهو يشاهد كرم الرجل مع أنثاه، وجعل يتذكر ما كان يراه في نومه، ويقوم بعده مبللا، تعيسا ومكتئبا، كانت المرأة فاتنة تحت الإضاءة الخافتة، تسرب إليه إحساس غامض أن هناك جسرا ذهبيا مفروشا بالسحر، يربط بين الموت والإثارة الجنسية. لم يكن واعيا بذاته، أو حقيقته، كان عبدا للذة وتحولاتها المدهشة في هذه اللحظات الخارقة، أخيرا، أغلق المشهد، بانسحاب المرأة والرجل، وانسحابه أيضا إلى الحمام غير مصدق أن ما جرى كان أمرا حقيقيا عاينه أثناء يقظته، بعدها وفى غضون دقائق قليلة، حدث ما لا يمكن تصوره، وجد نفسه يتلوى، ويصرخ متقافزا : نار، نار، شعر أن قضيبه منقوع في حامض كبريتيك، أخذ يتألم ويدور حول نفسه كقط احترق ذيله، خلع السروال الداخلي، تجنبا للاحتكاك، نزل إلى الشارع، متحركا بصعوبة تحت ضغط ألم كاو فجّر في ذهنه الأسباب، تذكر الجير الذي كان يدعكه فوق سطح الغربال، الإسمنت، تذكر بصقه في كفه، واللعاب الرطب الذي تفاعل مع هذه العناصر الكاوية أثناء بحثه عن اللذة فيما وراء النافذة.

كاتب من مصر

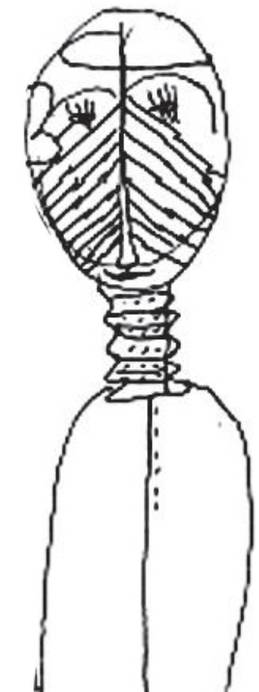

تفصيل من تخطيط لـ حسين جمعان

أعود إليّ

صالح باعامر

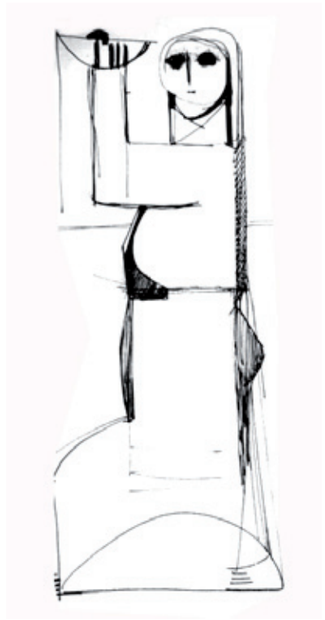

تفصيل من تخطيط لـ خالد الرحال

الألوان تستحيل إلى هالات بنفسجية، ابتسامتها تسبق خطواتها، نفحت طيباً، انسربت رائحتها فيّ

تماهت أمامي:

- يقيناً أنت من ينادونك بالأستاذ.

أشرت لها بالجلوس.. مررت ناظري في عينيها الحالمتين.. غمرني توقٌ دغدغ مخيلتي.. شفتاها تومضان فلا وياسمين، وجه صبيح، روح شفيفة.. نظرتُ فأدركت السؤال:

أنا العنقاء طالبة الانضمام إلى مدرستكم.. أطمح أن أغدو كاتبة، هاجسي أن أكتب بحب، الذي كتبته لم يرق لي بعد. هل تقبلني تلميذة ؟ لقد نشرت لي مجلة الشباب بعضاً من كتاباتي.. يعني غير راضية عما كتبت بعد.. هل تقبلني أستاذ..

كلمة يعني نطقتها بحلاوة وطراوة.. العنقاء، العنقاء اسم قرأته يوماً.. أين ؟ أين. لا أدري: اقرأي كثيراً ثم اكتبي.. القراءة هي الوصفة الناجعة.. وأقبلك، إن قبلتني شاعراً في بلاطك.

***

صالة الاستقبال تضيق بالوفود.. كانت تتحرك كالنحلة.. تجاهلتها لكنها اكتشفت وجودي:

- أستاذي هنا؟

تطلعت ملياً فيها، تظاهرتُ بأنني أحاول تذكر اسمها.

- أنسيتني أستاذ! أنا العنقاء.

نظرت فيها عميقاً: كيف أنسى وأنت من شيَّد منظومة عذابات استَعذبتها بداخلي. تحققتُ من بعض تفاصيلها: قد أهيف، حين تقبل تتهادى، إن نطقت غرّدت، إن أشارت لتوصل فكرة ما خِلْتُ عصافير تطير وتحوم حولي.

***

في أوج ضجيج القاعة توجهت نحوي غير آبهة بالأعناق المشرئبة والعيون الزائغة: هذه الجميلة ألم تجد سوى هذا الكهل؟ حتى وإن اتخذته أستاذاً ففي أفضل الأمور هي ابنته:

قرأت قصتك ومنذ اليوم سأقرأك. بدأت تدركين ما يجب أن تكوني عليه.. ردد الميكروفون اسمها: والآن فلتتقدم القاصة الشابة العنقاء لتقرأ قصتها.

***

امتلأ الصدر، توردت الوجنتان، اكتملت الأرداف، العينان غدت أكثر عمقاً وإن شابها ظمأٌ ما.. أهو ظمأ القراءة ؟ اتجهتْ صوب مقعد يقابلني، فأشرت لها بالجلوس في نفس المقعد الذي أقتعده، فهو يتسع لاثنين.

- ما جديدك أستاذي؟
- أنت.
- قصة أم رواية؟
- قصيدة.. مطلعها:

مهما تباعدت أجسامنا لن أنساك

- وأنت؟
- قصة أسميتها التلميذة.
- .....
- .....

كانت مطرقة حين هممت سبر أغوارها.. قبل أن أطلق جملتي المحبوسة ربتَتْ على كتفي: موعد الندوة أزف.. ألن تديرها أنت أستاذي؟

قبل أن ندلف القاعة أوقفني صديقٌ قديم.. خطت هي وبالقرب من القاعة توقفت مديرةً وجهها إليّ وإلى من هم داخل القاعة. الصديق كان حائلاً دون أن ألحق بها.. سبقتني إلى القاعة، وحجزت لي مقعداً بجانبها.

***

كل منا لاذ إلى مأواه، لم نجد وسيلة للتحادث إلا عبر الهاتف الخلوي: أخالك تمسكين القلم وكأنك تقبضين جوارحي، يا لحظ الورقة التي تمتطينها أنا ملك وأنت تخطّين قصة جديدة.. لمَ لا نغدو واحداً. إن ما أشعر به نحوك يفوق الفوارق والحدود:

- .....
- العنقاء.. ألست معي؟
- إنك أستاذي يا أستاذي بل إنك أبي الروحي.

دار كل ما تحتي وما فوقي.. الأضواء تتداخل، تتمازج، تتشابك، لم أتماسك إلا حين نظرتُ إلى خلفي وعدت إليّ، بعد أن تمددت ما بيني وبينها عقودٌ ثلاثة..

كاتب من اليمن

المنشورات توزع الليلة

صبحي دسوقي

تفصيل من تخطيط لـ بشار العيسى

الدماء التي تلون وجه ولده، تشد جفنيه المرتعشين للنظر باستمرار، تابعت عيناه الأقدام التي تتدافع فوق جسد ولده الذي بدأ يتحول إلى كتلة لحم مشوهة تغمرها الدماء، يختلج جسده، يحاول إبعاد المنظر من أمام عينيه، يوده أن يتحول إلى كابوس وتأتي لحظة اليقظة التي ترغمه على الرحيل إلى اللانهاية، يقترب كبيرهم، يقدم له سيكارة، يمسكها بيده المرتعشة، يمتص منها أكبر قدر ممكن من الدخان، يبتسم الرجل وهو يضع مجموعة من الأوراق أمامه:

- سيد ي . .

يؤلمني ما يحدث.. ستعود إلى منزلك مصطحباً ولدك فقط أرجوك أن تكتب أسماء من أوصلوه إلى هنا.

ارتعش جسده عندما تسمرت عينا ولده في عينيه، ودّ لو يتمكن من الاقتراب منه، من تقبيل وجهه، من إزالة الدماء عنه، يشده الرجل برفق:

- سيدي.. سجل لنا أسماء الذين أرغموا ولدك على توزيع المنشورات.
- المنشورات؟

ويرتسم في مخيلته ذلك اليوم الذي وجد نفسه مدفوعاً للصراخ بوجه ابنته:

- نارا.. ما هذا..؟

أحس بالرعب وهو يشاهدها تخبئ أوراقاً داخل ملابسها، تملّكه الغضب وهو يطلب منها إخراج الأوراق، وبعد قراءتها تأكد أن ابنته تندفع باتجاه خطر حاول طوال حياته إبعادها وأخاها عنه.

- أيتها المجنونة.. ما هذه..؟

اندفع غريب ليقف أمامه بتحد:

- والدي.. أرجوك لا تعترض طريقنا.
- أنتما تندفعان نحو الهاوية.. مالنا والخطر.
- يا والدي.. إنه اختيارنا.

حقد العالم يتجمع في داخله، يتجمع ويخرج بصورة صفعة مدوية، تستقر على خد ولده، الأوراق تتمزق بين يديه، كل الأشياء التي تقف أمامه تتحطم، كم كان يكره أن يندفع ولداه إلى مصير حاول إبعادهما عنه، كم حاول أن يعلمهما حكمته في الحياة:

‹امشي الحيط الحيط وقول يا رب الستر.

لكنهما الآن يسيران في منتصف الطريق، ضد التيار وتحت أشعة الشمس المحرقة:

- ماذا قلت يا سيدي..؟

أعاده صوت كبيرهم من استغراقه مع ذكرياته المؤلمة، نظر إلى ولده، وجه ولده يبتسم، رغم ضياع ملامح الوجه، رغم الدماء والقيود والأيدي التي ترتفع وتنخفض بآلية كريهة يبتسم.

ارتجف جسده ودفع الورقة بعيداً، ابتسم الرجل وهو يشير إلى آخر يقف قرب الباب:

- أدخلوها.

يدفعون نارا وتسقط، شعرها الحلو يسقط، وجهها المضيء يسقط، يركض باتجاهها، توقفه الأيدي، يستميت في محاولة لتخليصها من أيديهم، ثياب ابنته تتمزق ويطير قميصها الأبيض ويستقر أمامه.

يدفعه الرجل للنظر إليها.. يرتعد جسده، جسدها يتعرى بأيدي الرجال، يدفع يديه أمام وجهه، تشكلان ستاراً ثقيلاً لكنه بالرغم من يديه ظل يرى عريها واضحاً.

يصرخ بألم، ابنته تبتسم، دماؤها تسيل وتبتسم، ولده يبتسم، ولم يدرك أيّ قوة خفية زحفت إلى داخله ودفعته للابتسام، ابتسم، اتسعت ابتسامته، تحولت إلى ضحك، انفجرت ضحكته، خلخلت الجدران، زحفت إلى الخارج مدوية، نظر الجميع إليه، صرخ كبيرهم:

- لقد جن.. أخرجوه.

دفعوه خارجاً، نظر إلى السماء، شاهدها متسعة أكثر من أيّ وقت مضى، أحس بالدفء يتسرب إلى داخله، ركض باتجاه منزله وهو يتمتم:

- في المنزل منشورات ستوزع الليلة.

كاتب من سوريا

انفصام

صبيحة شبر

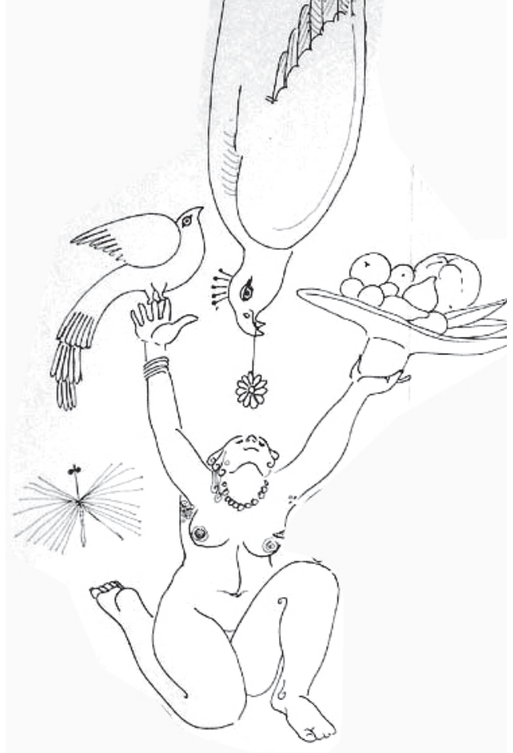

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

مفترق الطرق أمامك، أيها تسلكين، تسكنك الحيرة، وتبدد قواك، تتركك خائرة، ماذا يمكنك أن تفعلي؟ وكل السبل عاقبتها وخيمة؟ أعياك طول التوتر، وانهزام نفسك المستمر، تودين أن تثوري، ولكن أيمكنك أن تهربي من نفسك، وأن تئدي قلبك وتذبحي مشاعرك؟

ما زال يخطب واصفا النساء بأعذب الصفات وأرقها، وأنت قد جفاك الكرى وهربت منك الراحة، ونعقت الغربان في روحك.

الكل يغبطونك على وضعك الأسري المتفكك، وأنت صامتة، حيرى، كيف لك أن تبيني عثراته وهو أب لأولادك؟

- المرأة ريحانة الوجود وملهمتنا الفرح.

عاصفة من التصفيق تصعقك، أكلّ ما يقوله مدعيا يلقى تأييدهم الكبير، ما بالك لا تجدين من يصدق متاعبك، ويستمع إلى آلامك، ويخفف بعض ما تعانينه من حرمان، جميعهن عزيزات لديه، أثيرات على قلبه، وأنت في واد منعزل، تطول معاناتك، سهدك قاس مرير.

تنظر إليك العيون مستطلعة واثقة أنك بسعادة كبيرة، وأنت تتقلبين على جمرات انفصام عات يحرقك بناره المستعرة، أعيتك محاولات تغييره، كيف يقولون أن المرأة قادرة على تغيير رجلها بالحب المستمر؟

يمر عليهن، يقبلهن قبلات سريعة، تكشفين حرارتها، لا تنالك حرارته الموزعة بين الفتيات، صحراء قاحلة تفترس روحك، تعشعش في شراييينك، تتركك تئنين بلا صوت، تفترسك اللامبالاة.

أصابك اليأس وتركته صاغرة تنفذين رغباته الطفولية، تنهمر عليك اللعنات، وأنت تتلوين من الألم، وسهام الحسد تصيبك وتنفذ إلى نفسك، سالبة منها الأمان.

يتأبط ذراع إحداهن وهي تتدلل بغنج لعين.

- المرأة نصف المجتمع، بل هي كله، لأنها تنشئ الرجال الشجعان وتربّي الشباب والشابات، وتصنع الحياة.

- تتمنين أن تصرخي، كاشفة زيفه، ولكن كلماتك تظل عاجزة، ماذا بإمكانها أن تصنع والكل يقف معجبا بسيل أكاذيبه.

تنظر إليك العيون بغبطة تتمنين لو استطعت توضيح حالتك للحساد الذين تبث عيونهم سما فتاكا يشعرك بالعجز الدائم.

صدقته أنت أيضا، كلماته لها فعل السحر في القلوب، وصوته الحاني يبرهن على قوة الحب الذي يحمله لك، نصحك الناصحون ألا تتسرعي، فأمامك وقت طويل كي تعرفي حقيقته، لكن كلماته المعسولة أفقدتك صوابك، وجعلتك تتعجلين، لم العجلة؟ هل الآن تتوخين الجواب؟

كلماته تحصد رضا الجماهير العريضة وتصفيقها، حرثت حروفه أرض قلبك بعد انتظار طويل.

- من حق المرأة أن تنعم بحياة سعيدة، وأن تجني ثمرات نضالها الطويل.

كل حروفه تنال الرضا التام من المستمعين وأنت الوحيدة التي تعرفه حق المعرفة، تسكتين وأنت عاجزة عن فعل شيء والاتهامات من صديقاته تنهال عليك.

- إنه إنسان عظيم وأنت لا تقدرين عظمته.

- لم لا تفهمين صداقاته البريئة وعلاقاته الحميمة البيضاء؟

- إنه رجل رائع، تمنيت لو منحني القدر رجلا بعُشر صفاته.

سهامهم تغتالك، تسكتك، ترهقك وددت كثيرا لو استطعت الدفاع عن نفسك أمام هجومهم الفتاك.

تنهال عليك كلماتهم المتهمة، وأنت لا تملكين دفاعا، ماذا يمكن أن تقولي؟ وقد وقعت في الفخ وانكسرت عظامك وقتلت روحك؟ ماذا بمقدورك أن تصنعي؟

صراخه يصم الآذان، يقتلع منك إرادتك، يتركك مخلوقا بائسا، لا يمكنه التصميم، يصرخ ويصرخ تاركا إياك في دنيا الخنوع والذل، يتعالى صراخه أمام أحبابك وأقربائك والأصدقاء متهما إياك بالتقصير، وعدم الإنصاف.

ماذا بمقدورك أن تفعلي وقد زايلتك القوة وهربت منك إرادة المجابهة، واصفرت أوراق شجرتك، ويبست جذورها، استمرئي موقفك وارسمي ابتسامة الرضا على ثغرك، تدربي طويلا كي تظهر عليك معالم سعادة تفتقدينها، استقبلي ما يقولون بترحيب كعادتك.

يواصل خطبته وتصفيق الجماهير يتعالى:

- آن الوقت كي تنصف قوانيننا النساء وتمنحهن الحقوق المتساوية مع الرجال.

الأكف تحتدم وأنت مدركة متعة اللعبة، تصممين على وأد شعورك بالانهزام واستقبال مشرق الشمس بقلب متفتح يعشق الحياة، تحقيق أحلامك يبدأ بخطوة.

كاتبة من العراق

8اط 2013

ثلاث أقاصيص

صلاح زنكنة

الجنة موحشة جدا

حين مت، اصطفاني الله لجنته، جنة الخلد، مأوى الصالحين.
الجنة واسعه جدا جدا، فسيحه جدا جدا، خضراء جدا جدا، وتكتظ بأشجار العنب والتين والزيتون.
الجنة تعج بحور العين الفاتنات لكنهن متشابهات وكأن أجسادهن جبلت من البلاستك المعاد.
حوريات الجنة باردات لا يتغنجن لا يلهون لا يتأوّهن.
في الجنة أنهر من الخمور والعسل، الا أن الخمر لا يسكر أبداً مهما كرعت منه، مذاقه مثل مذاق الماء المج، حتى العسل له نكهة فسيخ التفاح.
الجنّة تخلو من المساجد والكنائس والمعابد تخلو من المراقص والملاهي والفنادق والمطابخ والحمامات والتواليتات.
ما من شوارع ولا بيوت ولا أحياء ولا أزقة لا عمارات ولا شقق.
لا سيارات لا قطارات لا سفن لا طائرات ولا حتى حمير أو خيول أو بغال في الجنة.
ليس ثمة موسيقى ولا غناء ولا رقص ولا راقصات.
ولا حب لا غيرة لا كراهية لا حسد لا فضيلة ولا رذيلة
لا كلاب تنبح ولا قطط تموء ولا بلابل تغرد ولا عصافير تزقزق ولا فواخت تنوح ولا دجاجات تقوقى ولا ديوك تتبختر ولا حتى ذباب أو بعوض.
لا فجر لا صبح لا ظهر لا عصر لا مغرب لا ليل لا يوم لا أسبوع لا شهر لا سنة ولا الفصول الأربعة في الجنة.
لا أمهات ولا أباء ولا أجداد ولا أحفاد لا زوجات ولا صديقات ولا حبيبات لا أقرباء لا جيران لا أصدقاء لا أعداء هناك.
فقط مليارات من البشر الغرباء الكسالى الضجرين.
منذ ألف عام وعام وأنا مرمي في الجنة
أصرخ.. أنقذوني.
ولا أحد يصغي ولا أحد يستجيب.
كم أشعر بالعزلة والغربة والوحشة، كم يشدني الحنين لأهل الأرض.

خاتمة الأسفار

دوّت صرخة في أرجاء الكون زلزلت الأرض وهيجت البحار والعواصف واقتلعت الأشجار وهزت الجدران والأبواب والنوافذ.
وأجهضت النساء الحوامل وفتكت بالحيوات الصغيرة واصطكت الأسنان والفكوك من هول الصدمة التي أرعبت البشر.
أجل لقد انتحر الإله قافزا من عليائه الشاهق متناثرا على الأرض.
قطعا من ماس وبلور ورماد، سافحا دمه خمرة أثملتنا.
يا لبؤسنا يا لخيبتنا تركنا الإله وحيدين نهيم في فلواته دون راعأو معين، نتلو خاتمة أسفاره المقدسة.
(واحد أحد، أنا الإله صمد، ضقتُ بوحدتي ووحشتي وضجري فانتحرت عن عمد).

الحيوانات الخائفة

الفأر يخاف من القط والقط يخاف من الكلب والكلب يخاف من الذئب والذئب يخاف من الأسد والأسد يخاف من الأفعوالأفعى تخاف من الأنسان والأنسان يخاف من الله، لكن الحيوانات لا تخاف من الله.
أنا أخاف من الفأر والقط والكلب والذئب والأسد والأفعى
أنا مثل كل الحيوانات الخائفة لا أخاف من الله كون الله يحب الحيوانات.

كاتب من العراق

ليزا الترك

مروان ←

لسان مرّ

طالب الرفاعي

تعودت أن أصحو باكراً أنا والظلمة، أتركه نائماً في بحر شخيره وغيابه. أتفقد غرفة أبنائي. بعدها أقف نصف نائمة لأجهّز فنجان قهوتي. الأبحاث العلمية تقول: "فنجان قهوة الصباح ضروري لتنشيط الذهن والذاكرة". أنا أحتسي قهوتي كي أستطيع نسيان ما يدور من حولي. أتناول الفنجان الحار، أرتشف المذاق الذي أحب.. من خلف زجاج النافذة أعاين الظلمة في الخارج. ربما الخامسة.. أترك الفنجان على رخام المطبخ الصغير، وأنحدر أجرّ خطوتي على درجات السلم، أذهب إلى صندوق الجريدة.

لا أدري لماذا، أشعر أن مزاجي معكر، تقفز الفكرة إليّ: لا شيء جديدا، سيكون اليوم صورةً عن الأمس.

أبلع ريقي وطعم مرارة القهوة. أفتح الباب فأرى الجريدة مرمية في الخارج.. أمرّ مزعج، يصرّ موزع الجريدة على تركها خارجاً خلف الباب الزجاجي، مراراً طلبت منه:

"أرجوك ادفع الباب الزجاجي وضع الجريدة في الداخل".

في كل مرة يهزّ رأسه، يعتذر مبتسماً ويعدني:

"إن شاء الله".

يبقى يضع الجريدة في الخارج.

لحظة فتحتُ الباب، لفحت وجهي نسمة هواء باردة، فمسحت بعضاً من تعكر مزاجي.

في الكويت يمرّ الشتاء عابراً، لذا أشعر وكأن المطر يبلل خاطري.

حين جاءت عيناي على يوم وتاريخ الجريدة. دار ببالي: يوم الاثنين ليس لديّ محاضرات في الجامعة. صرتُ أستثقل الذهاب إلى الجامعة، أنفر من تحيات المجاملة الكاذبة، والوجوه المقنّعة، وأحاديث النميمة. أهنأ بمحاضراتي مع طلبتي، وبعدها أنعم بوحدتي في مكتبي وقراءاتي وأبحاثي، ريثما أعود إلى بيتي؛ أحياناً أتساءل:

" لماذا تغيّرتُ أنا؟ قبل سنوات لم أكن كذلك، ولم يكن زملائي؟".

أصعد درجات السلم عائدة إلى الصالة، فتنبّهني برودة الرخام إلى أنني حافية. طعم المرارة في فمي والبرودة في قدمي. أتناول فنجاني وأقصد مكاني المعتاد في ركن الكنبة.

أخبار الجرائد ما عادت تحمل سوى صور العنف الأسود والقتل والحروب. أقرأ الجريدة من الصفحة الأخيرة. أكره أخبار الموت، وأبدأ لا أنظر إلى عمود أسماء الوفيات.

أمضّي لحظات الصباح وحدي. يصلني صوت شخيره من غرفة نومنا.. أنا وفنجان قهوتي وصفحات الجريدة. خبرٌ صغير يستوقفني، يستثير انتباهي وشيء من تعجّبي؛ أرتشف القهوة المرة. الظلمة تحتلُ الخارج. أنا والصمت والقهوة والخبر الصغير. يرتفع بي السؤال: معقول؟ أعود لقراءة كلمات الخبر الصغير. خلال الأسبوع الماضي مرَّ عليَّ وبعض صديقاتي ما يشبه تفاؤلاً. تصوّرنا إمكانية أن يتغير شيءٌ، وتأملنا مجيء جديدٍ مختلف.

حسين جمعان

الظلمة والصمت لا يزالان في الخارج وبرد ديسمبر. أعيد قراءة كلمات الخبر الصغير، يتأكد المعنى لي، فيتراكم طين الضيق فوق قلبي.

أرمي الجريدة. أسند ظهري إلى المقعد. تفلت مني عبارتي: "أخبار السوء!".

يُنشب الخبر الصغير أنيابه في رأسي.

وحدي وطعم القهوة المرّ في روحي.. كأني لا أستطيع الجلوس في مكاني.

الظلمة في الخارج خلف الزجاج.

فجأة تهتزّ الجريدة، تتحرك كلمات الخبر، تنتزع نفسها من الورقة، تتقافز خارجة من مكانها بصراخها وأصواتها المزعجة. تتطاير منتشرة من حولي لتملأ الصالة. تحوم فوق رأسي، تنظر إليّ بشماتة تزعجني، تخرج إليّ لسانها الدبق.

أهمس لنفسي: اليوم الاثنين، ليس لديّ محاضرات في الجامعة، لكني لن أبقى في البيت.

الكويت 11 ديسمبر 2014

قاص من الكويت

احتفاء على تخوم الحشرجة

"يأتون كحمقى، ويهتكون الضوء"

طاهر الزارعي

نهضت من سفرة الطعام كالمفزوع، تتخبط قدماي بثوبي، صعدت بخفة غزال متجها نحو السطح. رأيت حماماتي تتطاير في القفص الكبير والخوف يحتضن أعينها. تلك القطط الشاردة طالما تتلذذ بحمامة أو حمامتين كل أسبوع فقد كانت ترتكب خطيئة كبيرة بحق هذه الحمامات؛ أمي تقول لي: انتبه لا تموت القطط راح تسكن في نارها. هذا التحذير جعلني خائفا جدا، وحينما أجد القطط تعتلي السطح لشن هجوم مباغت على الحمام أكتفي بردعها وطردها.

كنت أطعمها جيدا، وأبلل ريشها بالماء، بل أحرص جيدًا على تنظيف منقارها، وأختار منها الأجود كالحمام الحساوي والقلابي حتى أتمكن من بيعها بثمن جيد في "سوق الخميس" الذي يمثل لي خروجًا عن روتين القرية الممل حينما أنطلق إليه صباحًا، حتى إذا ما وصلت هناك فسأجد المنافسة الكبيرة مع نخبة من مربّي الحمام يمتلئ بهم السوق كل واحد منهم يزعق بصوته المألوف: الزين عندنا والشين حولينا.

كثيرًا ما تطلب مني والدتي أن أقرأ على "حماماتي" القرآن حتى يحفظها الله من القطط والحسد، وكنت أجتهد في قراءة سورة "الفلق" بجانب القفص وأكررها أكثر من مرة، وأنفث في ماء الحمامات المعد للشرب. بعد أيام تأتي إليّ أمي تبشرني بأن إحدى معارفها قد طلبت منها شراء حمامتين لتذبحهما على ابنتها التي تشتكي من آلام رأسها المتواصل، وكنت أرضخ لهذا الطلب بصعوبة بالغة فمظهر الدم يثير خوفي واشمئزازي فكيف إذا كان يسيل من حماماتي التي أرهقت نفسي في تربيتها، لكن يبقى هذا قدرها اللعين، قدرها القادم نحو الموت والفناء.

القرية هذا اليوم تنقش الفرح على كل شبر فيها،على ترابها وجدرانها ونخيلها، وتسيل من فمي ضحكات كثيرة كنت أفتقدها منذ مدة، وعريس القرية صديق لي سأكافئه كما كافأت كل العرسان من قبله، سأهدي له خمس حمامات وثلاثة أكياس صغيرة من الشعير، وسأحرص كعادتي على أن أفرج عن كل حماماتي في صباح زواجه، وأطيرها لتحتفل في السماء حتى إذا ما قرب المساء أفتح لها قفصها الكبير لتدخل مطمئنة تلملم ما تبقى من حريتها.

كلما أنظر إلى وجه أمي أختلس منها دمعة هاربة من عينيها، كانت أمي تحرص على أن أكون تاجرًا كبيرًا في سوق الحمام حتى أمحو تلك الصورة التي لازمت أبي "الرقاص" حيث اشتهر بهذا اللقب بعدما كان يؤدي دور "الرقص" في زواجات القرية أثناء تأدية "العرضة"، ويكسب من ذلك رزقه.. لكن هذه التسمية لازمته، وأوقعتني في حرج دائم.

كان أبي ماهرًا جدًا في أداء الرقصة مع طبول العرضة التي تسخن على نار هادئة، رأيته بنفسي، كان يربط عجيزته الممتلئة بالشماغ المتهالك ويتمايل بها، وأحيانا يهزها هزًا كبيرًا حتى أن الناظر إليها يخمن بأن هذه ليست رقصة بل تيار كهربائي التمس بتلك العجيزة ونفضها. وبقدر جمال الرقص ومدته يحصل على رزقه من فئة الريالات والعشرات التي غالبا ما يتم وضعها في فمه أو تتناثر عليه من فوق.

أصعد إلى سطح البيت مع بداية كل يوم، وأقف هناك مثل فزاعة لا أتحرك، أتذكر أبي وأجهش ببكاء يهتك هدوء الصباح، وحينما أصحو من هذه النوبة -نوبة البكاء- أتأمل ذكور الحمام وهي تلاحق إناثها حينما تقوم بمزاحمتها وتنظيفها من بقايا ريش متسخ، وتشرع بعد ذلك "تفسدها" بهيجان كبير.

-تبيني أخليك قحبة؛ هذه العبارة لازلت أتذكرها جيدا قالها أبي لأمي في حالة غضب عندما طلبت أمي منه أن يترك الرقص في الأعراس، ويبحث عن رزق آخر. لكن أبي أصر على أن يواصل مسيرته في الرقص. كنت أسمعه دائما يقول لها: الرقص يقوي العقل ويجيب الفلوس.

أعدل من هيأة البرميل الصغير، أصعد عليه وأتأمل بيوتات القرية -في الحقيقة كنت أترقب صعود ابنة الجيران في سطحهم- في كل صباح تقوم بنشر الغسيل على حبال ملونة، وأنا بدوري كنت ألتقط كل شيء فيها بدءًا من وجهها وصدرها اليافع حتى آخر فستانها. هذا اليوم لم تصعد.. بل بقيت مع أمها ربما لتغلف حلوى الناصفة لهذه الليلة التي تبيض الفرح في أكثر من بيت.

شباب القرية يجلسون منذ الصباح الباكر منذ شهر كامل يجتهدون في تزيين مداخل القرية وشوارعها الضيقة، حتى إذا ما جاءت الليلة المرتقبة فإنهم يذيعون فرحهم عبر مكبرات الصوت، وتغرق أفواههم بالكنافة وعصائر الفيمتو، وكان أشد ما عليهم من لحظات، حينما تأتي دوريات الشرطة ورجال المباحث وتمنعهم من مزاولة هذا الفرح.

أصر على والدتي بأن أوزع حلوى الناصفة والفصفص على البنات حتى أحظى بملامسة أياديهن الناعمة، وأعتقل هندسة شفاههن الفستقية.. أمي تنهاني عن هذا الأمر وتقول لي: أنت كبرت والبنات يستحون منك. أرد عليها: أنت اللي كبرت في السن والوقفة تتعبك، أقبل يدها وأنتظر أول دفعة لبنات القرية.

تأتي ابنة الجيران مع صديقاتها بعدما حصدن كثيرا من الحلويات، يقفن على البيت، أطلب منهن أن ينشدن أهزوجة الناصفة المعروفة، يتضاحكن والخجل يلامس وجناتهن جميعا.. كنت أتأمل ابنة الجيران وقلبي يخفق مثل بالون.. كانت أكبرهن سنا وألطفهن جمالا.. تبدأ هي ثم يتبعهن:

صدر الدين أمين

حجه ومدينه يا الله
لقمة وسمينة يا الله
عطونا من مالكم يا الله
يسلم أبو أعيالكم يا الله

بعدما انتهين من الأهزوجة قمت بإعطائهن الحلويات واحدة بعد أخرى وكل من أعطيها تضع حصادها في كيس كبير، وترحل إلى البيت الآخر، وهي تهزج:

عساكم من عواده.. ولا تقطعون العادة

جعلت ابنة الجيران في الأخير كجزء من خطتي، وحظيت بملامسة يدها وأنا أعطيها كل ما تبقى لديّ من حلويات كثيرة.. ضحكت لي وطارت مثل فراشة جميلة.

ثمة رجال ينطفئ الفرح على وجوههم، أراها من بعيد، كانوا ينادون على بعض الأشخاص، يسألون عن أسمائهم، ثم يحتجزون بطاقة الأحوال المدنية لديهم، ويأمرونهم بتخريب كل ما أبدعوه من زينة ومجسمات، كنت أقف بجانبهم وقلبي طوفان أحمر، وأدرك لحظتها أن ثمة فرحا سيؤجل!

بعد عدة أيام تتحول القرية إلى مقر للاعتقالات،عند كل حالة اعتقال أسرع ككلب صيد لأشاهد ذاك الشخص المعتقل، عندها تتهتك دمعتي، فكنت أعي تماما أن ثمة أناسا ستفوح منهم رائحة الفول والبصل قريبا، وأن ثمة أناس سيأتون إلينا يتشحون بوجوه مغايرة ورؤوس متهمة بالصلع.

أتجه إلى البيت مثل سلحفاة، أتناول "الدرج" بأقدام تتلو القهر والحزن، أصعد على البرميل الصغير، أستنشق هواء معفنًا، أفتح القفص الكبير، أبصق في الأعلى، وألتقط البصق بوجهي، كررت ذلك عدة مرات حتى امتلأ وجهي فأصبح مثل فاكهة لزجة، دخلت القفص وقمت بإخراج كل الطيور الكائنة فيه حتى التي كانت تتسول الطيران. قررت أن أنام هذه الليلة في هذا المكان رغم نداءات أمي المتكررة لي.. كنت أتضور قلقًا، ويكاد قلبي يتوقف.. فثمة أقنعة بجوار القفص تملأه بضحكات هستيرية.

كاتب من السعودية

قصص من غرناطة

عاصم الباشا

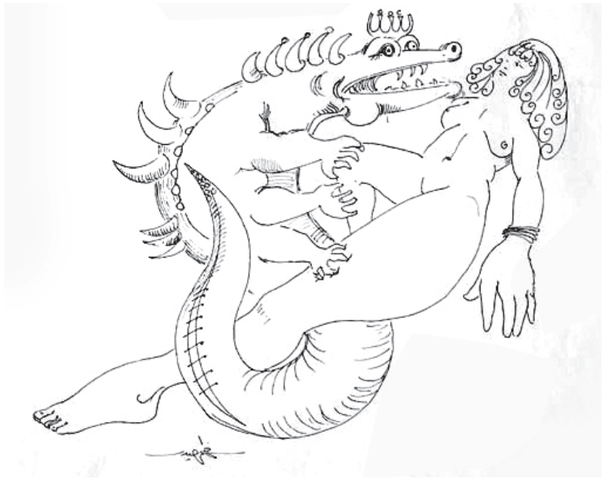

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

درس البستان

أمسكت يداه بكرة من عدم مشيرًا إلى خصيتي أبي العوف ومؤكدًا فحولته.

قلت له بهدوء:

- القضية ليست بحجم الخصيتين.

وأكملت:

- أرني حجم دماغه.

دُهش، ولم يفطن للفكرة، فغيّرت الموضوع ونوّهت بطيب العنب مع الجبن، لأننا كنا في الخريف ومجتمعين في بستان الوالد الكائن في ركن حجري، نسبة للعصر، من وادي يبرود.

أبو العوف لا يقطع صلاة ويلقي التحية على كل من يلقاه وكل امرأة لديه مشروع عاهرة وهو لا يتوانى عن الكذب في التجارة لأنها شطارة، لكنه، للصدق، دائم الاستغفار. لذا، ولأن المرء ما هو سوى جملة ما يرتئيه، قتل أم العوف، أم أولاده، في وسط السوق قبل صلاة الظهر بقليل. دلق عليها قدرًا من البنزين فحاولت الفرار مولولة لكنه أدركها ورماها أرضًا وأشعل ولاّعته. انشغل المتواجدون بمساعدته على إطفاء ملابسه التي هبّت فيها النيران لالتصاقه بها لحظة إلقائه بها أرضًا. وبينما كانوا يرأفون به مكبّرين لله تعالى ومتعوّذين بالشيطان الرجيم تفحّمت هي بهدوء.

قلت للذي أشار إلى فحولة أبي العوف:

- أمثاله من عوامل هزيمتنا الدائمة.
- ماذا تعني؟

سأل مترقّبًا، فأجبت:

- أعطيتك المكيال.. فاشتغل.

ثم عنيت بجمال السماء في ليلة الخريف تلك، ولاحظت أنها كانت أقلّ جمالاً من المعتاد.

غرناطة 1/28/ 2003

تساؤل

ما كانا يسمعان سوى وقع أقدامهما المتسارع على الأرض الصخرية ولهاثهما المتواتر وهما ينحدران في "زقاق الصخر". كانا يهبطان الزقاق على جانبي الأخدود الذي حُفر لسيلان المياه، ويتفاديان بخطوهما العصبي النتوءات والحفر التي لم تمحها بعد أقدام البشر.

الحذر من الوعث لم يمنع الأب من الالتفات نحو ابنه وهما يسرعان نزولاً في الزقاق. كان توتّر الابن باديًا في مجمل كيانه، وقد انبرى كالحًا في المحيا.

- تأكّدت؟

سأل الأب.

- من الوريد للوريد.

أجاب الابن دون أن يلتفت.

وتابعا الانحدار بما يشبه الهرولة.

بدأ لهاث الأب بالتصاعد عندما سأل مرة أخرى:

- والسكين؟

التفت الوجه الكالح نحو أبيه ورافق جوابه بعينين جافتين كأنهما سُمّرتا في محجريهما:

- في جيبي. لا تخف.

لم يصادفا أحدًا في تلك الساعة من العصر.

عندما وصلا إلى التقاطع التالي قال الأب:

- نفترق.

وعرج يسارًا تاركًا لابنه الاختيار بين الاستمرار في الانحدار أو التحوّل يمينًا.

توقّف الأب عن الهرولة بعد برهة. مسح بيده العرق المتفصّد على جانبي منخريه ثم مرّرها على جبينه ليعاود المسير متظاهرًا بالهدوء. إلاّ أن تساؤلاً ملحاحًا كان يقرع صدغيه: هل يقول لابنه أنه لا يصدّق تمامًا ما ادّعاه جارهم ابن البنّا من أن التيناوي اختلى بابنته فاطمة في غيطان النبع؟

كيف يقول له ذلك الآن؟ بعد أن أغرق أخته في حوض المزرعة وانتهى للتو من ذبح التيناوي؟

2002/10/6

الحجم والسعة

بدأت خالتي العزباء بالاضمحلال بعد السبعين من عمرها. كانت تضمر سنة بعد أخرى، وتفطن أمي إلى ذلك في يوم ما من كل سنة فتقول "صارت ملابسها كبيرة".

من ناحية أخرى: أحببت رجاء يوم التقينا في سنتنا الدراسية الأخيرة، لكن الأهل زوّجوني من ابنة عمّي غيداء في السنة ذاتها التي بدأت فيها خالتي بالضمور.

أصبحت خالتي الآن في الثانية والتسعين، وقالت لي زوجتي اليوم عائدة من المطبخ "أمك تقول لك أنقل خالتك إلى سريرها".

أتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم كلما سمعت زوجتي، ثم أتحامق وأتحامل. اعتدت هذا وصار كآلية التنفس. توجّهت إذن نحو خالتي وهمست في أذنها وأنا أحمل كيلوغراماتها الثلاثين من كرسيها المواجه للتلفزيون: "تعالي يا خالتي". فتحت عينيها في الممرّ المؤدي إلى غرفة نومها وهمست: "رجاء كانت أحسن".

فأدركت معنى السعة.

غرناطة، 2003/1/3

نَطَقَ الوالدُ

- حيثما التفتّ تلقى ما ينغّص عليك يومك.

قال لي والدي في يوم بعيد، قبل أن يصمت، بعد ضيق ألمّ بي فحاول التخفيف عنّي بتلك الكلمات.

شجيرة الرمّان التي في وسط أرض الدار كانت مزهرة عندما أطلقتني أمي بعد سلسلة من المسبّات القشتالية لتستهلّ بحلو الكلام ميلادي. إنها صامدة هناك منذ أكثر من نصف قرن (الشجرة، أمي ماتت)، وشهدت صروف أحوالنا. لكنها، في يوم ليلة القدر تلك، عصرًا، ما كانت تدري أن والدي كان يتخذ في فيئها قراره الأخير: سيطوي الصمت لسانه وكأن الأرض خلت من أهلها، فما من داع للكلام في عالم بات اللغو والخيانة وانعدام الشرف فيه سمة وقلة الحياء نبراسًا.

وبدأت المحنة.

ربما كان من النافل سرد الدواعي التي جعلته يتخذ قراره ذلك، وذكر تفاصيل معاناتنا، وكيف غيّب صمته البسمات من البيت. ما أكثر ما جرّبنا، حتى أننا حاولنا إيلامه وتحريضه بألف بابٍ وقولٍ، عسانا نستدرج منه ردّ فعل، ولو جاء صامتًا، مجرّد إشارة إلى تجاوبه مع أهل البيت. إلاّ أن نظرته البلّورية ما أومأت بشيء ولا ارتسمت فيها ظلال تدلّ على أثر لقولنا وصراخنا.

توافد الأطباء إلى البيت. أحدهم أفتى بحالة من الشيزوفرينيا العميقة وأن لا مردّ لها. وأبدى آخران استعصاء الأمر عليهما. أولهما وضع شفته السفلى على العليا ورفع بصره محملقًا في السقف حتى غلب البياض على عينيه، ومكث صامتًا برهة طويلة ورهيبة حتى حسبنا أنه أصيب بالعدوى. ثم ارتأى أن نتركه وشأنه ورفض تقاضي أجر المعاينة مكتفيًا بتكاليف انتقاله. أمّا الثاني فاكتفى بترداد عبارة "والله عجيب!"، كرّرها وهو يعبر باب البيت خارجًا دون أن ينسى قبل ذلك، وعلى الرغم من شدّة اندهاشه، تقاضي الأجر وهو يبلّغنا تصوّره للحالة "والله عجيب!" وبالتالي وصفته "والله عجيب!". وافقه أخي الأصغر.

- أمر الله. كان يكرّر بدوره.

إلاّ أنني كنت واثقًا من أن أبي أكثرنا التصاقًا بالواقع وأعمقنا فطنة ووعيًا، فالأيام وظروف بلد بات التنفّس فيه مراقبًا علّمنا التحليق على ارتفاع ما من الأرض خشية أن تحترق بواطن أقدامنا، أما هو فقد التصق بها واستغرق في ضجيج الحال إلى درجة أبكمته.

وكانت أمي، كالعادة، الضحية الفعلية في البيت. سرعان ما تعلّمت محادثته بصمت، ترقبه وتحسّ ما يحتاجه، وتبكي في عزلتها ثم تستغفر الله بلكنة الأجنبية التي تعلّمت اللغة على كبر. تمدّ سجادة الصلاة وتمكث راكعة عليها طويلاً. السجادة التي اشترى أبي زوجًا منها في سوق الحميدية في رحلة له إلى العاصمة قديمة. علّمها الصلاة وأصول الدين، وكان يؤمّ بها الفروض الخمسة اليومية.

إنها تتقصّد استعمال سجادته، لأنه كفّ عن الصلاة منذ صمت.

وكان يحدث أن تشغلها أمور البيت عن متابعته، كذلك اليوم الذي رطّب فيه يديه وخرج إلى الحديقة ومرّغهما بالتراب وفركهما ثم عاد إلى الصنبور ليكمل اغتساله فأدركت أن الصابون قد نفد فهرعت لتضع قطعة جديدة، أو عندما لاحظت تورّم خدّه نتيجة التهاب ضرس ما، فصارت تضع المضادات الحيوية مذابة في كأس مائه.

كان الالتهاب اللعين يعاوده مرارًا، وعبثًا حاولنا نقله إلى طبيب الأسنان، فبات الورم مزمنًا وبه مات.

استمرّ صمته سبعة عشر عامًا. اضطررت إلى الهجرة بعد اعتكافه الصمت بسنتين، ثم انتقل أخوتي للعمل في بلدان الخليج.. لكنهم كانوا يتردّدون على البيت مرتين في السنة، وبما أنني أحببت دومًا التنفّس بحرية لم تُكتب لي عودة إلى الأهل. كانوا يعلمونني هاتفيًا "ما زال على حاله".

كانت أمي بجواره عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. وحدهما في دار يحيط بها برد شتاء قارس آخر.

اتصلت بها ما إن وصلني الخبر. كنت أحسبها ستبكي، لكنها كانت تتحدّث بروية وصفاء بالغين وأعلمتني بشيء من الغبطة أنه نطق كلمتين قبل أن يموت:

- Se terminó.

الظرف لم يمنع ذهني من ترجمة الكلمتين "انتهى". ثم أضافت:

- قالها بالإسبانيولي.. الله يرحمو.

غرناطة 2002/2/4

عويل

عندما وقع أبي عن ظهر الحمار تناهى إلى أمي أن رقبته دُقّت فأطلّت من نافذة الطابق العلوي المشرفة على بيت جدي تحديدًا وراحت تولول بقوة جعلت زجاج النوافذ ترتجّ في إطاراتها، فخرج سكان الحارة الأحياء جميعًا لاستقصاء دواعي العويل المبالغ به.

كنت مع والدي عندما وقع عن ظهر الحمار، فهرعت إلى البيت لأخبر أمّي، لكن ابن عمّي سبقني لأنه كان في التاسعة وأنا في الخامسة. لذا كانت قد شرعت بإطلاق عويلها عندما وصلت أسفل النافذة وحاولت مناداتها:

- يامّي.. يامّي..

لكنها ما كانت لتسمع، وقد ارتعدت فرائصي لشدة صراخها فصرت أبكي والتجأت إلى ساقي جدّي عندما لمحته يخرج من باب الدار الكبيرة ليصرخ من أعماق عظامه القديمة كلمتين:

-أخرسي أولي!

فحلّ صمت عميق وثقيل على امتداد زقاق الحارة وفي أعاليها وصولاً إلى الوادي وشارع السوق. لم تكن تسمع سوى شهقاتي المتقطّعة وأنا أشرق مخاط البكاء.

التفت جدّي نحوي وسألني ما الأمر. حاولت الإجابة بين الشهقات عندما لمحت والدي قادمًا وهو يعرج ويجرّ الحمار وراءه فأشرت نحوه.

ما إن رأته أمي حتى تراجعت عن النافذة مختفية وأوصدتها ثم أرخت الستائر.

لم تخرج لاستقبال والدي الذي ضحك كثيرًا وهو يروي كيف رماه الحمار.

2002/9/28

عَوْدٌ إلى المَآل

إلى أبي

امتقع قليلاً عندما قيل له لا، وتريث برهة قبل أن يأتي بحركة، وكانت الحركة أن استدار ومضى.

لم ينبس، تريث لحظة ثم مضى. أما ما اعتراه فيما بعد فليس بذي شأن، مجرّد إشارة إلى أنه ما زال على عهده، وهذا ما باح به لضابط التحقيق.

- أعلى هامان يا فرعون؟

انبرى هذا ما إن انتهى أحمد الوليّ من سرد الحادثة، ثم أضاف:

- لفّها يا شيخ.. هكذا؟ تذبح إنسان حتى تقنع الناس بأنك موجود؟ احكِ! يالله وإلاّ أعمل من عظامك مكاحل!

مكث ساكنًا، واثقًا أنه ما من جدوى، إنهم لا يفقهون. وانتابته رعدة خوف من التعذيب الموعود، خاطفة، لكنها كانت رعدة خوف، فهو موقن من أن أولاء، الجهلة السفلة، لا يجيدون من أساليب الحوار سواه. لبث بلا حراك، جسده استمرار لجماد الكرسيّ.

وكان أن شعر المحقّق بغتة بالجوع، شيء من الامتعاض وبطن خاو سبّبا قرصة في معدته. التفت نحو الحارس، كان هذا واقفًا عند الباب الموصد كباب ثان، ثم إلى أحمد الوليّ القابع على كرسيه، وبصق:

- أنا راجع. فكّر بالموضوع.

"آه يا كامل عطية المسنون، يا أيها المحقّق، العلّة ليست في أن تسنح لي الوقت للتفكير.. العلّة.. فيما أستهلكه! بما أفكر! هل أعاود التساؤل عمّا إذا كان والدي أصل الخطأ؟ علة العلل؟ لأنه أرشدنا نحو صراط لا يحيد لا مكان فيه سوى للحق، للصدق، للكرامة.. وأنه عجن في مداركنا حلمًا عن استقامة لم يتأت لنا منها سوى قهر وحيف بسعة الكون ومدى الزمن، ولأنه، كلما أمعن به البؤس، كان يزداد حلمًا بالعدل، بالأمانة، بالوطن! أتتصوّر؟! بالوطن!

بعد مماته أيقنت أن الكرامة موطني وهي مداسة في هذي البقاع.. كان في الخامسة والأربعين من عمره يا كامل عطية المسنون! يا أيها المحقّق، وأنت لا تدري ظروف موته، لا تهمّك تلك التفاصيل لأنها خارج موضوع التحقيق.. أتفهم الآن لماذا لا تفقهون؟

أنتم محدودو الفطنة ضيقو الأفق.. كل مبتغاكم هو دافع تسجلونه في التقرير - وكأنكم لا تجيدون التلفيق! - تبرّرون به امتيازاتكم في مجتمع منتن، ليس المرتّب الحقير، بل الصفاقة في اقتراف جملة الجرائم التي حذّرنا منها والدي.. والقضاء، بالطبع، على أمثالي.. لأنني أذكّر البائسين من أن هناك حقًّا آخر وعدالة أسمى. ستقول لي، على الأغلب وبابتسامة السخرية المتحجرة على محياك، بأن أصابع يديّ ما مثل بعضها وأن بعض الناس يهددون الأمن.. وفّر على نفسك سرد مبادئك العفنة وأجبني على سؤال واحد فحسب، فعلاً، كيف تحتملون رائحة القذارة التي تفوح مع زفيركم؟

هنا، سيشتدّ التعذيب دون ريب.. فصبرًا يا أحمد الوليّ. لو لم تودي تلك التفاهة بحياة الوالد لأشار عليّ بصفاء عينيه الدامعتين طيبًا: صبرًا يا بنيّ صبرًا، إنما هو أمر مكتوب.

هذا هو الفارق بيننا، أنا وأبي، يا كامل عطية المسنون.. أن إيمانه الهادئ أملى عليه مواجهة الدناءة التي رعيتموها بالهدوء ذاته.. كان يجد في آخرته مآلاً طيبًا فيلجأ إلى الحلم.. لذا سكت، تحمّل دون نأمة إلى أن اغتاله أمثالك في ظروف لا تعنيك لأنها لا تفيد مجرى التحقيق.. العمى يعميكم! أما ترون أن تراكم الدوافع ذاتها هي التي جعلتني أكفّ عن الاحتمال؟

بات الفساد دينًا، وكم هي قاصرة لفظة الفساد للتعبير عمّا تقترفونه. ما إن تعود سأقول لك كل هذا وسأبيّن لك لماذا هو مريح للنفس، صدقًا، القضاء على حشرة لا تختلف عنك سوى بالاسم ورقم الهوية.. هنا، يا أبتي، قد ألحق بك من شدة الضرب.. لكنها خريانة خريا.. ها! أسمع خطواتهم.. سيقول لي ما إن يفتح الباب:

- شو! فكّرت؟!

وسأجيبه:

- أجل. والدي كان محقًّا".

غرناطة 1993/6/25

نحات وكاتب من سوريا مقيم في غرناطة

يشماغ

عبد الستار البيضاني

في صباح بلا طعم ولا رائحة، استوقفتني مقدمة برامج منوعة في فضائية غير معروفة وباغتتني بسؤالها:

- ما هو أول شيء أحببته في حياتك؟

السؤال والمباغتة والموقف كله كان بالنسبة إليّ أشبه بالمزحة، لذلك لم أفكر لحظتئذ في التخلص من هذا الموقف، فقد كنت منشغلا بتفقد صباحات المدينة التي مازالت تتمطى بتوجس وسط بقايا دخان، ورائحة دماء خلفتها سيارات مفخخة عبثت بها مثل حيوانات ضالة. ثمة شخص كان يراقبنا من أمام أحد محلات بيع العصائر المطلة على رصيف الشارع، جردني من أيّ فرصة للتفكير بالإجابة- ربما كان المخرج- صاح بي:

- أستاذ من فضلك أجب بسرعة.. لأن طبيعة البرنامج تعتمد على المباغتة والإيقاع السريع!

أربكني صوته الذي طغت عليه نبرة الأمر الموجه لي، وللمقدمة، وللمصور الذي لم ينفك من تدوير عدسة كاميرته على وجهي، فأجبت من فوري:

- اليشماغ.

صاحت المقدمة بصوت يشبه صوت مقدمي السيرك أضفت عليه حيوية مفتعلة:

- برافووو.. حلو.. حلو..

لكن فجأة تجهم وجهها وهي تميل رأسها على كتفها لكي تتمكن من سماع تعليق المخرج عبر (الأربيز) المختفي خلف طيات شعرها النازل على أذنيها. أشاحت بوجهها عنّي من دون أن تكلمني، أو في الأقل تشكرني على مساهمتي في البرنامج!

عبرت الشارع باتجاه ناصية محل العصائر، وقبل أن يلحق بها المصور، أنزل كاميرته المحمولة من كتفه وسألني:

- أستاذ أنت إرهابي؟

واستدار من دون أن ينتظر إجابتي.

•••

أحب اليشماغ لأن جدي كان يلبسه. هذا أول شيء تبادر إلى ذهني وأنا أدخل في دوامة البحث عن تبريرٍ لإجابتي. كنت أدرك تماماً أن هذا لا يقنع الذين استشاطوا غضباً من إجابتي، وإذا ما أبلغ هؤلاء الشرطة عني بالتهمة التي رماني بها المصور، أو أيّ تهمة توحيها إجابتي، حتماً سأموت تحت التعذيب لأنني لا أملك غير هذه الإجابة التي لا تقنع أحد! ولكن لماذا أموت تحت التعذيب.. وهل في قولي ما يستدعي ذلك؟

سؤال المصور كان مزحة!.. ربما.. أنا أعرف جيداً أن مصوري البرامج الخارجية يتمتعون بخفة دم أكثر من غيرهم بسبب احتكاكهم الدائم في الشارع الذي لا يستقيم مع التجهم والجدية، ما يجعل تعاملهم مع الآخرين أقرب إلى تعامل موظفي العلاقات العامة.

أقول الحقيقة إنني لم أكن خائفاً!.. فبحثي عن دوافع إجابتي هو لي وليس تحضيرا لرد تهمة لا أعرفها.. الغريب أني وجدت نفسي وجوارحي كلها تؤيد إجابتي لمقدمة البرامج.. أنا أحب اليشماغ، وقد لا يصدقني أحد إذا ما قلت إنه الحب الأول في حياتي الذي لم يسبقه حب سوى حب الأم!

•••

حتى سنوات متأخرة كنت أتملى اليشماغ بانبهار طفل يتملى القمر في ليلة صافية؛ لا أعرف كم هو عدد أشهر عمري عندما كان جدي يلاعبني برميي إلى الأعلى ويتلقفني بيديه المفتوحتين، كانت ضحكاته النشوى تختلط بيشماغه الذي يهفهف على كتفيه مثل موجات فرحه، فتتيه عيناي ولهى بحراك البقع الدائرية السوداء المربوطة إلى بعضها بخطوط سوداء متعرجة، تشبه شبكة لاصطياد سعادات طائرة. كنت عند هبوطي على كفيه -وسط ضحكات أبي وأمي وجدتي- أحاول أن أمد يديّ لكي أسحب شبكة اصطياد السعادات من كونها الأبيض، لكنّ ذراعا جدي الطويلتان كانتا تبعداني عن ذلك بحركة بارعة وخفيفة، حتى تمكنت ذات مرة من سحب الشباك والبياض معاً ليسقط عقال جدي ويشتعل غضبه، فألقاني على الأرض بقوة، لأنني بإسقاطي عقاله قد أهنت شرفه!

أمي التي وصفت لي الحادث قالت: هكذا كان يعتقد جدك كما يعتقد غيره من الناس.. وإنها شهقت بقوة وتصورت أنني ربما متّ، أو تعرضت لكسور شديدة من قوة رميي على الأرض، فلم تستطع منع نفسها من البكاء!.. وقد فسرت لها لاحقاً أن الشباك الأسود الذي ينسج يشماغ جدي هو الذي تلقفني وخفف صدمة الأرض على جسدي. ضحكت واعتبرت ذلك مزحة من طفل، لكنني في حقيقة الأمر كنت أتحدث بجد، فقد بدأت ذاكرة طفولتي تتدفق في أعماقي بصفاء غريب!

هذا الحادث لم يمنع ولعي بيشماغ جدي، فقد كنت أرقبه عندما يطبق أطرافه على بعضها، فيتحول شكله المربع إلى مثلث قبل أن يضعه على رأسه، فوق طاقيته البيضاء المطرزة بالكلبدون الأصفر، ويشد أطرافه عند محزمه أمام المرآة.. أتذكر جيدا غبطته وهو يُميل رأسه يميناً وشمالاً ليدقق في حافاته التي تطبق على أذنيه.. غبطته تتسرب لي وأنا أرى خيوط الشبكة تنسحب على الدوائر السوداء، وكأنها تدوفها بالبياض المخملي، فتتحول إلى أشكال بيضوية بالتناسق مع تحول مربعات الخيوط إلى أشكال متعددة لمتوازي الأضلاع. ذات مرة طلب مني أن أساعده بأن أشد أطرافه المثلثة من خلف ظهره إلى الأسفل، لأن العقال الفراتي الذي كان يجرب لبسه ذلك اليوم لأول مرة لم يثبت على رأسه بسهولة.. الله كم كنت سعيداً بملمسه، وملمس خيوطه ودوائره السوداء، لأول مرة أكتشف أنها تطريز بارز وليس تخريما كما كنت أعتقد، ولم أستطع كتمان انبهاري

حسين جمعان

عندما قلت:

- الله ما أجمل نعومته؟

فرد جدي وهو يطابق حافة الشماغ فوق جبهته:

- هذا يشماغ لندني لا يلبسه إلا الشيوخ!
- ماذا يعني لندني؟

تناول عقاله المعلق على يمين المرآة وثبته على رأسه واستدار ليأخذ عباءته بعد أن طلب مني ترك طرف الشماغ وقال:

- الآن مدعو إلى عرس بعد رجوعي نسولف.

وقبلني فرحاً وخرج. في تلك اللحظة شممت رائحة أليفة ربما كانت رائحة الشماغ - هل للشماغ رائحة؟ لست أدري لكن ثمة رائحة تشبه رائحة الأشجار الكثيفة المختلطة برائحة مياه وأسماك وريح شرقية ترطب المنخرين.. حينها فقط تيقنت من أن الشماغ ما كان ليكون على هذا الشكل إلا تشبهاً بشباك صيد الأسماك في الجنوب، وركضت إلى أمي الجالسة تحت سدرة الحوش ترتق ثوبا قديما لأستفسر منها عن هذا «الاكتشاف»، فصاحت بي باستنكار:

- من أين تأتي بهذا الكلام يصيدون الأسماك باليشاميغ؟.. أهبل!

أُحبطت واستمرّيت في خطواتي لأخرج إلى الزقاق، وفجأة صاحت بي:

- تعال!

استدرت واقتربت منها:

- المعلم قال لك هذا؟..
- لا..ليس لدينا درس عن الشماغ، درسنا اليوم اسمه الدجاجة السوداء والكلب الصغير.

تبسمت وكأنها تستلطف إجابتي، لكنها واصلت الكلام بما يشبه السرحان وكأنها تكلم غيري:

- والله صحيح.. أنت جني.. لماذا في الجنوب يلبسون اليشاميغ المرقطة بينما في المدن الأخرى تكون بيضاء ناصعة..

ومن ثمة طلبت مني عدم الخروج ومراجعة دروسي. كنت سعيداً بداخلي وأنا استعيد انبهار أمي بقولي، وعندما فتحت كتاب القراء لمراجعة دروسي كانت عيوني فقط تتحرك على الصور الملونة للدجاجة السوداء والكلب والقرد والدب المربوط إلى يد رجل يعزف بالدف وخروف أبيض وأولاد وبنات سعيدين بالعيد، أما رأسي فكان يمور بصور صيادي الأسماك في أهوار الجنوب واليشاميغ التي تغطي الرؤوس بشباك الصيد المفروش على أغطية الرأس البيضاء.. لم تكن يشاميغ.. إنها شباك صيد أسماك حقيقية، وما تلك الدوائر السوداء إلا أصداف أسماك الكطان والبني.. أسماك حرة كما تسميها أمي وجدتي وكذلك يسميها جدي وهو يسرد لي حكاياته في أعماق الأهوار ومواجهاته مع الخنازير المتوحشة..

انتظرت عودة جدي بفارغ الصبر لكي أحدثه عن اكتشافي الجديد! انبهار أمي بسؤالي جعلني أتخيل حكاية ظهور اليشماغ المرقط لكي يكون أكثر إقناعاً لجدي، فقد كانت اليشاميغ عبارة عن قطع قماش بيضاء خالصة مثل تلك التي يلبسونها في المدن الصحراوية، لكن في يوم ما وعندما كانت الحيتان تجوب الأهوار المفتوحة على البحار اتفقت الحيتان الكبيرة وأسماك الأهوار على سرقة شباك الصيادين ورميها عليهم واصطيادهم في يوم أرادت فيه الأسماك أن تنتقم من الصيادين لكل ضحاياهم الذين سقطوا في شِباك صيد كل سلالات أهالي الأهوار، ومنذ ذلك اليوم تركت الشِباك طبعات سوداء على اليشاميغ البيضاء التي صارت رقطاء كما هي عليه اليوم. وربما الحكاية غير ذلك؛ في لحظة استرخاء واستراحة من مشقة الصيد جلس أحد الصيادين يتسلى بانتظار ظهور الأسماك، فراح يربط أصداف السمك السوداء مع بعضها بخيوط سحبها من قصب البردي، فصارت على شكل شبكة غريبة، وفي لحظة ضجر وضعها على رأسه متسليا بها مع جماعته فاستلطفوها وطرزوا أغطية رؤوسهم البيضاء بالخيوط السوداء على شاكلتها حتى أخذت شكل اليشماغ..

جدي أيضا وكأنه يردد ما قالته أمي قبل قليل قال:

- أنت لست طفلاً.. أنت جني!

وهو يستمع إلى تفسيري لظهور اليشاميغ بعد عودته، غير أنه قال وهو يجلسني وسط العائلة المستأنسة بخيالاتي:

- أنا لا أوافقك يا شيخ لأن اليشماغ شرف نضعه على رؤوسنا ولا يمكن مقارنته مع الشِباك التي عند الصيادين..

ومن ثمة أمسكني من كتفي وأجلسني على مخدته الإسطوانية التي اعتاد الجلوس عليها وواصل حديثه بنبرة تجمع بين المزاح والوعظ:

- .. كان أجدادك في الهور يعتقدون أنه ليس من الفروسية اصطياد الأسماك بالشباك وإنما بالفالة.. لذلك كنا نذهب ليلا حاملين الفوانيس النفطية والمشاعل بحثاً عن الأسماك التي نواجهها وجهاً لوجه.. نحن بفالاتنا وهي بقدرتها على الزوغان، لا بل كانت الرجولة تظهر عندما يتمكن أحدنا من شك الفالة عند رأس السمكة وليس في جسمها ليحافظ على سلامتها، ألم تسمع المثل الجنوبي الشهير "يشك الفالة عند رأس الكطان" ويقال لدقة كلام الرجل وبلاغة معناه.. ذاك زمن قديم.. أما الآن فإنهم يهاجمون الأسماك بالمتفجرات وكأنهم يخوضون حروبا معها.. فعلا إنها حروب الإنسان مع نفسه..

ران الصمت على أفراد العائلة وهم يستمعون إلى الجد الذي بدا صوته منكسراً أو حانقاً على شيء ما، فتناول لفافة من علبته المعدنية الصدئة وراح يدخنها، ومن ثمة مسح على رأسي وكأنه يغير الجو:

- الآن اقتنعت يا شيخ؟
- لكنك لم تجبني عن سؤالي لك قبل أن تذهب إلى العرس!
- وما هو؟
- لماذا سميّ لندني؟
- لأنه صنع في لندن!
- ما معنى لندن؟
- أسم مدينة إنكليزية معروفة.. منها جاء الإنكليز والكركة ليطردوا السلاطين الأتراك ويحتلوا العراق..
- لماذا الإنكليز هم الذين يصنعون لنا الشرف الذي نغطي به رؤوسنا؟
- لأنهم أفضل من يصنعون الأشياء!
- ونحن؟
- أفضل من يصنع العباءات!

يبدو أنني كنت مزعجاً للعائلة لأنني أستدرجتهم إلى حديث لم يفكروا به يوما، لذلك عندما طلبت من جدي أن يعطيني يشماغه القديم بسبب عدم وجود يشاميغ للأطفال، غضبت جدتي وهي تستفرد بي مع أمي:

- لا تسمع كلام جدك.. لا شرف ولا بطيخ..

أنا أكره اليشماغ لأنه لثام اللصوص عندما يسرقون يستر ويخفي ملامحهم.. كرهته منذ تلك الليلة التي دخل فيها علينا أنا وأمي رجل ملثم بيشماغ مرقط واستل خنجره ورفع عصاه مهددا أمّي لتدله على مكان إخفاء أقراطها.. كانت عيناه تلمعان بحقارة وهو يجاهد لدفع صوته من تحت اليشماغ الذي أحكم لفه على وجه، لم يكن بوسعنا أن نصرخ فقد كان أبي ينام مع ضيوفه في المضيف.. أنا وأمي نكاد نتذكر صوته، وكنا نتمنى لو أن اليشماغ تحرك قليلا لكشف وجه هذا اللص الذي يعرف كل ما لدينا.. لو كان اليشماغ شرفاً لانفلّ وكشف وجه اللص الذي سرق أقراط أمي التي لم تتمكن بعدها من شراء أيّ قرط حيث هاجرنا إلى بغداد..

وفجأة أخذت أمي الحديث من جدتي للتحدث بالنبرة الحانقة نفسها:

- أنا أيضا أكره اليشماغ.. عندما يتنقب به الرجال تعبيراً عن أحزانهم حين يفقدون عزيزاً.. لا أدري لماذا يتنقب الرجال عندما يحملون جنازة إلى القبر أو عند يشّيعون موتاهم.. والدك يقول إنه عندما يذهب إلى فاتحة غريبة سيعرف ذوي الميت من نقابهم.. هل سمعت بنقاب الموت؟ إنه نقاب الأحياء الحزانى باليشاميغ.. اليشاميغ علامة الانحدار أمام الموت..

منذ ذلك الحديث كرهت اليشماغ لأنه غطاء اللصوص وعلامة الموت على وجه الحياة، وهل هناك أشياء أكثر كراهية للإنسان من الموت والسرقة؟

...

حسين جمعان

استمرت كراهيتي لليشماغ حتى اللحظة التي وقف فيها معاون مدرستنا وسط اصطفاف الطلاب واضعاً اليشماغ المرقط على رقبته، حاثاً إيانا في خطبة حماسية على مساعدة أخوتنا الفدائيين الفلسطينيين،لأنهم يقاتلون اليهود الذين استباحوا القدس وحرمات المسلمين ويمنعونهم من الوصول إلينا وإخراجنا من بيوتنا.. إنهم يغسلون عارنا الذي لحق بنا إثر هزيمة كل جيوشنا العربية في العام الماضي، لذلك علينا التبرع لهم بالمال والمواد الغذائية... في حينها وزعوا علينا مربعات بيضاء صغيرة رسم في وسطها قبة القدس على خارطة فلسطين مفروشة على يشماغ مرقط، قالوا إنها طوابع «دعم العمل الفدائي»، علينا شراؤها بعشرة فلوس بالنسبة إلى ذات اللون الأزرق، وخمسين فلسا لذات اللون الأحمر. وحقيقة لم أجد في نفسي الرغبة لشراء هذه الطوابع، ليس بسبب كرهي لليشماغ المفروش تحت الخارطة، وإنما لأنني لا أملك غير عشرة فلوس واحدة هي مصروفي اليومي الذي أتقاضاه من أبي، لكنني مع ذلك، ولكي لا أُتهم بالبخل خرجت أمام زملائي واشتريت الطابع الأزرق وبقيت جائعا ذلك اليوم الذي لم يبارح ذاكرتي.

عندما عدت إلى البيت تهيأت لمواجهة غضب أمي التي تكره اليشماغ الذي يذكرها بالموت، لكني فوجئت بسكوتها ونزول دموعها الصامتة، كانت دموعاً متواطئة معي، فقد أدركت أنها في سريرتها تشجعني وذلك لاعتقادها أن الفدائيين سيأخذون بثأر شقيقها الذي قُتل في غارة إسرائيلية بمنطقة «أيج ثري» أثناء ذهاب الجيش العراقي لاسترجاع القدس من أيدي اليهود!

صرنا نشاهد صور الرجال الملثمين معلقة في الشوارع ومن شاشة التلفزيون مع الأغاني والخطب الحماسية والموسيقى، صور لرجال

منقبين خلف بنادق مصوبة تجاه الناظر لصورهم، أو يزحفون تحت أسلاك شائكة، هؤلاء المنقبون باليشاميغ قد لا يشبهون اللصوص الذين حدثتني عنهم جدتي، أو حاملي الجنائز وأصحاب المصائب الذين حدثتني عنهم أمي.. إنهم نمط آخر من الرجال صار يتشبه بهم الساسة وزعماء البلدان عندما يلفون رقابهم باليشاميغ أو يضعونها على أكتافهم لتطهير أنفسهم من ذنب ضياع القدس. لقد تغيرت فكرتي تماما عن اليشماغ، وعن المنقبين وقربتني من جدي الذي كان يقضي الليالي يدوّر مؤشر الراديو بحثا عن أخبار الفدائيين، وكان يتحفز كثيراً عندما يسمع صوت المذيع الذي يشبه الرعد «هنا صوت الثورة الفلسطينية».. وبعد أن شاهدت أطفالا يتنقبون باليشاميغ يطلقون عليهم الأشبال، ويعملون حركات بهلوانية، أو قتالية تحرقت شوقاً لكي أكون مثلهم، وعندما طلبت من جدي التطوع معهم، قرصتني جدتي من خاصرتي، وهمست محذرةً: «أسكت سأخبر والدك..».

وعندما عاد والدي قرصني من أذني وقال:

- إياك التفكير بهذه التجارة الفاسدة..

صحيح أنني لم أتطوع مع الأشبال، لكني حصلت على يشماغ مرقط كنت ألفه على رقبتي لسنوات امتدت حتى بعد أن اختفت صور الملثمين باليشاميغ المرقطة من الشوارع ومن شاشات التلفزيون ولم يعد يتحدث عنهم أحد، لكنه صار مثل الزيّ المعتاد بالنسبة إليّ، فقد معناه وما عاد يعني لي شيئاً.

في مرحلة الدراسة الإعدادية حدثت لي مشكلة عندما أصرّيت على لبسه برغم منعي من قبل إدارة المدرسة، وكدت أُفصل لإصراري على ذلك، حتى كلمني مدرس أحترمه وأحبه بضرورة التخلص من اليشماغ المرقط، وقد حدثني طويلا بنبرة دافئة: «إن هذا يوحي بالتخلف».. ولم أقتنع بوصفه هذا برغم دفء صوته وأبويته في الحديث، لكن عندما قال لي: «أنت شاب وبأمثالك نبني مستقبل البلاد ونؤسس المجتمع المدني ونحترم خصوصيات شرائحه»، فإذا كنت أنت في المدرسة تلبس يشماغ فماذا يلبس الفلاح؟.. ومن هو الجميل برأيك العامل الذي يلبس خوذة أم الذي يلف اليشماغ على رأسه؟.. صورة المجتمع تتغير يا ابني.. أزياء المجتمع هي نتاج قرون من التجارب التي بنت شخصيته، فلا يجوز للعسكري أن يضع اليشماغ على رأسه، هل تتخيل رتب الضابط لو علاها اليشماغ بطريقة عمال الخدمات، الضابط أكثر هيبة وقدرة على إخافة العدو وهو يقاتل ببيرية أو خوذة، وأنت يجب أن تكون في المدرسة بكامل أناقتك وتسريحة شعرك الجميلة التي تذكرنا بالمستقبل الجميل لأن المدرسة ساحة قتال من أجل صنع المستقبل..».

كلام هذا المدرس أعاد صياغتي، وبقي يرن في ذاكرتي حتى بعد أن علمت أنه هرب خارج العراق من ملاحقة الأمن له لأسباب لا أعرفها، ولم أندم على ذلك إلا بعد أن ربط عيوني رجال الاستخبارات العسكرية بقطعة قماش سوداء وقادوني من وحدتي العسكرية التي تقع في خلفيات جبهة البصرة إلى دهاليز مظلمة، قيدوني إلى كرسي وسط غرفة مظلمة إلا من ضوء يسقط عليّ بكثافة من السقف، وقبل أن أفتح عيني، صفعتني كفان خشنتان من الخلف على خديّ، وجاءني الصوت من الظلمة التي تقابلني:

- هل قلت إن لبس الضابط لليشماغ مع رتبهم يقلل من هيبتهم؟
- نعم.
- أين؟
- كنت أتحدث مع أصدقائي الجنود في الأسبوع الماضي بعد عودتنا من البصرة.
- هل كنت تقصد اليشماغ الأحمر أم الأسود؟
- أيّ يشماغ مهما كان لونه.
- هل كنت تقصد السيد الرئيس حفظه الله ورعاه لأنه يلبس اليشماغ مع رتبته العسكرية؟

صرخت باستنكار مثل المفجوع:

- مستحيل ماذا تقول سيدي.. مستحيل؟

أتتني عدة صفعات متتالية من الخلف على أنفي وفمي.. ملأ الدم فمي ولم أعد قادرا على الحديث بينما ضاق تنفسي من أنفي الذي شعرت به ساخناً.

- أي خائن دفعك لقول هذا؟
- لم أسمعه من خائن.. سمعته من المدرس في الإعدادية قبل ست سنوات حتى قبل أن يضع السيد الرئيس حفظه الله ورعاه اليشماغ الأحمر على رأسه.. وقبل أن يصبح رئيساً..

تتالت الصفعات على كل مناطق وجهي وأسقطتني أرضا أنا والكرسي..عدّلوا الكرسي ومعه جسدي المربوط إليه، انطفات عيناي وثمة وشيش ملأ أذنيّ.. ورحت أسمع الصوت مثل السعير:

- عميل وجبان السيد الرئيس في ضمائرنا منذ أن خلقنا.. كيف تقول قبل أن يصبح رئيساً..الله خلقه للعراق رئيسا منذ أن خلق الكون.. خونة عملاء يشماغ الرئيس هيبة الأمة كيف يقلل اليشماغ هيبة الضباط؟

ومن ثمة اقترب مني وضربني بسوط لافح:

- من الذي جندك؟

أردت الإجابة لكنّ لساني تعثر بأسناني التي ملأت فمي، توالت الأسواط عليّ والصفعات، لكني كنت قد فقدت الإحساس بكل شيء حتى حكموني بالسجن خمس سنوات، بتهمة شتم يشماغ الرئيس.

هذا اليشماغ دمر حياتي وحياة عائلتي، فقد وصمني بالعميل المعفو عنه بعد خروجي من السجن ولم أوظف بسببه، ووضع جميع إخوتي تحت المراقبة، كما منعوا أحد الضباط من الزواج من أختي، وصرت أنفذ كل ما تطلبه مني المنظمة الحزبية في منطقتي، لكي لا أعاد إلى السجن بهذه التهمة التي مازال البعض يستغرب كيف أنني لم أُحكم بالإعدام بسببها؟ لكن الآن وبعد أن ذهب الرئيس يبدو أن ضمير يشماغه صحا، فقد عوضني عن تلك السنوات.. حيث منحني هوية السجناء السياسيين، وراتب ودرجة وظيفية لم تخطر على بالي حتى في الأحلام، وشقة جيدة من أموال الدولة وعدوني بتمليكها لي إذا لم يمنحوني قطعة أرض سكنية، ولو كنت طموحاً لكنت حصلت على منصب حكومي كبير لأنني ناضلت ضد يشماغ الرئيس.

في هذه اللحظة فقط فسرت لنفسي لماذا أحب اليشماغ، لكن هذا لا يمكن قوله في التلفزيون، غير أنه يعيش في ضميري وكل جوارحي. وبهذا سأتخلص من تهمة الإرهاب لأنني امتلكت سببا لحبي اليشماغ.

كاتب من اليمن

دوزنة في شقوق الطين

إلى فاطمة

عبدالقادر حكيم

البنت التي هطلت بغتة على مفازة وجوده/ العدم، كانت قادمة لتوّها من كسلاء، وكانت لا تزال تحمل من قيظ تلك المدينة الجميلة حرارة الإنتماء.

البنت الحلوة إذ تتماهى على شوارع قريته، اليباب كانت تربك تفاصيله الواهنة، وتشتّت تماسكه الخلّبى، المخاتل، فيزدرد صمته في غباء، ويجثو على فوح طيفها في الظل يبكى.

بدت له دافئة، وناعمة. الدفء يحتاجه كمضاد للرطوبة والبلل، يتصاعدان إليه في صباحات قريته الباردة. النعومة يحتاجها كي تمحو عنه الصدأ يهاجم شبكية عينيه منطلقاً من سقوف المنازل، وأبواب الحوانيت المكدّسة بالكساد، وسيارات النقل التي يستوي على متنها الإنسان، وقمح الإغاثة، والماعز، والدجاج الأسود، وحاويات الكيروسين.

البنت الحلوة عرفته دونما عناء، إذ كانت طريقته في المشي تشبه طريقتها في ارتداء ثوبها!.

- "فاطمة"
- "عمّار"

لطّخت قامته المديدة بنظرة عتاب، إذ بدا لها متعجّلاً.

"الشقوق التي في طين ذاكرته هي التي تدعوكِ، كي تلتئم بروحكِ الحلوة، وتصدح بالياسمين، والأطفال، والخضرة المطلقة".

- "شاعر؟"
- "كنتُ.."
- "الشاعر لا يموت فيه الإحساس" الشخص الذي ككيس سماد في حديقة مهملة، صار الآن- بُعيد انبثاقها فيه، فاطمة- يؤول إلى شيء باهت. يتقاطع دبيب تيهه الغامق مع مسارب الفرح في حضورها المزركش بالصفاء.. يهجر الظل، ولا يدخّن بشراهة. يحلق ذقنه الكثّة. يشذّب شاربه. يتأنّق ويكتب شعراً.

فاطمة

يا أنتِ،

يا صنوبرة من نوْر

تبسمينْ..

يخبو وميضُ الهلامِ

ينفضُّ عنّي الشتاءُ

راشد دياب

يخرج للعالم / لها.. مزهوّاً كطفل يلهو بلعبة من صنعه. يتحاشى المرور في الشوارع المضاءة بالنيون كي لا تصيب دهشة الناس إيقاع خطواته الراقصة بالنشاز. يصفّر. يرتّل لحناً حميماً:

أنا وإنتِ

يوولاليي

سالِس ربّي

يوولالينا.

جاءه أوّلاً عطرها. فاح فيه. ثم كأنّما خرجتْ من الهواء، أو انقشعت عنها سحابة، رآها على شفا خطوته، التي زادها الفوح اتساقاً.

- "خشيتُ أن تملّ انتظاري"
- "ما أحلى انتظارك!"

عبرا دائرة الضوء التي كانت تتحاف في حميمية مع الظلام الخفيف خارج القرية. كان هو يعبث بمفاتيح غرفته، وهي تطقطق أصابعها. وعلى دفء صخرة مستوية كسرير جلسا، واتحدت عناصرهما، تماماً. لمّا رأته ذات طنين في سوق القرية حاملاً على ظهره حقيبة كبيرة، إندلق توجّسها فاقعاً:

- "هل تنوي سفراً بعيداً؟"
- "بعيداً.. بعيداً" قال.

قفز على وجهها إمتعاض كثيف، ولوّنه بلوعة داكنة. قال ولم تترنّح كلماته تلقاء عينيها إذ رأى فيهما يقيناً راسخاً:

- "إنّما.. مطيتي عيناكِ، وصوتك الفيروزي زادي، وغايتي دواخلكِ، ألجها، فتمدّني بالأماني الحاشدة.. وفضائي الأماكن كلها، حتى تلك التي تشتكي زنابيرها قلة الطين".

ابتسمتْ، وعاد يقينها أكثر رسوخاً. برشاقة أنكرها الشخص السمادي تناول حقيبته من على ظهره، واخرج دفتراً. احتضنت شعره. مضتْ، ولم تقل وداعاً.

• مدينة سودانية
• أغنية شعبية بلغة التجري لإدريس ود أمير

كاتب من السودان مقيم في استانبول

كأنها بوّابة رواية

علي السوداني

أزيد الظنُّ أنَّ لوح الطين لم يعد مثلوماً كما أن ولد أول مرة. قد يبدو هذا تعبيراً أحفورياً أو محاولة بائسة لقنص لحظة إدهاش ممكنة. كنت فعلتها من قبل وأرى من العدل أن لا أثردها وأسلقها ثانية فوق موائدكم التعبانة وصوانيكم الشحيحة. اللغة المركبة تفسد النص وتسحله مكرهاً صوب أرض الصنعة وقد تطمره هناك ملطخاً بشهوانيّة التجريب.

سأكتبُ بعد الآن بلغة شارعية شوارعية صرف، مستعيراً حياتي الراسخة التي أنجبتْ ولداً حلواً ما زال يضحك، كلما انقلب خزّان الذاكرة على قفاه وتفتّق عن سكراب عتيق.

بعد خمسٍ وعشرين سنة على تلك الواقعة الشائنة، أراني أستعيدها بمرارة وعار، لكن إياكم أن تنطروا منّي اعترافاً مؤجلاً بذنبٍ عظيم. حدث الأمر بغتة كما لكمة زرقاء تحزّم عينك أو تدمغك بعنّة أزلية.

ليلتَها، كان عمري يلعب عند أعتاب منتصف العشرينات. أزيد من خمسٍ وعشرين، وأقلّ من ستٍّ وعشرين. الأفضل أن أكون صادقاً وجاداً في تلك المعلومة، لأن بناء الحكاية سيدور طويلاً حول تلك الليلة. لتكن خمساً وعشرين سنة إذن.

كانت الحرب قد غادرت عامها الرابع وصارت راشدة وقوية، وعواء مدافعها يقنص الجسد بيسرٍ مبين. أقصد الحرب المطحنة مع إيران. ربما كنت من النوادر الذين فلتوا من الموت وهم بين أضلعهِ وفكوكهِ النابتات الداميات. أنا وحيد أمّي المدلل الذي تسمّيه الجند تفخيماً الفتى الأمّيّ، وكان هذا هو السبب الجوهري الذي منعني من اقتراف غواية الموت في شقوق الأرض الحرام، وجعل السيد المهذب عزرائيل يبكي ويلطم كلما شاف وجهي الخوّاف وربما بعض بللٍ فوق سروال الشرف الكاكيّ. هي ماتت بعد قليل من زمان موت نطيح الهاونات. مرة طلبتُ منها أن ترشَّ طاسة ماء خلف ظهري وسفري إلى شقوق القتل. ضحكتْ بقوة كما لو أنها لم تكن هي التي أتت من شعب مكة إذ طوفتْ مع المطوفين، ورمت مع الرامين، ونحرت مع الذبّاحين وأنشدتْ مع حشود المنشدين المطمئنين الآمنين.

من طعوم السرد المملّ، أتلذّذ اللحظة بحلاوة قرصَتها الخالدة فوق خدي الأملس. سألتني إن كنت أدري سرّ مقتل سعد ابن جارتنا الأرملة أم سعد في أول أمسية عسكر فيها الولد شرق رمل البصرة. قلت اصطاده قناص إيراني بارع. ضحكتْ أمي المبروكة بقوة عشيرة نساء، حتى كادت تنقلب على قفاها. لم تكن بي رغبة للضحك، لكنني صنعتُ نصف ابتسامة باهتة. بِسْتها فوق جبينها العالي وباستني من حنجرتي الناتئة، في نبوءة نادرة تتصل بموتي مذبوحاً أو مسموماً أو مقهوراً فوق رصيف غريب وموحش.

ثانيةً، عادت أُمي إلى ضحكتها المسموعة حتى سابع جار، وأسرّتني بواقعة مساء مقتل سعد ابن أم سعد. لقد طشّت المجروحة أمهُ، طاسة ماء عملاقة خلف الولد، فأوهمته بأن الموت سيتبوّل على سرواله إن شاف سعداً يتمشّى فوق الساتر. سعد يشبهني تماماً وكانت أُمه قد أنزلته من بطنها قبل أن تفرّغني أمي من جوفها الطاهر بساعة. عندما سمّتهُ سعداً، قالت أمي بحسرةٍ ضخمة ساخنة:

لو كنتَ بنتاً لسمّيتك سِعدة. منذ بعض سويعة، أكلتْ أمي ياء سعدية وكسرتْ سينها، وقبل أن يجفّ مخاط فرجها الرطب، صاحت أنتوني بالولد سعدون. في أخير البلبلة الجلجلة ومع صلية متصلة من ٠ دفعة عليّ ٠ صرتُ سعدون ابن أم سعدون.

أظنني قلت إنّ سعداً يشبهني تماماً. المسألة شكلية محض. لم نكن كذلك أبداً. كنت ذكياً وكان غبياً أحمقَ لذلك مات مستعجلاً. أمه كانت شبيهة أمي، تحبهُ وتدلل مشيتهُ. تنوح عليه كلّ الليل وتتناوح وتنعى وتثغب كلّ النهار، حتى صارتْ ملحوناتها المصفوفة على سلّم الوجع، أناشيداً وطنية لأغضاض الحارة المتحمّسين وصبایاها الفائرات.

سعد مثلي. لم يكن شجاعاً قط. كان أرعنَ حسب. خشمهُ يسيلُ وهو يبرك فوق العشرين، وكان ممتئاً لأن حسان الزقاق كرّ يطلقنَ عليه اسم سعد أبو مخطانة.

مرة، رمى سعدٌ وردةً جورية حمراء لواحدة مختالة من تلك البنات، مرصوص لحمُها ناهد صدرها المحمول لصق جيدها من دون حمالات أثداء. انحنت سليمة الحلوة على الوردة والتقطتها وبصقت في قلبها وأطلقتها صوب سعد وصاحت:

إمشِ ولّي أبو ظرطة، صاير لي دون جوان، من عمتْ عينك وعين خلقتك الجايفة يا أدبسز.

شوفوا كم هي مدهشة منحوتات اللغة. البنات الحلوات، دفنَ وعجنَّ مخاط الولد الغبي سعد، فصيّرنهُ مخطانة. مرة من مرات عاد سعد منتحباً مدحوراً، وزرع رأسه الصغير في حضن أمه كما لو أنه يريد الولوج ثانية إلى قبوهِ المظلم. كان حسن أبو الفلافل قد ضربه على وجهه بطاسة اللبن وقال له: إياك أن تأتي ثانيةً إلى دكاني يا وجهَ النحس يا بومة يا أبو بولة، يا ابن التي لا صلّت ولا صامت، وقد نفر نصف زبائني من منظر خشمك السيّال، شبيه فرج سميرة القوادة مع مضاجعة خاطفة من سبعة شداد، في خان جائف من خانات باب الميدان.

أظنكم لم تسمعوا بخبر حسن أبو الفلافل وبسيرته ومسيرته من قبل. ببساطة هو وحش بقناع آدمي. غليظ قلبه، ولسانه مثل لسان قندرته أم القيطان. تحكي عنه رواة الحارة وشيبانها والعجائز المتهتكات، بأنه كلب ابن سطعش كلب، حطّ حقيبته على غريفة مبنية من صفيح وطين وحجر وخشب وقش وقار، لكنْ مهلاً عليّ فالقصة لم تكن متخيلة أو منزاحة وعبارتها تضيق ورؤياها تتسع. كنت فقط شاهداً ومنصتاً ليلة باغتَ حسن، سعد ابن أم سعد بقاذورات الكلام ومقذوفاته. كان حسن على صواب حين دمغ سعداً بأبي ظرطة. عصريّتها كنت صحبة سعد نشاهد أحد أشهر شرائط

البكاء والشجن وكان عنوانهُ الصائح ٠نحن لا نزرع الشوك٠. الفيلم كان من بطولة شادية ومحمود ياسين، وعرض بالأبيض والأسود من على شاشة سينما بابل بشارع السعدون، من أعمال وأطيان بغداد العباسية عند انتصاف سبعينات القرن البائد. كان سعد يظرط كلما اقتربتْ شادية من إنجاز لفظ شين الشمس. كانت فرصة مذهلة للبكاء والتوجع والأنين والحنين، خاصة في مرقاة الوجع الذي تعرّش فوقه شادية البديعة، فتجرح أكباد الناظرين وتدمي قلوب السامعات النائحات المحصّنات بطقطوقة ٠والله يا زمن٠.

والثانية الدامية التي منها تندب كأنها في ثغيب حسينيّ موحش:

٠ لا لينا أهالي يابه يسألوا علينه

ولا قلب احنيّن واحد في الّلي حوالينه

وبنبكي في قلوبنه يابه ولا دمعة في عنينه يابه... ٠.

ظلّ هذا الشريط الكاسر معروضاً من مشوفة سينما بابل أربعة شهور وكمشة ليلات، وكان الحشد كله يبكي ويتفجّع حتى وصل الحال بعجوز محترمة شيباء، إلى أن تفترش باب السينما وتطيّن رأسها العاري بطين هشّ كانت شالته أحذية القادمين السراة المشاة، من مستودعات وجيوب الفقر التي تسوّر العاصمة العباسية وتنام في أحشائها.

سعدٌ هو الآخر كان يبكي ويتلوّع. أنا الرائي النادر الذي لم يبكِ ولم يتحسّر حتى.

جاهدتُ غير مرة ومرة، كي أفرش ذاكرتي الفعّالة فوق وجه شادية لكنني لم أفلح. لقد استولى الرنين المتقطّع الهاب من مؤخرة سعد ابن أُم سعد، على كلّ قحفي وكبّل عاطفتي وختمها بالشمع الأحمر.

لم يفترِ أو يتجنَّ حسن أبو الفلافل أو يظلم إذ قال لسعد: إغرب عن عربتي يا بومة يا خلقة منحوسة. لكنّ حسناً كان نذلاً وساقطاً وابن مشرّد مرّ مصادفة بغريفة أمهِ، حين ذهب إلى توصيف أُم سعد بالزانية. قلت له:

عيب عليك يا حسن، لقد ظلمتَ المرأة وهي ما زالت تحسو جرار ماء زمزم العتيق.

رمى حسن الشرير قالب تصنيع الفلافل والملعقة من يده. هصر جسمي المتضعضع على حائط من طين مقوّى بقش، وطوّح بسكين لمّاعة بوجهي وقال:

إن أعدتها ثانيةً، سأعمل من مؤخرتك الطرية، مرآباً أبدياً لسكّيني العزيزة.

تلك كانت من أقسى ليالي الخزي التي لم أنسها، حتى لحظة خشوعي جاثياً متمتماً موشحاً أدعية، وملوّناً ما تيسّر من قصار السور على باب قبر سعد.

الخارطة الآن صارتْ واضحة ومشعّة مثل عين شمس:

أنا وأُمّي،

سعد وأُمه،

حربٌ هارسة بين العراق وجارته الفارسية الهوى.

سعد جندي ميت - هذا ما مرسوم فوق بياض الذاكرة -

أنا جندي عائش، لكنني مشمورٌ في المواضع البعيدة خلف جند الجبهة.

قبر سعد مزروع في مقبرة باب المعظم برصافة بغداد العباسية.

أنا الآن في عمّان، أكلكل على عائلة منشطرة فرّخت ستة، أُجرجرها ورائي ببطء سلحفاة.

ظهري صار نصف تقويسة. لم ألتفتْ إلى الخلف أبداً. ثمة إحساس قويّ بمشي طويل.

من أثاث الدكة أيضاً:

حسن أبو الفلافل. سأخبركم تالياً بالمسوّغ الأخلاقي الذي جعلني أقول عنه إنه كلب ابن سطّعش كلب.

العجوز التي طيّنتْ شيلتها السوداء بباب سينما بابل. قيل في رواية شعبية مجروحةٍ، أنها لم تشاهد الفيلم أبداً، لكنها كانت تأتي كلّ يوم جمعة وتقوم بفعل التطيين، لأنّ ابنها الوحيد كان ذهب إلى الأرض الحرام ولم يعد ثانيةً.

أبي الذي لم أجئ على ذكره ورسمهِ حتى الآن.

أبو سعد مثله قبل أن تترمّل أم سعد.

سميرة القوّادة زوجة خالد القوّاد.

فوق القادم من تسويد البياض بحروف القصّ، سينحصر المشهد في واحدة من أعتق حانات ربة عمّون. سأنزرع فيها منتبذاً زاوية عزلاء موحشة. بغتة، يفضّ بكارة عزلتي المشتهاة، كائنٌ بدا كما أبدو. باسني من كلّي راسماً فوق لحيتي ساقية سيّالة من مخاط. كان كمن ولدتهُ أمه قبل أن تلدني أمي بساعة. سألني إن كنت تذكرتهُ فأنكرتُ. قال سأُنعشُ ذاكرتك بهذه القصة حتى تستعيدني. قبلتُ الأمرَ وزرعت كوعي فوق طاولة منزوية، أُنصت بلذة وكفّاي تتحسّسان بقيا لزوجة لحيتي.

تنبيه ملحّ:

قارئ سيئ وأعوج وشرّير، من اعتقد أنّ ذلك الكائن الخرافيّ الذي يقعي الليلة بمواجهتي في حانٍ عمّوني بارد وموحش، هو سعد ابن أم سعد.

كاتب من العراق مقيم في عمان

الأثر

علي المجنوني

لم تقع أحداث القصة التي أزمع سردها فيما يلي من السطور بعد، لكنها ستقع في بضع السنوات القادمة، وسأكون كاذبا لو زعمت أني أعرف في أيّ سنة بالتحديد. ولعل القارئ يلاحظ أني عمدت إلى استخدام صيغة الفعل الماضي، لما تمنحه هذه الصيغة من إيهام، وإن مكشوفا، بأن أحداث القصة قد وقعت بالفعل. في ظهيرة يوم قائظ، من الأيام المبشرة بالصيف، الأشد حرارة من الصيف نفسه، كنت أقود سيارتي على الطريق الطويل الذي أسلكه يوميا إلى العمل. تقديرا لظروفي كان رئيسي الطيب قد اختار لي جدولا مسائيا. كنت أتلو أبيات قصيدة أؤلفها في الحال، إذ أن خوفي من الطريق المليء بالشاحنات دفعني إلى ترديد الأبيات لحفظها بدلا عن تدوينها، مستخدما طريقة تعلمتها من مدرس القرآن في المدرسة: بيتا أول، ثم بيتا يليه، ثم البيتين معا، ثم بيتا ثالثا، ثم ثلاثة أبيات، وهكذا. لدى أحد منعطفات الطريق كان ثمة رجل عجوز واقف يومئ. أوقفت السيارة مبتعدا عن الطريق، وكنت قد تجاوزت الرجل. لما وصل، ولم يكن يلهث، قال لي إنه يريد مَن يقلّه إلى وجهته، وسمّى قرية لم أكن أعرفها على رغم درايتي بالطريق. أخذته، وفي السيارة سألني مرارا إن كنت حقا أعرفه، فأجبت في كل مرة بالنفي، إلا أنه بدا غير مصدّقي. قدرت أنه في الستينات من عمره، وحدست بأن الموت لو أمهله قليلا سيتحول إلى شجرة أكاسيا متغضنة، إلا أن عروقها تضج حياة. بدأنا حديثا عن الشيب والشباب ودورة الزمان عندما اقترح أن يريني شيئا. وافقت فنزلنا عن الطريق إلى منطقة يضيق فيها الوادي كثيرا، وبالانعطاف يسارا عبرنا الوادي ثم اخترقنا شِعبا وعرا قلقل سيارتنا حيث كنا نكاد نسقط من النوافذ. خارج السيارة كان الكون متوقفا في الظهيرة، وكان يصدر من حجارة الجبال أزيز ساكن لا يشبهه شيء. سرنا ما ينيف على ساعتين حتى تركنا الجبال وراءنا وانبسطت أمامنا صحراء بلا نهاية، ولربما أوشكنا على بلوغ نجد. أطفأت المحرك، واستجابة لأمر الرجل ترجلت وخلعت نعليّ كما فعل. مشينا طويلا وكان مطرقا لا يتكلم في شيء. وفي اللحظة التي حدثتني نفسي بسؤاله عن الشيء الذي أراد أن يرينيه، توقف مقابلا إياي، وقال: أتظن أنك تعرف طريق العودة؟ قلت مسفها سؤاله: بالطبع، أعرف. وهنا اقترب مني وغطى بيديه عيني ودفع جذعي للاستدارة. دار بي أربع دورات أو خمس ،وكيف لي أن أعرف كم؟، ثم لما فك يديه عن عيني، قال: اعرف طريقك الآن. ثم ما لبث أن قاد نظري بإشارة من يده إلى الأرض، ورأيت أن قدميّ لا تتركان أثرا على التراب. لم يكن هناك ما يذرو أثرنا ويمحوه من عاصف ونحوه، وعلى رغم أن الشمس قد مالت قليلا نحو جهة ما عندما ترجلنا من السيارة، إلا أني عندما رفعت رأسي رأيتها وقد حجبها قَتام كثيف شتت ضوءها حتى لم أعد أرى لأينا ظلا. حارت أقدامنا ولم نعد في أي اتجاه نمشي، فالأرض مهمهٌ ليس إلى معرفة

اسماعيل فتاح الترك

جهاتها من سبيل، حتى رأينا على البعد أخيلة ثلاثة رجال. قصدناهم راكضين وإذا هم رجل ومن قدرنا أنهما ابناه. كانوا يجرّون عَصَوين: واحدة مع الرجل، والثانية مع أحد ابنيه. شبحت إلى الجهة التي توقعت أنهم جاؤوا منها، وأخذت، بطبع الحائر، أفتش في الأرض من تحتهم عن آثار أقدامهم، وأصابني ذهول إذ لم أر شيئا. ما زاد حيرتي أن العصوين لهما أثر الجرّ على الأرض، وأدركت أنما يجران عصوين لا عصا واحدة خشية أن يطرح أحدهم عصاه أو ينساها في مكان فيكون التيه مصيرهم. سألناهم عن السيارة فأخبر الأب أنه رآها قبل حين، ثم وصف لنا الجهة التي هي فيها مشيرا بعصاه إلى صفاة ناتئة في جبل. ثم حاول شقر عصاه، لكنه عندما لم يفلح ثناها ضد ركبته فانكسرت نصفين ومد بنصف إلينا، ومضى هو وابناه. يممنا شطر الصخرة الناتئة، وحذرت الرجل من أن تغيب الصفاة عن نظره، بينما كنت أمشي منحنيا لكي تلامس العصا القصيرة الأرض. في قربي من الأرض رأيت أشياء كثيرة انقطع عهدي بها. رأيت دويّبات تتزاوج وشجيرات تنوِّر. وكنت أرى على الرمل النمنمات التي تخطها الخنافس بأرجلها والأقواس التي ترسمها جُنوب الحيّات، وبدت لي الأرض لوحة بديعة تتشارك سائر الموجودات -ما عداي- في تنفيذها، ما أحزنني غاية الحزن. الآن، بزمن أحداث القصة لا بزمن الفعل، أخال أن ظهري سيتصلب منحنيا قبل أن أصل إلى السيارة وأنه سيكون عليّ أن أمشي بقية العمر كما مشى الإنسان الأول.

كاتب من السعودية

في الكهف

عمر علوي ناسنا

كنت أعيش هناك لوحدي في ذلك التجويف الصخري العميق، لم أكن أحتاج بذل أيّ جهد للتمويه للحفاظ عليه كان مكانه لا يثير أي فضول، بل كنت أحيانا أترك سترتي التي صنعتها من جلد الحيوان تجف هناك في مدخله دون أن أهاب عينا متلصصة، وحدي اصطدت ذلك الحيوان وحدي سلخته ووحدي صنعت كل شيء، راقبتهم مدة دون أن يشعروا بي وتعلمت لوحدي كل شيء. في ذلك اليوم المطير رأيتها تحث خطاها متحاشية أحجار الوادي مستندة لعصاها المعوجة، لا أعرف لماذا لم يسعها البحث عن عصا مستقيمة ما أكثر العصي هناك حيث يوجد صف من أشجار الصفصاف. خطر لي أن أناديها لكني خشيت أن تعرف هذا المكان، وترددت كثيرا قبل أن ألوّح لها في النهاية رافعا صوتي بالصياح.

نظرت إليّ متحدية قطرات المطر التي ترش وجهها بقوة، وجعلت تتشبث بالصخور ورؤوس الأعشاب البرية التي تكسو الجبل حتى صارت أمامي في وضعها المنحني وكأنها ما تزال تتسلق الجبل، نظرنا لبعضنا طويلا، دارت حولي للحظة واشتمت سترتي ودنت بأنفها تشمني وأمكنني حينها أن أشمها أيضا، سحبتها من يدها، نعم سحبتها ولم تعترض بل سبقتني وصارت تسحبني نحو التجويف الصخري العميق، تكورنا على بعضنا، تداخلنا، اشتبكنا كما أغصان شجيرات الوادي، تداخلت رائحتانا، سرى الدفء في جسدينا معا، وأحسسنا بأن الاحتكاك يبهجنا معا، نزعنا لباسينا الجلديين، افترشناهما، ولبسنا بعضنا، كانت تصيح وكنت أمهمه، كانت تمهمه وأصيح، ضحكنا من الأوضاع التي يصنعها جسدنا المتداخلان، الحائران، اللاعبان، الممطران، ثم استرخينا معا متعانقين، تحت سماء صافية يصنعها سقف الكهف، كأن المطر كف عن السقوط؟ لا.. حين أخرجت رأسي هاجمتني زخات المطر المتلاحقة.

عدت لأفترش لباسي الجلدي، لكنها مرة أخرى أفسدت كل شيء، فتحت فمها وقالت:

الوقت متأخر ينبغي أن أغادر بسرعة قبل أن يكتشفوا غيابي. ارتدت ملابسها الداخلية بسرعة وفستانها المشجر وساعتها الأنيقة وطفقت تفتش بلهوجة عن حذائها الأحمر ذي الكعب العالي الرفيع، وجدته أخيرا أسفل الستارة، فتحت النافذة وأطلت برأسها متفحصة الشارع الذي يشق صفا من العمارات المتزاحمة، لم تقبلني، بل فرت بسرعة، سرعة مذهلة حتى أني بقيت واقفا مذهولا لا أعرف إن كان ممكنا بعد أن أغلق النافذة اللعينة أن أجد مكان السرير الخشبي اللامع لباسي الجلدي، انطفأ كل شيء، أوقفت المطر وقصدت الحمام وقرفصت أسفل مياه الدش مستسلما للموت.

كاتب من المغرب

عدد خاص

الجديد

تدعو الكتاب والنقاد العرب

للمشاركة في عددها

الممتاز

المخصص لـ

كتابة الاعتراف

اليوميات والسيرة الذاتية

نصوص، أبحاث، دراسات

آخر موعد لقبول المساهمات

30 تموز/يوليو المقبل

فكر حر وإبداع جديد

الرجل الحافي

عيسى جاد الكريم

مرض غريب. إصابة الألم مُبرّحَة تُصيب قدميه. يشعر بمسامير من نار تدق في أقدامه فيسمع صداها في رأسه. تشق كيانه. فشلت كل محاولات الأطباء في علاجه من الآلام. ذهب إلى كل الأطباء المشهورين في بلاد الدنيا التي طاف بها؛ في باريس، لندن ونيويورك. في سويسرا حيث كان يقضي أيام مصيفه.. في موسكو حيث كان يستمتع بجمال الحدائق.. في ألمانيا حيث الآلات العملاقة والصناعات الدقيقة. عرضوا حالته على أكبر الأطباء. أجروا له كل الفحوصات والأشعة. كيف لم يلتفت إلى أن هناك في هذا الشارع تقع هذه المستشفى الشهيرة، وهو الذي كان يسهر كل ليلة في حانات تلك الشوارع؛ يراقص هذه ويُضحك تلك. يعقد الصفقات بين كؤوس الخمر. يجني المال ولا يعرف عدده ولا يعرف كيف صرف منه. كلما صرف ماله؛ ازداد، يااااه!

لا يعرف كم جَمَعَ من المال؟ في كل دولة كان له حساب بنكي. أصبحت لديه حافظة خاصة لكروت الفيزا. جَعَلَ للجميع رقماً سرياً واحداً حتى لا ينسى من كثرة عددها!

يجلس مُحَدِّثاً نفسه ·جمعت من المال الكثير، والآن أصرفه·.

أصبح لديه . في عقله . خريطة لأهم أطباء الدنيا.

لم يعد الأطباء يجدون نفعاً.

طرق أبواب العرّافين والدجّالين. كان يعرف أنهم يسرقونه، ولكنه كان يصطبر على عذابات الآلام بأوهام الأمل. كان يتشبث بخيوط العنكبوت حتى لا يهوي في قرار الانتحار.

لم يعد يستطيع تحمل الألم. حتى المسكنات التي حذّره الأطباء بأن الإكثار منها سيجعله مدمناً لها؛ لم تعد تُجدي نفعاً. أصبح قعيداً في منزله. يجلس بالساعات واضعاً قدميه في ماء بارد وأعشاب تُخَدِّر الأعصاب ولكنها لا تُزيل الألم!

لم يعد يستطيع أن يضع الحذاء في قدميه.

أخذوه عند ذلك الطبيب. كان يعلم بينه وبين نفسه أنه ليس هناك أمل، وأنه لا يوجد لحالته علاج، ولكنه كان لا يُمَانع أن يذهب إلى أيّ أمل حتى لو كان في أطراف الدنيا.

أخبره الطبيب بعد أن سَمِعَ حالته وقَصَّ عليه تاريخ حياته - ·عليك أن تخلع الحذاء.. عليك أن تسير حافياً في الشارع·.

- نعم.. ولكن كيف أسير حافياً في الشارع؟ ماذا سيقول الناس عني..

سيتهمونني بالجنون.. قد يعطونني مالاً؛ ظناً منهم أني شحاذ؟

- تَصَدَّق . بعد أن تنزل من هنا . بحذائك لأول عابر سبيل يقابلك، وقل له خُذْ هذا واذهب لبيتك.. واشكر الله!

- أتصدق بحذائي.. ذلك الحذاء الذي اشتريته من إيطاليا؛ صنعوه لي بمواصفات خاصة: جلد قويّ ونعل خفيف كَلَّفَني الآلاف من الدولارات.. حتى أقرب الأقربين مني كانوا لا يصدقون أنه بأكثر من ألفي دولار!

نزل الشارع.

خلع حذاءه. تَصَدَّق به لشحاذ يجلس أمام العمارة.

مشى. شَعرَ براحة.

الآلام تنسحب رويداً.. رويداً، من قدميه. يشعر ببرودة الإسفلت، ويشعر بحنين التراب على جلد قدميه. مشى من العيادة حتى منزله.

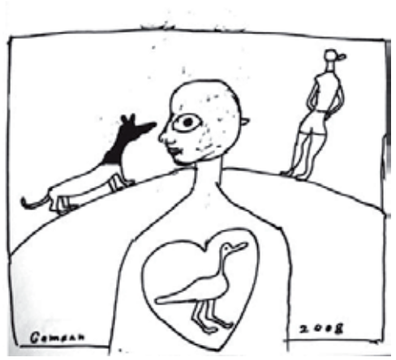

يستمتع بخطواته. لم يعد يضايقه الغبار أو يقشعر بدنه من التربة. كل يوم صار يذهب إلى مقر شركته، حافي القدمين.. يمشي في الشوارع حافي القدمين. يجلس في المطاعم حافي القدمين. كانت تؤلمه نظرات الناس.. ضحكاتهم.. وهم يرونه يرتدي أغلى الثياب، ولكنه حافي القدمين. لم يعد مهتماً بنظراتهم، أو أن يشرح لهم لماذا يمشي حافي القدمين. كان اتساخ أقدامه، وحبات الطين والرمال التي تعلق بين أصابعه، تضايقه. وعندما تتراكم حباتُ الطينِ والغبارِ على جلد أقدامه؛ تُعَاوِدَه الآلام مرةً أخرى.

المساجد كثيرة طوال الطريق. يذهب إلى أيّ مسجد يُصَادِفَه. يغتسل.. يتوضأ.. يصلّي. اعتاد على الصلاة. أصبح الوضوء العلاج الشافي له؛ البلسم الذي يُداوِي ألمه. عندما تنتصب قامته مُتوجهاً إلى القبلة، يشعر بلذةِ الوقوف أمام الله. كم كان مُقصراً.. يا إلهي. كم تركت طريقك.. كم قصرت في الصلاة؛ اعتاد على الصلاة.. على الجلوس في معية الله.

عرف طريق الصدقات.

وفي يوم وهو خارج من المسجد، وجد أحدهم يقدم له حذاءه، ويقول له خذ هذا واذهب لبيتك.. واشكر الله!

هل هو شخص جديد؟

لبس الحذاء. لم يعد يشعر بالألم. مشى به لساعات. وصل بيته.

كاتب من مصر

تخطيط لـ حسين جمعان

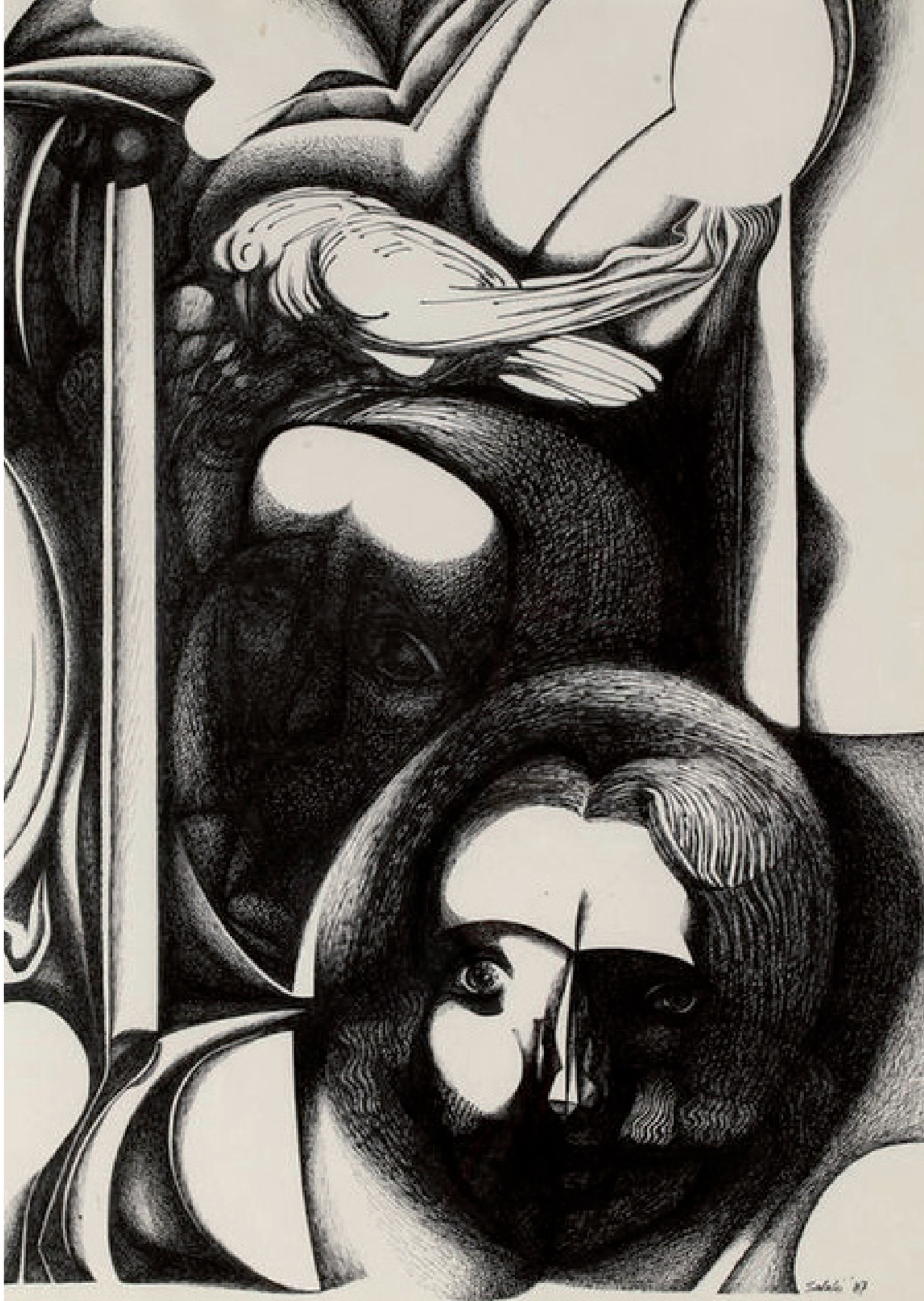

ابراهيم الصلحي

وحياة قلبى وأتراحه

غادة العبسي

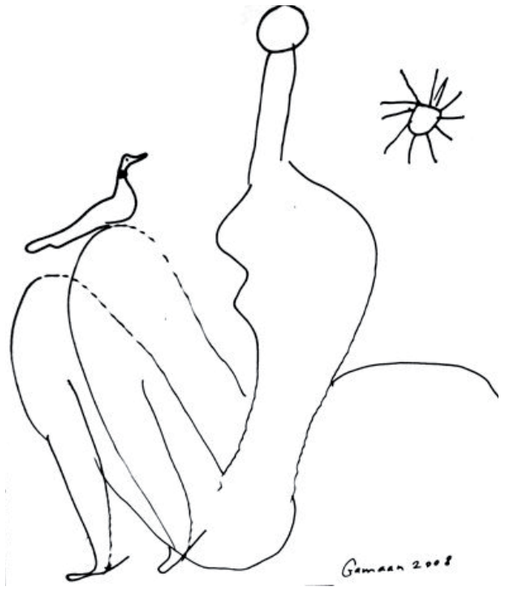

حسين جمعان

يا صرختَه الأخيرة ادوِ وأَسْمِعِي مَن به صمَمُ.. وليعُد صداها للرجوع مرارًا حتى تشكو الجدران.. ماذا على رجع الصدى لو يُعِيد؟

لو يعيدُ إليّ ضحكةً واحدةً قبل أن يتجمّد وجهي وتُصلَب شفتاي فوقه للأبد!

يا لروعة الأحرف القليلة تخرج من فِيكَ ممدودةً هكذا بلا انقطاع! منذ سنوات لم أكن أسمع صوتك أبدا سوى متقطّعًا بالأمر والنهي وبذلك التأوّه في لهاثك القصير وقت رغبتك المحمومة فيّ، لا يفلحُ في إطالته كل عقاقيرك الثمينة.

يا إلهي! أريد أن أرقص وأصفّق مثل قرد منتشٍ بسباطةٍ من المَوز الفاخر وحفنةٍ كبيرة من الفول السوداني تملأ راحتيه الممدودتين، ثم أريد جدًا أن أنام فوق صدرٍ حنون كقردٍ آخر رضيعٍ مبتسم، يتوسد نهدَ أمه. يبدو أن الإنسان أعرق من القرد في قِرديّته كما قال "نيتشه".

وحياة قلبى وأتْراحه - وإنه لَقَسمٌ لو تعلمون عظيم - لأفرحنّ! خُلقَت القلوب معيبةً بثقوبٍ كبيرة لا يسد جوعها شيء، ولَكم قنعتُ بجوعي، ولَكَم اتّسع ثقب قلبي الآن. يريد أن يبتلع الكون بأكمله.

المشهد عبثي في وضح النهار، امرأة شارفت على الأربعين ترقص فوق جثّة رجل تجاوز الخمسين! البحر يرغو ويزبد، مغرٍ ويناديني. من قال يا بحر إن الموت حدثٌ حزين وموجع؟ هل كان أوّل قلب متاحًا للموت أضعف من آخر قلب سوف يموت؟ وهل نموتُ من الموت يا بحر؟ أم مِن نور الصباح المتآكل فوق أحلامنا.. ومن غبار السنوات على أرواحنا.. ومن وهمٍ يقال له الراحة.. ومن هلع حصار الغد لحاضرنا.. مِن شيء ما يسدّ ثقوب الحياة اسمه الانتظار..؟! هل حقًّا نموت من الموت؟

وهل عليّ أن أصدق أن تلك الجثة ماتت الآن فقط؟ وأنني بالفعل حيّة ولستُ أكثر موتًا من هذا الجسد الصامت أبدا؟

أنا حيّة وسأحيا.. ولا بد أن أصدّق ذلك.. فلا يلبّي الموتى النداء، وها أنا عارية إلا من روحي وجسدي يرتميان في أحضان الأزرق.. وسأتقمص الآن دور البطولة في أهمّ الأفلام الملحمية ذات الإنتاج الضخم، ولتطلِق عذارى البُلْغَار عديدَهن الطويل في الخلفية الموسيقية للمشهد المثير.. ثبّت أيها المصور عدستك على نهدين احتوتهما قبل دقائق حمالةُ صدر سوداء من نوعية الـ"pushup"، في محاولةٍ يائسة لرفع أشياءٍ كثيرة إلى ذروتها.. أحلام.. رغبات.. أعضاء مشلولة..

"شيء ما يصيبني بالنفور الشديد من فكرة العودة إلى الرضاعة، من تذكار مذاق اللبن إذا قُطِّر من ثديٍ منتفخٍ كالضرع، رذيلةٌ ما تلتصق بضميري تشبه جريمة أن ينكح أحدهم أمه!".

هكذا يهرب الفيلسوف من حصار الأنثى في زمنٍ يُقال له "النِّنَا هُو"، حيثُ ينام الذكور مثل الخراتيت ويتركون "البوش أب" وحيدًا طوال الليل..!

اغسلني الآن يا بحر مثل الفَرَس "إِكْوَاس"، يقع في غرامه ذلك الرجل الخبيث متأملًا قطراتك التي تداعب جلده الأبيض، اغسلني من نظرته الأولى وجوعه الأول ومن ملايين الخلايا تُساقِط عن جلدي كل صباح وتتركه برائحة تشبه الرحيل، لا تفلح في محوها أغلى العطور..! اغسل أذنيّ من كلماته الأولى صيادًا يهمس لي في أعماقك "أمانة يا بحر جَاش خِلي مَلَا منك؟ أبيض ظريف المعالم اختشى منك".. ومن لومه عندما انقطعتُ عنك في اليوم التالي وعدتُ عند الغروب "كان خِلّك بيستناك استغيبَك يا جميل قطَع العشَم منك"..!

اصمت، أنت ملقى الآن على الرخام البارد بالداخل مثل الذبيحة، ذبيحة مثل التي حملها أبوك "الجزار" وذهب بها إلى حَمِيه في محل جزارته المجاور فوجد أمك تقف بالسكين بدلًا منه فقال لها "لم أكن أعرف أن لدى الحاج 'حلويّات' يخفيها عنا" ولما شتمته، أخذ جدك في المساء كي يطلبها للزواج لتأتي أنت إلى الدنيا..! كان لا بدَّ عليها في ليلة الزفاف وهي تقتحم حجرتهما بالسّكين، بينما هو جالس ينتظرها فوق السرير مطرقًا في سقف الحجرة حتى تبدّل فستان الزفاف بآخر مغرٍ، يبرز اللحم "الأوزي" المشرئب بالحمرة، أن تقطعَ أعز ما يملك بدلًا من محاولة تخويفه بتقشير ثمرة البرتقال فحسب!

"شششش"، هدوء.. أريد أن أستلقيَ فوق صفحة الأزرق وأشعر بالطفو المدهش ليتمدّد جسدي كليةً فوق الماء.. آه.. ذلك العري البهيّ.. أقِفُ لا يغطّيني سوى معطف من الشيفون الأسود في شرفة الفندق الذي يطلّ عليك يا بحر، ليعترض جسدي شعاعَ الشمس المتعامد تمامًا على وجهه النائم، ألهو بجذعي مع مخروط الضوء ومع محيّاه يشتعل وينطفئ أمامي، مبتسمًا يصحو فيشير إليّ بإصبعه، أهرع إلى شفتيه، هل كان أفضل رجل بإمكانه تقبيل امرأة؟ لا أدري بالطبع، كان يقبّل كلَّ ركن حول شفتيّ، يُغرق الزاويتين بالقُبل وكأنه لا يرومُ المزيد، فأُجَنّ.. بالمناسبة! ما كان إصراري أن أقبّل جرحًا غائرًا في ساقه أول ما قبّلت من جسده؟ كنت أتساءل لو أن تقبيل الجراح قد يدفعها إلى الالتئام فعلًا كما كانوا يفعلون معنا في الصغر! ألتهمُ شفته السفلى المشقوقة كشفةِ أرنب ولا أفلتُها وكأنني أحاول لصقها من جديد.. أبتعد لأقترب فيجذبني من المعطف الشيفون، فأخلعه في تحدٍّ، أراوغه من جديد وهو مستلقٍ، فتتعلق يداه في الهواء يريد التشبث بأي شيء مني، أتركه غارقًا في الشبق، فيقول: أرسلي إليّ بهلب! أقرّب إليه أحدهما غانجةً: هذا متخصص في إدارة الأزمة وإنقاذ الغرقى.. يقول طامعًا: تأخرتِ، لقد مت وأنا في الجنة الآن، وبي توقٌ لسائر فاكهة الفراديس..!

انعَم بجحيمٍ مقيمٍ الآن!

أنا أتضور جوعًا، وأشتاق "غزل البنات" بشدة لأنني كنتُ أتخيل -والسكر يذوب في فمي- أني أقضم السحابات البعيدة! أفضل شيء فعلته أيها السكّير أنك اشتريت هذا المسكن.. اشتريتَه وأنت لا تدري أنك تشتري مقبرتك.. كنتَ تظن أن قصتك معي لن تنتهي مثل قصص "المَانْچَا"؟! أشتهي كوبًا ساخنًا من القهوة أحتسيه هنا على الشاطئ، أرشفه وحدي لمرةٍ واحدةٍ أخيرًا دون أن أتخيل بصقتك الصفراء فيه.. ودون أن أصبَّ الماء صبًا في الكوب فيخرق أذني صوت بولك المتدفق في المرحاض!

كيف لهذا الأنيق اللامع أن يبول أو يتغوط؟ كيف له أن يتجشأ أو يضرط؟ كيف له أن يخطئ؟ يجلس بابتسامته الهادئة نظيفًا مقلّم الأظافر، عطرُه الفواح يخدّر المذيعة ذات الأهداب الاصطناعية، حركات يديه الأفعوانية تشتّت الانتباه، قدرة فائقة على الإقناع، الخبير العالِم بخبايا الأمور، يتبسّط ويضحك مع المذيعة المأخوذة بالشخصية الآسرة.. ماذا قال لها في الفواصل؟ هل امتدح ثوبها القصير؟ وسأل في جرأةٍ عن ارتباطها؟ هل تناست فرشفت من كوب الماء الموضوع أمامه؟ تُراها شعرت بالاضطراب عندما فك زر القميص العلوي؟ بكل تأكيد تبادلا أرقام الهواتف على بوابة الأستوديو الثقيلة..! وأنا هنا آكل أظافري وأجذب الزوائد الجلدية في قدمي لتنزف، أريد تحطيم كل شيء.. وسأبدأ بالشاشة اللعينة..! أستقبلُه بجهلٍ تام، وأدفن رأسي كالنعامة في صدره، لا لأنني أخشى مواجهته، بل لأن النعامة الطائشة لا تمتلك أسنانًا تؤهلها لخوض معارك!

هواء الخريف يحطّم النافذة، سيسقط الزجاج المكسور فوق رأسك قطعةً قطعة..

خمسة عشر عامًا يقولُها "إن أفعلْها، فلستُ بعاشقٍ، إن أفعلها، أصير طالبَ ولد..". ولكنني أطلب الولَد يا ظالمًا! أطلب بنتًا تشبهني في ثوبٍ أبيض أراها كل ليلة تغسل قدميها تحت شلالٍ صغيرٍ ينزلق فوق رامةٍ خضراء.. إنما هو عار الزواج الثاني ما تحاذر.. تخشى أن تهدم الزوجة الأولى المعبد بكل من وما فيه، تخشى أن يغلق رأسُ طفلي

حسين جمعان

-إذ يخرج إلى الدنيا- بابَ رحمة الزوجة وأولادها بك..!

كان يتحتم عليّ الرحيل.. كان لا بدَّ من هجرانه.. كان يجب أن أستمسك بمقاومتي.. وكان الحب.. ذلك الجنون.. فكان الألم.. وتعلّمنا الألم وأحببنا الألم وتُقنا إلى الألم، وقالوا إن الحقيقة لا تُكتسب إلا بالألم..!

وأصبحَ.. ثم الآن كانَ..

أحببتُه والتعثُ في حبه وذوّبني الشوق إليه قريبًا كان أم بعيدًا.. ليت هناك معادلًا للشوق بلغة الكيمياء، شيء تصبُّه صبًا فوقه فيطفئه، يكسر سُمّه.. يذيب ذراته فينا ويُبقي فقط على ذلك الترياق الذي لا حياة بدونه: الحب وحده.. صافيًا دون لوعةٍ واشتياق.. أو ليتهم يصنعون مصلًا فعالًا ضد الحب ويتركوننا نموت في سلام من دون تذكار..

كيف يمكنني البدء من جديد.. بدونه؟!

هل مات فعلا.. حبيبي؟!

يا رب رحمتَك.. الأمانَ.. الأمانَ.. منذ متى وأنا آكل من خبزِك يا ذا الجود؟

(يظهر ظلٌ مداهمًا إياها من الخلف ليغطي جسدها العاري فانتفضت مذعورةً واقفةً لتجد زوجها في مواجهتها تمامًا)

-حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ ماذا حدث؟

- آ آ..أنا بخير وأنت؟ أنت حي؟

-أجل حي.. هل هذا سؤال؟ ماذا حدث؟ أنا لا أذكر شيئًا على الإطلاق.. هل حدث مكروه؟

- أنا لا أذكر شيئًا أيضًا.. ولكن المهم أنك حي.. أقصد بخير!

-أمرٌ غريب..

-إذن ما آخر شيء تذكرُه؟ ها؟؟

-"البوش أب" الأسود.. هذا آخر شيء أذكره.

كاتبة من مصر

ثلاث قصص

غسان جباعي

مرسم

كان يجب أن ألبس سروال جينز، وحذاء رياضياً مناسباً. لكني لم أكن أتوقع أن تقودني كندرتي الصفراء، ذات الكعب العالي، إلى هذا الدرج المعتم المنحطّ. فالأدراج عادة تأخذنا نحو الضوء. غير أن هذا الدرج البائس الذي غابت معالمه تحت الأتربة والركام، قادنا إلى قبو سافل وعر، مليء بالحطام والفضلات، وربما الحشرات والفئران القذرة. أنا لا أخاف شيئا كما أخاف من الفئران. من ذيولها الرفيعة ووجوهها المثلثة وأذنيها الكبيرتين. إنها تكبل إرادتي رغم حقارتها، وتجبرني على الهرب من المنزل إذا ما اكتشفتْ وجودها فيه، ولا أعود إليه حتى يتمكن أحد ما من قتلها، أو إخراجها من بيتي. جفّان يقول إنها جديرة بالحياة أكثر منا، وهي الأبقى، لأنها قادرة على العيش في كل الأمكنة، ورغم كل الظروف. هو الآن يحمل مصباحاً صغيراً بيده، ويسبقني بخطوة واحدة. تمنيت لو أنه أمسك بيدي. تركني أمشي خلفه، ولم أكن مضطرة للالتصاق به والكشف عن مخاوفي. فأنا من أجبره على القدوم إلى هذا المكان العجيب، رغم أنه هو من دفعني للقيام بهذه المجازفة. وقد تمنّع طويلاً، قبل أن يوافق على مرافقتي، متعللاً بشتى الذرائع، مدّعياً أن الأمر لا يستحق المجازفة. فالمكان هناك، أي هنا، موحش وصاحبه غريب الأطوار.. مشيت خلفه مطمئنة. فالعتمة تمنعني من النظر أو التفكير، أو حتى الخوف. لو خطر لي أنني قد أدوس على حشرة، أو يلامس ساقي العارية فأر ما، لتحطمت مقاومتي في الحال، وتشبثت بعنق جفّان، رافعة قدمي عن الأرض. أو عدت راكضة نحو ضوء المدخل.

تقدم في البهو المظلم من باب وحيد في ذلك القبو الغامض. فتحه بهدوء عجيب، ودخل أمامي. أصدر الباب صريراً معدنياً. لم أتمكن من معرفة لونه، لكنه كان حديدياً بالتأكيد. ما إن خطونا أول خطوة داخل تلك الغرفة الرمادية المُحكمة، حتى سمعنا عبارة عدوانية ساخطة، خالية من المودّة والاحترام:

·اطلعوا لبرّا·!

توقفت مكاني. نظرت إلى جفّان مستفهمة. بدا وكأنه لم يسمع أو يرَ شيئاً. رغم أنه هو من فتح الباب ودخل أمامي. أشعل اللمبة الوحيدة المعلقة بالسقف. تلفتّ حولي. انتظرت أن أجد مرسماً ورساماً غريب الأطوار، كما قال لي. بدت الغرفة مهجورة، خالية تماماً من الأثاث والإنس. خالية من اللوحات والألوان. مرسم بلا سبية رسم، أقرب إلى المغارة الحديثة المجوّفة، منها إلى الغرفة المربّعة. جدرانه سميكة، مطلية بملاط خشن. تنزّ منها الرطوبة الغامقة، مشكلة بقع عجيبة من العفونة الكلسية المتدرّجة. بدا لي السقف مائلاً ومنخفضاً جداً، ومتعرّجاً. ربما كانت الأشعة الصفراء المنبعثة من اللمبة المتأرجحة هي السبب. الهواء معتلّ بالتأكيد، ورائحة العفن تطغى على رائحة النفط ومعجون السبيداج والألوان. الضوء ترابي مصاب بالرمد. الأثاث الوحيد في هذه المساحة المحايدة، خليط من الخرق الحائلة، والثياب القديمة الممزقة، والأغطية الرثّة، والمخدات والأسمال وعلب الكرتون البالية، المكوّمة في الوسط. اللون الوحيد في هذا المكان البدائي، هو لون الخرق. واللوحة الوحيدة هي ما رسمته العفونة من أشكال وظلال فوق الجدران. الضوء الوحيد فيه هو اللمبة، أما النافذة الوحيدة فهي بابه..

توقعت أن أجد مرسماً منارا، بنافذة واحدة على الأقل. أن أسمع عبارة ·أهلاً وسهلاً· مثلاً، قد تكون ساخرة، وربما ساخطة أو غاضبة. فأنا على موعد مع رجل ·محبط·، كما قال جفان. يقضم أصابعه في الليل ويستخدمها في النهار لمزج الألوان الكئيبة. رجل لم يغتسل منذ عقد. كثيف الشعر، طويل الشاربين، في الأربعينات من العمر. انتظرت أن أجده جالساً على الأرض، منزوياً في مكان ما، صامتاً ربما، أو واقفاً على قدم واحدة بمواجهة نافذة رسمها على الجدار بحبر قلبه. لكني لم أجد رجلاً، بل سمعت صوته فقط. كان خشناً واضحاً وحقيقياً، تردد صداه في الغرفة كالطنين. ازدادت حيرتي وبدأت أشكّ بما سمعت ورأيت. لكن ما إن خطونا خطوة جديدة داخل الغرفة، حتى تردد الصوت ثانية، وبشكل حاسم هذه المرة:

·اطلعوا لبرّا ولا·...

جفلت. ظننت أن الأمر موجّه إليّ فقط. واحترت ماذا أفعل. تراجعت، بشكل غريزي إلى الخلف، بينما تابع جفّان طريقه بثقة وهو يعلن:

·مرحبا يا صديقي العتيق. هذا أنا·.

ثم أزاح بلطف ستارة سميكة، في صدر الغرفة، عُلقت بالمسامير، لتغطي ما يشبه الخزانة الإسمنتية، المبنيّة من الطوب: خزانة بارزة مكونة من طبقتين، إحداهما ضيقة مقطعة إلى عدة كوى صغيرة متساوية، والأخرى كبيرة واسعة، تستخدم عادة لطيّ وتخزين الأغطية والفرش والمخدات.

هناك، خلف تلك الستارة وجدت الرجل عارياً عائماً في الفراغ، يستلقي على قفاه، ويستر جسده شعر كثيف أشقر. لم أفاجأ تماماً. فقد واجهت مثل هذه الحالات من قبل. حسبت أنه سينهض أخيراً، يحتج ويصرخ، مثل أيّ رجل تقتحم عالمه السري. وربما يخرج من مكانه، لطردنا، دون أن يغطي عورته براحتيه. لكنه بقي هادئاً، مسالماً. وكدت ألقي السلام عليه، لكني سرعان ما اكتشفت أنه مقيد اليدين بحبل ثخين خشن، يشبه حبل المرساة.

ما إن رأى ضوء اللمبة الباهت، حتى تحرك مثل سمكة ناعسة. غطى عينيه الكبيرتين بجفنيه الثخينين، وبدأ يتقلّص ويتكور على نفسه، محاولاً أن يطوق ركبتيه بساعديه، ويقلّص جسده إلى أصغر كتلة ممكنة، داخل هذا العلبة المغلقة، التي بدت مائلة، كما لو أنها لوحة معلّقة على حائط. ولا أدري كيف تحول إلى جنين مكسوّ بالوبر،

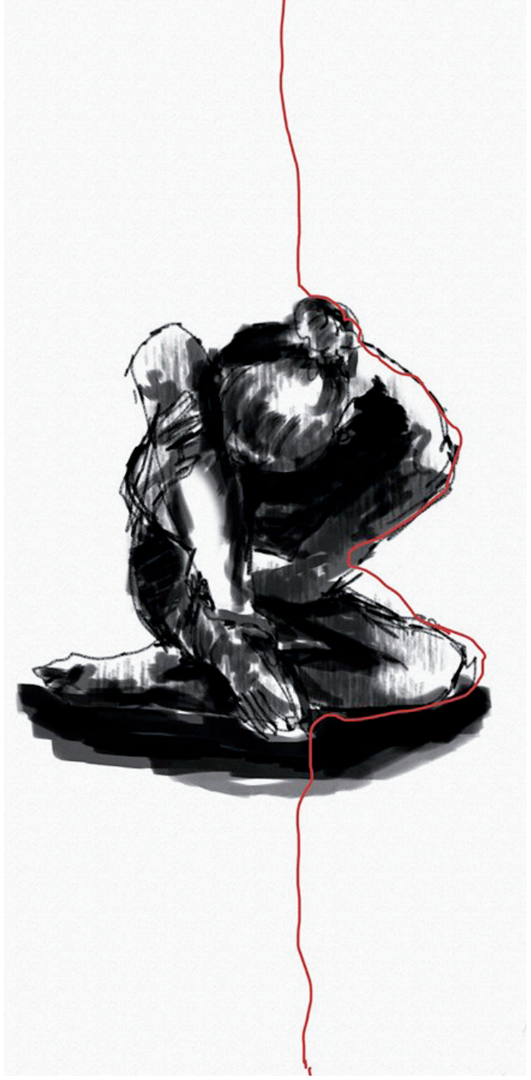

هيئة حروب

وبدأ يغرق، حتى استقر في القاع، ثم استدار بوجهه المثلث نحوي، وتوقف عن الحركة تماماً.

واختلط الأمر عليّ عندما التقت عيناي بعينيه. من هذا!؟ ولماذا!؟ هل هو صاحب ذلك الصوت الخشن، الذي أمرنا بالخروج من غرفته، قبل قليل!؟ أم هو كائن آخر منسي داخل هذا الرحم الإسمنتي!؟

وما أدهشني حقاً، وجهه المثلث الصغير، الذي يشبه إلى حد كبير، وجه جفّان. جبينه، أنفه، شفتاه، ذقنه الصغيرة، عيناه الواسعتان. لكن هذا الوجه كان بلا حاجبين. عينان كامدتان مثل حفرتين. أهداب سوداء طويلة، أكثر من اللازم، بدت كما لو أنها رُسمت بقلم الكحلة. أذنان كبيرتان ذابلتان. إحداهما تكاد تسقط على كتفه، كورقة يابسة. أصابعه دقيقة، رفيعة تذكرك بأقلام الرصاص. جسد غير متناسق أبداً. يميل إلى المبالغة بخطوطه الحادّة البارزة، وألوانه المائية. رجل ضامر عريض الصدر نحيل الخصر. ذو رقبة مائلة، وساقان طويلتان مرفوعتان. للوهلة الأولى، بدا لي أنه رجل معلَّق، فاقد للجاذبية. لا تدري إن كان يستلقي على ظهره أم يتأرجح داخل هذا الإطار. بدت لي أعضاؤه التناسلية نافرة مثل.

لا، لحظة.. حدث أمر طارئ. لم أتمكن بعده من وصف أي شيء. سأتوقف الآن عن الرؤية والتفكير. وأزعق فوراً بصوت حاد، مثل كل النساء، وأخرج من المكان كالمجنونة. في البدء سأتلعثم، تتقلص أضلاع صدري وأعجز عن التنفس. لم أصدق عيني حينها، أي الآن: فأر حقيقي سمين راح ينزلق على الحبل، ساحباً ذيله الرفيع خلفه، ليقف على كتف الرجل تماماً، وينظر إليّ بعينيه الخرزتين. فأر آخر أطل بشاربين كبيرين وانسلّ من تحت إبطه المطليّ بلون قاتم. وما إن قفز الثالث من حضنه، وركض مسرعاً، نحو كومة الخرق، حتى زعقت، وهربت من الغرفة، خارجة عن طوري. كانت الكومة مليئة بالفئران. ولحق بي جفّان مسرعاً، وحاول إقناعي بأن ما رأيته مجرد لوحة. لكنه لم يستطع، وما أظن أن أحداً يستطيع إقناعي بذلك.. قال لي مستغرباً ·ما بك·! وقال غاضباً ·هل جننت·!؟ وقلت ·لوحة يا جفان! لوحة تتحرك فيها الفئران وتقفز منها إلى الأرض!؟ ·لم يتحرك شيء، والله لم يتحرك شيء غير الستارة التي أزحتها بيدي·.

كنت منفعلة لدرجة أني لم أكن مستعدة لتصديق رجل واحد، وتكذيب عينيّ الاثنتين. ·خيّل إليك ذلك، صدقيني·. طلب مني أن نعود ثانية إلى القبو ونرى ·اللوحة· من جديد، لكني تركته وعدت وحيدة إلى البيت.

دمشق 2015

لولو

حجمها صغير لدرجة أنها إذا عضتك لا تشكّل خطراً على حياتك. لكنها رشيقة كالقطة، تملك قدرة فائقة على اللعب والهرب والاختباء والمناورة والتربّص بك. كان اسمها ·لولو·. كلبة بيضاء كاللؤلؤ يغطي جسمها صوف كثيف. ومع أنها من فصيلة الثعالب، طويلة الخطم، غير أنها مستديرة الأذنين، لطيفة الشكل، كلعب الأطفال. وهي متوترة وشرسة بشكل مضحك، إذا اقتضى الأمر. عيناها سوداوان مستديرتان، مثل زرّين من البلاستيك، تلمعان خلف خصلات غرتها الطويلة. قال الطبيب لصاحبها مؤنس، إنها السبب في توترها وشراستها. ولذلك نصحه أن يقصها بين فترة وأخرى. لكن تلك الغرة على ما يبدو، كانت جزءاً من طبيعتها وهويتها. فقد اكتشف مؤنس عندما جرب ذلك، أنها فقدت حيويتها وطرافتها، كما فقدت بريق عينيها وذكاءها الحاد، فلم يعد إلى ذلك ثانية.

·تكاد تنطق، قال مؤنس. انظر إلى عينيها. لم أر في حياتي شبيهاً لهما·.. ورغم أن كل أصحاب الكلاب يتحدثون عن كلابهم بنفس الطريقة، غير أن ·لولو· كانت كلبة استثنائية بالفعل. ردود أفعالها المعبّرة. قدرتها على الإصغاء والفهم أحياناً. والأهم من كل ذلك تعلقها العاطفي بمؤنس لدرجة تكاد تكون بشرية. تودعه بطريقة عجيبة. تحضر حذاءه. تنط على ركبتيه. تلحس يديه. وعندما يخرج ويغلق الباب خلفه، تنبح مرتين بصوت لا يخلو من الشجن. كما تشعر بقدومه، ما إن يصل إلى مدخل البناية، رغم أنها تعيش في ملحق بالطابق السادس. تنبح ثلاث مرات متتالية، وتقف عند الباب منتظرة قدومه، ملوحة بذيلها القصير المدوّر. وما إن يدخل حتى تقف على قائمتيها الخلفيتين وتقفز حوله، مرحة راقصة مستعرضة جذلة، وهي تصدر تلك الأصوات المعبرة، التي تشبه الكلام بالفعل.

كانت زوجته صفاء تعتني بها، وتزين رقبتها بأطواق من الخرز

بشار العيسى

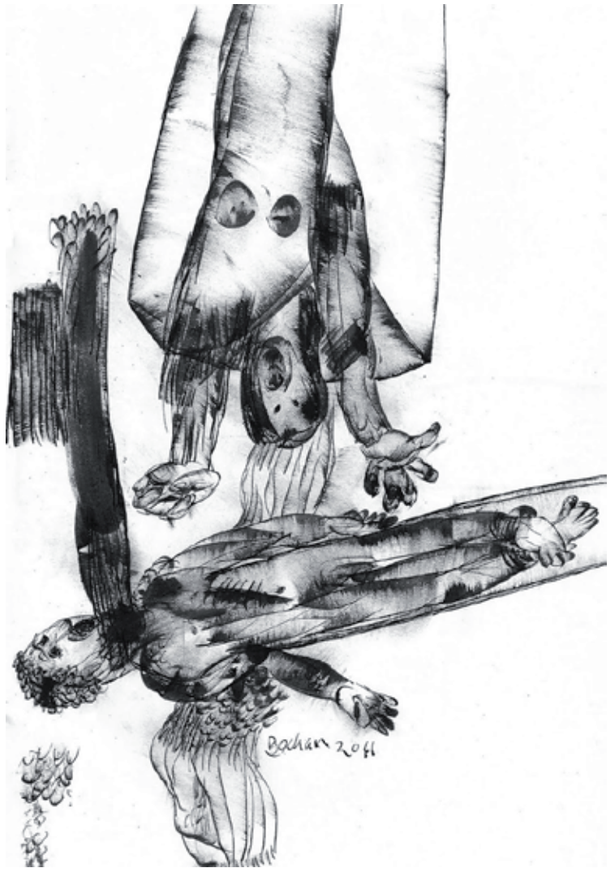

وهي تقرع الباب بقوة. سمعوا زوّار الليل وهم يقتحمون الشقة بصخب. أغلقوا أبواب بيوتهم، كما أُمروا، وراحوا يتنصتون من خلفها، على صراخ الزوجة وبكاء الطفل ونباح الكلبة وشتائم المسلحين. لكنهم رأوهم أخيراً، من خلف شقوق نوافذهم، عندما خرجوا من البناية، وهم يجرون مؤنساً، إلى السيارة "المفيّمة"، مقيد اليدين إلى الخلف، محنيّ الظهر إلى الأمام، وقد أخفوا رأسه داخل كيس أسود.

غادرت السيارة المكان بسرعة صاخبة. وحلّ صمت عجيب، على الحارة وسكانها. حتى لولو اختفى صوتها تماماً. لم يخطر ببال أحد أنها لحقت بسيارة الدفع الرباعي، دون أن يشعروا بها. وكان الضوء قد بزغ. وكانت رائحة مؤنس تملأ أنفها. ولم يكن صعباً عليها أن تتابع تلك الرائحة، أينما اتجهت. ولم يكن الأمر سهلاً عليها بالتأكيد. لكنها وصلت أخيراً إلى أحد فروع الأمن في منطقة الجمارك. وهناك توقفت لاهثة، عندما رأت الباب الحديدي المتحرك يغلق في وجهها. لكنها سرعان ما قفزت فوق السور، وتمكنت من رؤية صاحبها وقد أنزلوه من السيارة، وربطوا رقبته بحبل وراح أحدهم يجره خلفه، نحو باب قبو منخفض، بينما شرع الباقون بركله وشتمه وضربه بالسياط. وكادت تنبح لكنها كتمت صرختها، ولحقت بهم.

لم يفهم الحراس والجلادون والمحققون، من جاء بهذه الكلبة إلى هنا، وكيف تمكنت، من التسلل والدخول إلى هذا المكان السري المحصن بالأسوار وأبواب الحديد والبنادق وكاميرات المراقبة. سمعوا في البداية نباحها يشق الصمت المطبق، فاندهشوا. ظنوا أنه صوت موقوف فقد السيطرة على نفسه فراح ينبح كالكلاب. لكنهم رأوها أخيراً تقف في ممر الزنازين الطويل، بيضاء صغيرة يزين عنقها طوق من الخرز الأزرق وفراشة حمراء من الحرير. تنبح بقوة، كما لو أنها تحتج. وتجوح بصوتها الجنائزي الممطوط مثل أمّ فقدت صغارها. غير مدركة لخطورة المخالفة، والموقف الذي وضعت نفسها فيه. ولا عابئة بصدى صوتها الذي فجّر مملكة الصمت.

استنفر الفرع، وعمّ الاضطراب، وأُقفلت الزنازين والكوى. وأمر رئيس الفرع بوقف التحقيق وإلقاء القبض فوراً على تلك الكلبة السائبة. فهجموا عليها، وتجمعوا حولها، وطوقوها، ظناً منهم أن الأمر سيكون سهلاً عليهم. وعندما عجزوا عن الإمساك بها، حاولوا التودد إليها بالكلام وتقديم اللحم والمعلّبات، لكنها كانت ترفض ذلك وتقفز من بين أيديهم وأقدامهم، هاربة من ممر إلى آخر، فيركضون خلفها من جديد، صاخبين ملوحين بسياطهم وهراواتهم.

وعندما تمكنوا أخيراً من تطويقها وحصرها في غرفة التحقيق، تحولت إلى وحش صغير، وكشرت عن أنيابها، فتناول كبير المحققين مسدسه الحربي وأطلق النار على رأسها.

دمشق 2015

مجرد كلب

منذ أكثر من ثلاث سنوات وأنا أتساءل: لماذا لا يقومون باعتقالي! فأنا معارض معروف، وسجين سياسي سابق، وناشط اجتماعي معاصر، وطويل اللسان. شاركت بالمظاهرات منذ الشهر الأول. وقلت: عاشت سوريا ويسقط بشار الأسد. وقلت: "يلي بيقتل شعبو خاين". كما شاركت بكل الواجبات تجاه شهداء الثورة ومعتقليها. وأملك كل الأسباب التي تخولني أن أكون معتقلاً. اكتفوا بمنعي من السفر وعدم تجديد جواز سفري، حتى أراجع الفروع الأمنية. وكثيراً ما كان الأحبة والمقربون مني، ينصحونني بأن أخفف من لهجتي ونبرتي فيما أنشره على صفحتي في الفيسبوك، وغيرها من صفحات التواصل الاجتماعي.

ولا أخفيكم أنني كنت عملياً، أخاف من الاعتقال. فقد جربته ذات يوم، لكن فرحتي بالثورة ورغبتي بالتغيير، وإعجابي الشديد ببسالة الشبان السوريين، المستعدين للموت، الهاتفين للحرية والكرامة في شوارع دمشق وحاراتها، جعلني أكابر وأنتصر كل مرة على خوفي وهواجسي.

كنت أنتظر قدومهم كل يوم وكل ليلة. هم أو غيرهم من الرجال المدججين بالسلاح الذين يقرعون الأبواب بعنف، ويقتحمون البيوت دون إذن. وكم مرة قرع الباب بعنف فقلت: أتوا، ليتبين أن الطارق هو بائع الماء أو أحد الجيران أو المحتاجين. وكم مرة أعطيت هويتي للحاجز وتوقعت أن يقوموا باعتقالي فور قراءتهم لاسمي! وكم مرة اعتقلوا أو اختطفوا رفيقاً لي، أو سلّموا جثة ناشط مدني مثلي، قتلوه تحت التعذيب، وقلت جاء دوري! لكن شيئا من هذا لم يحدث حتى الآن. بل حدث ما هو أسوأ بكثير.

فذات ليلة، وبينما كنت منكباً على كتابة قصة قصيرة، عن كلب هاجم صاحبه، بعد أن أخضعوه لدورة في مكافحة الإرهاب، سمعت ويا للغرابة، صوت كلب حقيقي، يأتي عبر نافذة مكتبي المغلقة. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وكان من الطبيعي أن تسمع أصوات الكلاب في مثل هذا الوقت، خاصة عندما تتوقف أصوات القذائف والرشاشات والصواريخ. لكن هذا الصوت لم يكن نباحاً أو عواء ذئب، بل مجرد مقاطع صوتية عشوائية، هي أقرب إلى الأنين والتوسل والبكاء، منها إلى نباح الكلاب! أصوات متقطعة رفيعة واهنة، توحي في البداية أنها لجرو صغير جائع، أو ربما لكلب جريح.. توقفت عن الكتابة رغم أني لم أكترث، في البداية، لهذه الصدفة العجيبة. حاولت أن أنسى وأتابع الكتابة، لكن الصوت راح يعلو ويخبو وينشج ويتذبذب، مشحونا بالعواطف والمشاعر الإنسانية. كما لو أنه يناديك أو يستجير بك، طالباً حمايتك. ولم أتوقع أن يكون هذا المخلوق قريباً لهذه الدرجة. نهضت واقتربت من النافذة كي أفهم ما الذي يحدث! فأنا أعيش في الطابق الخامس، والضوء مطفأ في الحي، والشارع خال تماماً من المارة.. وبالكاد تبين لي أنه كلب كبير جداً، يدور حول نفسه، محاولا أن يخفي توتره وغضبه. توقعت أن أرى إلى جواره رجلاً. لكن عندما فتحت زجاج النافذة ودققت في المشهد، اكتشفت رغم العتمة، أنه قد رُبط وحيداً إلى عمود الكهرباء، المقابل لنافذتي تماماً. وسرعان ما شعر بي وكف عن الأنين والدوران، ووقف في مواجهتي متحفزاً، ولمعت عيناه في العتمة، ثم نبح بقوة وشراسة، متحولاً إلى وحش حقيقي.. أقفلت النافذة مباشرة، واختبأت خلف الستائر السميكة..

تبين لي أنه كلب بوليسي شرس، من نوع "جيرمان". أسود على ذهبي، يحيط بعنقه طوق جلدي فاخر. له خطم كبير أسود ولبدة صفراء، وأذنان مثلثتان منتصبتان مثل شارة النصر. راح ينظر إلى نافذتي تارة، ثم يحثو التراب بإحدى قائمتيه، ليعود وينظر نحو نافذتي، وينبحني.

ما الذي أتى بهذا الكائن العجيب إلى هنا؟ ومن الذي ربطه في هذا المكان؟ ولماذا ينظر إلى نافذتي تحديداً، تلك النظرة المتحفّزة المتوعّدة؟

لم أشعر بالخوف يوماً، كما شعرت في تلك الليلة المظلمة، رغم أني أحب الكلاب. أنزلت أبجور النافذة بسرعة، وأطفأت الضوء، وأيقظت زوجتي التي كانت تنام مع الأطفال في غرفة النوم. وقررنا على الفور أن نخفي كل ما نملكه من وثائق وسجلات ونقود، تعود لجمعية مدنية محلية، كنا نعمل فيها، وكانت تهتم بإغاثة النازحين الذين دُمرت بيوتهم، وهربوا من الحرب في الغوطة. كنا نؤمّن لأطفالهم الحليب والحفاظات والحقائب المدرسية والدفاتر والأقلام. قمت بمسح كل ما أملكه من أشعار وقصص ومقالات في كومبيوتري. أغلقت حسابي وحساب زوجتي في الفيسبوك والتويتر. كانت زوجتي أقل توتراً مني، لكنها مع ذلك دسّت علم الثورة في كيس أسود، ورمته داخل المنور عبر شباك المطبخ. استمر الكلب في العواء. وكانت تظن أنه مجرد كلب. وأنه رُبط هناك، مصادفة ربما. وكنت أقول لها: لكنه كلب "جيرمان" من نوع "FARFESH" يا عزيزتي. من سيربط كلباً بوليسياً نادراً، في عمود كهرباء، أمام بنايتنا تماماً! وبعد منتصف الليل! ولماذا يفعل ذلك!؟

اختلسنا النظر عبر أبجور النافذة. كان ما يزال هناك يجلس على ذيله ويرفع خطمه الأسود مستنفراً، وقد تطاول كثيراً على قائمتيه الأماميتين، حتى حسبناه رجلاً ينظر نحونا، لو لم ينبح من جديد..

لم يكن ذلك كابوساً. كنت واثقا من ذلك. رغم أن حياتنا تحولت إلى كوابيس دائمة، في الليل وفي النهار، تتخللها بعض الأفعال الواقعية العادية، التي لا يمكن حشرها مع فصيلة الكوابيس. لكن ما إن قُرع باب بيتنا، بتلك القوة، حتى تحول الأمر كله إلى كابوس حقيقي..

تسمرت مكاني.. وتبين لي أني كنت وحيداً في مكتبي. ولم أجرؤ حتى على مجرد الاقتراب من الباب. وفجأة ظهرت زوجتي، خارجة من المطبخ وهي تحمل طنجرة الحليب الفارغة.. نظرت إلي مندهشة وسألتني:

- ما بك! ألم تنم بعد!؟

لم أستطع الجواب. أشرت إلى الباب، فقالت:

- أعرف. إنه بائع الحليب. كم مرة قلت له أن يقرع الباب بهدوء!

دمشق - فجراً 3.10.2014

كاتب من سوريا

الخروج من النفق

فاضل السباعي

كلّ ما يعيه أنه يقف وإلى جواره ولده، في باب غرفة تُشبه إحدى الحجرات في مستشفى، وهو يُفيض في حديثه عن الفساد الذي استشرى! وكان رجالٌ سبعة أو ثمانية يُصغون إليه وقد اكتست وجوهُهم بذعر كان يزداد كلما أمعن في الحديث، وولده ما زال يترجّاه:

. أبي! أرجوك، لا تُسرف في الانتقاد!

كان بين السبعة أو الثمانية الذين في الغرفة، رجلٌ متمدّد على سرير، هو الوحيد الذي لم يَبدُ الذعر في وجهه، وبسمةٌ ترفّ على شفتيه.. فجأة رآه يقول:

. أحسنتَ! كلامُك كلّه صحيح ومفيد، يا أستاذ "س"!

فلم يشكّ "س" في أنّ هذا الرجل واحدٌ من معارفه، ومن ذوي الضمائر الحرّة، فزاد في انتقاده:

. لقد اجتاح الفساد كل شيء، حتى أصبح واجبًا على كلّ مواطن منّا أن يجهر برأيه كي تصل أصواتنا إلى أسماع السلطة. أيّده الرجل:

. أعرف عنك جرأتك. سمعتُ وقرأت وشهدت. إنك حقًّا مواطنٌ مقدام. زِدنا ممّا عندك.

فخيّل إليه أنه في حلم جميل. بسط ذراعه نحو ولده، ابن الإثني عشر ربيعا، يشدّه إليه وكأنه يتمنى له أن يشرع في الجهر برأيه في انتقاد الفساد، منذ الآن وليس غدا أو بعد غد. وبينا هو كذلك، وجد أنه قد غدا في وَسَط الغرفة لا في بابها، بين هؤلاء الرجال وقد أحاطوا به، الآن، فكأنه واقع في قبضتهم، بمن فيهم "ذو الضمير الحيّ"، الذي لم يعد متمدّدًا على السرير، بل كان يقول صنيعَ مَن يَشي به:

- هذا الرجل سبّ السلطة، يا سيدي المحقق!

فتوجّه هذا إليه:

. كيف سمحت لنفسك بأن تسبّ السلطة؟!

فأُرتِج عليه حتى لم يجد لديه - وهو المِنطيق - ما يردّ به على السؤال. قال المحقق:

. هل أصبحت سَبّة السلطة، في زمننا الرديء هذا، أغنيةً تترنّم بها الشفاه؟!

فالتفت "س" إلى الواشي:

. ولكنك كنت الوحيد الذي أيّدني في انتقادي وقلت لي "أحسنت"، واستزدتّني القول!

. كنت أُزحلقك!

. تُزحلقني؟!

قال المحقق:

. كيف مكّنته من أن يزحلقك، وأنت "المتحذلق" كما أراك؟.

ليس في المسألة "زحلقة" ولا "حذلقة"، أيها المحقق! كنت أنقد الـ..

. تنقد؟!

. نعم، أنقد السلطة وما استشرى فيها من فساد.

. فساد؟ تقول فساد في السلطة!

. ومئة فساد! ألا ترى المتسلّطين وما فعلوا في البلد؟

. المتسلّطون؟ أظنّك تعني المسؤولين!

. إيّاهم أعني.

. وماذا رأيت المسؤولين يفعلون؟

. نهبوا المال العام، وابتزّوا الناس في أموالهم وأرهقوهم في أحوالهم، وكفُّوا عن أن يكونوا حكّامًا حكماء، وتركوا الأعداء يمرحون على الحدود والعملاء يسرحون داخل الوطن!

عَبَس المحقّق:

. أنت تتفوّه بكلام خطير!

. بل إني، بصفتي مواطنا محبًّا لوطنه، أمارس حقّي في النقد البنّاء، وفي التقريع والتجريح إن تطلب الأمر، مدافعًا عن موقفي بلساني وقلمي وأظفاري وأسناني.

. لم يعد ينقصك إلّا أن تقول: وبأنيابي أيضا!

. أرجوك لا تسخر!

. أنت تعرّض نفسك للمسأءلة القانونية.

. ليس هناك مَن هم أولى بالمساءلة القانونية وغير القانونية، مِن أولئك الذين يقترفون الفساد أشكالا وألوانا، في كلّ يوم وفي كلّ ساعة.

. إنهم المسؤولون، وإنّ فوقهم مَن يحاسبهم. وأما أنت، المواطن، فإنّ لي الحقَّ في أن آمر بتوقيفك الآن.

. عجبًا! أَبلغ الأمر أن يُلقى القبض على المطالبين بالإصلاح ويُترك الفاسدون يُتابعون ما هم فيه؟

. ليتك تدرك خطورة ما ينطق به لسانُك، أيها المتحذلق! . وليتك تعرف، أيها المحقق الذي يبدو لي مستجدًّا، أنّ الحكام كلّ الحكّام في العالم، ما زالوا يستلهمون أقوال الحكماء وأفكارهم فيما ينشدون من الصلاح والفلاح. وإنّ رئيسنا "نظام الدولة" نفسه، بعد أن بلغه ما وصلت إليه الأحوال، أخذ يستمع إلى أهل الرأي، متجاوزًا البطانة وما تضمّ من ممالئين ومصفّقين. إنّ هُتافا مثل "بالروح، بالدم، نَفديك يا زعيم"، ينبغي أن يُرفض من أساسه، فليس يجوز أن يُفَدّي أحدٌ من الناس أحدًا، ولكن الجميع يُفَدّون القيم، القيم الكبرى الغالية، وفي قمّتها "الوطن"، فلنهتف جميعا: "بالروح، بالدم، نَفْديكَ يا وطن". لا تفتح عينيك على سعتهما هكذا! يقينًا، إنّ ما تتلقّاه منّي الآن من قول، تسمعه لأول مرة في حياتك، ولكني ما أزال أصرّح به منذ دهر، أجهر بأعلى صوتي. وقد قلته، أعني كتبته بأناملي هذه، في رسالة بعثت بها إلى سيّد القصر. ما لك ترفع حاجبيك! وخيّرتُه بين أن أجعلها "رسالة مفتوحة" أبعث بها إليه على صفحات الجرائد وراء الحدود، وبين أن تكون رسالةً خاصة مني إليه!

. أَفعلتَ هذا، بربّك؟!

سلافة حجازي

أقول: كتبتُ إليه!

. وبمَ أجابك؟

. فضّل أن تكون الرسالة خاصة.

. وكيف عرفت؟

. دعاني إلى القصر.

. أنت مَثّلت بين يدي رئيسنا "نظام الدولة"؟!

. وطال حواري معه.

. ونطقت أمامه بما تقوله الآن؟!

. وأكثر منه.

. وما تزال تتنقّل بين الناس؟!

. ويحك! أَوَكنتَ تتوقّع أن يُلقي بي في غَيَابةِ سجن، أيها الـ..؟!

ارتفع صوت المحقق وقد نَفِد صبره:

. أيها الرجل! خبِّرني من أنت! إني حتى الساعة أجهل مَن تكون!

. ألم يخبرك ذلك المتخفّي في صورة مريض على سرير في مستشفى؟ إذن فقد نقل إليك المعلومة شوهاء وناقصة، قبل أن ينسلّ بخفّة قطٍّ بريّ، مستحقًّا مكافأته على ما أخبر به!

في هذه اللحظة رأى "س" أحدَهم يدخل المكان بخفّة قطّ بريّ آخر. انحناءةٌ على الأذن. همسٌ وإسرار. انسلال.. والأسارير انفرجت.

أقبل عليه المحقق:

. أستاذ "س"! من صميم قلبي أُهنّئك، على أقوالك وطروحاتك وعلى كلّ ما يدور في رأسك من الأفكار الخيِّرة والخواطر النيِّرة. أنت مواطنٌ عظيم، مفكّرٌ جهبذ، أستاذٌ ممتاز. إنّ الوطن في أمسّ الحاجة إليك وإلى أمثالك العظام، أنتم مخلِّصو المجتمع من آفاته وعاهاته، حتى يصبح مجتمعًا رخيًّا رضيًا، يعيش أبناؤه بطمأنينة وسعادة.. وأقبل عليه، يصافحه ويهمّ بمعانقته، وهو يَشرَق بدمعه..

ابتسم "س" بمرارة: هل على كلّ محبّ لوطنه أن يجادل كلَّ مواطن، ويُفيض في الشرح والتفنيد، قبل أن تتنزّل عليه القناعة، أو يهبط قطّ بريّ، ويكون بكاءٌ وعناق؟! تنبّه فجأة، فلم يجد ابنَه إلى جواره:

. أين ولدي؟!

تلفّت المحقق حواليه، قال كالمعتذر:

. عفوًا، سيدي! يبدو أنهم ساقوه إلى "قسم الأحداث"!

. قسم الأحداث؟! ولماذا؟! وأين يقع قسم الأحداث هذا؟

. هناك، هناك.. اصحَبوا أستاذَنا الجليل إلى قسم الأحداث، يا شباب!

وخرج يُسرع الخطا.

. ولكن لماذا اقتدتموه إلى قسم الأحداث؟!

. من أجل التحقيق معه؟

. وفيماذا تحققون؟!

أخذ يهرول، وهم يهرولون خلفه. وأمام بابٍ حديديّ موصد توقّفوا. قرعوه.

. نريد الحدث الذي جئنا به إليكم قبل ساعة.

جاء الردّ: . ولكنه لم يعترف بشيء!

. أبوه برفقتنا. أعطونا إيّاه.

ظهر وراء الباب رجلٌ ضخم:

. أنت أبوه؟

. أعطوني ولدي.

. حاولنا انتزاع الاعتراف منه، ولكنه أصرّ على الإنكار! . أيّ اعتراف! وأيّ إنكار!

. ويؤسفنا أن نبلغك أنه مات في أثناء التحقيق!!! . قتلتموه، أيها الأوغاد؟! أين ولدي؟ أريده حيًا!

وقدّموه إليه جثّةً هامدة.

. أيها المتخلّفون! أيها الجهلة! أيتها الوحوش المتخفّية في إهاب بشر! قتلتم ولدي!

حمل ولده بين ذراعيه. ضمّه. قبّله، وقبّله، وقبّله.

. يا ولدي! قتلك برابرة هذا الزمان!

وأخذ يجري.

. ولكن لماذا لماذا قتلوه؟!

وجد نفسه في نَفَق.. يجري، ويصرُخ: . يا ولددي! مِن غير ذنب قتلووك! أمعن في جَرْيه، ومَن معه يجرون في إثْره. لاح له، في آخر النفق، نور. يقترب من النور. النور يبتعد. يصرُخ. الجدران تُشاركه الصراخ، ومن الأرض ينبعث أنين. كلّ ما حوله يشاركه الصراخ والأنين.

. قتلوك، يا ولدي! وولده على صدره. وما زال يجري نحو النور.. والنور يزداد بُعدًا عنه كلما اقترب.

دمشق 2004

كاتب من سوريا

خيبة أمل

فاطمة المزروعي

أعترف بأنني لم أعد أحتمل الحياة، وروتينها، الأيام تبدو طويلة، وأعدّ الدقائق والثواني على أصابعي، وأدوّنها على أوراقي البيضاء، وأسجل مذكراتي وأحزاني..

إنني أشعر بخيبة أمل، من كل الذين حولي، وأشعر بالعجز كلما تحدثوا إليّ وأخبروني بصراحة عن عجزي، أعترف أنني لن أستطيع إعادة ما يقولونه بالطريقة التي يتحدثون بها، أنهم بما يملكونه من زخم في كلماتهم يستطيعون أن يخبرونكم بكل شيء..

الحياة عادية، تسير بنا، اليوم استيقظت لأجد أولاد جيراننا يركبون الحافلة في طريقهم إلى المدرسة، وتلك ابنة الجيران، لقد اعتادت الاستيقاظ صباحا، لتطعم دجاجاتها، وتنثر الحب في سعادة، تبدو الحياة في مفهومها بسيطة، هي لا تتوق إلا إلى عالم كبير من الدجاجات وثوب ريفي مزركش، أحلامها بسيطة جدا، أريد أن أكون مثلها هكذا، أريد حياة بسيطة وجميلة، أن يكون لديّ زوج وطفل، وبيت صغير..

إن الحياة مليئة بالخيبة، هل تعلمون ما معنى خيبة الأمل؟ أن تواجه الفشل في حياتك؟ رغم أنك ربما لا تزال صغير السن، ولكن هذه الخيبة تقترن بك منذ طفولتك، هكذا صنعت منّي هذه الخيبة إنسانة منعزلة، تعيسة، وغريبة الأطوار لا أحد يحبني، وليس لديّ صديقات، لقد نشأت في منزل صغير، كان لديّ أخوة وأب وأم، إنها عائلة، وربما العائلة في نظركم هي رمز الحنان والأمان، إنكم تحبون أن تصفوا الحياة بتلك الكلمات، بينما أنا كرهت كل تلك الكلمات العظيمة، عن الخير والشر ، الجمال والقبح، الحزن والسعادة، الأمل والألم، كلها كلمات موجودة في قواميس الشر، ويتعاملون بها فيما بينهم، ولكن في أحيان قد يطغى شعور مكان شعور آخر، يعني شعور الشر قد يتفوق على شعور الخير، من هنا تأتي خيبة الأمل، والناس يتعاملون بينهم بهذه الكلمات الكثيرة والعديدة في حياتهم اليومية، وأعترف أنني في أحيان كثيرة لم تكن تهمني تلك الكلمات ولا تلك العواطف التي تحملها تلك الكلمات، ربما لأنني فيما بعد فقدت شعوري بتلك الأحاسيس ولم يعد لها قيمة في حياتي، أول خيبة أمل في حياتي كانت عائلتي، لقد لفظتني، ككلب أجرب، يعاني من مرض مزمن لا علاج له، لم أستطع التكيف مع أخوتي، كانت المفاهيم لديهم كباقي البشر، مفاهيم في الأموال وحب الحياة والتعلق بها، الغدر والظلم والقهر، نعم هذه خيبة الأمل الأولى هي سبب معاناتي في الحياة، هي سبب عجزي وقهري، وإحساسي بالألم و التعاسة والدونية، أتذكر بكل وضوح، وبوضوح مرعب كلماتهم بأنه لا قيمة لي في هذه الحياة رغم التضحيات والتفوق، رغم كل شيء، أتذكر تلك الكلمات وبدقة متناهية، وأعرف أيّ مشاعر انتابتني، أحسست في تلك اللحظات بأن ما حدث من حولي شيء مدمر..

والآن أنا أعيش تلك اللحظات، أعيشها ولا أتوقع أسوأ من هذا الذي حدث في طفولتي، هذا كل شيء، كنت أتوق إلى الحياة في بداياتي الأولى، وكان عشقي للكتابة وللقراءة، شيئان أعترف أنهما قد خففا من شعوري بوطأة هذه الحياة..

والواقع أنني كنت أتوق إلى حياة جميلة ورائعة وكنت أتوقع من الناس أمورا كثيرة، الحب والحنان، أو ربما كنت أحتاج إلى ضربة حظ، أو إلى أيّ شيء..

إنني حقا أدور في دوامة لا حدود لها، وأكره تلك الانفعالات البشرية التي تدور في داخلي سواء من غضب وكراهية وحزن وضيق، أحيانا يتوقع جميع من حولي بأن مخيلتي تختلق الأحداث وترسم صورة مرعبة عن طفولتي، ولكن في داخلي تصور كبير وإحساس أحيانا غير واضح، بأن هناك خيبات أمل كثيرة وكوارث سوف تحدث في حياتي، هذا إذا استمررت فعلا في الحياة، قد تستغربون من حديثي هذا، ومن سردي لأحزاني وخيبات أملي، ولكنني كنت أعوّض هذا الحزن الدفين في القراءة والكتابة، وكان عالم الكتب رائعا، لقد تعلمت الكثير من الكلمات والتي أضفتها إلى قواميسي، تعلمت أن أكتب الشعر، بتلك الكلمات التي تصف شعوري وإحساسي، وكنت متأكدة بأن هناك الكثير من الشعر يحمل الكثير من الكذب في طياته، ولكنه كذب جميل، يثير في داخلي شيئا من البلادة الروحية، والحس الشهواني..

تخطيط لـ خالد الرحال

اندفعت في حياتي بصمت غريب، لم يكن التفوق دافعي، إنما إثبات الذات، وقهر كلمات أسرتي، في حياتي البسيطة هذه تعلمت أمورا كثيرة، حتى في مجال عملي، والغريب، أنهم حتى في عملي لم يقدروني كفتاة ناجحة ومتفوقة، لقد جعلتني الكلمات أفشل، إنني الآن في الخامسة والعشرين من عمري، أجلس في المنزل، عاطلة عن العمل، ليست لديّ مهنة أزاولها سوى مهنة الخوف والترقب، كثيرا ما كنت أفكر لو حدث وطردوني من عملي، ما الذي سوف يحدث؟ ولكن لم يكن لديّ الوقت لأفكر في النتائج، كنت أعمل بصمت وآكل في صمت، وأحب في صمت، وعندما تعلمت الحديث طردوني من عملي، لقد أتقنت فن الكلمات، وأصبح لديّ قاموس كبير يحتوي الكثير من الكلمات، قاموس لا أستطيع حمله من ثقله، وعندما علمت مديرتي بأنني تحدثت لم تحتمل وجودي، ولكنني الآن أنا مطرودة من عملي، إنها الحقيقة؛ حقيقة لا بد لي أن أعيشها بكل كياني، ألا تريدون أن تصدقوا أنني عايشت ما يكفي من الألم ولسنوات رغم أنها ليست طويلة، ولكنها تكفي لتثير كمّا هائلا من الحزن في داخلي..

قبل سنوات أحببت شابا، كان رائعا، تمنيت أن أكون دوما معه، أن يكون زوجي ووالد أطفالي، ولكنه لم يبادلني هذا الشعور، واتجه إلى فتاة أخرى غيري.. هل توجد معاناة أشد من معاناتي هذه؟ أيوجد شيء أقسى من هذا الألم الذي أشعر به، ويمزقني كل لحظة؟

أيام مرت عليّ وأنا أفكر في حياتي، أفكر في هذا الألم العظيم الذي أشعر به، أفكر في حظي الذي عايشته، وخيبة أملي التي قادتني إلى الدونية والوحدة والانعزال عن البشر، كنت أتساءل دوما في حياتي هذه عن الحزن والفرح، مترادفان عكس بعضهما، لقد خلق الله الإنسان في هذه الحياة، وهو يملك الخيارات في أن يعيش في السعادة أو الحزن؟ هو الذي يقرر، ولكن رغم ذلك تبقي أمور كثيرة عائقة في طريقه للتحرر من هذا القيد، إنني اليوم أتوق إلى هذا التحرر، وأتوقع أنه في حالتي هذه لن يأتي هذا الإحساس إلا بالموت..

كان هذا الشعور سرعان ما ينتابني كلما جلست أمام البحر، أنظر إلى الأفق، فأشعر بأنه يدعوني إلى التحرر، ولكنني لم يكن لديّ أفق، كانت كل الزوايا في حياتي ضيقة بالكاد تكفيني وتكفي جسدي الضئيل وأفكاري التافهة، اسمعوني أرجوكم إنها الفرصة الأخيرة التي أمتلكها لأعبّر عما في داخلي وإلا تحطمت وصارت جثتي قُتاتا في شوارع مدينتكم التافهة المزدحمة بأمور أنتم أنفسكم لا تفهمونها ولا تفهمون كنهها..

ربما يكون أفقي ضيقا أكثر من الناس الآخرين؟ ربما أنا غبية أو لديّ فائض من الفهم، ولهذا لا أقوى على الاستمرار في هذا العالم؟ وقد أصل إلى القمة وتنتهي حياتي هذه في لحظة؟

أعرف السعادة والألم في كل أشكالهما، ولقد جربتهما في حياتي وأعرف مرارة كل واحد منهما؟ وفي درجات غير ثابتة، ليس هناك شيء ثابت في حياتي، لا شيء، إنهم يعيشون في حياتهم في كذب، يكتبون أمورا لا أساس لها، ويصنعون لأنفسهم مجدا فيه الكثير من التملق، أعترف لكم بأنني ربما كنت في يوم من الأيام مثلهم، ولكن ألا يحق لي في لحظة أن أكون سعيدة بعد كل خيبات الأمل هذه، أن أجمّل تلك اللحظات، حينما أجلس وحدي أمام نافذة غرفتي أتأمل السماء، أتأملها بمزيج من الحنان والاشتياق إنها عالمي، حيث أبعد قليلا ناظري عن الأرض والحياة، وأعيش لحظاتي الحميمة مع السماء في لونها السماوي الرائع، وربما هنا في هذا العالم أستطيع الدفاع عن نفسي، دون أن يسابقني هؤلاء البشر أو يتهمني، أستطيع أن أعيش دون أن تحدث لديّ خيبة أمل، أعلم عجزي في احتمال هذه الحياة، إنني لا أريد سوى التحرر من قيودهم، والسفر هناك حيث الظلام الأبدي.

كاتبة من الإمارات

يصدر قريبا

كراس "الجديد" الشهري

الحداثة الملفَّقة

سجال في مشكلات الحداثة العربية

مجموعة كتاب

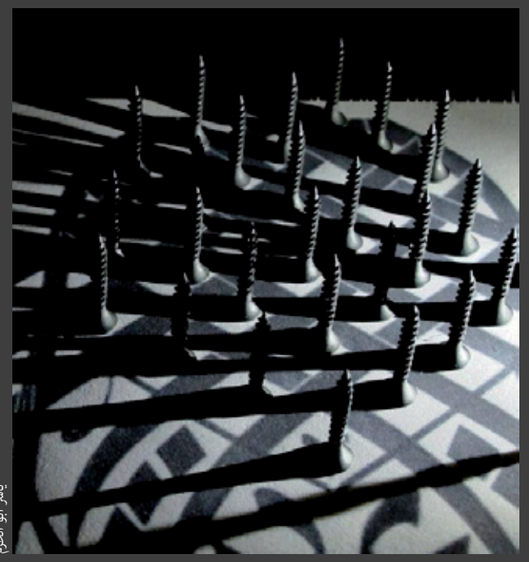

ياسر أبو الجرم

فكر حر وإبداع جديد

المصعد

فتحي الضمور

هكذا أبدو دائما، عندما أتواجد في بناية شاهقة، أو حتى عادية، حريصا على معرفة عدد الدرج فيها، وعتباتها، لون أبوابها، إنارتها. أشعر بشيء من الجنون عندما أهتمّ بتفاصيل التفاصيل فيها، لكنّي أمتلك حاسة أشدّ غرابة ممّا أفعله، وهي عندما أكون في المصعد، أعرف الشخص الأخير الذي استخدمه، من خلال رائحة عطره، وأحدّده ذكراً أم أنثى.

مؤخراً عملتُ في شركة كبيرة، مكونة من سبعة طوابق في كلّ طابق شقتان منفصلتان، مارستُ هوسي، حتى عرفتُ عدد البلاط فيها.

أكثر ما كان يعنيني، ذلك المصعد الجميل، الذي به يبدأ صباحي في العمل. فما إنْ أصل إلى الشركة حتى أفتح باب المصعد وأدخله، فأعرف آخر واحد خرج منه. حتى أنّي دخلت في ذلك مرحلة الهوس بالرائحة والعطور، إلى حدّ أنْ أذهب إلى الشخص في مكتبه، لأخبره بأنّه كان في المصعد قبل قليل، وأكثر من أذهب إليهم، هم الفتيات، فلا أكترث كثيراً بالرجال في هذا الجانب.

المصعد كان سبباً قوياً في إقامة علاقات مع الجنس اللطيف، ذلك أنّني عندما كنت أقترب من أيّ فتاة، أشتمها، فتعشق روحي رائحة عطرها، فلا أنساها أبداً، وعندما تكون في المصعد، وتخرج يبقى عطرها في زواياه، فأشتمه لتذوب روحي فيه، فأصل إلى ذروة الإثارة وكأني بأحسن حالات الانتشاء.

أنفي لعين لحدّ أنّه يعرف النساء، أكثر من ألبتشيتو في فيلمه "عطر امرأة". فكدت من وراء ذلك أنْ أدخل مع الشيطان في مقامرة على كل النساء العاملات، الفتيات منهنّ، والعوانس، والمطلقات، والمتزوجات، والجميلات والقبيحات، وفي كلّ مرّة أكسب الرّهان!

أنفي هذا أصبح معرّضا للتكسير، ومستهدفا من الشباب العاملين في الشركة. أصبح الجميع يعلم بأمري، وبقدرتي على تمييز وتحديد الأشخاص من خلال عطرهم. ماذا عليّ أنْ أفعل الآن حتى أتجنب غيرتهم اللعينة؟

التزمت مكتبي وحيداً، أطول وقت ممكن، إلا أنّني بين الحين والآخر، أذهب إلى المصعد لأستنشق أنوثتهنّ، ومن ثمّة الإيقاع بواحدة ممّن يغسلُ العطر جسدها المخبوء عن أعين الأغبياء.

العطر وحده يكشف عن جسد الجميلات وأرواحهنّ، حتى الرجال عرضة لذلك، فالجسد تنبعث منه رائحته الطبيعيّة، حتى إذا ما استخدم أحدهم عطراً ما، وكان لا يتناسب مع رائحة الجسد، لينتج عن ذلك رائحة غير مستحبة، ينفر منها كلّ من يشتمها. أمّا إذا كان العطر منسجما مع رائحة الجسد، ليبدأ فصل الإثارة والجنون.

هذا ما كان يحدث معي في المصعد، ألملم العطر القابع في زواياه، فيتشكل لي على هيئة امرأة على السرير.

كان أكثر ما يعجبني عطر امرأة في الأربعين من عمرها، وكانت كلما تدخل المصعد، تخرج منه وتبقي أنوثتها جاثمة على مرآة المصعد، فأعرف رائحتها، وأبقى أقبّل أنوثتها على المرآة، حتى يزول آخر رذاذ عليها، فتبدو كنهر لم يشرب منه أحد. هذه المرأة كانت تستخدم Nina Ricci الذي كان يأكل جسدها كلّه. كنت أذوب عندما أقترب منها، أو عندما أتنفسه في المصعد، فأذهب بخبث إليها وأخبرها بأنّها كانت قبل قليل فيه. كانت تتعجب من أمري، وكيف أنّني أعرف ذلك، حتى استقام لي الأمر معها، وامتدت علاقتي بها لأكثر من خمس سنين، وأنا أعرف نوع العطر الذي تضعه كلّ يوم على جسدها.

كلّ ذلك تغيّر فجأة، ولم أعد قادراً على تمييز أيّ رائحة حتى عطرها المثير. كلّ شيء تغيّر حتى أنفي لم أعد أرغب به في المرآة، كلّ شيء تغير عندما تزوجت.

كاتب من الأردن

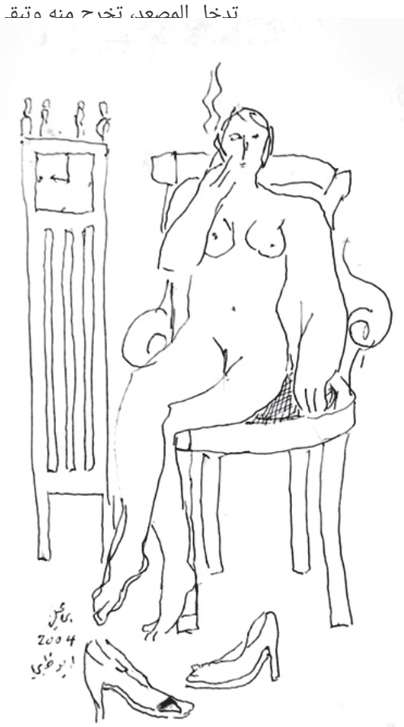

تفصيل من تخطيط لـ اسماعيل فتاح الترك

حسين جمعان ←

قصص

فهد الأسدي

بلا وضوء

قالت شهرزاد: بلغني أيها الشعب الشقي أنه كان كما يكون على مدى الزمان والسنين أن أصدر السلطان فرمانا بصرف هبات لمن يصلون النوافل في جوامع السلطان.
كثر المصلون حتى ضاقت بهم المساجد والطرق والحواري وتعب الكتبة والحسبة ودواوين الوقف وهم يعدون قوائم الأجور الإضافية حسب ساعات الصلوات اليومية.
يوما احتشد جمع غفير من أولئك المصلين أمام ديوان الأوقاف فخرج لهم الرجل الكامل الأوصاف - هتف بهم: خزينة السلطان فاضية أما خزينة الله فهي وحدها الباقية فلا تنتظروا أن تصرف لكم على صلواتكم أجور - أليست صلاتكم لله فلماذا يجزي عليها السلطان؟
ارتفعت صيحات وأطرقت وجوه.
- ولكن هذه خدعة - لقد صليناها للسلطان.
وهتف آخر بلا مبالاة: لقد صليناها بلا وضوء ولا يهمك.

1995

في المستشفى

هل للحروب نصيب في ذاكرة الطفولة كجدي أبيض لا تدرك شيئا مما جرى ولا تعرف لماذا هي هنا مربوطة الآن في قاعة طويلة ذات سرر صغيرة بيضاء بعيدا عن البيت. إن طفل الثالثة لا يحفظ في ذاكرته لفعل المدافع سوى دمدمتها التي تخلع القلب من الجذور.
هتفت باكية:
-دميتي، دميتي.
ركضت الأم وهي تشرق بابتسامة باكية:
- ها هي يا حبيبتي. لقد جئتك بواحدة أجمل.
تناولت الطفلة الدمية الجديدة. كانت الدمية بذراع واحدة، والطفلة بذراع واحدة أيضاً.
لا تطفئ الغضب.
"إلى من وضعوا أقدامهم على الطريق. إلى رجال العاصفة".
نبوخذ آخر، ثم تمتصكم. وأخيرا نيويورك من جديد.
استعذبها كمال من جديد ولم يؤطرها بالحذر، فالحديث اليوم لا يخاف تهمة السياسة.
- لم تعد سياسة: إنها حياة أو لا حياة.
ومحمود غيبته قبور الأسلاك، محمود ذو الرجولة الكثة الذي كان يهدر:
-لا تشتموا أعداءكم ، بل اقهروهم.
على الدرب الذي رسمته مقلتاك يا محمود لا تزال الأصداء مرنة.
في السابق كانت اللحية البيضاء تجبر كمالا على التسكع على الشواطئ الآمنة:
- لتجر الأحداث بغيره.
ولكن للعملة وجهها الآخر. فأخيرا قد أصبحت ضيعة الشيخ منتجعا لهم.
- آه جراد. قضموا كل شيء فيها.
قالها الشيخ بمرارة ثم شتم بكل لغة. وعندما اشتدت نوبة غضبه حاول أن يجر عمود الخيمة.
- (ليقتل وليأت من بعده الطوفان).
لكن صوت أم كمال الحزين لسعه فانحسر مد انفعالاته
- ليبكي.
- أبوه يبكي.
كانت المسائل تبدو غاية في التعقيد على عقله البكر:
- أن يبكي الرجال فهذه النهاية.
- قمة العجب.
وعندما كانت العائلة في العراء كان بكل بساطة يراهم يعبثون.
ألغت مدافعهم في لحظة من جنون سنين الجهد.
- ثم داسوا العرق.
لعن كمال بصوت مسموع:
- أهناك أشرف من عرق المتعبين. ثم تدعون التحضر يا أوغاد؟
في الظلمة لكزه صوت رفيقه:
- سمعتك تشتم - لاتطفئ الغضب بالشتيمة.
- همس:
- دعني يا رفيق القضية فهذا الفيض.
- واستمر سارحا بذكرياته القاسية التي لا تنسى.
- احترق الزيتون وتاهت البشرية مفتشة عن وجه آخر لها. لقد عفرها السخام. ساعتها دارت الدنيا سريعة في عينيه:
- إذن، هكذا أرادوا: تنتهي الحياة بمثل هذا السخف.
لم يكتشف الشيخ غلطته إلا يوم غزتهم العاصفة الهوجاء، وكمال لا زال يذكر بريق عينيه وهما تعطيان الأمر:
- ها، لقد وصلت العظم.
- غفر الله لك أيها الشيخ ، لقد جاءت الإشارة متأخرة بعض الشيء.
كان كمال يستحضر في مخيلته صور أبيه كما لو أنها تعرض على الشاشة. في المخيم يوما هز صوت متخاذل ودرس بأن بيان الحاكم العسكري قد أوعد بأنهم سيعوضون ما أكلته الحرب، وهو لا يزال يذكر ثورة الشيخ به:
- ماذا، تعويض؟ وهل تكفي الدنيا كلها عوضا؟
- استعد ، سيأكلون لحمك بعد أن نتفوا الريش، أنت لم تخبرهم.

لم يأبه أبوه وهو في خريف العمر للإنذار، استمر يجتمع بالرجال. كان يدرك بأنهم سيعاودون، وفي كل مجلس كان يردد:
- المحاربون الطيبون لا يجهزون على الجريح، ولكن أعداءنا غير طيبين وسيجهزون.
وأحس كمال بأن شيئا داخله يسيل.
- أن تموت يا أبي شيء فظيع حقا.
ثم غرقت عيناه ففي بحيرة من الدمع، وعندها كفكف السيل، احتضن رشيشه بقوة وحدق. كانت قبة السماء بفسحتها ترسل حزمها لتلفه.
هتف:
- أي، يا سماء بلادي، لن أسمح بأن تلطخ زرقتك أجنحة الغربان.
كانت سحب من تأنيب تغزو ذهنه، فيبعدها وفاء.
- آه يا أبي لو لم تحذرني: لا تشترك.
- تعال أبصرهم ، ليسوا صبياناً يا أبي وليست فورة شباب، ولكنها حياة أو لا حياة. التنازلات.. ستجري التنازلات والقضية لازالت حبرا في صحائف ناس لا يعنيهم منها سوى الثرثرة على الموائد.
صرخ كمال في سره: استفيقي يا نعاج وإلا فليستأسد الفار ولترطن الكوميونات، فإني لا أبصر جنودهم.
لعن تكتيك الحرب الحديثة وهي تصرع رجولة المتحاربين . قبل أن يرحل محمود حدثه بصوت شربته نفسه كالإسفنجة - قال:
- هل سمعت يا كمال، هناك في فيتنام تروى عن أسير وقع في أيدي الأميركان - قصة طريفة. قال لهم الأسير:
- أيها اليانكيون أحرقوا (فانتونكم) وسنحرق (ميغنا)
- ولنحطم آلة الحرب ولنصطرع كأجدادنا باليدين، وعندما تلتصق منا الصدور ستحسون من هو الأقوى
وعندما قالوا له: إنك قصير ضعيف فكيف تقوى على (جون) المفتول؟
قال لهم:
- إن خفقة صدري ستعيد لهذا (الجون) إنسانيته.
ود كمال ساعتها لو تحققت النبوءة ، إذن لأراهم لماذا يموت الرجال.
كان فرح يغزوه وهو يحس بأن الحياة قد بدأت تحتضنه بعد أن كانت أبعادها لا تحده.
كان ضائعا تافها كفراغ جندي الصيف وسط موجة النصح إثر السلامة، ولكن يوم يلتفت المرء فيجد أن كل ما يملك قد شوهته اليد الهمجية ، أيّ قيمة للحياة تبقى والأشياء العزيزة تحترق بمثل هذه السهولة؟
وعندها نادته الأرض التي تضاجعها عنوة أقدام الغرباء، وابتدأ الاحتدام معهم طفوليا - كانوا يتسترون بالظلمة ويصرخون:
- يا أبناء مادلي.
ويفتح المدفع الرشاش المنتشي بالنصر فمه الكريه، إذ أن أعصابه المهزوزة لا تحتمل حتى هذر الأطفال.
وفي يوم كان ضباب الغضب الذي يجتاح كمالا لا يمكنه من الإبصار بوضوح. وقف في طريق ضابطهم وصرخ ملء فمه:
- نبوخذ آخر. ثم اختفى.
كان محمود هو من أفهمه أن ذلك انتقام مثلوم لا يليق بالرجال. ويومها كانت نذر العاصفة تلوح في الأفق، فعانقها كمال. حمل رشيشه ودخل الأسلاك الشائكة ليثير الرماد في عيون الغزاة.
ومعه عرف الشعب طريقه.

1968

نود الصيف

نزل من السيارة متعبا بعد ساعات سفر طويلة. كان وجهه أغبر وقد استطالت لحيته.
كانت قمصلته متهدلة مفككة الأزرار وحقيبته ينفخ بطنها عن ملابس غاية في الوساخة، وكانت سيور حذائه الضخم محلولة وهو يخطو به بتثاقل على رصيف الشارع.
فكر بتقزز وهو يحاول أن يبعد نظره عن الأوساخ البيضاء التي تعلق بحذائه.
كان أكيدا من أنها ليست أوساخا عادية بل أمخاخ بشرية.
نعم لقد داس خلال تلك المسافات على الكثير من الرؤوس الآدمية.
حث خطاه لكي يصل منزله فيطهر حذاءه لتتطهر روحه.
لم يبق في جيبه الكثير ليكتري سيارة بعد أن سلبه سواق الليل معظم ما عنده.
راح يركض خلف حافلات نقل الركاب والسيارات الأهلية بلا جدوى.
- ما هذا المسخ؟ هتف واحد من الاثنين الحسني الهندام اللذين يتعقباه.
- أمسكا به وراحا يمطرانه بالتقريع، والتمّ حوله الناس فوجد نفسه محاصرا مذلا بين تلك العيون الغاضب والمشفق منها.

تقدمت عجوزان من الضجة - سالت إحداهما:
- لماذا تمسكان المتعب وتؤخرانه عن أهله؟
أجابها أحد المتأنقين:
- اما ترين كيف يهمل هندامه وقيافته؟
هتفت العجوز الأخرى:
- إذن فأنت تمسك به يا ابن الـ.. لهذا.
- نحن ندري به من أين جاء، وندري من أيّ ماخور قدمتما أنتما الاثنان، هاكما.
هجمت العجوزان على المتأنقين بضراوة وساعدهما الأولاد الملثمون
- وراحتا تمزقان ثياب المتأنقين
- ثم هتفتا:
- الآن صار هندامه أجمل منكما أيها المتسكعان هنا بلا جدوى.

1992

الأرقام السرية

حدس أنها السفرة الأخيرة له - قرأ ذلك في تربص ذلك الشبح الليلي خلف العطفة.
جلس وانتصاف الليل فحرر وصيته. وكشف عن أسرار صغيرة له وأرشد فيها أهله إلى دخل متواضع يتركه لهم في مكان ما في الخزنة الحديدية.
ثم سجل ماله وما عليه وكتب رقم خزانته السري ليعلم عائلته لأول مرة بهذا الرقم.
لا حق له أن يبقي شيئا غامضا بعد الآن.
بعد أن اطمأن على أن أولاده لن يتعبوا من بعده، أودع دفتر مذكراته الخزانة ونام.
أيقظوه سحرا واقتادوه، ولم يعد.

1991

الأم

قرت عينا الأم فالليلة ليلة عيد وها قد التقى ولداها في إجازتيهما بعد زمن طويل.
الأول كان ضجرا، لم يخفف الجو العائلي عن روحه قساوة الحرب.
ردد مغمغما مع نفسه:
- لماذا يا إلهي؟ لم يعد لها معنى.
سمعه أخوه والذي ما زال يخدم في وحدة بعيدة عن خطوط التماس.
- لا بل صار لها معنى الآن.
وراحا يتناقشان بأفكار لا تعرفها عن الحروب والوطن وعن معنى وفلسفة الوجود وعن تجار الحروب. ثم احتدم نقاشهما وعلا، صار صراخا، تشاتما لأول مرة ثم اشتبكا في عراك وركض كل إلى سلاحه.
تدخل الأب والأم والعائلة ثم الجيران ففكوا الاشتباك وإلا كادا يقتلان بعضهما بعضا.
- هتفت الأم: حمدا لله، لقد كانت ساعة شيطان وعدّت.
بعد أيام رجعا إلى وحدتيهما - قهقها طويلا وهما يودعان بعضهما بعضا ويتذكران سخف عراكهما في موقف كهذا.
- هتفت الأم ثانية: حمدا لله - كانت ساعة شيطان وعدت. بعد أسبوع حملوا لها جثمان الأول وفي الأسبوع الثاني جاؤوها بالثاني.

1990

الجريح

«المحاربون الطيبون لا يجهزون على الجريح لكن أعداءنا غير طيبين».
هدير المعركة لايزال يصطخب في جسمه.
حاول أن يقوم لكن شيئا في جسمه منعه وجرب أن يفتح عينيه ليحدد مكانه لكنه تخيل ضبابا حالكا يحجب عنه الرؤية وأن قبضتين قاسيتين تضغطان على أجفانه بعنف وتخيل نفسه في دولاب عيد سريع. ومن الممكن أن ما أحسه من دوار قليل في أول الأمر أعاده إلى أيام طفولته عندما لم تكن حينئذ مسؤولية وحين لم تعن كلمة الكفاح في ذهنه الصغير سوى خناقه بسيطة بينه وبين ابن جارهم.
لكن الدولاب أخذ يستدير بسرعة جنونية حتى خيالاته أخذت تتراقص أمامه بدوران عنيف، وحاول أن ينهض من جديد، لكن ذلك الشيء منعه، أوه «صرخ بألم ممض ونبهه هذا الألم إلى غريزة الاستطلاع عنه».
لم يستدم بحثه سوى ثوان، كان ذلك السائل القاني اللزج قد غطى معظم جسمه قرب الصدر وحول بطنه وحوضه وفاضت كمية منه فصبغت مضجعه.
حاول أن يتذكر موقفه، حاول أن يحس، أنّى للجريح أن يحس سوى ألمه.
واندفع تحدوه غريزة البقاء بعيدا عن الجبهة.
كانت أصوات الانفجارات وتقدم العربات وأزيز الطائرات تختلط كلها مع أنين روحه المتعبة في صخب غريب.
وقليلا قليلا تطاوعت عيناه مع غريزة حبه للبقاء. أبصر الحرائق والدخان وتذكر جزءا من ساعاته وأدرك أنه لم يعد بإمكانه أن يكون محاربا فقد سقط وجرح. عليه أن يهرب من رحى المعركة ويمم وجهه شطر الغرب.
كانت الشمس لا تزال تهب الضياء رغم أنها أذنت بالأفؤل ولأول مرة في عمره كره الشمس وأدرك أنها تفضحه للأعداء.
حاول أن يوطن نفسه على أن أعداءه لن يتبعوه. فما عاد ذا خطر. إنه جريح وما يملك الجريح من أهمية أكثر من أن تبصق فتوقه دما، أكثر من أن يضيف إلى أنات المتعبين أنة؟
وتذكر قصة كان جده قد سردها على مسامعه في الصغر. ومرت الذكريات كشريط سينمائي امامه.
كان الجد يروي لأحفاده بخيلاء ساذجة جزءا من ذكرياته مع أبناء قبيلته فقد طاردوا عصابة لصوص كانت قد أشاعت النهب في بيادرهم.
وكان صوت الجد قد تهدج بغضب وهو يقول:
لقد حطموا أعصابنا كثيرا أولئك الملاعين. إن من مرارة الحيف أن

ترى رغيفك يسرق دون أن تهب لتسترده من سالبه.
لقد تتبعنا الفارين حتى التلال البعيدة وأجهزنا عليهم، وفتشنا وراءهم كل حجر حتى قبضنا على رئيسهم.
وتذكر هنا حماس الصغار المتحلقين لسماع بقية القصة من الجد.
وصرخ مستعجلا جده وقتها: وهل أجهزتم على هذا الوغد؟
لكن نبرة جده قد اكتست بمسحة حزن وتقريع وهو يقول:
لقد كان جريحا يا بني والمحاربون لا يقتلون الجريح.
هنا تبدل كل حقده شفقة وأكبر عمل جده. أحسه أثمن درس تعلمه.
واليوم وفي موقفه حاول أن يوطن نفسه على أن أعداءه لن يمسوه بسوء.

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

1964

الباصقون صورهم

تتجمع الأشياء ثم تبصق في وجهك دفعة واحدة، وتحس العفونة دون أن تمسح فالتكشيرة تلتصق بكل ما ألفت، وأبصر التقويم:
- ماذا؟ سبعة في الشهر، لا تزال في أولها. طيط.
ومن جديد شرع يراجع قائمة الحساب:
-الحاج عبد الرسول تعرف من رحلته أنك في الساعة الواحدة من يوم 30 في الشهر. لو أصلح هذا القفص لهانت، لكن ماسورة الأنابيب لا تزال تنز المياه وأنت مطالب بأن تدفع للمصلحة والمجاري ثمن تقصير الغير.
تحت نافذته كانت الأحداث تجري بصخبها اللامبالي؛
الأضواء والإعلانات «بطر، أحسن فيلم أحسن خراء»
الحياة تبدو وكأنها شيء منفصل له أبعاد لا تحده قد ودعها من زمان، والتناغم مات منذ أعوام، وهو مشدود إلى السلسلة في سرداب موحل لزج.
كانت الأضواء تملأ حياته فتنفخ صدره بزهو القادرين لكنه اليوم يستند بعظمة فارغة كشجرة هرمة يتآكل وسطها العث.
والصورة التي تضمها الاثنين تختفي عن إطارها وتبدل خلق جديد:
الجبين الواسع يتراجع عنه تاج الفضة والعيون الغائرة التي تكاد تبكي وهي تحكي رحلة السندباد المضاع وهي الأخرى تتأوه في السرير «انبحي فالجيب أقسى من القلب يا أمينة».
أثناء الليالي كانت تلتصق به شبقة كقرادة، وللمرة الثامنة يتكور بطنها كقربة رخية الجلد.
قالت له: أحس بالطيف أن حملي ثقيل هذه المرة.
دار عنها الوجه «في المرة الأولى ترقص للنبأ وبتتابع المواسم تجبرك الحياة أن تثقل قدميك رويدا أثناء الرقص، فالموسيقى بعد أن تحلق بك عاليا تهبط بك وئيدا إلى الوحل.
تلتصق الأشياء بلزوجة متعبة وتهتف بالسماء أن تكف لعبتها عنك لكن التكور الثامن يهزأ بضراعتك.
أمس ألقت بكل ثقل أناتها على هامته. انتحبت كطفل مدلل ولكنها صادقة.
حاول أن يخفف عن نفسه بالدموع ولكنه لا يملك حتى هذه القدرة.
صرخت: لطيف، اشتريني، راح أموت.
وعصرت هامتك، تأخرت عن الدوام نصف ساعة.
وعندما هرعت إلى المدرسة سلقتك نظراته.
نظر في ساعته، وتهكم المدير يكمل معك لعبة الحياة السمجة، بالكرش ونبي التجارب وباللغة الناصعة البياض التي تخلو من العقوبات «الفراغ لا يسد إلا بالنفخة ككرة ابنك المطاطية».
وأبشع من كل ذلك تطالبك الحياة بأن تستمرئ تهكمه، وتلتفت إليها «انبحي يا أمينة فانا لا أقدر على التأخر اليوم» أمراض الترف ليست من حقنا.
- نحن: دم متساقط ، الجنين يأكل أحشاءك، ما ضر، كلنا ولدنا بالألم وحياتنا ابتدأت بصرخة. اصبري.
وتتأوه أمينة بعنف: خذني إلى الطبيب.
وتصرخ بها: وما الذي يفعله الطبيب؟
وعندما تلتمع عيناها ببلورات منفرطة يلسعك صمتها الحزين، هي لا تدري أن الاطباء بصقوا مبادئهم في أروقة الكليات، عاصروا الواقع بعد أن رأوا أن العربة تسوقها الأوراق الزرقاء: «اشتر لها هذا الدواء، وإذا لم تتحسن فعودوا مرة أخرى».
- ولكنك يا دكتور قلت ذلك البارحة وقبل وقبل وقبل.
وتعرفها بالطيف خدعة تتآمر مع الأحداث على جيبك.
أمس فقط يا للغباء أحسست بأن الآخرين كانوا قد طووا الأشرعة قبلك فاللآلئ، وسط البحار، لم تعد تشغلهم. وجدوا أن الربح كل الربح في بيع الأصداف. لم يعد السراق يستترون في سطوهم بالليالي.
- يا غريرة فلا تصلبي صدرك، ويبدو أن القاضي كان يعرفها مسرحية فليس هناك ما هو حقيقي بالعقد سوى ما قبضه وهو يبارك «اللهم ارزقها ذرية صالحة».
ولكن لم؟ لتزيد السراق أم لتزيد المعذبين؟
الصفقة خاسرة لا تربح منها السماء في كلتا الحالتين.
وهكذا تتجمع الأشياء ثم تبصق في وجه لطيف دفعة واحدة.
-بابا، بابا. وينبهك سمير من غفوتك.
- ها، ماذا؟
- نريد رؤية مدينة الألعاب، يقولون إنها حلوة، أريد ركوب الطبق الطائر.
- وتجيب ككل مرة: رأس الشهر، ويخنقك الكذب ولكنك مجبر.
ويجرجر سمير أذيال خيبته، ولكن العينين الصغيرتين لا تزالان تلتصقان بوجهك تلاحقك حتى بالصف.
وينقسم الطلبة فريقين.
من رأى مدينة الألعاب فليصفها.
وترتفع أكف بالعلة: أستاذ، أستاذ، أنا.
وتلتصق عيون بالرحلات وهي تخفي خيبة سمير، ثم تطلق العنان فيصف من شاهدها أو فليكذب من لم يشاهد. ويحتدم نقاش تتابعه

بخبث لذيذ:
- والله ليس فيها قرود ترقص.
- فيها، وأنا شاهدتها.
- ليس فيها. فيها.
ويتوقف النزاع.
وفي الفرص تطالعك وعود «لانتخابات». أمام الزملاء، تتعلق عيونك برجاء مهزوز.
وتتراكم أشياؤك دفعة واحدة ، ثم تبصق في وجهك، وتنتظر أن تمسح (النقابة) عنك عفونة البصقات. 1968

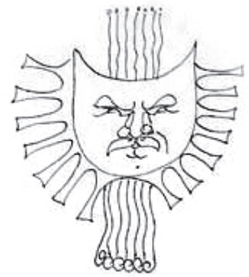

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

عقدة غوردوس

المزار

« إذا ضاقت بكم الصدور فزوروا القبور» فكر بهذه الحكمة وهو يشد حصانه «الرهوان» إلى العربة.
عجب لناس يجعلون من قبورهم منتزهات.
ومع هذا فحين اعتلى العربة وساق الحصان لم يتجه صوب العمل في سوق البلدة بل اتجه نحو القرية حيث المزار.
لقد حاول أن يعقد هدنة مع نفسه شهورا فلم يفلح منذ يوم ناشه سوط «الرائد» فوجد وكأنه مسؤول عن الظلم والطغيان في العالم كله؟
لقد عاش «شياع الأقرعي» ولم يعشق سوى امرأة واحدة «خسرها في أول نزال»، وما اتخذ سوى عربة واحدة، وما صاحب غير حصان واحد، وما عرف غير قبة واحدة.
حين وصل القبة الزرقاء أحس ببعض من عزاء وهو يستعيد طفولته.
ردد مع نفسه: إذا ضاقت بكم الصدور فزوروا.. لم يكمل. أحس بأن سياطا تلدغ روحه وهو يطلق على «خطوة» الدرويش الشيخ علي قبرا.
ألم يعد هناك أمل في نفسه في عودة الشيخ علي بعد أن غاب؟
منذ طفولة شياع الأقرعي وروحه تعيش قصة هذه الأسطورة أو الحقيقة «لم يصل إلى قناعة هنا بعد».
عاشت منطقته قصة درويش جليل كان كما تصفه الروايات لا يتخذ سوى الصوف ملبسا. يلبس عباءات صوف أثناء زمهرير الشتاء. يدب على الأرض كروح وسعيدون أولئك الذين ينزل في داراتهم ضيفا لسويعات لا يدري أحد متى ينزل ومتى يبارح. لا يترك خلفه سوى طيب ظل لنور صغير كنور شمعة، إلا أن كل ظلام الدنيا لا يستطيع إطفاءه في روح شياع الأقرعي.
في البداية كانت خطوة الدرويش علي تشكل منتجعا لرحلات صباه وعند سدرته كانت منتهى مغامراته وطموحاته. ظلال السدرة الوارف ونبقها يجد فيه طعم الجنة.
حين يخلو المزار من ضجة الآخرين يدلف أحيانا داخل المزار.
المزار لا يضم ضريحا كما في أضرحة بقية الأولياء فعند هؤلاء الناس لا يمكن أن يكون مزار الدرويش علي رمزا للموت بل رمزا للرجاء.
كان المزار باحة فارغة إلا من دك طينة يريح عليها المتعبون ظهورهم وعند زاوية الحضرة ترتفع رفوف تضم بعض كتب ورقى وطلاسم لم يستطع أن يحل شياع الكثير من رموزها في طفولته وإن كان يستمتع بالتطلع فيها دوما علّه يجد بشرى بثوب جديد للعيد أو بمهر.
أما حين كبر فراح يجاهد لدى كل زيارة إلى الخطوة أن يتأكد فقط فيما إذا ظلت تلك الكتب والرقم محفوظة أم ناشتها يد الزمن. لكنه يجدها دوما باقية وكأنها يحفظها ضمير جمعي لا يمكن تجسيده إلا بظواهر هذه الأشياء.
عجب وحفظ للمزار قدسية في ذاته الطفولية وحين كان يرفع كفه الساذجة دعاء بثوب عيد جديد ويصادف أن يحصل على هذا الثوب في اليوم التالي.
كان يغمره فرح إلا أنه آمن أن لهذا المزار كرامات يوم دعا ان يهبه الدرويش علي مهرا جميلا.

الحصان

كان يوما يقلّب الكتب المطلسمة فغرق في سمفونية الصمت وتاه فكره في حل متاهات هذه الطلاسم والإشارات وما أحس إلا شيئا بدأ يلحس أذنيه.
سكن أول الأمر ظانا بأن كذب الحواس من يلعب معه هذه اللعبة لكن ذلك الإحساس عاود ثانية. استدار ظانا أن واحدا من لداته يلعب معه الاستغماية لكنه فوجئ بمهر جميل يقف خلفه لاحسا أذنيه. خفق قلبه فرحا وتعلق في عنق المهر الجميل الذي شب معه وكانه يشاركه لذة هذا اللقاء.
كبر وكبر معه مهره الجميل أطعمه العشب الندي والخزامى وأوراق الحندقوق.
دربه على الوثب والركض الرهو وحين شب المهر رهوانا شارك به في السباقات وكسب العديد منها.
طارت شهرة رهوانه حتى امتزج شياع والرهوان تعبا بتعب وصيتا بصيت.
لا يأكل إلا حين يأكل رهوانه. حين يمرض يمرض وحين يصح يصح.
كانت أمه قبل موتها تردد: أيكما الحصان وأيكما الإنسان؟ لم أعد أميز.
لقد تعلمت من حصانك الصهيل وتعلم منك الخضوع.
دار بخلده أن يظل رفيق السهوب والبراري معتليا صهوة رهوانه.
طائرا على «براقه» إلى سماوات الفرح بعيدا عن سخام البلدة وهذيانها الأخرس مستمتعا بلذة الانتصار الأبدي.
هناك حيث يقوده رهوانه الرفيق إلى سدرة المنتهى الحقيقية حيث يريح قفاه متطلعا إلى سماء لا يلطخ صفاءها بشاعة سحب. وإلى

حيث يهرب إلى داخل روحه كي يتصالح معها إذ حين يمتلكها يجد وكأنه قد ملك العالم كله.
لم يعترف أن صوت رهوانه يمكن أن تلجمه أصوات المدينة أو أن تقيد انطلاقاته حبال إلا يوم وجد أن الحياة تضطره إلى منطقتها.
يومها أحس بنظرات الرهوان تلسعه حين وجد هذا أن حبالا بدأت تقيده.
أدار شياع الوجه عنه وهو يربطه إلى عربة الحمل. قال في نفسه من اليوم لم تعد ذلك الرهوان الذي عشقته السهب. لقد صرت مجرد كديش يشارك كدشان المدينة الأخرى مشدودا إلى ناعورة الحياة اليومية.
وفعلا فقد بدأ الحصان يفقد صهيله ويخف وثبه. كان مضطرا أن يلجم أذنيه كيلا تجفله زمورات العربات والأصوات الناشزة وأن يحجب بصره بغمامة إشفاقا عليه من بعد المسافة وثقل الحمل.
لقد كابد الحصان في حياته الجديدة وهو يجد نفسه وسط قفص كبير بعيدا عن نداء الأحراش واتساعها اللامحدود.
لقد بدأ الهرم يدب في قوائمه وفقد صهيله الفرح وحمحمته الغضبى ورفساته القوية. من كان يصفق ويلهث هتافا لفوزه بدأ يسخر من هزاله ويحتقر ضعفه وتردده.
في فترات متباعدة كانت الحياة قد تمنحهما فرصة للهرب إلى حيث المزار وهناك يطلق شياع الحصان من أربطته ويسرّحه فيثب هذا راكضا إلى حيث العشب الندي وأزهار الخزامى والحندقوق متذكرا في طعمها أيام الرهو الأولى وذكريات الحرية والانتصارات.
أما شياع فينشغل مع درويشه الطيفى منقبا في رقمه وكتبه الصفراء عن يقين ضائع. وقد يسمع صوته واضحا وكأنه يجيب عن سؤال الطيف:
- ما الذي أشغلك عني كل ذاك الوقت؟
- العيش، أملأ بطني تجدني قريبا منك أبدا.

الرائد

كانت بداية الصلة بين شياع الأقرعي والرائد ضربة سوط.
كان شياع من المؤمنين كثيرا بالحكم التي قرأها في ألواح الدرويش علي.
أفكار لم تعرف يوما للقيد طعما. خالصة إلا من نقاء البراءة الأولى وبكارة لم تفتضها عفة القناعات المهزوزة. قناعات الخوف.
ذكر حكاية السلطان الذي قال مجيبا على سؤال وجهه لندمائه فلم يجيبوا وألجموا:
قال: سألت من أنعم الناس عيشا فلم أظفر بجواب؟
إنني أرى أن أنعمهم عيشا بدوي ضرب له خيمة بعيدا عن الحواضر لا نعرفه ولا يعرفنا.
كانت البلدة قد امتلأت بحكايات عن قسوة الرائد الجديد وصرامته تلك الحكايات لم ترهب شياعا، فكر في نفسه: ولماذا أرهب وحكمة البداوة معي؟ لماذا أرهب شخصا لا أعرفه ولايعرفني؟ صاح به أحدهم يوما:
- لكنك لست عند خيمة في صحراء.
عصر كل يوم يختال لا رائد برتبته. يتفنن في اختيار زوايا وقوفه عند تقاطعات الطرق أو قرب مدارس الفتيات ذوات الإثني عشر ربيعا .
- كان لا يعجبه من الأدب سوى الجانب المكشوف من رواية «وليتا» وقد أدمن قراءتها.
صحيح أن الرجل حذر من أن يلعب بفكر مراهقة، إلا أنه واثق أن أناقة ملبسه ووسامة شكله محط نظر المعجبات. يكفيه أن يشرن إليه هاتفات:
- ها هو الرائد الجديد، ما أجمله وما أقواه.
يوما كان ممتلئا بهذه الأحاسيس يقف وقفة الصقر الجسور يملؤه الزهو كونه مرهوبا بمقدار ما هو مغر حين مرت به عربة شياع الأقرعي.
كان الحصان عائدا من نزهة المزار ما زال يملأ منخريه أريج أزهار الخزامى والحندقوق وتقوي روحه فسحة السهوب يتنفس هواء الحرية اللامحدود ويسمع نداء الأصوات الخفية في الفضاء فيكاد يطير. وكانت العربة تتقصف رعودا تحت رهوه ووثباته الجسور.
حين مرت العربة بجعجعتها العجول أمام وقفة الرائد لم ينتبه الحصان إلى ما أثاره من أتربة بوجه الرائد وقد عفرت له تاجه بالدقيق.
كلاهما حقه بالزهو. ليس هناك من أحد خير من أحد.
صاح الرائد وبصوت يختنق بالأتربة: قف يا حمار.
لم يوقف شياع العربة نزولا عند أمر، رغبة أن يصحح معلومات، الرائد ظانا أن الرائد قد شتم الحصان حين تصوره حمارا وقبل أن يفتح فاه بكلمة تقدم الرائد مسرعا فبصق بوجه شياع.
هتف شياع بغضب وهو يمسك بالرائد من ياقة قمصلته: لماذا سيدي؟
إن إبريق ماء يكفي لغسل وجهك من تراب العربة لكن مياه الدنيا كلها لا تمسح هذه البصقة من على وجهي.
اعتبر الرائد حكمة هذا «الحوذي» التي تعلمها من تعاليم الدرويش علي تحديا له فسحب كرباجه وساط به الحصان سوطا موجعا فهب الحصان كالملسوع.
أحس شياع وكان السوط قد نفذ في شغاف قلبه فهتف باحتجاج: آسفا. أأنت رائد وأمثالك من الرواد يصنعون الأمجاد لشعوبهم فيم تتسكع أنت مطاردا البنات.
حاول الرائد أن يتقدم من شياع لكنه أدرك من شرر عينيه أن هذا الحوذي لا يتورع عن الاشتباك معه أمام الناس بعراك فانسحب ماسا ملابسه مكتفيا بالأمر بحبس شياع.
حين خرج شياع بعد أيام من الحبس أحس وكأنه مسؤول عن كمية الظلم في هذا العالم طارحا عنه الحكمة البدوية من وقتها لم يعد ليدري لمَ لمْ يعد راضيا عن نفسه. أم لم تعد نفسه راضية عنه.

الزلزال

حين وصل المزار أوقف العربة تحت شجرة النبق ليريح «عبيان» من لفح الشمس. رفس الحصان عدة رفسات منبها شياعا كي يحل وثاقه. لكن شياع الأقرعي كان يشغله حزن عميق.
لم يلتفت كون رهوانه يتوق إلى نزهته المعتادة بين السهوب غير عارف بإن مياه الطوفان تغمر السهوب منذ فترة.
لم يعد يحمي المزار المتربع فوق نجد واطئ الارتفاع سوى سدة

الطريق الترابية التي مرت عليها العربة قبل حين من الجانب الشرقي وسدة من الجانب الغربي وعدا هاتين فلم يبق من الدنيا المحيطة بهما وبالدرويش علي سوى سماء وماء. لقد أغارت المياه فكسبت جولتها في فيض لم تشهده المنطقة جيلا مثيلا منذ حقب. وما زال تطامنها يهدد.

دخل شياع قبة المزار. لقد غاب عن وجه الدرويش فترة وها هو يعود إليه مستغفرا أم لائما لا يدري: لقد طفح كيل الشر.

تحسس أثر البصقة على وجهه لا أحد عاد تحز فيه تلك البصقة.

العالم لا يبالي به. يحتفل. يصفق. يضحك وهو وحده تكبله كوابيس الذل وتقيده انتظارات القطارات التي لن تمر بمحطته المهجورة.

لقد ضاعت هتافات مهرجانات الرهوان القديمة. ماتت دايات الفرح وامتدت مشاتل الحزن. لم يعد الرهوان ذاك الرهوان. بل مجرد كديش دجنته الاثقال.

أصمته نداءات المدن وزادت من حذره مزالق الطرق.

لماذا تكرر الحياة دورتها بهذا الشكل: موت، ولادة، موت؟

اتجه نحو كتب الدرويش علي وطلاسمه محاولا أن يجد فيها من خلال نبوءات الدرويش المغلقة مفاتيح القناعات وتبدل المبادئ كما تبدل القمصان؟

لماذا كانوا يصفقون في مهرجانات رهوانه حتى تلتهب الأكف وتجحظ العيون في محاجرها وتبح الحناجر؟ ولماذا الآن ينظرون إلى رهوانه فلا يجدون فيه سوى كديش هرم لا يستحق سوى الكراهية أو الاحتقار أو ربما قليلا من الإشفاق.

أين يا شيخ علي يكمن العيب أفيهم أم في الرهوان؟

حاصره الصمت المطبق داخل قبته ورجا فعلا أن ينهض الشيخ علي من غيبته فتحدث المعجزة.

هتف صائحا خارقا هذا الصمت: لا تذلني بكبريائك واكشف لي ظهورك أنا بك فكيف فكيف لا أراك؟

أنا لن أرى غيرك، فلم لا أراك؟

ما نفعي برقى وطلاسم وحروف لا تكشف لي الحجب ولا ترفع عن عيني رهواني الأستار. لم تركتني وسط هذا التيه؟

ألواح لا أقرأ فيها سوى قصص أم أساطير عن مدن لا مرئية تخرج من ليل الصحارى وعن سقوف لا تحملها عمد وعن أشجار تثمر فاكهة لا تلمس وعن حليب لا تنتجه أبقار وعسل من غير نحل وعن سكارى بغير خمور وعن راحة لا يسبقها تعب وعن أجواء لا قر فيها ولا قيض وعن وعن.

يا شيخ، لقد وهبتني مهرا وتركت لي عذاباته كديشا.

يا شيخ، من يزيل البصقة عن ذاتي، من غيرك، من؟

تحسس جبينه وقد تفصد عرقا وانطرح على دكة الطين مسترخيا بعد صراخ روحه الأبكم.

فجأة بدا كرفسات الحصان، حوافر تكاد تنبجس تحتها المياه وقيود تصلصل وتجعجع ثم ابتدأت حمحمة مخيفة يلفظها جوف الحصان الناري.

استيقظ شياع من هدأة الكرى على جموح الحصان وعجب.

هل استجاب الدرويش لتضرعاته فأعاد لكديشه سيماوات الرهوان الممحاة وأحيا عظام الأمجاد المنسية؟

أحدثت معجزة؟

خرج ليشارك في نشوات الحصان لكنه فوجئ لقد وجد على فمه زبد الرعب بدلا من رغوات الفرح، وسيماوات الخوف بدلا من استقبالات المواسم.

أذنان منتصبتان لهدير المياه القادم مياه ربما تتضامن لتغرق حتى قبة المزار.

من بعيد كانت السيول الجديدة تقتلع الشجيرات والزروع وتدفع بصدرها الأكواخ المتداعية، سيول تتجه إلى حيث تقف قبة الدرويش الزرقاء.

هتف شياع برعب صائحا: أخرج يا درويش الآن لا تدفن نفسك في بئر غيبتك.

سيجتاح الطوفان مزارك وستخنقك مياهه الآسنة إن كادت قد كفت في ذاتك مشاعر الخشية عليّ وعلى رهواني أكفت فيك مشاعر الخشية على نفسك ومزارك؟ أطلع عليها الآن اطلع وإلا فلن يتسنى لك من بعد أن تطلع.

راح شياع يهتف كالمجنون: اطلع ، اطلع ، اطلع.

كان رفس الحصان قد بدأ يشتد وأذانه تستلم نداءات الموت المقترب.

شد نفسه والعربة بقوة فانفلت بها راكضا على درب السدة.

أيقظت جعجعة العربة شياعا من ذهوله فانطلق راكضا خلف العربة.

كانت المسافة غير قريبة مما اضطر شياع معها على الاستمرار على العدو السريع وكان قد وصل متأخرا فتعلق بخلفية العربة المندفعة وراء حصان هائج مرعوب تجره نداهات النهاية.

قبل أن يتمكن شياع من الإمساك برسن الحصان كان هذا قد قارب ثغرة السدة التي أحدثتها اندفاعة المياه المتطامنة فاندفع فيها وهبطت العربة بثقلها كله وراء غلاسة عجلاتها في أطيان حمراء بلون الدماء. رفس الحصان محاولا أن يخلص قوائمه لكن رفساته القوية كانت تعمق غوصه في الطين.

رمى شياع نفسه قريبا من رأس الحصان. نزع عنه غمامتي عينيه ورفع رأسه فوق المياه مفكرا أنها الوسيلة الوحيدة كي يبقي فيه القدرة على مقاومة الغرق.

رفس الحصان بلا جدوى محاولا أن يخلص جسده من العربة كانت السيور مشدودة بإحكام ضمن عقد لا أمل بحلها في ظروف كهذه على الأقل.

حين يئس شياع من حل العقد المستعصية عاد ليرفع رأس الحصان فوق موج المياه.

حضن رأس الحصان رغم مكابدته أن يظل طافيا فوق المياه.

فتح الحصان عينيه فالتقت عيونهما، نظرات مستنجدة: من يستنجد بمن؟

من ينقذ من؟

ومع حاجته لمن يرفعه فوق وحل الطوفان وجد وكأن حدقة الحصان الدامعة تشي بالعتاب والرجاء والتأنيب، من يؤنب من؟

لقد تعادلا كفة ولم تعد حاجة لأحد منهما أن يكيل اللوم للآخر.

لقد اشتبكا حياة وموتا، انتصارات وهزائم، آمالا وخيبات.

ولأول مرة فهم الصوت بوضوح:

أيكما الحصان وأيكما الإنسان؟ لم أعد أميز.

أحس وكان دمعة حارة قد سقطت من عين الحصان على كتفه فطفق يبكي.

لأول مرة يبكي.

1998

كاتب من العراق

فائق حسن ←

لعنة الفراعنة

كوليت بهنا

فيصل لعيبي

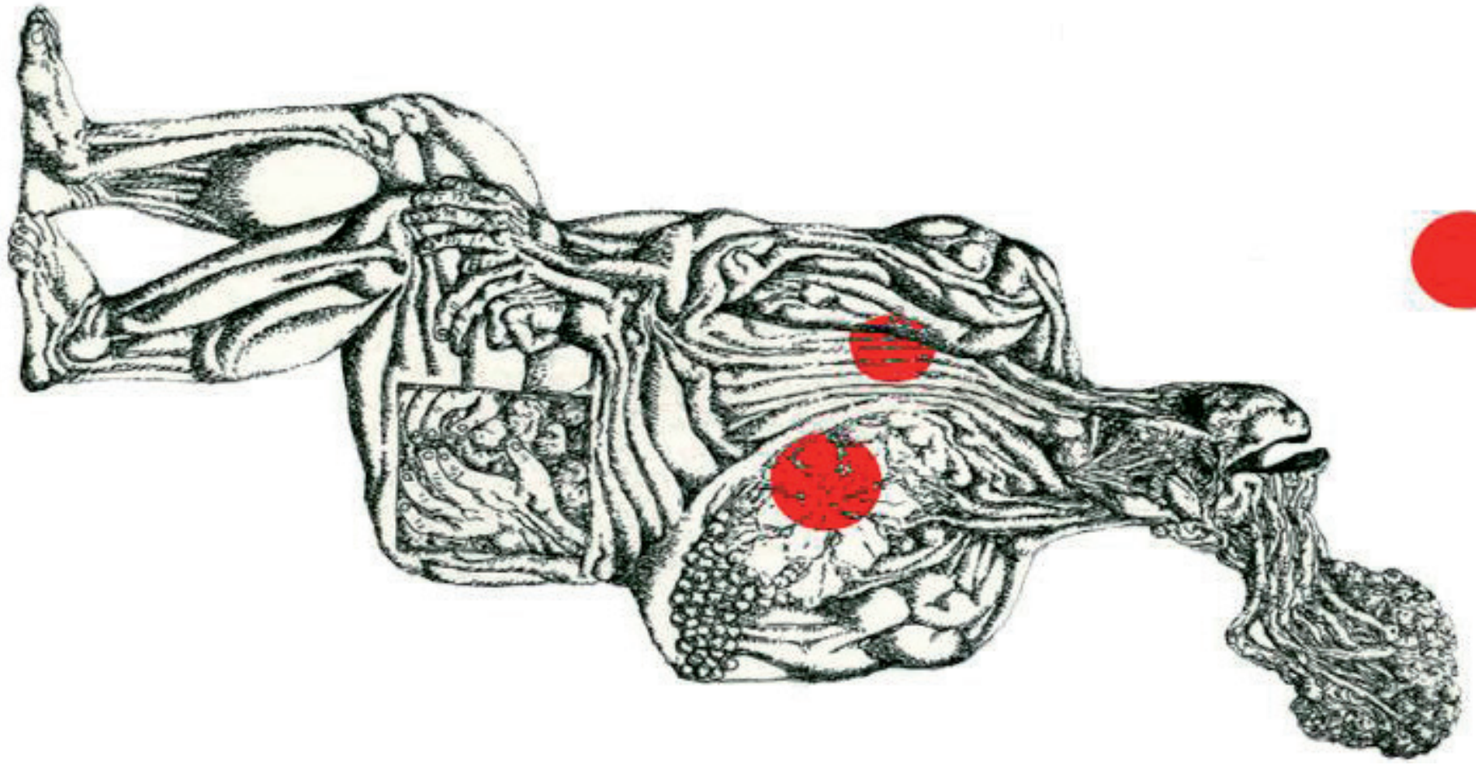

كنت قد عاهدت نفسي، منذ أن اعتلى الفرعون خوفو عرشه الإلهي، أن لا أشارك في أيّ نوع من أنواع احتفالاته التي يدعو إليها حاشيته والكهنة ووجهاء البلد في مناسبة أو من غير مناسبة. حيث يرقصون ويشربون ويعربدون ويضاجعون النساء وهم يأكلون في كلّ احتفال ما يقرب من ريع خيرات البلاد التي يشقى ويكدّ الفلاحون لجنيها خلال عام كامل، وما يتبقى من فتات طعام، يرمى إلى الكلاب وعامة الشعب الذين ينتظرون هذه الاحتفالات بفارغ الصبر. حيث يدعى هؤلاء العامة قسراً، لا للجلوس في صدر الاحتفال كما قد يعتقد البعض، بل لتنظيف الأوساخ المتراكمة التي يخلّفها أسيادهم، ومن بين هذه الأوساخ يعثرون بسهولة على بقايا طعام يكاد يفسد بعد سبعة أيام بلياليها مدّة كل حفل من احتفالات فرعوننا العظيم، خوفو.

وأنا؟

أنا لم أكن يوماً من حاشية الفرعون، ولا من الكهنة، ولا من وجهاء البلاد، ولا حتى إنساناً عادياً من عامة الشعب.

أنا ابن عرس، أو هكذا كنت أشعر بنفسي وأنا أنزوي في غرفتي الطينية المتواضعة التي أتقاسمها مع دجاجتين وديك وثلاث بطات، وفراش على الأرض وبعض الأواني الفخارية المخصصة للطعام التي أصنعها بنفسي وأبيع بعضها، وأعيش من أثمانها البخسة ما يكفي قوتي اليومي، وشراء بعض الأقمشة التي تدثرني، وثمن بعض المواد اللازمة لمهنة الكتابة التي أزاولها بشكل مستقل، وهي مهنة رابحة واستثنائية للغاية .

كيف تكون مهنتي رابحة واستثنائية وكيف أعيش في مثل هذه الفاقة التي وصفتها لكم؟

بالتأكيد. لأن مهنة مثل رسام أو راقص أو نحّات، أو عازف موسيقى أو مغنّ أو صاحب موهبة خطابية، أو مصمّم أزياء أو حذّاء أو طبّاخ أو شاعر أو كاتب مثلي، كلها مهنٌ كانت تلقى رواجاً كبيراً في عصري، والعاملون بها يعتبرون من الوجهاء الذين يدعون إلى مثل تلك الاحتفالات التي أخبرتكم عنها، ويجنون جرّاء حضورهم وما يفعلونه لاحقاً، أموالاً طائلة جعلتهم يأرقون كل ليلة وهم يفكرون أين يخبئون هذه الثروات، وكم عمراً إضافياً يحتاجون إليه كي يتمتعوا بما أنعمه عليهم فرعونهم العظيم. ليس لأن الفرعون خوفو كان ملهَماً ومحباً وعاشقاً للفنون، ويدرك جيداً أهمية دور الفنون في بناء الحضارات العظيمة، لذلك شجعها بكل ما أوتي من سلطة ونفوذ، أو دعمها لسماحة في نفسه ودعم كل العاملين بها وأغدق عليهم كل تلك الأموال الطائلة كما قد يعتقد البعض. بل لأن كل هذه المهن، أو بالأصح معظم العاملين بهذه المهن، كانوا مسخّرين بالكامل لخدمته وحده فقط، لا شريك له، وذلك برسم عشرات الآلاف من صوره، وتوزيعها على طول وعرض البلاد، وتعليقها قسرياً في صدور الدور الكثيرة، ونحت مئات الآلاف من تماثيله المصنوعة إما من حجر الغرانيت أو الطين المشوي والمطلي بألوان جذابة من المينا. تماثيل تجسد فرعوننا العظيم ممتطياً حصانه، أو امرأته، أو شعبه . لا أقصد هنا معاني ذات دلالات أو نوايا سيئة كما يحلو للبعض أحياناً أن يفسر، بل حقاً وكثيراً ما كان خوفو يمتطي شعبه الأبيّ، كلما همس في أذنه أحد الكهنة رسالة حملها من أحد الآلهة في المعبد، أو أحس الفرعون بحاسته المتفرعنة السادسة أنّ الشعب يتململ لأمر ما.

حينها يأمر بتجهيز محمله الذهبي الذي يرفعه فوقه أربعة عبيد كأنهم الليل، ويقرر القيام بنزهة صباحية مفاجئة بين عامة الشعب، بعد أن يسبقه بعض مخبريه، ويشيعون أن الفرعون قادم لتفقد أحوال الشعب المسكين. وقبل أن يصدق أفراد الشعب المسكين رواية المخبرين، يكون الفرعون قد صار بينهم، ليصابوا في كل مرة بصدمة عاطفية حادة، وتسود بينهم حالة هي مزيج من الإثارة والرعب، والحب والخشوع، فيتدافعون أمام محمله، يهلّلون له ويرفعون الأدعية إلى آلهة المعبد كي تحميه وتطيل عمره. ويسجد، أو بشكل أدق، ينبطح بعضهم في هذه الحالة، فيما البعض الآخر غير واع بسبب حالات الإغماء التي تصيبهم لشدة التأثر. من ثمة، وكمثل كل مرة، يقتربون من محمله يتلمّسونه ويتباركون به، ويحملون فرعونهم المحبوب على أكتافهم بعد أن تحنّن وأذِنَ لهم بإشارةٍ لعبيده السود. وهذه هي بالضبط لحظة امتطاء الشعب التاريخية التي حدثتكم عنها، والتي لأجلها، ينشط النحّاتون والرسّامون والشعراء والكتّاب والمغنّون والموسيقيون والراقصون، كلّ منهم حسب اختصاصه، بتسجيل هذه الدقائق العظيمة. دقائق غير عادية بالتأكيد من عمر خوفو، وعمر الشعب الذي تنسيه في كل مرة زيارة فرعونه المباركة سبب الزيارة أساساً، وينسون أيضاً أحوالهم المنسية .

وأنا، ولسوء طالعي الذي قادني أكثر من مرة بالمصادفة لأتابع بأمّ وأبو، عيني هذه الأوقات الصعبة من عمري، كنت أهرع وأختفي بسرعة قبل أن تلتقطني عين أحد المخبرين، التي لا تعجز عادة - كعين النسر - عن التقاط طريدة حقيرة غير موالية مثلي. وأدخل بعدها في مزاج اكتئابي حادّ يزيدني انكفاءً على نفسي، وعزلةً معتمة في غرفتي الطينية المعتمة، أسجل ما رأيت قبل أن تمحوه الذاكرة المرهقة، ثم أتأمل الأوراق التي دوّنت عليها مرارتي بمرارة أشدّ، لأنني كنت عاجزاً دوماً عن أن أحتفظ بمثل هذه الأوراق، أو أن أخفيها، أو أن أوزعها بين شعبٍ ميؤوس منه. فأكتفي مثل كل مرة بتمزيقها نتفاً، أبتلع بعضها كالسم، وأحرق بعضها، وأعجن ما يتبقى منها مع الطين الذي أصنع منه بعض أطباق الفخار الخاصة بي غير المخصصة للبيع، يحدوني أملٌ عظيم وأنا أفعل، أن تتحول هذه الفخاريات إلى لقىً أثرية بعد آلاف السنين من موتي، وتصل إلى يد أحفادي، فيكتشفون أسرارها المخفية داخل الطين العتيق بمساعدة أجهزة متطورة جداً لا شك أنهم سيخترعونها مستقبلاً، ويستفيدون من عِبَرِ ما جاء فيها، ليمنعوا أيّ فرعون جديد أن يمتطيهم.

الحديث عن مآثر الفرعون وما فعله وما كان ينوي أن يفعله، حديث يطول كثيراً كثيراً ويمتد إلى ما لا نهاية. لكن يبدو أن للحديث دوماً نهاية. إذ توقفت كل الكلمات فجأة ودون سابق إنذار، حين ساد صمت أسطوري عظيم في اللحظة التي أعلن فيها عن موت الفرعون المفاجئ.

مات خوفو؟

لاأصدق.

حقاً مات، وأصدق.

مات الخوفو الذي آمن الجميع، وأنا منهم، أنه منزّه عن الموت .

مات نبع خوفي وعتمتي.

مات محرّض كراهيتي وقلمي.

مات فرعون يأسي وقنوطي.

مات سبب عزلتي وفاقتي وانزوائي.

مات المقدَّس الذي عشت ألعنه.

مات المقدَّس الذي عشت ألعنه.

مات وتسبّب في لحظة لم أفهمها بذرف دمعة من عيني. دمعة لم أفهم سببها. لم أجد لها مبرراً. لم أفهم سببها. لم أفهم.

مات.

دمعةٌ تمنيت لو أفقأ العين التي سرّبتها.

دمعةٌ سالت مثل نهر من الحمم البركانية تحفر مجرى من العار فوق خدّي.

سالت مثل لعنة، مثل لعنة، مثل لعنة .

هي لعنة الفراعنة، تلاحقك مهما ابتعدت، وإلى الأبد.

كاتبة من سوريا

أرق

لطيفة باقة

أرق 1

كان عاطلو ووحيدو وقريفو الحي يراقبونني بسرّية وصمت وأنا أغادر… رأيت أشباحهم الخفيفة تتحرك خلف النوافذ ووراء الأبواب المنفرجة التي كانت تتسرب من خلالها حلقات من دخان سجائرهم. مقدمات أقدامهم تطل من عتبات الأبواب… الريح المتذمرة تلوّح بالأكياس البلاستيكية السوداء… وكان الزقاق مقفرا.

في الساعة الثالثة من ظهيرة ذلك اليوم كانوا شهودا على رحيلي، تماما كما كنت شاهدة هذه السنوات كلها على أرقهم خلال ساعات أرقي الطويلة التي لا تنتهي. استدرت برأسي مبتعدة وكنت ألتقط بعيني آخر حركة ندّت عن ستارة نافذة مغلقة… ورحلت.

أرق2

على الرغم من كوني قد أصبحت تدريجيا أحسب على آرقي ما بعد الثالثة صباحا، فأنا وإلى حدود الساعة لم أنتحر بعد… كنت فقط أغادر الفراش فجرا، أنتعل حذائي ثم أخرج من المنزل محدثا إزعاجا كبيرا لسكّان البيت السفلي النائمين، خصوصا عندما تأخذ بتلابيبي نوبة السعال إياها والتي تعقب عادة إشعالي للسيجارة الأولى.

أمّا "هي" فقد كنت أعلم أنها ليست أحسن حالا مني.. كانت مثل الآخرين تراقب بصمت ناقم وجودي الثقيل فوق الأرض دون أن تتدخل في تغيير مجرى الأحداث (التي لا تحدث أصلا)، كانت دائما هناك فوق السرير المشترك نفسه الذي شهد أيامنا التي لن تعود.. ألقي نظرة على الركن حيث يتكوّم جسدها الأليف.. أكاد لا أراها.. بل أشعر بها وهي تبدد ما تبقى لها من أيام منكمشة جنب جهاز المسجلة، مصغية إلى تلك الأوبرات القديمة.. التي تبدأ رتيبة قبل أن تصبح صاخبة.. ملاحم مرعبة تنقلها إلى أجواء العالم الآخر.. ذلك العالم الذي أعلم أنها تهيئ نفسها للرحيل إليه.

الزقاق مقفر.. الليل لم ينسحب تماما بعد.. بعض الأشباح المهرولة نحو مسجد الحي… أضواء تلمع هنا وأخرى تنطفئ هناك… لا جديد من شأنه تزجية الوقت في هذا الظلام… أشعل سيجارة أخرى… سيدبّ النهار بطيئا كالمعتاد… لم ينتحر أحد خلال هذا الشهر… ولم تلد أيّ امرأة طفلا آخر لتضيفه إلى باقي أطفال الحي… ومنذ مدّة طويلة لم يتعارك الجيران… فقط، ضجيج سعادة بعض الفتيات المخطوبات لجنود مجهولين، يشكّ كلّ السكان في عودتهم من ساحة الحرب… وأطفال…. الكثير من الأطفال… ما يزيد عن الحاجة.

أرق3

سوف أتحامل على نفسي و"أجمع" وقفتي المتهالكة الأولى لهذا اليوم الجديد في حياتي القديمة… ثم ألتقط حقيبتي لأشغال التريكو وأغادر المنزل…

أضع المفتاح الوحيد الذي لم نسع أنا و"هو" أبدا إلى الاستخراج عنه (في البداية بسبب شيء يشبه الحب، وفيما بعد بسبب الكسل وعدم الجدوى) أضعه أسفل مفرش الباب وأنا أفكر دائما في أرقي… ثمّ في أرقه… وأخيرا يسقط تفكيري المشوش كالمعتاد في شرك الموضوع القديم إياه، والذي لم أستطع أن أتخلص من التخبط فيه خلال عمر بأكمله: ماذا أفعل لكي أدفع "المشاكل" بعيدا عنّي قدر الإمكان حتى يتسنّى لي أن أعيش ما تبقى من أيام بلا ألم؟

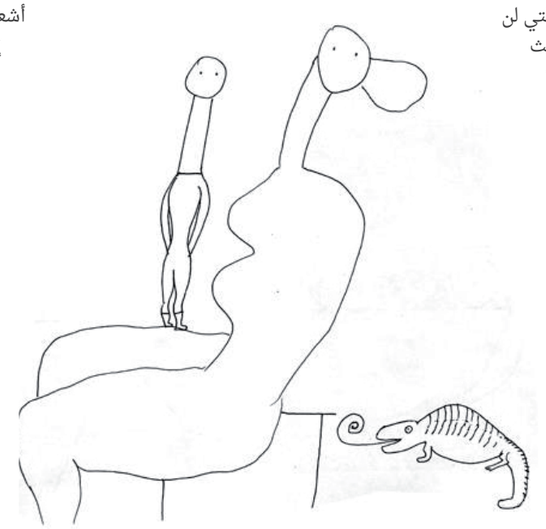

… أكره الألم… أكره المشاعر المسهدة…. "لهذا لم أحب أحدا في حياتي"… أقول لنفسي باسمة لأول مرة خلال هذا اليوم…

أشعر بشيء ما يشبه السعادة… إنني بصدد تحقيق اكتشاف كبير يتعلق بموضوع غاية في الأهمية: بعد كل هذا العمر من الزواج أفهم أخيرا السبب الحقيقي الذي جعلني أظل بعيدة عمّا كان يشغل الفتيات الصغيرات والزوجات الغبيات فيما بعد… ويقضّ مضجعهن (لا أريد أن أفكر فيما يقضّ مضجعي أنا) هو اكتشاف متأخر نوعا ما… أفكر.. لكن، لا بأس في ذلك… أن يحدث هذا متأخرا خير من ألا يحدث أبدا… ثمّ إنني لم أصادف في حياتي رجلا يستحقّ ذلك… أقصد يستحق أن أحبه.. لكني أظل أعتقد أن الأمر كان يتعلق بالأحرى بخوف غريزي تقريبا، من كلّ أشكال الانفعالات المحتملة التي قد يسببها لنا ارتطامنا بالآخرين في هذه الحياة.. جميع الأنواع التي يمكنها أن تسرق النوم من عيني أو تجعل خبز صباحي يفقد مذاقه. "أنا إذن، هي هذه السيدة العجوز بالجلباب البنيّ والمنديل الأبيض.. التي تمرّ في هذه الأثناء بظهرها المحني ورأسها المتجه نحو الأسفل.. أنا المرأة التي لا تنام.. لا تنام أبدا"، أقول لنفسي وأنا أرمق بنصف عين فتيان الحيّ الأغرار المحتشدين يتضاحكون أسفل عمود النور.

حسين جمعان

أرق4

لقد مات..

كان يعتقد أنه يستطيع إضافة زجاجة أخرى.. لكنه مات….

ضحكت… كنت أحاول طبعا، أن أبدو أقلّ وحدة مما أنا عليه.

عندما ينصرفون ينهمر الموت حولي مرة واحدة…

مشكلتي مع غيابه كانت تجعلني أستيقظ في الرابعة ليلا.. فأصاب بالفجيعة… ثم يشرع "الهلال" في أنينه…. أعرف حينها أنني تورطت فيه وأنني لن أستطيع العودة إلى النوم. أستسلم بضعف كامل لذلك الصوت الرهيب القادم من صومعة الحي… وأظلّ أتخبط داخل ذاكرتي….

كان حيّا هنا فيما مضى… وكان يعانقني بيديه ويلقبني بهرّته الصغيرة فيما أنا أمشط شعيراته الناعمة بأظافري…

في أحد الجرائد القديمة كتب أحدهم أن أرقي ما بعد الثالثة صباحا هم زبائن الانتحار المخلصين…

ثبتوا الكثير من "أعواد الند" على جوانب مفاتيح الكهرباء… أكره تلك الرائحة… رائحة الموت. أحب فقط رائحة النبيذ عندما كانت تمتزج بأنفاسه… وكنت أهمس له:

هذه الرائحة تحولني إلى قطة متوحشة…

نظاراته وولاعته تنامان الآن في درج المطبخ… كأسه ذو الساق الطويلة تقف في مواجهتي فوق الصوان… ينبغي أن أحلّ مشكلتي مع غيابه… مع كلّ هذا الخواء الذي خلفه رحيله…

- أنا امرأة منتهية.

أنظر إلى وجهي في المرآة…

كانوا يضحكون… يتحايلون على ألمهم… يحاولون جرّي نحوهم… نحو صخبهم… لكنهم يرحلون دائما.

أتابع ضوء سياراتهم وهو يتضاءل مبتعدا…

أنين المقرئ يتضاءل أيضا… ينسحب من صمت الليل..

- كيف سأتصرّف وحدي مع كلّ هذا الموت؟

التفتّ حولي…

… لم يسمعني أحد.

كاتبة من العراق

دعوة مفتوحة

الجديد

تدعو الكتاب والمفكرين العرب
إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

كتابة الاعتراف
اليوميات والسيرة الذاتية

حال الكتاب العربي
كيف تنشر الكتب
في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

النقد والوعي النقدي
لماذا تراجع النقد وماذا حل بالوعي النقدي
في الثقافة العربية

الاستبداد الشرقي
دور الحاكم المستبد
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب
هل وصل التجريب الشعري العربي
إلى حائط مسدود

الرواية النسائية العربية
هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل
أم أن اللغة بلا جنس

الكتابة والجسد
الجسد والجنس في الإبداع العربي المعاصر

الصحافة الثقافية العربية
أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء

فكر حر وإبداع جديد

قصتان

لنا عبدالرحمن

آنهيمالا

قررت آمنة -وهذا ليس اسمها الحقيقي- الذهاب يوم الأحد إلى المسبح. أقنعتها صديقتها فرحهالو، بأن المسبح يوم الأحد يكون فرصة لأشياء كثيرة، لعل أهمها من وجهة نظر فرحهالو مواعدة شباب مناسبين للرفقة والتنزه طوال اليوم. أما آمنة فقد بهرها حديث فرحهالو عن المسبح، وعذوبة الماء، ورقص الفتيات قرب حوض السباحة، والوقت الضائع في الاسترخاء المفقود.

العائلة التي تعمل عندها آمنة اختارت لها هذا الاسم بدلًا من اسمها الحقيقي «آنهيمالا»، فقد غير سيد البيت اسمها لأنه صعب ولن يتمكن هو والأطفال من نطقه بسهولة، كما طلب منها أن تضع غطاء الرأس على شعرها، لكنه لم يمنعها من الذهاب في يوم الأحد إلى الكنيسة، لأداء شعائرها. وكما لو أن عبارة «للمرء حظ من اسمه» انطبقت تمامًا على آمنة، إذ بعد حصولها على الاسم الجديد صار لديها نوع من الإيمان المتدفق، حيث لا يمكنها أن تفوّت يوم أحد من دون الذهاب للكنيسة والاستماع للقداس، والصلاة أمام تمثال السيدة العذراء، والتضرع لها. وبعد الانتهاء من الصلاة، كانت تتسكع طويلًا في الشوارع، وأحيانًا تتعرف بخادمات أخريات في الكنيسة أو الشارع، فيترافقن معًا إلى شاطئ البحر، ليتنزهن هناك، حتى موعد عودتهن في الساعة الرابعة، بما أن الأحد هو اليوم الوحيد الذي يسمح فيه لهن بالخروج من البيت.

لكن آمنة في معظم الأحوال لم تكن تغيب لوقت طويل يوم الأحد، فقد كانت تغادر رفيقاتها بعد ساعة، أو ساعة ونصف الساعة على الأكثر، لأنهن يبدأن بالتغامز والاتفاق على مشاريع بدت غامضة بالنسبة إليها في أول الأمر، لكنها عرفت فيما بعد أن حياتهن في هذا البلد الغريب، تسير بجهد مضنٍ يجعلهن ينتظرن يوم الأحد بفارغ الصبر، كي ينفسن عن رغباتهن المكبوتة.

تركت آمنة في بلدها البعيد، زوجًا، وطفلًا صغيرًا، ربما لهذا السبب لم تكن مقتنعة بمشاركة رفيقاتها باللهو، لذا كانت مخلصة في عملها، وفي صلاتها أيضًا، هذه هي المرة الأولى التي تغادر فيها بلدها نحو بلد غريب، هي لم تعمل سوى في حقول الشاي، وجاءت إلى هنا بناء على عقد عمل مدته عامان، لا بد أن ينتهي في وقت ما، وستعود حينها إلى بلدها وأسرتها، ومعها مبلغ جيد من المال. وحتى ذلك الحين، هي مستمتعة بالطعام اللذيذ الذي تحصل عليه، وبالمبيت على سرير نظيف، وبإجازة يوم الأحد. كان ما يزعجها فقط نوبات السعال التي تسبب لها الحرج أمام أفراد الأسرة.

سيدتها، كانت امرأة ذكية، فقد سمحت لصديقتها فرحهالو التي تسكن في المبنى المقابل بزيارتها مرة أو مرتين في الأسبوع، كي لا تلتقيها آمنة بعيدًا عن أعين العائلة، حيث تحدث أمور بين الخادمات لا أحد يعرف أين تنتهي. تعرفت آمنة إلى فرحهالو عبر البلكون، في البداية ظلتا تتبادلان الإشارات لأيام، ثم التقتا في الشارع حين كانت آمنة تشتري أغراض البيت، وحين عرفت سيدتها أن فرحهالو تعمل عند عائلة مجاورة ومعروفة، أي أنه لا يوجد خطر من لقاء الخادمتين. سمحت لآمنة بالتزاور مع فرحهالو، وبالترافق في الذهاب معها إلى الكنيسة يوم الأحد، على الرغم من أن زيارة الكنيسة لم تكن ضمن مشاريع فرحهالو المفضلة ليوم الأحد.

خلال الزيارات، كانت الخادمتان تجلسان في المطبخ، وتقوم آمنة بعملها خلال وجود فرحهالو، إلا أنهما كانتا تتخاطبان بلغتهما التي لا يمكن أن تفهمها السيدة بأيّ حال من الأحوال، وغالبًا ما كانتا تشكيان لبعضهما سوء تصرفات السيدات، وغرورهن، ولؤمهن، وشرهن المتأصل في معاملة الخادمات، بالإضافة إلى الشكوى من الأطفال وتربيتهم الفاسدة، كما لا يخلو الكلام من الشوق والحنين إلى البلد البعيد، والأهل والزوج الصابر بانتظار عودة زوجته.

كانت آمنة سمراء، بلون الشوكولا البنية، نحيفة جدًّا، وقصيرة، لا يوجد أي جزء بارز في جسدها، شعرها قصير، ملامحها أقرب إلى الغلام، لذا لا يمكن إعطاء سن محددة لها، من الممكن أن تكون بين الثامنة عشرة والثلاثين. أما سنّها حسب الأوراق الرسمية، فقد كانت 23 عامًا، وحسب أقوال أمها 24، لكنها لا تهتم كثيرًا بهذا التفصيل المبهم. لعل أكثر ما يعنيها الآن، البقاء في هذا العمل، لأنها رغم كل ما تعانيه في عملها هذا يظل أكثر رحمة من ساعات عملها الطويلة تحت أشعة الشمس في حقول الشاي.

فرحهالو كانت أكثر جمالًا منها، رغم أن لونها بني أيضًا، لكنه أكثر لمعانًا، كما أنها تتمتع بقامة فارعة نسبيًا، مقارنة بآمنة، لديها مؤخرة بارزة وخصر نحيف، وساقان متناسقتان. وكان في عيني فرحهالو بريق وجرأة واضحة لا تخفى على أحد. في المقابل، كانت عينا آمنة مثل نور خفيف شاحب لفأر أسمر مذعور.

كان الذهاب للمسبح يوم الأحد في أيام الصيف، المتعة المفضلة عند فرحهالو، متعة لا يمكن الحصول عليها إلا مرة أو مرتين في الشهر لعدم قدرتها على دفع رسم الدخول للمسبح، وما يتلو ذلك من مصروفات إضافية ثمنًا للطعام والعصير، حيث الثمن مضاعف في المسبح.

انعكس انتظار يوم الأحد على آمنة أيضًا، نتيجة تشجيع فرحهالو لمرافقتها للمسبح. أوضحت لها أنها تحتاج إلى شراء مايوه، كما تحتاج إلى نفقات الدخول للمسبح، أي أن الأمر كله سيصل إلى مبلغ 50 دولارًا تقريبًا، ما يعادل ثلث راتب آمنة. لكنها بعد تردُّد دام أسبوعين، وافقت على الذهاب، وأعطت فرحهالو المال لتشتري لها المايوه. كانت تحس بالغضب لأنها علمت من أمها أن زوجها روبير يسهر كل ليلة في البار، ويرافق الفتيات إلى بيته، وأنه لا يسأل عن

أنس سلافة

ابنهما، وينفق المال الذي ترسله له على متعه الشخصية.
أمام المرآة، في الحمام، كانت آمنة ترتدي المايوه الذي أحضرته لها فرحهالو يوم السبت، كانت تستعرض جسدها في المايوه المكون من قطعة واحدة، من اللونين الأخضر والأصفر، مفتوحة عند الظهر، لأول مرة أحست بأن جسدها النحيل ولونها الأسمر لا يسببان لها إحساسًا بالدونية، غمرها إحساس بالامتلاء، وبأنها جميلة، بل جميلة جدًّا، وبأنها يجب أن تذهب للمسبح كلما تمكنت من ذلك، مثل فرحهالو تمامًا.
كانت السيدة هي التي لاحظت وجود بقع دم على منديل آمنة، راقبتها أكثر من مرة وهي تسعل بشدة، ثم تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك بقع دم تندفع من صدر خادمتها كلما سعلت. أخذت السيدة قرارها بإعادة آمنة لمكتب تشغيل الخادمات، لكنها كانت بحاجة إلى سبب قويّ يمكنها من إعادة الخادمة ومحاولة استعادة المال الذي دفعته لإحضارها من بلدها.
في الصباح الباكر من يوم الأحد، طلبت السيدة من آمنة أن ترتدي ثيابها لترافقها إلى المستشفى، حاولت السيدة أن تشرح لها ضرورة الذهاب إلى المستشفى لإجراء التحاليل اللازمة، لكن آمنة هزت رأسها بالرفض، موضحة أن اليوم هو إجازتها الأسبوعية، ولا يحق للسيدة أن تفرض عليها شيئًا، كانتا تتفاهمان بمزيج من اللغات والإشارات، حيث لا توجد جملة كاملة من الممكن أن تفهمها إحداهما من الأخرى. فقد اكتشفت السيدة أن آمنة لم تعترض من قبل على أيّ نوع من الأوامر أو التعليمات، لذا لم تكن تدخل معها في جدل، أما الآن وهي تحاول إقناعها بخطورة الموقف، فقد ارتفع صوت آمنة عن مستواه المعتاد لأول مرة منذ دخولها إلى هذا البيت. كانت آمنة تتحدث بصوت مرتفع، وبعبارات متتالية، بلهجتها المحلية طبعًا، التي لم تكن السيدة تفهم كلمة منها، لذا لم تفهم أبدًا حكاية المايوه والمسبح، وما اتُّفق عليه بشأن يوم الأحد، لم تفهم أي شيء إلا بعد أن اندفعت آمنة وعرضت في وجه سيدتها المايوه بلونيه الأخضر والأصفر، ثم خرجت مندفعة خارج البيت وبيدها المايوه.
ربما فهمت حينها أن آمنة كانت تقول لها: «ماذا أفعل بالمايوه.. ماذا أفعل بالمايوه». أما السيدة فقد ظلت تنظر بذهول إلى باب الشقة المفتوح، وإلى منديل أبيض عليه بقع حمراء من الدم، ألقته آمنة على الأرض قبل أن تغادر.

البحر يتجه شمالا

تلك الطفلة، أخبرته بأنها فقدت والدها، منذ زمن طويل. حكى لها أنه فقد والدته أيضا. بكيا معًا. لم تمسح دموعه، ولم يطلب منها أن تتوقف عن البكاء. ظلا في مكانهما، صامتين، يرنوان نحو البعيد، وينتظران مضيّ العاصفة.
كان كل منهما يستعيد ذاكرته، بتعاطف مشوب بالحاجة إلى رؤية الآخر أكثر سلامًا، لكن خلال سيرهما على الشاطئ المليء بالحصى، لفت انتباهه طرف ثوبها الوردي المشغول بخيط رفيع من الدانتيل، كان طرف الثوب يلامس الحصى. راوده احساس أن ذاك الحصى مبتهج الآن بملامسة حافة الثوب له.
«كلنا بحاجة إلى البوح، لتنظيف جراحنا»، هكذا قالت له.
سمع هذه العبارة مرارًا، لكنه أحس بأنها المرة الأولى التي يسمعها بلا نغمة مكررة. لم يسألها كيف فقدت أباها، ولا باح لها بحكايته، بل أخبرها بأنه سيقص عليها ماذا فعل به البحر.

* * *

حينما كنت صغيرًا، كانت أمي تأخذني معها إلى البحر. لم تكن هناك مواعيد محددة لذهابها، ربما كانت تستغل الأيام التي يغيب فيها جدي أو يسافر إلى دمشق، ثم كانت تطلب مني ألّا أبوح أمامه بأننا ذهبنا إلى الشاطئ.
الوصول إلى البحر يتطلب منا أن نعبر مسافات طويلة، من بلدتنا في بعلبك إلى بعلبك المدينة، ثم إلى شتورة، مرورًا بزحلة، ثم ضهر البيدر وصوفر وبحمدون وعالية، نمر بكل الطريق الجبلي الطويل قبل وصولنا إلى بيروت كي نلتقي رجل البحر. الرجل الذي يشتري لي البيبسي والشوكولا، ويعد لها وجبة من السمك المقلي في بيته الصغير المطل على البحر، لم يكن بيتًا على ما أذكر، كان أشبه بالكوخ.
ما إن نصعد إلى سيارة التاكسي حتى تتناول من حقيبتها شريط كاسيت، تمد يدها إلى السائق وتطلب منه أن يضعه. كانت أغنية عن البحر أيضًا. كنت أرى السعادة تثب من عينيها، وهي تحتضنني وتقبلني على جبيني وخدي وتسألني إن كنت أحس بالعطش أو الجوع. تناولني زجاجة عصير أناناس، وقطعة من الشوكولا وتطلب مني أن آكلها.
حين يراني رجل البحر برفقتها، يرفعني عاليًا على كتفيه، ويركض بي على الشاطئ قبل أن يضعني على الرمل وينزع عني ثيابي. يقول لها إن علي تعلّم السباحة منذ الصغر، لكنها تطلب منه أن يدعني وشأني. لم تكن ثيابي تتناسب مع الرمل ولا مع الشاطئ، كنت طفلًا أنيقا كما أراد لي جدي أن أكون.
في المرة الأخيرة التي زرنا فيها رجل البحر قالت له إنها ستتأخر في الحضور إليه، وربما ستتغيب لوقت طويل، لأن جدي لن يبتعد خلال المدة القادمة ولن يغادر إلا للإشراف على محاصيله الزراعية. طلب منها رجل البحر أن تترك أباها وتأتي لتعيش معه. نظرت حولها إلى الكوخ وقالت له إنني سأدخل إلى المدرسة هذا العام.
أمسكني رجل البحر من يدي، فبدت يده ضخمة جدًّا مقارنة بيدي الصغيرة، ثم قال لي إن شعري يشبه شعره. كان شعري أسودَ وكثيفًا مثل شعره، لكن شعره كان طويلًا يصل إلى أول رقبته.
حين عدنا إلى بيتنا في بعلبك، وجدنا جدي ينتظرنا، عاد باكرًا من سفره هذه المرة، كنت أغني أغنية البحر، ارتجفت حين رأيته.
عادة هو لا يتحدث معي كثيرًا، لا يلاعبني، كان صامتًا أغلب الوقت.
اقترب مني وسألني: «أين كنت؟».
قلت له إنني كنت عند البحر.
ومن رأيت؟ سألني بتجهم.
حكيت له عن رجل البحر، وعن يديه القويتين اللتين تحملانني، وعن شعره الأسود الذي يشبه شعري.
بدت عيناه كتلتين من جمر ملتهب، تحرك نحوها أمسكها من شعرها، هزها بعنف شديد وهو يقول لها:
«منذ خمسة أعوام ذهبتِ إليه، إلى من بصق في طعامنا، وكانت هذه النتيجة».
قال هذه العبارة وهو يشير بسبابته إليّ، أحسست بالفزع، التصقت في الزاوية.
«سأقتلك»، قالها لها وهو يضع يديه حول عنقها، وهي ترفسه محاولة التملص منه وهي تصيح في وجهه:
«أنت دمرت حياتي.. دمرت حياتي».
كان يشدها محاولًا خنقها بيديه وهي تحاول الهرب.
من على الحائط خلفها تمامًا أخذت الفأس المعلقة للزينة، الفأس التي يفتخر جدي بأنه ورثها عن والده ويعلقها في صالونه كتحفة نادرة.
ضربة.. ضربتين.. ثلاثًا.. دماء تسيل على الأرض.
قتلته هي.
هكذا حدث القتل.
هكذا كان اليوم الأخير.
اليوم الأخير الذي رأيت فيه رجل البحر، ورأيت فيه أمي، وجدي.
ذهبت أمي إلى سجنها، وذهب جدي إلى مثواه الأخير، ولم أرَ رجل البحر مرة أخرى، حملني خالي معه إلى البرازيل ليبتر كل خيوط ذاكرتي، ليشكلني على هواه. أنا الشاهد الوحيد على كل ما كان.. أنا طفل رجل البحر، ما زلت أذكر حتى الآن أغنية أمي، تلك الأغنية البحرية عن رجال البحر. لكن أنا الآن هنا، أمام بحر بعيد، غريب، ليس له صلة مع ذاكرة بحر آخر.
«هل آلمتك حكايتي أيتها الصبية؟».
لم ترد. انحنت لتلمّ الحصى الصغير عن الشاطئ، ابتسمت وهي تمد يدها اليمنى نحوه، بينما يدها اليسرى تقبض على الحصى، ثم قالت:
«دعنا نمضي من هنا، من أمام هذا البحر الغريب. سوف نمضي نحو شاطئ رملي، لكن دعني ألقِ قبضة الحصى من يدي قبل البوح بحكايتي، كي أحكي ماذا فعل بي البحر أيضا».

كاتبة من العراق مقيمة في القاهرة

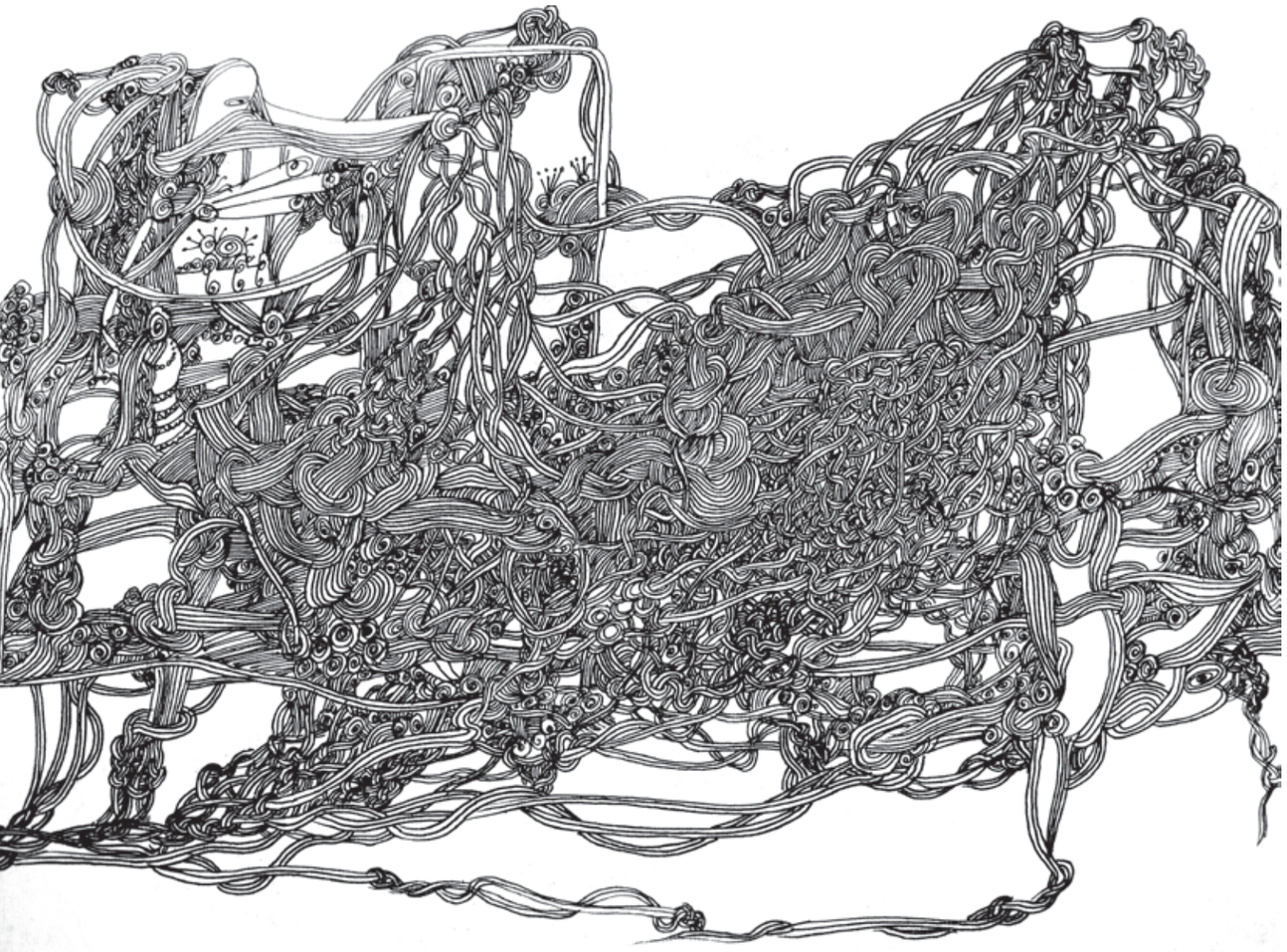

محمد عبد الرسول

خطوتان للفرج

لينا محمد

عبرتُ الحُدودَ إلى اللا سوريا مع عشرات الأشخَاص في أحدِ التّشرينَين.

باستِثناءِ حَرارتِه التمّوزيّة، كان يَوماً عادياً، بِما في ذَلِك الامِيغ، التي تَحسبُها تُقدِّم عَرضاً بَهلوانياً احتِفالاً بإبعادِك عنْ مَساحةِ سيطَرتِها، ورَغبةً مَكبوحةً لبَعثرتِك تَحت رُكامٍ وابِلها، فيما لو أنك أبعدُ قَليلاً عن الشِّيك.

فحتّى الآن (عَددُ شُهداءِ دَرعَا حَوالي تِسعةُ آلافِ شَهيدٍ، ربّما نِصفُهم قتَلتْهُم هذه الامِيغ، ولا ضَيرَ مِنْ جَعْلِهم تسعةَ آلافٍ وسيّارة، والحقيقة أن شيئاً ما في داخلي كان يتمنى أن تفعَلَها، فأنا لا أخشى الموت.. أنا أخشى أن أترهلَ في غربتي وأفقدَ الرغبة بالشجاعة، أن أراقب موت أصدقائي على شاشة حمقاءَ عاقر، وأجهَدَ في إقناع نفسي أني فعلتُ الصحيح.. وهربت.

ما هذا الموت البطيء الذي فضّلته؟

حاجزُ النّصرَة الذي اعترَضَ طريقَنا، كانَ أيضاً حدثاً عرَضياً. كلّ ما هنالِك أنّ هيأتي أثارتْ شيئاً في نفوسِهم، هكذا أخبرَني الحَجّي ().

سألتُه بثقةٍ ساذجة: مين قائدهم الميداني؟

همسَ مُنوّهاً: هَطول غير جماعة الغُوطة، خَلّي الشّباب يَتْصَرّفون.

وأردفَ مازحاً: كِيفِش مع الرّكَظ؟

تسمَّرتْ عيناي على حِذائي الرّياضي سوريّ الصّناعة، مُنقذي وحليفي الذي لم يُخْذلني يوماً.

ولكن.. ممن أهربُ؟ المِيغ.. أو حاجز النصرة، الموتُ خيارٌ جيدٌ عندما تتقنُ اختيار قاتِلك.

يا إلهي.. لو كان جهاد () مكاني ماذا كان ليختار؟ كان يقول إنه وقتُ المصابرة.. لا بدّ من المصابرة.. آآخ يا جهاد ما الذي ذكرني بك الآن؟! لا أريد أن أضعف بافتقاد نفَسِك وصوتِك.. فهذا الفقدان..موتٌ بطيءٌ آخر!!

اخترق الحجي دماغي: لا تخافين.. هذول ما بيوكلو بنات.. لو هُمّا خامْين () كانن ذبحوش قبل ما يسألو عنش. أدارَ محرك السيارة، وتابعنا طريقنا إلى المنفى. وما زلت أفكر: تباً لهذا الهرب ولهذا الاختيار.

في ذلك اليوم،عندَ الشّيك، كان العشراتُ ينتظِرونَ تبديلَ وطنٍ. ضُيِّقَ عليهم. بخَيمَة.

عشراتٌ، وقبلُهُم عبَرَ آلافٌ، جَمعوا على عجلٍ ما استطاعوا من أحلامٍ بربقِجة، وترَكوا مَا تَبقّى مِن حُطامٍ لذَاكرتِهم وتفَاصِيلَ حَياتِهم ودِماءَ أبْنائِهم.

عَشراتٌ ينتظِرونَ.. وأنا منهُم.

عبرتُ الشّيك.. عَلى مودِ ضَابِطَ مُخابراتٍ لا يشبهُ بِهيأتهِ أحَداً من الضّباط الذين استقبلوني في فُروعِهم.. لم يَلبسْ حِذاءً رِياضيّاً.

هذهِ المرّة، كانَ لِيَ الامتياز بارْتِدائِه.

* * *

زرتُ عمّانَ مراتٍ عديدة (قبل الثورة).

لم أنوِ رؤية ما يعجبني فيها. تعاملت معها كأني في مكتب صرافة.

لكن الآن.. سيكون التأقلم مع مكان فُرِضَ عليك، ليسَ سهلاً.

بادئ ذي بدء سيلفِتُ انتباهك هذا الفائض الهائل من الكهرباء والأكل والدواء. أين العدل من هذا الإسراف المرضي في استهلاك كل شيء؛ سيكون إحساسُك الداخلي، هكذا: رفضٌ مكبوتٌ حيناً، وصريحٌ أحياناً لأيّ مُقارَنة.

كلّ شيءٍ في تِلك البلاد -التي هجرَتْنا- أجملُ، مَشتى الحلُو أجملُ من عَجلون، وتدمر أجملُ من البتراء، وبُصرى أجملُ من جَرش، والبدروسيّة أجملُ من أم قَيس، واللجاة أجملُ من وادي رَم، وأين برتقالُ الساحلِ من هذا البُرتقال الغوراني!

عندما تَصحو ستعرف أنّ الجَمالَ لا هَويةَ له. لكن إدراكَه يتطلبُ الاعترافَ الكاملَ أن هَذا المكانَ لا يهاجُمك، ولا يكرهُك، ولا يعني التّخلي عن انتمائِك للجَمالِ المطلقِ الذي أُرغمتَ على تَركه.

في التاكسي يسألني السائق: سوريّة؟

أنظرُ إلى حذائي السّوري، وأردُّ: نعم.

- والله يا مدام كُنا ننزل سيران ع سوريا (أشرد عن هذا الكلام المكرّرِ الأناني، نصفُ شعبنا لا يعرف من السيران إلا الجندي المجهول وبزر دوار الشمس، الآن هذا النصف.. إما لفّه التراب.. أو لَفّته الخيمة).

- أسبوع آكلين شاربين نايمين، ونجيب اللحمة واللبس وَلِك حتى المي، ونعبّي بنزين للسيارة، وكُلّه بـ100 دولار()، الله لا يوفق إسرائيل خربَت البلد، وانحرمنا من كُل هاظ.

أفكر: لا بدّ من "إسرائيل" لتبرير كل شيء؛ وكأنها الحقيقة المطلقة الوحيدة. كالموت تماماً.

إلا أن إسرائيل.. لم تقتل شعبها!

أرد: لا تواخزنا معلم.. نزعنالك السيران.

ذلك السائق لم يرض أن أدفع الأجرة.

* * *

التسكعُ في هذهِ المدينةِ ليسَ سيئاً، ميزتُها أنك أينما وقفتَ فأنت على جبلٍ، وتطل على جبلٍ. سيغريك مشهدُ الطائرات الورقية المتقابلة بين التلال. وكشخصٍ خرج حديثاً من بلاده التي احتلت الميغ والسوخوي سماءها، ستحسبُها تنفذُ غاراتٍ وهمية، قبل أن تلمح من بعيدٍ طفلاً يحاول عبثاً مسك الحبل السري لتلك الدورقة.

ستغريك الأدراجُ المطابقة حدّ الالتباس لدرجات جادات المهاجرين، وستغريك الأزقة الضّيقة الهاربة من الشّيخ محي الدّين، وسيغريك الحجر المرصوف على الأرض، ودعوةٌ مفتوحةٌ للمشي حافياً.

سيغريك تمازج مقام الكرد للمؤذن المقدسي، مع السيكاه لأطلال أم كلثوم.. لأطلالك.

رندة مداح

ستغريك طاولة الزهر التي تشبه بتفاصيلها الشام القديمة، بما في ذلك صراع الأحجار البيضاء مع السوداء، في مشهدٍ يعيدك إلى باب توما، وستغريك طرطقةُ النرد.. وتهليلةُ الفائز: خشب.. خشب!

ولكن..

عندما يتسلل تمنّي (لو أني في دمشق)، ستُطلق كل دفاعاتك لتُبعدَه. لتنفي هذه الحقيقة التي تشبه، في كل شيء، الكذب؛ حقيقة أنك الآن هُنا..

هُنا اللاّ مَكان.. لنْ يَعنيكَ كلُّ هذا الجَمالَ الّذي حولَك.. فَهو لَيس جمالَك، ليسَ لَك.

* * *

دخلتُ إلى (إسكافيّ) لإصلاحِ حذائي السّوري، لم أجرُؤ يَوماً على رمْيه، كان بمثابةِ إثباتٍ لجِنسيّتي، بعدما فقدَتِ الأوراقُ قيمتَها.

تفحّصه، كطبيب يحاول جاهداً إنعاشه: هاظ وضعو صعب، ما ظل مكان للدرزة، يعني إسمعي: إذا بدي أرَكّب الظبان لازم أشيل ألف طبقة، كم ظبان راكب فوق بعظ!! وحتى لو.. ما هو النعلة مهترية، والكعب.. فش كعب!!

للحظة، حسبته يتحدث عني، حيث كل ذكرى، كل جرح، وكل واقعة مدونة بأطرافه، كلُّ طبقةٍ توثّق لمرحَلة، لحالة. كلُّ خيطِ دُرزٍ له حكاية، هل يعرف أنّ هذهِ النّعلة اهترأت مِن كَثرةِ الجَري تفادياً للقَنص!

- طيب معلّم بطّلت.. حقك على راسي.. أنت ما دخلك بس يعني تذكرت شغلة.. برجعلك إنشالله.

خرجتُ، بعدما تفوهتُ بهذه الفوضى الكلامية، وأنا أمسك حذائي كأن أحداً حاول مسخَ تاريخي، اغتصابي وسلب هويتي.

* * *

خمسُمئة وعشرون يوماً، مرّت على وجودي هنا.. اعتدتُ هذه الشّوارعَ التي أصبَحت صديقَة، أعرفُ تفاصيلها وكأني عاصرتها دهراً، أزاود على سائقي سيارات الأجرة بمعرفتي للطرق المختصرة، أفاصلُ أصحاب المحلات، أميّزُ الأماكنَ التّي تؤيّدُ المؤامرةَ منَ التي تعارِضُها.

خمسُمئة وعشرون يوماً، أراقب اهتراء حذائي وروحي، وأخشى استبدالهما يوماً بسلّة غذائية أو جَواز سفر.

خمسُمئة وعشرون يوماً، القهرُ يأكل من قلبي كما القط يأكل صغاره. أبحث بين صور شهداء التعذيب عمّن انتظرتهم طويلاً، لأنهي هذا الانتظار، وأجهد في إقناع نفسي بالعودة، أفكر، أتحمس، أقرر.. أخاف، أتراجع، وأقنع نفسي، ثانيةً، إني فعلتُ الصحيح.. وهربت.

وعندما يسألني أحدهم: ماذا بعد الأردن، تركيا.. أم أوروبا!

يخرس لساني عن القول.. وأنا أردد في داخلي: تباً لهذا الاختيار.. تباً لهذا الاختيار.

كاتبة من سوريا

حب الحياة

ماهر منزلجي

ولدت سوزان ديفيس في السابع عشر من نيسان/أبريل. أعرف هذا، وأعرف تاريخها الصحي بالتفصيل وعنوان إقامتها، وأعرف طولها ووزنها، ورقم هاتفها واسم طبيب العائلة الذي حوّلها إليّ. كل ذلك في سجلها الذي بين يديّ.

بعد السلام والكلام، والفحص السريري المدعّم بالصور الشعاعية، وضحت شكوى مريضتي وأسبابها وتولدت خطة العلاج. أما "متى تسلم الأمانة وتمضي؟" كما في تعبير غير محليّ، فسؤال جوابه ليس في الأوراق التي معي، وجهلي بقراءة الكف، لا يسعفني بمعلومة مفيدة في هذا الخصوص! غير أن مريضتي التي فتحت الموضوع بطريقة أو أخرى، تطوعت في المحاولة. جاء ذلك تداعياً لعزائها بوفاة والد زوجتي في الأسبوع الفائت.

في ومضة مؤلمة، عبر صفحة ذهني وجه أسمر لطيف لم أعتد غيابه بعد. أمضى حماي في المستشفى ثلاثة أسابيع تدهورت فيها صحته من يوم إلى يوم، ومن ساعة إلى ساعة. إلى أن، تحت سمعنا وبصرنا العاجزين عن رد القضاء، غامت عيناه تحدقان إلى لا شيء، ووقف الشهيق والزفير في حنجرته وجهاً إلى وجه. وكثمرة منهكة، سقط رأسه على الوسادة بلا حراك. بعد ذلك غطيناه بشرشف أبيض اللون، ونقش أحدنا كلمات حب ووداع بما تيسر من ورود حزينة كانت تراقبه من مزهرية قرب السرير، نثرها بحرص، فوق الجسم الضعيف. أوشكت ألتقط صورة بهاتفي النقال، لكن دموعاً غشيت عيني وضغطت على رقبتي كف قوية. من غرفة الانتظار، وصلت أصوات بكاء وعويل، ما زلت أسمعها.

تعيدني سوزان إلى الزمان والمكان الصحيحين، تعلن بثقة "عندما تسوء الأمور، لن أتردد في محاولة الخلاص من نفسي!"، تفاجئني فيما كانت تنتصب واقفة. شجعتها على الإيضاح رغم ضيق الوقت. كانت الستارة الرقيقة جداراً سميكاً بيننا نحن الاثنين، وبين من ازدحمت بهم الغرفة الكبيرة في المستشفى الجديد الذي قام على أنقاض مستشفى "القديس إستيفانوس" حيث بدأت عملي منذ سنوات. ولقد خطف "القديس" لون الخرنوب من خصلات شعري، وتكفلت الأيام بما بقي منه، لكن ذلك "مؤال" آخر!

استندت السيدة ديفيس إلى كرسي قريب وتابعت "لم يعد عندي ما أسعى لإتمامه. لقد قمت بما عليّ. كبرت بنتاي وتزوجتا، وولدت كل منهما أكثر من حفيد، ومنهم من تزوج أيضاً. ماتت البنت الكبيرة بالسرطان منذ سنين، لكن زوجها وابنتيه لا يزالون جزءاً متيناً من الأسرة. الفتاة الثالثة التي تبنيناها، زوجي وأنا، ممتازة وبارّة ولا ينقصها شيء. تركنا زوجي إلى العالم الآخر، إن كنت تؤمن بهذه الازدواجية الشائكة، بعد مرض قصير! لم يتعذب بفضل الأدوية المسكّنة وعناية الطبيب. أخي المصاب بمرض عصبي يمنعه تقريباً عن الكلام، لا يملك حريتي. إنه مأخوذ بعلم الحساب والرياضيات وله فيها أبحاثه ومؤلفاته، ولا بد له من تجرع كؤوس حياته المرّة، إلى أن يُتم كتابه الأخير ويراه مطبوعاً ويتأكد من انتشاره. أما أنا فطائر خفيف ظريف، جاهزة للسفر في أيّ يوم مشمس أو ماطر، قبل يوبيل الملكة الماسي، أو بعد انتهاء الألعاب الأولمبية، وتقاسم الميداليات في ملاعب لندن، أو في أيّ وقت مناسب آخر!".

أختلس لحظة أحدق في عينيها، لا أرى أثراً لحزن توقعته، أو دموع حسبتها جزءاً مكملاً للمشهد الدرامي. كان فيهما احمرار طفيف يخبر عن تعب وشيء من إجهاد لا علاقة له بحديث القلب إلى القلب الذي كنا نخوض فيه! كذلك فشلت في تبين ذكرى جمال مضى، إلى حيث يمضي الجمال، لا دليل على إقامته يوماً في وجهها، أو على تسكعه قريباً منه! كانت ودوداً أقرب للنحل، ولا شيء غير ذلك.

" لم وكيف تتخلصين من نفسك أيتها الأحجية، هذا ما قلته أليس كذلك؟" أستفهم مستوضحاً. تمسك يدي مؤكدة على بساطة الأمر، وعلى استعدادها لشرح مطول سأعلم لاحقاً أن لا خيار لي فيه. وبدأت تحل خيوط خطتها. "المبدأ الأساسي ينص على ضرورة تحضير كل شيء وأنت في حالة صحية معقولة، لأنك لن تستطيع القيام بالكثير عندما تصاب بالوهن. لا بد من الدقة والإتقان. لا سريّة في هذا، ولا تبعات قانونية بشرط أن لا يساعدك أحد في الإعداد والتنفيذ".

"أيّ مبدأ وأيّ تحضير وتنفيذ؟ ممّاذا تشيلين وتشلحين وماذا تتقنين، أيتها الشيطانة الشمطاء بحق الإله!؟ أوشكت على الصراخ مستزيداً، غير أن صمتي كان أعلى صوتاً من أسئلة مباشرة بتلك المعاني الحائرة!

"لقد درست الأمر وقارنت الممكن من بين الخيارات الموجودة لإنهاء حياتي العزيزة. كان الاحتمال الأول هو اللجوء إلى شراب محضّر بنسب دقيقة، يشبه النوع الذي يعُد للقطط والكلاب الغالية عندما يحين وقت الخلاص منها، وهو شبيه بالأدوية المستعملة في المراكز السويسرية التي يرتادها الموسرون من أنحاء العالم، للحصول على تذكرة عبور تأخذهم إلى حيث لا عودة. علمت أن المادة الأساسية في ذلك المحلول تباع بسهولة في كندا وأميركا. المحزن في الأمر أني طلبتها أكثر من مرة من أكثر من مصدر، ولقد وعدت خيراً كل مرة، لكنّ أحداً لم يف بوعده. على أيّ حال لعله اختيار غير عملي، فلعلي لا أنجح في شرب ما يكفي من السائل الفعّال بالسرعة اللازمة، فأجد نفسي لست هنا ولست هناك. ثم بعد أيام أو شهور يتعين عليّ إعادة المحاولة، وبذل مزيد من الجهد والمال، وحرق مزيد من أعصاب قد لا أملكها عندئذ. لقد وجدت الحل الأفضل في الاحتمال الثاني. إنه الهيدروجين العظيم، بحرف الإيتش الكبير الساخن، المتوفر في المحلات التي تبيع لوازم الأفراح والحفلات، يا للمفارقة! لقد اشتريت منه أسطوانة متوسطة الحجم. إنه يستخدم في العادة لنفخ أعداد

فيصل لعيبي

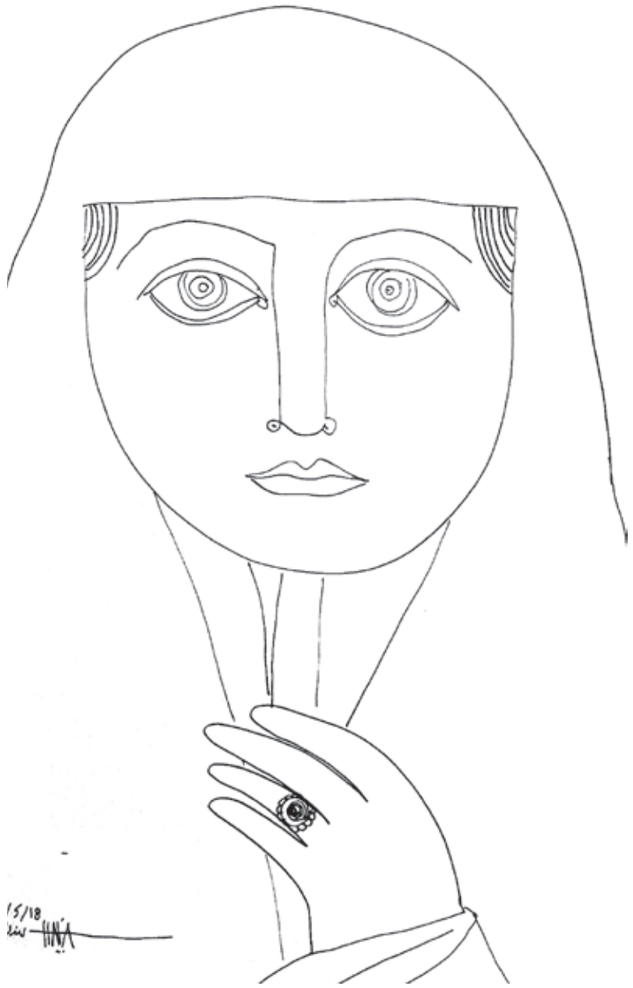

كبيرة من بوالين الزينة دفعة واحدة. أليس هذا مثيراً بحد ذاته؟ سأكون بالوناً خفيفاً في ساعتي الأخيرة، أو عدداً من البوالين الملوّنة السعيدة، تطير بروحي العزيزة إلى حيث تطير الأرواح! أما جسمي المسكين، فليحرقوه ولينثروا ما بقي منه في أيّ مكان فسيح. هذا هو شرطي الوحيد. أنا لا أطيق حبساً في حفرة في التراب، ولا إقامة في زجاجة منسية مهما كان شكلها ولونها بعد تجميع الرماد. ليت زوجي الغالي، بعدما انطلقت روحه مع دخان سيجارته الأخيرة، من بين أضلاعه أو من خلال أسنانه السوداء، اختار الانعتاق والهواء الطلق. إن رأيي ليس مطابقاً لرأيه، بل كما ترى على النقيض منه. يختلف الأزواج يا صديقي حتى في الموت، ولم لا؟ أستطيع التعايش مع ذلك بكل سهولة، كل شيء عادة!".

ظننتها ستتبسّم، ولو بمرارة، لكنها تصفعني من دون إبطاء. "كاد غاز النيتروجين يكون اختياري الأول من بين الغازات بسبب فعاليته المجربة كما قرأت في صفحات النت، لكن صعوبة الحصول عليه ألغته من حسابي في وقت مبكر. طبعاً في كل الأحوال لا بد من تأمين خرطوم طويل وتحضير كمامة مناسبة تغطي الأنف والفم، وسلك مناسب لربطها بإحكام على الوجه. بعد ذلك، بحركة أخيرة ناجحة، يتسرب الغاز الخانق بيسر وأمان إلى الصدر القديم، ولا يضيع منه شيء في الهواء. يسعدني أن كل هذه اللوازم الأساسية موجودة عندي. أطمئنك أني أتفقدها وأنظفها بانتظام. لحسن الحظ ما زلت أحتفظ بلياقتي الميكانيكية التي اكتسبتها من قيادة سيارة الإسعاف زمن الحرب الأخيرة".

أخذت نفساً عميقاً بدا لي أنها تأخرت طويلاً في التقاطه، ثم أعلنت بصوت مختنق "أعرف بماذا تفكر، بالطبع أدخلت في حسابي الغاز العادي، البريتش غاز، غاز الطبخ وتسخين الماء، لكني أقول لك، إني غير مرتاحة له أبداً، رغم امتلاكي عدداً من أسهم الشركة التي تبيعه وتجني لي بعض الأرباح. لقد تلاعبوا في تركيبته أكثر من اللازم وأكثر مما يعنيهم، وأزالوا معظم خصائصه السامة التي أبحث عنها، الضرورية لي إلى أبعد الحدود. لم يعد عندنا للأسف الشديد، في هذا المضمار العلمي ما نعوّل عليه أو نفتخر به. كم يحزنني ذلك!".

مرة أخرى لم تبدل في سحنتها الجادة. كانت مأخوذة تماماً بما تقول، بل ربما بصور من عالم المستقبل الباهر تراها بكل وضوح. وكأنما تحرك لساني متسائلاً عن بعض الجوانب التكميلية، وكنت على وشك أن أفعل، فاستأنفت من دون انقطاع "نعم أولادي وأحفادي أيضاً يعرفون بخطتي ونواياي، ولم يعترض أحد منهم، وما كنت لأسمع أيّ اعتراض على أيّ حال. قالت ابنتي سارة، عندما تقررين أن الوقت قد حان وتنوين التحرك الفعلي باتجاه الرحيل الأكيد، أعطيني إشارة بذلك لأضمن لك أني لن أطلبك بالهاتف، أو أفاجئك بزيارة تلهيك عمّا أنت فيه. سأتركك يوماً كاملاً تنفذين فيه برنامجك الهام على راحتك، ثم أطرق الباب في اليوم الذي يليه. وعندما لا يجيبني أحد، أفهم أن كل شيء تمّ كما ترغبين، فأخرج من حقيبتي المفتاح الذي لم أستعمله منذ مدة طويلة، أديره في القفل وأدخل بهدوء. سأكون مسلحة بمنديل صغير قد تكون بانتظاره دمعة أو دمعتان. أكملت ابنتي المُرضية، أعرف أنك لا تحبين الضجيج أو المغالاة ولا تشجعين التعبير بالدموع! ثم ذكرتني أن لا أصعّب الأمر على أحد وأن لا أوصد الباب من الداخل.. لا تلهي رجال البوليس أو الإطفاء بأمر عائلي صرف بعد فوات الأوان. كانت تلك وصية سارة، هل أنت شديد الإعجاب بها، إنها متزوجة كما قلت لك؟!".

كانت السيدة ديفيس تتحدث بمنتهى اليسر وبرودة الأعصاب، مع تركيز تام وانطلاق مثير، وأخيراً مع شيء من المزاح الجاف. هل كانت تحاورني من طرف واحد، أم تراها كانت تفحص خطتها أمامي بصوت مرتفع؟ المؤكد أنها لم تكن تبحث عن أتباع وتلاميذ يسيرون على خطاها ويتعلّمون منها، أقنعت نفسي بذلك وأرحتها بصعوبة! غير أن سوزان لسبب أو آخر سرقت اهتمامي من دون اعتراض أو مقاومة. بل إنها قصّت وأسهبت، بتعاون وتحريض من طرفي لا مجال لنكرانه! على أنّي لم أعلن رأياً في مشروعها، للحق والأمانة لم تطلبه. بدأت وأفاضت وانتهت ولم تسمع مني موافقة مشجعة

أو اعتراضاً مخالفاً. وحول هذه النقطة الأخيرة بالذات بدأت أشعر بقلق خاص..
كنت أصغي بحذر فيما كنت أملأ الاستمارات اللازمة تحضيراً لعملية تبديل مفصل ركبتها المتآكلة. اليسرى أم اليمنى؟ كدت أسجل الجانب الخطأ، ثم تداركت الأمر. استأذنتها مقاطعاً مغيّراً مجرى الحديث، لأشرح مضاعفات الجراحة واحتمال نجاحها، كما ينتظر مني ويتوجب عليّ أن أفعل. فجأة أخذت تصغي باهتمام لكل التفاصيل، واستفهمت عدة مرات كمن يدخل في عقد بيع أو يقدم على شراء حاجة ثمينة، والأمر شديد الشبه بهذا وذاك. غير أن الدفع والكلفة لا يدخلان في الحسبان، من طرفها أو طرفنا لا من قريب ولا من بعيد. البركة في هيئة التأمين الصحي "أم المريض وأباه" التي لا تتقاضى أجراً مقابل أيّ علاج مهما غلا ثمنه وثقل حمله. وبالتالي لن تبيع سوزانتنا المغامرة، لغريب أو قريب، حق البناء المستحيل فوق سطوح منزلها القرميدي المائل، ولن تقايض على عدة الخلاص التي جمعتها قطعة قطعة لليوم الأخير. كذلك لن يكون عليها أن تلمس قرشاً واحداً من حصيلة العمر!
وافقت "الزبونة" على كل شيء آملة أن لا يطول انتظارها فعندها الكثير من المناسبات التي لا تطيق أن تضيع منها، بسبب الألم وصعوبة الحركة. ثم أشعرتني بإيماءة واضحة عن استعدادها لتقفز من جديد في بحيرة الكلام التي كانت تسبح فيها براحة كاملة إن رغبت. ولقد رغبت بالفعل وشجعتها مستوضحاً. "هل تصنفين نفسك مع المصابات بالكآبة بدرجة أو أخرى، مما يدفعك لترك هذه الدنيا كما سبق الكلام؟" كان لا بد من محاصرة "البطة" في البحيرة الجافة لتتبّع شيء مهم في ذلك الاتجاه، أقله تقدير جدوى العملية الجراحية التي وقّعنا عليها بالأحرف الأولى. ولقد فعلنا ذلك بين اختيار غاز سام على حساب غاز آخر، وبين تفقد أجهزة الاختناق وإغلاق وفتح باب الدار، بعد فوات الأوان.
"لا تُسئ فهمي أرجوك. إني لا أعاني من أيّ مشكلة نفسية على الإطلاق. إني سعيدة بما أنا عليه. أحب الحياة وأحالها تحبني أيضاً. أشرب السيدر، عصير التفاح المخمر باعتدال، أحرص على تناول الخضار والفاكهة، أقلل من اللحم الأحمر، أفضل الدجاج والسمك. أتعاطف مع النباتيين وأفهم دوافعهم الحيوانية، أعني الإنسانية، غير أني لست منهم. أمشي كل يوم، ما لم تقعدني ركبتي اللعينة، على ضفة النهر وقت الغروب وفي الصباح المبكر. أمسك يد زوجي سيدني ونتبادل الحديث من دون صوت، لم نعد نختلف أو نتشاجر. أعتني بالحديقة أقلّم أشجار الورد وأقتلع الحشائش الضارة. أتابع النشاط المسرحي، وأدخل السينما بقدر ما تسمح الظروف. أزور قبر سيدني مرتين في الشهر، وأحمل له وردة حمراء ووردة بيضاء، لكل منهما معنى خاص نعرفه نحن الإثنان. لقد امتد زواجنا لأكثر من أربعين سنة".
"ما الذي سيحرك فيك الهمة لتنفيذ هذا العمل الفدائي الغريب؟" أطلقت سؤالي من دون تأخر خشية تبديد التركيز، مصدقاً في لحظة نشوة أدبية، أني ملكت المجد من طرفيه، وأضفت بنجاح منقطع النظير هواية القص والكتابة التي سترفدها قصة مريضتي ويغنيها حديثنا وراء الستارة، إلى المهنة التي أعتاش منها والتي تكسبني ثقة الغرباء.
أجابتني بسرعة من حضّر الجواب قبل سماع السؤال. "إذا وجدت نفسي في حالة مخزية لا تسمح لي بالتمتع بالحياة الجميلة، كما أحبها وكما أرغبها، فلن أطيق الاستمرار حبيسة الجدران التعيسة، أراوح بين المطبخ والتواليت وبين السرير. عندي كل لوازم الرحيل كما شرحت لك، وسأرحل غير آسفة أو مترددة. أرجوك لا تربط بين ما أقول وبين إجراء العملية وحاجتي إليها. إني من ناحية أخرى لا أطيق الضغط على أحد ولا أرضاه لإنسان. بالمناسبة، أنا لست ثرية، لكني أملك شيئاً من المال. سيكون هذا مفيدا للبنات، سيساعد في تخفيف دين بيت، أو دفع قسط سيارة، على أن ذلك لا يحتل المركز الأول في اهتمامي".
كان ضرورياً ومفيداً سماع ما سمعت، لمحاولة الاستجابة الصعبة لرجائها بعدم الربط بين أمرين مرتبطين بالتعريف، إلى أن يثبت العكس. بعد ذلك كان من السهولة بمكان العبور إلى ما يليه. ولقد تسلقت عدة أسئلة ظهر لساني استعداداً للقفز في أيّ لحظة، غير أن تلك الاستفهامات المتحفزة أصيبت فجأة بالشلل وتبخرت في هواء خيبة غير متوقعة. فقد أعلنت سوزان "الخائنة" ما لم يكن منتظراً أبداً في تلك المرحلة المتقدمة، وما لم يكن منسجماً مع الجو العام الذي كنا فيه، وإن وجدته مخلصاً ومريحاً. قالت بصوت يشوبه حزن وانكسار "على أيّ حال يبقى التنفيذ الفعلي هو الاختبار الحقيقي وما عداه كلام في كلام، فربما في نهاية اليوم لا أقوم بأيّ شيء من كل ما ذكرت".
انزاح حمل ثقيل عن ظهر الطبيب الذي يحكمني، وصدر الإنسان الضعيف الذي أدّعي التنصل من سطوته. أدركت أني تورطت بسرعة مخجلة وصدقت الزهرة الرقيقة، في لغتي الأصلية على الأقل، في ما لا يصح أخذه على محمل الجد. وها هي "سوسن" ديفس القهرمانة "بعظمة لسانها"، من دون أن يرفّ لها جفن فوق أيّ من عينيها الضيقتين، تحنث بوعدها وتقلب ظهر المجن لكل ما التزمت به. ها هي النيسانية العاثرة تترك الخريف والشتاء وتقفز من جديد إلى معسكر الربيع! لقد ضحكت عليّ، هذا هو كل شيء، فليكن!
لكني بسرعة غريبة وجدتني أختلق لها الأعذار.. لعلها لا تملك جرأة الإقدام على ما أسهبت في وصفه، أو لعلها خيالية مخادعة بالطبع، ولم أجدها مذنبة في هذا أو ذاك، فقد ملكت على الأقل جرأة التراجع والإعلان عنه!
نفضت يداً محتارة أسقط في يدها، ومددت أخرى سحبت بها طرف الستارة. فتحت باباً أخرج منه، أو نافذة أقفز منها. غير أن مريضتي العزيزة تابعت مهملة كل ما كان ينهش رأسي، وما كنت أخوض فيه "أعني بعد كل العناء والتحضير، قد أسقط مدهوسة تحت عجلات باص أو قطار" ومشت مبتعدة.
تجري وراءها فكرة متأخرة، تناديها بحزن وألم... لماذا تعقّدين الأمور يا أم فلان؟ الموت أبسط من ذلك بكثير. أستدرك شارحاً، على الأقل في بلدي العزيز، الذي يحتفل بعيد الجلاء عنه، يوم تحتفلين بعيد ميلادك في السابع عشر من نيسان. بلدي الذي يموت بنجاح "رائع كل يوم ألف ميتة!

*قاص وطبيب من سوريا مقيم في لندن

جبل الحكمة

محسن يونس

جربت مرة في عمري دخول تلك الحجرة التي يسمونها "التخشيبة"، ليس مهما هنا بيان الأسباب، فهي ليست مهمة، ولكن لها دخل بموضوع تلك المرآة، كانت المرآة قطعة من مرآة أكبر تكسرت إلى قطع كثيرة، وهذه منها، ألصقها بالحائط واحد من المحتجزين، وكان كل فترة ينظر إلى سطحها، ويمسد شاربه، ويربت على تسريحة شعره المسرح للخلف، وله سوالف طويلة ذكرتني بموضة السبعينات عندما كنت في مقتبل الشباب، كنت أبتسم في كل مرة يفعل ذلك الفعل، كلما رأيت هذا التناقض بين اهتمامه بوسامته وبين ما نحن فيه من حبس، إلى أن ضبطني، وطالت زغرته، تراجعت على نفسي، وأنا أفكر ماذا أفعل لو تجاوز؟
مر على ذهني بسرعة أن أكذب كذبة تصرفه عني، لم يفتح عليّ عقلي بكذبة، وتعسرت، كنت أنظر إليه وتتحرك شفتاي دون أن تخرج منهما أيّ كلمة، كنت في عنت ورهق، ولا أجد وصفا لحالي من الكلمات إلا هاتان الكلمتان، وكان عقلي الذي تعطل عن إمدادي بكذبة يعمل في منطقة أخرى، فهو يقول لي إن الكلمتين قديمتان ومعجميتان، ولكنه أنار وأهداني هذه القصة في ثوان، وها أنا أقصها، فرقت الزغرة وأصاغ المحتجز السمع مع بقية من في التخشيبة :
اشترى رجل من المياسير مرآة اتقاء لشرور قائد جند الأرناؤط - وهؤلاء كانوا أيام حكم محمد على باشا - في الليلة السابقة نَقَبَ قائد الجند هذا مع جماعةٍ من أهله جدار متجر الرجل الميسور في سوق الجمالية ونهبوه، ومن نكد دهره عليه أن هذا الأرناؤطى باعه البضائع المسروقة من محله، ونقده مبالغ أعلى من سعرها وهو صاغر، لم يقف أمام هذه المرآة يوما، فقد كانت تذكره بهوانه وقلة حيلته، كما أن قصره يمتلئ بالمرايا، وضعها الخدم هناك في نهاية ممر ينتهي بجدار لا نوافذ له، ولده الوحيد وعزه ومنتهى أمله هو من كان دائم الزيارة، أعطته المرآة في البداية ألعابا أبهرته، كانت صناعتها مغشوشة الصقل، على الصبي فقط التحرك أمامها، فتظهر له أذنيه على سطحها في الطول مثل أذن الأرنب، وأنفه زلومة فيل، وإذا مط شفتيه رأى شفري جمل، وإذا مد ساقه ورفس بها ظهرت ساق حمار، الخلاصة وجه مشوه بالكامل أضحك الصبي في البداية، بعدها تأكدت الرغبة في الحصول على وجه يماثل وجه المرآة، طوال عمره الذي عاشه لم يرض عن ذلك الوجه الرباني الممنوح له بقدرته، ولم يحمد للطبيعة أن منحته وجها متكامل الملامح، لم يرتح إليه لأن المرآة قالت إن العيب دافع مستمر يدفعك للحصول على الكمال، هل يمكن لأحد أن يوجه له اللوم في بذر بذوره مستقبلا، والانتماء إلى طبقة المياسير التي تقدم الوزير، والعالم والكاتب، وتقدم المجنون المحتجز في المورستان، وتقدم اللص وخرب الذمة أيضا لبحر الحياة؟!
حينما انتهيت سكت، وران على من في التخشيبة صمتٌ عن الكلام، وفاجأني صوت هذا المحتجز في التخشيبة وهو يقول "جاحد أعمى البصيرة من يتصور أن الجماد جماد، لا يمكن له أن يفتل في جموده حبائل خدعته".
خرجت من التخشيبة بعد هذا بنصف ساعة، لزوال الغرض من وجودي بها، وأنا أحمل مرآة حكمة كانت غائبة عن عقلي العجيب، الذي يضيئ في أوقات، ويظلم في حالات أستجير به فيها، فلا يجيرني !!
لذلك وبسببه سكنتني الحيرة من فعل الناس على خط الزمن أو إذا أحب أحد يمكن أن نسميه الزمان، ويمكن أن ندعوه بهذا الاسم البعيد كل البعد عن روعة الحكايات وجمال القصص، وهو التاريخ، أشعر أنها كلمة تمسخ كُلَّ أفْكَارِ النَّصِّ الحكاية أو القصة، أي لو قصدنا بابه برجاء أن يدلي بدلوه فسوف يشرح الحكاية أو القصة شَرْحاً مُشَوَّهاً، وبالمناسبة هناك رجل كنت أعرفه - ربما كان أحمق، وأنتم تعرفون أن ربما تفتح باب الظن، الذي يقع بك في منطقة القلق والضيق، لأنك لا تمسك بشيء ولا ينوبك إلا حرق الدم .. ربما - علم الرجل

ابراهيم الصلحي

أن جبل الحكمة خارج أسوار المحروسة من جهة جبل المقطم، وأنه إذا أراد بلوغه عليه أن يركب ظله، هناك أناس لديهم القدرة على ركوب ظلالهم، وهناك من تهرب منهم ظلالهم، وهناك من تركبهم ظلالهم، وهناك من لا ظل لهم، وهذا الرجل من هؤلاء، استطاع أن يسرق ظل أحد جيرانه النائم فوق مسطبة بجوار جدار بيته ساعة العصر، بمساعدة الزوجة التي كانت تراوده عن نفسه، استغلت اقترابه، واحتكت به مانحة له عينةً لما سوف يفوز به في قادم كيدها، بوسة مشبعة مع حضن، وتمليس سريع على كامل ردفيها، واستدارة نهديها، وشرد.. شرد؟! شرد أقول لكم راكبا الظل المسروق، عند القرافات تمهل الظل، ثم داور وناور للدخول إلى ساحة وتكعيبة إحدى المقابر، كانت لأحد أمراء المملوكية زمان أو الحاضر - لست على يقين من الزمن، وهذا غير مهم حاليا، فيما بعد نبحث فى هذه المسألة - يقف على باب تلك التكعيبة اثنان من العسكر كل واحد منهما له شارب يغطى تفاصيل وجهه ..

إلا أن الرجل نخس الظل نخسا شديدا، وألجم لجامه وطار به نحو الجبل، لم تسألوننى لماذا يذهب إلى جبل الحكمة؟ لن أجيب، فالقصة ينبغي لها ألا تتوقف وقائعها، بعكس التاريخ - ألم أقل لكم ؟ - وحتى نلحق بالرجل والحظ يسرع به، رأى أمما غفيرة من رجال ونساء، علية قوم وسفلة، حكاما ومحكومين ممن سبق لهم ركوب ظلالهم صعودا إلى الجبل، استقبلوه وهم سادرون فيما هم فيه، وكل منهم تحدوه الرغبة في اغتنام أكبر قدر من الحكمة تفوق حكمة الشيوخ، والحكام والموظفين، ورجال الأعمال، والصحفيين وحتى رجال الدين، والمجانين الذين هم في نعيم، كان الجبل يعطي حكمته التي لا يملك إلا إياها، إن استكمال كل منهم لرحلته هي عدم العودة لدنيا سبق أن جرب فيها قدرا من حكمة، أو طيش، كان هذا الجبل يتكون من مرايا متراكمة، وعلى كل واحد أن يأخذ مرآته، كانوا جميعا يرفضون النظر كل في مرآته، ويرفض مع ذلك العودة من حيث جاء ..

هل لمحت رجلا حائرا مشغول البال، ثقب الرصاص جسده، ويمشى فوق الجبل مترنحا يأتي من ذلك المدعو التاريخ؟!

يبدو أنني بالفعل رأيت هذا الرجل ..

ألا يعي التاريخ أنه أعمى لا يحب السير إلا في طريق في اتجاهين مزدحمين بسيارات مسرعة يركبها أناس متعجلون؟

سأغيظ التاريخ بعدم الثرثرة، ولن أكون ببغاء يردد ما قاله عن الرجل في سطرين أو حتى في عشرين سطرا ..

كان الرجل هو شاهين بك كبير المماليك الألفية، وجدته رغم مشيته المترنحة راضيا عن نفسه، مقتنعا بأن محمد علي باشا لن يسرق مكانته، حين تلقى دعوة الباشا لزيارته في القلعة بشيء من التردد في البداية، ولكنه حسم موقفه بقبولها، وقف إلى تلك المرآة - المهداة له من أحد الأمراء البلجيكيين - وكان يفضلها على كل المرايا الموجودة بقصره بالأزبكية لصفاء سطحها، وضبط صورتها التي تعكسها فلا تشوه أنفا أو شفاه أو وجها، كما تعطيها تعطيك بلا زيادة أو نقصان لا في الملامح، ولا في القياس طولا أو عرضا، تذكر دعوة محمد علي باشا فانفتح خط الشفتين عن نصف ابتسامة، أحكم ربط حزام السيف إلى خصره، ورفع وجهه إلى المرآة ليقابل نفسه فيها، رمشت عيناه في أول الأمر، كأن غبارا دخلهما، ثم مرّتهما، كانت صفحة المرآة فارغة من شاهين بك الآخر الذي طالعه كثيرا من قبل، وهو يقابلها فوق هذا البساط الفارسي، وفى مسافة تبعد عنها ابتعاد رأسا مركوبه القريبان من الحائط بمقدار شبر واحد، مد يده لتمسك إطارها مبتعدا عن واجهتها إلى يمينها، سمع صوت سنابك حصان يأتيه منها، همس ٠ ماذا ألم بي؟! اليوم لا بد أن أكون في كامل لياقتي وصفاء الذهن٠.

البصر لا علة فيه، يستطيع شاهين بك التهديف بالقوس والسهم على بعد خمسين قدما، وهو يركب الحصان ليصيب تفاحة على رأس خادم من خدامه، لاحقه صوت توقيع سنابك الحصان على أرضية من الصخر ٠طق طق طق طق طق٠، رفع رأسه إليها، وجد حصانه الأثير على صفحتها، ولم يجد شاهين بك يركبه، الطريق يعرفه من الأزبكية إلى القلعة، من شارع يسلمه إلى عطفة تؤدى لزقاق ثم ينفتح المجال أمامه حتى وصل إلى القلعة، وجدها ماثلة في مكانها، بموقعها المنيع، وأسوارها العالية، وأبراجها الشاهقة وأبوابها الضخمة، كان الحصان الآن يقف على حدود وسع ميدان الرميلة، على غير توقع هطلت ثلوج بيضاء غطت القلعة بأسوارها، وبعض الحدادي تحوم وتأتى نحوه صائتة حتى أنه ابتعد برأسه ليتفاداها ٠ما الحكاية شاهين بك؟! هل هذا سحر؟٠.

جاء إليه الحصان عقب تساؤلاته من عمق المرآة كأنه سوف يخرج منها ٠ليس سحرا أيها المملوكي، احرص على أن تبقى على قيد الحياة٠.

دخل غلام من غلمانه يحمل عباءة ثمينة مطرزة بخيوط الذهب على يديه، تنحنح وهو يضعها على طاولة مسدسة الأضلاع من الخشب المحفور، التفت شاهين بك ونادى بصوته الواثق ٠تعال غلام٠.

طأطأ الغلام رأسه متقدما ٠قف أمام المرآة.. ماذا ترى؟٠.

كتم الغلام ضحكة حينما واجهته خلقته في المرآة، حاذاه شاهين بك واقفا معه كتفا بكتف، قال له ٠أتراني معك في هذه المرآة؟٠.

همس الغلام ٠أريد منك أمانا سيدي قبل أن أتكلم٠.

ارتفع صوت شاهين بك ٠هل تراني؟ هل يستحق ما تراه عهدا بالأمان؟٠.

أمسك شاهين بك بمقبض السيف، وهو يعاني هزيمة لم يجربها من قبل أمام جرأة الغلام وهو كأنه منوم يسبل عينيه، ويقتحمه الكلام الخارج من فم الغلام كأنه يواجه وحده جيشا من ثلاثين ألفا ٠أرى راكبا ومركوبا، ناهبا ومنهوبا، مغتصبا ومغتصبين، حقراء يتحكمون في رعايا!٠.

٠ اسكت وإلا قطعت لسانك٠.

٠ سيدي.. المرآة توحي إليّ، وصفحتها فضة تتلألأ وليس فيها خيالات مجسدة، هي فراغ، وهذا أمر عجيب!٠.

أبعد شاهين بك غلامه بغلظة، وأمره أن يخرج حالا ٠يكفى خزعبلات٠. شاهين بك كاذب رأى مصيره مجسدا في تلك المذبحة التي سوف تدور وقائعها الدموية بمقدار قطعه للمسافة بين قصره وبين صعوده للقلعة، خرج من المذبحة لا خدش فيه، وترك للباشا الكبير ظنا يجعله آمنا حتى يصاب عقله بالخرف، واحتفظ هو بدوام البقاء، ونظرة فارغة تملأ مساحة سطح المرآة، منتظرا يوما يخرج فيه منها هادئا كامنا مع تبدل الأمكنة، مستمتعا بعاديات الزمان في مآسيه وفكاهاته، فهو يعرف أنه حاضر دائما وأن سطح المرآة قابل للكسر..

كاتب من مصر

المغزول

محمد بن ربيع الغامدي

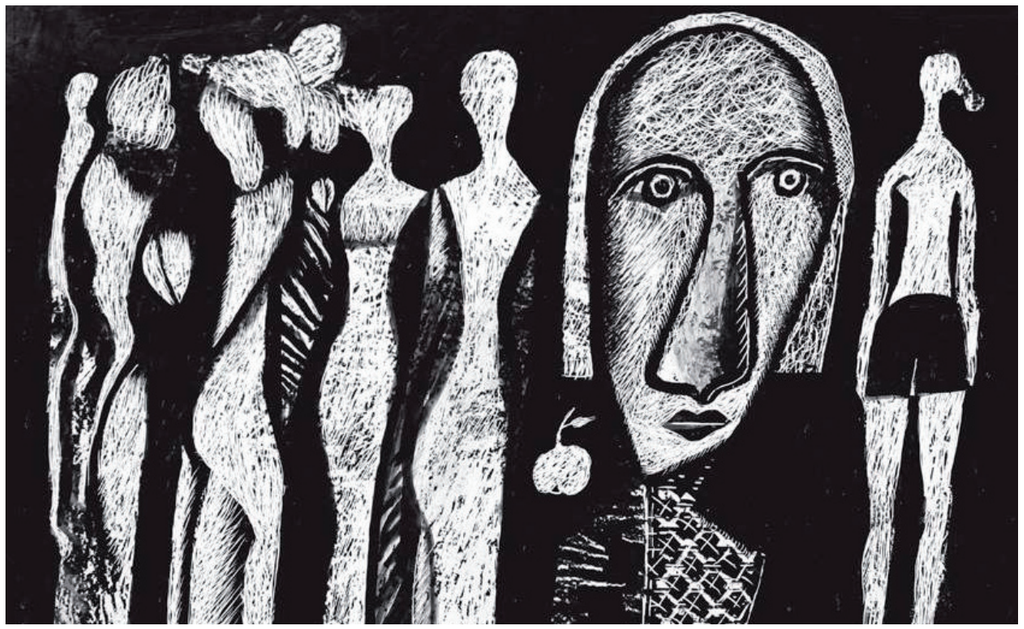

حسين جمعان

أمد ساقي وأرفع قدمي وأسلت ظهري شيئا فشيئا على الأريكة التي أجلس عليها، أتصيد قاسم بعين واحدة إلى أن يقع خلف إبهامي فأضحك ضحكة مكبوتة، أفعل ذلك كلما عبر قاسم، وفي كل مرة كان إبهام قدمي يحجبه تماما قبل أن يخرج من ورائه مثل طاووس مدل بريشه، تتسمر عيناي على أنفه الذي يبدو مثل حصان شطرنج في يد لاعب غليظ القلب، ومثلما توقعت اقترب مني وسأل عن آخر قصائدي، قذف بسؤاله ذلك في بؤبؤ عيني ثم استدار نحو نزيل آخر ليمرر له تحميلة، قلت له بعتب: وعدت بإخراجي من هذه المصحة فمتى تنفّذ وعدك؟ ودون أن يلتفت نحوي قال: ابلع ريقك، ابلع ريقك.

سمعت كلامه فبلعت ريقي وفعل النزلاء ذلك معي، وبينما كانت مؤخرته الضخمة تحجب معظم الفضاء أمامي كنت أحدث نفسي: هذا الممرض يعرف أني لست بمجنون وفوق ذلك فهو مولع بقصائدي ووعد أن يساعدني في مغادرة هذه المصحة، وعدني أكثر من مرة، وفي كل مرة يقول لي ابلع ريقك، وفي كل مرة كنت أبتلع ريقي ولا ينفّذ وعده، سأحجب هذا الماكر بإبهام قدمي وأضحك بقوة إلى أن يلتفت نحوي، وما إن فعلت حتى اقترب مني وفي عينيه مخرزان مدببان ثم وكز ساقي بقوة وعاد إلى نزيل آخر.

أولج آخر قمع لهذا الصباح ثم خرج فتبعناه، لا بد من ساعة بعد تحميلة الصباح وساعة بعد تحميلة الأصيل نجوب فيها حديقة المصحة، اقترب مني أكثر المنصتين لي ولقصائدي وبشرني باقتراب موعدي، قال لي بالحرف الواحد أن قاسم لا يخلف وعده، لقد زرع هذه الحديقة وبنى ممراتها ثم زينها بأرصفة ملونة ونشر فيها الأرائك ذات اليمين وذات الشمال، قلت له جزِعا: لكن الأمد قد طال بي يا صاحبي ولم ينفّذ وعده، في كل مرة يقول لي ابلع ريقك وفي كل مرة أبلع ريقي دون جدوى، أنا يا صديقي لست بمجنون مثلكم فلم بقائي هنا؟ هذا الممرض المنفوخ لا يريد بي خيرا مع أنه قزم، قزم لا يزيد حجمه عن حجم إبهامي هذا، هل ترى إبهام قدمي هذا؟

عندما انفضّ عني آخر المؤمنين بي وتركني قائما، قلت في نفسي: ليذهب إلى الجحيم، ولتذهب معه هذه الساعة الكئيبة التي يسمونها فسحة، وكذلك هذه الحديقة وأشجارها وقاسم أيضا، لن أحزن على أحد منهم فعندي ما يغنيني عنهم جميعا، هذه الأريكة الممتدة في هذا الظل الظليل وإبهام قدمي اليمني، جلست على الأريكة، وبحذر شديد كنت أمد ساقي وأرفع قدمي وأسلت ظهري شيئا فشيئا أتصيد قاسم بعين واحدة إلى أن يقع خلف إبهامي فأضحك ضحكة مكبوتة.

كاتب من السعودية

ثلاثة أحلام من باصورا

محمد خضير

طبعةُ الكفّ

ثمّة ألعاب يُدمِنُها سكّانُ باصورا، مثل لعبة طبْعة الكفّ ولعبة طبْعة القَدَم، دونما اكتراثٍ لعواقبها المشؤومة. فما يبدو أنّها لعبة بريئة يمارسها اللاعبون في ضوء النهار، قد تتلاعب بأقدار لاعبيها كلما دخلوا جبّ الظلام. وما يبصمه الكبارُ والصغار على لوح طريّ من الطين أو على الحيطان والأبواب وجذوع الأشجار، قد يسير بهم إلى مواطن حظوظهم الناكسة أو الصاعدة. لعلّ خطاً مخبوءاً في باطن الكفّ، وخطّاً معروقاً بارزا على ظاهرها، قد يقسمان حياة صاحبهما على خارطة محفورة في الصخور. وقد تأخذ القدَمُ المطبوعة صاحبَها إلى أمكنة حظّه البعيدة، لكنّ الخطأ المرادف لهذه التقديرات يظلّ مرسوماً كنقطة لا تتزحزح عن مكانها فوق حرف (الحاء). نادراً ما يخلو حائطٌ قديم في باصورا من طبعات الكفّ المحفورة منذ سنين وسنين، كما تتدلّى من أبوابها مطارقُ برونزية مصهورة في قوالب الكفوف والأقدام بمختلف الأحجام: مطرقة فألٍ حسن، ومطرقة شؤم. كفّ الحظّ الأبيض، وكفّ الحظّ الأسود. طرَقات وطرَقات، طبعات وطبعات، أيقونات الحظّ معلّقة على جوانب الطُرُق، لكن لا أحد من سكّان باصورا يريد أن يعترف بخطورة أحلامه.

عندما شاركْتُ حالمي باصورا لعبةَ طبْعة الكفّ، كان عمري قد تجاوزَ الألفَ عام. صمّمْتُ نسخةً ورقية من طبعة كفّي اليسرى، ملأتُ فرجاتها بالأعداد وضاعفتُها حتى بلغَتْ ألفاً وثلاث مئة، وهذا هو عُمري المقدَّر لمنافسة الباصوريين الذين يقدّرون أعمارَهم المئوية والألفية على حساب الأعداد المضاعفة بين فرجات الأصابع، تبعاً لكل حال، ثم حملتُ علبةَ خِضابٍ وخرجتُ لطبْع كفّي على أقرب حائط من موقع سكني. أنا أَعسَر، وتقضي قواعد اللعبة أن يأتي لاعبٌ فيطبع كفّه اليمنى بجوار طبعتي اليسرى، فيتقابل الإبهامان كأن الطبعتين عائدتان لشخص واحد. وأشطَرُ اللاعبين ذاك الذي يستعمل في طبْع كفّه أفضلَ الأصباغ الممزوجة بالأكاسيد والأصماغ المقاوِمة لكلّ الأجواء. هل كنتُ محظوظاً برفع أُسّ الأعداد لأبلغ بعمري ما بلغته؟ هل يتوقّف عُمري عند هذا العدد، أم أنّه سيزيد بما أكسبُه من عُمر اللاعب الذي سيطبع كفّه إلى جانب طبْعة كفّي على الجدار؟ فقد أخسرُ حياتي عندما يتضاءل حسابي إلى أصغر أسّ في الفرجة بين الخنصر والبنصر، أو في الفرجة الوسطية بين الإصبع الوسطى والسبابة، أو في الفرجة الطرفية المقابلة بين السبّابة والإبهام، وسأرتدّ إلى عُمر إنسانٍ هالك لا محالة حالما أتحرّكُ خطوات من طبْعة كفّي على الجدار. أما إذا أصبحتُ من العماليق الذين حكموا الأرض منذ آلاف السنين، فلن أهلك إلا بعد آلاف المعارك التي أخوضها في أحلامي. ولا حُكم عندي على هذه اللعبة أنسب من أنّها لعبة الهالكين في الأحوال كلّها.

لستُ عبداً ولا مِلِكاً، لستُ قزماً ولا عملاقاً، هذه حقيقتي التي تتضمنّها طبعةُ كفّي، أريدُ ممّن يلاعبني أن يقرأها قبل قراءة حساب عمري. لكنّ المنافس الذي طبَعَ كفّه قرب طبعة كفّي، انزعجَ لهذه المراوغة وشكّ في أنّي أغشّه. أكاد أسمعُه يخاطبني "أريد أن أعرف حساب عمرك المضبوط". أُجيبُه في سرّي، وأنا أتفقد مكان الطبعتين المتجاورتين على الجدار القديم "دونكَ بصمتي اسحبْ منها ما تشاء من السنين، أو دعْني أفتُك ببصمة عمرك".

لا إسراع ولا إجهار في كسب الأعمار المتقابلة على الحائط، فلُعبة الكفّ المطبوعة تجري في الخفاء، وهي تساوي لعبة القدَم المطبوعة، أو المصبوبة في قالب معدني، منعاً وتحريماً، بسبب عدميتهما. لكن انتشار اللعبتين وإدمانهما لم يتوقّف لحظة، فأهلُ باصورا يسرعون إلى عدمهم إسراعهم إلى فُرُشهم الوثيرة. طبعة الكفّ، ومثيلتها طبعة القدم، أيقونتان موزونتان موازيتان لحقيقتيّ الحياة والموت، وشيوع لعبتيهما في أحلام أهل باصورا دليل على تعاقب الأجيال وتوارث الأحلام.

ظهرتْ طبعةُ غريمي اليمنى إلى جانب طبعة كفّي اليسرى، بعد ليال من الترقُّب والترصُّد، فحسبْتُ عند أوّل نظرة أنّ هذا الغريم يقاربني عمراً ويشاطرني حماقةَ سَيْري حتى نهاية اللعبة. ظننتُ أنّه قرأ خطوطَ طبعتي التي تخفي طبيعتي "لستُ عبداً ولا مِلِكاً، لستُ قزماً ولا عملاقاً" فأرادَ أن يقابلها بحقيقته التي يُخفيها مثلي في خطوط كفّه التي طبعَها لصق طبعة كفّي وهي كما قرأتها "لستُ غُلاً ولا تاجاً، لستُ شقياً ولا بريئاً". لكنّي تراجعتُ عن قراءتي، وسدّدتُ النظر ثانية فخمّنتُ وراء طبعته بُرعماً طرياً لم ينكسر غصنُه. كانت بصمتي مَغراءَ متصدّعة كورقةٍ يابسة تتعلّق بغصنها رُغم فوات ربيعها (هكذا أردتُ أن يتحسّس الطابعون المنافسون خريفَ عمري) فيما طبعَ غريمي المجهول كفّاً بخضاب الحنّاء خالص الحمرة. تخيلتُه شاباً غِرّاً أراد أن يجرّب حظّه بربط لِجام حصانه في ظلّ طبعتي المَغراء. صحّحْتُ قراءتي فرأيتُ فأله المطبوع بارزاً بصبغته البهيّة بين الطبعات المتناثرة حول طبعتينا على الجدار القديم. قلتُ في نفسي "هذه مخايل نفسٍ غضّة، لن تلبث حتى يختلط نُسْغي الناضب برحيق شبابها".

صدَقَ حلمي ما تخيّلت، فأراني رأيَ العين عاقبةَ اللعب وغرورَ اللاعبين، إذْ لم تمضِ لحظات حتى أقبلَتْ جنازةٌ محمولة على الأكتاف، وألقَتْ بظلالها على طبعتيْ كفّينا المتجاورتين على جدار الأحلام. تبعْتُ المشيّعِين حتى خرجوا بالجنازة إلى الخلاء الذي يضمّ مراقدَ اللاعبين الهالكين منذ عصور وعصور. ولما سألتُ عن ضجيع التابوت المرفوع على الأكتاف، قيل لي إنّها عروس لم تطلع الشمسُ على ليلة دخلتها.

الرجل السرّي

يظهرُ بعض الناس الذين أعرفُهم، ثم يختفون فجأة، لا سبب معروفاً لاختفائهم وعودتهم للظهور، فهم يختفون ويظهرون كحيّات الماء. لم أفهم حتى اليوم سرّ هذا الاختفاء الفجائي إذا كان يعني التقدّمَ أو التراجع، القوّةَ أو الضعف، فموقعي المكشوف للأنظار بلا حماية طبيعية أو نفسيّة أضعفَ قدرتي على الحُكم والمعايرة بين الناس. كنت كما أنا اليوم واقفاً في مكاني، ظاهراً للعيان مثل قضيب حديدٍ في نافذة جدارٍ خارجية تناوشتْها عواملُ الزمن القاسية بالتعرية والصدأ والليّ والنَّزْع في مختلف الاتجاهات. لم أقاوم، بل كانت طواعيتي الزمنية سببَ مقاومتي طويلة الأمد. وكان هناك أكثر من عابر سبيل ينتظر تحت نافذة الجدار ذات القضبان الملويّة والمنتزعة، ومن يعنيني منهم كان رجلاً كثير الاختفاء، يأتي فيختلِس نظرةً إلى داخل الدار، ثم يمضي في سبيله. سأحّدثُكم عن هذا الرجل السرّي، وعن أزمنته، عن اختفائه وظهوره المفاجئ.

لم أتضايق قطّ من طريقة الرجل في مسْك قضيب النافذة الحديد، واختلاسه النظر، إذْ كانت الدار خاوية من ساكنيها، والجدار متهاوياً، وكان الزمن الذي احتوى الرجلَ العابر زمنَ اختفاءٍ للأحياء والأشياء على نحوٍ لا يقبل التفسير. (اختفِ، ألقِ نظرةً وانصرفْ) ذاك هو العُرْف الشائع بين الناس الذين عاش الرجل السرّي بينهم سنوات طويلة، دون أن يلحظ أحد منهم تبدّلات الزمن على وجهه وقامته وملابسه وكلامه الذي يتبادله سرّاً مع نفسه أو مع الجدار والنافذة أو مع الأشخاص العابرين أمثاله. بينما عشتُ عائماً مكشوفاً، لا عمر محدوداً لسنواتي، مثل حلمي الذي طال طيلة السنوات الممدودة لأولئك المختفين. كلّ شيء زائل ومتبدل، ولا بدّ أن ينهدم ذلك الجدار، ويظهر ذلك الرجل الخفيّ ليتلصص على خواء الدار آخر مرة. حينئذ يبلغ حلمي نهايته أيضاً وأُنتزَع من مكاني.

لكي أحدّد زمنَ حلمي، وهو زمن الرجل السرّي، فلْأقُلْ إنّ زمنهما كان زمن السجون والطوامير والقضبان الحديدية الصدئة. إنّ حلمي نفسه يصطبغ بذلك اللون البنيّ خشن الملمس، الأحزمة والمعاطف الصوفية المزرّرة، بجرائم الاختطاف والتعذيب وقوائم المعدومين، ولن أنسى بالطبع الجزمات الطويلة والأحذية الثقيلة التي تدوس الأرض لتخسفها خسفاً وتبعث الرعب في الأوصال البشرية الضعيفة. كان ذاك زمن يتذرّع بالصمت والسرّ والخفاء، وهذا شأن حلمي الذي لازمَ الزوايا والقضبان والخسفات والرجال السريّين، ويريد أن يظهر الآن بقوّة. هل قابلتَ واحداً منهم، هل شاهدتّهم يقودون دراجاتهم البخارية والهوائية، ينسِلون كالطرائد المذعورة عبر الجدران أو يطيرون إلى أوكارهم بعربات سريعة في آخر الليل؟

اصطدمَ حلمي بواحد من هؤلاء على نحو مباغت. فحين قصدَني الرجلُ السرّي بالتحية، ظننتُ أنه لا يقصد بتحيته المبتسَرة، المرفوعة على شفتيه الخائفتين، شخصاً بعينه، فما بالك بقضيب حديد؟ لكنّه في الظهور اللاحق هيأ لكلامه جملةً سرّية وحيدة، فقال إنّه يشعر بالذنب لقتله زوجته. كان الحديث من جانب واحد، جانبه المذعور، ثم فاجأني في الظهور الثالث بعد شهور بقوله إنّه مكثَ في السّجن عامين وأُفرِج عنه بعفو عام. قرفصَ رجليه، وأنهى حديثَه المتفرّق السريع، ثم نهضَ وأمسكَ بقضيب النافذة وجالَ بنظره في الخواء الداخلي الصامت لغرفة الدار المطلّة على الزقاق.

حين عادَ للتقرفص تحت نافذة الزقاق ملتوية القضبان، قال إنّ خشب الإطار المقشَّر يحتاج إلى طلاء، وإنه سيشتري علبة دِهان في المرّة القادمة. وحين واجهَتْه الدارُ بصمتها وانطوائها على سرّ أهلها الغائبين، أعربَ عن ندمه لأنّه وشى بثلاثة أخوةٍ شيوعيين كانوا يسكنون الدار. غابَ مدة طويلة، وعادَ في الشتاء بمفرده، مدثّراً بمِعطف وقلنسوة ومِلفع أخفى نصفَ وجهه، فاعترفَ مؤكِداً أنّه أبلغَ السلطات عن أخوة زوجته، وقد بحثَ مثل غيره في قوائم المعدومين السياسيين المعلّقة بعد غزو العراق عام 2003، فلم يعثر على اسمٍ لواحد منهم فيها. قال إنّ القضية طُمِرتْ تماماً، وقد هجرتْه زوجتُه لخيانته ثقتَها ومحبتها، وإنه لم يقتلها كما زعمَ يوماً أمام صمْت القضيب الحديد، الذي ازدادَ تقشّره وصدؤه. بعد ذلك الشتاء، اختفى سنوات، حينها هُدِم الجدار، وضمّتْ بلديةُ المدينة بقيةَ الدار لتوسيع الشارع القديم.

إنْ كنتَ مثلي حالماً ظاهرياً بالقضبان والنوافذ الخارجية المقشَّرة، أو متردداً بحلمك الطويل على المتاجر والأفران ومحلات الجزارة، فقد تلاحظ رجلاً يحتلّ مكاناً أمامك أو خلفك في الطابور، تنطبق عليه أوصاف الكائنات السرّية المتوارية عن الأنظار، يزعم فِعْلَ كذا وكذا، ويختلق أخباراً عن تبنّيه طفلةً هلكَتْ عنها أمُّها في مستشفى الولادة، فضمَّها إلى بناته ومنحَها اسمَه وهويته. وما هويةُ رجلٍ سرّي غير مزاعم لا تنتهي، ومفضوضات غير أكيدة يضيق بها صدرُه فيفشيها إلى الرجال الواقفين حوله؟ سترى أنّ حلمك يبلغ ذروته، حين يناشد الرجلُ السرّي عاملَ المخبز ويرجوه أن يبيعه أربعة رغفان لا أكثر، ينوي توزيعها على أربعة قبور في مقبرة عائلته، اعتادَ زيارتَهم صباح عيد الأضحى، وهذا ديدنه منذ سنوات.

كاتب من العراق

تخطيط لـ فيصل لعيبي

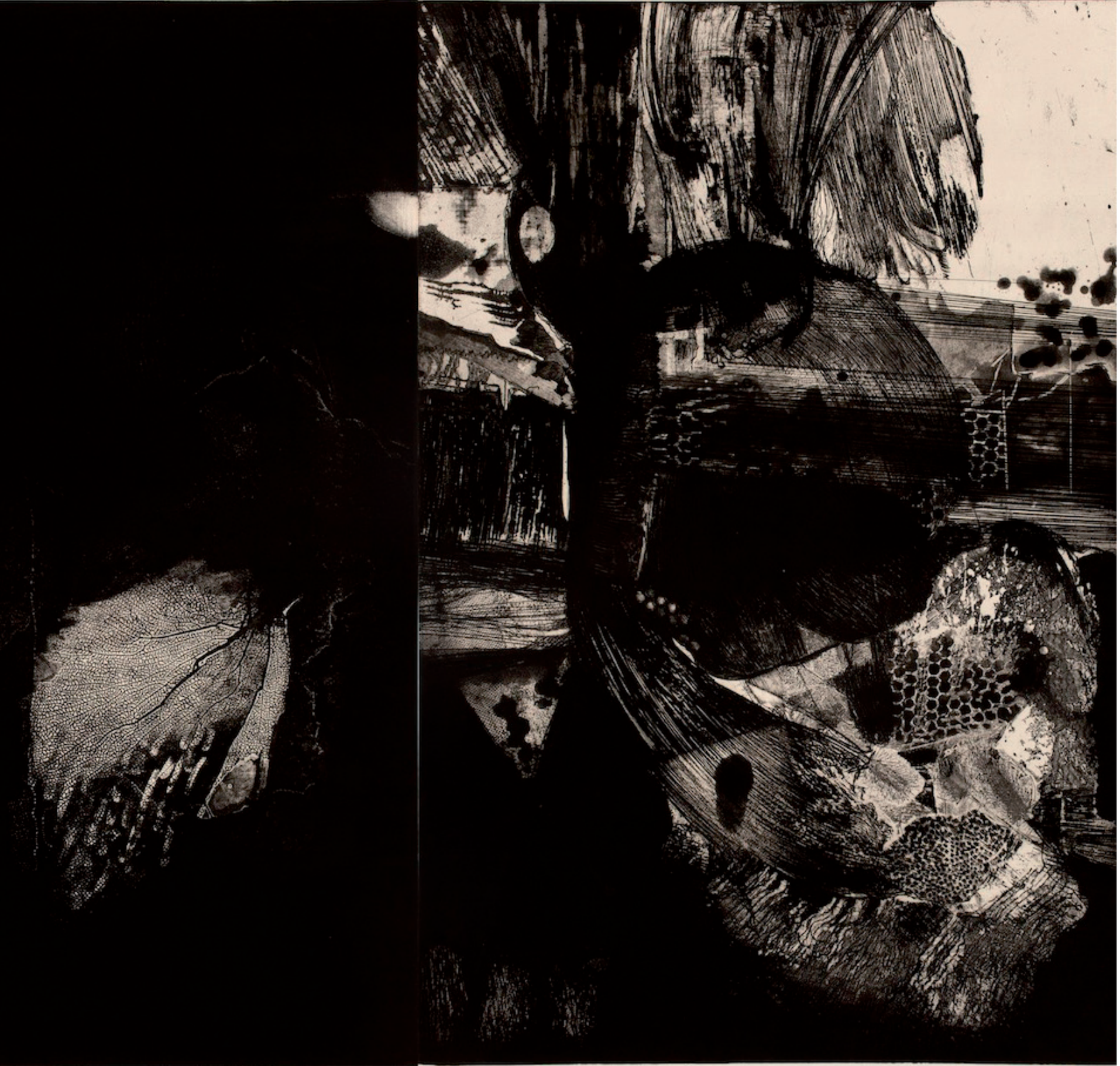

الكتاب الأخير قبل الإعدام

هل فكّرَ مؤلفو الكتب بإنهاء أعمالهم الأخيرة في الوقت المناسب، قبل انفصام لحظتَيْ الحياة والكتابة؟

لقد وصلتُ إلى هذه المرحلة التي يتحتم عليّ فيها أن أقرّر وضعَ عنوان آخر كتبي على قائمة مؤلفاتي، ثم أسلّم رقبتي لأولئك الذين سيفصمونها ومعها كتابي. استبقْتُ لحظةَ إعدامي في حلمي، وكنت أحتسب دائماً لوضع السّطر الأخير في كتاب عُمري، والتوقّف عن إملاء السُّطور نهائياً. أضعُ النقطةَ التي ستنهي السّطرَ المتعرّج، في حياة كلّ كاتبٍ على وجه الأرض. وعندما حان وقت تنفيذ الحُكم رجوْتُ الجلادين الذين استعدّوا للإجهاز على أنفاسي أن يأخذوا منّي مخطوطتي وينشروها.

كان حكم الإعدام يُنفَّذ بشاعة. يُؤخَذ المحكومون إلى جرف مَضحَلٍ مائيّ، ثم يُضربون بهراوة على فقرات أعناقهم ضربات قوية متواليةً حتى تنفصم، ثم يُطَمَّسون في ماء المَضحَل المخلوط بالطين. سيق قبلي كاتبان أنهيا كتابيهما للتوّ وطُمِّسا. رأيتُهما يسيران مع جلاديْهما طوعاً إلى المضحل المائي الذي ترسو على جُرفه قواربُ متجاورة كالحة اللون. لا يُعرَف غرض معيّن لاستعمال القوارب، ويبدو أنّها من بقايا مرفأ مهجور. كما بدا مكانُ الإعدام بحدوده المجهولة بقعةً مقطوعة من طوامس عصرٍ بدائيّ منصرم، شهِدَ حفلاتٍ بشعة.

سبَقَ تنفيذَ الحُكم استجوابٌ قصير، وأُدخِلتُ على مجلس قُضاةٍ احتلّوا منصةً تسدّ عرضَ الغرفة الخشبية الباقية من جمرك المرفأ. ارتدى القضاةُ بِزّات عمّال المطابع الملطّخة بالزيت والأحبار، يتوسّطهم القاضي الأكبر، الذي يملك زمامَ النهاية. وما يملكه القاضي الأوسط الآن على وجه الدقّة الأمرَ الخاص بكتابي كما قيل لي، ولا أعرفُ اختصاصَ القُضاة الآخرين، فقد يملك كلّ واحدٍ منهم قضيةً مختلفة. إلا أنّ أكداس المخطوطات أمامهم على المنصّة تشير إلى أنّ أعضاء المجلس يتولّون في هذه اللحظة الوشيكة على الاختفاء قضيةً واحدة، تتعلّق بنشر الكتُب أو إعدامها.

سألني القاضي الأكبر «ما رغبتك الأخيرة قبل أن يتمّ إغراقك؟». أخرجتُ من ثيابي رزمةَ أوراقٍ مرتبة، وقلت «أتمنّى أن تنشروا كتابي هذا». «أستعيدُ حجمَ الكتاب، وأنا أدوّنُ هذا الحلم، فأتذكّرُ على وجه الحقيقة حزمةَ أوراقٍ لا تؤلّف سوى فصلٍ من كتاب». نظرَ القاضي في الأوراق ثم قال «لسنا ملزمين بنشر مخطوطتك، لكننا سنحترم رغبتَك وندسّ ملزمةَ كتابك في وسط طبعةٍ من روايات فرانسوا ساغان». «وأفكّرُ الآن بوظيفة القضاة الإضافية، ويقيني أنّهم كانوا ناشرين في مطبعة ملحقة بمضحل الإعدام». قلت «هذا كتابي الأخير وأريدُ نشره في طبعة مستقلة». همهمَ القاضي بأمرٍ ما، ثم أشارَ إلى الجلاديْنِ المنتظرينِ عند مدخل الغرفة.

لا سبيل إلى تنفيذ رغبات الأحلام، مثلما لا تُحترَم وعودُها. فكّرْتُ بذلك وأنا أسير بين أيدي جلاديّ إلى مَضحَل السكون الأبدي، حيث لا صوت للضربات، ولا ألم، ولا نهاية لسطر الظلام المتعرّج على شاشة طابعة الأحلام.

كاتب من العراق

قصتان

محمد فطومي

المسافة

معتوه، مفتوح الشّهيّة على التّبغ، لم يبق له من فنّ التّوقّع إلاّ إمكانيّة أن يخيب.

شفتان غليظتان لا تكاد تُطبقان. شعر رماديّ نافر يُخفي أعلى الرّأس فراغا في حجم فنجان صغير. وجه مُطفأ، يبدو للنّاظر كأنّه يكظم عتابا غامضا. ملامحه سطّر فوقها الصّقيع والقيظ المُستعر، فصلا بعد آخر، قسمات تجعلك، في انطباع أوّل، تعتقد بأنّ صاحبها قد اختار مقاطعتك أنت بالذّات من بين كلّ البشر. إنّه ذئب مدينتنا الهرم. ساحر الخطوط اللاّتينيّة الذي لم يتقاض فلسا واحدا من وراء موهبته الاستثنائيّة.

المُستجدّ هو سحابة الذّهول التي صارت تُظلّل عينيه وجبهته العريضة، حتّى بات من غير المناسب ذكر مآثره القديمة في لعبة الشّطرنج. كان فيما مضى يُلحق الهزائم المُهينة بأمهر اللاّعبين وأوسعهم حيلة. كان زمنا جميلا ذاك الذي لعبت فيه اللّعبة بعقول النّاس، لتتحوّل من مجرّد لعبة، إلى علامة يُستدلّ بها على انتماء المرء السيّاسيّ.. وجبة سريعة ونصف علبة سجائر فاخرة، وقهوة مدفوعة الثّمن، فقط هذا كلّ ما كان يطلبه مقابل جولة شطرنج يخوضها من أجلك حتّى ترضى. قد تكون من الذين يرضيهم الفوز الصّعب، أو من أولئك الذين تروق لهم الخسارة بعد طول مقاومة، سيفهم شعبان طبيعتك وسيعمل على إسعادك. بعد الشّطرنج أغرم النّاس بجلسات استدعاء الأرواح، وكعادته تعلّم شعبان استحضارها من أجلهم وكالعادة أيضا صار الألمع في المجال. كلّ ذلك يفعله دون التفاتة إلى الوراء، فقط كي تستمرّ الوجبة والسّجائر والقهوة مدفوعة الثّمن.

فيما يخْصّنا -نحنُ الغائبون تماما عن وعيه- لم يعد يُراودنا الكلام وهو يُطالعنا ببرنسه الأزرق وسرواله «الدجينز» الأسود الذي بات يشعّ بلمعان واضح على مستوى فخذيْه، وهيئته التي لا تسوء ولا تحسُن على مرّ السّنين. إنّه موجود بصورة تُثبت مرّة أخرى عناد الطّبيعة.. بل لشدّة ما هو موجود، أمكنه مع توالي الأيّام أن يتحوّل إلى أمر مألوف يبعث في النّفس شعورا بأنّه عدم. نراه في مكانه المعتاد جالسا على مصطبة رخاميّة سُطّحت في شكل كوّة بحائط البريد. فلا يقفز إلى أذهاننا خاطر من أيّ نوع بشأنه، فشعبان ينبغي أن يكون هناك، تماما مثلما نرى السّماء فلا نهتف: «حسنا إنّها السّماء!».

يهمّه، أنّ النّاس في جميع ما يقومون به يسعون إلى التّخلّص من أمر ما. ذاك تحديدا ما يجعلهم يصلحون للعيش بفضلهم. أصل الدّاء ألاّ سوق لما نُحبّ، وما أحبّه شعبان وبرع فيه لا يطعم ولا يستر، لذا قرّر أن يتلوّن حسب ميول النّاس وذوقهم وغرورهم وظنونهم، دون أن يغفل عن استعدادهم من عدمه لنفعه. النّاس اليوم، اختاروا التردّد على مكتب البريد. تلك أصبحت هوايتهم الأثيرة لتجزية العمر وإضفاء معنى على وجودهم. مع مرور الوقت أدرك بحدس الغريق أنّ عليه مجاراة التيّار والانتقال من خشبة إلى أخرى حتّى لو كان المدّ سينتهي به إلى بالوعة ليس لها قرار. اللّعبة علّمته القيام بالمطلوب. مطلوب مُتقلّب وجّه بقاءه إلى ما يشبه ركوب حصان جامح والالتواء في كلّ مرّة بحسب حركاته المجنونة، حتّى لا يسقط عاجزا منسيّا.

وسط رقعة بحدود وهميّة لا يتعدّى قطرها الأمتار العشر، يذرع شعبانُ المكانَ جيئة وذهابا حريصا دائما على أن تفصل بينه وبين النّساء مسافة مترين على الأقلّ. وبخطى وئيدة وحركات متوتّرة حادّة لا تخلو من شموخ أناس مُهمّين، يستمرّ في التّقدّم والتّقهقر كدابّة تنسى في كلّ مرّة أنّها مربوطة. ثمّ ما يلبث أن يعود إلى الجلوس مُنتبها إلى كلّ ما يدور حوله.

عندما يُفتح الباب مع تمام الثّامنة وبضع ثوان قاتلة، سيتدافع النّاس من أجل الدّخول مُتراصّين، تماما كما يحدث في غمار توزيع الغذاء في قرية أهلكها الجوع. في تلك الأثناء يكون شعبان قد أطلّ من بعيد لنصب شرَكه اليوميّ. سرّ مُحيّر حقّا أن يكون قد نجح في التّكيّف مع المساحة الضيّقة للمصطبة، رغم جثّته الضّخمة، جاعلا منها مقرّا مريحا يُتيح له الانقضاض على فرائسه الآدميّة بتروٍّ ويسر..

مُستعينا بقلمه الخاصّ، كان يملأ استمارات جميع المعاملات البريديّة على اختلاف أصنافها وتفاوت تعقيداتها، يُحرّرها بدقّة وحرفيّة منقطعة النظير. الأحرى أنّه كان يحرّرها كما يليق بعشق النّاس لمكتب البريد. لا أحد يدري ما الذي سيعشقه الناس بعد ذلك. الثابت أنّ شعبان سيكون حيّا بالمرصاد لهم ولأهوائهم. حتما سيكون هناك ليبيعهم ما أجمعوا على اقتنائه. مُقابل خدماته لم يكن يجد غضاضة في الاتّفاق مع زبائنه قبل الشّروع في أداء عمله. بكلمات موجزة على سبيل الشّرط كان يحسم الصّفقة:«ستعطيني مائتي مليم.. موافق!؟».

فتسعيرة شعبان موحّدة مهما كانت المعاملة معقّدة، وهي بالإضافة إلى ذلك غير قابلة للتّجاذب. فهو يُدرك على نحو أو آخر أنّ الشّقوق التي تسمح بتسرّب الاحتمالات لا تصلح للسّكن تحت سقفها.

ثمّ جاء يوم أساء فيه شعبان تقدير الأشياء. ذاك أنّ منعطفا لعينا يتربّص دائما بالخطوط المُستقيمة المُطمئنّة. وطبعا ليس ثقة مصيبة أنكى من التّحليل الخاطئ لأهواء النّاس. في ذلك اليوم ظنّ شعبان أنّ زمن الحجّ إلى مكتب البريد قد ولّى، وأنّ النّاس قد غيّروا طقوسهم فصاروا فجأة يعشقون التمسّح على جدُران مكتب الضّمان الاجتماعيّ. الازدحام الذي لاحظه أمام المبنى صوّر له ما صوّر. عام مع التيّار ليجد نفسه في عالم جديد لم يسبق له أن اطّلع على استماراته من قبل. مع ذلك اجتهد كي يحذق ملأها بسرعة ودون تلكّؤ، حتّى يكون جاهزا عند الطّلب. بغتة، وجد نفسه مُتهّما بسرقة

فرج عبو

عقد من الذّهب راحت صاحبته تنوح مردّدة خصاله وخصاصتها. أمسكوا به من كلّ اتّجاه. خلعوا برنسه وألقوا به في الخارج كخرقة، ثمّ فتّشوه مُتشوّقين حقّا، لكنّهم لم يجدوا بحوزته غير قطعه النّقديّة الصّفراء، مع ذلك استحقّ صفعة على قفاه من يد مسؤول الأمن جعلت رقبته تختفي لجزء من الثّانية.

مضى شعبان عائدا إلى مكتب البريد يتأبّط البرنس، وهو يجرّ حذاءه منزوع الخيوط. مشى المسافة مُصوّبا نظراته إلى الأرض كأنّه يسير فوق شبكة معلّقة. وبوقار صعد الدّرجات الثّلاث المؤدّية إلى المدخل مُخلّفا وراءه مصطبة غائصة في الجدار عليها بقعة داكنة من جهة رأسه ويديه. كانت تلك المرّة الأولى التي يغامر فيها شعبان بدخول المكتب غير مكترث بتهديدات المدير. انحرف ناحية كراسي الانتظار دون تردّد، وعلى نحو خال من التّحدّي اتّخذ مقعدا شاغرا بين المنتظرين. مدّ ساقيه بشكل مستقيم. عقد يديه أمام صدره، ثمّ راح يحدّق بعمق وتركيز شديدين في الموظّف المنهمك خلف شبّاك العمليّات الماليّة. أطال التّحديق في الموظّف على مهل دون إطباقة جفن. أمعن شعبانُ النّظر كما اشتهى. إذ لم يكن يفصل بينهما سوى حاجزٍ بلّوريٍّ رفيعٍ، ومسافة قصيرة جدّا لا أحد في وسعه أن يقيسها.

صديقي المُشَوّه

منذ قليل غادر «لُؤي». شاب رأسُه لكنّه لم يتغيّر كثيرا. مازال يُحبّذ أن يُفطر في الصّباح أصابع البسكويت المنزليّ مُغمسا في قهوة الحليب، وكعادته مازال مُغرما بالوقوف طويلا أمام واجهات المحلاّت حيثُ تُعرَضُ البدلات التي تُقفل فتحاتها الخلفيّة بسحّاب عوضا عن الأزرار. عندما أُصاب بنوبة فقدان جدوى الاهتمام بالأشياء، أسعى إلى لقائه والاستماع إلى قصصه اليوميّة التي لا تنتهي والتي لم أشكّ يوما في أنّه كان سيُفضّل روايتها على اثنين لا يعرفهما لو خيّروه بينهما وبيني. فقط لأنّهما أكثر منّي عددا. كان ثملا إلى درجة أنّي لم أُفلح في الردّ على كلامه بقول يتّفق مع كمّ الأمزجة التي تلبّسته. إنّها المرّة الأولى التي أبوح فيها بأنّنا ظللنا طوال حياتنا نبحث عن مُسوّغ ليقتل أحدنا الآخر فلم نجد غير أن يتعلّق أحدنا بالآخر كأمّ. ظلّ طوال فترة مكوثه عندي يردّد على مسامعي بين الفينة والأخرى، لازمة أغنيته، بأنّه أقوى رجل في العالم! في فترات هدوئه كان يطرح عليّ أسئلة أقرب إلى الامتحان من قبيل «لم قد ينجو مصباح زجاجيّ منصوب في العراء بعد ساعات من الاقتتال».. أجملها كان «هل تعلم لِم يجبُ أن نحبَّ الثّلج؟ أمر وحيد ينبغي أن نحبُّ الثّلج من أجله يا صديقي.. هل تعلم ما هو؟». أجبتُه «طبعا.. أقصد.. ربّما لأنّه أبيض..».

قال: «أحمق..أترى.. قلتُ أحمق كي لا أقول مُخطئ.. لأنّ الخطأ.. هذا ليس موضوعنا.. أليس كذلك؟ الثّلج.. الثّلج.. كم هو نبيل ذاك المخلوق.. أترى.. إنّه لا يعوي ولا يقرع النّواقذ والأسطح والعلب وكلّ الخرافات الأخرى.. بل ينزل صامتا، تماما كما يمشي القطّ.. دون ضجيج يأتي ليُغيّر شكل الدّنيا لبعض الوقت ثمّ يمضي صامتا أيضا.. الثّلج رجل جميل بمعنى الكلمة يا رجل..».

لم أُفلت حرفا واحدا ممّا قاله. ولا فاصلة ولا نفسا. ها إنّ أنفاسه الحارّة بدأت تتلاشى وها إنّ وخزات الرّطوبة في البيت بدأت تعود تدريجيّا وأخذ انصهار رائحة المفروشات وخشب الأثاث مع الرّائحة النفّاذة للمقاعد الجلديّة يُحفّز ذاكرتي. حقّا، إنّه أمر يدعو إلى السُّخرية أن أنتظر لحظة خروج «لؤي» بفارغ الصّبر لأشي به إلى دفتر. شعرتُ في الإبّان وأنا أمسك بالقلم بأنّي أتصرّف مثل طفل يكتب كما لو أنّه يراسل نفسه المُقيمة في زمن لاحق.. رغم يقيني بأنّه لن يأتي البتّةَ اليومُ الذي سيتحوّل فيه أمر كهذا إلى دافع يُسعدني. أعرف جيّدا ما لا يمكن أن يكون.

قبل أن يُطبق الباب أطلّ برأسه وقال:

·قلتَ عنّي يوما بأنّي عنصريّ.. أتذكر؟.. أنا أذكر على أيّ حال.. كنّا صغارا، لكن لمَ لمْ تُبدّدها عندما صرنا كبارا..؟ لعلمك هي تتحوّل الآن

في الغلاف الجويّ لمعطفي..». ضحك عاليا ثمّ صفّق البابَ بلطف مبالغ فيه ما جعله يلامس الإطار مرّتين.. فجّر القصّة في رأسي واختفى.. كم أشتهي أن أقتله مرّة.. نعم كنّا صغارا. بل لعلّ أغرب ما في القصّة أنّنا كنّا صغارا.

كنتُ في الصفّ الرّابع أو الخامس لمّا وفد على حيّنا الجيران الجدد. كان لديهم أغراض كثيرة. وهم يكدّسون بعضها في ردهة المنزل ويمرّون بالبعض الآخر إلى الداخل أمكنني أن ألحظ كمّ الألعاب المهول لديهم. يُفترض في تلك الدّقائق أنّي ردّدتُ في نفسي «لن أسأم أبدا لو كانت تلك الألعاب لي». ثمّ سرعان ما استقرّ الجيران الجدد وصمت منزلهم مثل منازلنا. رُويدا نشأت بيني وبين ابنهم صداقة وثيقة رغم أنّي كنت أكبره بسنتين، لا أدري إن كان السّبب هو فضول لا يُقاوم بشأن عاهته التي لا يُشهدك القدرُ عليها كلّ يوم، أم أنّها ببساطة طريقة طفوليّة لأصرف نفسي عن السّخرية من هيئته القبيحة. سبب ما لا علاقة له بكمّ الألعاب المهول الذي لديه أو اللّهجة المُهذّبة التي يتكلّمها جعلني أنصّب نفسي حاميا له من سخرية بقيّة الأصدقاء، إذ لم يكن باستطاعتي مُقاطعتهم من أجله، كان الحلّ الوحيد أمامي هو أن أفرضه عليهم فرضا. في المُقابل كان عليّ أن أشاركهم إلحاق الأذى به، مثلما فعلتُ حين عقدنا جلسة طارئة لنطلق كنْيةً بَشعةً على جميع أفراد العصابة كما سمّيناها آنذاك. خلال الجلسة الطّارئة تفنّنا في إلصاق كُنْيات فظيعة من اختيارنا، أي كلّ حسب ما يرغب. «مَعينُ» هو الوحيد الذي اخترنا نيابة عنه كنيته البشعة فكان من نصيبه مَعين الوحش. مَعينُ بالنّسبة إلينا كائن كان لا بدّ أن يظهر في حياتنا كي نعيش بداهة سلامتنا الجسديّة بلذّة متجدّدة. بعضهم لم يكن يطيق لمسه أو حتّى الاقتراب منه. لؤي وعماد مثلا كانا يفعلان ذلك من باب التّباهي بالشّجاعة، عماد المُستعدّ دائما لفعل أيّ شيء يجعله مُنغمسا في أمر ما، ما انفكّ يتباهى بطرفه الأخير كأنّه من صنع يديه. أمّا مَعين فكان يُواجه تصرّفاتنا بتفهّم حطّ كثيرا من كرامتنا الغضّة. قال لي مرّة إنّه لا يرغب في مواصلة التّعلّم في المدرسة الخاصّة وأنّ أباه هو الذي يصرّ على ذلك لأنّهم يعرفون كيف يتعاملون مع الأطفال المختلفين. قال ذلك تماما كما يتحدّث الكبار. لم أفهم كلامه إلاّ بعد سنين. في بيتنا ما فتئت أمّي تردّد كلمات الشفقة كلّما رويتُ لها حادثة وجدتها مثيرة أو شدّت انتباهي في طريقة تحركه، كانت تكتفي بالقول: مسكين! وحين تسأل أختي «أمّي لم لا يُشبهنا مَعين؟» تجيبها «إنّه مريض ولا ينبغي أن يسمعك أحد تقولين ذلك». أحيانا كان يحاول الجري بصورة طبيعيّة، لكنّه إمّا يسقطُ أو يتعبُ بسرعة. مع مرور الوقت بدأنا نعتاد هيأته وطريقته الطّريفة في التّعامل مع الأشياء، واعتماده الكلّيّ على يديه.. كنّا نرى العالم الصّغير المُحيط بنا عبارة عن جبل من المآزق والعراقيل التي ينبغي أن تُشقيه وتجرح إحساسه. كرهنا الأشياء نيابة عنه، تمنّينا أن نسمع منه حنقا يشفي غليلنا. رأينا الطّريق طويلا نيابة عنه.. والشّجرة عالية وشرّيرة نيابة عنه.. لكنّه كان دائما يخذل تصاميمنا لمشاعره تجاه العالم، فقد كان مُحبّا لكلّ شيء.. بعبارة الكهل الذي صرتُه اليوم، كنّا نتصرّف إزاءه كمخمور يبحث في كتاب فهرسه لا يُطابق ترقيم الصّفحات. استقامته الغريبة، ملابسه التي لا أحد يدري من أيّ المحلاّت كان يحصل عليها، والتي كنتُ أتوهّم أنّها تكبر معه. وأشياء أخرى كثيرة اعتقدتُ أنّي نسيتها، تعاود الظّهور الآن أمام عينيّ كما لو أنّها مشكل يستوجب حلّه.

كان نابغة في الدّراسة، يفهم الظّواهر ويحلّلها بشكل عميق وواضح. وكنت في سرّي أشعر بالغيرة بسبب تفوّقه الصّارخ غير المستحقّ. لكنّي كنتُ أواسي نفسي بتفوّقي الجسدي عليه وبأنّه لن ينال مركزا أفضل من مركزي بجسمه المُشوّه.. كان على علم بأنّه فاقد تماما لحظوظ الفوز على أحدنا في اشتباك بدنيّ أو تحويل اهتمام فتاة ناحيته.

أبي متحامل على النّصيب الذي جعل مَعين متفوّقا وجعل منّي فتى ثقيل الفهم والأصابع وربّما ثقيل الظلّ أيضا. لم أشقّ على صدره لكنّي أراهن بكلّ ما أملك أنّه قد أرهق تفكيره كثيرا ليقنع نفسه بالسعادة التي يمنحها الأطفال الأسوياء لوالديهم. كانت طريقتي لأسخر من مُعين في سرّي وعلى نحو حقيقيّ، هي أن أساعد أبي على إتمام طقوس حسده لوالد مَعين دون أن أزعجه بأسئلة الأطفال البائسة المُعيدة إلى الرّشد. كثيرة كانت الاتّفاقات غير المعلنة بيني وبين والدي، فمثلا بوسعي -في قمّة غضبه- أن أميّز «كفى!» التي يصرخ بها في وجهي والتي يريد منّي بها الاستمرار في الهرج. يحدث ذلك غالبا عندما نحلّ ضيوفا على عائلة أخرى وأنجح تحت تشجيع من عينيه في تعنيف أحد أبنائهم بطرفي الأخير. مع ذلك لم أكن وحشا ولا كان أبي وحشا. بل أكثر من ذلك كنتُ أشاهد في التّلفزيون علماء الحشرات والزّواحف وهم يقبّلون السّحالي قائلين: أوه .. يا ملاكي الجميل..!

وحده مَعين كان وحشا على نحو ما.

لقد امتلأ لديّ حقّا ما يُمكن أن أسمّيه منسوبا مُحترما من الوضوح، رغم ذلك مازلتُ أتساءل لِماذا لمْ تستغرق منّي العودة إلى الماضي كلّ ذلك الوقت الذي احتجته للوصول إلى هنا؟ ها إنّي هناك ثانية وها نحنُ نلتفّ حول شجرة غرسها للتوّ ناس كثيرون بمناسبة عيد الشّجرة.

منذ اللحظات الأولى التي تلت رحيلهم ذبُلت الشّجيرة المسكينة وتقوّس أعلاها، حينها لمع في ذهني أنّها تشبه طرف أبي الأخير؛ في اليوم الموالي يبست ثمّ بعد ذلك اندثرت. أنجزنا حلقة، ثمّ طفقنا نحوم حولها ممسكين ببعضنا مغيرين الاتجاه في كلّ مرّة بصورة عشوائيّة بقرار من أحدنا، كم كان حلوا أن يُطيعك عدد يتجاوز ثلاثة، غيّرت اتّجاه الدوران مرّتين. أثناء قيامي بمحاولة ثالثة أحسست بأنّي أسحب شيئا مستعصيا له قوّة حيوان. حينها أدركت أني استنزفت حظوظي من قلب نظام الدّوران. بلغت المنافسة على القيادة أشدّها بيني وبين لؤي. كلّ ذلك يحدث تحت أنظار معين الوحش. كان يبدو في عينيه أنّه فخور بي.. أعتقد أنّي ما زلتُ، على نحو ما، أحتفظ بتلك الطّاقة تسري في بدني.. حين تشكّلنا قطارا انضمّ إلينا مَعين. اتّخذتُ وضعيّتي وراءه مباشرة. لمّا انطلقنا أحسست بجسده يندفع كقاطرة حقيقيّة. كان ذلك بفضل طبيعة اللّعبة المُصمّمة لتُخفي مُشكلته المُضحكة. حين أستجمع الآن كلّ تلك اللمسات الحانية وهو يطوّقني بذراعه من رقبتي وكيف كنتُ أتخيّل أنّنا كائن واحد برأسين. أشعر بالأسف والإشفاق عليه. لقد اختفى مَعين فجأةً..

ليس من السهولة أن يمّحي أحدهم من حياتك فجأة بصورة جادّة كجثّة؛ شيء ما قد احترق فعلا. سبق أن قلتُ إنّي أعرف ما لن يكون.. لن أرى مَعين الوحش، صديقي المرفوض، مبتور الذّيل.

كاتب من تونس

لؤي كيالي ←

مسمار القيلولة

محمود الرحبي

منكبا وهو يرقن وينقل الحروف من مكانها الأول في الأوراق إلى مسكنها الجديد في قلب شاشة الماكنتوش. الحروف وليس المعاني، يرفع الكلمات بعينيه من مكانها في الدفتر حيث تكون مرسومة بخطوط أقلام اليد، إلى مكان أعلى في قلب الآلة.

غالبا ما ينهي عمله عند الثالثة بعد الظهر، وقد أتى على معظم الرزم التي يرسلها المدير إليه عن طريق المراسل، يحفظ ما رقنه ويغلق الجهاز ثم يرفع جسده من كرسي العمل إلى كرسي السيارة وينطلق.. أكثر المسامير شهرة هو مسمار جحا. وذهابا في المعنى خروجا عن غلاف اللفظ، نقول بأن هذا المسمار يمكن أن يكون أي شيء: غرفة، كلمة، أمانة، أو حتى وطنا. كل شيء إلا أن يكون مسمارا كالذي نحشره في بطون جدراننا وأخشابنا، بجسمه القصير ورأسه المسطح المستدق، وذيله العاري كإبرة النحلة.

سالم يعمل في مطبعة بروي، ويسكن في شقة بالسيب، وهو بذلك ينتقل بين المكانين مسافة سفر تربو على الستين كيلو مترا. وحين يصل إلى شقته الصغيرة، يكون أكثر ما يحتاجه النوم؛ أن يدفن جسده لمدة ساعة كاملة. وهو وإن لم يفعل ذلك سيعيش طيلة ما تبقى من يومه طافي الرأس سرحانا ينوس الكسل في عينيه.

هذه القيلولة كان يزن لحظاتها بميزان الذهب. فبعد أن يتوقف في مطعم ويطلب صحنا من أرز ومرق، ويشعر بانتفاخ بطنه وتتخدر حواسه، فلا يرى أمامه بعد ذلك سوى سرير القيلولة.

لكن مؤخرا افتتح معرض للسيارات تحت شقته. تخرج أجسامها المعدنية من قلب المحل، وتتمدد إلى جادة الشارع من العاشرة صباحا وحتى العاشرة ليلا. نافذة من نوافذ الجحيم شرعت تحت أذنيه. يفتح عينيه بغتة على صوت أشبه بصياح مبحوح لسيارة خربة تجر إلى المعرض، أو على فحيح طارد العوادم لسيارة قديمة. وهناك كذلك اصطفاق الأبواب ورفع أغطية المحركات وإغلاقها بالقوة.

كل ذلك جعل من انتظار غفوة النوم مقرونا بانتظار ضربة مفاجئة.

وقف على رجليه وأطل من نافذته بيأس. أدخل نُواتي تمر إلى فتحتي أذنيه.

ثم جاءته فكرة تغليف الأصوات القبيحة بأصوات جميلة، فاقتنى مسجلة. لكن كل ذلك لم يصمد أمام أنياب المعرض التي تنغرز أصواته في رأسه كلما هجع للقيلولة. وقد ظل صوت أم كلثوم يتهادى ويسيل في الأذنين ويحوم على الجفنين إلى أن تثب ضربة من الأسفل، وتنفض كل شيء وتعيد الصبر إلى خط انطلاقه الأول.

ورغم تلك الفوضى، فإن الصوت الجميل يستمر في الغناء: ما تصبرنيش ما خلاص.. أنا فاض بيّ ومليّت.

وفي لحظة رفع جسده وفتح النافذة ثم اتجه ناحية الحمام، وملأ جردل ماء حتى حافته، ثم قذف بكتلة الماء في الهواء. ارتفعت وتشكلت لحظة على هيئة حيوان غاضب ينشب مخالبه قبل أن ترتطم الهالة المائية بالأرض.

ساد الصمت الشارع لحظة. وسالم الذي نفّس عن غيضه، استعاد رشده وبدأ بالاقتراب بحذر من النافذة ليرى عاملا هنديا مبللا جسده بالماء، وهو يمسح سطح سيارة نيسان بترول جديدة. كما رأى الوجه الأنيق لصاحب المعرض، يرتدي نظارة سوداء تغطي وجهه كقناع، رافعا رأسه ناحية النافذة وهو يبتسم ويهز رأسه ببطء. رمشه سالم لحظة قبل أن يغلق النافذة، ويدور على عقبيه ويمد ظهره على السرير منتظرا رجال الشرطة، أو صاحب المعرض كما أوحى له عقله المتعب.

فتح الباب لصاحب المعرض، رفع له إحدى يديه أن يقف مكانه ولا يدخل. حبس غيظه. ولكي لا يصطدم بوجهه، حوّل نظرتيه وسرحهما على البلاط العاري حيث حامتا متماوجتان يصعب - بسبب التعب- تركيزهما في مكان واحد.

- طبعا جئت لتشتكي؟

- بل جئت لأعوضك عن هذا الإزعاج الذي أسببه لك كل يوم.

- هل تعلم بأني أصحو منذ الخامسة وعليّ أن أشق طريقي ساعتين في الزحمة حتى أصل إلى عملي، وحين أعود بعد الظهيرة وأتغدى، لا أحتاج من هذه الدنيا سوى ساعة هادئة وأنت تحرمني منها.

- سأسدد عنك جميع فواتير الكهرباء طيلة إقامتك.

- طبعا مقابل أن أصبر على إزعاجكم.

-لا.لا.

- أطلق الحرفين الأخيرين مفعمين بالضحك وهو يحرك كلتا يديه.

- إزعاجنا قانوني تماما، ولن تستطيع أن تفعل لنا شيئا.

-إذن مقابل ماذا؟

- مقابل أن تسمح لنا بأن نعلّق خارج جدار شقتك لافتة إعلانية مضيئة.

- لست صاحب الشقة.

- أعرف. وقد استأذنت من صاحبها وليس لديه مانع شريطة موافقة الساكن.

- ولماذا يوافق الساكن طالما أن اللوحة ستنصب في الخارج؟

- بل إننا سنضطر لزيارتك في بعض الأوقات، كما أننا سنوصل أسلاك اللوحة من شقتك.

- مسمار جحا إذن؟

- مسمار حجا؛ يمكننا أن نعلّق اللوحة في الشقة العليا في حالة رفضك. فكر في الأمر ورد عليّ في بداية الأسبوع المقبل. اذهب إلى قريتك ورد عليّ بعد العطلة.

أطلق صاحب المعرض عبارته الأخيرة وأدار جسده وهام أن يتبعد.

- كنت أود أن أسألك عن سيارات النيسان بترول الجديدة التي بدأت أراها في معرضك بأكياسها وكأنك تجلبها من المصنع.

- هي جديدة فعلا وأنا فتحت المعرض لهذا الغرض، أجمعها من البدو الفائزين في مسابقات الهجن، ومن عطايا الديوان لشيوخ القبائل، فالجميع يرغب في أن يرى هذه السيارات أموالا وليس حديدا، فيبيعونها لي بأسعار جيدة.

ذهب سالم إلى قريه مطي، حيث عائلته التي يعمل من أجلها. فيترك كل شهر عند زوجته مبلغا تستقبله وتفرح به كراتب شهري، تماما كما يستقبل ويفرح زوجها براتبه كل شهر. وهو ما يتبقى له بعد أن يقطع قسط سيارته وإيجار شقته وما يقتاته من أكل في الشوارع. كان يعيش مع أمه وأبيه وزوجته وابنة سمياها ريا تيمنا بوالدة أبيه التي رحلت أثناء الحمل بها فأورثت اسمها لحفيدتها.

كاتب من سلطنة عُمان

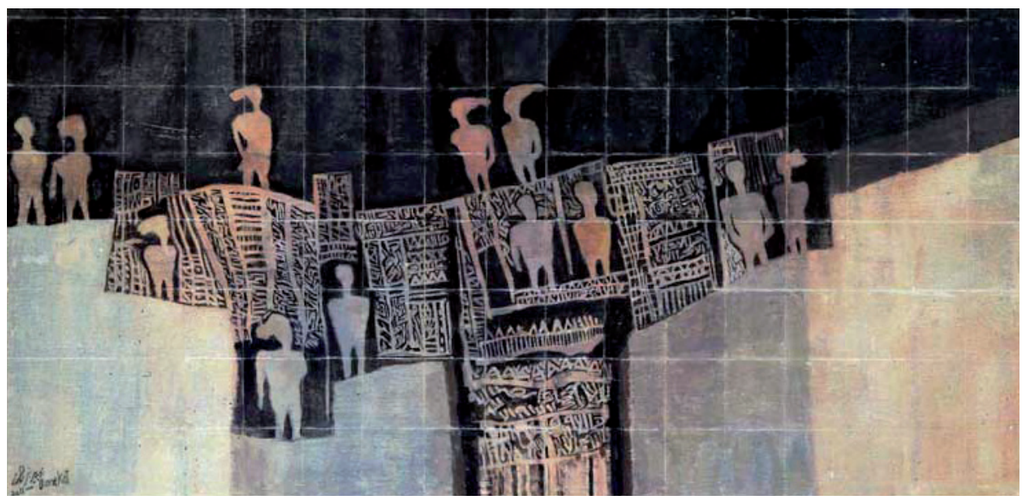

تيسير بركات

دعوة مفتوحة

الجديد

تدعو

حملة الأقلام العرب

إلى المشاركة

في نشر نتاجاتهم الإبداعية

والفكرية

والمساهمة

في نقد المنشور على صفحاتها

لاستئناف

الحوار والجدل والسجال

في الحياة الثقافية العربية

فكر حر وإبداع جديد

قوسٌ من نعاس

محمود الريماوي

فيما كان النعاس يراوده عصر ذلك اليوم، فقد سأله على الهاتف أحد أصدقائه القدامى إذا كان حفل العشاء سيقام في النادي على الثامنة مساء غدا الجمعة، وقد اختلط الأمر عليه، ولم تسعفه ذاكرته بشيء حول ذلك العشاء، ورأى أن أفضل طريقة للتخلص من السؤال الصعب هي الإجابة المقتضبة بالإيجاب، وهو ما فعله. وقد استذكر بسرعة ملامح الصديق اللمّاح الممعن في الغياب، وقد انقطعت صلته به منذ 15 عاماً ونيف، وانتبه إلى أن الولائم تقام هذه الأيام لأسباب كثيرة، ليست جميعها أسباباً واضحة، واستغرب أن يتوجه الصديق السابق إليه بالذات بالاستفسار. ولم يلبث أن تلقى مكالمة هاتفية من إدارة النادي تفيده بأن الاستعدادات قد تمّت على أكمل وجه لإقامة الوليمة في الموعد المحدد مساء غد. شكرهم على الاهتمام قائلاً بعفوية إنه ليس متأكداً إن كان سوف يحضر، فأطلقت السيدة على الطرف الآخر ضحكة رخيّة هانئة، وأثنت على روح الدّعابة لديه ·التي تعكس كرم نفسه· كما قالت..

·إذن لا بد أن أحضر· قال لنفسه و·في الوقت الذي لا أشعر به في العادة برغبة في تناول الطعام·. فعزم على الامتناع عن تناول طعام غدائه في الغد على الخامسة مساء، كما يحدث كل يوم تقريباً، كي يحتفظ بشهيته لطعام العشاء.. عشاء الوليمة ووسط جمعٍ من مدعوين ممن يتابعون حركات وسكنات بعضهم بعضاً، ويُسرفون في تبادل المجاملات، وفي الثناء على جودة الطعام، وعلى حُسن اختيار المكان. وقد استذكر في الأثناء أن النادي إياه.. النادي الوطني، منعه من الدخول قبل بضعة أشهر بحجة أنه ليس عضواً فيه، رغم أن النادي يستقبل حين يشاء زبائن من غير أعضائه. لن يعاتبهم على ما جرى فلن يتذكروا تلك الواقعة، وسوف يسارعون لإنكارها، كما سوف يسارع بعض المدعوين للسخرية المكتومة منه. أشياء مُمِلّة مثل هذه تحدث، ومن المهم أن يتفادى المرء وقوعها..

حاول في الوقت المتبقي على الموعد نسيان الأمر، والانشغال عنه بأيّ شيء آخر فلم يفلح. ازدرد بغير شهية طعام غدائه المحفوظ في ثلاجته الصغيرة بعد تسخينه، وسارع لاحتساء كوب شاي لترطيب هواجسه. وضاق بما يحدث فخرج يتمشى، ووجد نفسه في الشارع يغبط الناس المندفعين إلى شواغلهم، والمستغرقين بصورة كلية في مُتَعِهم الصغيرة والكبيرة، غير المدعوّين إلى وليمة الغد.. الناس الأحرار كما وصفهم، الذين يدعون أنفسهم إلى ما يرغبونه فحسب. أما هو فلا فكاك له، لن ينتظر مكالمة ثالثة.. مكالمتان تكفيان. مع ذلك فقد تخيل نفسه وقد عزف عن الاستجابة للدعوة، واستقلّ حافلة إلى مدينة بعيدة يبيت فيها ليلتين، وذلك لتسويغ غيابه عن الحفل. راقته الفكرة التي سوف تتيح له تغيير المرئيات بالانتقال إلى مكان جديد، وكان الوقت ما زال قبيل الغروب. ولم يلبث أن تخيل نفسه وهو يمضي الرحلة مُتفكّراً بالوليمة، ومنشغلاً بها في أثناء مكوثه بالمدينة الأخرى، وأدرك أنه من الخير له أن لا يبذل الجهد، ولا ينفق النفقات، من أجل أن يبقى الحال على ما هو عليه! ليكن.. ليست هي الوليمة الأولى التي ينضم إليها في حياته. وقد انضم إليها بالفعل في اليوم التالي على الموعد وفي المكان المحددين، وكان المدعوون يفِدون تباعاً بينهم أصدقاء وبعضهم مجرد معارف، وبينهم من يصادفه لأول مرة، وهذا هو حال الولائم الكبيرة في كل مكان، فلماذا الاستغراب؟ لم يستغرب سوى للترحيب المفرط من إدارة النادي به. لعلهم أرادوا الاعتذار عن فعلتهم السابقة بمنعه من الدخول. وجد نفسه على رأس طاولة مستطيلة طويلة، وقد حظي بمجاورة وزير سابق مكتهل، وصحفية حالية شابة. إنهما في حُكم الأصدقاء. وقد تبادل معهما المجاملات وانهمك معهما في تناول المُقبّلات، وردّ التحيات التي تصدر من هذا المدعو أو ذاك على طرفي المائدة. وقد حرص كبير الندل على الاهتمام به، وسأله إن كان يرغب أن يشرب شيئا، فشكره مكتفيا بالماء المتوفر في زجاجة طويلة أمامه. لكن النادل عاد ووضع أمامه كأسا قائلاً إنها ضيافة من النادي. ولم يلبث جمْعُ المدعوين أن دخل في انسجام جماعي وتبادُل أحاديث مرحة صاخبة، فيما انشغلت الصحفية بجارٍ لها وكذلك الوزير السابق، ثم هبط الطعام الشهي واشتبك معه المدعوون اشتباكاً حميماً لاهثاً، وانغمس هو بدوره بتناول اللحوم المشوية، ولم يكن قد تناول طعام الغداء. وتصاعد صوت غناء وتصفيق وصوتٌ ناعس لمطربة، وهناك من رقصن في أماكنهن من المدعوات الوقورات. وخطر له أن يَعُدّ المدعوين، وهو ما لاحظته جارته الصحفية فسارعت للقول إنهم 44 شخصاً. كاد يسألها عن مناسبة الدعوة لكنه أطبق فمه في اللحظة الأخيرة، فلا يُعقل ولا يليق تلبيته الدعوة من دون أن يكون عارفاً بالمناسبة. وقد تبادل الحديث في شؤون سياسية مع الوزير السابق، وهذا قال إن الوضع في عموم المنطقة غير مطمئن وأن المنطقة مستهدفة! وهو ما توقعه ووافق عليه. ولم يستطع إكمال الحديث فقد علت أصوات المدعوين إذ انتقلوا من تناول الطعام إلى احتساء الشراب. وهو دون أن يقرر ذلك شاركهم في الشراب متمتعاً بضيافة نشطة من كبير الندل. إلى أن بدأ بعض المدعوين الثنائيين في الانسلال خارجين تباعاً، وبعضهم تقدّم منه وصافحه مودّعاً ليس من بينهم صديقه القديم الذي هاتفه، والذي لمحه في موقع بعيد عن المائدة، فيما تكفّل من بقي بملء الفراغ. ولم يعتم جاره أن انسحب وصافحه بحرارة شاكراً هذه الفرصة الطيبة. أما جارته الصحفية ففاتحته أنها سوف تتصل به قريباً جداً لإجراء حوار معه حول الموضوع، ولم يعرف ما هو الموضوع واكتفى بإيماءة استجابة، وما لبثت الصحفية أن انتقلت إلى مقعد آخر بعد أن أصبح هناك عددٌ كافٍ من مقاعد فارغة خلّفها المغادرون لمن يرغب في تغيير مقعده، وتبديل من يجاوره. شعر بالنعاس في مقعده وتمنى لو يغمض عينيه ويجد نفسه في سريره، وشعر بغربة شديدة عمّا وعمّن حوله. وهو ما لاحظه كبير الندل الذي اقترب منه منحنياً، ووضع طبقاً أبيض عليه ورقة طولانية تقوّست لشدة خفّتها أمامه. نظر إليها فإذا هي فاتورة. ابتسم للمفاجأة ، فالمفاجآت على العموم تروقه، وخاطبه كبير الندل بأن ثمة تنزيلاً خاصاً وقع على قيمة الفاتورة. سأله عن قيمتها، فأجابه: 1222 يورو. وسأله: ألا ينفع الدفع بالعملة المحلية؟ فأجابه كبير الندل: ينفع.. إنما أردنا تسهيل الأمر عليك بالدفع باليورو. وأردف الرجل ضاحكاً ضحكة ذات مغزى أن المدعوين شربوا كثيراً ومن أفضل الأنواع، مع أنه (كبير الندل) لم يُلبّ مُتعمّدا جميع طلباتهم. ولدهشته فإن النعاس اشتدّ عليه، ولم يجب بشيء حتى أنه لم يرفع ناظريه نحو الرجل المُهندم الواقف، الذي اضطر لدفعه برفق مرتين في منطقة الكتف اليمنى، فاستيقظ قائلاً بأسف إنه لا يحمل هذا المبلغ. فأوضح له الرجل إنهم يرّحبون بالدفع ببطاقة الفيزا. وقد أراد الوصول إلى محفظته في الجيب الداخلي للجاكيت الذي كان قد خلعه ووضعه وراءه على مقعده، وقد التفت إلى الخلف، وفتّش الجيبين الداخليين فاصطدمت يده بالفراغ. فاستولى عليه مجدداً نعاسٌ رصاصيّ سُرعان ما حمله إلى نومٍ ثقيل تخلّلته كوابيس روتينية، وبعض فواصل استيقاظ أليمة.

كاتب من فلسطين

نهاد الترك

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

ثلاث حالات

محمود الوهب

فرح علي

احلام القهـوة

كئيب وجه المدينة. وجه حلب كئيب، اليوم، وحزين. مزاجُ الحاكم معكَّرٌ. عصا الطغيان مطلقة غاضبة، تجوب النواحي والأحياء، تضرب في الأرض ومن السماء.

فنجان القهوة وأحلامها يراودان أفق الأستاذ عبدالمعين، يحثه حنين إلى المقهى وحكاياه والأصحاب. يَحْمِلُ نفسه ورغبات مزاجه، وينهض، يصمّ أذنيه وعينيه عن صوت زوجه، ووجهي ابنتيه ويمضي. جنود وأشباه جنود، جنود يحطّون أحمالهم وأوزارهم في تقاطعات الشوارع وعند المنعطفات، حواجز تتبعها حواجز، براميل وحاويات، تلال من مخلفات الأبنية والنفايات تقطّع جسد المدينة إلى أشلاء وأوصال. أبنية الفتنة والفساد تتلمس الأمن بأسوار متراصة من العسكر والحديد والأسمنت.

أف، ما هذا القرف؟ شيء يسد النَفَسَ فعلاً. يتحسس عبدالمعين صدره المائل نحو العتمة والضيق، يتمتم:

فاسد، هواء الشارع اليوم فاسد، غبار وبارود. ينكمش، يتباطأ خطوه، يكاد ينعطف عائداً. ولكن لا. يتلمس خطوات حذرة عند جدران الأبنية، ويستمر.

رصاص، رصاص! رصاص عابث غادر! رصاص أحمق، يعكِّر وجه الصباح، ومزاج العصافير.. لا يمام اليوم يرفرف فوق الأرصفة، ولا فراشات تحمل البشرى إلى النوافذ والشرفات، رصاص نحاسي يولول في الأسماع، يخلّف ندوباً في الأذهان والأرواح.

أحلام الجنرال

رصاص، رصاص. رصاص يفخُّ في فراغ مديد، رصاص لا يسمَعُ دويَّه غيرُ جَلْجَلَة صداه. لا ردودَ أفعال، ولا نأمةً تصدر عن كائن ما. وحده الجنرال الذي يطلق، يستنشق الهواء الملوَّث بروائح البارود، والجثث، وغبار الخرائب.

يمدُّ الجنرال أذنيه وعينيه في الجهات، لا شيء غير الصمت. سكون مطلق، يطبق على الأرض، وفي الفضاء.

ينفث الجنرال آخر موجات غضبه. تتفتح بوجهه علامات القوة والنصر. تنفرج شفتاه الجافتان علامة الارتياح والرضا، ومن خلف زجاج عينيه الأغبش تعبر آلاف الجثث والأشلاء.

نشوة غامرة تسري في كيانه وأوصاله، تعبِّر عن نفسها بقفزات عشوائية، تكسر زجاج الفراغ من حوله. الحذاء الأسود المتمكن من قدميه، والمشدود جيداً إلى ساقيه، يعاود صفع وجه الأرض بضربات تتالى. تحتدم نفسه بالنشوة. قهقهاته تخترق المدى. تدوِّم في فضاء السكون.. تزيد من سطوته على الفراغ، فيجلس منصتاً لرهبته. يتحسس دبيب الراحة في جسده.. تسرق الغفوةُ منه لحظات فرحه ونشوه. تأتيه بأحلامها، بكوابيسها. تئنُّ الأرض من تحته. يتفتح أديمها. تستيقظ الجثث مثقلة بأحزان الدم. تنهض.. تسأل عمَّن كدَّر صفوها، ومثلها تفعل الأشلاء.. بهدوء تام تتقدم من السيِّد المنتصر. تهفو أذنا الجنرال إلى خشخشة أقدام وصدى أنفاس. رؤوس ورقاب، أقدام وسيقان، أكف وسواعد، عيون وآذان ولسن، حتى الأعضاء التي لا ترى في العادة تظهر أمامه عريانة. كلها عيون تمعن النظر إلى الجنرال..

من خشية يرتعد الجنرال. ترتعش روحه، يميل نحو سلاحه. يحاول التصويب. وفجأة يتوقف، يهفو إلى صوت مجهول يأتيه من جهة ما، صوت تتلوه ضحكة، تليها ضحكات وقهقهات:

«كأنما السيِّد يجهل أن الميت لا يموت غير مرة واحدة».

ترتدُّ يد الجنرال، كأنما تشلُّ.. تستمر القهقهات في أذنيه والمكان..!

تنكفئ الجثث والأشلاء، تتشكل في جدار يعلو ويرتفع، يسد الأفق أمام عيني الجنرال. بعض الجثث تنزع ما تبقى عليها من ثياب. ثياب معفرة بالدم والتراب. تقذفها إلى وجه الجنرال الذي كان. تتراكم الأسمال على رأسه، وكامل هيكله. تبتعد الجثث، تختفي، وكأنما تتماهى بضياء فجري يأخذ في النهوض والارتفاع.

أحلام الشهيد

زخات من رصاص كثيف تتالى.. تخترق بحدة وزخم شديدين طبقات الهواء. تصدر صراخاً غريباً، هو إلى العواء أقرب. ما إن تنتهي الزخة الواحدة حتى تتلوها أخريات أشدَّ قسوة على السمع، وتأثيراً في الروح. تمتد رؤوس البشر من النوافذ والشرفات. أصحاب المحلات التجارية يخرجون إلى الشارع، يقفون أمام محلاتهم، أنوفهم تغوص في عمق الأمكنة، تستطلع أخباراً يقينية. أناس من هنا هناك، يهرولون إلى حيث يقدّرون مصدر الصوت. فضول غريزي يدفع الجميع لمعرفة أسباب إطلاق الرصاص ومكانه. وحين يبرز لهم النعش من إحدى الزوايا مرفوعاً على الأكف والأكتاف، تطرق الأعين الزائغة، وتتابع الأقدام سيرها الهادئ خلف الجنازة. بعضهم يسرع نحو حَمَلة النعش طالباً الأجر والثواب، ومعظمهم ينضمون إلى جمهور المشيعين. عيونهم على مطلقي الرصاص أكثر منها إلى النعش. فالخوف من طائشة زائغة، أو مرتدَّة عمياء، يفرض عليهم الحيطة والحذر. واحد من حاملي النعش الأماميين يحاول، وصوت الرصاص لا يزال يلعلع، أن يهمس لزميله الذي يجانبه بأمر ما. يتباطأ الاثنان في سيرهما. ثقل شديد يضغط على كتفيهما. لم يعد بإمكانهما الاحتمال أو متابعة المسير. ينظران إلى بعضهما والناس. سر غامض لا يجرؤ أحد على البوح به. حدث ما خفي. النعش الذي يأخذ في الضغط والاهتزاز يكشف المخبوء. ترتعش، من هول ما ترى، القلوب، وترتجف الأجساد، ثم تجمد في أمكنتها. أصوات تأخذ في الهمس أولاً، ثم تعلو وترتفع:

الله أكبر، لطفك، يا لطيف، يسكن الرصاص، ينهض الجثمان من نعشه. يخيم صمت تام على المكان والناس والجند. يلتفت الشهيد إلى الجنود الذين توقفوا عن الإطلاق، وقد تسمروا في ارتعاش وذهول! يقول بحزن هادئ:

رصاصكم يقتلني!

كاتب من سوريا

ثلاث قصص قصيرة جدّا

محمود شقير

أدراج

كنا نهبط الأدراج في حلمنا ونحن نمنّي أنفسنا بالوصول، ثم نجد أننا نصعد الأدراج من جديد.

بدا التذمر على محياها ولم تقل شيئًا. قلت: نحن في فندق، وعلينا أن نعود إلى غرفتنا التي غادرناها عند المساء.

خرجت عن صمتها وقالت: نحن في مستشفى، وصراخ المرضى هو الذي يعلو الآن.

أصغيت وسمعت الصراخ ووقعت في بلبلة، قلت: لسنا في فندق أو في مستشفى، نحن في مبنى للمخابرات، وصراخ المعتقلين هو الذي يعلو الآن.

التصقت بي وقالت: دعنا نغادر هذا المبنى في الحال.

استدرنا ورحنا نهبط الأدراج ونحن خائفان. ثم سمعنا من وراء الأبواب نساء ضاحكات.

ضغطت على يدي وقالت: بل نحن في فندق، هل تسمع ضحك النساء؟

قلت لها: أسمعه.

وقلت: هيا بنا نصعد إلى غرفتنا.

استدرنا ورحنا نصعد الأدراج ونحن متلهفان على الوصول. لكنها كانت أدراجًا بلا عدد وبلا انتهاء.

أسواق

رأيتها تجوب أسواق المدينة ذات مساء.

سألتها: ما الذي جاء بك من بيتك البعيد؟

قالت: بيتك هو البعيد.

كدنا نختلف على المسافة لولا أن حلمها كان من النوع الذي لا يرغب في تعقيد الأمور. ولحسن الحظ، كان حلمي من النوع نفسه. بادرت إلى التقاط يدها حين مدّتها إليّ. نامت مثل عصفورة في يدي، ومضينا نجوب الأسواق.

فجأة، انتبهتْ إلى أن القدس تخضع لمنع التجوال. انتابها الخوف والتصقت بي لكي أحميها من غضب الجنود.

قلت لها برصانة واعتداد: لا تخافي، بيتي قريب.

لم تناقشني في الأمر ربما بسبب الخوف، وربما كي لا يتبدّد حلمنا. دخلنا البيت، وأغلقنا علينا الباب.

بيت

نمنا في بيتنا بعد أن أحكمنا إغلاق الشبابيك، وكانت تحتمي بجسدي من لسع البرد، ولم نكن نتوقع أن يأتينا الجنود الغرباء.

لكنهم جاؤوا في حلم حلمناه، وكان لا بدّ من الذهاب مع الحلم إلى منتهاه. حملونا ونحن في الفراش وألقوا بنا في العراء، ثم وضعوا المواد الناسفة في زوايا البيت ونسفوه.

قالت بانزعاج: لم يعد لنا بيت.

قلت: سأبني لك بيتًا، وسيكون كل شيء على ما يرام.

واصلت نومها، وأنا شرعت من دون إبطاء في بناء بيت لي ولها، سقفه من ورد وحيطانه من كلام.

كاتب من فلسطين مقيم في رام الله

في المنتصف

ممدوح عبد الستار

ظلّ يرتشف قطرات حياته، التي تكونث علي جسده المنكمش، الذي لبّى رغبته المُلحّة في التذكّر. كان تذوقه ممزوجاً بلحظة ماضية، مغموسة في قلب الحاضر الذي يحتضر. وفي وسط الطريق، جلس القرفصاء، ووضع رأسه الثقيلة على -ماضٍ خفيف كما كان يقول قديماً- ركبتيه. كان ينظر للأرض الموحلة، ثم أجهش بالبكاء الممزوج بسر غامض. كان يبكى كأنه يضحك، ثم يضحك كأنه يبكي. بعدها؛ أطلق آهة موجعة. كانت الآهة بلا دعوة أو نداء أو تواصل. آهة مفردة، وبلا صوت. آهة من الألم الصافي.

في اللحظة التّي ثقلت فيها رأسه المركونة علي ركبتيه؛ أدرك أنه لا يملك ما يملكه البشر، وأن طريقه دائري، وأن ليس للوقوف معنى التوقف، وليس للمسير معنى السير. فقط؛ هو في دائرة الحركة -حركته هو- وليس له بدء، وليس له انتهاء. الاتجاه الوحيد الذي يودّ أن يملكه: هو رغبته في أن يري حركته مع حركة الناس. هو مع الناس، وليس منهم. وحيد بنفسه، وهم بغيْره ناقصون. ذلك هو مفهومه الذي تعلمه منذ اللحظة الأولي الذي أدرك فيها انتصاره؛ حين أيّده الجسد اللعين للمثول أمام أفكاره التي تسكنه.

كان جسده جسد الفكرة، ليس إلا. الاختيار والجبر مفهومان ناقصان، أيدته تجربته القصيرة. كان قديما يقول: «الموت في الحياة، والحياة في الموت. والموت والحياة دون الجسد نقص، وسوء نيّة، كان جسده يعتنق ذلك الفهم الذي وطّن نفسه عليه، وأخرج له الجسد مفهوماً خاصا له عن معنى القسوة، والعذاب، واللهفة، والفراق. وكان يعلن: «من يريد الاتصال عليه بقوة الأفكار. ومن يريد الانفصال عليه بقوة الجسد، والامتثال له» وحين همّ بالقيام؛ أدرك أن لا شيء ثابتا في حياته. غير أنه متيقّن أن حيّز وجوده هذا الجسد الملقى في الفراغ. لا قمر لديه، لا مدّ، ولا جزر. هو وحده الموجود بلا وجود فعلي. كان ذلك الإحساس يدور حوله، وهو سكران بنشوة لا يعرف مصدرها.

التف الخفراء حوله، وتمنوا أن يكونوا مثله، لكن الزمن لا يرجع بالنسبة إليهم، ثم سدوا عليه كل الطرق، ما عدا طريق المقابر. هذا هو الطريق المفتوح لكل البشر دائماً وأبداً. لكن الحقيقة أنهم لم يفكروا، ولم يدركوا ذلك فقط، حاولوا بتجمعهم طرد مخاوفهم التي عصفت بهم. هل كان كل مخاوفهم، وهل صنع تلك المخاوف لهم بإرادة منه؟ لا أحد يعرف! المهم أنهم صنعوا عدواً، وعليهم أن يبعدوا هذا العدو. لم يفكر الخفراء -مثل كل الناس- من الذي يصنع العدو، أو تلك المخاوف التي تجعلهم في تلك القسوة والعناد، علي الرغم أنه لم يقاومهم أبداً. المهم أن غالبية الخفراء الذين عاصروا مجده؛ كانوا يحاولون التقرب منه -قديماً- ولو بإلقاء التحية، وزاد غضبهم لما أدركوا ضآلتهم أمامه، وبإشارة من كبير الخفراء؛ خبط واحد منهم رأسه بكعب البندقية. استفاق مرغماً، ونظر لتلك العيون التي تبرق في الظلمة، واستجمع ملامحهم التي كانت غائبة عنه، وأدرك أنه لا يستطيع المقاومة الآن، ولم يجد أمامه غير طريق المقابر الذي هرول فيه مضطراً.

نهبت قدمه المتصارعة نصف الطريق الترابي بلا رحمة، ولم يشاهد معالم الطريق. كان صوت قلبه يخمش السكون. توقف، ونظر للخلف؛ فلم ير شيئاً غير الظلام. كان يودّ أن يرى البيوت الطينية ليعود إليها، لكنه قرر أن يقطع باقي الطريق.

خطواته الثقيلة مثل ورطته الآن، لا يأنس بشيء غير ضفادع الحقول، وصرير الحشرات الليلية. نظر للسماء؛ فوجد نجمات قليلة، وبعيدة جداً. تنهد، وقال لنفسه: «أكلتك الظلمة» امتعض قليلاً من الفكرة، لكنه ابتسم مرغماً، وقال بصوت جهوري: «النور بداخلي»، وخبط رأسه التي يعرف مكانها بالتعود؛ فاهتزت محاجر عينيه، التي تبحث عن ضوء شحيح، وعاتب نفسه، وتساءل: «هل يوجد نور بداخلنا فعلاً، وهل نور الداخل يُنير لنا الخارج؟»، وزلف لسانه: «لا أعرف! نحن ننطق كلمات واسعة المعاني، والخيال».

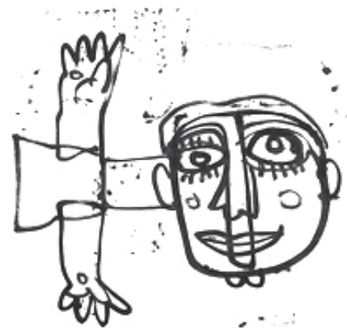

توقف فجأة، حينما انغرست قدمه في بركة طين لزجة. بصعوبة، أخرج قدمه اليمنى، وأخذ ينظّفها، وأدرك أنه فقد حذاءه، فخلع الفردة الأخرى، وألقاها في بركة الطين، وسمع صوتاً: «أقدامنا مغروسة دائماً في الطين، وحينما ننزعها، تنغرس في الطين مرة أخرى» قال: «الطين للطين يا غبي».

كان لا يستطيع أن يري جسده في الظلمة الحالكة، فلا شيء يُثبت وجوده غير صوته، وغالباً ما كان ينسى الجسد والظلمة، ويتقمّص أكثر من شخص. كانت الأفكار والحوارات هي التي تنهض بالجسد المتهالك، وتقطع وحشة الظلام، وسار خطوات كثيرة، حتى ظن أن الطريق الذي يسلكه ليس هو طريق المقابر.

جلس خاوياً من كل شيء، لم يشعر بفقد، أو بحنين لأيّ شيء، حتى أحبابه الذين لم يعرفهم إلا من صورهم. وهل كان له أحبة في يوم ما؟ لا أحد يعرف ما يدور في نفسه الآن. فقط، هو في منتصف الطريق، بين العمار الذي يلفظه، وبين المقابر التي يود الوصول إليها.

كاتب من مصر

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

شقة مؤقتة

منتصر القفاش

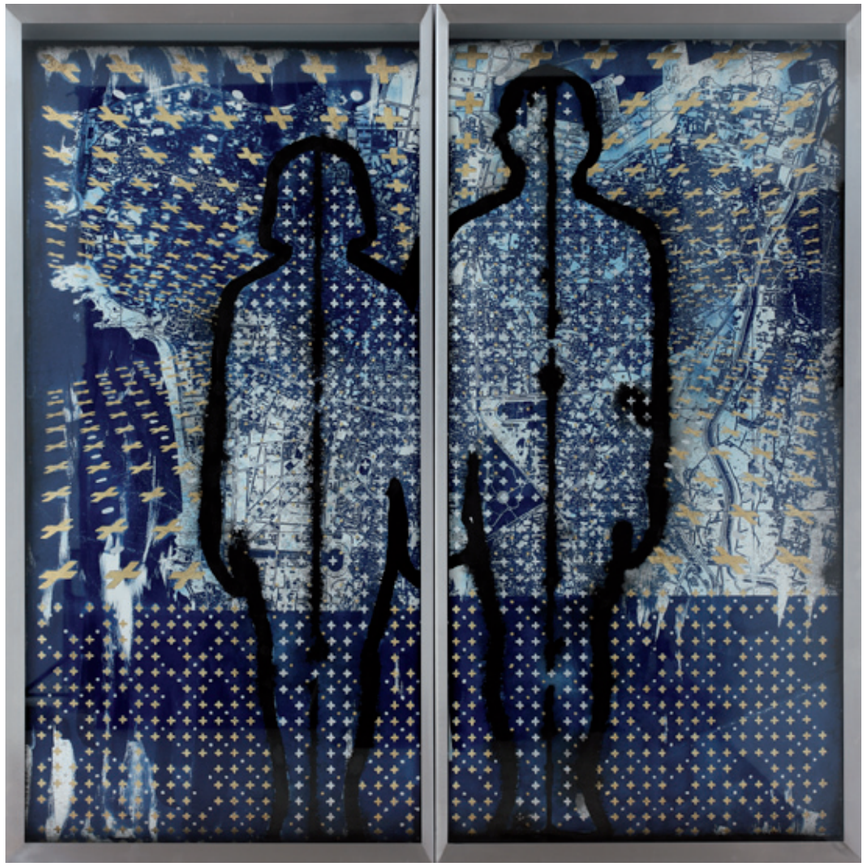

الفريد طرزي

صفر الشقة كان يهوّن عليها عملية التغيير. يكفي شخصان لتبديل مواضع قطع الأثاث دون مشقة، وإذا لم يتوفر شخص آخر، دفعت إيناس بجسدها تلك القطع التي يرتفع صوت جرها على البلاط. دولاب الهدوم فقط بسبب ضخامته ظل شاهدا على التغيير دون أن يتغير موضعه، وتجرّح كثيرا من احتكاك قطع الأثاث به أثناء نقلها، كأنها تعاقبه على ثباته في مكانه. غالبا كان التغيير يتم في الصباح، لكن إيناس أحيانا قررت أن تتم هذه العملية في الليل وقبل أن تنام. وعند فتحها الشباك في اليوم التالي كنت أجد الغرفة المطلة على الشارع صارت غرفة النوم، وأن جزءا كبيرا من السرير مكشوف لي. بالأمس كان التليفزيون ما أستطيع كشفه ويجاوره كمودينو، وقبل أسبوع كان جزء من المائدة وبضعة كراس. كنت أرى أن أثاث شقتها مستمر في لعبة كراسي موسيقية دون توقف. ولم أستطع توقع القطعة التي سيأتي عليها الدور، وأستطيع رؤيتها وأنا واقف في بلكونة شقتنا بالدور الثالث.

كانت الشقق المواجهة لي لا يتغير فيها شيء. قطع الأثاث الواضحة لي في أماكنها منذ سنوات. كبرت ولم تزل في مطارحها. ربما تمّ استبدال قطع جديدة بها لكنها توضع في مطرح القديمة دون أن تتغير مواضع الغرف. أشياء مستقرة في أماكنها كاستقرار تلك

الأسر منذ سنوات، واعتيادها على أن كل شيء يجب أن يكون في مكانه. أما إيناس فمنذ أن سكنت تلك الشقة وهي تردد أنها "مؤقتة". اضطرت إليها بعد تنكيس البيت الذي كانت تسكن فيه. وستغادرها فور إتمام إجراءات نقل عمل زوجها إلى القاهرة. كان زوجها مهندسا ميكانيكيا في أحد موانئ البحر الأحمر. ويأتي عشرة أيام كل شهر. وكانت إجازة زوجها أطول فترة يستقر فيها الأثاث في مكانه، ويندر فيها ظهورها في بلكونات الجارات. في فترة وجيزة وطدت صداقتها مع جاراتها في الشارع. وحمتها تلك الصداقة - خاصة مع الساكنات في نفس البيت - من استياء وتضايق الجيران من الضجيج الذي تحدثه بجر الأثاث. وجدت الجارات مبررات لما تفعله، إما لأن زوجها مسافر أو لعدم حبها للشقة أو لأن بقية أثاثها موزع في شقق أخرى. كانت شقتها القديمة خمس غرف تتنقل فيها براحتها دون الشعور بأنها في مصيدة. وتنتظر بفارغ الصبر شقتها الجديدة ليتجمع كل أثاثها مرة أخرى في مكان واحد. صداقتها مع جاراتها في الشارع وحمتها تلك الصداقة من استياء وتذمر الجيران من الضجيج الذي تحدثه بجر الأثاث. حديثها عن الشقتين: القديمة والمنتظرة كانت تغلب عليه نبرة الشوق والسعادة، كأن الشقتين شقة واحدة سيتغير مكانها دون أن تفقد أيّ شيء أثناء التغيير. وكانت تفضل حينما تزور إحدى الجارات أن تقضي معها الوقت في البلكونة، إلى درجة تصورت معها أنها لم تترك بلكونة في شارعنا إلا وأطلت منها. صارت شقق كل الجارات امتدادا لشقتها المؤقتة تتنقل بينها لتخفف من وطأة الدور الأرضي عليه. وعندما كانت جارة تسألها عن شقتها المؤقتة، تبدأ في السخرية منها ومن الدور الأرضي، وتتمادى في السخرية حتى تدفعك إلى الإحساس بأنها تسكن مكانا تحت الأرض، وتترقب الفرار منه والعودة إلى الحياة. أشارت وهي تقف في بلكونتنا نحو شباكها الموارب:

- عايزة أغير مكان السرير.

ضحكت أمي وقالت لها إنه لم يمض على وجوده في مكانه سوى يومين. لم تكن تعليقات معظم الجارات مثل أمّي، كان عدد منهن ما إن يسمعن رغبتها في تبديل مواضع الأثاث حتى يشجعنها، ويذكرن تصوراتهن عما يمكن أن تكون عليه الشقة، ويبدين استعدادهن لمساعدتها. وبالفعل كنّ يساعدنها في نقل الأثاث. وتعلو ضحكاتهن وهن يتراجعن عن نقل قطعة قبل استقرارها في المكان الجديد وينقلنها إلى مكان آخر.

صديق لي نظر نحو شباكها وهمس لي بأنني بالتأكيد أقضي معظم الوقت في البلكونة في انتظار رؤيتها نائمة على السرير. أفهمته بأنني لم أرها ولا مرة ممددة عليه، وصرت أشك في أنها تنام عليه أصلا. لم يصدقني. وظن أنني لا أريد تشجيعه على الاستمرار في المراقبة طول فترة زيارته لي. كان ما شجعه على تخيلاته رؤيته لها مرة تطل بسرعة من الشباك، وثقته في أن امرأة صغيرة مثلها لا بد أن تغفل عن إغلاقه وهي ممددة على السرير، ولا تنتبه إلى أنه مفتوح إلا بعد مرور وقت يكفيني لتأملها. وعندما عرف أنها لا تكف عن تبديل مواضع الأثاث، أصر على أن حيويتها تلك لا بد أن تدفعها إلى غير المتوقع، خاصة وأنها ستغادر الشارع في أقرب فرصة. كنت غير مقتنع بكلامه لكنني كنت أتمنى حدوثه.

مرة فتحت باب شقتنا وأنا عائد من مدرسة السعيدية مبكرا. واندفعت إلى غرفة نومي لأبدل ملابسي وأخرج مرة أخرى، وقبل أن أهم بإلقاء الكتابين اللذين أحملهما توقفت يدي وأنا أراها نائمة على سريري، وانحسر الغطاء عنها كاشفا عن ساقيها. التفت متوقعا وجود أمي خلفي. وبهدوء وحذر دخلت المطبخ وكل الغرف الأخرى. لم أجد أمي ورغم ذلك أحسست أنها ستظهر فجأة. عدت إلى مدخل غرفتي والكتابان في يدي وقررت التحجج بأنني عدت "دلوقتي" ومستعدا لإظهار كل علامات المفاجأة على وجهي وكلمة آسف على طرف لساني لو استيقظت أو لو عادت أمي من الخارج. بدت إيناس مستغرقة في النوم وانفرجت شفتاها قليلا. تضايقت من سكونها ونومها الهادئ. هيأت نفسي منذ أن وجدتها على سريري إلى أن جسدها لن يكف عن تغيير وضعه، وستظل تتقلب وتحرك ذراعيها ورجليها حتى ينحسر عنها تماما كل ما ترتديه. لكنها كانت نائمة كأنها واحدة من أفراد البيت دون أن تقلق مثل أيّ شخص ينام في غير مكانه، خاصة لو كان هذا الشخص لا يكف في يقظته عن الحركة ولا تكف قطع أثاثه عن تبادل أماكنها. لم أسمع أنها نامت من قبل عند إحدى الجارات. وفكرت أنها مع ازدياد غضبها وضيقها من شقتها قررت خطف دقائق تنام فيها في الشقق التي أحبتها، وكانت تذكرها بشقتها القديمة. تحركت يدها ومسحت رقبتها وتوقعت أن تفتح عينيها. توقفت يدها وهي تنزلها عند صدرها. تخيلت ما يمكن أن يظهر من جسدها لو تقلبت في مكانها. وخطر في بالي أن سريري سيصير مرتعا لتخيلات لن تنتهي. وستكون الناحية التي نامت فيها المكان الأثير لنومي. سمعت همهمة. ظننت أنها تحلم. أشارت لي بوهن. طلبت مني كوب ماء. أسرعت إلى المطبخ والكتابان تحت إبطي. مددت إليها الكوب. لم تستطع أن تنهض. وضعت يدي خلف ظهرها. رفعت رأسها وسقيتها الماء. انفتح باب الشقة. وجدت أمي تدخل الغرفة مسرعة حاملة علبة دواء. فتحت العلبة ووضعت قرصا في فم إيناس وسقيتها أنا مرة أخرى. ابتسمت لي. وببطء أنزلت رأسها. وسرعان ما غفت وأصابعها على ظهري بعدما ربتت عليه. خرجنا وأغلقت باب الغرفة. شرحت لي أمي ما حدث. شعرت إيناس بدوار مفاجئ بعد انخفاض ضغطها وهي تقف معها في البلكونة، وكادت تقع على الأرض فأسندتها أمي حتى سريري القريب من البلكونة، ونزلت لإحضار الدواء الذي طلبته من شقتها.

أتت جارات للاطمئنان عليها. وامتلأت الغرفة بهن. لم يحدث من قبل أن تجمعت كل هؤلاء الجارات في غرفتي. كن يتجمعن في غرفة أمي حينما تمرض. لم يضايقني وجودهن بل اضطراري إلى عدم الخروج من الشقة. وانتظار أن تطلب مني أمي أو إيناس شيئا. كنت أريد أن أخرج إلى صديقي الذي كان ينتظرني، وأحكي له ما حدث. وأستغرق في وصف كيف تفاجأت بوجودها على سريري. وستجعلني أسئلة صديقي أطيل في وصف ما لم يتم إلا في خيالي. تدريجيا استردت عافيتها قليلا. وبدأت الجارات يخففن عنها بقول اقتراحات لإعادة ترتيب شقتها. وكانت تعلق عليها بصوت خفيض أو بإشارات من يدها.

كاتب من سوريا

ثلاث قصص

مزن مرشد

الوسـادة

قصصت ضفيرتيّ الطويلتين.

تناثرت قصاصات الشعر في كل مكان من الغرفة، انحنيت ألملمها، وأودعها كيس وسادته.

قررت أن أصنع له وسادة من شعري الذي لا يزال عابقاً برائحة صدره، شعري الذي فقد معناه، منذ أن غاب حبيبه.

خبأت الشعر جيداً في كيس الوسادة الأبيض، عطرته برائحتي التي يفضلها، رفوتها بخيوط حمراء وأودعتها الخزانة.

أصبح سريري بوسادة واحدة بعد أن كان بوسادتين ورجل يحمل داخله حب الدنيا ويعشق شعري الذي تعود أن ينثره فوق صدره، ليداعبه ويحضنه ويقبله ويغمر رأسه فيه ليبكي طويلا إذا أراد البكاء كان يقول إنه مثل صدر الأم - ملجأه حين يضعف- وفي مساءاتنا الصيفية يجعلني أفرده ليغطي ظهري ونمشي معاً متباهياً بألقه.

انتهيت من تحضير الوسادة وقررت أن أعطيها له عندما يسمحون بزيارته.

انتظرت طويلا ولم تأت تلك الزيارة المنتظرة عقابا له على ما اقترفه فهو أخطر من السارقين والقاتلين ومصاصي الدماء.

أخيرا، سمحت الزيارة وحدد الموعد، غدا سأراه، غدا سنتحدث طويلا سأقول له إنني لن أطبخ ورق العنب إلا عند عودته، وسأخبره أن الوردة الجورية التي زرعها قد أزهرت والقطة البيضاء أنجبت خمسة صغار وأن ابن الجيران الذي ساعده باللغة العربية لم يذهب للامتحان.

سأقول له إن الإجازة التي طلبها من عمله كي نزور والدته قد وافق مديره عليها ثالث يوم من غيابه لكنني لن أخبره أن والدته عندما أخبروها باعتقاله، صمتت إلى الأبد.

سأقول له إنني أفتقده، أفتقد الأماكن معه، أفتقد رائحته وبرد الشتاء بجانبه، سأخبره كم اشتقت إليه وأن السماء تمطر كل يوم دون أن أشعر بطعم المطر ولم أشتم رائحته.

في الصباح ذهبت مع اخوته لرؤيته، كل واحد كان يحمل معه بعض الأغراض إلا أنا فلم أحمل له إلا الوسادة البيضاء المطرزة بوردة جورية حمراء وحيدة.

التقيته.. أستطيع الآن النظر في عينيه.. أستطيع الآن الحديث معه.. سماع صوته.. أستطيع الوصول إلى وجنتيه وشعره أستطيع أن أضمه، أن أنشج باكية حتى أموت بين ذراعيه وارتاح من الانتظار.. لكنني لم أفعل توقفت فجأة عن التفكير بأيّ بشيء نظرت إليه لوهلة لم أعرفه.. من هذا الغريب النحيف الذي أتوا به وقالوا لنا هذا هو.. عانقه إخوته أشبعوه قبلا وحضنا.

أنا لازلت واجمة أنظر إليه، أنظر لعينيه المكسورتين أحسسته غريبا، إلى أن نظر إلى عيني مباشرة، توقف قلبي، تجمدت عيناي لم أفعل شيئا مما هيأت.. فقط حضنته لبرهة، قبلت خده الذي أصبح هزيلا أعطيته الوسادة وذهبت، شعرت أن لا مكان للكلام.

علمت فيما بعد أن وسادتي صنعت حالة فرح، فقد كانت تدور على جميع رفاقه ليلة بعد ليلة ويخصصونها للقادم الجديد ليستطيع النوم فقد كان لها فعل السحر في استبعاد القلق.

وبقيت الوسادة ذات الوردة الحمراء حديث الخارجين ولم أستطع إلى الآن أن أفهم سر تعلقهم بهذه الوسادة أهي المرأة الغائبة أم عطر المطر المفقود.

قالوا لي: إن وسادتي أزهرت شجرة ورد أحمر.

دمشق- 22 /4/ 2002

سـجن

ضاق صدرها بضيق المكان، وأزعجها الصوت الرتيب، تعبت من العتمة القاتلة وتمنت بصيصا "صغيرا" من نور.

تململت في كل الاتجاهات لكنها لم تستطع تحريك ساقيها لأكثر من سنتيمترات، فقد كانت تصطدم بالجدران، دون أن تعلم ماهيتها بالضبط، كانت تحيط بها في كل مكان ذات ملمس ناعم ولينة، استطاعت ثنيها إلا أنها لم تستطع تمزيقها، حاولت مرارا الضغط بشدة علها تمزقها وتنتهي من هذه الحالة الرهيبة من السجن المميت، عبثا، فقد كانت أضعف من قوة الجدران.

أحست أنها ستنفجر.

ضيق شديد اعتصرها، وروحها الحرة أبت الخضوع.

ازدادت تململا وتحركاً وفي كل مرة تتخبط بالحواجز ذاتها.

أرادت أن تعلم متى ينتهي هذا السجن القاتل دون جدوى فلم تجد أحدا لتسأله أو ليجيب.

كان الصمت شديدا والظلمة أشد والرهبة تسكن قلبها وتشل أوصالها، وفجأة سمعت شيئا ما، دقات رتيبة لم تفهمها ولم تستطع معرفة مصدرها.

رفعت يديها قدر ما استطاعت، فركت عينيها، فتحتهما ما زال الظلام حالكا، لم تر شيئا.

صارت تسمع أصواتا بعيدة كأنها آتية من قاع بئر، أصوات غير مفهومة مجرد أصوات لا معنى لها.

ازداد ضيق المكان وازدادت رغبة بالانطلاق، كلما ضاق المكان كلما ألحّت الحاجة للحرية.

ازداد تململها أكثر فأكثر، حاولت مد يديها ساقيها لكن المكان أضيق من محاولاتها، كلما تحركت اصطدمت بالجدران الطرية التي أصبحت كابوس حياتها.

استسلمت لهذا القدر.
قررت أن تراهن على لعبة الوقت، وأن تتسلى بالأحلام، إلا أنها لم تستطع نسج حلم واحد فمن أين سيأتي الحلم في هذا السواد.
قررت أن تتسلى بالتذكر بعد فشل الأحلام، لتفرح بالذكريات، لكنها اكتشفت أنها لا تملك ذكريات جميلة، كل ذكرياتها تعود لشهور فقط، وتختصر في جدران تعتصرها وعتمة تخنقها.
تراجعت عن هاتين اللعبتين وقررت أن تفكر بالمستقبل وترسم له خططا تسعدها، استجمعت أفكارها وأرهقت نفسها بالتفكير، حاولت قدر المستطاع أن تحد من حركاتها حتى لا تصطدم بالجدران اللينة من جديد فتسيطر على تفكيرها وتخنقها مرة أخرى، وعادت تحاول أن تنظر للمستقبل بتفاؤل فرحٍ.
خيم العتم على مخيلتها، فهي لا تدري ما هو المستقبل، ولا تعلم أيّ مستقبل سيكون.
تساءلت: هل هناك حياة خارج هذا السجن؟
لم تجد إجابة، لم تجد أحلاما، لم تجد ذكريات، ولم تعرف معنى كلمة مستقبل أو حياة.
بعد عدة أيام، فجأة جاءت لحظة الخلاص، انعصرت عليها كل الجدران دفعة واحدة وقذفت بها خارجا.
مَن كرّ ينتظرنها.. نظرن اليها تهامسن خشية أن تسمع والدتها ·إنها طفلة ميته، حبلها السري خنقها·.
أرادت أن تقول لهم ·ليس حبلي السري، إنه مشنقتي·.
لكنها لم تستطع الكلام.

2004/8/12

الجحر

--1

متقوقعا على ذاته.
دفن رأسه بين ركبتيه وانحنى على نفسه أكثر فأكثر.
من النافذة الوحيدة التي في الباب أطلوا عليه، رأوا وحدته، رأوا عذاباته، رأوا الرائحة تنبع من الجدران، لكنهم لم يشعروا بشيء.
لم يعنهم الشعور، لعل الكلمة كانت جديدة تماما عليهم، حقيقة جديتها ليست باللفظ أبدا بل بوجودها في دواخلهم.
نهض مسرعا، استهوته رائحة العشب الندي، رائحة الأرض المبللة اخترقته كالنهر.
ركض، تدحرج على العشب، عاد صغيرا.
أمسك يد أمه تمرغ بفستانها الأزرق- طالما عشق لونه-اشتم رائحتها من جديد، حملته بين ذراعيها رفعته عاليا في الهواء، من فوق، رأى عينيها الباسمتين وثغرها الضاحك، أسنانها البيضاء، من فوق لمح قطة بيضاء أراد أن تنزله والدته سريعا ليلحق بها.

--2

في الزاوية المعتمة، أكثر الزوايا إضاءة، أراد أن يكون مكانه، مدركا أنه ربما لا يكون قد اختار هذه الزاوية بالذات أصلا، لكنه أقنع نفسه بأنه صاحب القرار، فللمكان طاقته أيضا، لأول مرة يدرك أن للرائحة لونا ووجها.
افترش الرمل في ورشة البناء ونام، استبدلت رائحة العشب في منخريه، عبق المكان برائحة البيتون والرمل، خشنت يداه، ثخنت أصابعه، ازداد ألم ظهره، استقام من رقدته، حمل تنكة مليئة بالبيتون المجبول الطري، رائحته تهيمن على كل شيء حوله، حملها وصعد بها الطوابق الثلاثة.

--3

شعر بعينه الوارمة تخرج من وجهه، أمرها بالعودة إلى محجرها، منعتها ركبته من الخروج فقد ضغط عليها من جديد، كان خائفا أن تهجره هي الأخرى.
عفراء هجرته للمرة الثالثة، وللمرة الثالثة لم يفهم لماذا تهجره ولماذا تعود ولماذا يبقى على حبها، الثالثة ثابتة قالها في سره واستراح، لن يحزن، فكّر، على الأقل سيكون لديه الوقت لينشغل بإتمام مشروع، على الأقل سيكون لديه الوقت كل الوقت نعم الوقت، الوقت، الوقت، ماذا يفعل العاقل بالوقت.
رائحة الموت تنبعث من الجدران، أوراق الصحف تفترش الأرض، ممزقة، تتمازج الرائحة بين الورق والغائط والنشادر المكثف، جرائد بلا كلمات، لا أثر للكلمات عليها، يلوح في رأس إحدى الصفحات لون باهت، قد يكون كان أحمر يوما ما.
من النافذة الوحيدة أطلت عينان سوداوان، سوط انطلق منهما باتجاه جسده.

--4

برد جميل، يلبس معطفه، المعطف الأجنبي الذي أهداه له بديع قال له ·هاد بيقبر البرد·.
فعلا القبر شيء رائع، دافئ، أمين، رحيم، فيه كل شروط الراحة اللامشروطة.
تقلب في تكوره، برد لسعه مثل حرق طازج.
عاد لسباته الليلي.
أراد أن يصرخ، أن يتدحرج على العشب الندي، أن يشتم رائحة أمه، أن يرفع تنكة البيتون، أن يلبس المعطف الأجنبي، أراد أن تعود عفراء أو سواها، أيّ امرأة في هذا الصقيع فلا معنى للوقت هنا، لكن أكثر شيء رغبه على الإطلاق كان القبر.
القبر الذي أصبح هنا حلما.
سائل دافئ انساب بين قدميه، تنفس الصعداء، تململ قليلا، أدرك أنه حي.
الجدران البنية أصبحت تنبض، نبضها يضغط على رأسه، ضغط رائحة تؤكل غزا أنفه، فأران اثنان يشاركانه جحرا.
ابتسم، لأول مرة يشعر بالسرور، الفئران تشعر، لن يكون وحيدا.

2008/1/2

كاتبة من سوريا

أحلام هرقل

مصطفى لغتيري

على خطوات من مغارة هرقل كانت أدخنة خرافية تتصاعد نحو السماء، وأحلام تتبرعم في غفلة من الزمن المتوجس خيفة من ذاته. بخطوات حالمة تقدمت امرأة في طريقها، ترتق فتقا شاسعا، يضارع فم تنين أتعبه سغب السنين العجفاء المتوالية. تمشي الهويني وكأنها تخشى أن تخدش وقار الصباح المتثائب في خيلاء. متأبطة شوقا لا يزيده قربها من موعود اللقاء سوى اشتعالا. نظرت في كل الاتجاهات، قبل أن تعلن في سرّها أنها هنا لتنضو عن نفسها ثوبها البالي، وترتدي ثوبا يليق بها مصدقة أطياف أحلام رأتها لليال عدة في نومها، حتى أضحت حقيقة لا تملك منها فكاكا. حين خطت خطوتها الأولى داخل المغارة، ارتبك الضوء في بؤبؤي عينيها كطائر فاجأته شباك صياد محترف، أحست وكأنها انتقلت من وضع إلى وضع أو سافرت عبر الزمن والجة بوابة سحرية، لتجد نفسها قد عبرت أحقابا بلا حصر. فإلى وقت قريب كانت تشعر بنفسها ترتع في حضن هذا الزمان، غير أنها الآن لا تكاد تشعر بشيء، وكأنها فقدت صلتها بالعالم من حولها، بدت لها المغارة ضربا من السحر، يخترق الذات بغتة فيحولها إلى ذات مختلفة، معلّقة في الفراغ، وليس في الأفق ما يمكنها التمسك به، كي يسعفها على التماسك أو التراجع والعودة من حيث أتت. دقات قلبها تكاثفت. في لحظة شعرت بكل فصول حياتها تنهال دفعة واحدة على الذاكرة، وكأنها سيل نهر جارف.. في عينيها تمدد شرود زئبقي. على ثغرها استلقت ابتسامة غير واثقة من نفسها. فكرت أن تنكص على عقبيها، لتيمّم وجهه قبل مستقرها البعيد. لم تملك القدرة على فعل ذلك. شعرت أن طيف هرقل يحاصرها، وكأنه بعث في تلك اللحظة تحديدا ويراقبها من بعيد، مغويا إياه بالسير قدما نحو عمق المغارة/ عمقه.

تخطيط لـ فيصل لعيبي

في الزمن القديم الذي لا يذكره سوى قلة ممن تناقلوه سرا عن أجداد الأجداد، عشقت امرأة المكان، ولم تبرحه أبدا، حتى ارتبط ذكره بذكرها، يتداوله الناس كتميمة سرية، بيد أن لا أحد يستطيع الحديث عنها جهرا، فظلت أسطورتها مكتوبة فقط على صفحة الماء المتمدد إلى ما لا نهاية.
ماذا يحدث لي؟ قالت المرأة في نفسها، ومضت في طريقها مسرنمة، لا تملك من أمرها شيئا. نزلت عبر السلم الحجري المتدرج، رائحة العتاقة والعطونة زكمت أنفها، شعرت وكأنها تشتم رائحة أسطورية، لا وجود لها إلى في ذاكرتها، استمرّت في طريقها، وهي تتوجس خيفة من عيون هرقل المترصدة، كانت تشعر بنسيم خفيف يتسرب من نواحي متعددة، لكنها لا تكاد تحدد مصدره، غير أنه رافقها ككلب لطيف لا ينفك يتمسح برجليها.
بقوة حانية استحضرت لحظتها لمسة أبيها الحانية. كلما رافقها كان يمسكها من قفاها ويمضيان في مسارات بلا نهاية، كانت ترتبك من جاذبية تلك القبضة الآسرة، فكان يعجبها أن تتقمص شخصية قطيطية تنظر إلى العالم بدهشة متجددة وهي بين فكي أمها، التي تحملها من فروة قفاها وتنقلها بعيدا عن أعين الفضول.
هرقل يتلذذ بارتباكها، وهي تعدّ درجات السلم.. كان يبتسم في لطف جالسا كان على صخرة مستوية، مرفقه على ركبته فيما يستريح ذقنه على راحته الضخمة، وهو يمسك باليد الثانية سيفا عملاقا يغرس ذؤابته في وحل الطين، الذي لا يجفّ أبدا.
حين أعشت الظلمة عيني المرأة، امتدت يداها لا إراديا إلى الأمام كي تتفادى الاصطدام بأيّ صخرة متمردة، في طريقها مضت تلوك في أعماق أعماقها بعض العبارات الغامضة، وكأنها تعاويذ تمررها ساحرة إفريقية على لسانها، تبتهل لآلهة غامضين كي تشق طريقها نحو النهاية المفترضة دون تعقيدات مربكة.
حين أقامت الساحرة في المغارة خلال الزمن القديم، كانت النسوة يتوجهن إليها خلسة لتيسر لهن أشياء كثيرة، متعلقة أساسا بعلاقاتهن المعقدة ببعولتهن، لكنهن كن يموهن بذلك بكونهن يقصدنها لاستدرار السماء مطرا غزيرا، يحيي الأرض الميتة ويغسل قلوب البشر من ضغائنهن.
أمام الارتباك الذي أظهرته وهي داخل الجبابرة، فيما ينفث من أنفه بخارا شكلته برودة المكان ورطوبته،

المغارة، لم يكن بد من أن يتزعزع هرقل من مكانه، مدفوعا بنوايا لا يمكن وصفها بأنها خبيثة. فقط كان في نيته أن يمازحها. تململت أرضية المغارة فاكتسح المرأة رعب لا قبل لها بتحمله. مرتبكة بالهلع اقتعدت الأرض، وقد جحظت عيناها التي لا تكادان تريان مما حولهما شيئا. فابتسم هرقل منتشيا، وقد أسعدته مزحته الثقيلة.

توقفت الأرض فجأة كما اهتزت. بحدس غريزي واصلت المرأة طريقها، في أعماقها تشعر أنها تدنو حثيثا من تحقيق الوعد الذي لم يعدها به أحد سوى حلم متواتر، أصرّت أن تؤوله حسب هواها. تجاوزت أرضا علق بها قليل من الوحل، أحست بلزوجته وهي تعبره، قاومت دمعة منفلتة. استجمعت بعض أنفاسها المنفلتة ومضت. في أعماقها أحست بإصرار لا يلين يقودها نحو المجهول.

بعد أن قضت الساحرة ردحا من الزمن داخل المغارة، وقضت للنسوة مآرب شتى اختفت فجأة وكأنها تبخرت في الهواء. هناك من يدعي أنها امتزجت بروح المغارة، وأن هرقل اتخذها لنفسه عشيقة، تسرّي عنه في اللحظات الحرجة، وتتنبأ له بمصير البشرية الغامض.

هاجس ما أسرّ لها بأن تتخلص من الحذاء الذي تنتعله قدماه، لا تدري كيف شعرت بأنها ملزمة بذلك، وكأن في الأمر قداسة ما. لم تتردد كثيرا. بسرعة تخلّصت من فردتي الحذاء. لم تحتفظ بهما في يدها بل تخلّصت منها بشكل آني. رمتهما بعيدا واستأنفت سيرها.. بعد أن شعرت بأن احتفاظها بهما يدنّس لحظتها المقدسة. أثبتت قدميها على الأرض، استمرت في طريقها. بعض الضوء انزلق نحو عينيها.. تملّكها بعض من أمل في الخلاص. استمرت في مشيتها. كوة الضوء تتسع، تتضح الرؤيا تدريجيا، تعتلي المرأة صخرة، تتجاوز منحدرا، ترتقي إلى أعلى، ثم تمضي في نفق طويل، تنعرج، تطل، فإذا بها تعانق زرقة البحر بامتدادها اللانهائي، فترى هرقلا قد أعد لها سريرا خرافيا على صفحة الامتداد الأزرق اللامتناهي، فتغيب عن الوعي بشكل كلي، ولا يعثر لها أحد بعد ذلك على أثر.

كاتب من المغرب

ثلاث قصص

مهند يونس

حسين جمعان

الجرذ الأعرج

صندوق مكعب، تقتحمه أشعة الشمس خجلًا مرتين في اليوم. يسكنه اثنان لا يقيم أحدهما أهمية للآخر. لكن بعد مضي بعض من الوقت على إقامة النزيل الجديد، أراد من يؤنسه ولو جرذ؛ فكان له ما تمنى. رآه يتسلل من ثقب محدد، يقرض بقايا الطعام، يتطفل عليه، ويطمئن على مقدرته على ابتلاع الضوء المقنن لألاّ يصاب بالعمى. قطرات تتسرب من السقف أحيانا بانتظام وأحيانا بعشوائية، لكنه طوعها في عقله لملائمة لحن ما كيْ لا يجن. مد يده للجرذ، مسد على فروه، وقدم له نفسه. تحسسه قليلا فاكتشف أن لديه قدما مفقودة. التقط من الأرض قطعة خشبية كان الجرذ قد أتى بها محمولة بأسنانه، جعلها بطول قدم الجرذ، ثم نسل خيطين من ثوبه، ولف بهما القدم الخشبية للجرذ الأعرج، ثم شجعه على النهوض وراح يراقبه وهو يعدو به متقافزًا، مما أدخل سرورا إلى قلبه لم يذقه من أشهر. كان قد كتب رسالة لم يدر إذا كان قد قدر لها أن تقرأ أم لا، فربطها بقدمه، مرسلا معه كل ما يملك في هذه الزنزانة من ذكريات، ربت عليه بحنو، وتركه يمضي. فتح باب الزنزانة، لم تستطع أعينه تحمل انفجار الضوء الشديد، فانكمش على نفسه. سحبوه إلى الخارج، وفي نفس الوقت كانوا يسحبون جثة هامدة من الزنزانة المجاورة، ألقوه فيها نزيلا جديدًا، تفاجأ بوجود رسالته، عرفها من إحدى أطراف الورقة المقروضة. أقدم على فتحها، لكنها كانت بيضاء تماما.

عما لن يحدث اليوم

الزوجة السبعينية التي تستيقظ كل صباح لتجد السرير إلى جانبها خاويا، ستستيقظ هذا الصباح لتجده خاويا أيضا، لكنه ليس دافئا، فلن تكون قد رأت زوجها في المنام هذا الليلة؛

عامل النظافة الذي حفظ خارطة القمامة المتناثرة في ساحة المدرسة، بعد انقضاء الاستراحة سيتوقف قرب تلك الشجرة مرتبكًا متجمدًا في انحناءة ظهره، وسيهرع إلى الصف ليجد المقعد الثالث فارغا؛

أمين المكتبة في نهاية دوامه، سيحك رأسه محاولًا استذكار أماكن الكتب لإرجاعها، سينتابه القلق، ديوانا قباني اللذين اعتاد رؤيتهما على الطاولة كل يوم، يتيمان بلا استعارة، لن يجدهما فالعاشق الخجول غائب اليوم؛

شرطي المرور الذي حفظ السيارات وراكبيها وحفظت الشمس لون بشرته، سيطلب من زميله استلام الوردية قبل موعدها المعتاد، سيجلس في الكابينة الزرقاء، مخبئًا وجهه بيديه ليبكي طويلا. فذلك السائق المفرط في استعمال زمور السيارة، لن يزعج أحدًا اليوم؛

الممرضة التي لا يعرف الكرسي دفء مجلسها هارعة من صوتٍ إلى آخر، ستمر اليوم بجانب السرير الثاني من قسم مرضى السرطان، ستتراجع في خطواتها إلى الخلف، واضعة يديها أمام وجهها، ستبكي طويلا، وتهرع الى صيدلية المشفى، لتسحب كل حقن المورفين الموجودة، وتضعها فوق ذلك السرير، الذي كان صاحبه يتوسلها دومًا بأن تزيد الجرعة؛

سائق التاكسي الذي يحضر ردوده الجاهزة، ويتأهب لإغلاق شبابيك السيارة حال وصوله لإشارة المرور، سيتلفت يمنة ويسرة، يفتح كل الشبابيك، ينزل من السيارة، تاركا معارك وسيلًا من الشتائم خلفه، ينثر مناديل على الإسفلت ويقرفص في منتصف الشارع كراهب بوذي، ويسأل نفسه طويلًا بلا إجابة واضحة: لِمَ لم يأت طفل المناديل اليوم؛

أصحاب المحلات التجارية، سيخرجون فجأة وبمصادفة بحتة من محالهم الأنيقة في نفس اللحظة إلى الشارع، يلمّعون زوايا الشارع بنظراتهم المتجولة المتقاطعة، بحثًا عن ذلك الشاب الذي يأتي طلبا لفرصة عمل ولم يأت اليوم؛

دكتور الجامعة سيتوقف فجأة عن الشرح، القاعة هادئة جدًا، فلا صوت للأحاديث الجانبية، يطرق السمع، لا صوت أيضًا، سيسأل بقلق، أين محمد، ألم يأت اليوم؟

بعدما يفرغ الخطيب من خطبة الجمعة، والمصلون من صلاتهم، سيتزاحمون للخروج، سأكون واقفا في الخلف، لا أعرف ما الأمر، أتقافز كأرنب بري لأبصر المشهد من فوق رؤوس الجموع، سيكون الزحام شديدًا، لكنهم سيمتنعون عن الخروج. تلك المرأة البائسة التي تجلس مع ابنتها أمام بوابة المسجد بعيد كل صلاة جمعة، سيتساءل الجميع، أين هي اليوم؟

اليوم، في خضم غرقي في دراسة علم لا ينفع عن بعض النباتات، سأستيقظ من خلوتي، سأرهف السمع، فلا أجد صوت مولّد الكهرباء منبعثًا من منزل الجيران كما العادة، سأخرج من المنزل، لأتتبع طريقًا من سعف النخيل، إلى أن أصل منزل الجيران، سأعرف لاحقا وللمرة الأولى أن ابنهم الذي يحتاج لتشغيل جهاز التنفس الاصطناعي على الدوام بسبب مرض يتعلق بفشل رئتيه، لم يعد بحاجة لهذا، فقد رحل منذ قليل؛

اليوم أيضًا، سأخرج للشارع كما كل صباح، قاصدًا الجامعة أو ربما محل بيع السجائر، سأنقل قدمي بكسل من العتبة الى الشارع، سأمشي خطوة فالثانية، فأختنق من الغبار؛ لا بد أن جارنا الخمسيني الذي اعتاد أن يسقي الشارع بالماء بعد صلاة الفجر، مريض اليوم؛

هروب

ينهض الروائي لمكبته، ليهمّ بإكمال الفصل الثالث من روايته، ينظر باستغراب، تجحظ عيناه، ينسحب بجسده إلى الخلف، يفرك عينيه أكثر من مرة، ويلقي باللائمة على نوع سجائره الذي قام بتغييره مؤخرا، لكن لا شيء بإمكانه فعله، يقلب الصفحات، يبحث هنا، يبحث هناك، كل أسماء الشخصيات وضمائر الملكية وضمائر الغائبين تبخرت، ولم يبق من المشاهد سوى الأزمنة والأمكنة الخاوية؛

يستيقظ الآباء من نومهم كما كل صباح ليوقظوا أبناءهم، ينكزونهم من تحت أغطيتهم، ليجدوا أنهم لا يستفزون سوى بضع وسائد مخبأة تحت الأغطية بعد أن يسحبوا الأغطية فجأة، كما يقلب أحدهم ورقة كتاب ليجدوا لا شيء، لقد تبخروا؛

يتناهى إلى مسامع الصدى، صوت صرير الأراجيح وسلاسلها الصدئة. تَذَر نسمة هواء، حبات الرمال في أشكال أعاصير مصغرة. وتتوقف رويدا رويدا، تلك المراجيح، كأغنية في نهايتها أو كبندول يلفظ اهتزازاته الأخيرة. ولا أحد موجود هنا، ليلحظ آخر آثار أقدام الأطفال في الحديقة ولا الدفء الأخير الذي يتسلل من أحد تلك الكراسي الصغيرة؛

من مسقط عمودي يبدو الشاطئ على طول مداه كخطٍ أسود في صور الجِداد، لا موج للبحر ليمده ويجزره، بعد أن لفظ كل ما في جوفه، واستحال بعدها لمستنقع راكد بليدٍ، مُنكر هديره إلا من قوقعة احتفظت بصوته، يضعها على بعد أميال منه، طفل على أذنيه ليحيي ذكرى البحر؛

يتردد في صالة الأوبرا آخر حرف موسيقي، يظل دائرا بين الزوايا، يصطدم صداه في ركن ليرتد إلى آخر، بحثا عن حرف آخر يكمل إيقاعه، وفوق تلك المفاتيح المتناوبة في أضدادها، يقارب عنكبوت على الانتهاء من بناء بيتٍ من الألحان والنسيج؛

تلك الدائرة بنت الصدفة والأبد، لم تنفك تلد نفسها وتشيخ في كل لحظة، تظل تحتوي نفسها داخل نفسها، كحلقات جذع شجرة قُصت بمقطع عرضي، ما زالت تبحث عن حدود البحيرة وعن لعنة الحجر!

كاتب من فلسطين مقيم في غزة

قصتان

موسى الثنيان

معطف جدّتي

تجلس جدّتي على كرسيها الخشبي وهي تحيك لي معطفًا للشّتاء المقبل، ثوبها القصير يكشف عن سروالها القديم والخيوط الصوفية بألوانها القزحية كأزهار ربيعية نبتت حولها للتّو، كانت تستعدّ لغزل وردة حمراء عند الصدر، كم انتظرتُ بشوقٍ منظره النهائي لأريه زميلاتي.

في الصّباح رأيتها تنظر إلى عصفور المنزل في قفصه وهو خائف ويزقزق، خِلتها تنقشه في ذاكرتها لترسمه في المعطف، لم أكن لأتدخل فيما تختاره جدّتي من نقش أو من ألوان الخيوط، انطلقتُ للعمل وتركتها تتأمّل العصفور.. مازلت أذكر معطف أختي في الشّتاء الماضي، بألوانه الربيعية ونقشه الجميل، رسمت شجرة تستند إلى جذعها طفلة ألصقت على وجهها وجنتين من القماش الأحمر جعلتا منظرها يشي بالسعادة والفرح، فعلى الرّغم من تقدّم جدّتي في العمر إلا أن روحها جميلة ومتفائلة، كأنها فتاة في العشرين من عمرها، كنتُ دائمًا أقول لأبي: لو تسنّى لجدّتي العودة شابّة لأصبحت مصمّمة أزياء أو رسّامة عالمية، يكتفي أبي بضحكة، وأحيانًا يومئ بالإيجاب..

حين عدت في المساء، وجدت العصفور ذاته في المعطف بلونه الرمادي ومنقاره الأحمر ولكنه كان ميّتًا، وقد أغمض عينيه بحزن، والوردة الحمراء التي بالصدر سالت منها خيوط حمراء، سألت نفسي ألف مرّة: ماذا حل بجدّتي؟ أترى ذلك بسبب أخبار التلفاز التي يشاهدها أبي كلّ مساء..؟ أخبار دموية، رصاص ودماء تسيل هنا، وعملية انتحارية هناك، ودمار وعفونة وأرواح رخيصة لم تعد تساوي حتى الذباب.. لا توجد سوى أخبار القتل.. كنّا نتأفّف باستمرار.. هل أثّرت الحرب على جدّتي، هل أثّر على خيالها الجميل.. لم أحبّ المعطف، كيف سأرتديه أمام صديقاتي، وزميلاتي في العمل.

تحيّرت، هل أخبر جدّتي بأن تنقض غزلها وأن تحيك نقشًا غير هذا النقش، أم أتركها تُتِمّه ومن ثمّة أحتفظ به في دولابي للذكرى، خشيت أن تسألني عنه إن لم ترني أرتديه في الشتاء القادم.. لكن إرادة الله حالت دون إتمامه، فقد ماتت جدّتي بسبب المرض الذي ألمّ بها، بكيت كثيرًا، كانت تملأ البيت ضَحِكًا بالحكايات التي تدفئ لياليا وتملؤها بالأحلام السحرية، ثرثرتها وامتعاضها، تركت الكرسي الخشبي يهتزّ وحيدًا، ماتت وتركت المعطف تتدلّى منه خيوط لم تنعقد وحكاية نقش لم تكتمل.

تمنّيت لو أنجزت جدّتي المعطف، كنت سأرتديه مهما كان نقشه كي تعرف صديقاتي مدى حبّ جدّتي لي وحبي لها.. قادتني قدماي ذات مساء إلى غرفة جدّتي، تفقّدت كلّ شيء فيها، صندوق زواجها القديم، جدرانها العتيقة، دولابها الخشبي، رأيتُ المعطف مطروحًا على المنضدة، وكنت أنوي الاحتفاظ به لنفسي، أخذته ونشرته وكان ضوء البدر يضيء الغرفة، أصابتني الدّهشة حين رأيت المعطف وقد نقضت جدّتي غزله تمامًا لتحيك لي معطفًا بخيوط خضراء، ما أذهلني فيه الشجرة الكبيرة المثمرة والصبي الذي يغرس بذورًا أظنّها قمحًا.. ما استطعت حبس دموع عينيّ في محجريهما، ارتديته؛ كأنني أرتدي ريشًا جعلني أحلّق إلى السموات..

ليتني دمية

بُنّيّ التَّوحّدي، أقفُ على أعتاب غرفتك، غارقًا في عالمك الخاص، تحتضن دميتك كعادتك منذ خمسة عشر عامًا، لم تمتصّ يومًا من رحيق حبّي قطرة؛ كنت كفراشة بانت عن فصيلتها، لم يحدث بيننا أن ضحكنا سويًّا أو حتى بكينا، عشنا منفردين في بيت يفترشه الظلام كسجادة سوداء، حدثتك مرة عن حبّي، ويوم أن تعثّرت قدماك وسقطت على الأرض، ركضت إليك وارتميتُ عليك أتحسّس أنفاسك، نظرتَ إليّ دون أن تفقه سِرَّ عناقي وتقبيلي لك واحمرار وجهي؟ لم تعرف سِرَّ تلك الدّموع التي سالت من عينيّ على وجنتك بدفء، بل اكتفيت بنظراتك الخالية من المعنى؛ وعُدت إلى غرفتك، حيث وطنك، واحتضنت دميتك القطنية، عندها بكيت كثيرًا، حاولت إيقاظ مشاعرك نحوي عندما أخفيت عنك تلك الدّمية فانتابتك نوبة صراخ مستمرّة؛ مما جعلني أستسلم وأعيدها إليك، منذ أن قال لي الأخصّائي بأنك غير قادر على محبّتي، أصبت بالصّدمة.

جئت بمعلّم ليعلّمك نطق كلمة واحدة فقط «ماما»، دفعتُ له مبلغًا طائلاً، وحين نطقتَ بالميم ازددتُ فرحًا؛ لأنه حرف الأمومة المقدّس، وبعد شهور، تفوّهتَ بها، خرجت من فمك، كيوم خروج أصحاب الكهف من فم الكهف، رقصتُ فرحًا، غنّيتُ، باتت الكلمة تملأ قلبي، عشت أياماً سعيدة، إلى أن جاء ذلك اليوم واكتشفت ما حطّم قلبي، إذ فوجئتُ بأنك تخاطب الدّمية: «ماما»، حينها ثرت، وددت لو أمزّق الدّمية القطنية إلى قطع، كدتُ أغرز في قلبي سكّينًا فينزف دمي القاني حتى تجفّ عروقي وأصبح دمية بلا حراك، هدأت نفسي عندما خطر لي أن أجلس بجانب دميتك، في ذلك اليوم سحبتُ الكرسي إلى جانب المقعد الذي تجلس فيه دميتك البيضاء، وجلستُ بلا حراك أكتم أنفاسي حدّ الاختناق لعلّك تسرق نظرة حانية إليّ.

كاتب من السعودية

أرجوحة مكي

ميسلون هادي

من تحته تنفتح الأبواب ويمر الناس.. بعضهم أكبر من محمود المليجي، وبعضهم أصغر من نانسي عجرم، والكثير منهم مات بعد رحيل عبدالوارث عسر. بأقدامهم يثيرون هباءات الغبار في الصيف.. ويجعلونها تنتشر في عجاجات صغيرة لا يراها سوى مكي من مكانه العالي، كما يرى جميع الجيران يقتربون من بيت الحاج إبراهيم أثناء الذهاب أو العودة إلى بيوتهم.. يمشون مسرعين في اتجاهات شتى، ولكنهم ينحرفون عنه عندما يصلون إليه.

إنهم يتوقفون عند صبّة الحاج إبراهيم أبو خليل التي لا يزال الإسمنت فيها طرياً، ويتحاشون المشي عليها، أو يغفلون عنها، فيكادون يدوسونها ويطبعون أقدامهم عليها أثناء المشي أحياناً.

- إبراهيم، لماذا لا تضع الطابوق حولها لكي لا يدوسها أحد؟
- أنا لست إبراهيم، يا عم مكي، أنا ابنه خليل.
- خليل، لماذا لا تضع الطابوق حولها لكي لا يدوسها أحد؟
- أنا لست خليل، يا عم مكي، أنا ابنه عزيز.

تتكسر الصبة، ثم تتجدد بعد أعوام قليلة بطبقة من الإسمنت الطري الذي يتحاشاه اللطفاء والدمثون من أهل الحي. أما العابسون من أصحاب المزاج البرتقالي فيدوسون عليه مثلما داست عليه القطة والدراجة والدبابة.. يتحدثون فيما بينهم بشتى الأحاديث، ويذكرون الغانيات والعظماء.. من غاندي ومانديلا إلى هيفاء وهبي وساجدة عبيد.. ومكي لا يهمه شيء ولا يفتح عينيه جيداً إلا عندما ينشغل إبراهيم أو خليل أو عزيز ببناء صبة جديدة، فيرتدي حينئذ نظارته الطبية، ويبحلق فيها كما لو كانت آنية من فضة.

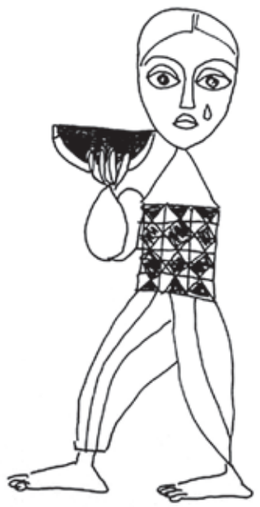

مكي رجل أريحي.. يسير دون قيادة من أحد.. ولا يهتم إذا ما انقلبت الدنيا أمامه، أو دوّخت الجميع كما الأرجوحة.. قلّبَ حروفها أيّام المراهقة، فتحوّلت من دنيا إلى إيند.. وبما أن كلمة إيند تعني الوصول إلى النهاية، فلماذا يكلف نفسه عناء الحذر منها أو الحرص عليها؟ الأصل في الأشياء هو النهاية، ولهذا تراه يجد سعادة الدنيا كلها في جمع القناني الفارغة، والعصارات التي خوت من دهونها، ثم رميها إلى سلة المهملات. وعندما تمتلئ السلة بالأكياس التي فرغت من رقائق البطاطا، والعلب التي خلص منها الحليب والماء ومعجون الطماطم، سيجد سعادة أكبر في تفريغها ببرميل الزبالة الكبير.. هكذا هي الدنيا كما يراها مكي، سلة مهملات تفرغ في برميل زبالة.. ومهما كانت عظيمة أو حامية الوطيس، فإنها لا تنحرف قط عن هذه النتيجة الحتمية سواء بعد الجمع والطرح والضرب أو الوصول إلى ناتج القسمة الطويلة.

لم يستطع شراء الأرجوحة التي يريد التمرجح فيها منذ ثلاثين عاماً بالتمام والكمال.. وحاله مع تلك الأمنية حال ضوء الشمس الذي يصطدم بأتفه الأشياء فتجعله لا يصل الأرض إلا وهو ظل أسود اللون.. هكذا هو العمر بالنسبة إليه خيال أسود، ستنتهي أعوامه إلى برميل النفايات قبل أن يرتد إليه طرفه في ومضة عين.

في تلك الأعوام مات جده بعد أن مات فريد شوقي، وتزامن موت جدته مع موت أمينة رزق، وظلت الخرفان والدجاجات تتقلب في الماء الساخن ثلاثين عاماً مرت بين عشية وضحاها وهو يؤجل شراء الأرجوحة من أمس إلى الغد ومن عام إلى آخر.. أمه صامتة على الدوام، وأبوه الحلاق ماخذ الدنيا «حاصل فاصل» بالكلام.

لا يدري كيف ركضت الأيام بهذه السرعة، وانقضت ساعاتها أمام المرايا وخلف الرؤوس، تاركة حلمه يتبعثر بين اللحى والشوارب والباروكات وأعقاب السكائر.. في الألفية الأولى كان مشغولاً بكنس شعور الزبائن عسى أن يعثر بينها على خاتم ذهبي أو دينار ساقط على الأرض. وفي الألفية الثانية تساقط شعره مع تساقط دموع الجيران حزناً على أولادهم الذين أصبحوا شذر مذر.

أويلي عليهم.. من رأس الشارع وحتى آخر الشارع.. بعضهم انعلس بسبب اسمه، وبعضهم انخطف بسبب وزنه، ومن شاء رحل، ومن لم يشأ رحل أيضاً.. الدكتور أغلق عيادته، وادّعى أن حرف الدال قبل اسمه يعني الدبدوب أو الديناصور أو الديك الرومي، والمهندس أطال لحيته وقال إن بيت العنكبوت أفضل من بيته، وفخامة بائع النفط ارتدى البانباغ الوردي بعد أن كان يرتدي الخرك والمرك.

تزوج أولاده جميعاً وأصبح عنده أحفاد يعيشون في التيه أو المجهول.. راحت زوجته تنتقل بينهم مثل ذبابة دفيانة خرجت فجأة من نافذة السيارة في بغداد، فصفعها الهواء البارد بقوة وأرداها إلى مشيغن.. لا يدري أين هي الآن. في اللامكان.. تنتقل كالطبق الطائر بين القارات، وهو باقٍ في مكانه لحراسة البيت والحفاظ عليه من اللصوص والحواسم والمهجرين.

يستيقظ صباحاً، ويذهب إلى رأس الشارع

ثم يعود بكيس الصمون الحار مرتدياً البجامة والنعال في الفجر، والقمصلة بعد الظهر. وفي المساء يرتدي الدشداشة ويجلس في بلكونة بيته الذي اشتراه قبل ثلاثين عاماً بعد أن دفعت له الحكومة تعويضاً محترماً لقاء وقوع محل الحلاقة ضمن مقتربات المترو الذي لم يبتلع الناس لحد الآن.

كان يعمل في حلاقة الرؤوس فيما مضى، وتلك مهنة عائلية توارثها أهله أباً عن جد.. وعندما وصلت تلك المهنة إليه وجدته يتحدث بالمثاقيل، عازفاً عن الثرثرة مع الزبائن هائماً بالنظر إلى الناس المارين من الرصيف الذي يطل عليه دكانه.. كان يواصل وقوفه فوق الرؤوس المرتعشة للمحاربين القدامى ومدراء المدارس المتقاعدين وأشباه الرسل الذين أصبحوا في أرذل العمر.. عقله منشغل دائماً بالصور التي تتلاحق كشرائط الفيديو.

كثيرة هي هذه الأشرطة في رأسه، وعندما يحاول استرجاع كل شريط على حدة تتساقط منه الوجوه إلى الأرض، أو تتسرب كالرمل في الهواء.. بعضها بالتربان وبعضها بالعربان.. وبعضها لا يزال يشرب العصير من دكان الحاج عبدالرحمن الذي يعلق البرتقال والرمان في الشتاء، ويعصر عناقيد العنب في الصيف، وفي الربيع يقف قرب باب المحل، ويأكل المشمش..

يشعر مكي بالأسف أن أسنان أحفاده اللبنية تساقطت في ميشغان ومالمو، وليس عند بائع الكرزات، ولا عند بائع الشعر بنات، ولكن تحت خيمة بيضاء من الثلوج وداخل غابة من مدافئ عشتار النفطية والغازية.. لا شيء يغير له هذه الصورة حتى وإن أخبرته زوجته فتاحة الفال بأن الشقة هناك مدفأة مركزياً.. وأن عشتار السنك رنك لم تعد موجودة في كل أسواق العالم.

كيف تكون عشتار «سنك رنك» أو غير موجودة في كل أسواق العالم، وكيف تزعم أن سيارته الحمراء البرازيلي سنك رنك أيضاً. صحيح أنه لم يعد يستعملها، ولكنها لا تزال موجودة أمامه في كراج البيت الذي أصبحت تغطيه أكوام من أوراق النارنج والعنب اليابس.. يراها من مكانه العالي ساكنة تحت أوراق الأشجار التي تعيش فيها الديدان.. إما بيضاء تشف عن عروق سوداء صغيرة تحت جلدها.. أو رمادية تشبه المظلات ولها أرجل كثيرة جداً. وأحياناً يراها تتقلص وتندفع بين الطبقات التحتية الرطبة من الأوراق الميتة، حتى إذا جاء فصل الخريف وجفت الدنيا تطايرت تلك الأوراق من حديقته إلى حديقة الجيران عبر السياج المهدم بقذيفة هاون.

مكي شعر بأنه قد جاء إلى هذه الدنيا أخيراً بعد سن الخامسة والستين.. وآخر شيء توقعه، في حياته، أن يتمكن من شراء الأرجوحة أخيراً وأن يضعها في بلكونة البيت المتثلمة من جميع الجهات، والتي تسميها زوجته بالتنتة كشف.. استطاع أخيراً أن يتخذ القرار الحاسم بعد أربع محاولات فاشلة انتهت جميعها بسخرية زوجته التي كانت تقول له كلما نطق بكلمة «أرجوحة»:

- بعد ما شاب ودوه للكتّاب.

هذه التي ترى الغزال قرداً، ادّعت أن الأرجوحة هي لصغار السن فقط، وأنها ستخسف بالبلكونة الأرض، وأنها يائسة من بيت زرق ورق يتكئ بعضه على بعض بالقُدرة، ويكاد يتداعى لولا لبلابة عملاقة تحتضنه من الأمام، ودون أن تقصد، شافت زوجته ما مكتوب في علم الغيب، وقدمت فتاحة الفال صورة لما سيصبح عليه زوجها مكي الحلاق بعد أعوام من جلوسه المستمر في الأرجوحة. أصبح يتكئ على بعضه البعض بالقدرة، ويكاد ينكفئ على وجهه لولا احتضان خرطوم النركيلة العملاقة لفمه.

من تحته تنفتح الأبواب ويمر الناس.. بعضهم أكبر من محمود المليجي، وبعضهم أصغر من نانسي عجرم، والكثير منهم مات بعد رحيل عبد الوارث عسر. بأقدامهم يثيرون هباءات الغبار في الصيف.. ويجعلون تلك الهباءات تنتشر في عجاجات صغيرة لا يراها سوى مكي من مكانه العالي، كما يرى جميع الجيران يقتربون عن بيت الحاج إبراهيم أثناء الذهاب أو العودة من بيوتهم.. يمشون مسرعين في اتجاهات شتى، ولكنهم ينحرفون عنه عندما يصلون إليه. والسبب هو صبة الحاج إبراهيم المتجددة بين عام وآخر بطبقة من الإسمنت الطري الذي يتحاشاه اللطفاء والدمثون من أهل الحي. أما العابسون من أصحاب المزاج البرتقالي فيدوسون عليه مثلما داست عليه القطة والدراجة والدبابة.. ومكي هذا العام قرر أن لا ينهض من مكانه في الأرجوحة.. وأن يفتح عينيه جيداً عندما ينشغل فلاح اللباخ ببناء صبة جديدة.

أمطرت السماء ثم أشرقت الشمس وهو جالس في مكانه على الأرجوحة.. يدخن نركيلة السعادة، وينظر من الشرفة إلى نمير وغزال.. نمير هو الأخ الثاني لعزيز حفيد الحاج إبراهيم.. الأخ الأول أمير جاءت سيارة مسرعة وحوّلته مع دراجته إلى علامة الضرب. والثاني نمير نفخ النفاخة حتى انفجرت، ففزّت أخته غزال وراحت تبكي من الفزّة خلف جدها إبراهيم الذي يلفّ اللفاف على رأسه ويرميه إلى الخلف.. ولكن الإسمنت لا يزال طرياً.

يجلس الحاج إبراهيم على الكرسي المتحرك في كراج البيت منذ الصباح وحتى آذان الظهر.. وبعد آذان الظهر يدفعه حفيده نمير بصعوبة من الكراج إلى داخل البيت، فيدخل مكي جائعاً ثم يخرج بسرعة إلى الشرفة والطعام في يده. يجلس في الأرجوحة ويتابع النظر إلى السطح الأملس للإسمنت الطري الذي لم يجفّ بعد.

أكثر ما يخشاه مكي هو أن تحدث الطامة الكبرى، فيتخربط سطحه الأملس ببصمة قدم أو كف ، خصوصاً عندما ينتهي فلاح اللباخ من إكساء الصبة التي تتقدم البيت، ثم ينشغل بإكساء بعض عيوب البيت من الخارج. هذا هو ما يحدث كل عام تقريباً وسيمنع حدوثه هذا العام بعد أن يلازم مكانه هذا في الشرفة وتصبح أرجوحته هي المأوى.

هبّت الريح الباردة ومن بعدها هواء الشرق الحار.. وجف الإسمنت أخيراً.. دون أن يدوسه أحد.. لا الشحاذ ولا النجار ولا محصل الكهرباء.. القطة فقط كادت تدوسه وهي تركض ، فصرخ بها مكي صرخة جبارة جعلتها ترجع على أعقابها خلف إطار السيارة المتوقفة قرب الرصيف.. الحمد لله استطاع منعها من أن تمشي عليه. وجف الإسمنت دون مشاكل.

شعر مكي بالرضا، ونفخ من فمه نفخة دخان بركانية أودت بحياة بعوضة كانت تحوم حول فمه.. رجع بظهره إلى ظهر الأرجوحة وقبّل يدها اليمنى، ابتسم مع نفسه ابتسامة عريضة، لأن فلوسه لم تذهب سدى.

كاتبة من العراق

رأس آخر

نائل العدوان

تحسست رأسي، لا يزال موجوداً. فركت عيني، لكن يدي اصطدمت بكتلة ناعمة الملمس. كان رأسي ملتوياً كحبة كمثرى، ثقيلاً لا يحتمل حركة أو اهتزازا. صداع أكل مؤخرته وبرودة موت انسحبت بظلالها على مقدمته. انطلق صوت شخير بقربي!

خِلتُ أنني أحلم وأن الصوت مجرد وهم، لكن رائحة فم نتنه تحرشت بأنفي، ثم ما لبث صوت الشخير قريباً مني هذه المرة.

التفتُ بطرف عيني، وإذا برأس ينام بجانبي! كان "يتمرجح" فوق كتفي، معلقاً لصق رأسي تماماً ومغمضاً عينيه كطفل أصابته حمى. لم أصدق ما أراه.

رقبة جديدة، فم وأسنان، عيون وآذان، لقد نما لي رأس جديد!

انتفضت من مجلسي! فكان ذلك مدعاة لأن يتحرك الرأس فاتحاً عينيه.

صباح الخير، قالت شفتاه بصوت يشبه صوتي، فأيقنت حينها بأنني لا أحلم.

هل لي بكأس ماء؟ ". أضاف الرأس مبتسماً.

كيف سرقت جسدي؟، من أنت؟". قلت غير مصدق لما يحدث لي.

هراء، هذا الجسد أصبح مشتركا بيننا، مصيرنا واحد، بقاؤنا وموتنا واحد، إننا باختصار واحد. لم أخرج للعمل.

بقيت متدثرا بصمتي طوال اليوم، مفجوعاً بتأمل رأسي الآخر الذي نما في غفلة مني. هي مؤامرة حيكت ضد جسدي، أطاحت بكل ما بنيته بلحظة مفاجئة.

كان جسدي بطيء الحركة ولا يأتمر بسهولة، فان أردت تحريك يدي فلا بد من توافق مع الرأس الآخر، ينبغي أن نقوم بالتفكير سوية.

هل تسمح بتحريك يدي؟ سألته.

بالطبع، تقصد يدنا؟ يضحك بملء شفتيه غير آبه بحنقي.

رن جرس الهاتف، فالتقطت السماعة، لكن أسنانه انغرزت بمعصم يدي.

احذر، لقد تعديت على حدودي، لك الشمال ولي الجنوب، لي الغرب ولك الشرق، ألم تفهم بعد؟

شرح الرأس الآخر باستفاضة موضوع "المحاصصة" الجديدة، قال إنه بلا عواطف أو مشاعر، ولما طلبت منه إيضاحا، حدجني بنظرة استنكار وانتفض قائلاً:

هل أنت غبي! اليسار لك ولي اليمين، والقلب مِلك لك فافرح به، وانأ لا قلب لي، لا قلب لليمين.

وحدي إذن من سيبكي ويشعر بالوحدة، وشريكي يفترش كتفي فرحاً بلعبة التقسيم.

استدرجته لنجد حلاً لهذه الشراكة، لكنه رفض ذلك بحجة عدم الشعور بأيّ ضيق.

رجوته متذللا لكنه كان صلداً كجدار، حينها هددته بأنني سأسحق رأسه عند أيّ فرصة تتاح لي، لكنه ضحك حتى سالت دموعه.

ألم أقل لك بأنك غبي؟ إذا انتهيت أنا، لن تمكث غير بضع ثوان بعدي.. إنه انتحار لكلينا!

من فوق أنفه، طارت بعوضة، كان صوتها يلدغ صمت المكان، احتجت إلى كل ذرة صبر كي أحافظ على توازني، لكن البعوضة جثمت فوق رأسي مباشرة، ثم طارت من جديد لتحط فوق أقراص الدواء بجانبي.

غدت عينا الرأس تلتهم فكري، تنظر بفزع إلى علبة الأقراص التي ارتمت على الطاولة.

لا، أنت لا تفكر بذلك! قال

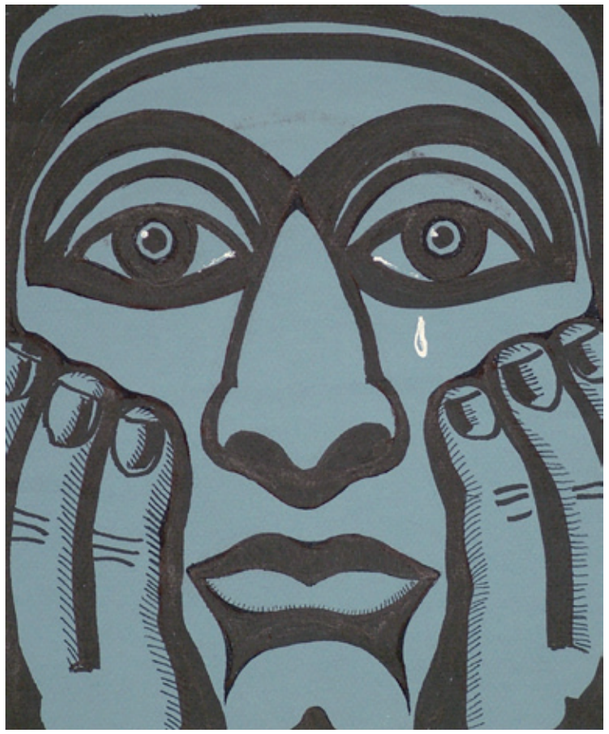

فيصل لعيبي

الرأس بعينين خائفتين.
لم أمهله لحظة، التقطت الأقراص، ثم ابتلعتها دفعة واحدة.
تسللت الظلمة إلى جفني غير عابئة بمقاومة شريكي، ثم انتشر بعدها خدر لذيذ إلى يميني الذي بدأ يذبل ببطء.
أحسست بفرحة غامرة وبخفة شديدة.
غاب صوت شريكي ولم أعد أسمعه.
وبقي صوت بعوضة وحيدة، تنتقل بحرية بين رأسين خلت منهما الحياة.

رمال

عوت الريح، ثم يبست الأزهار.
وعندما غابت الطيور، تنبه الناس للأمر.
أحسوا بالخديعة وأن خللاً كبيراً قد أصاب البلاد.
أصاخوا السمع لصوت الجداول، فلم يسمعوا شيئاً، لا صوت للبلابل أو لخرير المياه.
الريح وحدها تزفر بعواء جنائزي وحيد.
فزعوا عندما سقطت الأشجار علانية في وضح النهار.
أزاح أحدهم عن منكبية الغبار ثم نهض متعثرا بنعومتها، أسند يداً على جبل الرمل بجانبه ثم وجه الكلام للقائد:
الرمال يا كبيرنا كست القلوب والمدينة انتهت ولم يتبق لنا سوى الصحراء.
تذمر آخر: الويل لنا! كلما طلعت الشمس زادتنا ظمأً، وكلما هبت الريح ملأت أفواهنا بما تخلفه، ماذا صنعت بالبلد؟
أصاخوا السمع مرة أخرى فلم يسمعوا غير نباح الرمال الذي بدأ يشتد بقوة.

***

التهمت العيون الكبيرَ ذي اللحية البيضاء.
اجتمعوا حول الملهم الفتان، مخلص الوطن وحامي الديار.
كان يقف بينهم وقد علت قامته الجميع، يتدثر بملاءة حريرية خضراء وقبعة مستديرة. هدية من الحلفاء الناصرين.
احتمى بالصمت وابتسامة تتوارى خلف ملامحه.
علا تصفيق العامة وهتاف نسوة اقتعدن الأرض، بينما صرخ الأطفال فرحاً، وقهقه الشباب بنشوة غامرة بأن يعيش القائد.
بعد أن أفل نجم المجتمعين وساد صمتهم قال كأنما يخاطب نفسه:
أيها الشعب، بلدنا بخير.
علا الهرج والتصفيق مرة أخرى، وزغردت النسوة وكبّر الجميع بأن يعيش القائد إلى الأبد.
الحلفاء منذ هذه الساعة، سيجلبون لنا الخير والمحبة.
لاذ بحرز السكون بعدها، فيما علت همهمة من حوله، ثم أردف قائلاً:
أيها الشعب الكريم، سنتقايض مع الحلفاء الخضرة، يلزمنا التغيير في هذه المرحلة، سيكون بيننا وبينهم الكثير مما سيعود بالنفع لنا جميعا!
قال الأبيض ثم اخترق المجتمعين بسهم من عينيه، نكّسوا رماحهم وعلموا أن عمر الكبير مديد.

***

استورد الرمل.
نقل بتكاليف باهظة.
بعد أيام قليلة كانت الأسلاك الشائكة تحيط بالمحمية التي زينت بالأشرطة وأعلام الحلفاء استعدادا للافتتاح العظيم الذي حضره القائد وكبار القوم.
قص شريط المحمية وصفق الجميع وتبادل الرؤساء الأوسمة والقبل وظهرت صورهم وهم يوقعون الاتفاقيات والمواثيق.
بعدها صارت المحمية مصيفا يقطنه عامة الشعب.
حملوا حقائب المرطبات والحلوى ومضوا نحوها بفرح وغبطة!
بنى الأطفال قلاعا من الرمل ثم هدموها ليعيدوا البناء ثانية.
الرجال حطوا بتعبهم فوق الرمال المستوردة، وامتدحوا أفكار القائد السديدة، أما النساء فقد ارتدين «مايوهات»، تكشف عن سيقان بيضاء.

***

ارتفعت درجة الحرارة.
المياه خالطها الملح وغدت ملوثة وطعمها غريب.

تفصيل من تخطيط لـ فيصل لعيبي

في البداية. غض الناس الطرف.
كثيرون قالوا بأن هذه بداية ملامح التغيير الذي تحدث عنه القائد، وكانوا يطلقون النوادر بشأن طعمها، حتى أن هداياهم لبعضهم البعض أصبحت عبارة عن مياه مالحة بعلب ملونة.
بعد فترة وجيزة، اشتد طعم الملوحة.
اعتمر الكبير قبعة جديدة وخرج.
قال والجميع حوله مصطفين بوجوه لطمتها أشعة الشمس فأصبحت كالحة.
الحلفاء لديهم خطة بديلة لنا.
ساد الصمت بعدها، عرف الجميع حينها بأنهم محكومون للمجهول.

***

السماء صفراء.
فَراشُ الرملِ يطير ملتهما كل عود أخضر أمامه، رياح الخماسين أخذت تعتصر النفس الباقي وتلهب الجو برمال مالحة.
لم يتذمر الناس قط.
كانوا واثقين أن القائد متنبّه لما يحصل، والحل دائما موجود بيديه.
الرمال تجوب الشوارع.
تمسح أرصفتها وتحيلها إلى خراب وأطلال.
الدكاكين والأعمدة وحتى المدارس أخذت بالتساقط وحلّت محلها حبات الرمل.
الشواخص وحدها بقيت واجمة في مكانها، ترتفع فوقها صور ملونة للقائد بابتسامته المعهودة وأصابعه الملوحة بالتحية للجميع.
فيما المدينة تهوي ركناً ركناً.

كاتب من الأردن

12 رسالة حب خليوية

نجم الدين سمان

أولُ رسائِلِه.. إليها

اسمَعيني بِعينيكِ.. الليلةَ فَلَستِ.. أنتِ مُلهِمَتِي؛
لَسْتِ قصِيدتي؛ أنتِ خارجَ حِبْري.. قصيدةٌ ليتَنِي.. أكتبُها!.
تمهَّلِي قليلاً.. سيّدتي
انظُرِي إليَّ: ـ ألستُ أُشْبِهُ امرأةً في أحلَى أمومَتِها؛
ويُرْجِفُني مَخَاضٌ قبلَ ولادتِهَا.. فِيَّ؟
أنتِ.. قصيدتي وأنا مُجَرَّدُ كلماتِهَا؛
اقرئيني الليلةَ مِن شَغَفِي لأُنْشِدَها بشفتيكِ.. من شفتيَّ. "

أولُ رسائِلِهَا.. إليه:

لكَ من طِيْبِ القلب، ومن شَفِيْف الروح.. ما يجعلُ الظِلَّ الأبيضَ يُزْهِرُ احتراماً.
فاجأتني بهديَتِكْ في عيد ميلادي، وأعترفُ لكَ.. هذه أولُ هديةٍ لِي مِن رَجُلٍ.
شكراً لاحتفائِكَ بي.. يا صديقي.

رسالته إليها (2):

للمرَّةِ الثانيةِ في حياتي؛ أُصَادِقُ امرأةً مِثلَكِ، أُحِسُّ الآنَ بكِ.. كينونةً.؛ وبأنوثتِكِ الفاتنة.
فإذا لم تَرَيْني إلا.. صديقاً، سأكتفي بِحُبّكِ مِن طَرَفٍ واحِدٍ.. صَامِتاً عنهُ ما تشائينَ مِن دَهرِي،
وإذا لم تَرَيْني حبيباً.. فاسمحي لي بصداقتِكِ طَوالَ عمري.

رسالتها إليه (2):

من غرفتي أرى نُجومَ دِمشقَ في ليلِهَا.. فأراكَ، ومِن هاتفي.. أسمعُ صوتَكَ؛ فأتداركُ نفسي عن غِوَايتِه، أرجوكَ.. اتركْ مسافةً بينَ كُلِّ رسالةٍ إليَّ، حتى أُلمْلِمَ روحي وأنا أكتبُ إليك.. يا صديقي.

رسالته إليها (3):

كلّما عشِقتُ امرأةً.. اعترفتْ:
- يأسِرُنِي صَوتُكَ في لَيلِي؛ تَفضَحُنِي عَيناكْ.
ثمَّ.. لا أعرِفُ لماذا أشتاقُك.. غائِباً؛ وأتمتَّعُ في حُضُورِكْ.
يَخْطِفُني صوتُك.. منِّي؛ تُرْعِشُني أنفاسك؛
ثمَّ.. لا أعرِفُ لماذا أتردَّدُ عن قُبْلَتِكْ. "

رسالتها إليه (3):

لا أريد أن أُحِبَّ، قد أحببتُ قبلكَ وخابَ عِشقِي، لا أريدُ الالتزامَ برجلٍ، ولا أريد أن أُزعِجكَ.. يا صديقي.
لستُ مُسترخيةً لأراكَ في مِرآةِ أنوثتي، استرخِ أنتَ.. عنيِّ، عِشْ كما ترغبُ في حُضُوري، وكما تشاءُ في غِيَابي.
آسفة.. لأنّي سأكونُ صريحةً معك، بِقَدرِ ما تقتضيهِ صداقتُنا، وبأكثرَ مِمَّا يحتمِلُهُ حُبُّكَ لِي،
أنا مع رَجُلٍ.. سِوَاك، ولا أدري إذا كان يُحبُّنِي، أو أنَّ الأمرَ كلَّهُ.. انجذابُ أنوثتِي إلى ذُكورَتِه؟
لم يُرسل لها رسالتهُ الرابعة.. ذاكَ اليومَ كُلَّه، تلكَ الليلةْ!
لكنّي خطفتُها لكُم.. مِن هاتفهِ الجَوَّال:
تَعالِي.. نُوقِفُ ما بيننا مِن غِوايةِ الصوتِ ولستُ أولَ عُشاقِكَ حتى.. تُفارقِيهِ. ومن ستذهبينَ إليهِ.. دُونِي ليسَ.. حَبيبكِ الثاني!
وما أكادُ أعرِفُ.. هل تأخُذُنِي إليكِ أُنوثةٌ، أو تخطِفُنِي من حُبّكِ.. صَداقةٌ، أو تُدْنيني منكِ.. رجولةٌ، أو سَتُبْعِدُني عنكِ.. شَهَواتِي.
وأخشى أن يَفُوتَنِي.. قِطارٌ إليكِ، كما لو أنّهُ الحُبُّ المُستحيلُ تحترِقُ فيهِ.. مسافاتي!

رسالتها إليه (4):

ـ لم أعُد أحتمِل النَومَ، كيفَ أُرَتِّبُ ذاتي التي تبعثرَتْ
ألستَ صديقي، ساعِدني إذن.. على الحبيبِ الذي فيك، فأنا لا أحتمِلُ أن أخسَركْ.

رسالتها إليه (5):

كنتُ وحدي قبل أن أُحِبَّكِ، وَحدِي.. وأنا أُحبُّكِ، وحِيدُ وَحدِي.. الآنَ، بعدَ حُبٍ مُستحيلٍ، مَتروكاً وَحدِي في قِطارٍ مُزدحمٍ.. بالعاشقاتِ الخائباتِ، وبالرِجَالِ اليائسِين، والقِطارُ يَئِنُّ في رِئتيَّ.. مِن وَحشَتِهْ، ولا أدري في أيّ مَحطّةٍ، ستصعدُ مَن تُشبِهُكِ، حتى أنّها.. أنتِ، لِتَخطِفَنِي مِنكِ، أو تَخطِفَ منّي.. ضِلعاً، ثُمَّ تتركُنِي.. وحدي!

لم تُرْسِل إليه رسالتَها السادسة.. ذاكَ الصباحَ.. تلكَ الليلة!

لكنّي خَطفتُهَا لكُم.. مِن هاتِفِها الجَوَّال:

أعترفُ بأنّي اليومَ لستُ على طبيعتي، لأنّي قرأتُ حُزنَ عينيكَ في حُزنِ عَينيَّ،
أحياناً.. يكون أمامَ المرأةِ رجلٌ يُحِبُّها.. ولا تراهْ!

رسالته إليه (7):

- سأغيبُ عنكِ.. رَغماً عنّي، رُبّما.. لأعرِفَ ما يعنيهِ غِيابُكِ.. بالنسبةِ إليّ.
ولم.. يُرْسِلْها!

رسالتها إليه (8):

. تأخّرتَ عليَّ، وأنا دخلتُ ليلكَ طائعةً.. في انتظارِ رسائِلِك
أشتهِي صوتَكَ.. وأنا وحيدةُ لَيلِي.
كم أحلمُ أن ألتقيكَ في العَتمَة، وأنتَ تَعشَقُ الشموعَ.. مِن حَولِي.

رسالتُه إليها (8):

....

رسالتُهَا إليه (9):

عُدتُ وحيدةَ ذاتي.. إلى بيتي، ليتكَ هنا، كنتُ هربتُ إليكَ مِن نفسي، كنتُ تسلَّلْتُ إلى غُرفةِ نَومِكَ، حافيةَ القدمين، وعلى رؤوسِ أصابعي، حتى لا تستفِيقَ من أحلامِكَ عنّي، كنتُ تمدَّدْتُ قُرْبَكَ، لأغفوَ على صَدرِكِ مع كُلِّ أوجاعي.. إليك.

رسالته إليها (9):

شربتُ كأسَكِ ونامَ الناسُ من حولي، كان الماءُ أزرق في عَتْمةِ الليل؛ ويَشِفُّ. كما لو أنهُ امرأةٌ وتُشْبِهُ أنوثتَكِ، حتى كِدتُ أُلامِسُ.. ذَرَواتِكِ الفاتنة.
سأعودُ غداً.. أُحِبّكِ.

رسالتها إليه (10):

غداً.. سأشربُ قهوةَ صَباحِيَ معك.. في غُرفتِك؛ انتظرني.
وفي الصباح التالي.. كتبَت على هاتفِهِ الخُليَوِيّ رسالةً من كلمةٍ واحدة، كادَت تُوقِظُهُ مِن نَومِهِ ومَنَامِه:
- أُحِبُّكَ.
ثمَّ تسلَّلتْ على أطرافِ أصابِعِهَا، تاركةً إيّاهُ في غَفوةِ العَاشِق بعدَ نَشوتِه.

رسالته إليها (11):

عِطرُكِ.. في هَواءِ غُرفتِي، ولِكُلِّ عِطرٍ.. رائحتانِ:
واحدةٌ: في زُجَاجِهَا؛ الثانيةُ: حينَ تتعرَّقِينَ.. في سريري".

رسالتُها إليه (11):

كأنّكَ لا تعرِفُ ما أنتَ.. بالنسبةِ إلِيّ؟

رسالتُهُ إليها (12):

لو أنّكِ في غُرفتِي الآنَ.. وحيدةً مِنِّي، عاريةً.. قِبَالَةَ مِرآةِ جُنُونِي،
كما لو أنّي الآنَ.. بينَ ذِراعَيكِ، ويرتعشُ فيَّ.. يقيني.

رسالتُها إليه (12):

في شفتيَّ.. نَكهَةُ تَوابِلَ من بَحرِالفِينيق
وما تزال تأخذني إلى شفتيكَ؛ وإلى عِنَاقٍ؛ وإلى صيفِ التَمَنِّي؛
آنَ شفتاكَ.. تُعْتَصَرُ؛ حتى تسبحَ أنوثتي في نبيذِ رُجولَتِكْ".

رسالة (13) مِن شركة الخِليَوِي:

لكلِّ حبٍ: ضريبتُه، نُذَكِّرُكُما بِدَفعِ الفواتير؛ ونتمنّى لَكُمَا حُبّاً خِليَوياً.. حتى تستمرَّ رسائِلَكُما اللاهِبة؛ لا تنسيا.. غِوَايةَ الصوتِ أيضاً!

كاتب من سوريا مقيم في استانبول

أربع قصص

نداء غانم

أنا حرة

أتعثر بلوحة تسكن فيها امرأة تضع يدها على خدها، وفي عينيها بئر عميق من السواد. أدقق في اللوحة أكثر وأتخير مكانا لباب، ثم أنكزها كي تخرج، لكني أسمع صوت بكاء طفل. أنهض لهدهدة بكاء طفلي.

ثراء

كنت أوزع ابتساماتي بالتساوي قدر استطاعتي على الحضور. أخذنا كل واحد منهم في رحلة استعراض لغنائمه التي تراوحت بين المجوهرات والعقارات والرحلات. جاء دوري وزعت نسخا من كتبي وصمتّ. في آخر السهرة رحل الجميع، جمعت كتبي وعدت للبيت.

حذاء كسول

سواد يلف سماء فقيرة من النجوم والقمر، وبحيرة تزينت رغما عنها بالأوساخ، وبعوض يراقص ضوء الشارع. يصل بسيارته ويهم في البدء بممارسة رياضة الركض، الخطوة الأولى ثقيلة والثانية خفيفة أما الثالثة فكانت أكثر خفة، ينظر لقدميه، يرى جاربيه، يلتفت وراءه، فإذا بحذائه منتظرا عند الخطوة الأولى، يعود له ولبيته.

كتيبة

تحرص الخادمة على طرق رأسي، كلما آنست صبرا في نفسي على الحديث معها. يفعل الوقت فعلته معي حين يعصر يومي حتى يضيق عليّ، لأغدو في نظر الآخرين امرأة لئيمة أو طفلة لا مبالية. يتسمر أمامي كأطفال يتضورون جوعا، ذاك النص الذي ينتظرني كي أحن عليه لأقدمه بحلة جديدة للقارئ العربي. وبطلة مسلسل الساعة العاشرة مساء التي بغبائها تركت المشاهدين ينتظرونها، وانشغلت بإعداد العشاء لزوجها الذي بدوره كان منشغلا عنها في انتظار أخرى. الخادمة والوقت والنص والبطلة كلهم حضروا مثل كتيبة تآمرت على خنق امرأة ما تجلس معي الآن.

كاتبة من الأردن مقيمة في الإمارات

فيصل لعيبي ←

غبار المعركة

نهى الصراف

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتسنى لي فيها مشاهدة أسنان كاظم كاملة وهي تكاد تفر من قيود فكيه الضيقين. كانت المناسبة السعيدة يوم عرسه!

لم يستغرق وقتاً طويلاً في التحضير لحفل الزفاف لحسن الحظ؛ إذ تشاركت نساء الحيّ في تجهيز وليمة العشاء وتقديم المشروبات الباردة للضيوف، وهم سكان الحيّ من رجال وأطفال وفضوليين. كما تضمنت الأمسية عزفا عشوائيا لفريق من الموسيقيين الهواة كان استأجرهم جبار الأسمر جار كاظم وصديقه المشاكس، الذي كان يقود الفرقة الموسيقية كعادته متصدراً أفراح الحيّ الفقير يراوده حلم الشهرة والمجد.. كان جبار يمني نفسه دائماً في أن يتصادف وجود أحد المحترفين في فن الغناء الشعبي أو حتى مروره بصورة عابرة ليستمع إلى عزفه وصوته وهو يجلجل في أرجاء الحيّ، فينتشله من الزاوية الضيقة التي يعيش فيها إلى أروقة المجد الفني وأضواء الشهرة. وعلى الرغم من أن هذا لم يحدث في أي يوم من الأيام، إلا أن جبار الأسمر ما زال هو العازف الأول في جوقة الحيّ من دون منازع.. وها هو اليوم يتصدر الجميع تكاد الفرحة تطفر من عينيه مختلطة بدموع الحماس الذي لم يغادره يوماً.

لم يخلو الأمر -بالطبع- من بعض قطع الزينة الورقية والمصابيح الملونة التي تتقن الزحف على جدران الحيّ في جميع المناسبات التي تحمل طابعاً جماعياً كهذا. بذلك، لم يكن أمام كاظم سوى تجهيز بذلة العرس وكانت هذه هي بذلته العسكرية أيضاً بعد أن أزيل عنها غبار المعارك التي شارك فيها من دون جدوى؛ وهو تقليد شائع في زمن الحرب الطويلة في أن تكون البذلة العسكرية هي الزيّ المعتمد في مثل هذه المناسبات، وكان ذلك من حسن حظه مرة أخرى، إذ من أين له بثمن واحدة أخرى غير رسمية يستأجرها لقضاء ليلة العمر؟

إن كاظم لم يكن يوماً سعيد الحظ كما يبدو عليه الآن من خلال تفاصيل الحفل؛ حيث ترك أكثر من قطار للزواج خلفه في خضم صراعه مع الحياة والموت.. الجوع والشبع والحرب والسلام.. تلك الثنائيات التي أطّرت صورته منذ عقدين من الزمن فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من ملامحه، وها هو في أواخر عقده الرابع وبعد أن صبغت سمرة بشرته بعض رتوش التقدم في السن، قد وجد من ترضى به -هكذا كان يقول لأصحابه ضاحكاً- فكانت رجاء هي أمله الأخير الذي بقي في انتظاره في المحطة الأخيرة والقطار الأخير.

كانت رجاء تشبه كاظم كثيراً في علاقتها بالحظ، وفضلاً عن ذلك فقدت شقيقها الأكبر في الحرب وبعدها الأم والأب بعد أن ذابا حزناً على الولد، الذي أرسلوه شاباً وسيماً فارع الطول إلى ساحات المعارك الطاحنة ليعود إليهم جسداً مشوهاً بلا ذراعين ولا ساقين. بذلك، لم يتبق لرجاء سوى جدة ضريرة استطاعت الصمود سبعين عاماً لأنها ما زالت محتفظة بمخيلتها بصور الأرض الخضراء والخير الذي ينتصر دائماً في قصص الجنيات وابتسامات مختار الحيّ الصباحية التي توزع بالتساوي على جميع المخلوقات من دون مقابل والأخبار السعيدة القادمة من خلف الحدود، كان ذلك في الماضي البعيد.. ورغم أن الصورة اليوم أصابها كثير من التشوه، إلا أن الجدة لم تكن صاحبة مخيلة مبدعة فلم يطرأ على مشاهدها القديمة تغيير يذكر.. لهذا احتفظت بها ذاكرتها فأطبقت عليها جفنيها إلى الأبد.

بعد صلاة المغرب، بدأ الحفل الموسيقي وانشغلت النسوة بإعداد وتوزيع الطعام، فيما كان كاظم يسير راجلاً ببذلته العسكرية حتى بيت العروسة المستقر في نهاية الشارع نفسه الذي يسكن فيه، حاملاً في ذراعه اليسرى مغلفاً يحتوي على شيء ما لم تظهر من معالمه أيّ إشارة تنبئ بمحتوياته؛ كان المغلف يضم شكلاً مستطيلاً مستوياً.. إلا أن ذراعي كاظم كانتا تمسكان به بإصرار غريب حتى أنه كاد ينسى قيافته وأناقته حين تعثرت قدماه في إحدى الخطوات القليلة التي تفصله عن منزل أمل.. فكان يخيل إليه أن المغلف سيسقط من ذراعه بفعل الزحام وارتباك الخطوات. وبعد أن استرد وعيه أسرع وحمله بين ذراعيه الاثنتين مرة أخرى ولكن بإصرار أكبر وخشوع كأنه يحمل كفن طفل إلى مثواه الأخير.. فشعر بالرضا ثانية واستعاد توازنه وصار يسير مختالاً في موكب زفاف عجيب يرافقه إخوته الصغار وبعض أصدقائه وجمع من أبناء الجيران والمتطفّلين الذي لا يعرف أحد كيف وصلوا إلى المكان في الوقت المناسب تماماً. بلغت المسيرة منزل رجاء فكان في استقبالهم جيرانها وأقاربها بالأهازيج والأغاني الشعبية التي لم تخل من الهتافات الوطنية التعبوية، وكأن الحرب كانت مصرة على أن تكون حاضرة حتى في دقائق الفرح القصيرة.. ولم يفتقد هذا التجمع -طبعاً- الغرباء والفضولين من أصحاب المصالح المتشعبة، كدأب الأعراس التي تقام في مثل هذه الأحياء الفقيرة.

ارتفعت أصوات الموسيقى العشوائية التي كانت تقود مسيرة العرس، حيث بلغت أقدام المحتفلين عتبة دار العروس، كما اتسعت ابتسامة كاظم قليلاً من فرط الدهشة لأنه لم يكن ينتظر هذا اليوم أبداً بعد أن قطع دروب حياته ممزقاً بين أنياب اليأس والخوف.

وهكذا كان يستقبل تهاني الأصدقاء والجيران بامتنان وخجل وكأنه ارتكب خطأ فادحاً حين سمح لنفسه باقتناص لحظات الفرح هذه. وحين أوشكت سحابات الحزن على الهطول فوق ملامحه عاجله صديق عمره جبار الأسمر بأغنية وطنية مجلجلة شحذت الهمم وبددت جميع أنواع السحب واستبدلتها بخوف وترقب كثير الشبه بالخوف والترقب الذي يسبق سقوط القذيفة الأولى في سلسلة هجوم جوي تمهيداً لمعركة صباحية اعتاد أن يهضمها كاظم ورفاقه القدامى في جبهات القتال، بدلاً عن الفطور.

ولكنه الآن في إجازة طويلة بعد أن وضعت الحرب أوزارها -على مضض- وأصبح لزاماً عليه أن يقطع ما تبقى من طريق حياته في اتجاه الضفة الأخرى الأكثر سلاماً.. من دون هتافات وأغان حماسية مثلما تسنى له قبل يومين وهو يهم بتحضير بذلة عرسه أن يزيل عنها آثار غبار المعركة الذي كان متشبثاً بخيوط البدلة بإصرار عجيب..

كاظم كان قد نجح في إزالة الغبار الرمادي عن مشهد البذلة الخارجي فعادت كدأبها خضراء بلون الأرض الغنية بكنوزها ونفطها، لكنه لم يكن واثقاً بأن الأمور ستسير بسلاسة ويسر هكذا.. حيث يستطيع أن يحافظ على شكل ابتسامته مدة أطول وكأن الماضي لم يكن!

جلس الزوار ومعهم العريس وحضرت العروسة تغطيها ابتسامة خجل وعدم تصديق، وفيما كان كاظم يبادل عروسه الابتسام لم يفارق ذراعيه الكيس الذي ضم الشكل المستطيل المستوي، وعلى الرغم من النظرات الفضولية التي غلفت الكيس لم يكن يشغل بال كاظم في تلك اللحظات سوى خشيته من أن تصاب محتويات سره الغريب بأيّ خدوش بفعل الزحام وتشابك الأيدي والأكتاف التي ما زالت مصرة على إحياء فرحته بالنيابة عنه.. لطالما حدثته نفسه -وسط أصوات الضجيج العالية هذه- عن موعد اقتراب اللحظة الحاسمة التي يستطيع التخلص فيها من كل هذه الملامح المحيطة به ليتسنى له الاختلاء بنفسه وعروسه و.. الكيس!

اتخذ صديقه جبار الأسمر القرار -مرة أخرى- نيابة عنه واختتم الحفل بمقطع غنائي عشوائي، وهكذا بدأ الجمع يتفرق وغادرت الأقدام منزل العرس على مضض.

أخيراً، هذا كاظم برفقة عروسه ومازالت ذراعاه تتشبثان بكيس الأسرار.

هل يبدو المشهد من هذه الزاوية مكتملاً؟

في بادئ الأمر، لم يشأ كاظم أن يترك الكيس ليسقط من يديه بسهولة.. أصابه بعض الهلع حين ترك بمفرده.. وشعر بالغربة مجدداً، ها هو ثانية في جبهة قتال جديدة وأمامه بالتأكيد معركة أخرى ليخوضها.. وقد ترك بمفرده.. هل طاردته ذكرى الغائبين في تلك اللحظات؟.. إنه لا يعلم بالتحديد من الغائب ومن الحاضر.

أصبح منزل العروس منذ اللحظة منزل كاظم أيضاً، هكذا كانت الفكرة بموافقة جميع الأطراف.. لم يكن لأمل سوى جدتها الضريرة التي تسكن منذ الأزل في إحدى زوايا المنزل المكون من غرفتين.. فكان معظم ما تبقى من زوايا وجدران من نصيب كاظم وعروسه.

كان المحارب القديم يجيل بصره في جدران المنزل وكأنه يبحث عن إجابة لسؤال طالما حبسه في رأسه المتعب.. سؤال قد يجد صورته داخل الكيس.. هذه المرة تطوعت أمل لتكسر حاجز الصمت:

- ·هل أعجبك المنزل.. أعني بعض قطع الأثاث هذه كانت لأمي و.. ثم·.

- ·نعم كثيراً.. أعني بأنني لم يتسن لي الوقت ل.. سأشتري لك غرفة نوم جديدة·. تحدث جبار بسرعة وكان غائباً عن المكان.

- ·لا ضرورة لذلك، يمكنك توفير المال لأمور أهم·.. كانت أمل تحدث نفسها بأن لا وجود لمثل هذا المال إلا في خياله، فالحرب جردت كاظم من كل شيء فلم عساها أن تترك له المال؟

تحرك كاظم بسرعة مفصحاً عن الكيس الذي يبدو وكأن الوقت قد حان لدوره.. تطلعت أمل بفضول.. ترى هل يحمل لها هدية ما.. ربما.. أثمن من الغلاف الذي يبدو ممزقا في إحدى زواياه.

تحركت أنامل كاظم بسرعة أكبر وكأنه يريد أن ينهي مهمته ليرتاح ويتسنى له فيما بعد استهلال صفحة جديدة من حياته أو.. ما تفضل منها. أزال المغلف تماماً فبدا المشهد من جهته الأخرى حيث رصدته أحداق العروس الفضولية وكأنه خلفية إطار لصورة!

كان كاظم يحدق في الجهة الأخرى من الصورة حيث تسنى له النظر مباشرة إلى محتوياتها، وحين تبادل العروسان الأدوار تسنى -أيضاً- لأمل مطالعة المشهد الذي يحتويه الإطار. كانت صورة لمجموعة من الجنود بوجوه رسمت عليها أشباح ابتسامات على خلفية تلة ترابية.. مع خيال شمس صيفية حارقة.. رفاق كاظم القدامى ومعهم كاظم المحارب القديم.. وجوه كالحة وملامح قلقة، وهو كان يرتدي قيافته العسكرية ذاتها مثلما هي الآن ولكن مضافاً إليها الغبار.

لم تكن الدهشة هي الوصف المناسب لملامح أمل الجديدة؛ إنه مزيج من مرارة وخيبة أمل.. خيبة بمذاق جديد لم تعتده من قبل.. ·ترى هل ستكون الأيام المقبلة على الوتيرة ذاتها وهل ستبني تلالاً جديدة من الخيبات فوق خيباتها القديمة.. هل سينتهي الأمر على هذه الشاكلة؟·.. كانت العروس تحادث نفسها وهي تواجه نظراته الواثقة باستسلام وصمت.

كان العريس يبحث عن جدار مناسب ليحمل الصورة.. تبعته نظرات العروسة الصامتة حتى استقر قراره على واجهة الجدار الأول الذي قابله، لم يتردد لحظة واحدة ولم ينتظر أن يسمع كلمة اعتراض.. أنهى مهمته بسرعة واستقرت صورة رفاق الحرب على الجدار الأكبر في منزل الزوجية.

كان الأمر يتطلب -في الأقل- بعض التوضيح. بدا كاظم في تلك اللحظة وكأنه قد أزاح حملاً طالما جثم على صدره منذ الأيام التي ترك فيها جبهة القتال، وعاد إلى منزله خالي الوفاض إلا من هذا الإطار.

- ·كنا نتشارك كل شيء.. الطعام.. الشراب.. الخوف.. الفرح المكتوم.. القلق.. أعقاب السجائر ومرارة اليأس.. الأمل برؤية شروق الشمس ثانية بعد موجة قصف ليلية عنيفة.. كل شيء كنا قد تشاركناه.. لكنني خذلتهم في اللحظات الأخيرة يا عزيزتي.. لم يكن خطأي.. إذ أن شظايا الصاروخ التي طالت أجسادهم كانت ضريرة فأصابتهم ثم فقدت اتجاهي.. فنجوت.. هكذا تصوري بكل بساطة.. سقطت الأجساد الفتية في لحظات.. وبقيت أنا معلقاً بين السماء والأرض·.

- ·كاظم·.

- ·هل عليّ أن أتركهم الآن.. وبعد كل ما حدث.. لا، ليس بعد كل ما حدث.. بل ستبقى أجسادهم فتية هكذا على الجدار.. لن أدعها تسقط مرة أخرى.. لن تسقط مرة أخرى·.

- ·كاظم·.

- ·لن تسقط ·.

كاتبة من العراق

فيصل لعيبي

مدار الرؤيا

هشام البستاني

شيء ما بيننا.
لا، إنه ليس الكاميرا المعلّقة في زاوية الجدار، تمتصّنا بعينها وتبثّنا إلى شاشةٍ بعيدة.
أمدُّ أصابعي في المسافة التي تفصلني عنكِ.. تمرُّ بشكلٍ عاديٍّ لكنها لا تصلكِ، لا تلمسكِ، كأنّكِ دائماً أبعدُ قليلاً من مكان الصورة التي يرسمها دماغي. كأنكِ خلف ستارةٍ من الماء. لعلّكِ في هواءٍ آخر أشدّ كثافة من هوائي. هواءٌ ثقيلٌ مثل ذاك الذي غرق فيه رفاقي في ساحة المعركة. ماتوا كلّهم وبقيت أنا -مثل قلائل آخرين- محشوراً في بضعة أبيات من الشعر لا أموت "في ليلةٍ، إن قُيّضَ لكَ أن تستلقي في غرفة المرضى هذه، تخاف الظلام لكنّك لا تجرؤ على الضوء، أَنْصِتْ؛ فإن صوتي قد يمنحك الطمأنينة".
صاروا ذكرى بينما ظللت أنا أعبر الحقب وتعجنني التحوّلات.
لكنكِ تظهرين مرتاحةً، لا تبدو عليكِ حشرجات الموت ونقص الأوكسجين. وجهكِ ورديٌّ تنزُّ منه ابتسامةٌ واثقة. عيناكِ مطمئنتان،
ولولا آثار جمر الموقَدِ فيهما
لظننتكِ نائمةً بعيونٍ مفتوحة.
ها أنت تُغمضين. نامي، إذن،
نامي.

***

يتحرّكُ كثيراً في الليل. يظنُّ نفسه قادراً على الولوج إلى عالمي. على الوصول إليّ. يعتقد أن طائرته قادرةٌ على أن تحطّ على مدرجي، لكن ثمّة مطارات كثيرة فيّ، تطير منها وإليها رغبات كثيرة، طائراتها لا تكفّ عن التحليق.
حين أضع رأسي على المخدّة، يظهر. لا أرى شيئاً في البداية، أسمعُ فقط. أسمع نَفَساً وحركةً خفيفين، ثم يدٌ تربّت على كتفي بلطف: مرّةً، مرّتين ثم تنسحب. لا أرى شيئاً بعد. أحاول أن أُقنع جفنيّ بأن يظلّا مُنطبقين، وأحاول أن أقنع عقلي بأنه يحلم، يحلم فقط. لكن لا فائدة. أراه الآن. طويلاً. هادئاً. يلبس لباس الجنود وخوذتهم. وجهه معلّقٌ بهالةٍ بيضاء وسط السواد المطبق للغرفة ولا عينين له. تفترق شفتاه لوهلةٍ، يريد أن يقول شيئاً فأغمض عينيّ، وحين أفتحهما يكون غادرَ، وأنا أبتسم. ليست ابتسامة سعادة، بل ابتسامة اطمئنان أنه سيعود، وأن الليل لن يبتلعني بوحدته هكذا.
في الصباح أركع على الأرض مدقّقة إن تركت خطواته آثاراً على خشب الأرضية. ألحق مسار حركته المرسوم في عقلي لأستكشف إن كان أيٌّ من أشياء الغرفة انزاحَ ولو قليلاً من مكانه، وحين أتعرّى لأستحمّ، أركّز كثيراً على استدارة كتفي لعلّ أصابعه تركت بعضاً منها هناك.

w

لا أحبّ الكلام. حياتي الطويلة علّمتني الجَلَد والصّبر والصّمت. ماذا تقول لرصاصة تزنّ بجانب أذنك وتستقرّ في فخذ صديقك الذي لم يقفز بعد في الخندق؟ ماذا تقول لضابط يسألك عن اسمكَ ثم يصفعك قبل أن تُتَمْتِمَ بالإجابة؟ ماذا تقول لطائرةٍ تلقي بالقنابل من فوق مئات الأمتار، قائدها لا يمكنه أن يتفرّس تقاطيع وجهك ولا أنت وجهه؟ علّمتني الحرب أن الصمت كثيراً ما يُنقذ حياتك، وأن الكلام غالباً ما يُنهيها. وربّما لأنني صموتٌ مُدّد وجودي هنا أكثر من الآخرين.

تخطيط لـ فيصل لعيبي

لها فقط كنت أريد أن أقول شيئاً. لكنّها عجولة، لا تريد أن تنتظر اكتمال قمري. تغمض عينيها فتُنهي المشاهدة ولا يعود لي بقاء.
كنتُ أريد أن أقول لها إن الاطمئنان ليس شعوراً عابراً، إنه التراكم البطيء لندوبٍ تتجمّع على مهل، وتُخلّف هدوءاً وبُروداً وقُدرة. الاطمئنان هو أن تصير مثل العلّاقات الكبيرة لمفاتيح غرف الفنادق القديمة، هرّأتها لمساتٌ عابرةٌ أكثر من أن تُعدّ، لكنّها تظلّ وستبقى قويّة تشجّ الرأس.

***

شيء ما بيننا.
لا، إنه ليس الكاميرا المعلّقة في زاوية الجدار، وضعتُها هناك لتحاول اصطيادك. ولا هو كتاب الشّعر الذي يذكّرني بكَ كلّما أتيتُ على تلك القصيدة.
الخندق عميقٌ لكن ليس بما يكفي ليحمي الجنود من يد الموت القادم. أشاهده من مكاني فوق الصفحات، وأشاهد أسراب الطائرات التي تأتي مع الريح الباردة كحدّ سكين. لماذا كل هذه القسوة؟ هل كانت القصائد قرباناً لذكرى من احترقوا؟ هل كان الشاعر يريد أن يُهدهد أجساد من بقي على قيد الحياة ليناموا مثل ذاك الملقى على طرف الوادي وجهه متعفّن وشعره مختلطٌ بالأعشاب: لكنه رغم ذلك لا يرتجف، لا يشعر بالبرد والألم والتعب والخوف مثل أولئك الذين ينظرون إليه؟
هل كان يقرأ عليكم قصائده في الليالي التي عصفت فيها الثلوج؟ هل أنقذت أحدكم من الموت تجمّداً؟
لم تحترق القصائد في الحرب، لم تخترقها الشظايا ولم تدرزها الطلقات. هرَّب أحدهم الأوراق بكل حمولتها، وها هم يتسلّلون منها كلّ يوم يبحثون عمّا بقي من حيواتهم.
أعرف أنك أحد أولئك الجنود. أعرف أنك مِتّ ميتةً شنيعة. أعرف أنك تخرج لي من بين كل تلك البشاعة المحشورة بين غلافين لتقول لي شيئاً. أما أنا، فيكفيني ما قرأت.

***

تغمض عينيها دائماً حين أهمّ بالكلام.
أريد أن أعبر إليها، أن أسكن جسدها، لكنها تُغمض في اللحظة الحاسمة قبل أن أفتح فمي. يقولون إن الروح تخرج من الأنف، لا أدري، قد يكون هذا كلاماً فارغاً، لكنّي أعلم أن كلامي قادرٌ على الولوج إليها من أحداق العيون. هكذا أستريح، كل هذه العواصف المتشقلبة في داخلي ستجد نفقها نحو شخصٍ آخر وتستمرّ.
لم تسمعني، وأنا أبتلع جُملتي دائماً. ما الجدوى إن عرفت سِرّي ولم ينتقل لها كنهه، أساسه، التجربة كلّها؟ ما الجدوى؟ قد تعتقد أن رائحة الكتاب تكفي، لحمه المحروق، جثّته المخضرّة التي أكلها التحلّل، كل هذا جيّد، لكن إن لم تشاهد عينين مكان الثقبين السّوداوين، فلن يكون لها ظلٌّ على الأرض أو انعكاس في المرآة، ستظلّ هائمة في عالمنا الملتبس، بلا حولٍ ولا قوّة. ستظلّ لا تدري.
لن تعلم أنني أنا من كتب ذاك الكتاب الذي تقرأ فيه كلّ ليلة. أنا الذي تستحضرني ثانية كلّ قراءةٍ وكلُّ إلقاءٍ وكلّ استشهادٍ وكلّ ذكرى. وما تزال عندي قصائد لم أقلها، رفاق سقطوا لم أبح بعذابهم وموتهم، كنت وعدتهم بذلك، كان ذلك دَينهم في رقبتي، العالم دَينٌ في رقبة الشاعر، وأنا أريد أن أسدّد دَيني وأرتاح.
لو تفتحي عينيكِ فقط، لو تسمعي ما سأقول..

***

في ليلةٍ، إن قُيّض لك أن تستلقي في غرفة المرضى هذه… إلى آخر الاقتباس هو من قصيدة: "عن قصائدي" لولفرد أوين، شاعر كان مجنّداً في أثناء الحرب العالمية الأولى، قتل قبل أسبوع واحد فقط من إعلان وقف إطلاق النار في تشرين الثاني عام 1918. الترجمة عن الانجليزية للمؤلف.
الجنود الموتى الذين لم يخرجوا للفتاة النائمة هم من قصيدة "الأشباح العطوفة". وحده الشاعر خرج.

كاتب من الأردن

هذا الكتاب

منشورات مجلة "الجديد"

غيمة في غرفة الضيوف

صلاح فائق

شعر

دم الأخوين

همدان دماج

تُعرف شجرة "دم التنين" باسم "دم الأخوين"، في إشارة إلى الأسطورة التي تقول إن الشجرة نبتت بعد أن سالت الدماء بين الأخوين: قابيل، وهابيل. اليمنيون يفخرون كثيراً بهذه الشجرة، حتى أنهم جعلوها رمزاً وطنياً معاصراً، ويقال إنهم عادة ما يتقاتلون فيما بينهم لكي ينبت المزيد منها.

ها قد تسنى لي أن أقابل معظم الكائنات التي كان معلمنا الرمادي يحكي لنا عنها قبل أيام من السماح لنا بالطيران منفصلين عن القطيع. لَكَم كانت حزمة المعلومات التي نسخها من رأسه الكبير ولقح بها رؤوسنا الصغيرة مذهلة! ما زلت أتذكر الخدر اللذيذ الذي أصابني لأيام تحت تأثير تلك الحزمة، وأنا أعيش بزخم هائل عالماً افتراضياً مليئاً بكل ما اكتظت به حياة المعلم من صور وأحداث وروائح وذوائق مختلفة. ولَكَم أنا متشوق لأنْ أنسخ حزمة معلوماتي للأجيال القادمة يوماً ما! لكنني أود أن تكون أكثر إمتاعاً وفائدة من تلك التي حصلتُ عليها من معلمي الرمادي.. هل هذا ممكن يا ترى؟ أم أنه طموح مبالغ به؟ "لا يمكن لأيّ جيل من أجيال الذباب القادمة أن ينافس عظمة أسلافنا؛ إن جيناتنا تضعف كل يوم، وفي طريقها للانقراض". هذا ما كان يقوله المعلم الرمادي دائماً.

كنتُ أفكر في هذا الأمر في صباح يومٍ مشمس جرى لي فيه أمر يستحق أن يروى. كنتُ أحلّق في الفضاء دون أن أعرف إلى أين، أحاول أن أسابق ظلي العنيد في الممر الضيق بين بيوت القرية. كانت سحلية برصية قد توارت عن الأنظار بعد أن حشرت جسدها الملون في فتحة صغيرة بين صخرتين مرميتين تحت جدار مهمل. لا بد أنها كانت قد شعرت بوقع أقدام بشري بدأ ظله يظهر في طرف الممر زاحفاً بسرعة ومصطدماً بلا اكتراث بظلي الذي مات واختفى لوهلات… طرت بمحاذاته، واقتربت من رقبته التي جذبتني رائحة عرقها الممزوج بأوساخ غير مرئية. كان يرتدي دروعاً قماشية ذات ألوان جافة، غاضباً، يغذ السير نحو ساحة القرية وقد امتلأت أنفاسه بروائح نوايا سيئة ووقائع جسيمة محتملة استطاعت بعض أليافي العصبية التنبؤ بها. عرفتُ أنه بحالته هذه لن يحس بي إذا ما التصقتُ بجلد رقبته؛ لكنني ترددت قليلاً؛ إذ من الصعب التكهن بما يمكن أن يفعله هذا الكائن الهائج المعقد. قررت أن أستقر على حافة القماش الذي يغطي به رأسه، قبل أن أتسلل بقفزتين رشيقتين إلى رقبته، بجانب جدول عرق صغير نَبَعَ من مكانٍ ما من جمجمته المتوهجة وامتد حتى أسفل ظهره. شفطات متأنية من ذلك العرق أشعرتني بسعادة غامرة ودغدغت مساماتي البخارية. عدت بقفزة بهلوانية إلى موقعي على حافة القماش. نظفت نفسي قليلاً، ثم مشيت صاعداً حتى حافتها الأمامية.

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

كنا قد وصلنا ساحة القرية، وبسرعة اقتربنا من كائن بشري آخر يلبس دروعاً قماشية ذات ألوان زاهية. كان جالساً القرفصاء بجانب صحن كبير بداخله صحن آخر مليء بما تبقى من حقين، وكوب شاي فارغ، وبعض قطع مختلفة الأحجام من الخبز. يا لها من غنيمة غير متوقعة! طرتُ بسرعة هابطاً نحو ذلك الصحن، وحومّتُ قليلاً قبل أن أقف باعتزاز على حافة الكوب، وقد تمرغت أقدامي جميعها بلزوجة السكر. "رائع!… من أين أبدأ؟" احترت قليلاً، وهذا أمرٌ أقلقني بالطبع، فالحيرة مرض خطير، وقد أكون مريضاً. لكن ما إن هممت بالطيران إلى حافة الصحن حتى كان ظل الشخص الذي كنت أمتطيه قد اقترب من ظل ذلك الجالس، الذي ما لبث -بدوره- أن نهض من مكانه هلعاً، وبدأ هدير شجار يرتفع في المكان. ليتهما يسكتان! ربما كان باستطاعتي -إذن- أن أتذكر قراري الذي اتخذته قبل قليل. وبينما كنتُ أعيد خطوات اتخاذ القرار، رأيت ظل مسدس يرتسم على التراب، قبل أن تنطلق منه عاصفة صوتية رهيبة اهتز لها كوب الشاي، وجرفتني في الفضاء قليلاً، مشوش الفكر، فاقداً التوازن.

استعدت توازني. حلقت مرتفعاً، بعد أن امتلأ المكان برائحة البارود السام. كان ذلك البشري، بدروعه القماشية ذات الألوان الزاهية، قد تمدد، وسالت الدماء من تحت رقبته، وامتزجت بتراب الساحة. كنتُ ما أزال أنظر إلى جثته الهامدة تماماً، حين رفع البشري الآخر المسدس نحو رأسه لتنطلق منه عاصفة صوتية أخرى جرفتني في الفضاء لكن أقل من المرة السابقة. وما إن استعدت توازني حتى كان جسده قد تمدد بجوار الجسد الآخر، واختلطت الدماء بعضها ببعض. طرت فوق الجثتين. كانت رائحة الدماء الممزوجة بالتراب طرية، وعما قليل ستتخثر وستنعش الحواس الشمية لعدد غير قليل من الحشرات التي ستملأ المشهد بصخب كرنفالي رائع. احترت الآن أكثر! هل أعود إلى حافة كوب الشاي المليء ببقايا السكر؟! أم أنتظر قليلاً كي أكون من أوائل من سيتمرغ في ذلك العفن الدموي اللذيذ؟ قال لنا المعلم الرمادي إن حيرة الذباب مرضٌ خطير، ودليلٌ على ضعف في البصيرة، وعادة ما تكون نتيجته غير محمودة العواقب. لكنني احترت فعلاً، وتتكرر حيرتي أكثر كلما استرجعت ذكرى ذلك اليوم المشمس الذي كنت أحلق في فضائه دون أن أعرف إلى أين.

شيفلد، بريطانيا - خريف 2012

كاتب من اليمن

صندل الصبي

هند جعفر

عملت لدى الحاج حودة صيفين متتابعين،كان واحدًا من أشهر باعة السمك في حلقة بحري، ورث دكانه عن أبيه حودة الكبير الذي سماه على اسمه كونه الولد الوحيد الذي قاتل ليأتي بعد إحدى عشرة بنتًا مات منهن أربع وتبقى سبع ينتظرن وليّ عهدهن مع الأم والأب الذي شارف على الخمسين ولم يأت وريثه بعد..

جاء حودة وأمه تودع عامها الرابع والأربعين، جاء الولد وذهبت أمه بعد ولادة متعثرة فأرضعته عمته مع أولادها، وحين بلغ الثالثة دخل في كنف أبيه وسط جوقة البنات اللاتي كن يستعدن للزواج واحدة تلو الأخرى، ولكنه لم ينقطع حتى السادسة عن الرضاعة فكان يذهب لعمته ويقف بجوارها قائلا: البِز ياما فلا تستطيع المرأة إلا تلبية رغبات وحيد أخيها حامل لقب العائلة. حكى لي المعلم في ساعة تجلّ نادرة أن مشرط مسعد حلاق الصحة لم يمسه إلا عند بلوغه العاشرة عندما ألحت عمته وأخواته على أبيه قائلات إن عشرة أعوام من الدلع والترف تكفى وأنه قد حان الوقت ليبلغ الولد مبلغ الرجال ولو شكليًا، ولم ينسها حودة لهن أبدًا كيف تخلين عنه في هذه المحنة وتركنه أمام مسعد وطحش آخر من الجيران -حسب وصفه- وجهًا لوجه وسط غياب أبيه الذي لم يتحمل رؤية وريثه يتلوى في أول تجربة ألم يخوضها. ضحك لي قائلا: كانوا ضلالية ما ينفعش تدخل عركة راجلين لراجل واحد وتاخده على خوانة وتقول غلبناه.. تزوج مرتين وأنجب ثلاث بنات ولم يكرر ما فعله أبوه وبرر ذلك أن الزمن غير الزمن وإنه لا يريد لولد أو بنت أن يتزفر على حد تعبيره كفاية زفارة جيلين يا بنى..

تفصيل من تخطيط لـ كاظم حيدر

كان قصيرًا ونحيفًا لا تظهر على جسده كميات الدهن التي كان يعب منها يومًا بعد الآخر.. شاركته في مرات كثيرة الغذاء فكان ينفرد بالدهن وأغلب اللحم يحادثني ويده اليمنى في طبق الفلفل الأسود والملح تغمس قطعة من الدهن فيتلقفها فمه ويلحقها بالأخرى في سرعة ومهارة وقتما كان ينهش في رغيف بلدي يلفه في يده اليسرى.. كانت مهمتي تنحصر في حراسة الدكانة وقت غيابه أو نزوله الميناء والتوصية على الشاي والقهوة بالإضافة إلى حمل الثلج ورص طاولات السمك، كان حمل الثلج أصعبها أعود منه منهك القوى تمخر قدماي في عباب الكزلك الأبيض.. مخدر الخد والرقبة بالكامل وهدومي تفيض بمائها تتلقفني أيدي الحاج حودة ليتناول اللوح وراء الآخر، ثم أقوم بتكسيره بعدما أشرب كوباية الشاي التي تعيد لي قليلا من الدفء بعد الخدر الذي شل نصفي العلوي بأكمله.. كانت إحدى مهامي السرية الذهاب يوميًا إلى مخبز العيش البلدي للحصول على مئة رغيف نصف سوا نبيعه للصيادين كعليقه للسمك مقابل أن يأتوا لنا بما يصطادونه بعد ذلك ليوزع الحاج فيما بعد السمك بين محله وبين محلات أخرى في الحلقة.. لم يسمح لي حودة يومًا ببيع سمكة واحدة ماعدا السردين المملح الذي اشتهر بمهارته غير العادية في تمليحه لدرجة أن هناك إشاعة خبيثة ظهرت في الحلقة أن حودة يقوم بوضع قطعة من روث صعيدي في الصفيحة وهو ما يعطي السردين نكهته.. وكان الصيادون يتضاحكون معه بهذا فيرد قائلاً: وهجيبه كل يوم منين يا خرونج منك له؟! طب وليه ما يكونش واحد فلاح يعني اشمعنى الصعيدي.. كان السر كله يكمن في قليل من الخردل وكثير من الشطة بالإضافة إلى الملح والكركم… كان حودة يضيف الخردل على عكس بقية التجار وكان الخردل كفيلاً بنكهة مميزة.. بخيلاً كان الرجل لم أظفر منه بإكرامية واحدة طوال ستة شهور قضيتها معه.. كان الراتب فقط لا غير هو ما أستطيع اقتناصه منه وأحيانا ساندوتشات سيردين كنت أفطر بها وقت دخوله للميناء جالسًا أمام المحل متقمصًا دور المعلم بلا منافس طالبًا من بائعات محلات الملابس المجاورة كوباية شاي كن يتسابقن لتقديمها لديك برابر دكان الحاج حودة.. أحيانا كنت أتلقى عشرات القروش وأرباع الجنيهات من بعض الصيادين عند مساعدتي لهم وكان المعلم وقتها ينظر لي شزرًا فأسلمه صاغرًا الفضة مجمعة كما تكومت في جيبي لم أحصها بعد.. ليعقب بعد ذلك بصوت متذمر: من الساعة 8 للساعة 4 إنت تبع الدكان وشغلك كله عشان الدكان. كان ينفحني أسبوعيًا 25 جنيهًا وفي منتصف التسعينات كان هذا مبلغا لا يُستهان به أبدًا.. عندما توظفت في المؤسسة العريقة رأيته بالصدفة، أتي يومًا مع حفيده ليقدم له في النشاط الصيفي الذي تقيمه المؤسسة للأطفال.. لفت نظري صندل الصبي الأبيض وتخيلتني في كزلكي أحمل ألواح الثلج من السوق لمحل المعلم ولم أدر بنفسي إلا وأنا واقف أمامهم أعرض خدماتي قائلاً: من الساعة 8 للساعة 4 المحروس الصغير تبعنا هنا يا حاج حودة.

كاتبة من مصر

أربع قصص

هند جودات جودة

يتنفسها دمع

تتنفس الدمع وهي تبحث عن ثانية تفهم أنها لا تستطيع العبور دون يديه، ثم يتنفسها الدمع كأنه الوحيد الذي استطاع أن يفهم، لازالت تحاول القفز عن إحساسها بوجوده رغم أن كل شيء يؤكد أنه رحل رحيل اللاعودة، ذلك الرحيل الأخير ذو الخط الشعاعي الذي له نقطة بداية تعني النهاية.

تحاول أن تقتنع بأنها لن تصحو ذات إغماضةٍ لتناديه ويجيب، وأن صوتها سيظل حين يلفظ حروفه يخرج ليعانق فقط الفراغ والصمت.

هو الذي اكتشف مناطق الفرح والحمّى! والذي جعل من الليل نهاراتٍ بنجوم عينيه، وجعل من النهار أمنيات تتقن الحلم، وتحفل بالورود الجورية واقتناص الضحكات، تسمع صداها وتتلفّت بحثا عنه وهي تدرك أن ذلك البحث عبث، وتترك الغصة تتكوّر في حلقها

آه، لو تنطقها وتعرف أن الآه لا تجدي في رفع كاهل التعب ثانية عن الصدر وأن تلك الـ"لو" لا تقدر على إعادتها لرحم الضباب قبل أن تصطدم بوجوده وهي مغمضةٌ وترى جيدا أنها تلتصق به نخاعا لنخاع!

وتكرّر لذاتها ما قالته طويلا وانتظرته طويلا لو أنه منحها طفلا يعشش في قلبها قبل رحمها لتشير إلى صورته حين يكبر وتقول هذا الذي جعلك تتكون قبل غيابه الأخير.

تحاول أن تكفّ عن تجرّع فقده، تحاول الاستمرار في حمل الحلم، تحاول أن تصدّق، أن تتوهم بأنه سيطرق الباب بعد قليل حاملا قلبه وابتسامته وغمازتين تصنعان واديا تودّ لو تنغرس فيهما وينتهي الأمر، لتصبح جزءا من ابتسامةٍ ملتئمةٍ فيه!

يرهقها غيابه الذي لم يأت به بعد!

غادر دون وداع، كانت تنساب كل يوم وليلة في بحيرة روعته الوادعة، لم يترك لها هذه المرة علامات على الطريق لتلحق به، لم يترك لها وقتا للتلويح له وهو يركب قطار الراحلين، بكل عفويّة ككل شيء فيه، جاء الغياب عفوياً.

لم يترك لها طفلا ينمو داخلها ويتحرك ليحرك قلبها، أو يرفس لترفس حزنها المقيت، لو أنك زرعت في أرضي غرسا يحمل ملامحك وصوتك وغمازتيك، وشعرك الليل الذي لا مدى لعتمته.

تترنّح في كأس عينيها دمعة، تتركها لمجرى حُفِرَ في وادي الخدين، وتعود لإرهاق الذاكرة..

جاءوا لي بخبر موتك الحيّ، وأنا أعدّ لك قهوة المساء، لِمَ لم تشرب قهوتي في الساعة السابعة، ساعة عودتك ووعدك قربي بأن تأتي؟

لا زالت قهوة السابعة تعدّ ويشربها صبّار نبت في فناء المنزل الخلفي بين البرتقالة والزيتونة في تلك المساحة التي تركتها فارغة وكأنك عقدت معها عهدا سريّا لم أعرفه أبدا إلا صباح رحيلك حين شقّ الرمل نبتةٌ صبارٌ أخضرٌ يحمل شوكه!

عرفت أنك ترى وتعرف بقلبك، ربما بحدس ما، أنها ستشرب قهوتك لذا تركتها دون جورية بيضاء طالما طلبتها منك هناك.. وكما شربت الأرض ملامحك ، يشرب ملامحي غيابك.

بارودتك لا زالت تعلق إصبعي على زنادها كلما فاض بي الشوق للمس أصابعك!

هل يكفي أن أشتاق لك حدّ الاحتراق كي تأتي؟

كانت الطلقة وهي تقصد قلبك لا تتوه عن قلبي وكان عرقك في كل ليلة يركض بين احتشاد أصابعي فوق جبينك فيم ثورتك تركض داخل قلبك تجاه سوادهم..

هل لا زلت تمارس الركض، وتشحذ البارود بالرصاص ويعرق جسدك؟

قل لي من يمسح عن جبينك عرقه الآن؟

دقّت السابعة يا سيدي وها أنا أسكب فنجان قهوتك إلى جذور خلف فناء المنزل تشبه غيابك وذكراك.. أشواكها كثيرة، ولا تبخل بثمرٍ حلو.

ألوان

يراقب شفاههم ، يعرف أن شيئا يخرج من تلك الحركات التي تتأرجح بها وتتشكّل، تتكوّر مرة ، تنفتح، تنغلق، أو تنضغط فيما بينها الأسنان التي ربما تضغط على اللسان في أخرى!

هو أمام المرآة يجرّب أن يفعلها دون أن يعي كنه ما تعنيه!

الصمت لديه خارجٌ عن إرادته، هو فمه الذي يسكنه لسانٌ عاجز، يقع خلفه واد سمعٍ لا يجري فيه صوتٌ ولا صدى!

قبل عدة أيام أخذه والده في زيارةٍ لطبيب مختص، ذلك كان ضمن سلسلة محاولاتٍ متعددة امتدّت عبر وعيه، لإيجاد رواق واحد يمكن أن يمرّ فيه خيط صوت، دون جدوى!

يحاول بهمهماته الخروج من قمقم قهره تجاه كل ما لا يسمعه!

بالسبابة يشير إلى ما يريد، بملامح وجهه يحاول رسم رغباته، بغضب مفتوح على شرفات صوت عصبيٍّ بدائيّ النبرة، كوحشٍ يُذبح!

يضيق أحياناً، يثور على نفسه، يرى في كل شيء حوله ما قد يثير الغضب، يمسك بأقرب شيء ويطيح به أرضاً، يهشمه، يلاحظ حركات أيديهم تجاه آذانهم ، تحديدا هذه الفتحات، هو لا يشعر بها، ما الذي يحاولون فعله حين يضعون بطون أكفهم هناك؟ ولا يجد عقله الإجابة؟

يدفع بالمزيد من الأشياء تجاه الأرض، أمّه تواصل إغلاق أذنيها ووالده يقترب منه، بسبابته المحذرة، المترنّحة ذات اليمين وذات اليسار..

هذه الإشارة تخفق في وجهه كلما فعل ما يستدعي انعقاد حاجبي والده! يحني رأسه ويعيد الطبق إلى رفّه الذي بدوره يراقب أيضا

سعدي الكعبي

ولكن ببلادةٍ دائماً وبخرس أيضا كل ما يحدث هنا!

"ليس بالكلام وحده تعلن عن الإنسان فيك"، وليس الصوت وحده يشكّل إعلاناً عن الإبداع في الطبيعة، فالشمس تسقط في قاع البحر دون صوتٍ وتخرج من رحم الليل دونه..

هو وجد في المركز التأهيلي الذي التحق به مؤخراً شيئا يجذب حواسه كمغناطيس!

اكتشف الريشة والألوان واستفزاز البياض، وحمله على العدو بالريشة فوق مساحات بيضاء لجعلها مخلوقة غير عاجزة عن السمع والكلام وربما البكاء والحلم!

لديه الآن أن يبصر، يلمس، يتنفّس، يتذوّق، فلسانه له فوائد أخرى سوى الثرثرة..

يترك للذاكرة أن تقذفه تجاه غضبه العتيق، تواصل ابتسامته اتساعها، أصابعه صارت تتقن فن الكلام الذي يجهله فمه وذاكرته، بخطوطه وألوانه صار يرصّع الفراغ بمعانٍ لا تستطيع اللغة أن تعبّر عنها، فقط، وفقط ريشته ما تفعل!

إحساسه المفقود بالصوت، جعل صرخة روحه على الورق كحدّة البرق في كشف اللون الرماديّ للغيوم أو اسودادها، ورغم غياب الرعد عن حواسه، لم تغب ألوان المطر ولا أقواسه الملونة.

يبتسم لنفسه من جديد، ينطلق تجاه مرآة مرسمه الخاص الذي جهزه له أبوه، ينظر بثقة تجاه معالمه، يخرج لسانه مداعبا، يكوّر شفتيه من جديد، يفتحهما، يضغط على اللسان، يحركه به بين شفتيه ويضحك، يضحك ، يضحك.

سقفٌ منْ عتمة

تُرصِّعُ صدره الأسود الكبير كعادةٍ عتيقة بضعُ نجمات، قمرٌ يزهد في ظهورٍ كاملٍ يبدي نصف زينةٍ ويخفي نصفها، نسماتٌ باردة تضفي على المكانِ صحواً يُرغمُ على الإحساس بارتعاشة انتعاشٍ محبَّبة، صوتُ الليل يأتي مزدحما بتفاصيل كائنات تحبّذ أن تبدأ يومها تحت سقفٍ من عتمةٍ وبرودة.

لهذا العملاق خطواتٌ مباغتة حين يبدأ بالانتقال عبر شرفاتٍ هادئة، تثير زوبعةً صغيرة بحفنات ريحٍ تترك ذراتها كنسماتٍ مباغتة لوجه الوقت الذي ينتظرُ بلا سأم.

وقفت تثير همسا على نافذة قلبها الذي يباغت نفسه ويباغتها بأمر

اشتياقٍ حاولت ألاّ تعطيه بالًا، ظنّت أنها استطاعت أن تحتجز النسيان وتقحمه في قفص قلبها، لتكتشف أنه أدهى من أن يُخدع وأنها أكثر سذاجةً من أن تحصل عليه بسهولة، ذلك الرجل مرّة أخرى في حارة الجفن يعبر طيفاً غير مرحّبٍ في وجوده، لكنه يسيطر على حواسها كلها لتتنفّس ذاكرةً حفلت به دهراً.

بحركةٍ تمثيلية، تثاءبت، أرادت أن تخادع النوم ليأتي طوعا بدَلَ حالات اعتصارٍ داخليّة لا ترغب أن تقضيها، كانت تلك توقّعاتها لحالة الطقس الروحيّ لديها والتي كونتها بناءً على تجربتها العصيبة مع الذاكرة، والآن وبعد زيارةٍ لم تتمناها أتتْ الذاكرة ضيفا ثقيلاً وبكل القسوة الممكنة على قلبها الذي يتمناها سرّا أرادت التخلص منها. هي التي تدرك حاجتها لها وتتصنّعُ اللامبالاة، حتى أمام نفسها!

غجريةُ شعرها تحفلُ بهواءٍ بدأ يتوارد على النافذة حيث تقف، تأرجح على ظهرها، داعب تفتُّح وجهٍ ناصع البياض، راق له أن يمرَّ على وجنتيها بعبثية أثارت حنقها، ردَّتهُ إلى الخلف بحركةٍ عصبيةٍ من يدها، ما لبث برهةً حتى عادت أنامله تتلصص وتثيرها من جديد، لملمته بيديها وأرسلته بين فكّي مشبكٍ يعرف كيف يحاصر ثورته، قفلت تحاول ترتيب خيوط قلبٍ رأتها تناثرت أيضا.

مشاعرها تتشح بحضوره، تتلبّسها الوقائع كلها، تحتشد على مرأى من غيظٍ ضاحكٍ يتلو أمامها التفاصيل ويهزُّها برضا يدغدغ حواس أُلِفَتْ بعد كل غرقٍ مشابه نوبات بكاءٍ حادة تقصم ظهر قسوة الذاكرة عليها، تتنهدْ وتستسلم لقلبها تماما!

تعرف حماقاتها كلها، تحصيها حين تتكالب عليها، تغترف جرعة صبرٍ من بئرٍ لا تصلها، تراوغ الأمس، تغالب وجهه، وجهه الفاتن بغمازتيه وسمرته المحببة بطوله، رائحة عطره، ابتسامته القاسية! استحضرت كل تفاصيله تلك التي لم تتآكل داخل قلبها بفعل صدأ الانتظار ولا كيماء أي عوامل يمكن أن تعدّ وتُحصى رغم أنها كانت كافية لمحوه تماماً، لكنها لم تجد رغبة لذلك يوماً رغم كل ما تبديه من مكابرة!

تمتدُّ يدها إلى درجٍ في روحها، وتسحبه!

لم يكن ذلك الرجل صادقا بما يكفي لتستمر الأمور بيننا ضمن نصاب الحب، بعد أن تمكّن من حواسي بدأ يصادر قدرتي على الفرح بوجوده قربي، لا يفعل سوى الانتقاد، اللوم، بضع عاداتٍ حاولت أن أسلبها منه دون أن أنجح.

كان لا يعنيه أن يضعني أو يضع الآخرين في موقف حرج، اعتبر ذلك أمرا عاديا، ظننته سيتغير بمرور الوقت والتنبيه المستمر، بدأ معي بشموع، موسيقى، وعطرٍ لا يترك مسامه، يبدو أنه سأم التفاصيل، حتى اعتاد أن يدعك جلده بي، ثم يغادر لنومٍ متقلّب يجعلني أهرب إلى الصالون لأهنأ بأريكةٍ هادئة.

القسوة بدأت تطفو على بحيرة روحه، عرفت أن هناك امرأة، عرفت ذلك بحدس أنثويّ لم يكن مجرّد شكّ، أكده لي ذات أمسية ماطرة بما في جعبة غيماتنا، وأكد لي أنني السبب، "برودك قاتل أنت لا تهتمين بي أبداً". وكم كان كاذبا.

لم يكن الانفصال سهلا، كما لم يكن ارتباطهما كذلك، حاربت لتحصل على الفراق بأكثر مما قاومت رفض أهلها له بادئ الأمر، ومن أين لها أن تعرف؟ من أين لأحدٍ معرفة ما ينتظره؟ حصلت على خلاصها منه في النهاية، يثير حنقها أنه لم يتمسّك بها، لم يحاول العودة، والأوجع بعد أقل من شهرٍ أرسل لها دعوة لحضور حفلة عرسه.

بسخرية مُرّة جذبتْ الدمع من خاصرته، أسكنته جفنا لم يفعل سوى أن أحسن الاستقبال، ما لبثت أن طردته بإرادة مباغتة، خدرٌ سرى في قدميها دفعها إلى التململ، حرّكت قدميها في مكانهما، اتكأت برأسها على كتف النافذة لاحظت فرشاة الغسق تُعمل ألوانها في لوحة الليل، تذكرت النوم، وجدت نفسها تنسلّ من ألمٍ حاصرها، وبسهولة خشيت ألاّ تقدر عليها غادرت النافذة بعد جرعة هواءٍ مثلجة أدخلتها رئتيها بعمق من يريد أن يوصل البرودة إلى أقصى مكان ممكن، نفثتْ حرارةً انطبعت على زجاجٍ أحكمت إغلاقه، نحو سريرٍ باردٍ اتجهت، أحكمت غطاء فوق ارتجافٍ سكن جلدها، تركت رأسها لفخذ وسادةٍ يعطّرها عبق "تمر حنة" كانت قد وضعته ظهر اليوم، أناخت رحلّ حواسها، وجدت دمعا يتأرجح على وجنتيها، أسلمته لكفها ثمّ اختبأت تحت ليلٍ جديد صنعه الغطاء.

ببطءٍ بدأ يكتشف

حاول فتح عينيه، تأرجحت صورٌ حوله وتداخلت، ضبابٌ احتشد في طريق الرؤية، تكاثف ليعدمها تماماً، صخبٌ كان يفرض وجوده على أذنيه أكثر، حالةٌ من اللاتصديق تسكن حواسه العاقلة؛

كانا معا لحظة انطفأت رصاصةٌ في قلبه، رأى أنها امتصت منه الحياة، جنّت أطرافه، ضغط على الزناد بقوة من يريد أن يطلق النار من روحه، القصف كان ممتلئا بذاته يعبئ الفراغ بلغته الوحشية وقسوته وكان مصرّاً على أن يترك للموت حصة.

عادت اللحظة ببركانها لتقذف به في طاحونة قهرٍ لاكت ضلوع روحه دون أن يقدر على الخروج من دوامة تسحب رجل ذاكرته لكل ما هو موجع.

هذه المرة بإرادة بحتة فتح نافذةً على قلبه، قفز عبرها ثمّ أغلقها خلفه.

كانت صبيةٌ فراشية القسمات يمررها طريقٌ ماكرٌ يدري بما يفعل تماما، حين يهسهس لروحيهما بحفيف مرورها، لم يكن يعرف أن قلب صديقه نسج حولها يرقة حلمٍ، ألبسها الأبيض وصار بها أباً لأبناء لم يأتوا بعد.

حين أخبره، ابتسم، أخفى شحوبا داخل صندوقٍ سرّيٍّ بعيدٍ في قلبه والآن هي ظلّت بغصة الفقد مثله، تتحسّسُ خاتماً في الإصبع، وتنتحب.

عيناهُ ألحّت لتستعيد مشهدا حوله غصّ بالذي لم يره، ببطءٍ بدأ يكتشف المكان حوله، وكلما أوغل النور داخل غابة عينيه صنع الألم كشفاً جديدا في حواسه، وجهٌ دافئٌ كان يجلس جوراه وكان فيما يبدو ينتظر تلك المواربة من باب جفنيه ليبتسم مباشرةً، رغم ذلك استطاع ملاحظة احمرارٍ في عينين يعرف كيف تبدوان بعد حفنات بكاءٍ كانت دائماً تعتصرها وهي ترتجيه ليرحم وحدتها دونه، هي التي لم تعرف أمومتها سوى من خلاله وحيداً ضمّت طفولته وشبابه وتريده الآن ليربّت على بياض شعرها. وكانَ هو يصرُّ على أن الله لها وأنه لا يجب أن يكون إلا للوطن، شعر بحنين جارف ليلمس أصابعها، هتف بشفتي قلبه: أمي، ثمّ مدّ لها يداً لم يجدها!

كاتبة من فلسطين تعيش في غزة

قصتان

هيثم حسين

ماذا كنّا نفعل هناك؟!

كعادتي أستغرق في البحث على الشبكة العنكبوتيّة، أُبقي صفحتي مفتوحة، أضيف أصدقاء، أوافق على صداقات الراغبين بصداقتي الافتراضيّة، أتفاعل مع أصدقائي، أنقر الإعجابات المتتالية.

لا أدري كيف ومتى نقرت إعجابي على جملة قرأتها عن الحرب، ولا سيما أنّنا نعيش آثار الحرب المدمّرة.

ربّما تكون شرارة صداقتنا الافتراضيّة عبارة عن نقرة إعجاب أو اقتراح. لكن ما كان تالياً عمّق تلك الصداقة.

يدخل المرءُ أعماق الآخر حين يكشف أمامه آلامه.

لم أدرِ ما كان يترتّب عليّ فعله أمام ما كنت أُصْدَم به. كان الصمت سلاحاً غير فعّال، وبرغم ذلك اعتمدته على هامش الدردشة التي دارت بيننا.

أخبرتني جيسي؛ صديقتي الفيسبوكيّة، التي كانت متطوّعة في قوات المارينز الأمريكيّة في فرقة شؤون الموتى في العراق، أنّها تطوّعت في تلك الفرقة المسؤولة عن تجميع جثث الجنود الأمريكيّين والمدنيّين العراقيّين في مواقع القتال، إيماناً منها بضرورة احترام الموتى، وعدم معاملتهم كأشياء انتهى مفعولها.

أخبرتني كيف أنّ رائحة الموت لازمتها حين كانت في العراق، قالت «إنّ رائحة الموت قد اخترقت ثيابنا وشعرنا وبشرتنا وأصابعنا، وبقايا الجثث دائماً ما بقّعت لباسنا الموحّد. أمّا ثيابنا المموّهة فبدت رائحتها مختلفة، كانت تتلوّن بشكل مختلف، بأشكال مختلفة في أماكن وظلال مختلفة».

روت لي مفاجآتها المستمرّة بواقع يتسيّده الموت، خلال فترة خدمتها التي لم تتجاوز بضعة أشهر. بألم كبير روت تجربتها والقلاقل التي عاشتها في العراق، وعن معاناتها أثناء الخدمة. أسهبت في الحديث عن فترة الرجوع إلى الولايات المتحدة، ثمّ معاناتها الكبيرة من مشاهد الأجساد الممزّقة ورائحة الموت التي التصقت بروحها.

كانت جيسي تظلّل الأجزاء المفقودة لأجساد القتلى على الرسم البياني الخاص بكلّ قتيل، كان تظليل بعض الرسوم البيانيّة مقتصراً على الأيدي أو الأرجل أو الرؤوس أو أجزاء أخرى من الجسم، ومع كلّ تظليل كانت تشعر أنّ الموت يلازمها، يكاد ينقضّ عليها، ويحوّلها إلى رسم بيانيّ، ولا تدري كم ستكون درجة التظليل. كانت تجد في جيوب الموتى رسائل صغيرة، لكأنّهم كانوا على موعد مع الموت.

- «تغيّرت نظرتي للحياة، بل اكتشفتُ هشاشة الحياة، وكيف أنّ الإنسان ضعيف بقدر القوّة التي يملكها». تكتب لي بمرارة وأسى.

كتبتْ لي عن مشاعرها وهي تراقب المدنيّين العراقيّين وكيفيّة نظرهم إليهم، بعضهم كان يبتسم، خاصة الأطفال، وبعضهم الآخر كان يُسمعهم شتائم باللغة العربية أو بإنجليزية ركيكة. وحتى أنّ البعض كان يرميهم بحجارة، لكن لوقت محدود، لأنّ أسلحة المارينز كانت موجّهة إليهم. وجدت أنّ العراقيين يظنّون أنّه بمجرد خدمة أيّ فرد في المارينز، فإنّ القتل حرفته وليس من رادع يوقفه.

حدّثتني عن الجسد الأوّل الذي قُدِّم إليهم، وكم كان المنظر مثيراً للغرابة والألم. شرحت كيف تسمّروا في أماكنهم، لكأنّ الدماء توقفت في عروقهم، وفقدوا ذواكرهم وجلسات التدريب التي حضروها. أشارت كذلك إشارات عابرة إلى الضغوط النفسيّة والجسديّة التي تتعرّض لها قوات المارينز في مهامها. ولم تخفِ مرارتها المضاعفة وألمها الكبير، وهي تحدّثني عن التحرّشات الجنسيّة التي تعرّضت لها من قبل المارينز الذكور، وعن توجيه اللوم إلى الإناث اللواتي يبتعدن عن الذكور، وكيف تحرّش الجنود بالمجنّدات في العراق، واغتصبوهنّ في مراحيض النساء، كما أنّ عدداً منهنّ انتحرن.

بعد دقائق صمت طالت. أخبرتني أنّ النساء كنّ في خوف من الذهاب في عتمة المساء إلى المراحيض، وأنّهنّ لم يكنّ يشربن السوائل بعد الثالثة أو الرابعة عصراً، خاصة أنّ الأضواء كانت خافتة، وبالتالي كنّ أهدافاً سهلة. كما أضافت بأسى قاهر، إنّ هناك مَن قضت جفافاً.

تجهش بالبكاء، أُفْسِح لها المجال كي تريح نفسها، أكتمُ الصوت من عندي، أكتفي برؤيتها والاستماع إلى نشيجها.

تخبرني بعد دقائق أنّها ذرفت الكثير من الدموع خلال التوجّه إلى أماكن الجثث أو أثناء العمل على علاج أجساد الموتى، فمهما اتّسم متطوّع المارينز في فرقة خدمة الموتى بالصلابة والشدّة، فإنّه يغدو رقيقَ المشاعر، إذ يتصوّر نفسه في كلّ لحظة مرمياً بين فكّي الموت، متهشّماً كما عظام من يعالجونهم من زملائهم ومن العراقيّين.

كما تحدّثني عن الانهيارات التي حدثت لدى بعض المتطوّعين في فرقتهم، كيف كان شبح الموت يسيطر عليهم، ويمنعهم من النوم، كانوا يفزعون في اليقظة، ولا يغمض لهم جفن إلا بتناول حبوب مهدّئة، كان القلق والأرق يصل إلى ذروته عند رؤية الآذان والأنوف والأقدام والأيدي والأصابع الممزّقة والمرمية وسط الصحراء أو في الشوارع. كان المتطوّعون يعيشون حالة التأهّب من هجوم عليهم، فأيّ شيء مريب كافٍ لأن يشلّ كيانهم ويفقدهم توازنهم في أغلب الليالي.

وأنا أحسُّ الإصغاء إليها، تسترسل في حديثها.

روت لي مخاوفها في إحدى الليالي عندما كانت وحيدة، تراءى لها الأموات، خشيت من كلّ حركة حولها، كانت تخاف من نفسها، تخاف من نسمة الهواء إذا هبّت، تخاف من أرواح الموتى، تجد رجالاً أشدّاء يرتجفون هلعاً وخوفاً وأرقاً. وكيف كان كلّ فرد من الفرقة يرسم سيناريو موته بطريقة تشبه سيناريوهات يوميّة يشاهدها، كما كان يفكّر في طريقة معالجة جثته، وهل ستتشوّه أم ستبقى على حالها، ما الأشياء التي سيسجّلونها في ملفّه الخاصّ به.

تخطيط لـ فيصل لعيبي

تستنكر جيسي بشدّة النظرة الذكوريّة الاستعلائيّة تجاه الأنثى داخل الفرقة، وكنت أستغرب ممّا أسمعه، ولا سيما أنّ هناك تصوّراً مُسبقاً عندي حيال التساوي في الحقوق والواجبات، ولم أخفِ عنها تصوّري المُسبق الذي تراكم عندي عبر التقارير الإعلاميّة والمتابعات الإخباريّة، وذلك مع شيء من التشكيك الذي لم يكن يفارقني، وما كان يؤكّد شكوكي، بعض المشاهد في أفلام هوليوديّة، تظهر فيها فتاة المارينز مقموعة من الذكور الاستعلائيّين.

تجتاحها نوبة هستيريّة من البكاء، وهي تتحدّث عن إحدى اللحظات الغريبة، التي مرّت بها عند معالجة جثة أحد أفراد المارينز، والذي يفترض أنه ميّت، لكن عند البدء بتنظيف الجسد ومباشرة العلاج، تكتشف مع زميلها أنّ الشخص الميّت يتحرّك بعض الشيء، تعتقد أنّها تتوهّم أمام منظر الدماء النازفة والأجساد المشوّهة، وتقول لنفسها إنّ أرواح الموتى تحيط بهم في كلّ مكان، لكن عند التأكّد من التنفّس تكتشف أنّه لايزال على قيد الحياة فعلاً. يحضر الطبيب وقائد الفرقة بعد إبلاغهما، لكن أمام حالة الجنديّ الخطرة، لم يستطع الطبيب تغيير أيّ شيء، فقد كان الجنديّ ينازع. يغادر الطبيب والقائد دون أن يفعلا شيئاً. تحتجّ جيسي وتبقى مع الجندي، وماهي إلا دقائق حتى يفارق الحياة. تزدري كلّ قوات المارينز، لأنّهم لم يفعلوا شيئاً لإنقاذ الجندي المصاب.

تخبرني بعد تهدئة صعبة، كيف عاشت اغتراباً مركّباً.

بعد عودتها من العراق، انتابتها مشاعر غريبة، أحسّت أنّها لم تعش في هذا العالم المتلوّن والمتنوّع والمنفتح على جميع الاحتمالات، وليس على احتمال الموت فقط.

حدّثتني عن صديقها السابق، حين كانا يمضيان أغلب أوقاتهما معاً، يتابعان الأفلام معاً ويخرجان معاً للرياضة، كانا عاشقين حقيقيّين، ولكن افترقا بعد تطوّعها، وكانت تحتفظ بصور له، وتتعرّض لأسئلة محرجة جرّاء احتفاظها بصورته. ثمّ حدّثتني عن اللحظات الحرجة، وعن التوتّرات التي كانت تحدث بينهما، حتى أنّ صديقها رماها بساعة زجاجيّة، تكسّرت على جسدها، بقيت حينها هامدة ومستغربة من حالته الرهيبة، ثمّ كيف أنّه خرج وأحضر فأساً معه، يصرخ، راغباً في تدمير وتحطيم كلّ شيء في المنزل، لعلّه يحطّم ويدمّر كوابيس الحرب والقتل، لكن أمام توسّل جيسي وحبّها رمى الفأس، ليعود إلى هدوئه المؤقت.

تتأرجحُ أفكارها بين ما تراه في الواقع وما رسمته في خيالها، بين ما كانت تعرفه في الماضي وما اكتشفته في الحاضر، بين قيم المارينز أيام الحرب وسلوكيّاتهم في الحياة المدنيّة، بين الشكّ واليقين، تتّسع الفجوة، وليس من ملاذ إلاّ الخروج عن المألوف.

تسأل جيسي نفسها الكثير من الأسئلة في حيرتها ووحدتها، والإحساس بعدميّة الحياة التي تحياها، وانهيار كلّ شيء عقدت عليه آمالاً.

في لحظات الضياع والحيرة والتخبّط، تشكّ بكلّ شيء حولها، لا تهدأ روحها المتألّمة، تسوّل لها نفسها أن تعيد التسجيل في الخدمة في العراق، لعلّها تزيح من رأسها تلك الأجساد المتفحّمة للجنود والعراقيّين، أو أن تذهب كمقاولة مدنيّة، لكن لا تجد قرارها صائباً.

من أسئلة إلى أسئلة أخرى أشدّ إيلاماً، تعيش الفوضى، تحاول أن تجمع ذاتها وترتّبها، لتكمل سنيّ العمر المحدود لها، تتساءل وحيدة في شقتها «ماذا كنّا نفعل هناك؟».

تتحدّث عن لجوئها إلى عائلتها بحثاً عن الاطمئنان، لجأت إلى القراءة عن الحرب والسيكولوجيا، كانت ترغب في أن تدعم ذاتها، بدأت تقرأ الأساطير باحثة عن الأبعاد الإنسانيّة فيها. تبحث عن معنى الوجود الإنساني. تقرأ في الفلسفة. تسعى إلى إجابات أسئلة تؤرّقها. لجأت إلى دراسة السيكولوجيا على أمل منها في أن تصبح مستشارة نفسيّة، لتساعد الناس وتسمع همومهم، ولا سيما أنّها عانت من عدم الاستماع إلى آلامها وأحزانها، لم تجد من يطرح عليها الأسئلة فقرّرت أن تمنح من وقتها للآخرين الكثير.

أخبرتها أنّني مستعدّ للاستماع إليها والتخفيف عنها..

قالت: أدعو وأصلّي ألّا تحدث صراعات أو يقتل أبرياء لأجل السلطة والمال، لكي...

وقبل أن تنهي فكرتها انقطع الاتّصال..

أحاول معاودة الاتّصال مرّات ومرّات دون جدوى..

تتصادى جملتها على مسامعي، وهي تكرّر بنوع من التقريع والتأنيب وجَلْد الذات:

ماذا كنّا نفعل هناك؟!

من عهدي أن يدوم لي عهدُ

وفّت بوعدها له وذلك عندما زارته في غرفته يسوقها الشوقُ إليه، وفي الممرّ المؤدّي إلى بابه، قطفت بنفسجة، فظنّ أنّها ستهديها إليه، انتعش لشعوره ذاك، وحاول أن يغافلها ببيت للمتنبّي مفتتحاً بشعرٍ

- إذا وعدت حسناء وفّت بعهدها..

لكنّها لم تُغافَل، وأكملت متلاعبة بعجز البيت مغيّرة:

- «ومن عهدي أن يدوم لي عهدُ..».

والطريف أنّها انشغلت بكَرْكَبته، فقضمت الوردة وهي تتكلّم منشغلة بما حولها، فصُدم عندما رآها تعلك الوردة، وتذكّر مثلاً لام نفسه على تذكّره، لأنّه لا ينطبق عليها، لكنّه لم يستطع السيطرة على آليات تفكيره، ولم يقوَ على محو تلك الصورة ـ النكتة من باله، وهي أنّه عندما «شمّموا حماراً زهرةً أكلها»، ولم يعد إلى واقعه، إلاّ عندما سألته عن جديده، فهمّ أن يقرأ لها ما كتبه لفيروز الحبيبة وعنها، لكنّها اصطنعت زعلاً منه، وادّعت أنّها قد اهتمّت واغتمّت، وغارت من فيروز رغم حبّها لصوتها، مثله تماماً، لكنّ زعلها لم يطل، لأنّه أقنعها، قائلاً:

- «إنّ المتع المفاجئة تدفع إلى الصمت مثل الأحزان». وكلاكما عندي أجمل المتع وأكثرها مفاجأة ومباغتة، فلأحزنْ، فالحزن يليق بي، وهو طهري ونوري..

- يا ليل يا عين..

- هو من إلهامِ صوت فيروز ومن وحي جمالك، أي عَظمة حنجرة فيروز، وعظَمة جمالك..

اصطنعت مرّة أخرى، عندما مثّلت أنّها لم تقتنع بتبريره لكنّها لم تُرد تصعيد الأوضاع معه، ثمّ لأنّها موقنة أنّ فيروز عنده لا تُنافَس، وليست ممّن يُغار منهنّ.. وكانت تشاركه شعوره نفسه، وتطوّقه بالحبّ الغيور، ولا تخفي غيرتها المحبوبة من قِبَله عليه، ولا تخجل من ذلك، وترفض أيّ ادّعاء من إحداهنّ حول أنّها قد تركت الحبل لحبيبها أو زوجها على الغارب، لأنّها موقنة أنّه سيعود إلى قواعده سالماً بعد صولات وجولات خائبة دون شكّ، حتّى في الكتابة، تريد أن تكون هي الطاغية على تفكيره، تريد أن ترزح كأيّ محبّ على عرش إبداعه.. لكنّها، عندما قرأ لها ما كتبه، تغاضت للحظات عن غيرتها، وغيّرت رأيها، إذ ارتضت أن تكون الملهمة بالتوافق، وكانت ترضيتها فيما بعد قبلة على الجبين، وغناء مقاطع من قصيدة يا عاقد الحاجبين، للأخطل الصغير، فكان هو يغنّي الشطر الأوّل، وتكمل هي الشطر الآخر:

- يا عاقد الحاجبينِ..
- على الجبين اللجينِ..
- إن كنت تقصد قتلي..

وعندما وصلا إلى المقطع الذي تقول فيه: قتلتني مرّتينِ.. بدّلت ياء المتكلّم بكاف الخطاب، وأشارت بسبّابتها نحوه ، هازّة رأسها، مبتسمة، ولحّنت مقطّعة:

- قتلتكَ مرّتينِ..

ضحكا معاً، حتّى هدآ، ثمّ قرأ لها ما كتبه:

لا يلامس صوتُ فيروز شغافَ القلب، إنّه القلبُ مغموساً بالشغفِ، نحبّ فيروز بإرهابٍ كما يحبّها الشاعر أنسي الحاج، ونردّد معه «في حياتنا لا مكان لفيروز، كلّ المكان هو لفيروز وحدها..».

ولطالما نسمع صوت فيروز فإذاً نحن موجودون..

عندما انتهى من تلاوة بيان عشقه، مسحت دمعةً انحدرت على وجنتيها، اعتذرت مبتسمةً له:

- إنّها تستحقّ أكثر.. إنّها رسولُ العشّاق في زمن يُمحَى فيه العشق.. إنّها الوعد.. إنّها فيروز يا حبيبي.. هذه الفيروز التي لا تكفّ عن الحضور والإسكار.. إنّها تخدّر..

- إنّها تعطّر الأجواء بصوتها الذي أينما وصل أوصل الحبَّ..

أضافت ممازحة على طريقتها التي يموت بها:

- غيّرتُ رأيي.. لن أقبل بكَ ما لم تأخذني إلى حفلة فيروز..!!

ثمّ تماوجت مع أغنية كثيراً ما تدمدم بها في كثير من أوقاتها:

- حامل الهوى تعبٌ/ يستخفّه الطرب/ إنْ بكى يحقّ له/ ليس ما به لعبُ..

وقبل أن تكمل الأبيات الباقية، سارع بوضع أصابعه على فمها، وغنّى لها، مُكملاً ما بدأته:

- تضحكين لاهيةً/ والمحبُّ ينتحبُ/ تعجبين من سقمي/ صحّتي هي العجبُ..

وعندما رفع يده، كانت حمرة شفاهها قد انطبعت قليلاً على أصابعه، لكنّه لم يلحظ ذلك، فأكملا معاً مبتسمَين مُنتشيَين رائقَيْ المزاج:

- كلّما انقضى سببٌ/ منك عاد لي سببُ..

وشكر كلّ واحد منهما مطاوعة اللغة له، ذلك أنّ البيت الأخير كان ينطبق عليهما معاً، وتهاداه كلاهما بحبّ، هو من جهته كسرَ الكاف في (منكِ)، وهي من جهتها فتحته، فقالت (منكَ)، وكان الرضا عامّاً والانتشاء أثملهما معاً..

وعندما أشارت إلى انطباع حمرتها على أصابعه، بدأ بالتهام يده حتّى خشيت عليه ممّا يأتيه، وسحبته نحوها ناهرة بودّ:

- أنا معكَ وأنتَ منشغلٌ بآثاري عنّي.. ما بكَ..؟

- أنت معي.. وأنا في طريقي إليك.. هذه أنتِ يا أنايَ.. وهذا أنا المسيَّر إليكِ بحبّك..

- أحبّ جنونكَ.. أحبّكَ..

وهو يحضنها تهامسا:

- دمتِ لي..

- دمتُ لكَ وحدَك..

كاتب من سوريا مقيم في ليدز/بريطانيا

ثورة

هيفاء بيطار

الكذب دين العبيد، والحقيقة هي إله الإنسان الحر.

التقطت عيناه تلك العبارة التي كتبها في دفتر مذكراته منذ عشرين عاماً تقريباً!

كان من عادته أن يكتب عبارات أثّرت به وأثارت إعجابه، ولم يعرف من كتب هذه الجملة الرائعة ومن أيّ كتاب اقتطعها، لكنه انتبه بعد أن تمغنطت عيناه بتلك الكلمات التي أحدثت زلزالاً في روحه، أن اسماً صغيراً باهتاً مكتوب بين قوسين بجانب تلك العبارة، حدّق في الاسم فعرف أن تلك الجملة هي لغوركي.

أصابته تلك العبارة بالقشعريرة، واشتعل الهوى ذاته الذي يأسره منذ أشهر، هوى أكال لم تنفع معه كل محاولاته للجم مشاعره، وكل نصائح أصدقائه، هوى أيقظ في ذاكرته ذلك اليوم البعيد يوم أصيبت يداه بنوع من الأكزيما جعلته يهرش راحتيه بوحشية حتى يسيل منهما الدم، وكيف كانت أمّه ترجوه باكية أن يتوقف عن الهرش فكان يقول ببراءة طفل: لا أستطيع، جلدي يحكني بشدة.

كان في التاسعة من عمره حين عانى من تلك الهجمة الشرسة من الأكزيما، والتي جعلته يتنقل بين عديد من الأطباء حتى شفي تماماً حين ابتسم له أحد الأطباء وقال: سوف تشفى دون دواء، هكذا من تلقاء نفسها.. هل كانت فكرة الطبيب أشبه بنبوءة لأنه لم تمرّ أيام حتى استيقظ دون ذلك الشعور الأكال بالحكاك.

·الحقيقة هي إله الإنسان الحر·، رحمك الله يا غوركي، كيف استطعت أن تجسد حقيقة الحقيقة، كان منفعلاً إلى حد أنه لم يلحظ أن أنفاسه صارت عميقة ومتلاحقة، وأن ملامح وجهه صارت مشدودة بلهفة الهوى المشتعل في قلبه منذ أشهر، إنه الآن في التاسعة والخمسين، كاتب، وزوج، وأب، وأخ، وصديق، وشريك في معمل لصابون الغار.. وعَبد..

شعر أن دمه يسبب له الألم، وجلده يسبب له الألم، وكل أعضائه تسبب له الألم، لأنها كلها تنطق بالحقيقة أنه عَبد، وبأن كل مظاهر الرفاهية والاستقرار في حياته ليست سوى زيف، وكل محبة أصدقائه وأولاده وزوجته ومعارفه له، لا يعني له شيئاً لأنه عَبد.. لا يجرؤ على النطق بالحقيقة، يشعر بذلك السجن الدائم في أعماق روحه طول الوقت..

لكنه الآن اتخذ قراره، سوف يكتب عدة صفحات، وينشرها ويقرأها بصوت عال سوف يفجّر حنجرته من حباله الصوتية التي تعتقل صوت الحق، ما عاد قادراً ولا بأيّ شكل من الأشكال أن يلجم ذلك الهوى الذي يُصادره، ولا يمكنه إنكار أن الله أعطاه الإشارة ليبدأ بتحقيق إنسانيته، وينطق بالحقيقة التي ستحوّله من عبد إلى إنسان حرّ.

ما معنى ألا يسقط نظره إلا على تلك العبارة البليغة لغوركي من بين آلاف العبارات التي كتبها! ما معنى أن يقلب دفتر مذكراته الضخم والذي اصفرّت صفحاته التي تزيد عن الخمسمئة ولا تلتقط عيناه إلا تلك العبارة!

خفق دمه في موجات من الحماسة ونظر بعفوية إلى ساعته كما لو أنه يدشن لحظة الحقيقة، اللحظة التي سيحوّل نفسه فيها من عبد إلى إنسان حر.

التمعت بذاكرته أغلفة كتبه التي طبعت مراراً وتكراراً، أحس بالقرف وهو يدرك أنه تعامل مع الحياة كمادة للكتابة، وبأنه لم يغمس يده يوماً في لحم الكون، كان يشعر أنه مراوغ، كتابته ذكية وشيقة وتعكس ثقافة واسعة، لكن ينقصها شيء جوهري هو الخلق، كان يعي وهو يمسك القلم ويكتب صفحات، ويدفع ما يكتبه للطباعة مدى خوفه وحذره من أناس يمسكونه من رقبته بأصابعهم الغليظة، ويحوّلون حبال حنجرته إلى حبال لاعتقال صوت الحق، ومع كل كتاب صدر له، ورغم النجاح الذي حققه فإنه لم يكن بقادر أن يهرب من مشاعر القرف في داخله.. كان يعاني من قرف عميق من نفسه ولم يكن يعرف سبب قرفه هذا خاصة في اللحظات التي يتلقى فيها كل التقدير والإعجاب والاحترام.. الآن أدرك، أنه يعيش لحظة التحول من عبد إلى إنسان حرّ، أدرك أن الخوف هو سبب قرفه من نفسه.

منذ بداية ثورة الكرامة عند الشعوب العربية وهو يعاني من حالات نفسية وعصبية غريبة، كما لو أنه يُنسف من جذوره، حتى أنه كان يخجل من تلك الحالة التي لا تليق بعمر الوقار والحكمة، وهي حالة دائمة من أحلام اليقظة، كانت أحلام مباغتة كهبات من النسيم العليل، تصوره خارجاً في مظاهرات ضد الفساد والاستبداد والقمع، وهو يصرخ بملء حنجرته وصوته يلتحم مع صوت الملايين المُهمّشة والمظلومة، كانت عيناه تدمعان من الوجد والهوى والشغف بكل تلك الكلمات التي كانت أشبه بجثّة وقامت من بين الأموات، تدحرجت الصخرة عن قبر الكلمات واشتعلت الكلمات بنار الثورة، الحرية، الكرامة، العدالة، المساواة، الحق، يا للفعل المزلزل لكلمة مؤلفة من حرفين فقط، «الحاء والقاف»، يشعر أن الحرفين يلتحمان في حنجرته فقط، وحناجر التواقين للكرامة والحرية..

يريد أن يصرخ بصوت الحق، ثم يموت.. كان يشعر أنه يكافح كفاحاً شاقاً حتى وهو جالس في المقهى يدخن سيجارة تلو سيجارة، يشعر أن حبالاً ثخينة تثبته بالأرض وهو يريد تقطيعها، كان مشوشاً بولادة جديدة جاءت متأخرة نصف قرن، كان عليه أن يتعرّف نفسه الجديدة، أدهشه عمق التغيرات التي أصابته، كان رجلاً لا يحلم، فصار كل ليلة يبصر حلماً واحداً يتكرر بصور مختلفة، حلمٌ يعني أنه يتوق أن يكون الرجل الذي تمنى طول حياته أن يكونه، رجل حرّ..

كان يعيش وسط مناخ دائم من الذعر موهما نفسه أنه رجل عاقل تهمه مصلحة أولاده وسلامتهم، لم يكن هو نفسه مستعدا أن يُقتل أو يسجن بسبب حفنة أفكار! كان يرى وحشية الاستبداد وهو ينقل ذاكرته من مفكر إلى مفكر سجنوا وعذبوا بسبب أفكارهم، ليعترف أنه ما كان قادراً على دفع الثمن الباهظ لحرية الفكر؟ هل يُعقل أن يدفع من عمره سنوات مقابل فكرة؟ أيّ تهور هذا؟ لكنه بأعماقه كان يعاني عذاباً لا يوصف، عذاباً يصل إلى درجة الأنين من ألم الروح التي تعرف أيّ ذل وعبودية هو الصمت.. كان يشعر أن روحه تركع إكباراً وتقديراً واحتراماً لهؤلاء الذين ارتضوا أن يدفعوا ثمن الكرامة والحرية بدلاً عنه وعن أمثاله..

كان يشعر أنه مدين لهم وأنه صغير وتافه وضئيل مقارنة بهم، كان أحد معتقلي الرأي من أعز أصدقائه وقد سُجن لسنوات بسبب مقال، مقال لا يتجاوز المئتي كلمة، دفع ثمنه خمس سنوات في السجن.. كان دائم التفكير بصديقه المفكر المعتقل، لم يكن قادر أن يبعده عن فكره للحظة، يشعر بالقرف من نفسه وهو يأكل ألذّ الطعام، إذ يتخيل المفكر في السجن مع أكثر من عشرين سجينا كلهم ارتكبوا جرائم قتل، فيقول لنفسه: أيّ بلدٍ تسجن مثقفيها مع المجرمين! لكنه يتابع التهام طعامه اللذيذ الصحي، ومشاعر القرف من نفسه تتعاظم، كما لو أنه يبتلع قرفه من نفسه مع كل لقمة..

حتى وهو يقود سيارته، كان يفكر بصديقه المُعتقل بسبب مقال، فيحسّ بوجع فظيع في كل أنحاء جسده، ويشعر أنه يُصفع عن بُعد، صفعات مدوية تهرس وجنتيه، وبأنه يركع دون أن يركع، لأن روحه راكعة وعبدة، لم يكن واهماً، فقد ثارت روحه، وفي أعماقه ثورة حقيقية، سوف يكتب بضعة صفحات فقط، لن تعنيه اللغة، ولا الصياغة الجميلة لأفكاره، سيكتب مجرد حقائق عاينها وعاش في قلبها، وباختصار بل باختصار شديد سيحكي عن تامر، طالب الإعدادية الذي لم يكمل الرابعة عشرة من عمره، خرج مظاهرة يطالب بالحرية، وبإسقاط النظام، كان سعيداً أنه يهتف ويغني أغاني وطنية حماسية، ويشعر طول الوقت أنه انتقم من الطالب الثري، والذي يتباهى أن والده أحد أهم ضباط الأمن في المدينة، والذي حين ركله في الباحة لم يرضَ أن يعامله بالمثل، فشكاه للمدير لكن المدير لم يجرؤ أن يوجّه كلمة لابن ضابط الأمن.

الجرح البليغ الذي أحسه تامر لم يلتئم، ولم يدافع عنه أحد، حتى أمّه رجته أن ينسى تلك الركلة، لكنه صرخ وهو يبكي خزياً وغضباً، الركلة ليست في خاصرتي بل في روحي يا أمّي.

اعتقل تامر مع ثلة من زملائه وعذب بوحشية، ولكن أكثر ما روعه حين وصلوا الكهرباء بعضوه، وهم يطلقون الشتائم الفاحشة على أمّه وأخته، كان يصعق من الألم ويبكي وهو يرجوهم ألا يقربوا منه الكهرباء، ثم أحضروا كماشات حديد، وسحقوا حلمتيه.. وبعد أسبوعين خرج من المعتقل (وهو مدرسة قديمة) حطاماً.. مذعوراً من الحياة، مروعاً وأسيراً لذهول طاغ..

كان يعرفه، طالما حمله بين ذراعيه وهو طفل.. ولم يجرؤ أن يكتب عنه، كل ما استطاعه أن جلب له الكثير من الهدايا وحاول مؤاساته، لكن تامر لم يشكره على الهدايا ولم يتحدث إليه بكلمة، بل ظلّ يرمقه بنظرات باردة مبطنة باحتقار، فهم من والد تامر أنهم هددوه أن يلتزم الصمت وإلا سيعتقلونه مجدداً إذا تكلم..

لم يستطع أن يتهرب من عينا تامر المُعتمتان بالألم ونظرة الاحتقار له، كما لو أنه يحمّله مسؤولية ما جرى له، نظرة تعني لماذا لم تكتب عنّي يا حضرة الكاتب العبد؟

كان يحتاج أن يتحدث عن رغبته بالكتابة عن تامر وأمثاله إلى أصدقائه، الذين استمعوا إليه بمحبة ونصحوه ألا يتهور وهو في عمر الحكمة، وأن الفوضى والانفلات الأمني الذي ترزح تحته البلد خطير، وبأنه قد يدفع حياته ثمن مقال لن يقدّم ولن يؤخر.. كانوا يحبونه حقاً وحريصين عليه، وكان يعتقد أو يجبر نفسه على الاعتقاد أنه اقتنع بحبهم، لكن سرعان ما يعود ذلك الهوى الأكال، يهرش راحته ليكتب، هوى أشد شراسة من تلك الأكزيما التي عانى منها وهو في التاسعة من عمره..

لم يعد القرار بيده، هذا ما أدركه بعد صراع طويل مع نفسه، لم يعد بمقدوره لجم الثورة التي أعلنتها عليه روحه، كل شيء صار مختلفاً، حتى شعاع الصباح الذي ينتظره

تخطيط لـ فيصل لعيبي

الرقصة البنغالية

وارد بدر السالم

بلهفة صار يحسه مختلفاً، صار الضوء رذاذاً من الأمل، يحس الضوء يشبهه، يصارع مثله ليبدد الظلمة.. لا يمكن لإنسان عاشت روحه في الظلمات أن يخنق شعاع الأمل حين يشق حُجب الخوف والذل المعششة في روحه..

سيكتب عن العمال الثمانية في معمل الصابون، الذين استقالوا وذهبوا ليوقعوا عقوداً كشبيحة لدى أحد أهم زعماء الشبيحة، الرجل الذي خرج من القاع، وصار ملياردير خلال سنوات قليلة، لم يخجل هؤلاء العمال أن يعلموه عن سبب تركهم معمل الصابون، قالوا له: ما يدفعه لنا في اليوم تدفعه أنت في الشهر؟

تأمل وجوههم مبهوراً من سطوة الاستبداد، وبلحظة ذابت سنوات المودة والمحبة بينه وبينهم، ونسي أسماءهم، صاروا الشبيحة.

سيكتب عن أمير أيضاً المجنّد الذي قتل برصاص عصابة مسلحة؟ مَن تلك العصابات التي تقتل الناس والمجندين وتروع الأهل منذ أشهر؟ لماذا لم يقبضوا على هذه العصابات..

سيكتب، ما عاد بإمكانه إيقاف ذلك الهوى، كتب ثلاث صفحات، أحس بشعور غريب جعله يضحك من قلبه، كما لو أنه يتذوق طعماً رائعاً لم يتذوقه من قبل.. كانت سبابته ترتعش على زر إرسال في الكمبيوتر المحمول، بضغطة خفيفة من سبابته ستتحول كلماته المتعمدة بالكرامة والحرية إلى سرب من الفراشات الملونة المتباهية بجمالها والتي تشعر أنها تملك السماء والأزهار والأشجار.. إنه على الحافة، حافة الحرية، وبعدها فضاء رحب أو هوة عميقة، لا يهم، لقد دشن معموديته في تلك اللحظة التي ضغط فيها على زر إرسال، وتأمل المستطيل النحيل يمتلئ بالأخضر تدريجياً علامة الإرسال، شعر بصعقة كهربائية حين ضغط زر الإرسال، شعر تماماً، كيف فغر فاه مشدوهاً مما أقدم عليه وهو على عتبة عقده السادس، لكنه رأى بعينيه المكافحتين للتشبث بنور الحق، رأى -غير واهم- ذلك الضباب الذي خرج من جوفه، خرج على دفعات من فمه، ضباب الخوف، يا لكثافته لم يخرج من أعماقه فقط، بل من أعماق سحيقة عمرها مئات السنين، ضباب نتن الرائحة وداكن، صار الخوف خارجه، خارجه تماماً، لقد تصالح أخيراً مع نفسه وشعر أنه بقامة صديقه سجين الرأي، نجح لأول مرة في تخيل نفسه أنه بقامته، وتذكر بشفقة كيف كان كلما حاول تذكره يفرز خياله صورة المثقف السجين عملاقاً، وهو ضئيلاً كعقلة الأصبع، وكل محاولاته ليفرز صورته بقامة صديقه تفشل..

نجح الإرسال، الآن يحق له أن يفخر بنفسه وما كتبه، شعر أنه ودّع شخصاً عرفه منذ عقود، ودّع نفسه وولد حراً.. وفيما هو يستدير مغادراً مكتبه أحس بوخزة ألم حارقة في صدغه، تحسس نقطة الألم ففوجئ بتدفق سائل لزج ساخن من فوهة صغيرة.. وانتبه لنقاط الدم تملأ قميصه الأبيض وترسم عليه حقلاً من شقائق النعمان..

غام نظره، وضحك متسائلاً إن كان بإمكان هؤلاء الذين عبثوا بحياته وكرامته أن يوجهوا له رصاصة عبر شاشة الكمبيوتر.

كاتبة من سوريا

ينفتح SHOBURNA عن ثماني راقصات صغيرات مزهوات بثيابهنّ فاقعة الألوان، جاعلات من الفضاء الصغير كرنفالاً لألوان الطبيعة البنغالية الصارخة: هذا هو المشهد المباشر والجاذب. إشعاع لوني يضيء المسرح ويكشف شيئاً من الجمهور على شكل رؤوس خلفية متقاربة منصتة إلى إيقاعات محلية يفتقدها في غربته الطويلة. لكن بؤرة التركيز اللوني انصبّت على قلب المسرح وعلى الراقصات الصغيرات المشعات بألوان ثيابهنّ البراقة.

يمكن ملاحظة جدارين من المرايا على يمين المسرح ويساره، وهما جداران مرآويان يحصران الراقصات الصغيرات في مستطيل يكفي أن يؤدين فيه رقصات الليل الطويل، وعادة ما تنعكس صورهنّ على مرايا الجدران، أو صور الجمهور المخمور بصخب الموسيقى ولوعة الفراق الطويل. موسيقى "طاغور" التي تكونت من قصائد هذا الهندي العظيم وموسيقى "كازي نزرول" الشاعر الذي تحولت قصائده إلى موسيقى شعبية تصدح بها الحناجر وتخف على وقعها الأقدام والأجساد.

إلى يسار المسرح، بعد الجدار العاكس الثاني، ثمة راقصة تاسعة، تجلس وحدها على دكة من الموزائيك وإلى جانبها مبخرة يتصاعد منه دخان أبيض كروح أدركتها ليلة الخطايا وسلة ماء مطهّر للذنوب القديمة. لا تبدو تلك المرأة مغيبة أبداً، بدلالة البقعة الضوئية الساقطة عليها من أعلى السقف، كما لو ثمة قصدية بتنوير حضورها. كانت أكبرهنّ سناً وأكثرهن خبرة في تثوير الجمهور المتفاعل مع أحلامه المقموعة في أزمان اختلط فيها البُعد والوحشة الأبدية.

بائع الورد لا يغادر المكان حتى انفضاض ليل الخطايا: فتى لم يخضرّ شاربه، حاجباه غليظان، لكنّ عينيه الواسعتين المكحولتين تشيان بجديته وهو يعرض أقواس الورد على ساعده المتصالب: الورد الأحمر والأبيض والبنفسجي تحديداً. كان سعيداً بسرواله "اللونجي" المختلط الألوان وقميصه المشدود على رقبته بوردة قطنية بيضاء.

الراقصة التاسعة هي "أمّ" الراقصات وروحهنّ في ليل الرقص الطويل وتعويذتهنّ في رحلة الموسيقى الصاخبة إلى عوالم الخمرة والأمل المنعقد بين رنين الخلاخل الأسطورية واهتزاز الأجساد المفعمة بأريج الحب المتفتح في سمفونية الغربة كزهور وحشية، وهي تترى هادئة أو صاخبة؛ تُطرب الرؤوس الممغنطة وتعيد لحظة مسروقة من حياة سرية يكتنفها التوجس والغموض.

لا تبدو لقطة الراقصات الثماني ثابتة، فالمساحة المشعة متحركة بثياب "الشالوار" المزركشة وبهاء الألوان الجذابة، وفي الوقت الذي كانت فيه وجوههن متفتحة ومبتسمة إلى حضور حالمٍ ومخمور، كانت أجسادهنّ تتساوق مع إيقاعات منغّمة تتكرر بين حين وحين، فتتفتق عبقرية الجسد عن أسرار لا يعرفها إلا مَن كان غارقاً في عزلته السرمدية، قريباً من الروح المعذبة التي هجرتها مواسم الماء وذبلت فيها أوراد الربيع.

الراقصة الأولى تتباهى بشعرها الطويل النازل على كتفيها كشلال أسود. حاجباها مرسومان بدقة متناهية كخيطين رفيعين يكادان ينمسحان لشدة الضوء الساطع عليهما. بدت أصغر من عمرها كثيراً، ربما هي كذلك، لكن يمكن الاعتراف بطفولتها كثيراً، طفولة المرقص المتأرجحة، كان ثوبها بنفسجياً غامقاً.

أمّ الراقصات وروحهن الغامضة هي سُرّة المشهد وسِرّهُ. تقلقها

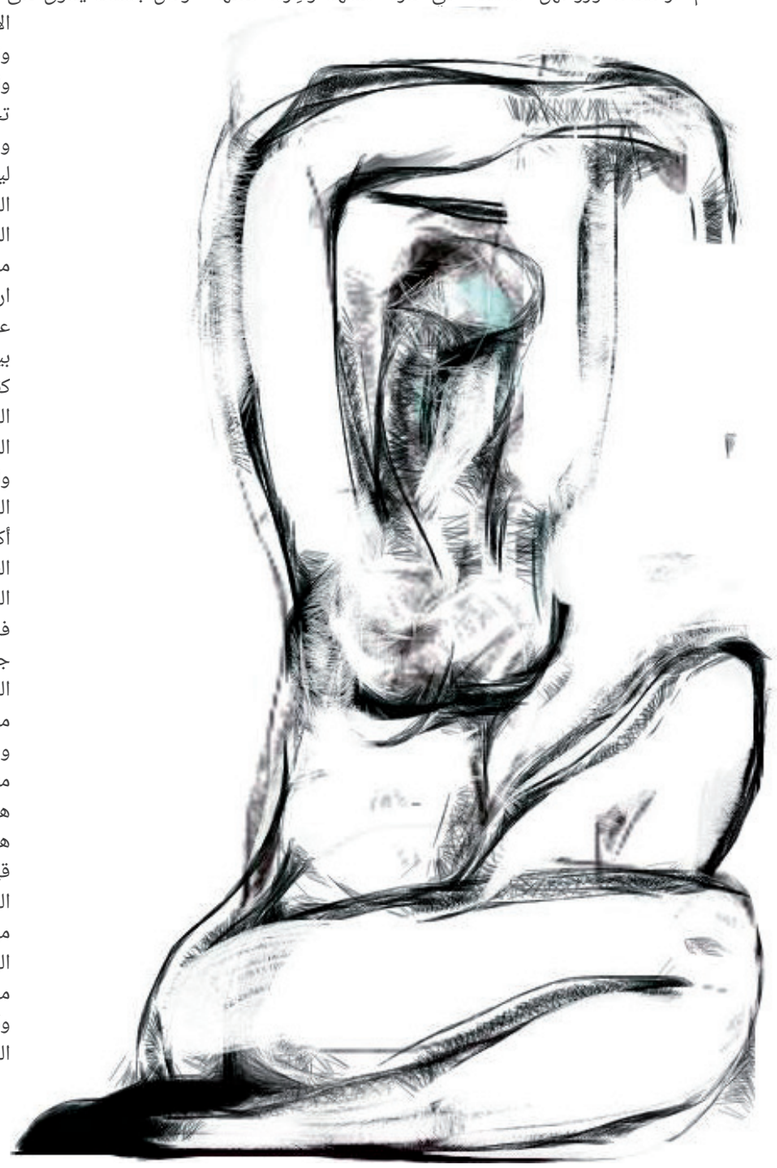

عبد الباسط الخاتم

الأرواح الشريرة المتربصة بأجساد فتياتها الساهرات تحت شحنات التراسل بينهنّ وبين الجمهور الغارق في كل شيء أمام مهرجان الألوان الفياضة وانعتاق الأجساد في دورة الشبق الليلية التي لا تنتهي.

عبّرت الراقصة الثانية عن غبطتها وهي تمد ساعدين ناعمتين اكتظتا بالأساور والمعاضد وامتزجت فيها سبعة ألوان غامقة، فبدا ساعداها كقوسي قزح يملآن حيزها بألعاب وصور طفولية ماضية ليس من اليسير استحضارها في ليالٍ كهذه.

الراقصة التاسعة لا ترقص عادة. انطوى زمانها البعيد؛ يوم كانت صبية تتناقلها المراكب والطائرات بين القارات الدافئة والباردة وكان جسدها يتلوى على مسارح العواصم وحاناتها الضيقة، وكانت الأرواح الشريرة تجتاح جسدها الفتي وتزرع فيه خمرة الليل المعفرة بالخطايا والذنوب.. الآن مات الجسد وبقيت الروح.. تحول الجسد العملاق إلى خمرة رديئة، وبقيت أنفاس الأمس وحدها عمياء في ليل الغربة السكران.

الراقصة الثالثة أكثرهن هوساً بزرع الورود الملونة على شعرها المنسدل، كما لو أنها مزهرية تتفتح في أول الإيقاعات الراقصة. ارتدت ثوباً برتقالياً فضفاضاً لا يشفّ عن شيء من جسدها النحيف. أسنانها بيضاء لاصفة. وحاجباها متصلان بغزارة كقوسين ملتصقين. لم يكن وجود بائع الورد عفوياً، فهو الشفرة المعلنة بين فتيات المرقص والزبائن المنهكين بالأماني والغرائز والشرود إلى الغرف السرية القميئة. بائع الورد الأسمر ذو الشارب الكثير هندي الشكل أكثر الحاضرين زهواً: إنه حامل ورد العشاق العابرين.

الراقصة الرابعة متسربلة بثوبٍ أحمر قرمزي فاقع. تركت ساعديها عاريتين وكشفت جزءاً مستحيلاً من صدرها الصغير، كانت الوحيدة التي نفرت من خط الرقص كغزالة مبتعدة عن قطيع متوحش. كانت أكثرهنّ وحشية على ما يبدو، تركت خط الرقص منفعلة، منقادة وراء فكرة غير معروفة.. هل كانت تطلق ثمرة جسدها إلى العراء؟ هل كانت تطلق خطيئة الجسد لتحرره من قيود الليل الثقيلة؟

الجداران المرآويان لم يكشفا جوانب أخرى من المرقص: ملصقات سياحية للطبيعة البنغالية، أشجار جوز الهند العملاقة، مشاهد مختلفة من باريسال وشيتاغون وكولنا وراج شاني وسيلهت، نساء الساري الفضفاض بألوانه البهيجة، الشاي

البنغالي السحري، اللباس البنجابي لأثرياء دكا، سياح بيض الوجوه يتخاطرون بين غابات خضراء وجزر تكاد المياه تبتلعها..

أكثر ما يشد الجمهور المتوفز موسيقى "الراكاس" التي تستقدم صيحات الغابات المنغلقة وشلالات المطر الهادرة على سقوف الأكواخ، فتشد الراقصات الصغيرات أجسادهنّ النحيفة في دوران متعاقب تحت السطوع الأثير؛ غير أنهنّ يتباطأنَ بعد وقتٍ محموم ملأهنّ بالعرق الغزير، وهن يتبعن طبول "راميش شيل" القادمة من أقصى الطفولة الضائعة، وصنوج "هاسون راجا" التي تحفر في لحمهنّ شبق البدو المختلطين في جمهور يكاد يكون مغيباً. وأشعار "لالون فوكير" التي تبعث على التأمل وتبث الهدوء في مياسم الأجساد التي بللها شبقٌ ضال وأمل ربما قتلته أمواج تسونامي في آخر لحظة.

كانت الراقصة الخامسة مزركشة بالأصداف البحرية والإكسسوارات اللمّاعة. تطوّق عنقها قلادة صدفية تناوبت فيها بضعة ألوان حارة، تلصف في منتصف جبهتها نقطة حمراء تبدو وكأنها لا تستقر في مكان واحد، وكان الساري الذي ترتديه أزرق بلون الخلجان البنغالية، وكان وجهها المثلث مختلج الملامح، لكنها مصرة على أن تبتسم في هذا الوقت بالذات من كل ليلة.

الراقصة السادسة اختلفت عن صويحباتها بقرطيها الطويلين المتدليين حتى صدرها الناهد، بحلقة دائرية ألماسية كاذبة شكّت أنفها الصغير، وبنجمة صفراء بين حاجبيها، غير أن الراقصة السابعة تمادت بعري صدرها وبان طيف مذهل يشف عن حلمة بنفسجية مُثارة على نحو غير طبيعي، هذه البيهارية السمراء ذات الساري الأصفر أكثر الفتيات انسجاماً مع طبول الغابات وشلالات المطر الهادرة على السقوف.

آخر الراقصات أصغرهن سناً، ارتبكت على شفتيها ابتسامة خجولة، وتركت ملابسها القمحية إلى الريح الراقصة من تحتها، وانطبعت تحت مبسمها هالة من ضوء مباغت كشف نقطتها البيضاء وألقى ظلاً شفيفاً على حاجبيها المتصلين.

مبخرة أمّ الراقصات ما تزال تنفث دخاناً أبيضَ كما الروح، يتلوى أمامها بعذاب لا تعرفه إلا هي؛ وعندما ينتصف الليل وتتثاقل الخمرة في الرؤوس، تتهيأ الفتيات إلى رقصة "أجيباهاهل" وتتهيأ أمّهنّ الروحية في مكانها وهي تمسك سلة الماء المقدس وتغمس أطراف أصابعها فيها، متمتمة، فيما تتجه أنظار الراقصات الثماني إليها في تجاذب أمومي حنون، كما لو يستلمن شفرة البدء بخلخلة الأجساد وتفكيك عناصرها السجينة وإطلاق ريحها المعطرة في آخر جولة من كرنفال الليل المقدس.

الـ"أجيباهاهل" مسك الختام في الSHOBURNA ولوعة الانتظار الراقص على مدار الساعات. تهيأت راقصة الماضي لإمساك أرواح فتياتها قبل أن تغزوها الأرواح الشريرة المدنسة. انتهت "البيبا" و"الكيبا" و"النيشا" و"السوهيلي" رقصات التحفيز الأول لمَغنطة الرؤوس. اختبار الأجساد الصغيرة في مطاولتها على تثوير الرؤوس الخدرة. نُسيت أشعار طاغور وكازي نزرول وفوكير في صخب الليل. وتلاشت أصداء موسيقى الراكاس وطبول شيل وصنوج راجا. تماهت خطيئة الجسد المُثار بالآتي من الليل.

الرقصة البنغالية الأخيرة: أجيباهاهل. يتوتر المسرح. تنسحب الراقصات إلى غرفة جانبية، فيتركن وراءهن عطراً راقصاً. بائع الورد يتجول بين الموائد غير المرئية.

تعود الراقصات الصغيرات بعد دقائق، تتقدمهن راقصة الماضي: تنحني وتمد أصابع مرتشعة لتلمس خشبة المسرح وترفعها إلى جبهتها في ثلاث حركات متوترة ثم تصعد وسط المسرح. تتقدم ذات الساري البرتقالي وتلمس الخشبة بأصابعها بخشوع ذليل. الأخريات يتقدمن بالتناوب، يمارسن ذات الطقس ويتوزعن على يمين ويسار الراقصة التاسعة في خط مستقيم. الجمهور المخمور يفيق ويتحول إلى عين كبيرة منساقاً وراء الصمت العجيب.

حكيمة الليل القديمة تفترق عن بناتها الصغيرات وتلتقط من يد بائع الورد إبريقاً صغيراً. تغمس أصابعها وتُخرجها وترش على الجمهور رذاذاً عَطراً. تهبط من المسرح وتتوزع بين الموائد، حريصة أن تنثر ماءها المقدس على رؤوس كل الحاضرين. تصعد إلى المسرح ثانية وتقف أمام بناتها الصغيرات المخذولات في جو سحري خرج من لهاث الرقص ودخل إلى تمجيد المجهول والإنصات لطقسٍ لا بد منه، فالحكيمة العارفة بماضيها الراقص، لها مقدرة سحرية أن تطرد المدنّس من الرؤوس. يتقطر الماء المقدس من أصابعها وتتركه ينقّط على رأس الفتاة الأولى التي أحنت رأسها بخشوع، ثم رشّت منه بضع قطرات على صدرها. كل الفتيات منسحقات تحت وطأة الصمت. مرت عليهن واحدة واحدة. تنقلت بين الثياب الملونة. كانت أصابعها تنزف الرذاذ على رؤوس وصدور فتياتها المحنيّات وهنّ لا يرين وجه حكيمتهنّ المحتقن. انسحبت وتركت الإبريق في مكان من المسرح، ثم التقطت من بائع الورد مبخرة صغيرة، تعالى دخانها الأثير يتلوى بين الفتيات. مرت عليهن واحدة واحدة. نفخت على وجوههن قبضات من دخان سحري حريف. ثم نزلت بين الموائد وبخّرت الرؤوس المؤرقة وعادت من جديد لتجلس في مكانها الأول على دكة الموزائيك.

تقدمت الفتيات الثماني إلى مقدمة المسرح وقد غطين وجوههن بحجابات شفافة من القماش. جلسن ملتصقات محنيات الرؤوس. فبدونَ كعرائس ملونة يغمرهن الخفر والحياء والخوف أيضاً. فيما انطلقت تراتيل من مكانٍ ما وقد صاحبتها موسيقى هادئة وتمتمات الحكيمة القديمة التي يمكن أن تسمعها الفتيات المنغمرات في جلال الموقف ورهبته. انسحب الليل إلى مداه البعيد بين التراتيل. بكت الفتيات. تبللت وجوههن بالدموع. الجمهور ينتظر بارتياب. لحظة البكاء ذروة التطهر. ثمة مَن يبكي بصمت. يتفاعل مع الفتيات وهو يخطو إلى الخطيئة. انتهت نوبة البكاء. هرعت الحكيمة إلى بناتها. نهضت الفتيات وكأن عبئاً ثقيلاً انزاح من صدورهن وقلوبهن. تبدلت وجوههن: خلعن الحجابات. صرن أكثر مرحاً وابتسامات ملونة تتخاطف على ثغورهن. قبّلتهن الحكيمة جميعهن بفرح طفولي. تعانقن باحتفال طفولي بعد صلاة التطهر والتكفير. عادت أجواء الانفتاح تستشري في المسرح الصغير. الحاضرون يصفقون بتواصل.. كل شيء مر بسلام. انهزمت الأرواح الشريرة والراقصات الصغيرات في مأمن من المجهول في هذه اللحظات الراقصة.

الآن ستبدأ الرقصة البنغالية الأخيرة: أجيباهاهل.

كاتب من العراق

قصتان

وافي بيرم

أنا إنسان ماني حيوان

جالساً في غرفتي تحت رفٍّ عليه بعض الكتب، على أريكة تعتقت فيها رائحة بلدي، بجانبي مسجلة صغيرة على طاولة صغيرة مكسورة تظهر عليها آثار التعذيب والحروق بالسجائر، وبجانب المسجلة صحن السجائر قد امتلأ برماد ذلّ أربعين سنة، بدخان سيجارتي أرسم مستقبلي ويتبدد، نافذتي مغلقة منذ مجزرة، الستائر ملّت الوقوف وبدأت علامات الترهل تظهر في جسدها، أستمع للموسيقى بصوت يكاد يخرج من حنجرة جهاز الكاسيت، أصوات من بعيد تتجه نحو نافذتي، أنظر إليها وهي ترتجف فزعاً كلما اقتربت الأصوات، هدير أصوات وصرخات حطم زجاج النافذة وأظهر سوأتها وخجلها من أطرافها العارية مع نظرة فزع ودهشة، تقترب الأصوات حتى تسكن رأسي، وتضرب طبولاً تمزّق جدران داخلي، ثم كما جاءت تبتعد رويداً رويداً حتى تتبخر، وأنا غائب في ذهولي ونظرتي الجامدة، يوقظني سقوط رماد السيجارة من فمي على نفس الأريكة التي تطرزت بهذا الرماد.

وما هي ساعات حتى انفجر باب الغرفة كأن بركاناً بصقه، ودخلت عليّ غربان سوداء وبدأت بنهشي، واستعانت بالشتائم لتذكيري بأني حيوان أليف يعيش في كنف مزرعة، قذفوني أرضاً بركلاتهم، وانصرفوا.

هدوء آخر وسكينة عشعشت في جسدي، وأنا أفتح عيني ببطء لأنظر حولي خيالات الغرفة، سحبت يدي وتحسست دماء وجهي تنزف على أرضية الغرفة التي شهدت على تاريخ بلد مقاوم ممانع، يصنع أمجاده بضرب الحيوانات وترويضها، بصعوبة وقفت على قدميّ وخرجت من الغرفة وأنا أضحك، أصابني ضحك هستيري، فوجدت والدتي في مقابلتي فأجلستني في حجرها وضمتني ووالدي ينظر إليها نظرة العاجز، بوجه شهد على أرض مساماته حروباً ومجاعات ومجازر، نظرت إليهما وقلت لهم ضاحكاً «أنا إنسان ماني حيوان».

خرجت من المنزل، ووجهي تعلوه ابتسامة بلهاء، قابلت جاري وصديق طفولتي جالسا في زاوية الحارة، فقلت له «أنا إنسان ماني حيوان»، فربت على كتفي ولم ينبس ببنت شفة، أقبلت على حاجزٍ وبادرتهم فوراً «أنا إنسان مالي حيوان»، فصعد الدم إلى رؤوسهم وأقاموا لي حفلة راقصة باللكم والرفس، وطردوني وأنا أضحك وأصيح «أنا إنسان ماني حيوان»، نفس الغربان في مكان آخر شاهدوني من بعيد ففتحوا نيران رشاشاتهم، على جثتي وهي تضحك وتصيح «أنا إنسان ماني حيوان»، تابعت مسيرتي وسددت ثقوب جثتي بأعقاب السجائر.

قابلتني مجموعة من الشبان فسألوني، من أنت؟ ومن هو ربك؟ ومن هو نبيك؟ وهل تصلي أم لا؟

ظننت أنهم ملكا الموت أنكر ونكير؛ فقلت لهم: أنا إنسان ماني حيوان.

فرد أحدهم فوراً: أتسخر منا يا حيوان؟

وقادوني لعند شيخهم الجليل، كان شيخاً بلحية بيضاء، أسمر الوجه، في جبينه خاتم النبوة، نظراته حنونة وتشعُّ أملاً وحياة.

أجلسني بجانبه وهدّأ من روعي وربّت على كتفي وقال: من أنت؟

فقلت: أنا إنسان ماني حيوان.

فقال: خذوه واقطعوا رأسه وسيغفر الله له، قادني أنكر ونكير إلى ساحة عامة، يتجمهر بها الأطفال والرجال، وقرأوا الفرمان وقطعوا رأسي، تدحرج رأسي وهو يضحك بصوت عال ويصرخ: أنا إنسان ماني حيوان.

هجم الأطفال بسرعة باتجاه رأسي وانقسموا فريقين، ونصبوا الشباك، وبدأوا بمباراة قدم جمهورها رؤوس ملثمة بالسواد.

أحد الأطفال ومن فرط الحماس سدد رمية عالية ودخلت من نافذة مكسورة، استقر رأسي عند قدمي والدي الذي ما زال ينظر إلى أمي بنفس النظرة وعلى خده دمعة مُرة، وأمي ما زالت تحتضن برواز صورتي وتبكي فراق ولدها منذ مجزرة.

أنفاس طفلة

الساعة العاشرة صباحاً. كالعادة، أبو محمد لم يذهب إلى العمل بسبب اشتداد المعارك وانقطاع الطرقات المؤدية إلى عمله الذي يقتات بواسطته هو وأولاده، جلس أمام باب المنزل هو وصغيرته حنين يلاعبها، يأخذ منها لعبتها، وهي بدورها تمثل دور الحزينة لفراق حبيبتها اللعبة، ثم تقوم بالهجوم على والدها لاسترداد لعبتها، في الداخل أولاده يتشاجرون مع أمهم، هي تريد إطعامهم عروسة الزعتر، وهم يعترضون ويطالبون بالجبنة التي نسوا طعمتها، أصوات أطفال يلعبون في الساحة الخلفية للمنزل، بينما المارون من أمام أبي محمد يرمون السلام ويداعبون بأيديهم شعر الصغيرة حنين، خاطبه جاره سائلاً: إن شاء الله اليوم الأوضاع هادئة؟ فردّ أبو محمد ممتعضاً: لسا بكير هلئ بتجي الحنونة وبتزتلنا هدايا..

وما هي إلا دقائق حتى سُمع هديرها في الأجواء، تركض الطفلة وترتمي بحضن والدها لتستشعر القليل من الأمان، تصرخ الأم من الداخل: ادخلوا حالاً فهي قريبة جداً. يدفع أبو محمد بطفلته عبر الباب فتركض مسرعة لتصل إلى أمها، ويركض الأب إلا أن القذيفة أسرع منهم جميعاً، يعج الغبار عالياً ليشكل بأرواح الأطفال صورهم، ويتخذ هيئاتهم البريئة، يقف الأب مذهولاً، لا يرى شيئاً من وسط الغبار، قدماه ترتجفان، يصارع الغبار ويحاول نفضه عن عينيه، يتلمس بين الركام ويحاول أن يمسك بأحد أطفاله أو زوجته، تقع يده على شيء ملمسه طري، يسحبه بهدوء من تحت الأحجار، ويضمه

فرح علي

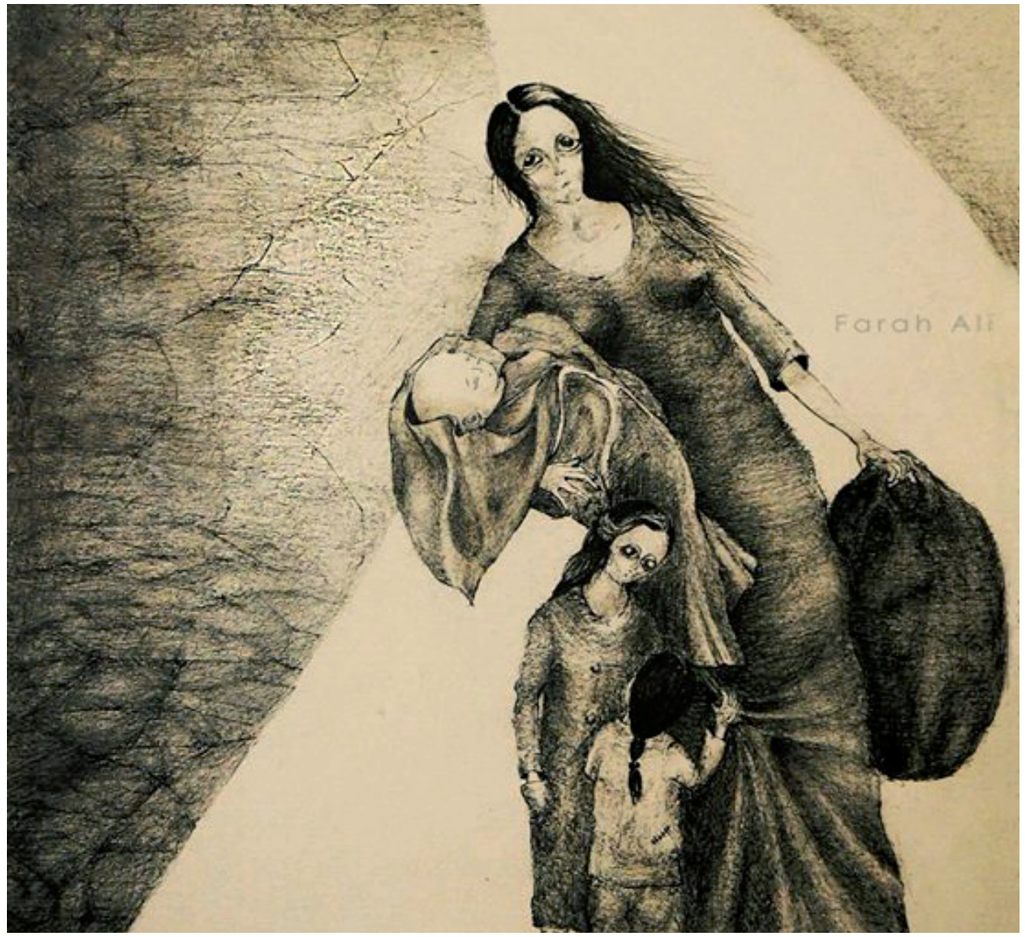

إلى صدره فيحس بنبض ورائحة حنين، يسمعها تهمس له: أخرجنا من هنا، يشقّ طريقه من بين الغبار ويتعثر بالأشلاء والأنقاض، وتصله أصوات التكبير والحوقلة، يمسك بيده أحد جيرانه ليوصله إلى برّ الأمان، الأمان المفقود من هذه البلاد منذ أربع سنوات، يهيم أبو محمد في الطرقات لا يرى شيئاً أمامه، أصوات مشوشة تخترق سمعه، ينزوي في بيت مقصوف سابقاً خلا من البشر عدا أرواح أصحابه التي تحاول أن تنبت أزهاراً أو عشباً، يحاول أن يخرج من صدمته، التي ذهبت ببصره فأصبح لا يرى شيئاً وكل ما يسمعه مجرد تشويش، يخترقه صوت ابنته التي يحضنها تقول: بحبك بابا، يمشي والناس تنظر إليه وتصفق الكف بالكف وتحوقل، ذهب إلى مدينة أخرى هائماً لا يشعر بتعب ولا جوع، يقتات مما يرميه بعض الناس بحجره أثناء استراحاته، ظناً منهم أنه مجنون، يناجي صاحب أحد السيارات بأن يوصله إلى حدود البلد فهو يريد النجاة بطفلته والخروج من بلد الموت، بلد الخراب، يصل الحدود ويترجل من السيارة، ويتجه باتجاه الأسلاك الشائكة، يقطعها دون أن يشعر بألم خدشها لجلده كل ما فعله هو ضم طفلته ليحميها من أن تخدش. يمر ويتجه إلى اللا مكان، في قرية صغيرة نائية، أمسك بيده أحد أبناء القرية وأخذه إلى بيته ليستحم ويرتاح، لكنه اكتفى بأن يسد رمقه وطلب منه أن يوصله إلى أقرب مدرسة، استغرب الرجل ولبّى له طلبه. دخل المدرسة، ووصل إلى غرفة المدير.

دخل وسلم على المدير وشرح له وضعه وطلب منه أن يسجل صغيرته في المدرسة، فهي تحب الدراسة، فسأله المدير: وأين طفلتك؟

فأبعدها عن صدره وقال له: ها هي أمامك.. ها هي. انظر ما أجملها، وهي وديعة وهادئة لا تشكو ولا تزعج أحداً.

(استلم المدير دمية من أبي محمد، ولم يستطع أن يتكلم ليعده بأن ابنته ستكون من الأوائل في مدرسته).

كاتب من سوريا

دومة

وجدي الأهدل

بعد تردد طويل استقر عزم (همود بن محفوظ) على القيام برحلة علمية إلى بئر برهوت، وكتابة تقرير عنها لمجلة ناشيونال جيوغرافيك. هو أستاذ في جامعة حضرموت، يرأس قسم الجغرافيا، ويُدرّس مادة الجغرافيا الطبيعية. تقدّم إلى الجامعة بطلب تمويل الرحلة، فكان ردهم أنهم سيوفرون له كذا جالوناً من البنزين! لم يُفكر حتى في أخذ الورقة أو خسارة أيّ جزء من طاقته في الجدال معهم. لقد سبق له قبل عشر سنوات زيارة البئر، دار حولها ونظر من فوهتها إلى أعماقها السحيقة متمدداً على بطنه، وانتهى فضوله العلمي عند ذاك الحد. في هذه المرة قرر أن ينزل إلى البئر ويأخذ صوراً وعينات من مائها وصخورها. تجهز للرحلة، وأنفق كل ما ادّخره في البنك، وانتظر بفارغ الصبر انتهاء الفصل الدراسي والامتحانات. في منتصف يوليو تحرك بسيارته ذات الدفع الرباعي موديل نيسان باترول وبرفقته أحد المعيدين، وطالب من بادية المُهرة. انطلقوا من مدينة (المكلا) إلى مدينة (الغيظة) عاصمة محافظة المهرة، حيث قضوا ليلتهم في ضيافة أحد أصدقاء بن محفوظ. وفي اليوم التالي تابعوا طريقهم. في منتصف النهار وصلوا إلى البئر، ولفت انتباههم سرب من الحمام يدخل ويخرج من فوهة البئر التي يبلغ قطر فتحتها 25 متراً. تناولوا وجبة شطائر خفيفة ثم بدأوا بالعمل. ربط همود بن محفوظ نفسه بحبل إلى مانع الصدمات بسيارته، وهبط حاملاً معه حقيبة أدواته وكاميرا فيديو رقمية. عادت السيارة إلى الخلف ببطء، وتذكر همود بن محفوظ وهو يهوي بسلاسة إلى القعر الحديث النبوي الذي يذكر أن أرواح الكفار والمنافقين تستقر في هذه الهاوية. والرواية المنسوبة لعلي بن أبي طالب بأن (بئر برهوت) أبغض بقاع الأرض إلى الله تعالى. سمع بوضوح صوت هدير الماء الذي كان يزداد قوة. كان عمود نحيل من ضوء الشمس يضيء زاوية قاصية من القعر الواسع جداً في الأسفل. بعد سبع دقائق وضع قدميه على تربة القعر الرخوة. حرر نفسه من الحبل، وراح يُصور مسحوراً حوائط البئر، واستوقفه شكل نحتته الطبيعة على الحجارة.. صورة على هيئة بومة لها رأس إنسان ويدها اليمنى مرفوعة للأعلى وتُمسك بالقعسري - خشبة الرحى- المتصلة برحى تامة الاستدارة. ابتسم وتذكر ما تناقلته كتب التاريخ من أن السيد المبجل (دومة) وهو الملاك الموكل بأرواح الكفار يقطن في هذه المحارة. لم ير الماء، ولكنه رأى كهوفاً كثيرة، وعند أحدها لمح خضرة. تفقد مسدسه، كان يدرك وهو ابن الصحراء أن الأفاعي تستطيب العيش قرب منابع المياه. اقترب بخطوات حذرة، انحنى وشغل كشافه اليدوي. شهق حين رأى الماء يتدفق بغزارة وينساب إلى الأعماق. اغترف بيده غرفة وذاق الماء فوجده عذباً بارداً. قضى ساعة وهو يُصوّر الكهوف التي لها تعاريج ومنافذ لا يُعلم مداها. ثم قرر أن يستكشف الكهف الذي يجري فيه الماء ليتتبع مساره. سار منحنياً ولاحظ أن السقف يرشح بمادة سوداء لم يعرف ما هي. شم رائحة الكبريت.. أخذ قبضة من التربة وتفحصها تحت ضوء الكشاف وصدق حدسه: رماد كبريتي ناعم. أخرج من حقيبته علبة وأراد سكب الرماد فيها، فإذا به يسمع أنّة تردد صداها بوضوح.. ارتجفت يداه ووقعت منه العلبة، وبسرعة تدحرجت إلى الماء وانجرفت مع التيار. تلفت ودار بضوء الكشاف بحثاً عن مصدر الأنين ولكنه لم ير أحداً. أخرج علبة أخرى وقد تغلب عناده على شعوره بالخوف. قرر أن يغرف الرماد بالعلبة نفسها، ومرة ثانية سمع الأنين أشد من المرة الأولى. فتش المكان بكشافه، وشاهد أفعواناً ضخماً يسد طريقه. ضربته قشعريرة ودون تفكير سحب مسدسه وأراد تعميره، وفي عجلته هذه سقط كشافه اليدوي وانطفأ. تجمد في مكانه من الرعب وأحكم قبضته على المسدس، وشعر بأن الموت يدنو منه. سمع صوتاً جهيراً يقول له: "اهدأ يا همود". قال همود وهو يحاول التماسك وألا يبول على نفسه:

- من أنت؟"

- أنا الحارس.. مسموح لك الخروج بسلام من هنا، ولكن لا تحمل معك شيئاً من ترابنا".

- أنت دومة؟

- أنتم مخلوقات عجيبة لا شغل لكم إلا إطلاق الأسماء!

- أنت المَلَك الموكل بأرواح الكفار؟

- (ضحكة قصيرة) أيها الغبي هذا تعبير مجازي.. المقصود هو أن تجتنبوا هذا المكان.

- كيف عرفت اسمي؟

- بواسطة أمر ما من اسم له.. وبما أنه لا يُسمّى فإنك لن تتوصل أبداً إلى الفهم.

- لماذا ترفض أن آخذ عينة من هذا التراب؟

- فيه مادة محظورة عليكم.

- المهريون القدماء يقولون إن هذه حفرة تسبب فيها نيزك هوى من السماء.

- ذاكرتهم جيدة.. هذه المادة كانت مرسلة إلى الجزء غير المرئي من الكون.

- تعني العدم.

- كلا.. الكون يشبه الشجرة.. أنتم تعيشون على أفنانها، ونحن نعيش في جذورها.

- هل سمعت عن الفضول العلمي؟

- هل سمعت عن الغرور الآدمي؟ ذلك الغرور الذي أدى إلى نفيكم إلى هذا الكوكب.

- يا رجل لا تكن حقوداً.. سآخذ حفنة ضئيلة من هذا التراب وأمضي. أخرج من جيبه قداحة مزودة بكشاف صغير، فتش عن العلبة

ابراهيم الصلحي

البلاستيكية فلم يجدها. قبض قبضة من الرماد ودسها في جيب بنطلونه، ثم استدار عائداً.

سمع الصوت يخاطبه من ورائه: "تحسب أنك ستغدو عالماً مشهوراً.. ومنذ الآن أيها الأناني تُخطط لأن تُسمي هذه المادة باسمك".

خرج من الكهف وانتصب واقفاً. رفع حقيبته وحملها على ظهره، أعاد تشغيل الكاميرا ليُصور صعوده للأعلى. ربط نفسه بالحبل وأعطى الإشارة المتفق عليها. تم رفعه بيسر وخرج من فوهة البئر بسلام.

حين وضع قدميه على الأرض التي يعرفها تنفس مرتاحاً، وشعر بسعادة لا توصف، وتراءى بين عينيه النجاح العظيم الذي سَيُلاقيه. ثم وجد نفسه فجأة يقوم بالتأهب للنزول لبئر برهوت ولكن بطريقة معكوسة.. كان يقوم بعكس حركاته كلها مرتداً إلى الوراء.. خرجت شطيرة الجبن من جوفه ونمت قضمة قضمة حتى عادت كاملة. عقب السيجارة ارتفع إلى فمه وتجمع التبغ المحروق حتى عادت السيجارة سليمة إلى علبتها. ركب وحده السيارة التي عادت به للوراء من «فيجوت» إلى «الغيظة» ومنها إلى مدينة «المكلا» التي جاء منها. وجد نفسه يرجع إلى بيته، ويعيد ما جرى معه بالمقلوب.. كان الزمن يجري بسرعة شديدة للوراء، عاد شاباً، ثم طفلاً، ثم عاد إلى رحم أمه، ثم تقلص إلى نطفة متناهية الصغر في صلب أبيه، وبعدها قضى ملايين السنين وهو يتراجع إلى الخلف ماراً بالسلسلة الطويلة من الكائنات الحية التي تطور منها. كتب "الحارس" تقريراً أميناً عن الحادثة، ليبرر النقص في تلك المادة الثمينة التي ليست مادة، وليس لها اسم، وإنما هي بقايا من الانفجار العظيم لم تفن ولم تتلاش، وهي القوة الوحيدة التي تهدد كوننا بسحبه إلى الماضي ومحونا كأن لم نكن.

كاتب من اليمن

قصتان

وسام نبيل المدني

عشر دقائق

هل لديك حقائب تتسع للجدران؟

يوم آخر تحت وطأة الحرب، لا شيء مختلف، توتر، وجوه مكفهرة تشتاق نوما، أطفال ممتنة لمعركة جمعتهم، هدوء حذر.

رنين الهاتف يمزق الصمت، يوقظ أطراف الحركة بنا، يقفز أقربنا ليرد.

- ماذا أنتظر

صرخ بوجه ممتقع ثم ألقى السماعة وأكمل

- أخلوا المنزل سيقصف بعد عشر دقائق هياااااااااااااا.

بات المكان أقرب لإناء ينضح ببذور الذرة المجنونة "الفشار" التي تتطاير بلا وعي، وحدي الثابت في مداري والأفكار كواكب تدور حولي تدوخني.

عشر دقائق سابقة، كنت أعدّ الشاي صامتة، أحتاج كمية كبيرة من الفناجين وخزانتي فارغة، الماء مقطوع وأغلب الأغراض متسخة، كم أحترم الكؤوس البلاستيكية في هذه اللحظة.

يتكتم الشاي على أنفاس شاربيه خشية أن يقضّ مضجع الترقب، غرفة محنية الظهر، تضج بكمية بشر أكبر من حجم خاصرتها الكهلة، نساء تتكئ على جدران متشققة الجبهة، أطفال صرعي الإرهاق في أحضانهن، رجال أحرقتهم السجائر وأعياهم ثقب السواد المشتعل بغبار دقائق مقتولة ، شيء من مخلفات الوقت.

- ميعاد الولادة قد اقترب ولا أعرف ماذا أسمي الطفل

محاولةً قتل الصمت.

- نسميه هدنة.

- بل نسميه حرب.

- دمار.

- بقعة ضوء.

- انتصار.

- وطن.

- كهرباء.

وهنا فقط قَدّت العتمة الضحكات، انقطعت الكهرباء مجدداً، تتضاءل البسمات حتى تختفي خلف ظلال الشمع، كاد كل شيء يعود إلى رتابته لولا تلك المكالمة، تباً لا بد أن نخلي في عشر دقائق.

ماذا سأفعل في عشر دقائق؟

ماذا سأحمل معي في عشر دقائق؟

لابد أن أحمل محفظة نقودي، سأحتاجها لتضيء بعض شحوب اللجوء، أوراقي الرسمية فهي مُعرفي الوحيد أمام قانون يكفر بما دون الورق، ملابس أحتاج ملابس فوحدها تزملني من حقد البعوض وفاشية الشمس، كُتبي لا بد أن أنقذها فطالما أنقذتني من ضيق الأفق، سريري ذاك المجاهد طالما احتمل تنكيلي غضبي وشخير النوم، وسادتي حضن الدموع الشجي، درج الأسرار، كما اعتدت أن أسميه يحوي كل هدية نلتها وكل حلم وأمنية لم تطلها روحي، غرفتي كم أعشق غرفتي تروي عني ما لا تعرفه أمي.

الجدران المزركشة بخطوط عمري، يا الله ماذا سأحمل وماذا سأترك للموت، لم أكن يوماً بضع أوراق تعريفية ومحفظة نقود وأنفاس، بل ذاكرة هي وحدها أنا، فإن خرجت دونها سأعيش عارية، أسيرة «الزهايمر» طيلة ما تبقّى من عمر.

- ماذا تنتظرِ هيا احملي في حقيبتك أي شيء وغادري لم يتبق وقت.

- هل لديك حقائب تتسع للجدران؟

- ماذاااااااااا هل جننتِ.

- لن أغادر.

دقت الساعة معلنة انتهاء المهلة.

البرتقالة في يدي

كانت أقصى أحلامي في هذه اللحظة، أخفيتها عن يدي اليسرى، عن عيون الصف الجائعة، عن هلوسات المَعِد الخاوية، والأَكُفّ المتصلبة، برتقالة خطفتها من شجرة أرضنا، وأنا أهرب من بين أنياب القصف، راحلاً صوب مدرسة الإيواء منفانا الجديد.

الجميع نائمون. حان وقت نيلها.

مد علي يده ليمسك البرتقالة لكنه فشل، قفزت مبتعدة، تعجّب وظن أنها سقطت منه، حاول أن يمسكها مرة أخرى لكنها ابتعدت مجدداً.

أجننت يا علي، هل رأيت بعمرك برتقالة تهرب؟

تمتم متعجباً وصرعته الدهشة حين أجابته البرتقالة:

- لن تأكلني، إلا بعد أن تعيدني لأمي الشجرة، لأودعها.

فرك عينيه ليتأكد، مما يرى فاستطردت:

- لم أسمع رداً؟

- تباً، كيف نذهب وحارتنا منطقة مغلقة تحت القصف.

قالها باضطراب.

-أغمض عينيك.

ما كاد يفعل حتى تعالى صوت القصف من حوله، فتح عينيه إنها حارتهم كما لم يرها من قبل، شاحبة رثة، القصف الغوغائي يشعل سماءها، صبحاً زائفاً، يقلع استكانة أرضها، وهو لم يعد هو، يخترق الحلكة بثاقب نظره، يدرك ما وراء الجمود.

البرتقالة برشاقة تقفز أمامه، يتبعها بخطوات تائهة، وعيناه تغرق في بهمة المكان، يمنةً ويسرةً تخطفها الأطياف المتساقطة، رأى ظلاً من

سليمان منصور

بعيد ظنّه مبتغاه، اقترب ورفيقته يتفحصانه.
مشهد عجيب!
تجدل شعرها أمام مرآة السواد، تشذّب كحلها، الليل يبدو أكثر غواية وهي تطالع الحبيب شامخاً بجوارها، تتسلل خيوط الغبطة بين ضفاف جذعها، لجة النشوة تدوخها، تسرق استكانة هدبها، في ليل ظنته لن ينام، مخمورا بالنظر، يتجاذبان دفوف اللهفة.
لطمة طائرة مزقت ملامح العرس، التفت نحوها، عروس قسم البارود خصرها، نخلة مبتورة الروح، ملقاة في حضن التراب عارية، خلع الحبيب سعف جسده وغطى عرجونها، خاضت صرخة في هيئة طفلة ذات رداء أحمر ممزق وجورب، اختبأت من أنياب القصف خلف رفات أمها النخلة.
دمعة خدشت وجه علي، بأقدام متثاقلة يلاحق رفيقته.
شبح يتابعه، توقف علي يلملم رعشته ويطالع المجهول، طلل ضبابي الكينونة، ربما حجرٌ تقيحت حوافّه، حذاء مزقته ذكريات الأرصفة، أو زهرة فولاذ صاغتها مقصلة البارود، مجرد انعكاس حالك، يسير نحو مدينة كان يعرفها، منكّس الحلم، يبحث عن بعضه المفقود في شبكة أجرام زائفة تصطاد الأبنية.
ولا يزال علي ماضٍ وعيونه تقفز بين صور نازفة.
يعبر عاموداً إسمنتياً بنصف ساق، يداه المبتورة تعانق قهقهات الأطفال، دموع الرصاص تحرق دهشته، يكمل علي مسيرته الموجعة، يقف محني القلب، أمام أنينٍ حامض، لسريرٍ عار الأضلع، يهدهد أكماماً مشظّاةً طالما نامت بين ذراعيه.
يتمتم بقهر ألا يموت هذا الليل البغيّ، يسرع خلف رفيقته والمشاهد تزداد نزفاً، المدرسة ممزقة، أرجوحة أخيه مقتولة، تبدو من بعيد، جسدها مسجّى لطخ الدم جبينها، تلك الشجرة.
أخيراً انتهى القصف، يستطيع الآن أن يسرع بعيداً عن رهبته.
وما كاد يلمحها، حتى سبقته الصرخة ذات الجورب، وهي تحمل قارورةً فارغةً، تجمع رائحة الخوف عن صدر الأعمدة والجدران، تزجّ خرز الذاكرة في خيوط الوقت، لتصنع عقداً يغوي ضيوف المقبرة الطازجين على الانبعاث، علها توقظ أمها.
كبائع روبابكيا يجمع مخلفات الدهشة المميتة، في جعبته صرخات، أطلال، أطراف دون تتمة، قطن سحابي متخثر، بنادق صدئة، وسلم متهتك، ضمت الشجرة لجعبتها، وراحت تنقل عبر سلمها البضائع نحو السماء، عقب القصف دون أن تنتظر أجراً.
راح يلحقها ويصرخ:
انتظري، أحتاج تلك الشجرة..
البرتقالة تختفي رويداً رويدا!
ما كاد يصل حتى تلاشى كل شيء.
تباً، إنه لا يزال في الفصل على الفراش الأرضي، تحسس جيبه، أخرجها وضحك:
- البرتقالة في يدي.
ثم عاد للنوم.

كاتبة من فلسطين مقيمة في غزة

5 قصص

يزيد عاشور

شكرا للرصاصة

شكراً للرصاصة أنهت الموضوع على عجل. شكراً لإعفائي من التعذر في كل مرة أصل الموعد متأخراً. شكراً لأنني لن أفكر بعد اليوم بدفع فاتورة الكهرباء وفاتورة الماء والهواء. شكراً لأنني لن أسمع خطابات القائد الخالد كل مساء. لأنني لن أبحث دون طائل عن قبر لدفن أحبابي. لأنني لن أجيب عن الأسئلة. لأنني لن أشعر أنني مندس وخائن. لأنك لن تشتم أمي ولن تسألني مثل ناكر ونكير عن ربي. هذا الوطن بمن فيه ومن فيه لك. لن تراك عيوني بعد اليوم. لن يجف ريقي وتغص روحي وترتعد أطرافي ويأكلني الخوف. الموتى لا يخافون. الموتى لا يحزنون ولا يغضبون.. ولا تسيل دماؤهم. الموتى يراقبون بصمت ويشكرون كرم التراب. ما فاتني هو قهوة الصبح. و«الرز بحليب» الذي أحبه. اختصرت أعبائي وحنقي وغضبي ورجائي لأنك قتلتني.
شكراً للرصاصة أنهت الموضوع على عجل
شكراً لك أيها السافل، لأنك قتلتني.

ذلك البياض

مناديل وداعهن. بيضاء كانت أشرعة المراكب ذابت في زئبق البحر. وبيضاء كانت عيون من ودعت غادرها اللون، غادرتها الصور. وبعد الرحيل، بيضاء كانت. طردت قطيع غيومها الريحُ ، مسحت عن فضاءاتها الزرقة.
وبيضاء كانت. استنكرت حقول القمح رحيلك البكر.. حرقت سنابلها. وبيضاء كانت. تبدّلت الفصول، فما عاد الصيف صيفا ولا الربيع ربيعا.. تمزّق اللون. وبيضاء كانت.
حين تلاشى بياض الأشرعة الحزينة في المدى، بكت الورود عليك، فسال لون المساحيق على أغصانها.
وبيضاء كانت. زهو الفراشات الناعسات بدّله غيابك الأبدي.. فتساقطت ألوانها على حجر الرصيف. وبيضاء كانت. غيابك المرّ، بدل لون الشوارع، وأشجارها، وبيضاء كانت. حليّ النسوة العاشقات.. ما عاد أصفر ولا أخضر ولا قرمزّي حالم.. على صدورهن الثرّة ذابت الألوان. وبيضاء، بيضاء كانت.
على ثغور الصبية جفّت الضحكات وبيضاء كانت. أدركت صور العاشقين عار اللون عليها بعد إذ غادرت. طردته. كنسته، وبيضاء كانت في انتظار أن تعود محمّلا بالحلم، ناثراً على الأشياء سحر اللون - كرنفال - اللون في مساحيق الفراشات والورود والنسوة. حليّهن وأشجار الرصيف في انتظار أن تعود ثانية، الأشكال أتعبها البياض المرّ. اشتقاتك واشتاقت الألوان من أن لا تكون مثلما. بيضاء كانت.

غرباى يعزفون الموسيقى

لم يكن يدري أن الوقت سيعبث فيه وأن الشوارع الغريبة سوف تتقاذفه منذ أن غادر. طعم الصباحات، المطر الخجول المنتظر. والذي لا يأتي. مآذن الجوامع التي لم تعد قادرة على منازعة الأبنية المحيطة في الارتفاع . هاهي آثرت الوقوف في فضاءات مكشوفة. قبيل فيضانات الإسمنت. أصوات أجراس الكنائس القابعة بحميمية دافئة بين البيوت. المستنقعات الصغيرة، قايا الضفادع. أصوات الباعة والمشردين، غادرها. ابتلعته مدن بلا ألوان، غريبة الطرقات، لا صديقة ولا عدائية، هي شارة استفهام لم يجد لها تفسير أو سبب. لعبت بك الأيام يا عاشور.
مرغتني بعهرها، لم تقبلني، لم ترفضني، لم تتجهم ولم تبتسم. منحتني رقما جديداً فرشت قدامي أزقتها وقالت أمضي أيها الغريب. حاولت غير مرة أن أرفع الغطاء عن وجه المدينة.. نجحت بالوصول لأطرافها رفعت عنها غطاء المصانع والغابات ولم أر غير ناس منتشرين بصمت بين البيوت. خبز التنور رائحة البندورة الطازجة، سندويشات الزيت والزعتر.. دبس البندورة.. وبقايا جبنة بيضاء مزقت بإهمال في أحسن الأحوال.
بائع الحمص المسلوق على طريق المدرسة وهو ينادي بطريقته الغريبة والمعتادة «أوموت حال أموت حال ياأمووت» ونحن نفهم أنه يقصد حمص حار حمص حار يا حمووص.
جدار الفضيحة على طريق المدرسة حيث كتب أحد الحاقدين بخط عريض . يزيد عاشق . طلاب المدرسة بأسمائهم وأسمالهم، موريس ابن الجيران، بسام الذي غادر إلى ألمانيا وأصبح مبشّرا، بيت القصاب القادمين من حلب وحكاياتهم عن بطولات خالهم الذي يستطيع رفع شاحنة بيد واحدة وتعليقات جوزيف ابن حنا خالو «دي جوري دي» . خالة فهيمة طيبة القلب ولأنها دائما تمشي مسرعة وبقايا فستانها يكنس تراب الرصيف فهو يثير بعض الغبار وراءها، من يومها أطلق عليها أولاد الحارة اسم «عجاجة» بيت ابو ميناس الذين جاء بهم عمو كريكور ميناس هربا من مجزرة الأرمن، أم جوني تلك السيدة الأنيقة الفاتنة وهمس زوزو ابن الجيران عنها، هي تستقبل رجالا غرباء بعد أن يغادر زوجها الموظف بالبلدية. صوفي علّو وهو يدفع عربته العتيقة المتخمة بالفواكه والخضار «باجان أسود..يلا يا يا بندورة يا خيار ياقتي يالا يا عجوور. ..»
. جاواني صوفي.

. ساغ بي، رافعا رأسه صوب سماء الحسكة الصافية (الحمد لله، يتمتم وتنسال عن جبينه حبتي عرق مثل لؤلؤتين، تنساب على وجنتيه اللتين غيرت الأيام سحنتها فصار لونهما الجديد مزيجا ما بين البني العتيق والأصفر الخائف والأحمر الغاضب والأسود الحكيم.

لا القهوة ذات الملمس الناعم والمثير، ولا اللفافات البيضاء ولا الضغط على الجرح أجدى نفعاً، يزداد النزف من الجرح ، تتحول الهمهمات إلى أصوات وصراخ فيا بعد.

. وراك ابني جرحو كبير وي، اش متخلفين انتن، وراك لازم يروح عل المستشفى.

فشلت كل الطرق في محاولة وقف النزيف المشاكس والمعاند، تشكلت في البدء بقعة دم سرعان ما تحولت إلى بركة صغيرة رجراجة براقة متهالكة على رصيف الحكومة، شقت على الطريق ممرا آمنا ضيقا لها ومضت بثقة وتثاقل إلى مكان تعرفه.

. يوالو شنو هذا الدم شوف شوف شلون يمشي. اي مو يكولون أن الدم يتخثر؟

ـ وراكشلون يتخثر، حمار انتا شي حمار؟! موتشم ريحتو كلا عرق! الزلمي شرب عرق حتى ما قال بس.

. عمو أبوجان هوي كان يشرب براندي مو عرق..، هذا براندي محلي طعمتو متل المازوت.

. أي ابني ليش ايش تفرق الخرا أخو البول .

بدء الخدر يزحف هادئا من قدميه متجها نحو الرأس، كان واثقا هادئا وهو يجتاز البطن حينها أعلنت المصارين والمعدة بعض الاعتراض بإصدار أصوات متململة من هذا الموت تابع الخدر البغيض طريقه نحو الصدر، ثقيلا كان، مؤلما وضاغطا. ازداد التنفس سرعة أول الأمر ثم بدء يتقطع بعض الشيء،غاب الألم حين وصل الخدر حد الرأس وصار الضغط هادئا وثقيلا ومحببا وبطيئا، الألوان بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، تحولت الأصوات إلى همهمات كأنما هي قادمة من بئر سحيق، ساد الصمت. الصمت السيد، الجليل الساحر العظيم المُسيطر المطبق.

. والله.. الله سترك يازلمة كان رحت فيها. أصبحت حديث أهل البلد يا رجل، الدم الذي نزف منك كان كثيرا جدا، شيئا لا يصدق، وقد مضى فوق الشوارع ومر على البيوت ولعقت منه الكلاب القذرة والقطط الضالة وأصابع الأطفال عبثت به، يلعن أبو هيك عيشة.

هذا ما قاله الرجال ذوو الثياب النظيفة وهم يقفزون فوق دمائك، وأردفوا بتذمر. وسخ ووحل ورائحة جيفة ألا يكفي.. هل ينقصنا دم على الطرقات أيضا.

قالوا حينها إن الدم مضى بطيئاً متثاقلا حتى اجتاز المساكن عابراً محل سمارة لبيع الفلافل في شارع القامشلي ثم تابع مسيره إلى ما قبيل جسر النشوة حيث انعطف يمينا ليمضي باتجاه أراضي بيت حبو، وانتهى به المطاف إلى نهر الخابور. يا رجل كأنما صار للخابور من دمك رافد جديد.

. يا سيدي كان يوما عظيما في الحسكة وسوف تتحدث عنه الناس لسنوات وسنوات، تصور أن أبونا المطران في قدّاس الأحد قال للمصلين إن العذراء قد باركت هذا الرجل ولأن العذراء هي رحمة وبركة لكل الناس ولكل الديانات فأنا أطلب منكم أن تتبرعوا له بدمكم لأن زمرة ده (أو سلبي) وهي غير متوفرة في مشفى الحكومة، حتى أني سمعت أن الشيخ ياسين قد حَث المصلين . بعد صلاة الجمعة في الجامع الكبير. على التبرع بالدم وأذكر يومها الفوضى على بوابة المشفى، ولكي يرضي الأطباء كل المتبرعين قالوا سنأخذ من كل مُتبرع كمية قليلة من الدماء. يعني وباختصار أن ما يجري في جسدك هو دماء كل أهل الحسكة، يا رجل تصور دماء أهل الحسكة كلها في جسدك.

، كاملا ستان)، (تينستا)، سمع صوت المرافق في قطار أنفاق أستوكهولم وهو يعلن باللغة السويدية أن المحطة القادمة هي المدينة القديمة تمتم دون مشاعر الآن سأذهب لأشتري سندويشة كباب وبعدها سوف أتسكع في المدينة العتيقة علني أحظى ببعض الغرباء الذين يعزفون الموسيقى.

لو اكتفيت بالقبل

ليتني اكتفيت بجدائل لعبتي وببعض المساحيق.

لا تعبثي بأغراضي أيتها الفاجرة - صوت أمي- كعادته مدوياً ومصحوباً بشتائم ما أنزل بها الله من سلطان. الفاجرة. لطالما استوقفني هذا التعبير المُهين. ألست أنت من أحسن تربيتي؟ أم تُراني ما تعلمت منك غير الفجور؟!

-فقط شهيق وزفير، شهيق وزفير، قدر ما تستطيعين. نعم املئي رئتيك بالهواء وانفخيه بهدوء أها. نعم بهدوء هذا يُعجّل الولادة بهدوء. نعم، نعم يُعجل بالولادة، ليتني امتلكت القوة الكافية، لغرست أنيابي برقبتك أيتها الـ.. سافلة.. أو وعلى رأي أمي.. أيتها الفاجرة .

- هذا التعرق القبيح اللعين، أفهم أن يكون على جبيني وتحت إبطي، ولكن حين يمتد إلى بطني وظهري وفخذي فذاك يضيف قذارة إضافية على المشهد البائس. أما كان عليك أن تكتفي بالقبل يا ابن الحرام. مما تشكو القبل؟! ضروري أن تستمرئ بفعلتك القذرة. وأنا من يذوق طعم الموت الآن. أنا من حملت قذارتك تسعة أشهر، والمصيبة أنني أحببتها، أحببتها منذ اليوم الأول في بطني.

-الطلق عسير بعض الشيء، ربما كان مُجدياً أكثر لو زرقناك بإبرة تُنشط الطلق وتُسّرع الولادة؟.. لاااااااا، أريد أن أتحسس كل آلام الولادة، لا مُسّرع ولا مُنشط ولا بطيخ.

- طبيب طيب يُقال إن الفتاة البكرية تتعرض لآلام مُضاعفة، هناك دواء إن تناولته سيُنهي الآلام كلها، وتلدين طفلك بــــ...

-لاااااااا ألا تفهم هل أنت غبي؟ قلت أريد أن أشعر بكل آلام الولادة. أربعون عاما وأنا حُبلى وها هي أيام الولادة على وشك.

أنا المُلقبة بحسن صبي ألعب الكرة مع أولاد الحارة وأمتطي الدراجة الهوائية وأرشق سيارات الحكومة بالحجارة.. حتى أني كسرت بعض المرايا الجانبية للسيارات. يا لها من مُتعة، أذكر أني هربت مرة من اجتماع لاتحاد شبيبة الثورة قفزت عن جدار المدرسة وقد كُسرت ساقي حينها تألمت. أذكر جيداً كم تألمت، لكنني لم أصرخ ولم أبك، اكتفيت حينها ببعض الشتائم والسباب. لا أصدق أن هذه الولادة تأتي بعد أربع سنوات. لا بد أن الحمل قد امتد لأكثر من أربعين سنة.

- هل آتيك ببعض الدعم، أقصد إسطوانة أكسجين تُساعدك في التنفس وعلى الاسترخاء؟

- لا لا لا، يا غبي قلت له أريد أن أتعذب هكذا أنا باختصار حمارة وأحب أن أشعر بكل دقيقة من ألم هذه الولادة. ها.. هل ستسأل ثانية يا حيوان؟!

أنا حُبلى وسألد في أي وقت. كل وقت، وفي أي مكان، وفي كل مكان.

ليل الحسكة

تخفت الأصوات عادة عند الحادية عشرة ليلاً إلا من بعض السيارات القبيحة الصفراء وبعض المارين على عجل. تتناثر المطاعم الصغيرة على الشوارع والتي عادة ما تبيع الصندويشات السريعة. حركة ما تلبث أن تختفي عند منتصف الليل فقط الأصوات العالية الصادرة من بعض الحانات تلوث صمت المدينة وغالباً ما تكون ضحكات عدوانية.

عادة ما كنت في أحد تلك الأماكن التي يكثر فيها العرق وتزدحم فيها الأصوات ودخان السجائر. يختلط سماء الحانة بشتيمة مخنوقة هنا أو مصطلحات مُسبقة الصنع هناك بروليتارية أيديولوجية إسلام، مخابرات، نظام، وغيرها كثير.

عادة ما أودع أصدقائي عند الثانية صباحاً وأختار أن أمشي وحيدا في طرقات الحسكة. أنظر إلى الأبواب الموصدة وأعرف من هم خلف الأبواب، المحال. أعرف أصحابها وأعرف من هو الطيب ومن هو النصّاب. أعرف كل حفرة في الطريق حتى أني قد منحت بعض تلك الحفر أسماء وصارت علاقتي بها مؤنسة ولم تعد مجرد أشياء. كان مشواري وحدي جزءا مهما وأساسيا من السكرة، إحساس امتلكته فقط وحدي .

أتجول في المدينة النائمة فيمنحني هذا التجوال إحساسا فريدا بأن المدينة كلها ملكي. أنا سيدها أمضي وحيدا في شوارعها، أتوقف أنّى شئت، وقد أتبول على أيّ جدار (مرة تبولت على قفل أحد أبواب المحال لأنني كنت أعلم أن صاحبه عميل) لم يكن لنشوتي حدود إلا بعض سيارات البيجو البيضاء الطويلة وكنت أعرف أنها سيارات الأمن. غالباً ما تتوقف ليمتد رأس قبيح من إحدى نوافذها ويسألني بصوت لا يخلو من ريبة:

-شو، قرد لوين ولا؟

أحياناً أضطر للوقوف والشرح، إبراز هويتي، وأحياناً أكون أوفر حظاً فأكتفي بإجابات مقتضبة وأتابع سيري. لم أكن أتذمّر من تلك السيارات ولا من الأسئلة السخيفة، لقد تعودت عليها.

الخابور كان محطتي الأخيرة. أجلس قرب الناعورة، أسمع أنينها وهي تحمل بين صفائحها ماء النهر لترميه متكاسلة على مجرى ضيق يقوم بلملمة الماء واقتياده إلى ساقية تنتهي إلى الحقول المجاورة، ثم لا شيء غير صمت الخابور الملغوم. انكسار بعض أضواء المدينة القريبة على سطح الماء يجعلها تبدو كأنما هي تعلن عن افتتاح احتفال صغير، كرنفال اللون على سطح الماء. أنا والخابور والمدينة النائمة خلفي. إنها حسكتي وهذا خابوري، يعرفني، وهو مستلق كحيوان مفترس يعرف صاحبه ويكتفي كلما التقاني بتحريك أشجار الزل على ضفتيه.

الحسكة كانت لأهلها في النهار، وفي الليل لي.

سمعت أن الناعورة قد ماتت وأن الخابور بات هزيلا أول الأمر ثم لم يحتمل فراق الناعورة، وهو الآخر مات.

أغمض عيني على هذه الأيام، وأحاول أن أقودني إلى شوارع الحسكة مثل زمان. لكنني أضيع فلا أعرف من أين تبتدئ الشوارع ولا أين تنتهي. نسيت أسماء الحفر، لم أعد أشعر بفحولة الخابور، والناعورة بالكاد أتذكر كيف هو شكل قبرها المتروك دون شاهدة هناك. الموت بدأ يعرف طريقه إلى ذاكرتي، كثيرة هي الخلايا التي ماتت في جسدي. وفي انتظار أن يموت ما تبقى منّي، سأحلم قدر ما أستطيع بليل الحسكة وبالناعورة والخابور.

كاتب من سوريا

فرح علي

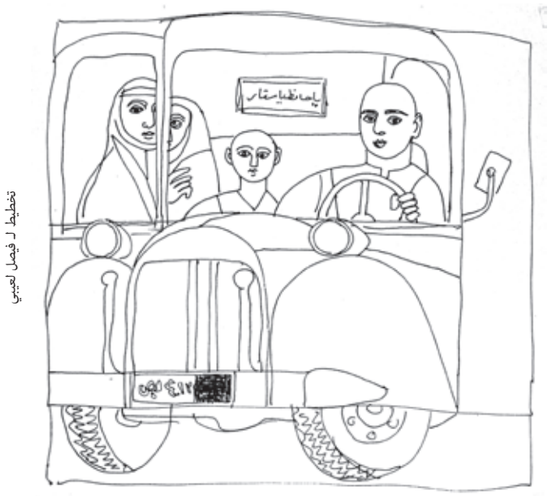

تخطيط لـ فيصل لعيبي

الكاتبات والكتاب

ابتسام شاكوش

كاتبة روائية و قاصّة سورية من مواليد مدينة اللاذقية - الحفة و تقيم الآن في مصر، صدر لها " اشراقة الأمل " عن وزارة الثقافة السورية، رواية " الوجه المكسور، رواية " يا حرام"، " الخروج من المجال المغناطيسي"، "الشمس في كفّي"، " الحلم الأزرق "، " بعضٌ من تخيُّلن ".

ابراهيم الحجري

كاتبٌ و ناقد مغربي من مواليد مدينة الجديدة 1972م، حاصل على الدكتوراة في اللغة العربية و آدابها من جامعة الملك محمد الخامس، حاز العديد من الجوائز الأدبية و له الكثير من الدراسات الأدبية و النقدية و المجموعات القصصية أبرزها " القصيدة المغربية الجديدة"،" استثناء "، "النص السردي الأندلسي"، " الشعر و المعنى كتاب في النقد الشعري"، "شعرية الفضاء في الرحلة الأندلسيّة"، "القصّة العربية الجديدة" و غيرها.

ابراهيم درغوثي

كاتب و قاص تونسي، وُلِد في المحاسن، كريز عام 1955م، أبرز اصداراتِهِ "النّخل يموت واقفاً"، "الخبز المر"، "رجل محترم جداً"،" منازل الكلام"، "المرّ .. والصّبر"،"الدراويش يعودون إلى المنفى"، "القيامة الآن"، "شبابيك منتصف الليل"،" أسرار أصحاب السّتر"، "وراء السراب قليلاً"،حازَ على العديد من الجوائز الأدبية فضلاً عن قيامِهِ بترجمة اصدارات متنوّعة من العربية إلى الصينيّة و من الصينيّة إلى العربية.

أحمد اسماعيل اسماعيل

قاص و مسرحي سوري وُلِد في القامشلي عام 1961م ، صدَر له العديد من المسرحيّات و المجموعات القصصيّة و حازَ على جائزة الشارقة للإبداع العربي عن مجموعتِهِ "رقصةُ العاشق" عام 2000، و جائزة ثقافة الطفل العربي في أبوظبي، و جائزة الهيئة العربية للمسرح عن مسرحيّتِهِ " الطائر الحكيم" الموجَّهَة للأطفال.

حمد الخميسي

كاتبٌ و أديب مصري، وُلِدَ في حي المنيرة في العاصمة المصريّة القاهرة عام 1948م، عمل صحفيّاً في مجلّة الإذاعة و التليفزيون المصريّة ثمَّ بدأ باصداراتِهِ الأدبيّة التي انطلقت بمجموعة "الأحلام"، " الطيور كرنفال"، لتليها العديد من الإصدارات التي تنوّعت بين القصّة و الأبحاث السياسية و التاريخية، كما قام بترجمة العديد من الأعمال القصصية من الروسية إلى العربية.

جمعة اللامي

كاتب من العراق. له العديد من الأعمال القصصية والروائية من مجموعاته القصصية «من قتل حكمة الشامي»، «اليشن»، «على الدرب». وله العديد من الروايات. قضى سنوات عدة في سجون ومعتقلات العراق منذ عام 1963. غادر بلاده عام 1979 واستقر في الإمارات. يعتبر من الكتاب المجددين في المشهد القصصي العراقي والعربي، وقد هدم الحدود القائمة بين الأجناس السردية في قصصه القصيرة، وكذلك في روايته «مجنون زينب».

جمعة بوكليب

كاتب ليبي من مواليد طرابلس عام 1952، بدأ الكتابة والنشر في منتصف السبعينيات من القرن الماضي. صدرت مجموعته الأولى عام 2008 تحت عنوان "حكايات من البر الأنكليزي". وقد تناولت أزمة الهوية والاغتراب الثقافي والاجتماعي والسياسي التي عاشها الكاتب بين مدينتين أو منفيين: طرابلس مسقط رأسه ولندن التي شكلت عنده رحلة البحث عن الذات، كما صدرت له في عام 2013م مجموعته الثانية تحت عنوان "خطوط صغيرة في دفتر الغياب".

حنان بيروتي

كاتبةٌ أردنيّة، ولدت في مدينة الزرقاء، و تحمل إجازة في الآداب و العلوم الإنسانيةو تعمل في الحقل التعليمي، تكتب في مجالات أدبية عديدة متنوعة بين القصة القصيرة والنصوص النثرية والمقالة. صدرَ لها:"الإشارة حمراء دائماً"، "لعينيك تأوي عصافير روحي"، "فتات"، "تفاصيل صغيرة"، "فرح مشروخ" ، حازت بعضُ أعمالها على جوائز أدبية و تقديرية متنوّعة.

خالد اليوسف

كاتبٌ سعوديٌ و باحث متخصص في المكتبات والمعلومات، مُحكّم لعدد من المسابقات الخاصة بالقصة القصيرة، والكتابات الموجهة للأطفال، أصدَرَ أعمالَهُ القصصيّة في مجموعةٍ واحدة عبر 520 صفحة تحت عنوان "يحدث أن تجمع الحكاية أشتاتها" و التي تضمَّنت ستاً وتسعين قصة قصيرة وقصة قصيرة جداً، من هذه المجموعات :"مقاطع من حديث البنفسج"، "أزمة الحلم الزجاجي"، "إليك بعض انحنائي".

راجي بطحيش

كاتب وقاص فلسطيني من مواليد الناصرة عام 1970م، قدم العديد من الورشات للكتابة الإبداعية للأطفال و له مسرحية واحدة بعنوان "فقدان"،أدبياً صدر له: "الظل والصدى"، "حديقة للشتاء..ظل ربيع ضاع"،" بدل الضائع"،"غرفة في تل أبيب"،" ملح كثير..أرض أقل".

رغد السهيل

كاتبةٌ عراقيّةٌ من مواليد العاصمة بغداد، تحمِلُ دكتوراة في علم المناعة، الأحياء المجهريّة و تمارس الكتابة حيثُ أصدرت مجموعتين قصصيَّتَين هما "ضحكة الخاتون" و "سايكو بغداد" ، كما صدر لها في السرد الروائي رواية "أحببتُ حماراً" عن المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

رياض طبرة

قاصٌ سوري وِلِدَ في السويداء عام 1950م، يحمل إجازة في الآداب و العلوم الإنسانية قسم اللغة العربية و يعمل في الحقل التعليمي، عضو اتحاد الكتّاب العرب، صدَرَ له مجموعات قصصيّة على التوالي: " صرخة على جدار الزمن" ، " النافذة و الريح" ، " خارج المكان"، " لحظة فرح".

زهير شلبي

كاتبٌ سوري وُلِدَ في مدينة التل احدى ضواحي دمشق عام 1943م ليعملَ في الحقل التربوي و السلك الديبلوماسي لينتقل مستقراً في قبرص حيث يقيم الآن، له أحَدَ عشر اصداراً أدبيّاً تتراوحُ بينَ الرواية و القصّة القصيرة و التأمُّليات و الشعر، أهمُّها " الساطور" ، " لماذا ارتدى الناس ثيابَهُم"، "الطيور تستعيدُ ألوانها"، " الشوك في الصدر"، رواية " أرض الأقحوان"، بينما تميَّزَ في "رسالة للنسيان".

سامية عطعوط

كاتبةٌ و قاصّة أردنية وُلِدَت في نابلس الفلسطينيّة عام 1957م، تحمل إجازة في الرياضيات المعاصرة من جامعة المستنصرية في بغداد،صدَرَ لها مجموعات قصصيّة متنوّعة أبرزُها، " جدران تمتص الصوت"، "طقوس أنثى"، "طربوش موزارت"، "سروال الفتنة"، " قارع الأجراس"، " بيكاسو كافيه" ، كما صدر لها في السرد الروائي "عاليمدان رايح جاي".

سمية عزام

كاتبة و باحثة و ناقدة لبنانية، بدأت بكتابة القصص الهادفة للأطفال ذات التوجُّه التعليمي، صدَر لها عن دار المؤلِّف مجموعتها " تراثنا إن حكى بين القرية و المدينة " ، حيثُ جمعت فيه عدّة مقالات بأسلوب قصصي تتناول فيه التراث اللبناني لتجمع بين طيّاتِهِ الفائدة العلمية و المتعة في الإخبار و الحوار مع الحفاظ على المغزى القيمي.

سمير الفيل

روائيٌّ و قاصٌّ و شاعرٌ مصري، مارَسَ الصحافة إلى جانب عملِهِ في الحقل التعليمي، يحملُ إجازة في الآداب و التربية، صدرَ لهُ العديد من الروايات و المجموعات القصصيّة إضافةً إلى المسرحيّات الموجّهة للأطفال، أبرزُها · خوذة و نورس وحيد·، ·أرجوحة·، ·كيف يحارب الجندي بلاخوذة·، انتصاف ليل مدينة·، اما في السرد الروائي فقد صدر له·رجال و شطايا·، ·ظل الحجرة·، فازَت أعمالُهُ بالعديد من الجوائز الأدبية.

شاكر نوري

صحفي وروائي ومترجم عراقي يقيم في الإمارات العربية المتحدة، يعمل في الصحافة منذ 1970. له ثماني روايات أدبية أبرزها · جحيم الراهب·، ·مجانين بوكا·، يحمل البكالوريوس والماجستير في الأدب الأنجليزي والدكتوراه في السينما والمسرح من السوربون الفرنسية حيثُ أقام في باريس أكثر من 27 عاماً، يكتُب بالعربية و الفرنسية و الإنكليزية و قد نال جائزة ابن بطوطة للرحلة العربية عن فئة اليوميّات.

شريف صالح

صحفيٌّ و كاتبٌ مصري مقيم في دولة الكويت، صدَرَ لهُ، ·بيضة على الشاطئ·، ·شخص صالح للقتل·، ·مثلّث العشق·، ·إصبع يمشي وحده ·، · شق الثعبان·، أما في المسرح فقد صدّر لهُ عن دائرة الثقافة و الإبداع في الشارقة مسرحية رقصةُ الديك و عن أيّام المسرح للشباب في دولة الكويت مسرحيَّة مقهى المساء، حازَ على جوائز أدبية عديدة في مصر و الكويت و الإمارات العربية المتحدة.

صبيحة شبر

كاتبة و قاصَّة و صحفيَّةٌ عراقية تقيم في المملكة المغربية، بدأت العمل الصحفي منذ عام 1960م، لتصدرَ بعد ذلك مجموعات قصصيّة هي ·التمثال ·، ·امرأة سيئة السمعة·، ·لائحة الإتّهام·، ·التابوت·، كما أصدرت أربع روايات أدبية، أبرزها ·الزمن الحافي· بالاشتراك مع الأنبا العراقي سلام نوري، ·أرواح ظامئة للحب·، فازت بلقب أفضل كاتبة في العالم العربي من المجلس العاالمي للصحافة عام 2009م.

صلاح زنكنة

كاتبٌ و قاص عراقي ولد في مدينة جلولاء عام 1959م، شغل مناصب عدّة في نقابات أدبية عراقية و عمل محرراً في ملحق جريدة القصة التي تصدر عن اتحاد الأدباء العراقيين، تعرَّضَ للإعتقال في فترات متفاوتة خلال حكم البعث للعراق، لهُ اصدارات عديدة كان آخرُها مجموعة · أقاصيص عائلة الحرب·.

طالب الرفاعي

روائي كويتي من مواليد عام 1958م، يحمل إجازة في الهندسة المدنية من جامعة الكويت عام 1982م، بدأ الكتابة الأدبية في أثناء دراستِهِ الجامعية منذ منتصف السبعينات ليُصدِر ست مجموعات قصصيّة و أربع روايات أدبية حيث ترجمت بعض أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية، كما رأَس لجنة التحكيم لجائزة البوكر العربية فى دورتها الثالثة لعام 2010.

طاهر الزراعي

قاص من المملكة العربية السعودية، صدَرَ لهُ مجموعتُهُ القصصيَّة · زبد و أقفال معلَّقة· عن دار فراديس في مملكة البحرين و مجموعة · حفاة · التي صدرَت بطبعتين، حيثُ يسعى طاهر الزراعي في أدبِهِ لنقد الواقع العربي من خلال تعرية زيف أفراده، وادعاءاتهم و تقديم رؤية خاصة عنه لهذا الواقع.

عبد الستار البيضاني

كاتبٌ عراقي ولِد في العاصمة بغداد عام 1958م، يحمل إجازة في الصحافة و الإعلام و مارَس العمل الصحفي في العديد من المؤسَّسات الإعلامية العربية، أصدر عام 1983م مجموعة قصصيَّة حملَت اسم ·أصوات عالية·، ليليها بمجموعة ·قلعة النساء· و من ثمَّ ·الثنائيات· و مجموعة ·مآتم تنكريَّة · التي تمَّ ترجمتها للإسبانية، أما في السرد الروائي فقد كان لهُ روايتان الأولى ·عطش على ضفاف الدانوب·، و الثانية ·لجوء عاطفي·.

غادة العيسي

كاتبة وطبيبة مصرية، بدأت خطواتها في عالم الإبداع بنشر مجموعتها القصصية الأولى ·حشيشة الملاك·، ومن ثم جاءت مجموعتها الثانية ·أولاد الحور·، والتي حازت بها على المركز الأول من قبل الهيئة العامة لقصور الثقافة، وجاءت قصتها ·مانوليا· والتي شاركت بها في جائزة نازك الملائكة، حيث حصلت على المركز الثالث.

فاطمة المزروعي

كاتبةٌ إماراتية وُلِدَت في العاصمة أبو ظبي، تحمِل إجازة في التاريخ و الآثار بتقدير امتياز من جامعة الإمارات، تكتب في الصحافة الإماراتية بشكل دائم وصدَر لها العديد من المؤلَّفات الأدبية أبرزها في مجال القصة القصيرة مجموعة ·ليلة العيد·، مجموعة ·وجه أرملة فاتنة· التي تمَّ ترجمتها إلى الألمانية، مجموعة· بشرى للنساء انقراض الرجال·، أما في الرواية فصدَرَ لها، ·كمائن العتمة·، ·زاوية حادّة·، حازت المزروعي على العديد من الجوائز الأدبية.

لطيفة باقة

كاتبةٌ مغربيَّةٌ وُلِدَت في مدينة سلا عام 1964 ، درست الأدب الحديث وعلم الاجتماع، وتشتغل حالياً كأستاذة مادة التواصل. في المجال الأدبي صدرت لها مجموعتان قصصيتان هما :·ما الذي نفعله؟· عام 1992م والتي فازت بجائزة الأدباء الشباب لاتحاد كتاب المغرب في ذات العام، و·منذ تلك الحياة· الصادرة عام 2005م، وقد ترجمت قصصها لعدة لغات من بينها الفرنسة والإسبانية والإنجليزية والألمانية.

لنا عبد الرحمن

كاتبةٌ و صحفيَّةٌ عراقية تقيم في مصر، تحملُ دكتوراة في الآداب و العلوم الإنسانية حيث تناولت في أطروحتِها السيرة الذاتية في الرواية النسائية اللبنانية، عملت في الصحافة المكتوبة منذ عام 2000م، صدَرَ لها في القصة مجموعتان· أوهام شرقية·، ·الموتى لا يكذبون·، أما في الرواية فقد صدَرَ لها عدة روايات ادبية، أبرزها ·حدائق السراب·· ثلج القاهرة·، كما لها العديد من الأبحاث و الدراسات النقدية الأدبية.

محمد خضير

كاتب و قاص عراقي وُلِدَ في البصرة عام 1942م، اشتغل في الحقل التربوي التعليمي، صدَرَ لهُ في القصة القصيرة· المملكة السوداء·، · في درجة 45 مئوي·، ·رؤيا خريف·، ·تحنيط·، ·حدائق الوجوه·، و في السرد الروائي صدَر له، ·سيرة مدينة بصرياثا·، ·كراسة كانون·، كما لهُ العديد من الإصدارات النقديَّة و قد تُرجِمَت بعض أعمالِهِ إلى الإنكليزية، و حازَ العديد من الجوائز العربية.

محمد ربيع الغامدي

أكاديميٌّ و باحثٌ سعودي، درسَ اللغة العربية و آدابها و حاز أعلى الدرجات العلمية فيها في تخصُّص اللغويات، النحو و الصوف حيث يعملُ أستاذاً في جامعة الملك عبدالعزيز في جدَّة،لهُ العشرات من الأبحاث و الدراسات الأكاديمية كما يشرِفُ على العديد من الأطروحات الجامعية بدرجتي الماجستير و الدكتوراة.

محمود الرحبي

قاصٌّ و كاتبٌ عُماني، يُعتَبَرُ من من الأصوات القصصية الخليجية اللافتة، حازَ على العديد من الجوائز الأدبية العربية، لهُ مجموعات قصصية متنوِّعة بدأت مع مجموعته الأولى، ·اللون البني· ثم مجموعة ·بركة النسيان·، كما فازت مجموعتُهُ · أرجوحة فوق زمنين · بالمركز الأوّل في جائزة دبي الثقافية بدورتها السادسة، أما مجموعتُهُ ·ساعة زوال· فقد فازت بجائزة السلطان قابوس للثقافة و الفنون و الآداب و نالَ على إثرِها وسام الاستحقاق العماني للثقافة و الفنون و الآداب.

محمود الريماوي

كاتبٌ و قاصٌّ وروائي أردني من أصولٍ فلسطينيَّة،وُلِدَ في بيت ريما في رام الله عام 1948م، عمل في الصحافة المكتوبة منذ أواخر الستينيات، أدبيًّاً صدرت له ثلاثة عشرة مجموعة قصصية وروايتان وكتابا نصوص، فازَ بجائزة فلسطين للقصَّة القصيرة عن مجموعته القطار، و قد تمَّ ترجمةُ بعض أعمالِهِ إلى الإنكليزية و الفرنسية.

محمود شقير

كاتبٌ فلسطيني، وُلِدَ في القدس عام 1941م، حاصل على إجازة في الفلسفة و علم الإجتماع من جامعة دمشق، لهُ أكثر من أربعةٍ و ثلاثين مؤلَّفاً في القصَّة و القصَّة القصيرة و أدب السيرة و أدب الأطفال، كما قدَّم للمسرح ست مسرحيَّات كما كان له حضور في الكتابة الدرامية للتلفزيون،تُرجِمَت أعمالُهُ إلى أكثر من عشر لغات عالميَّة و كان أدبُهُ موضوعاً للعديد من الأطروحات الأكاديمية.

هيفاء بيطار

طبيبةٌ تختصُّ بجراحةِ العيون و تمارسُ الكتابة القصصية و الروائية، و هي من مواليد مدينة اللاذقية في سوريا عام 1960م، لها انتاجٌ قصصي و روائي غزير يتنوَّع بتعدُّد مواضيعِها، من أبرز اصداراتها، في القصة القصيرة و الرواية،· وردة لن تموت·، ·قصص مهاجرة·، ·ضجيج الجسد·، ·غروب و كتابة·، ·خواطر مقهى رصيف·، ·فضاء كالقفص·، ·ظل أسود حي·، ·امرأة في الخمسين·. و غيرها.

مصطفى لغتيري

كاتبٌ و قاص مغربي، وُلِدَ في الدار البيضاء عام 1965م، مارس مهامَّهُ كعضو في المكتب التنفيذي لإتِّحاد كتَّاب المغرب لكنَّهُ ما لبثَ أن قدَّم استقالتَهُ بسبب عدم الديمقراطية و سوء إدارة الملفَّات و عدم الاستقلالية كما وردَ في بيانٍ وزَّعَهُ لوسائل الإعلام حينَها، صدَر له أكثر من عشرين إصداراً أدبيَّاً تنوَّعَ بين القصَّةِ و الرواية و النقد الأدبي و المقالات، كما حازت أعمالُهُ الأدبية على العديد من الجوائز داخل المغرب و خارجهُ.

ميسلون هادي

كاتبةٌ عراقيَّة وُلِدت في حي الأعظميَّة الشهير بالعاصمة بغداد، و تخرَّجت من كليَّة الإدارة و الإقتصاد في جامعة بغداد عام 1976م، عمِلَت في الصحافة الثقافية لفترة طويلة و لها العديد من الإصدارات المتنوِّعة بين القصّة و الرواية أبرزُها، ·الحدود البرية»، · نبوءة فرعون»، ·حلم وردي فاتح اللون»، ·العيون السود»، ·حفيد البي بي سي»، ·زينب وماري وياسمين»، ·أقصى الحديقة وقصص أخرى»، ·أجمل حكاية في العالم».

هشام البستاني

طبيب أسنان و أديب أردني وُلِد في العاصمة عمَّان عام 1975م، صدَرَت له عدد من المجموعات القصصيَّة وهي، ·عن الحب و الموت ·عن دار الفارابي، · الفوضى الرتيبة للوجود»، · مقدِّمات لا بدَّ منها لفناءٍ مؤجَّل» ، يكتب البستاني عن الواقع باحثاً من خلال المهمَّشين عن رؤية متفرِّدة جديدة للواقع الذي ينهار، تُرجمَت بعضُ نصوصه إلى الألمانية.

همدان دماج

كاتبٌ و روائيٌّ و قاصٌّ و شاعر يمني، وُلِد في صنعاء و يعيش بها الآن، يجمعُ في رصيده من الأعمال السردية والأدبية مجموعتان قصصيتان هما ·الذبابة· وكذلك · ربما لايقصدني· وعلى صعيد الشعر لهُ ديوان ·لا احد غيري»، يرأس دمَّاج تحرير مجلة غيمان ويعمل نائباً لرئيس مركز الدراسات والبحوث اليمني، و مايميز أدبياتهِ هو جمعها لثقافتين بين الشرق الغرب، كما حصَلَ على جائزة الشارقة للإبداع العربي عن روايتِه ·جوهرة التعكُّر».

وارد بدر السالم

قاصٌّ و روائي و صحفي عراقي، لهُ العديد من الإصدارات الأدبية أبرزُها، ·أصابع الصفصاف»، · المعدان»، · انفجار دمعة»، · انفجار قلب»، شبيه الخنزير»، ·مولد غراب»، ·جنَّةُ العميان»، ·عكس المقص»، · آخر حروب الرئيس» ، · الهندوس يطرقون باب السماء»، ·البار الأمريكي»، ·عجائب بغداد»، و غيرها كما لهُ العديد من الدراسات المنشورة.

وجدي الأهدل

مسرحي و روائي و قاص يمني، وُلِدَ في محافظة الحديدة، أصدَرَ أربع روايات أدبية و أربع مجموعات قصصية، و له نصٌّ مسرحيٌّ واحد،روايتُهُ ·قوارب جبليَّة· كانت صادمة و مفاجئة مما فرضَ عليه مغادرة اليمن إلى بيروت حيث أقام لفترةٍ من الزمن حيث عاد بعد ان رفضَ الروائي الألماني غونتر غراس وسام الاستحقاق اليمني إن لم يعد الأهدل ما دفعَ السلطات وقتها إلى اعطائه الأمان.

أحمد خلف

كاتبٌ و قاصٌّ عراقي، وُلِدَ في محافظة الديوانيَّة، و برزَ اسمهُ في الفن القصصي في العراق منذ ستينيات القرن الماضي مع قصَّتِهِ ·خوذة لرجل نصف ميِّت»،ثمَّ ليصدر بعدها مجموعته الأولى · نزهة في شوارع مهجورة · عام 1974م، تلتها مجاميع متعدِّدة منها، · منزل العرائس»، · خريف البلدة»، · تيمور الحزين»، رواية ·الخراب الجميل»، رواية ·موت الأب»، رواية ·الحلم العظيم»، ·في ظلال المشكيتو· و غيرها.

جميلة عمايرة

كاتبةٌ و قاصَّةٌ و روائيةٌ أردنية تقيم في العاصمة عمَّان، درست في جامعة فيلادلفيا، و بدأت الاصدار الأدبي مع أوَّل أعمالها عام 1993 بعنوان ·صرخة البياض· ليتبعها العديد من الاصدارات أبرزها · امرأة اللوحة»، · الدرجات»، بالأبيض و الأسود»، الحرب التي لم تقع»، لها مشاركات عديدة في المهرجانات الأدبية و معارض الكتاب.

محمود الوهب

كاتبٌ وصحفي وقاص سوري، يكتبُ بشكل دوري في عدد من المواقع الإلكترونية، له عدد من المؤلفات والمجموعات القصصية أبرزُها مجموعتهُ ·الصمت»، · تخاريف العم لطّوف»، التي حاكى الواقع المُعاش فيها معتمداً على تفاصيل الحياة التي تحدث مع البسطاء.

وافي بيرم

كاتب و قاص سوري من محافظة إدلب، وُلِدَ في بلدة معرة مصرين و يعمل في مجال الإخراج الفني والطباعي، وحالياً مخرج مجلة كش ملك ، يكتب القصة القصيرة والمقالة الساخرة ، لديه مجموعة قصصة تحت الطباعة و يقيم حاليا في مدينة مرسين التركية.

يزيد عاشور

كاتبٌ و قاص سوري من مواليد محافظة الحسكة عام 1962م، تنقَّل بين سوريا و السويد و الإمارات العربية المتحدة، و هو يعيش اليوم في السويد، درس الصحافة (Fölck hög skolan) حيث يكتب في العديد من المواقع الإلكترونية، كما نفَّذَ العديد من البرامج الإذاعية و له دراسات و مقالات منشورة.

اسلام أبو شكير

كاتب و قاص سوري مقيم في الإمارات العربية المتحدة، حيثُ يعمل كمدرِّس للغة العربية و مُنسِّق اعلامي في اتحاد كتاب و أدباء الإمارات، صدَرَ لهُ عدد من المجموعات القصصية هي، · أكبر من ثلاثين أصغر من أربعين» ، · 50 سلبي الأحمر و المشع» ·· استحواذ»، و صدرت له رواية تحت اسم · القنفذ».

ثائر زكي الزعزوع:

شاعر و كاتب و صحفي سوري مقيم في فرنسا، يحمل إجازة في الآداب و العلوم الإنسانية من جامعة دمشق، عمل لسنوات طويلة في الإعلام السوري، و صدر له العديد من المجموعات الشعرية و القصصية أبرزها، ·لأنَّه الوقت»، ·لأنَّكِ امرأة»، كما صدرت له رواية ·السلطان يوسف»، و رواية ·المسافر»، تعرَّض للإعتقاال خلال الانتفاضة السورية و غادر البلاد إثر الإفراج عنه.

خديجة النمر

قاصة سعودية، توجَّهَت إلى القارئ بمجموعتها الأولى ·الأفكار السابحة بين السماء والأرض»، الصادرة عن ·منشورات ضفاف اللبنانية»، بالتعاون مع ·دار أطياف· السعودية، حيثُ رصدَت من خلال هذه المجموعة القصصية أسئلتها الفلسفية والاجتماعية عبر 15 نصاً متفاوتاً بين التاريخي والأسطوري والرمزي.

حميد عبدالقادر

كاتب جزائري من مواليد عام1967، التحق بالصحافة بعد أن درس العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة الجزائر، حيثُ يعمل بيومية ·الخبر· منذ أكثر من عشرين سنة، صدر له العديد من الروايات الأدبية هي ·الانزلاق· و· مرايا الخوف· و·توابل المدينة».

سعاد خبيّة

كاتبة و قاصّة سورية من مواليد دوما في ريف العاصمة دمشق، تحمل إجازة في الآداب و العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، و لها دراسات خاصة دراسات قانونية وحقوقية في مجال القانون الدولي وحقوق الانسان ، عملت كمعدة برامج تليفزيونية و مراسلة صحفية، تكتب في العديد من المواقع الإلكترونية العربية.

سعد هادي

كاتب و قاص عراقي مقيم في النرويج و يعمل في الصحافة منذ عام 1975م، صدر لهُ العديد من الإصدارات الأدبية أبرزها، مجموعتان قصصيتان هما· الأسلاف في مكان ما»، ·طبيعة صامتة»، و صدرت له في الرواية العربية، · ليلى و القرد»، ·تجريد شرقي»، ·عصافير المومس العرجاء».

سهير شكري

كاتبةٌ و رسَّامةٌ مصريَّة، عملت في الحقل التعليمي حتَّى شغلت منصب مديراً عاماً في التربية و التعليم، أنجزت العديد من المعارض الفنيَّة التشكيلية، و أبرز اصداراتها الأدبية، ·ما زلت أنام جالسة»· أحلام الأفق الغائب»، حصلت على جائزة من رئاسة مجلس الوزراء المصري و المجلس القومي للامومة على مسيرتها الإنسانية و الأدبية.

صبحي الدسوقي

كاتب و صحفي سوري يقيم في تركيا، يكتب في القصة القصيرة منذ سبعينيات القرن الماضي، له العديد من الإصدارات الأدبية أبرزها مجموعتيه · الذي ترك المدينة»، ·القادمة من الشرايين»، كما لهُ العديد من المقالات و الدراسات الأدبية المنشورة.

علي السوداني

كاتب و قاص عراقي وُلد في العاصمة بغداد في أبريل نيسان من عام 1961م، درس في معهد النفط و تخرَّج منه في عام 1984م، صدر له العديد من الأعمال الأدبية أبرزها: ·المدفن المائي·، ·الرجل المنازل·، ·بوككو وموككو· ، ·ما تيسر له·، ·خمسون حانة وحانة·، ·كتاب مكاتيب عراقية من سفر الضحك والوجع»، · كتاب حانة الشرق السعيدة·.

علي المجنوني

كاتب و قاص سعودي، ولد في مكة المكرّمة عام 1982م، يحمل إجازة في اللغة الإنكليزية من جامعة أم القرى في مكة المكرمة، صدرت له مجموعة قصصية بعنوان ·طاولة الحزن· عن دار المفردات للنشر والتوزيع بالرياض 2009م.،مجموعة قصصية · لقمةٌ وأموت· عن نادي جدة الثقافي الأدبي، فاز بمسابقة للقصة القصيرة نظمها المجلس الثقافي البريطاني عام 2007م.

عمر علوي ناسنا

كاتب و قاص مغربي، ولد في جنوب المغرب في قرية اسمها قصر القصيبة بالرشيدية عام 1970م، صدر لهُ ·خبز الله نصوص بتنورات قصيرة·، ·وصايا الشيطان الطيب·، ·أفوريزمات·، ·خربشات طفولة معاصرة·، ·خارج التغطية·، ·مرافعات سردية·، ·حماقات شعرية· .

غسان جباعي

كاتب و مسرحي سوري،ولد في قطنا بالعاصمة السورية دمشق عام 1951، تعرَّض للإعتقال و قضى سنوات من حياته في معتقل تدمر الشهير في البادية السورية، له العديد من الأعمال المسرحية بينما في الحقل الأدبي صدر له مجموعات قصصية هي أصابع الموز، ثلاث مسرحيات، الوحل، رغوة الكلام.

كوليت بهنا

كاتبة وأدبية و سيناريست سورية، تعمل في الصحافة السياسية والثقافية، صدر لها في القصة القصيرة ثلاث مجموعات هي : ·الاعتراف الأول· ، · واو· ، · لوز مر· ، و تم ترجمة بعض قصصها للغة الألمانية.

محسن يونس

كاتب مصري، ولد في دمياط، له العديد من الأعمال الأدبية التي تتنوع في اصداراتها بين القصة القصيرة و الرواية السردية، حازت أعمالُهُ على اهتمام نقدي واسع.

منتصر القفاش

كاتب و قاص مصري، له العديد من الأعمال الأدبية أبرزها مجموعته القصصية، ·في مستوى النظر·، و التي تناول فيها حكايات عن الدور الأرضى الذى يراه جزءًا من البيت ومن الشارع نفسه، وكيف يؤثر سكان هذا الدور فى حياة العابرين إذا قرروا فتح شباكهم، فاز بجائزة سويرس الثقافية ، فرع القصة القصيرة لكبار الكتَّاب.

مزن مرشد

كاتبة و صحفية سورية مقيمة في فرنسا، تحمل إجازة في الصحافة و الإعلام من جامعة دمشق، لها العديد من المقالات و الدراسات المنشورة.

نجم الدين سمّان

كاتب سوري، ولد في مدينة إدلب عام 1959م، يحمل إجازة في الآداب و العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، و يعمل في الصحافة الثقافية و له العديد من المقالات المنشورة، و في مجال الأدب صدر لهُ في القصة القصيرة اصدارات متنوعة أبرزها: ·الأنفاس الأخيرة لعتريس» ، ·ساعة باب الفرج·، نون النسوة·، كما لهُ العديد من المسرحيات، و حاز العديد من الجوائز الأدبية.

هيثم حسين

ناقد وروائيّ ومترجم سوري مقيم في بريطانيا، ولد في عامودا عام 1978م، له ثلاث روايات أدبية· آرام سليل الأوجاع المكابرة·، ·رهائن الخطيئة·، إبرة الرعب·. وثلاثة كتب نقدية في الرواية: الرواية بين التلغيم والتلغيز»،·الروائيّ يقرع طبول الحرب·،·الرواية والحياة·، وله في الترجمة عن الكردية ،اللهجة الكرمانجية السورية، ·مَن يقتل ممو..؟!·· أرجوحة الذئاب· للكاتب الكردي بشير ملا.

نداء غانم

كاتبة ومترجمة وتربوية، أردنية فلسطينة مقيمة في الإمارات. حاصلة على بكالوريوس علوم حاسب آلي من جامعة الإمارات. صدر لها كتاب : ·خفيف كالهواء ثقيل كمروحة· عن الدار العربية للعلوم ناشرون عام 2014. مهتمة بالرسم والتصوير.

زياد خداش

كاتب و قاصٌ فلسطيني، وُلِدَ في القدس عام1964م و يقيم حاليّاً في رام الله، يعمل معلماً للكتابة الإبداعيةحيثُ يديرُ ورشات كتابة و لَهُ عدد من المجموعات القصصية أبرزُها ·إذا لم تكن لك حبيبة·، ·شتاء ثقيل وامرأة خفيفة·، ·أوقات جميلة لأخطائنا النضرة·، و·خذيني إلى موتي·.

نائل العدوان

كاتبٌ و شاعرٌ أردني، أقام سنوات من حياتِهِ في كندا، صدَر له المرفأ مجموعة قصصية ، رواية ·مذكِّرات من تحت بيت الدرج·، و مؤخَّراً صدرَ له ديوانُهُ الشعري الأول تحت عنوان ·نكاية بالشعراء·.

حسن ابو دية

شاعر و كاتبٌ و قاصٌ فلسطيني مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة، من إصداراته «ثلاثية العذاب» و«نقوش على خاصرة أيلون» و مجموعتهُ · جسد· ، يتَّخذ من الوطن، التراب، الصراع موضوعات لهُ فضلاً عن حضور الحب بين جنبات أعمالِهِ الأدبية.

آمال الأحمد

كاتبةٌ فلسطينية ولدت في مدينة نابلس، وتعيش في الإمارات منذ سنوات، درست فن تصميم الغرافيك، لكنَّها اتجهت إلى التدريس وعالم الطفولة، التحقت الكاتبة باتحاد كتاب الإمارات عام 2004، ونشرت قصصاً في صحف ومجلات إماراتية عدة و صدَرَ لها مجموعتها · شغبٌ أسفل القلب·.

فتحي الضمور

كاتبٌ أردني وُلِدَ عام 1971م حاصل على دبلوم في الأدب العربي عام 1991، عمل كمحرر وكمدقق لغوي في الكثير من المجلات والصحف الأردنية والعربية. لهُ مجموعة قصصية بعنوان · أبعد من ذلك · و يعمل حاليا رئيسا لقسم الموسيقى في وزارة الثقافة. حاصل على المركز الأول في مهرجان الغناء الأردني 2013.

هند جعفر

كاتبة مصرية وُلِدَت في مدينة الإسماعيلية عام 1985م،و تخرَّجَت من كليَّة الآداب قسم الإعلام من جامعة الزقازيق المصرية و تعيش حالياً في السكندرية حيثُ تعمل أخصائيَّة مخطوطات في قسم المخطوطات بجامعة الإسكندرية، درسَت مع بداية عام 2012م الفلسفة الهيلسينيَّة و تحضِّر رسالة الماجستير فيها الآن، صدرَ لها مجموعة قصصية حملت اسم ·عدودة·، و لها العديد من المقالات و الدراسات المنشورة في الصحافة العربية.

أسماء ابراهيم

كاتبةٌ مصرية، تخرجت من قسم الإعلام في جامعة عين شمس و تحضِّر ماجستير في النقد التلفزيوني، فضلاً عن عملها كمخرجة للأفلام التسجيلية في التلفزيون المصري،تكتب في العديد من الصحف المصرية و أبرز اصداراتها كتاب · ثورة دي ولّا انقلاب· الذي صدَر في كانون الثاني من عام 2014م.

سارة النمس

كاتبةٌ و قاصَّةٌ جزائرية، وُلِدت في تيارت الجزائرية عام 1989م، تحمل إجازة جامعية في الأدب الإنكليزي من جامعة فرحات عبَّاس في مدينة سطيف الجزائرية، صدَرَ لها،رواية · الحب بنكهة جزائرية·، مجموعة · الدخلاء · القصصية التي قدَّمت من خلالها الكاتبة مقاربة ومعالجة لعدد من الأوبئة الاجتماعية التي تتحكم بحياة الناس وتُقولبهم بقوالب متحجرة تفرض عليهم أنواعا معينة من السلوكيات

.رضوى فرغلي

طبيبةٌ مصريَّة تختصُّ في علم النفس، و تتعامل مع الكتابة بالطريقة نفسها التي تتعامل بها مع البشر، حيثُ تقيم معها علاقة حميمة تأتيها طواعية دون تفكير، تكتُب في موضوعات اشكالية و حسَّاسة و صادمة اجتماعياً و من أبرزها ·بغاء القاصرات·، و·أطفال الشوارع، الجنس والعدوانية· .

سعد القرش

كاتبٌ و روائيٌ و قاص مصري، يكتبُ في عدد من الصحف و المواقع الإلكترونية بشكل دائم و كانَ قد أصدرَ خلال السنوات الأخيرة الماضية ثلاثية روائية مهمة في تاريخ السرد المصري هي "أول النهار" "ليل أوزير" و"وشم وحيد"، فضلاً عن كتابِهِ الذي رصد تحوُّلات الثورة المصرية تحت عنوان" الثورة الآن"، بالإضافة إلى "حديث الجنود" و"باب السفينة" ومجموعتان قصصيتان هما "مرافئ للرحيل" و"شجرة الخلد"، وكتاب في أدب الرحلات عنوانه "سبع سماوات". كما حازَ على جائزة الطيب صالح في الرواية العربية.

إيمان سند

كاتبةٌ مصرية تعملُ رئيساً للمركز القومي لثقافة الطفل، صدَرَ لها أكثر من مائة عمل للأطفال، وتعد أشهر أعمالها المتميزة "اختفاء زهور الخشخاش"،" حكايات نورا" ، " الأميرة لا تنتظر""، تعلم والعب مع الحروف" وهى سلسلة رائدة في تعليم الأطفال الحروف والأرقام وصادرة عن الهيئة العامة للكتاب إلى جانب عشرات الكتب الموجهة للطفل والتي تخاطب كل مرحلة من مراحل النمو.

شريف عبد المجيد

قاص وسيناريست مصري صدر له أربع مجموعات قصصية، "مقطع جديد لأسطورة قديمة"، "خدمات ما بعد البيع»، "فرق توقيت" و"جريمة كاملة"، "تاكسي أبيض"، وصدر له عدد من الكتب الفنية، وحصل على المركز الأول بجائزة ساويرس عام 2008 للشباب فرع القصة القصيرة عن مجموعة "خدمات ما بعد البيع».

فاضل السباعي

كاتبٌ و روائيٌ و أديب سوري ذائع الصيت، وُلِد في مدينة حلب عام 1929م، و نشأ فيها ثمَّ أنهى دراسته في القاهرة باختصاص الحقوق ليتفرَّغ بشكلٍ نهائي للأدب منذ عام 1988م حيث أصدر العديد من الروايات الادبية و المجموعات القصصية التي استطاعت أن تحجز لنفسها مكاناً في الساحة الإبداعية العربية، أدَبُهُ كان محطَّ أنظار النقَّاد حيث سلَّطوا الضوء عليه في دراسات أدبية و أكاديمية منتشرة في أرجاء الوطن العربي.

تيسير النجار

كاتبٌ و صحفيٌ أردني، عضو رابطة الكتَّاب الأردنيين، أسَّس مجلة حياة شباب الأردن الورقية و التي حظيت باهتمام وقبول في المؤسسات العاملة في قطاع الشباب.كما يتعاون مع وكالة الأنباء الأردنية بترا، صاحب أول كتاب مراسلات أدبية أردنيًا: 'مراسلات عيسى الناعوري مع نازك الملائكة' كما أصدرَ شعريَّاً 'خروج مؤقت' و'ملمس غامض'،كما صدر لهُ كتاب "أنثى عذراء كلَّ يوم ".

أنيس الرفاعي

قاص مغربي شاب، عرف مغربيا وعربيا من خلال اشتغاله على جماليات التجريب عبر إصدارته القصصية، حيث قدم قصصاً لا تلمس فيها أسس كتابة القصة القصيرة التقليدية المعروفة، "علبة البندورة"، و"اعتقال الغابة في زجاجة"، و"ثقل الفراشة فوق سطح الجرس»، و"البرشمان"، و"السيد ريباخا" و"فضائح فوق الشبهات"و " الشركة المغربية لنقل الأموات".

رشا عبّاس

قاصَّةٌ و كاتبةٌ سوريَّة ، اشتغلت على التفاصيل اليومية الحياتية في إصداراتها الأدبية التي تُعتَبَر مجموعتها القصصية "آدم يكره التلفزيون" أبرزها و هي أحد الكتب الفائزة بمسابقة احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية في العام 2008 .

صابر رشدي

كاتبُ و قاص مصري، تأخَّر في النشر سنوات طويلة حيثُ أصدر مجموعته القصصية الأولى "شخص حزين يستطيع الضحك" الصادرة عن دار بيت الياسمين للنشر، لهُ بعض المقالات و الدراسات المنشورة و القصص غير المنضوية في مجموعات.

عاصم الباشا

كاتبٌ و نحَّات سوري وُلِد في بيونس آيرس في الأرجنتين عام 1948م، لأب سوري و أم أرجنتينية، تميَّزَ عالمياً و عربياً في فن النحت كما أنَّ له العديد من الإصدارات الأدبية أبرزها، رواية "بعض من أيام أُخَر"، و له في القصة القصيرة، "رسالة في الأسى"، باكراً في صلاة العشاء" ، كما حاز كتابه "الشامي الأخير في غرناطة" على "جائزة ابن بطوطة"، فرع اليوميات (2009).

عبدالقادر حكيم

كاتبٌ و قاص أرتيري، عاش مراحل طويلة من حياتِهِ في السودان، لهُ اهتمام كبير في القصة القصيرة حيث له العديد من القصص المنشورة.

عيسى جاد الكريم

صحفي و كاتب مصري، يشغل موقع نائب رئيس قسم الإقتصاد في جريدة روز اليوسف المصرية، له نشاط أدبي في حقل القصة القصيرة من خلال العديد من الإصدارات الأدبية.

فهد الأسدي

كاتب و قاص عراقي راحل،من أبرز اصداراتِه الأدبية "حلب بن غريبة" و"طيور السماء"، و الأسدي من أبرز قصاصي جيل الستينيات العراقي، حيث عرف باشتغالاته القصصية والروائية على شخصيات ومناطق الأهوار جنوب العراق التي ينحدر منه، بحيثُ مثَّل الأسدي في حياتِهِ و في رحيلِه مشروعا كبيرا، وتاريخيا مهما في مسار القصة العراقية، وله بصمات واضحة عليها، وهو احد كتاب الواقعية العراقية الفنية الذين تمسكوا ، خلال إبداعاته ، بروحها وأصالتها.

ماهر منزلجي

طبيب و قاص سوري مقيم في لندن، صدَر له العديد من الأعمال الأدبية و أبرزها، عالم مختلف عن دار كنعان للنشر و التوزيع، متى يصبح الإنسان شجرة، التباس.

محمد فطومي

كاتب و قاص من تونس، يكتب في الصحافة بشكل دائم، حازَ على المركز السادس لأفضل كاتب قصة في الوطن العربي بحسب تقييم المجلس الأعلى للصحافة العالمية عام 2010م، لهُ العديد من الإصدرات الأدبية أبرزها،" زبد و رخام" الصادرة عن المكتبة المصرية،

ممدوح عبدالستار

كاتبٌ و روائي و قاص مصري، صدَرَ له العديد من الأعمال الأدبية المتنوعة بين الرواية و القصة القصيرة أبرزها، رواية " الدلجموني(أوراق ميت)"،ورواية "منامة الشيخ(ميراث الفتنة)"،ورواية " السامري" و رواية" للعشق الحرام"، .وقد فاز بأكثر من جائزة عربية،ومصرية،منها جائزة سعاد الصباح في الرواية والقصة القصيرة،وجائزة دبي الثقافية في القصة القصيرة،وجائزة نادي القصة،وجائزة إحسان عبد القدوس.

موسى الثنيان

كاتبٌ و قاص سعودي، له مشاركات عديدة في المهرجانات الأدبية و أبرز اصداراتِه الأدبية" قيامة الورق" ، مجموعته الصادرة عن نادي المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية.

نهى الصراف

كاتبة و صحفية و قاصة عراقية، لها العديد من الإصدارات الأدبية أبرزها مجموعتها، "خمسة ميل"، التي فازت بها في جائزة الشارقة للإبداع، تكتب في الصحافة العربية و لها العديد من المقالات المنشورة.

أحمد اسماعيل زين

كاتب و قاص سعودي، و لد في مدينة جازان، له العديد من المجموعات القصصية أبرزها،" أصداء الأزقة"، "زامر الحي" ، كما لهُ بعض المشاركات المسرحية و حاز عدداً من الجوائز الأدبية.

أحمد سعيد نجم

كاتب فلسطيني عاش حياته في سوريا، ولد في مدينة صيدا في لبنان عام 1950م، تلقى تعليمه في دمشق في المراحل الثلاث، عمل في حقل التعليم في مدارس العاصمة دمشق، لينتقل بعد ذلك للعمل الصحفي حيث له العديد من المقالات و الدراسات المنشورة، احترف كتابة القصة القصيرة حيث له اصدارات متنوعة في هذا المجال.

ابراهيم صامويل

كاتب من سوريا - من مواليد "دمشق" 1951، يحمل إجازة في الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق عام 1982 . عشق منذ صغره القصة القصيرة، وأخلص لكتابتها عندما كبر.

صدر له : "رائحة الخطو الثقيل 198"، "النحنحات"، "الوعر الأزرق"، "فضاءات من ورق".

ترجمت قصصه إلى اللغات : الإنجليزية، الفرنسية، الصينية وغيرها. قضى الكاتب سنوات طويلة في السجن السياسي بسبب آرائه.

مهند يونس

كاتب من فلسطين، مقيم في غدة ويدرس الصيدلة، له مجموعة قصصية تحت عنوان "أوراق الخريف"، حصل على جائزة الأجناس الأدبية التي تقدمها وزارة التربية والتعليم بغزة عن فرع المقال لعام 2014، وحصل على جائزة العودة التي يقدمها مركز بديل، لعام 2015 عن حقل قصص الأطفال.

سماح الشيخ

كاتبة من فلسطين مقيمة في غزة لها العديد من القصص المنشورة والمترجمة الى لغات عدة. لها مجموعة شعرية تحت عنوان "عطب أحمر"، ورواية تحت عنوان "عيراف" نشرت في القاهرة 2014، عملت محررة لعدد من الكتب وفي مجال التدريب المسرحي والإذاعي.

سماح إبراهيم موسى دبور

ولدت في غزة عام 1982، درست برمجة الكمبيوتر وعملت بها، نشرت بعض كتاباتها (قصص قصيرة، ونصوص نثرية) في مجلات مطبوعة وإلكترونية، عملت محررة لصفحة نسائية في جريدة تصدر داخل الخط الأخضر.

هند جودات جودة

كاتبة فلسطينية من مواليد غزة 1983 تكتب الشعر والقصة القصيرة. مديرة تحرير مجلة 28 الأدبية الثقافية.

صدرت لها مجموعة شعرية بعنوان "دائماً يرحل أحد" في العام 2014 عن دار موزاييك للنشر- الأردن. حاصلة على جائزة المرأة المبدعة للعام 2015.

وسام نبيل المدني

كاتبة وشاعرة من فلسطين لها كتاب قصصي تحت عنوان "ياء"، وقصص منشورة في كتب جماعية، منها "أحلام لا تموت" برعاية اتحاد الكتاب - رام الله، و كتاب "حصاد الظل" المطبوع برعاية مؤسسة الثقافة والفكر الحر. عضو في مجموعة يوتوبيا وجمعية المرأة المبدعة.

فكر حر وإبداع جديد

www.aljadeedmagazine.com

القصة

حكاية فيديو عقلي

هيثم الزبيدي

القصة شيء استثنائي. نحن نتذكر القصة بسهولة أكبر من أي شيء آخر تقريبا، بما فيها تجاربنا الخاصة ومشاهداتنا في الحياة. وعدا عن أصحاب ما يسمى بالذاكرة الفوتوغرافية، ممن يتمكنون من استحضار كل شيء تقريبا، فإن الفرد العادي يجد معاناة مستمرة مع الذاكرة، إلا مع القصة.

لعل القصة هي ابداع العقل البشري للاحتفاظ بالأفكار والذكريات. يفكك العقل القصة ويتركها شتاتا في الذاكرة، ثم يستعيدها ويتذكرها معتمدا على القدرة الذهنية في اعادة انتاج الحكاية من تلك العناصر المبعثرة. عمليا يعيد العقل تأليف القصة في كل مرة يستدعيها.

ليس من قبيل المصادفة أن الكتب السماوية تبدأ بالقصص، قصص الأنبياء وقصص التجارب البشرية. كل مؤمن يمكن له ان يستعيد قصة الرسل حتى وان كان عاجزا عن تذكر الآيات نصا. الجميع تقريبا يستطيع استنتاج الحكمة والعبر من القصص الديني. هذه الأداة خارقة فعلا.

أمهاتنا وجداتنا عرفن غريزيا ما يمكن للقصة أن تفعله مع الطفل. هذه الرابطة الشفاهية هي ما يعلق بأذهاننا عندما نكبر. نستذكر تلك الليالي التي تروي لنا الجدات الحكاوي قبل ان ننام. كان شرط الطاعة المسائية للطفل هو ان تروي له امه حكاية لكي يستكين ويهدأ قبل الذهاب إلى السرير.

عندما تستمع لقصة او تقرأها فإنك تحول الكلمات إلى مشهدية في عقلك. تستطيع ان ترى الشخوص وتحركها لتتلاءم مع الحكاية. هناك فيديو عقلي ينتج لحظيا. بعض القصص تعيش معنا طول العمر ونسترجعها في الوعي او في الأحلام.

هذا الفيديو العقلي يقف اليوم أمام تهديد حقيقي وملموس. فالحضارة التكنولوجيا المعاصرة صارت تنتج الفيديو البصري بتنويعاته المختلفة مما يجعل الخيال القصصي محاصرا. خيال الكاتب وخيال القارئ.

بدأت المشكلة مبكرا. القصص المصورة، الكوميكس، كانت مرافقة في صعودها للسينما، أي في بدايات القرن العشرين. تقرأ الحكاية بصريا على ورق مجلة او تشاهدها على شاشة سينما فتختصر الكثير من الوقت، ومن الخيال.

الكوميكس والسينما كانا استعراضا أوليا للقادم الأكبر: التلفزيون. الأطفال والكبار تسمروا أمام الشاشة ليشاهدوا افلام الكارتون والمسلسلات وعروضا للأفلام. الحكايات صارت ترسل الى البيت مساء بدلا من الذهاب الى صالات العرض او شراء مجلة القصص المصورة. ومع الالوان، صار التلفزيون أهم قصة في حياتنا.

كان النهار للقصة والرواية والمطالعة بانواعها، وكان المساء للتلفزيون، وكان بعض الليل للمطالعة ثانية.

مرة اخرى تغير المشهد. صار التلفزيون، عبر اشرطة الفيديو أولا ومن ثم عبر الفضائيات، هو تلفزيون كل ساعة وبعدد لا يبدو متناهيا ابدا. هناك ما يمكن ان تشاهده من القصص والحكايا دائما على قناة ما من مئات القنوات.

ثم جاءت الانترنت ومعها الفيديو الخاص بها. بقية القصة معروفة.

التحذيرات صارت تتوالى: لا تتركوا أولادكم لساعات طويلة أمام شاشات التلفزيون؛ لا تتركوا انفسكم طويلا أمام شاشات الكمبيوتر؛ قراءة قصة أو رواية أهم من قراءة دردشات الفيسبوك.

عبثا كانت مثل هذه التحذيرات.

كل ساعة أمام شاشة الكمبيوتر او التلفزيون هي ساعة بعيدة عن الخيال. هي ساعة استكانة للتلقي بدلا من ساعة من الفاعلية. صار البعض يشكو أنه ما عاد حتى يحلم في الليل. الفيديو العقلي، مولّد المشاهد، كان متخما بمشاهد الفيديو التي تنصب عليه خلال النهار والمساء.

الانقلاب على الخيال صار يبحث عن المبررات. حتى فكرة انك تستطيع ان تشاهد رواية على شاشة السينما خلال ساعتين بدلا من "اضاعة الوقت" في مطالعتها مكتوبة ما عادت تستقيم. بالعكس، نحن نريد روايات تملأ ثلاثين ساعة رمضانية او حكايات تمتد لمئات الحلقات التلفزيونية. نحن نعشق الإطالات الآن أكثر من أي وقت مضى.

تبدد نشاط فكري كبير هو نشاط ارتبط بالحكاية والقصة والرواية، كعطاء من الكاتب وكنشاط من المتلقي. القصة والرواية اليوم محاصرتان. الحدوتة الشفاهية أيضا محاصرة. هي فنون جميلة تعاني حقا ويبدو مستقبلها في خطر.

لا نعرف إلى أي مدى يمكن لهذه الفنون الجميلة أن تصمد. كم من الوقت سيمضي قبل ان ييأس كاتب القصة القصيرة ويتوقف عن الكتابة لغرض الخيال ويكتفي بالكتابة، ان اتيحت له الفرصة، لصالح عمل تلفزيوني؟ لا نعرف.

ربما يأتي الرد الآن من بعض المشاركين في هذا العدد الخاص من المجلة. المبدعون لديهم دائما القدرة على التكيف مع بيئة متحركة ومتغيرة. سيردون بتطوير ملكاتهم الفكرية والإبداعية. لكن المهمة لن تكون سهلة بالتأكيد.

حتى يأتي وقت الرد سيبقى الأولاد أمام شاشات الكمبيوتر للعب والمشاهدة، وسيبقى ذهن الجدات مركزا على مسلسل تركي طويل يعرض في واحدة من الفضائيات. ولّى زمن حكايات الجدات ■

كاتب من العراق مقيم في لندن